الوجيز

من التحرير و التنوير

للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

(1879م- 1973م / 1296هـ- 1393هـ)

الجزء العاشر

(من سورة يس إلى سورة الجاثية)

محمد بن عبد القادر الزغواني

2024م / 1446هـ

بسم الله الرحمان الرحيم

الإهداء

إلى أئمتنا و دعاتنا وطلبة العلوم الشرعيّة

إلى كلّ العاملين في مجال الدعوة،

السالكين سبل الهداية، والمبشّرين بها بين النّاس

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يس

سُمِّيت هذه السورة (**يس**) بمسمَّى الحرفين الواقعين في أوّلها في رسم المصحف لأنّها انفردت بها فكانا مميزين لها عن بقية السور، فصار منطوقهما علما عليها. وكذلك ورد اسمها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

روى أبو داود عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" اقرأوا يس على موتاكم ".**

وبهذا الاسم عنونها البخاري والترمذي في كتابي التفسير.

ودعاها بعض السلف (**قلب القرآن**) لوصفها في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" إنّ لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس "** ، رواه الترمذي عن أنس، وهي تسمية غير مشهورة.

ورأيت مصحفا مشرقيا نسخ سنة 1078 أحسبه في بلاد العجم عنونها (**سورة حبيب النجار**) وهو صاحب القصة { وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى } [20] كما يأتي. وهذه تسمية غريبة لا نعرف لها سندا.

وهي **مكّية**، وحكى ابن عطية الاتفاق على ذلك.

وهي السورة **الحادية والأربعون في ترتيب النزول** في قول جابر بن زيد الذي اعتمده الجعبري، نزلت بعد سورة الجن وقبل سورة الفرقان.

وعدَّت آياتها عند جمهور الأمصار <u>اثنتين وثمانين</u>. وعدت عند الكوفيين <u>ثلاثا وثمانين</u>.

أغراض السورة

*/ التحدِّي بإعجاز القرآن بالحروف المقطّعة، وبالقسم بالقرآن تنويها به، وأدمج وصفه بالحكيم إشارة إلى بلوغه أعلى درجات الإحكام. والمقصود من ذلك تحقيق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وتفضيل الدين الذي جاء به في كتاب منزل من الله.

*/ أنّ القرآن داع لإنقاذ العرب الذين لم يسبق مجيء رسول إليهم، لأنّ عدم سبق الإرسال إليهم تهيئة لنفوسهم لقبول الدين إذ ليس فيها شاغل سبق يعزّ عليهم فراقه أو يكتفون بما فيه من هدى.

*/ وصف إعراض أكثرهم عن تلقّي الإسلام، وتمثيل حالهم الشنيعة، وحرمانهم من الانتفاع بهدي الإسلام وأنّ الذين اتبعوا دين الإسلام هم أهل الخشية، وهو الدين الموصوف بالصراط المستقيم.

*/ ضرب المثل لفريقي المتبعين والمعرضين من أهل القرى بما سبق من حال أهل القرية الذين شابه تكذيبهم الرسل تكذيب قريش.

*/ كيف كان جزاء المعرضين من أهلها في الدنيا وجزاء المتبعين في درجات الآخرة.

*/ ضرب المثل بالأعم وهم القرون الذين كذبوا فأُهلِكوا.

*/ الرثاء لحال الناس في إضاعة أسباب الفوز كيف يسرعون إلى تكذيب الرسل.

*/ تخلّص إلى الاستدلال على تقريب البعث وإثباته بالاستقلال تارة وبالاستطراد أخرى.

*/ الامتنان بالنعمة التي تتضمنها تلك الآيات.

*/ دلالة تلك الآيات والنعم على تفرّد خالقها ومنعمها بالوحدانية، إيقاظا لهم.

*/ تذكيرهم بأعظم حادثة حدثت على المكذبين للرسل والمتمسكين بالأصنام من الذين أرسل إليهم نوح نذيرا، فهلك من كذب، ونجا من آمن.

*/ سيقت دلائل التوحيد المشوبة بالامتنان للتذكير بواجب الشكر على النعم بالتقوى والإحسان وترقّب الجزاء

*/ الإقلاع عن الشرك والاستهزاء بالرسول واستعجال وعيد العذاب.

*/ حُذِّروا من حلول العذاب بغتة حين يفوت التدارك.

*/ ذُكِّروا بما عهد الله إليهم مما أودعه في الفطرة من الفطنة.

*/ الاستدلال على عداوة الشيطان للإنسان.

*/ ردّ العجز على الصدر فعاد إلى تنزيه القرآن عن أن يكون مفترى صادرا من شاعر بتخيّلات الشعراء.

*/ تسلية الله رسوله صلى الله عليه وسلم ألّا يحزنه قولهم وأنّ له بالله أسوة إذ خلقهم فعطَّلوا قدرته عن إيجادهم مرة ثانية.

*/ قامت السورة على تقرير أمهات أصول الدين على أبلغ وجه وأتمّه من إثبات الرسالة، ومعجزة القرآن، وما يعتبر في صفات الأنبياء وإثبات القدر، وعلم الله، والحشر، والتوحيد، وشكر المنعم، وهذه أصول الطاعة بالاعتقاد والعمل، ومنها تتفرّع الشريعة.

*/ إثبات الجزاء على الخير والشر مع إدماج الأدلة من الآفاق والأنفس بتفنّن عجيب.

فكانت هذه السورة جديرة بأن تسمَّى **قلب القرآن** لأنّ من تقاسيمها تتشعّب شرايين القرآن كله.

{ **يس** } [1]

القول فيه كالقول في الحروف المقطّعة الواقعة في أوائل السور.

ومن الناس من يدّعي أنّ **يس** اسم من أسماء النبيّ صلى الله عليه وسلم. قال ابن العربي قال أشهب: سألت مالكا هل ينبغي لأحد أن يسمِّي يس؟ قال: ما أراه ينبغي لقول الله تعالى { يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ } يقول هذا: اسمي يس.

{ **وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ [2] إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ [3] عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [4]** }.

القسم بالقرآن كناية عن شرف قدره وتعظيمه عند الله تعالى، وذلك هو المقصود من الآيات الأول من هذه السورة. والمقصود من هذا القسم تأكيد الخبر مع ذلك التنويه.

{ **الْقُرْآنِ** } علَم بالغلبة على الكتاب الموحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم من وقت مبعثه إلى وفاته للإعجاز والتشريع، وتقدّم في قوله تعالى { وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ } [يونس:61].

{ **الْحَكِيمِ** } يجوز أن يكون بمعنى المحكَم (بفتح الكاف)، أي: المجعول ذا إحكام.

الإحكام: الإتقان بماهية الشيء فيما يراد منه.

ويجوز أن يكون بمعنى صاحب الحكمة، ووصفه بذلك مجاز عقلي لأنّه محتو عليها.

{ **إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** } جواب القسم، وتأكيد هذا الخبر بالقسم وحرف التأكيد ولام الابتداء باعتبار كونه مرادا به التعريض بالمشركين الذين كذَّبوا بالرسالة، فهو تأنيس للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتعريض بالمشركين، فالتأكيد بالنسبة إليه زيادة تقرير وبالنسبة للمعنى الكنائي لردّ إنكارهم.

{ **عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } خبر ثان لـ (إنَّ)، أو حال من اسمها. والمقصود منه: الإيقاظ إلى عظمة شريعته بعد إثبات أنّه مرسل كغيره من الرسل.

{ **عَلَى** } للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى التمكّن، كما في قوله { أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ } [البقرة:5]. وليس الغرض من الإخبار إفادة كونه على صراط مستقيم لأنّ ذلك معلوم حصوله من الإخبار من كونه أحد المرسلين، ولكن الغرض الجمع بين حال الرسول عليه الصلاة والسلام وبين حال دينه ليكون العلم بأن دينه صراط مستقيم علما مستقلا لا ضمنيا.

الصراط المستقيم: الهدى الموصل إلى الفوز في الآخرة، وهو الدين الذي بُعث به النبيّ صلى الله عليه وسلم، والخُلُق الذي لقّنه الله. فالإسلام فيه الهدى في الحياتين فمتَّبعه كالسائر في صراط مستقيم لا حيرة في سيره تعتريه حتّى يبلغ المكان المراد. والقرآن حاوي الدين فكان القرآن من الصراط المستقيم.

{ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ [5] لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ [6] }.

راجع إلى { الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ } [2] إذ هو المنزَّل من عند الله، فبعد أن استوفى القسم جوابه رجع الكلام إلى بعض المقصود من القسم وهو تشريف المقسم به فوُسِم بأنّه { تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ }.

{ **تَنْزِيلَ** } قرأه الجمهور بالرفع { تَنْزِيلُ } على أنّه خبر مبتدأ محذوف للعلم به. وذلك أنّهم إذا أجروا حديثا على شيء ثم أخبروا عنه التزموا حذف ضميره الذي هو مسند إليه إشارة إلى التنويه به كأنه لا يخفى.

وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بنصب { تَنْزِيلَ } على تقدير: أعني. والمعنى: أعني من قسمي قرآنا نزَّلته، وتلك العناية زيادة في التنويه بشأنه وهي تعادل حذف المسند إليه الذي في قراءة الرفع.

التنزيل: مصدر بمعنى المفعول أخبر عنه بالمصدر للمبالغة في تحقيق كونه منزلا.

{ **الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ** } أضيف التنزيل إلى الله بعنوان هذين الصفتين لأنّ ما أشتمل عليه القرآن لا يعدو أن يكون من آثار عزة الله تعالى، وهو ما فيه من حمل الناس على الحق وسلوك طريق الهدى دون مصانعة ولا ضعف مع ما فيه من الإنذار والوعيد على العصيان والكفران.

وأن يكون من آثار رحمته، وهو ما في القرآن من نصب الأدلة وتقريب البعيد وكشف الحقائق للناظرين، مع ما فيه من البشارة للذين يكونون عند مرضاة الله تعالى.

{ **لِتُنْذِرَ** } اللام متعلقة بـ { تَنْزِيلَ } وهي لام التعليل، تعليلا لإنزال القرآن.

واقتصر على الإنذار لأنّ أول ما ابتدئ به القوم من التبليغ إنذارهم جميعا بما تضمنته أوّل سورة نزلت (**العلق**)، وما تضمّنته سورة (**المدثر**)، لأنّ القوم جميعا كانوا على حالة لا ترضي الله تعالى.

{ **قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ** } إمّا العرب العدنانيون، فإنّهم مضت قرون لم يأتهم فيها نذير، وإنّما يُبتدأ عدُّ آبائهم من جدّهم الأعلى في عمود نسبهم الذين تميَّزوا به وهو **عدنان** (العرب المستعربة).

أو أريد أهل مكة، وإنّما باشر النبيّ صلى الله عليه وسلم في ابتداء بعثته دعوة أهل مكة وما حولها فكانوا هم الذين أراد الله أن يتلقّوا الدين وأن تتأصّل منهم جامعة الإسلام ثم كانوا هم حملة الشريعة وأعون الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغ دعوته وتأييده. فانضم إليهم أهل يثرب، وهم قحطانيون، فكانوا أنصارا ثم تتابع إيمان قبائل العرب.

{ **فَهُمْ غَافِلُونَ** } تفريع، أي: فتسبب على عدم إنذار آبائهم أنّهم متّصفون بالغفلة وصفا ثابتا، أي: فهم غافلون عمّا تأتي به الرسل والشرائع فهم في جهالة وغواية.

الغفلة: صريحها الذهول عن شيء وعدم تذكّره، وهنا كناية عن الإهمال والإعراض عما يحق التنبّه إليه.

{ **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** } [7].

هذا تفصيل لحال القوم الذين أُرسل محمد صلى الله عليه وسلم لينذرهم، فهم قسمان: قسم لم تنفع فيه النذارة، وقسم اتّبعوا الذكر وخافوا الله فانتفعوا بالنذارة. وبيَّن أن أكثر القوم حقّت عليهم كلمة العذاب، أي: عَلِم الله أنّهم لا يؤمنون، فحقَّق في علمه وكتب أنّهم لا يؤمنون.

{ **حَقَّ** } بمعنى ثبت ووقع فلا يقبل نقضا.

{ **الْقَوْلُ** } مصدر، ما أراده الله تعالى بهم، فهو من قبيل الكلام النفسي، أو ممّا أوحى الله به إلى رسله.

{ **إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ** } [8]

بدل اشتمال من الجملة السابقة [7]، فإن انتفاء إيمانهم يشتمل على ما تضمّنته هذه الآية من جعل أغلال في أعناقهم حقيقة أو تمثيلا.

الجعل: تكوين الشيء، أي: جعلنا حالهم كحال من في أعناقهم أغلال فهي إلى الأذقان فهم مقمحون، فيجوز أن يكون تمثيلا بأن شُبِّهت حالة إعراضهم عن التدبر في القرآن ودعوة الإسلام والتأمّل في حججه الواضحة بحال قوم جُعلت في أعناقهم أغلال غليظة ترتفع إلى أذقانهم فيكونون كالمقمحين، أي: الرافعين رؤوسهم الغاضين أبصارهم لا يلتفتون يمينا ولا شمالا فلا ينظرون إلى شيء مما حولهم، فتكون تمثيلية.

ويجوز أن يكون وعيدا حقيقيًّا بما سيحلّ بهم يوم القيامة حين يساقون إلى جهنم في الأغلال كما أشار إليه قوله تعالى { إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ } [غافر:71/ 72]، فيكون فعل { جَعَلْنَا } مستقبلا وعُبِّر عنه بصيغة الماضي لتحقيق وقوعه. أي: سنجعل في أعناقهم أغلالا.

{ **فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ** } لتحقيق كون الأغلال ملزوزة إلى عظام الأذقان بحيث إذا أراد المغلول منهم الالتفات أو أن يطأطئ رأسه وجعه ذقنه فلازم السكون.

الأغلال: جمع غُلّ (بضم الغين)، وهو حلقة عريضة من حديد كالقلادة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ } [الرعد:5].

المُقْمَحُ: بصيغة اسم المفعول المجعول قامحاً، أي: رافعاً رأسه ناظراً إلى فوقه يقال: قمحه الغل، إذ جعل رأسه مرفوعا وغض بصره، فمدلوله مركّب من شيئين.

الأذقان: جمع ذقن بالتحريك، وهو مجتمع اللحين.

{ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ } [9]

{ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً } هذا ارتقاء في حرمانهم من الاهتداء، بأنّ فظاظة قلوبهم لا تقبل الاستنتاج من الأدلة والحجج بحيث لا يتحوّلون عمّا هم فيه، فمُثِّلت حالهم بحالة من جُعِلوا بين سدَّين، أي: جدارين.

{ سَدّاً } تقدّم في [الكهف:94].

{ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ } تفريع على كلا المفعولين { جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ - وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ }، لأنّ في كلا الفعلين مانعا من أحوال النظر.

الإغشاء: وضع الغشاء. وهو ما يغطي الشيء. والمراد: أغشينا أبصارهم، ففي الكلام حذف مضاف دلّ عليه السياق وأكّده التفريع بقوله { فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ } .

{ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [10].

عطف على جملة { لا يُبْصِرُونَ } [9]، أي: إنذارك وعدمه سواء بالنسبة إليهم.

{ عَلَيْهِمْ } حرف (عَلَى) معناه الاستعلاء المجازي وهو هنا للملابسة، متعلّق بـ { سَوَاءٌ } الدال على معنى (استوى)، وتقدّم نظيرها في [البقرة:6].

{ أَأَنْذَرْتَهُمْ } همزة التسوية أصلها الاستفهام ثم استُعمِلت في التسوية على سبيل المجاز المرسل، وشاع ذلك حتّى عُدَّت التسوية من معاني الهمزة لكثرة استعمالها في ذلك مع كلمة (سواء) وهي تفيد المصدرية. ولما استعملت الهمزة في معنى التسوية استعملت (أَمْ) في معنى الواو.

{ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ } [11].

لمّا تضمَّن قوله { وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ } [10] أنّ الإنذار في جانب الذين حقّ عليهم القول أنّهم لا يؤمنون، هو وعدمه سواء، وكان ذلك قد يوهم انتفاء الجدوى من الإنذار والدعوة، أعقِب ببيان جدوى الإنذار بالنسبة لمن اتَّبع الذكر وخشي الرحمان بالغيب.

{ الذِّكْر } القرآن.

الاتباع: حقيقته الاقتفاء والسير وراء سائر، وهو هنا مستعار للإقبال على الشيء والعناية به، فاتباع الذكر تصديقه والإيمان بما فيه، لأنّ التدبّر فيه يفضي إلى العمل به.

وكان المشركون يعرضون عن سماع القرآن ويصدُّون الناس عن سماعه، ويبيّن ذلك ما في قصة عبد الله بن

أبي بن سلول في مبدأ حلول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة: " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بمجلس عبد الله بن أبي فنزل فسلم وتلا عليهم القرآن حتّى إذا فرغ قال عبد الله بن أبي: " يا هذا إنّه لا أحسن من حديثك إن كان حقا، فأجلس في بيتك فمن جاءك فحدِّثه ومن لم يأتك فلا تَغُتَّه به ".

{ **وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ** } لمّا كان الإقبال على سماع القرآن مفضيا إلى الإيمان بما فيه أتبِعت صلة { اتَّبَعَ الذِّكْرَ } بهذه الجملة، فكان المراد من اتباع الذكر أكمل أنواعه الذي لا يعقبه إعراض، فهو مؤد إلى امتثال المتبعين ما يدعوهم إليه.

خشية الرحمان: تقواه في خويصة أنفسهم، وهؤلاء هم المؤمنون، تنويها بشأنهم وبشأن الإنذار، فهذا قسيم قوله { لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ } [7]، وهو بقية تفصيل قوله { لِتُنْذِرَ قَوْماً } [6]. والغرض تقوية دعاية الرسول صلى الله عليه وسلم في الإنذار، والثناء على الذين قبلوا نذارته فآمنوا.

{ **الرَّحْمَنَ** } التعبير بهذا الوصف دون اسم الجلالة لوجهين:

أحدهما: أنّ المشركين كانوا ينكرون اسم الرحمن، كما قال تعالى { قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60].

الثاني: الإشارة إلى رحمته لا تقتضي عدم خشيته، فالمؤمن يخشى الله مع علمه برحمته فهو يرجو الرحمة.

{ **فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ** } ثمّ فُرِّع على هذا التنويه الأمر بتبشير هؤلاء بمغفرة ما كان في زمن الجاهلية وما يقترفون من اللمم.

{ **تُنْذِرُ / فَبَشِّرْهُ** } فيه محسِّن الطباق، مع بيان أنّ أوّل أمرهم الإنذار وعاقبته التبشير.

الأجر: الثواب على الإيمان والطاعات، ووصفه بـ { **كَرِيمٍ** } لأنّه الأفضل في نوعه كما تقدم عند قوله تعالى { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29].

{ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ } [12]

لمّا اقتضى القصر في قوله تعالى { إِنَّمَا تُنْذِرُ...} [11] نفي أن يتعلّق الإنذار بالذين لم يتّبعوا الذكر ولم يخشوا الرحمان، وكان في ذلك كناية تعريضية بأن الذين لم ينتفعوا بالإنذار بمنزلة الأموات لعدم انتفاعهم بما ينفع كلّ عاقل، استطرد عقب ذلك بالتخلّص إلى إثبات البعث، فإنّ التوفيق الذي حفّ بمن اتبع الذكر وخشي الرحمان هو كإحياء الميّت، لأنّ حالة الشرك حالة ضلال يشبه الموت، والإخراج منه كإحياء الميّت.
فيكون موقع الجملة استئنافا ابتدائيا لقصد إنذار الذين لم يتّبعوا الذكر، ولم يخشوا الرحمان، وهم الذين اقتضاهم جانب النفي في صيغة القصر.

وفي الجملة امتنان على المؤمنين بتيسير الإيمان لهم، فإحياء الموتى توفيق من آمن من الناس إلى الإيمان، كقوله { أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ } [الأنعام: 122].

{ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ } الكناية عن الوعد بالثواب على أعمالهم الصالحة والثواب على آثارهم. وعطف ذلك إدماج للإنذار والتهديد بأنّهم محاسبون على أعمالهم ومجازون عليها. وهذا الاعتبار يناسب الاستئناف الابتدائي ليكون الانتقال بابتداء كلام منبّها السامع إلى ما اعتبره المتكلّم في مطاوي كلامه.

الكتابة: كناية عن الإحصاء وعدم إفلات شيء من أعمالهم أو إغفاله. وهي ما يُعبَّر عنه بصحائف الأعمال التي يسجّلها الكرام الكاتبون.

{ مَا قَدَّمُوا } ما عملوا من الأعمال قبل الموت، شُبِّهت أعمالهم في الحياة الدنيا بأشياء يقدمونها إلى الدار الآخرة، كما يقدّم المسافر ثقله وأحماله.

{ وَآثَارَهُمْ } هي آثار الأعمال وليست عين الأعمال بقرينة مقابلته بـ { مَا قَدَّمُوا } مثل ما يتركون من خير أو يثيرونه بين الناس وفي النفوس. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرُها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أعمالهم شيئا ".**

وقد ورد عن جابر أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بلغه أنّ بني سلمة أرادوا أن يتحوّلوا من منازلهم في أقصى المدينة إلى قرب المسجد وقالوا: البقاع خالية، فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم** (مرتين) ". [رواه مسلم]. يعني: آثار أرجلهم في المشي إلى صلاة الجماعة.

وفي رواية الترمذي عن أبي سعيد زاد: أنّه قرأ عليهم { وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ }، وتوهّم راوي الحديث عن الترمذي أنّ هذه الآية نزلت في ذلك، وسياق الآية يخالفه، ومكّيّتها تنافيه.

{ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ } لإفادة الإحاطة والعموم لما قدّموا وآثارهم من كبيرة وصغيرة. فكلمة { كُلّ } نص على العموم، فتكون الجملة مؤكد لجملة { وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ }، ومبيّنة لمجملها، ويكون عطفها دون فصلها مراعى فيه ما اشتملت عليه من زيادة الفائدة.

ويجوز أن يكون المراد بـ { كُلّ شَيْءٍ } كلّ ما يوجد من الذوات والأعمال، ويكون الإحصاء إحصاء علم، كقوله تعالى { وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً } [الجن:28].

الإحصاء: حقيقته العدّ والحساب، وهو هنا كناية عن الإحاطة والضبط وعدم تخلّف شيء عن الذكر والتعيين لأنّ الإحصاء والحساب يستلزم أن لا يفوت واحد من المحسوبات.

الإمام: ما يؤتم به في الاقتداء ويعمل على حسب ما يدل عليه. أطلق الإمام على الكتاب لأنّ الكتاب يُتبع ما فيه من الأخبار والشروط.

{ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ [13] إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ [14] }.

أعقب وصف إعراضهم وغفلتهم عن الانتفاع بهدى القرآن بتهديدهم بعذاب الدنيا إذ قد جاء في آخر هذه القصة قوله تعالى { إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ } [29].

{ **وَاضْرِبْ** } مجاز مشهور في معنى الوضع والجعل، ومنه: ضرب ختمه. وضربت بيتا، وهو هنا في الجعل وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:26].

{ **لَهُمْ** } يجوز أن يتعلّق بـ { اضْرِبْ } أي: اضرب مثلا لأجل أن يعتبروا، كقوله تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ } [الروم:28]. ويجوز أن يكون { لَهُمْ } صفة لـ { مثَل }، أي: اضرب شبيها لهم، كقوله تعالى { فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ } [النحل:74].

المثل: الشبيه، أي: شبِّه حالهم في تكذيبهم بك بشبيه من السابقين.

{ **أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ** } انتصب على البيان لـ { مَثَلاً }، أو بدل، ويجوز أن يكون مفعولا أول لـ { اضْرِبْ } و{ مَثَلاً } مفعولا ثانيا، كقوله تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً } [النحل: 112].

{ **الْقَرْيَةِ** } قال المفسّرون عن ابن عباس هي (**أنطاكية**)، وهي مدينة بالشام متاخمة لبلاد اليونان.

{ **الْمُرْسَلُونَ** } قال قتادة: هم من الحواريين. وكان ذلك في حدود سنة أربعين من مولد عيسى عليه السلام.

وتحقيق القصة:

أنّ عيسى عليه السلام لم يدع بني إسرائيل ولم يكن الدين الذي أرسل به إلّا تكملة لما اقتضت الحكمة الإلهية إكماله من شريعة التوراة، ولكن عيسى أوصى الحواريين ألّا يغفلوا عن نهي الناس عن عبادة الأصنام فكانوا إذا رأوا رؤيا أو خطر لهم خاطر بالتوجّه إلى بلد من بلاد إسرائيل أو ممّا جاورها، أو خطر في نفوسهم إلهام بالتوجّه إلى بلد علموا أنّ ذلك وحي من الله لتحقيق وصية عيسى عليه السلام.

ووقعت اختلاف للمفسرين في تعيين الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أهل إنطاكية، والذي ينطبق على ما في [أعمال الرسل 1- 9، الإصحاح:13] أنّ (**برنابا**) و(**شاول/ بولس**) من تلاميذ الحواريين، كانا في إنطاكية مرسلين للتعليم، وأنّهما عُززا بالتلميذ (**سيلا**) [أعمال الرسل 34-35، الإصحاح:15].

{ **فَكَذَّبُوهُمَا** } والمكذِّبون هم من كانوا سكانا بإنطاكية من اليهود واليونان، وليس في (أعمال الرسل) سوى كلمات مجملة عن التكذيب والمحاورة التي جرت بين المرسلين والمرسل إليهم، فذُكر أنّه كان هنالك نفر من اليهود يطعنون في صدق دعوة بولس وبرنابا ويثيرون عليهما نساء الذين يؤمنون بعيسى من وجوه المدينة

من اليونان وغيرهم، حتى اضطر (**بولس وبرنابا**) إلى أن خرجا من إنطاكية وقصدا ايقونية وما جاورها وقاومهما يهود بعض تلك المدن، وأنّ أحبار النصارى في تلك المدائن رأوا أن يعيدونهما إلى إنطاكية.
وبعد عودتهما حصل لهما ما حصل لهما في الأولى وبالخصوص في قضية وجوب الختان على من يدخل في الدين، فذهب بولس وبرنابا إلى أورشليم لمراجعة الحواريين فرأى أحبار أورشليم أن يؤيدوهما برجلين من الأنبياء هما (**برسابا**) و(**سيلا**).
فأما (برسابا) فلم يمكث، وأمّا (سيلا) فبقي مع بولس وبرنابا يعظون الناس. ولعلّ ذلك كان بوحي من الله إليهم وإلى أصحابهم من الحواريين. فهذا معنى قوله تعالى { **إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ** } إذ أسند الإرسال والتعزيز إلى الله.
التعزيز: التقوية وفي هذه المادة معنى جعل المقوَّى عزيزا، فالأحسن أنّ التعزيز هو النصر.
{ **فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ** } التأكيد لأجل تكذيبهم إيّاهم، فأكَّدوا الخبر تأكيدا وسطا، ويُسمَّى هذا ضربا طلبيا. وتقديم المجرور للاهتمام بأمر المرسل إليهم المقصود إيمانهم بعيسى.

{ **قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ** } [15].
{ **مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا** } كان أهل (أنطاكية) والمدن المجاورة لها خليطا من اليهود وعبدة الأصنام من اليونان، <u>فالقول صالح لأن يصدر من عبدة الأوثان</u> وهو ظاهر لظنّهم أنّ الآلهة لا تبعث الرسل ولا توحي إلى أحد، <u>وهو أيضا صالح لأن يصدر من اليهود</u> الذين لم يتنصّروا، لأن ذلك القول يقتضي أنّهما (بولس وبرنابا) وبقية اليهود سواء، وألّا فضل لهما بما يزعمون من النبوّة. وقولهم يقتضي إنكار أن يكون الله أنزل شيئا بعد التوراة. فمن إعجاز القرآن جمع مقالة الفريقين في هاتين الجملتين.
{ **الرَّحْمَنُ** } اختيار هذا الوصف في حكاية قول الكفرة لكونه صالحا لعقيدة الفريقين، لأنّ اليونان لا يعرفون اسم الله، ورب الأرباب عندهم هو (زفس) وهو مصدر الرحمة في اعتقادهم، واليهود كانوا يتجنّبون النطق باسم الله الذي هو في لغتهم (يهوه) فيعوّضونه بالصفات.
{ **إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ** } الاستثناء استفهام مفرَّغ من أخبار محذوفة.

{ **قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ [16] وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [17]** }.
حكيت هذه المحاورة على سنن حكاية المحاورات بحكاية أقوال المتحاورين دون عطف.
{ **رَبُّنَا يَعْلَمُ** } قسم، لأنّه استشهاد بالله على صدق مقالتهم، واضطرّهم إلى شدة التوكيد بالقسم ما رأوا من

تصميم كثير من أهل القرية على تكذيبهم. ويُسمَّى هذا المقدار من التأكيد ضربا إنكاريا.
وهو يمين قديمة انتقلها العرب في الجاهلية. ويظهر أنّه كان مغلّظا عندهم لقلّة وروده في كلامهم ولا يكاد يقع إلّا في مقام مهم. وهو عند علماء المسلمين يمين كسائر الأيمان فيها كفارة عند الحنث.
{ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } فذلك وعظ وعظوا به القوم ليعلموا أنّهم لا منفعة تنجرّ لهم من إيمان القوم، وإعلان لهم بالتبرؤ من عهدة بقاء القوم على الشرك وذلك من شأنه أن يثير النظر الفكري في نفوس القوم.
{ الْبَلاغُ } اسم مصدر من أبلغ إذا أوصل خبرا، قال تعالى { إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ } [الشورى:48]، وقال تعالى { هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ} [إبراهيم:52]. ولا يستعمل البلاغ في إيصال الذوات.
{ الْمُبِينُ } وصف للبلاغ، أي: البلاغ الواضح دلالةً، وهو الذي لا إيهام فيه ولا مواربة.

{ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [18]
لمّا غلبتهم الحجّة من كل جانب وبلغ قول الرسل { وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } من نفوس أصحاب القرية مبلغ الخجل والاستكانة من إخفاق الحجّة والاتسام بميسم المكابرة والمنابذة للذين يبتغون نفعهم، زعموا أنّهم تطيروا بهم ولحقهم منهم شؤم.
{ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ } التطيّر في الأصل تكلّف معرفة دلالة الطير على خير أو شر من تعرّف نوع الطير ومن صفة اندفاعه أو مجيئه، ثم أطلق على كلّ حدث يتوهّم منه أحد أنّه كان سببا في لحاق شرّ به، فصار مرادفا للتشاؤم. وفي الحديث: **" لا عدوى ولا طِيرَة وإنّما الطيرة على من تطيّر "** وبهذا المعنى أطلق في هذه الآية، أي: قالوا إنّا تشاءمنا بكم.
{ بِكُمْ } بدعوتكم، وليسوا يريدون أنّ القرية حلّ بها حادث سوء يعمّ النّاس كلّهم من قحط أو وباء أو نحو ذلك من الضر العام، وقد جوّزه بعض المفسّرين. وهذا نظير ما حكاه الله تعالى عن قوم فرعون { فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ } [الأعراف:131]، وحكى عن مشركي مكّة { وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ } [النساء:78].
<u>ويجوز</u> أن يكونوا أرادوا بالشؤم أنّ دعوتهم أحدثت مشاجرات واختلافا بين أهل القرية.
{ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } انتقلوا إلى المطالبة بالانتهاء عن هذه الدعوة. وبذلك ألجأوا (بولس) و(برنابا) إلى الخروج من إنطاكية فخرجا إلى أيقونية.
ولم يزل اليهود في كل مدينة من هذه المدن يشاقون الرسل ويضطهدونهم ويثيرون الناس عليهم، فمسّهم من ذلك عذاب وضرّ، ورُجم (بولس) في مدينة (لسترة) حتّى حسبوا أن قد مات.

{ **قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ** } [19]

حُكي قول الرسل بما يرادفه ويؤدي معناه بأسلوب عربي تعريضا بأهل الشرك من قريش الذين ضُربت القرية مثلا لهم، فالرسل لم يذكروا مادة الطيرة والطير وإنّما أتوا بما دلّ على أنّ شؤم القوم متّصل بذواتهم لا جاءٍ من المرسلين إليهم.

وهذا بمنزلة التجريد لضرب المثل لهم بأن لوحظ في حكاية القصة من شؤون المشبَّهين بأصحاب القصة.

ولما كانت الطيرة بمعنى الشؤم مشتقة من اسم الطير لوحظ فيها مادة الاشتقاق. وقد جاء إطلاق الطائر على معنى الشؤم في قوله تعالى { أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ } [الأعراف:131]، على طريقة المشاكلة.

{ **طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ** } الطائر الذي تنسبون إليه الشؤم هو معكم، أي: في نفوسكم، أرادوا: أنّكم لو تدبّرتم لوجدتم أنّ سبب ما سمّيتموه شؤما هو كفركم وسوء سمعكم للمواعظ، فإنّ الذين استمعوا أحسن القول اتبعوه ولم يعتدوا عليكم، وأنتم الذين آثرتم الفتنة وأسعرتم البغضاء والإحن في المدينة.

{ **أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ** } استفهام إنكاري على محذوف دلّ عليه الكلام السابق، وقيّد ذلك المحذوف بالشرط الذي حذف جوابه أيضا استغناء عنه بالاستفهام عنه. والتقدير: أتتشاءمون بالتذكير إن ذُكِّرتم.

{ **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ** } أبطلوا أن يكون الشؤم من تذكيرهم. أي: لا طيرة فيما زعمتم ولكنّكم قوم كافرون غشيت عقولكم الأوهام فظننتم ما فيه نفعكم ضرًّا لكم. ومن إسرافكم اعتقادكم بالشؤم والبخت.

{ **قَوْمٌ** } إيذان بأنّ الإسراف متمكّن منهم وبه قوام قوميتهم.

{ **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ** [20] **اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ** [21] **وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** [22] **أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ** [23] **إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ** [24] **إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ** [25] }.

عطف على قصة التحاور الجاري بين أصحاب القرية والرسل الثلاثة لبيان البون بين حال المعاندين من أهل القرية وحال الرجل المؤمن منهم الذي وعظهم بموعظة بالغة.

{ **مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ** } هي نفس القرية المذكورة سابقا عبّر عنها هنا بالمدينة تفنُّنا.

{ **أَقْصَى** } طرف المدينة، إشارة إلى أنّ الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة، لأنّ قلب المدينة هو مسكن حكّامها وأحبار اليهود، وهم أبعد من الإنصاف والنظر في صحّة ما يدعوهم إليهم الرسل، وعامة سكّانها تبع لعظمائها لتعلّقهم بهم وخشيتهم بأسهم بخلاف أطراف سكّان المدينة فهم أقرب إلى

الاستقلال بالنظر وقلة اكتراث بالآخرين.
وفي القول ثناء على أهل أقصى المدينة، وإشارة إلى أنّ الإيمان يسبق إليه الضعفاء لأنّهم لا يصدّهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترفع وعظمة.
وأمّا قوله تعالى في [القصص:20] { وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى }، فجاء النظم على الترتيب الأصلي إذ لا داعي إلى التقديم إذ كان ذلك الرجل ناصحا ولم يكن داعيا للإيمان.
{ رَجُلٌ } وهذا الرجل غير مذكور في سفر (أعمال الرسل) وهو ممّا امتاز القرآن بالإعلام به. وعن ابن عباس وأصحابه وجد أن اسمه **حبيب بن مرّة**، قيل كان نجارا وقيل غير ذلك، فلما أشرف الرسل على المدينة آمن بدعوتهم. وقيل: كان مؤمنا من قبل.
ولا يبعد أن يكون هذا الرجل الذي وصفه المفسرون بالنجّار أنّه هو (سمعان) الذي يدعى "بـ (النيجر) المذكور في [سفر أعمال الرسل، الإصحاح:11] وأنّ وصف النجّار محرف عن (نيجر).
{ يَسْعَى } يفيد أنّه جاء مسرعا وأنّه بلغه هَمُّ أهل المدينة برجم الرسل أو تعذيبهم، فأراد أن ينصحهم خشية عليهم وعلى الرسل. وهذا ثناء على هذا الرجل يفيد أنّه ممّن يُقتدى به في الإسراع إلى تغيير المنكر.
{ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ } بدل اشتمال من الجملة السابقة، لأنّ قوله ممّا اشتمل عليه المجيء المذكور. وافتتاح خطابه إيّاهم بندائهم بوصف القومية له قصد منه أنّ كلامه محض نصيحة.
الاتباع: الامتثال، استعير له الاتباع تشبيها للآخذ برأي غيره بالمتّبع له في سيره.
{ اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً } مؤكِّدة لجملة { اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ } مع زيادة الإيماء إلى علّة اتباعهم بلوائح علامات الصدق والنصح على رسالتهم، إذ هم يدعون إلى هدى ولا نفع ينجرّ لهم من ذلك، فتمحَّضت دعوتهم لقصد هداية المرسَل إليهم، وهذه كلمة حكمة جامعة، أي: اتبعوا من لا تخسرون معهم شيئا من دنياكم وتربحون آخرتكم.
{ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } قدّم في الصلة عدم سؤال الأجر على الاهتداء لأنّ القوم كانوا في شك من صدق المرسلين وكان من دواعي تكذيبهم اتهامهم بأنّهم يجرُّون لأنفسهم نفعا من ذلك، لأنّ القوم لمّا غلب عليهم التعلّق بحب المال كانوا يعدّون كل سعي يلوح على امرئ إنّما يسعى به إلى نفعه. فقدّم ما يزيل عنهم هذه الاسترابة.
أي: وهم مع ترفعهم عن المطامع الدنيوية متّصفون بالاهتداء إلى ما يأتي بالسعادة الأبدية.
فتضمّنت هذه الجملة بموقعها بعد التي قبلها ثناء على المرسلين وعلى ما يدعون إليه وترغيبا في متابعتهم.
{ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } عطف على جملة { اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ } قصد إشعارهم بأنّه اتبع المرسلين وخلع عبادة الأوثان.

{ **وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ** } استفهام إنكاري بصيغة: ما لي لا أفعل، التي شأنها أن يوردها المتكلّم في الردّ على من أنكر عليه فعلاً، أو ملكه العجب من فعله، أو يوردها من يقدّر ذلك في قلبه، ففيه إشعار بأنّهم كانوا منكرين عليه الدعوة إلى تصديق الرسل الذين جاءوا بتوحيد الله، وذلك يقتضي أنّه سبقهم بما أمرهم به.

{ **الَّذِي فَطَرَنِي** } أي: لا شيء يمنعني من عبادة الذي خلقني، وهذا الخبر مستعمل في التعريض بهم، كأنّه يقول: وما لي لا أعبد وما لكم لا تعبدون الذي فطركم.

{ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } جعل الإسناد إلى ضميرهم تقوية لمعنى التعرض.

وإنّما ابتدأه بإسناد الخبر إلى نفسه لإبرازه في معرض المناصحة لنفسه وهو مريد مناصحتهم ليتلطّف بهم ويدارهم فيُسمعهم الحق على وجه لا يثير غضبهم ويكون أعون على قبولهم إيّاه حين يرون أنّه لا يريد لهم إلّا ما يريد لنفسه.

{ **أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً** } جملة مستأنفة استئنافا بيانيا لاستشعار سؤال عن وقوع الانتفاع بشفاعة تلك الآلهة عند الذي فطره، والاستفهام إنكاري، أي: أنكر على نفسي أن أتخذ من دونه آلهة، أي: لا أتخذ آلهة. إبطال لعبادة الأصنام من خلال التعريض.

الاتخاذ: افتعال من الأخذ وهو التناول، والتناول يُشعر بتحصيل ما لم يكن قبل، فالاتخاذ مشعر بأنّه صُنع وذلك من تمام التعريض بالمخاطبين أنّهم جعلوا الأوثان آلهة وليست بآلهة، لأنّ الإله الحقّ لا يُجعل جعلا ولكنه مستحقٌّ الإلهيّة بالذات.

{ **إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ** } التعريض بالمخاطبين في اتخاذهم تلك الآلهة بعلّة أنّها تشفع لهم عند الله وتقرّبهم إليه زلفى.

{ **الرَّحْمَنُ** } جاء بهذا الوصف دون اسم الجلالة للوجه المتقدّم عند قوله {وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ} [15].

الإنقاذ: التخليص من غلب أو كرب أو حيرة، أي: لا تنفعني شفاعتهم عند الله إن أرادني بضر، ولا ينقذونني من الضرّ إذا أصابني.

{ **إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } جواب للاستفهام الإنكاري. فحرف {إذاً} جزاء للمنفي لا للنفي، أي: إن اتخذت من دون الله آلهة أكن في ضلال مبين.

{ **إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ** } واقعة موقع الغاية من الخطاب والنتيجة من الدليل. وهذا إعلان لإيمانه وتسجيل عليهم بأنّ الله هو ربهم لا تلك الأصنام.

{ **فَاسْمَعُونِ** } تفريع، استدعاء لتحقيق أسماعهم إن كانوا في غفلة.

{ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ [26] بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ[27]}

استئناف بياني لما ينتظره سامع القصة من معرفة ما لقيه من قومه بعد أن واجههم بذلك الخطاب الجزل.

وهل اهتدوا بهديه أو أعرضوا عنه وتاركوه أو آذوه كما يؤذى أمثاله من الداعين إلى الحق المخالفين هوى الدهماء، فيجاب بما دل عليه قوله { قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ }، وهو الأهم عند المسلمين وهم من المقصودين بمعرفة مثل هذا ليزدادوا يقينا وثباتا في إيمانهم، وأمّا المشركون فحظهم من المثل ما تقدم وما يأتي من قوله { إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ } [29].

{ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ } كناية عن قتله شهيدا في إعلاء كلمة الله، لأنّ تعقيب موعظته بأمره بدخول الجنة دفعة بلا انتقال يفيد بدلالة الاقتضاء أنّه مات وأنّهم قتلوه لمخالفته دينهم، قال بعض المفسرين: قتلوه رجما بالحجارة، وقال بعضهم: أحرقوه، وقال بعضهم: حفروا له حفرة وردموه فيها حيا.

وإنّما سُلك في هذا المعنى طريق الكناية ولم يصرّح بأنّهم قتلوه إغماضا لهذا المعنى عن المشركين كيلا يسرّهم أنّ قومه قتلوه فيجعلوه من جملة ما ضرب به المثل لهم وللرسول صلى الله عليه وسلم فيطمعوا فيه أنّهم يقتلون الرسول صلى الله عليه وسلم. فهذه الكناية لا يفهمها إلّا أهل الإسلام الذين تقرّر عندهم التلازم بين الشهادة في سبيل الله ودخول الجنة، أمّا المشركون فيحسبون أنّ ذلك في الآخرة.

وقد تكون في الكلام البليغ خصائص يختصّ بنفعها بعض السامعين.

{ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ } لم يلهه دخول الجنة عن حال قومه، فتمنّى أن يعلموا ماذا لقي من ربّه ليعلموا فضيلة الإيمان فيؤمنوا، وما تمنّى هلاكهم ولا الشماتة بهم فكان متّسما بكظم الغيظ وبالحلم على أهل الجهل، وذلك لأن عالم الحقائق لا تتوجّه فيه النفس إلّا إلى الصلاح المحض.

{ يَعْلَمُونَ } تضمّن معنى: يُخبَرون، ولذلك أدخلت الباء على مفعوله { بِمَا ...} لأنّه لا مطمع في أن يحصل لهم علم ذلك بالنظر والاستدلال.

{ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ } أي: يُخبَرون بغفران ربي وجعله إيّاي من المكرمين.

المكرمين: الذين تلحقهم كرامة الله تعالى وهم الملائكة والأنبياء وأفضل الصالحين، قال تعالى { بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ } [الأنبياء:26].

{ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ [28] إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ [29] }.

عطف على جملة { قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ } [26]، فهي مستأنفة أيضا استئنافا بيانيا، فبعد أن بيّن للسامع ما كان من أمر الرجل المؤمن عطف عليه بيان ما كان من أمر القوم بعده.

أي: لم ننزل جنودا من السماء مخلوقة لقتال قومه، أو لم ننزل جنودا من الملائكة من السماء لإهلاكهم، وما كانت عقوبتهم إلّا صيحة واحدة من ملك واحد أهلكتهم جميعا.

{ مِنْ بَعْدِهِ } {مِنْ} هنا مزيدة في الظرف لتأكيد الاتصال. أي: بعد موته، كقوله تعالى { إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي } [البقرة:133].

{ مِنْ جُنْدٍ } {مِنْ} هنا مؤكِّدة لعموم { جُنْدٍ } في سياق النفي.

{ مِنَ السَّمَاءِ } {مِنَ} هنا ابتدائية.

وفي الإتيان بحرف { مِنْ } ثلاث مرات مع اختلاف المعنى محسِّن الجناس.

{ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ } معترضة بين نوعي العقاب المنفي والمثبت، لقصد الردّ على المشركين بأنّ سنة الله تعالى لم تجر بإنزال الجنود على المكذبين، وشأن العاصين أَدْوَنُ من هذا الاهتمام.

الصيحة: المرّة من الصياح، بوزن فَعْلَة، فوصفها بواحدة تأكيد لمعنى الوحدة لئلّا يُتوهم أنّ المراد الجنس المفرد من بين الأجناس. أي: لم تكن العقوبة أو الصيحة إلّا صيحة من صفتها أنّها واحدة.

وهذه الصيحة صاعقة كما قال تعالى حكاية عن ثمود { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ } [الحجر:73].

{ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ } مجيء (إذا) الفجائية في الجملة المفرّعة لإفادة سرعة الخمود إليهم بتلك الصيحة.

الخمود: انطفاء النار، استعير للموت بعد الحياة المليئة بالقوة والطغيان، ليتضمّن الكلام تشبيه حال حياتهم بشبوب النار وحال موتهم بخمود النار. وتقدّم قوله تعالى { حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ } [الإسراء:15].

وهذا يشير إلى حدث عظيم حدث بأهل إنطاكية عقب دعوة المرسلين وهو كرامة لشهداء أتباع عيسى عليه السلام، فإن كانت الصيحة صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود كان الذين خمدوا بها جميع أهل القرية فلعلّهم كانوا كفارا كلّهم بعد موت الرجل الذي وعظهم وبعد مغادرة الرسل القرية. ولكن مثل هذا الحادث لم يذكر التاريخ حدوثه في إنطاكية، فيجوز أن يهمل التاريخ بعض الحوادث وخاصة في أزمنة الاضطراب والفتنة.

{ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [30].

تذييل وهو من كلام الله تعالى واقع موقع الرثاء للأمم المكذِّبة الرسل شامل للأمة المقصودة بسَوق القصّة.

{ يَا } حرف النداء هنا لمجرّد التنبيه على خطر ما بعده ليصغي إليه السامع، وكثر دخوله في الجمل المقصود منها إنشاء معنى في نفس المتكلّم دون الإخبار، فيكون اقتران ذلك الإنشاء بحرف التنبيه إعلانا بما في نفس المتكلِّم من مدلول الإنشاء، كقولهم: يا ويلي، ويا فرحي، ويا ليتني، ونحو ذلك. وتقدّم ذلك عند قوله تعالى { يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ } [النساء:73]، وقوله تعالى { يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً } [الفرقان:28].

الحسرة: شدّة الندم مشوبا بتلهّف على نفع فائت.

{ الْعِبَادِ } التعريف للجنس المستعمل في الاستغراق وهو استغراق ادعائي روعي فيه حال الأغلب على الأمم التي يأتيها رسول لعدم الاعتداء في هذا المقام بقلّة الذين صدَّقوا الرسل ونصروهم، فكأنّهم كلّهم قد كذّبوا.

الْعِبَادِ: اسم للبشر وهو جمع عبد. والعبد: المملوك، وجميع الناس عبيد الله تعالى لأنّه خالقهم والمتصرّف فيهم قال تعالى { رِزْقاً لِلْعِبَادِ } [ق:11]. ويجمع على عبيد وعباد وغلب الجمع الأوّل على عبد بمعنى مملوك، والجمع الثاني على عبد بمعنى آدمي، وهو تخصيص حسن من الاستعمال العربي.

{ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } بيان لوجه التحسّر عليهم، فعُلم وجه الحسرة عليهم إجمالا من هذه الآية ثم تفصيلا من قوله بعد { أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا } [31].

{ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } تقديم المجرور للاهتمام بالرسول المشعر باستفظاع الاستهزاء به، مع تأتِّي الفاصلة بهذا التقديم، فحصل منه غرضان من المعاني ومن البديع.

{ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ } [31].

هذه الجملة بيان لجمل { مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [30] لما فيها من تفصيل الإجمال المستفاد من تلك. فإنّ عاقبة ذلك الاستهزاء بالرسول كانت هلاك المستهزئين، فعدم اعتبار كلّ أمّة كذَّبت رسولها بعاقبة المكذِّبين قبلها يثير الحسرة عليها وعلى نظرائها كما أثارها استهزاؤهم بالرسول وقلّة التبصّر في دعوته ونذارته ودلائل صدقة.

{ أَلَمْ يَرَوْا } الضمير عائد إلى العباد كما يقتضيه تناسق الضمائر. <u>والاستفهام يجوز أن يكون إنكاريا</u>، نزلت غفلتهم عن إهلاك القرون منزل عدم العلم فأنكر عليهم ذلك وهو أمر معلوم مشهور، <u>ويجوز كون الاستفهام تقريرا</u>، بُني التقرير على نفي العلم بإهلاك القرون استقصاء لمعذرتهم حتّى لا يسعهم إلّا الإقرار بأنّهم عالمون، فيكون إقرارهم أشد لزوما لهم، لأنّهم استُفهِموا على النفي فكان يسعهم أن ينفوا ذلك.

الرؤية: على التقديرين علمية وليست بصرية، لأنّ الأمّة اللاحقة لا تشهد هلاك السابقة.
{ **كَمْ** } في موضع نصب بـ { أَهْلَكْنَا }: ومفادها كثرة مبهمة فُسِّرت بقوله { مِنَ الْقُرُونِ }.
{ **أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ** } بدل اشتمال من جملة { أَهْلَكْنَا } لأنّ الإهلاك يشتمل على عدم الرجوع.
وفائدة هذا البدل تقرير تصوير الإهلاك لزيادة التخويف، ولاستحضار تلك السورة في الإهلاك، أي: إهلاكا لا طماعية معه للرجوع إلى الدنيا، فإنّ عدم الرجوع إلى الأهل والأحباب ممّا يزيد الحسرة اتضاحا.
وتقديم { إِلَيْهِمْ } على متعلّقه { يَرْجِعُونَ } للرعاية على الفاصلة.

{ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ } [32].

أرى أنّ عطفه على جملة { أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ } [31] واقع موقع الاحتراس من توهّم المخاطبين بالقرآن أنّ قوله { أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ } مؤيّد اعتقادهم انتفاء البعث.
{ **إِنْ** } يجوز أن تكون مخفّفة من الثقيلة، والأفصح إهمالها عن العمل فيما بعدها.
{ **كُلٌّ** } مبتدأ وتنوينه تنوين العوض عمّا أضيف إليه (كل)، أي: كلّ القرون، أو كلّ المذكورين من القرون والمخاطبين.
{ **لَمَّا** } بتشديد الميم على أنّها حرف استثناء بمعنى (إلّا) تقع بعد النفي ونحوه كالقسم. والتقدير: وما كلّهم إلّا محضرون لدينا.
{ **جَمِيعٌ** } اسم على وزن فعيل، أي: مجموع، وهو ضد المتفرّق. يقال: جمع أشياء كذا، إذا جعلها متقاربة متصلة بعد أن كانت مشتتة ومتباعدة.
<u>المعنى</u>: أنّ كلّ القرون محضرون لدينا مجتمعين، أي: ليس إحضارهم في أوقات مختلفة ولا في أمكنة متعددة، فكلمة { **كُلٌّ** } أفادت أنّ الإحضار محيط بهم بحيث لا ينفلت فريق منهم، وكلمة { **جَمِيعٌ** } أفادت أنّهم محضرون مجتمعين، فليست إحدى الكلمتين بمغنية عن ذكر الأخرى.
{ **مُحْضَرُونَ** } نعت لـ { جَمِيعٌ }، وروعي في النعت معنى المنعوت فألحقت به علامة الجماعة.
الإحضار: الإحضار للحساب والجزاء والعقاب.

{ وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ } [33].

عطف على قصة { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ } [13]، تقريب للبعث لمناسبة قوله { وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ } [32]، على أنّ هذه لا تخلو من دلالتها على الانفراد بالتصرّف وإثبات الوحدانية.

موت الأرض: جفافها وخلوّها من حياة النبات فيها، و**إحياؤها**: خروج النبات منها من العشب والكلأ والزرع.
وقرأ نافع وأبو جعفر { الْمَيِّتَةُ } بتشديد الياء. وقرأ الباقون بتخفيف الياء { الْمَيْتَةُ }، والمعنى واحد.
الحَبّ: اسم جمع حَبّة، وهو بزرة النبت مثل البُرَّة والشعيرة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ } [البقرة:261]
إخراج الحب من الأرض: هو إخراجه من نباتها، فهو جاء منها بواسطة. وهذا إدماج للامتنان في ضمن الاستدلال.
{ **فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ** } تفريع. وتقديم { فَمِنْهُ } للاهتمام تنبيها على النعمة، ولرعاية الفاصلة.

{ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ [34] لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ [35] }.

هذا من إحياء الأرض بإنبات الأشجار ذات الثمار، وهو إحياء أعجب وأبقى، وإن كان الإحياء بإنبات الزرع والكلأ أوضح دلالة لأنّه سريع الحصول.
{ **جَنَّاتٍ** } تقدم ذكرها في [الرعد:4]. و**النخيل**: اسم جمع نخل. و**الأعناب**: جمع عنب، وهو يطلق على شجرة الكرم وعلى ثمرها. وجمع النخيل والأعناب باعتبار تعدّد أصناف شجره.
تفجير العيون: تقدّم عند قوله تعالى { وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ } [البقرة:74].
{ **ثَمَرِهِ** } الثمر (بفتحتين وبضمّتين) ما يغلّه النخل والأعناب من أصناف الثمر وأصناف العنب.
{ **وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ** } يجوز أن تكون { مَا } موصولة معطوفة على { ثَمَرِهِ }، أي: ليأكلوا من ثمر ما عملته أيديهم، فيكون إدماجا للإرشاد إلى إقامة الجنّات بالخدمة والسقي والتعهّد.
ويجوز أن يكون { مَا } نافية والضمير عائد إلى ما ذكر من الحَبّ والنخيل والأعناب. والمعنى: أنّ ذلك لم يخلقوه. وهذا أوفر في الامتنان وأنسب بسياق الآية مساق الاستدلال.
وقرأ الجمهور { وَمَا عَمِلَتْهُ } بإثبات هاء الضمير عائدا إلى المذكور من الحب والنخيل والأعناب. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف { وَمَا عَمِلَتْ } بدون هاء، وكذلك هو مرسوم في المصحف الكوفي وهو جار على حذف المفعول إن كان معلوما. ويجوز أن يكون من حذف المفعول لإرادة العموم. والتقدير: وما عملت أيديهم شيئا من ذلك. وكلا الحذفين شائع.
{ **أَفَلا يَشْكُرُونَ** } استفهام الإنكار لعدم شكرهم بأن اتخذوا للذي أوجد هذا الصنع العجيب أندادا.
وجيء بالمضارع مبالغة في كفرهم بأنّ الله حقيق بأن يكرّروا شكره فكيف يستمرّون على الإشراك به.

{ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ } [36]

اعتراض بين جملة { وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ } [33] وجملة { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ } [37]، أثاره ذكر إحياء الأرض وإخراج الحبّ والشجر منها، فإنّ ذلك أحوالا وإبداعا عجيبا يُذكِّر بتعظيم مودع تلك الصنائع بحكمته، وذلك على طريقة الإدماج ضمن الاستدلال بخلق الأزواج.

{ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا } تنزيه الله تعالى عن أحوال المشركين تنزيها عن كلّ ما لا يليق بإلهيته وأعظمه الإشراك به، وهو المقصود هنا. وإجراء الموصول على الذات العلية للإيماء إلى وجه إنشاء التنزيه والتعظيم. وقد مضى الكلام على { سُبْحَانَ } في [البقرة:32].

{ الْأَزْوَاجَ } جمع زوج وهو يطلق على كل من الذكر والأنثى من الحيوان، ويطلق الزوج على معنى الصنف المتميّز بخواصه من الموجودات تشبيها له بصنف الذكر وصنف الأنثى كما في قوله { فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى } [طه:53].

وجيء بضمير جماعة العقلاء تغليبا لنوع الإنسان نظرا لكونه المقصود بالعبرة بهذه الآية، وللتخلص إلى تخصيصه بالعبرة في قوله تعالى { وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ }.

{ مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ } خصّ بالذكر أصناف النبات لأنّ بها قوام معاش الناس ومعاش أنعامهم ودوابهم.

{ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ } ذُكرت لأنّ بها الاستدلال أقوى، قال تعالى { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [الذريات: 21]. والضمير عائد إلى { الْعِبَادِ } في قوله { يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ } [30]. والمراد بهم: المكذِّبون للرسول صلى الله عليه وسلم.

{ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ } إشارة إلى أسرار مودعة في خلق أنواع الحيوان وأصنافه هي التي ميّزت أنواعه عن بعض وميزت أصنافه وذكوره عن إناثه، وأودعت فيه الروح الذي امتاز به عن النبات بتدبير شؤونه على حسب استعداد كل نوع وكل صنف حتّى يبلغ في الارتقاء إلى أشراف الأنواع وهو نوع الإنسان.

أي: ممّا لا يعلمونه تفصيلا وإن كانوا قد يشعرون به إجمالا، فإنّ المتأمّل يعلم أنّ في المخلوقات أسرارا خفيَّة لم تصل إفهامهم إلى إدراك كنهها، ومن ذلك الروح، قال تعالى { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً } [الإسراء:85].

{ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ } [37]

انتقال إلى دلالة مظاهر العوالم على دقيق نظام الخلق فيها ممّا تؤذن به المشاهدة مع التبصّر. وابتدئ منها بنظام الليل والنهار لتكرّر وقوعه أمام المشاهدة لكلّ راء.

السلخ: إزالة الجلد عن حيوانه، وفعله يتعدّى إلى الجلد المزال بنفسه على المفعولية، ولذلك يقال للجلد المزال من جسم الحيوان: سِلِخ (بكسر السين وسكون اللام)، بمعنى مسلوخ، ويتعدّى بحرف (عن) أيضا لما في السلخ من معنى المباعدة والمجاوزة بعد الاتصال.

فمفعول { نَسْلَخُ } هنا هو { النَّهَارَ } بلا ريب، فصار المعنى: الليل آية لهم في حال إزالة غشاء نور النهار عنه فيبقى عليهم الليل، فشُبِّه النهار بجلد الشاة ونحوها، وشُبِّه كشف النهار وإزالته بسلخ الجلد، فصار الليل بمنزلة جسم الحيوان المسلوخ، وليس الليل بمقصود بالتشبيه وإنّما المقصود تشبيه زوال النهار عنه.

ووجه ذلك أنّ الظلمة هي الحالة السابقة للعوالم قبل خلق النور في الأجسام النيّرة، لأنّ الظلمة عدم والنور وجود، وكانت الموجودات في ظلمة قبل أن يخلق الله الكواكب النيرة ويوصل نورها إلى الأجسام التي تستقبلها كالأرض والقمر.

وإذا كانت الظلمة هي الحالة الأصلية للموجودات فليس في الآية دليل على أنّ أصل أحوال العالم الأرضي هو الظلمة ولكنّها ساقت للناس اعتبارا ودلالة بحالة مشاهدة لديهم ففُرّع عليه:

{ **فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ** } لأن المقصود بالتشبيه هو حالة زوال نور النهار عن الأفق فتخلفها ظلمة الليل.

وإسناد { مُظْلِمُونَ } إلى الناس من إسناد (إفعال) الذي الهمزة فيه للدخول في الشيء مثل أصبح وأمسى.

{ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [38]

دليل آخر على عظيم صنع الله تعالى وهو نظام الفصول.

{ **الشَّمْسُ** } يجوز أن يكون معطوفا على { اللَّيْلُ } عطف مفرد على مفرد ويقدّر له خبر مماثل لخبر الليل، والتقدير: والشمس آية لهم، وتكون جملة { تَجْرِي } حالا من { الشَّمْسُ }.

ويجوز أن يكون عطف جملة على جملة ويكون قوله { تَجْرِي } خبرا عن { الشَّمْسُ }.

{ **تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا** } يحتمل الوجوه التي ذكرناها في جملة { أَحْيَيْنَاهَا } [33] من كونها حالا أو بيانا لجملة { وَآيَةٌ لَهُمُ } [33] أو بدل اشتمال منها.

الجري: حقيقته السير السريع لذوات الأرجل، وأطلق مجازا على تنقّل الجسم من مكان إلى مكان تنقلا سريعا بالنسبة لتنقل أمثال ذلك الجسم، وغلب هذا الإطلاق فساوى الحقيقة وأريد به السير في مسافات متباعدة في مدّة قصيرة. وهذا استدلال بآثار ذلك السير المعروفة للناس كلٌّ بحسب علمه وتدبّره. وكل أولئك مخاطبون بالاعتبار بما بلغه علمهم.

المستقر: مكان الاستقرار، أي: القرار أو زمانه، فالسين والتاء فيه للتأكيد.

{ **لِمُسْتَقَرٍّ** } يجوز أن تكون لام التعليل على ظاهرها، أي: تجري لأجل أن تستقر، أي: لأجل أن ينتهي جريها كما ينتهي سير المسافر إذا بلغ إلى مكانه فاستقر فيه، وهو متعلق بـ { تَجْرِي } على أنّه نهاية له.
ويجوز أن تكون اللام بمعنى (إلى)، أي: تجري إلى مكان استقرارها وهو مكان الغروب، شُبِّه غروبها عن الأبصار بالمستقر والمأوى الذي يأوي إليه المرء في آخر النهار بعد الأعمال.
{ **لَهَا** } لام الاختصاص وهو صفة { لِمُسْتَقَرٍّ } . وعدل عن إضافة مستقر لضمير الشمس المغنية عن إظهار اللام إلى الإتيان باللام ليتأتَّى تنكير (مستقر) تنكيرا مشعرا بتعظيم ذلك المستقر.
{ **ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** } الإشارة إمّا إلى قوله { وَالشَّمْسُ تَجْرِي} أي: ذلك الجري، وإمّا إليه وإلى قوله { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ } [37]، أي: ذلك المذكور من تعاقب الليل والنهار.
{ **الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** } لمناسبة معناهما للتعلّق بنظام سير الكواكب، فالعزّة تناسب تسخير هذا الكوكب العظيم، والعلم يناسب النظام البديع الدقيق. وتقدّم ذكر ذلك عند قوله تعالى { تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً } [الفرقان:61].

{ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ } [39]

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وروح عن يعقوب برفع { **وَالْقَمَرُ** } فهو إمّا معطوف على { وَالشَّمْسُ تَجْرِي} عطف المفردات، وإما مبتدأ والعطف من عطف الجمل. وجملة { قَدَّرْنَاهُ } إما حال وإما خبر.
وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر ورويس عن يعقوب وخلف بنصب { **وَالْقَمَرَ** } على الاشتغال، فهو إذن من عطف الجمل.
{ **قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ** } تقدّم تفسير منازل القمر عند قوله تعالى { وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } [يونس:5].
التقدير: يطلق على جعل الأشياء بقدر ونظام محكم، ويطلق على تحديد المقدار من شي تُطلب معرفة مقداره مثل تقدير الأوقات وتقدير الكمِّيّات، وكلا الإطلاقين مراد هنا. فإنّ الله قدّر للشمس والقمر نظام سيرهما وقدَّر بذلك حساب الفصول السنوية والأشهر والأيام والليالي.
{ **مَنَازِلَ** } انتصب على الظرفية المكانية، مثل: سرت أميالا، أي: قدرنا سيره في منازل ينتقل فيها.
{ **حَتَّى** } ابتدائية، أي: ليست حرف جر فإنّ ما بعدها جملة. ومعنى الغاية لا يفارق { حَتَّى } فآذن ما فيها من معنى الغاية بمُغَيًّا محذوف، فالغاية تستلزم ابتداء شيء. والتقدير: فابتدأ ضوؤه وأخذ في الازدياد ليلة فليلة ثمّ أخذ في التناقص حتى صار كالعرجون التقديم، أي: شبيها به. وعبّر عنه بهذا التشبيه إذ ليس لضوء القمر في أواخر لياليه اسم يعرف به بخلاف أوّل أجزاء ضوئه المسمَّى هلالا.

{ **عَادَ** } بمعنى صار شكله للرائي كالعرجون.

العرجون: العود الذي تخرجه النخلة فيكون الثمر في منتهاه، وهو الذي يبقى متصلا بالنخلة بعد قطع الكَبَاسة منه، وهي مجتمع أعواد التمر.

{ **الْقَدِيمِ** } البالي، لأنّه إذا انقطع الثمر تقوس واصفر وتضاءل فأشبه صورة ما يواجه الأرض من ضوء القمر في آخر ليالي الشهر وفي أوّل ليلة منه.

وقد بسط لهم بيان سير القمر ومنازله لأنّهم كانوا يتقنون علمه بخلاف سير الشمس.

{ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [40]

لمّا جرى ذكر الشمس والقمر في معرض الآيات الدالة على انفراده تعالى بالخلق والتدبير وعلى صفات إلهيّته التي من متعلّقاتها تعلّق صفة القدرة بآية الشمس وسيرها، والقمر وسيره، وقد سمّاها بعض المتكلمين صفات الأفعال، وكان الناس يعرفون تقارب الشمس والقمر فيما يراه الراؤون، وكانوا يقدّرون سيرهما بأسماتٍ معلَّمة بعلامات نجومية تُسمَّى بروجا بالنسبة لسير الشمس، وتسمَّى منازل بالنسبة لسير القمر، زادهم الله عبرة وتعليما بأنّ للشمس سيرا لا يلاقي سير القمر، وللقمر سيرا لا يلاقي سير الشمس، ولا يمرّ أحدهما بطرائق مسير الأخر، وأن ما يتراءى للناس من مشاهدة الشمس والقمر في جو واحد وفي حجمين متقاربين، وما يتراءى لهم من تقارب نجوم بروج الشمس ونجوم منازل القمر، إن هو إلّا من تخيّلات الأبصار وتفاوت المقادير بين الأجرام والأبعاد.

فبيّن الله أنّه نظَّم سير الشمس والقمر على نظام يستحيل معه اتصال إحدى الكرتين بالأخرى لشدة الأبعاد بين مداريهما.

{ **لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ** } نفي انبغاء ذلك، أي: نفي تأتِّيه، لأنّ انبغى مطاوع بغى الذي هو بمعنى طلب، فانبغى يفيد أنّ الشيء طُلب فحصل للذي طلبه. فإثبات الانبغاء يفيد التمكّن من الشيء فلا يقتضي وجوبا، ونفي الانبغاء يفيد نفي إمكانه ولذلك يكنَّى به عن الشيء المحظور. يقال: لا ينبغي لك كذا. ففرق ما بين قولك: ينبغي أن لا تفعل كذا، وبين قولك: لا ينبغي لك أن تفعل كذا، قال تعالى { قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ } [الفرقان:18] وتقدّم قوله تعالى { وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً } [مريم:92]، ومنه قوله تعالى { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ } [يس: 69].

الإدراك: اللحاق والوصول إلى البغية فقوله { أَنْ تُدْرِكَ } فاعل { يَنْبَغِي }، فأفاد الكلام نفي انبغاء إدراك الشمس القمر. والمعنى: نفي أن تصطدم الشمس بالقمر.

وافتتاح الجملة بحرف النفي قبل ذكر الفعل المنفي ليكون النفي متقرّرا في ذهن السامع أقوى ممّا لو قيل: الشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر.

{ **وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ** } أي: أنّ الليل ليس بمفلت للنهار، فالسبق بمعنى التخلّص والنجاة. كقوله تعالى { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا } [العنكبوت:4]، والمعنى: أنّ انسلاخ النهار على الليل أمر مسخَّر لا قبل لليل أن يتخلّف عنه.

ولا يستقيم تفسير السبق هنا بمعناه المشهور، وهو الأوّليّة بالسير، لأنّ ذلك لا يُتصور في تداول الليل والنهار ولا أن يكون المراد بالسبق ابتداء التكوين، إذ لا يتعلق بذلك غرض مهم في الآية، على أنّ الشأن أن تكون الظلمة أسبق في التكوين.

والغرض التذكير بنعمة الليل ونعمة النهار فإنّ لكليهما فوائد للناس، فلو تخلّص أحدهما من الآخر فاستقر في الأفق لتعطلت منافع جمة من حياة الناس والحيوان.

{ **وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** } عطف على جملة { لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ }. والواو عاطفة ترجيحا لجانب الإخبار بهذه الحقيقة على جانب التذييل، وإلّا فحق التذييل الفصل.

{ **كُلٌّ** } التنوين تنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف، فالتقدير: وكلّ الكواكب.

الفَلَك: الدائرة المفروضة في الخلاء الجوّي لسير أحد الكواكب سيرا مطّردا لا يحيد عنه، فإنّ أهل الأرصاد الأقدمين لمّا رصدوا تلك المدارات وجدوها لا تتغير ووجدوا نهايتها تتصل بمبتداها فتوهّموها طرائق مستديرة تسير فيها الكواكب.

وسمَّى العرب تلك الطرائق **أفلاكا** وأحدها **فلك**، اشتقوا له اسما من اسم <u>فَلْكة المِغزل</u>، وهي عود في أعلاه خشبة مستديرة متبطحة مثل التفاحة الكبيرة تلف المرأة عليها خيوط غزلها التي تفتلها لتديرها بكفيها.

ولذلك قدّروا الزمان بأنّه حركة الفلك. وسمُّوا ما بين مبدأ المدتين حتّى ينتهي إلى حيث ابتدأ **دورة الفلك**.

والقرآن جاراهم في الاسم اللغوي، لأنّ ذلك مبلغ اللغة، واصلح لهم ما توهّموا بقوله { يَسْبَحُونَ }، فبطل أن تكون أجرام الكواكب ملتصقة بأفلاكها، ولزم من كونها سابحة <u>أنّ طرائق سيرها دوائر وهمية</u> لأنّ السبح هنا سبح في الهواء لا في الماء.

{ **يَسْبَحُونَ** } جيء بضمير جمع مع أنّ المتقدّم ذكره شيئان (الشمس والقمر) لأنّ المراد إفادة تعميم هذا الحكم للشمس والقمر وجميع الكواكب وهي حقيقة علمية سبق بها القرآن.

{ **كُلٌّ فِي فَلَكٍ** } فيها محسِّن الطرد والعكس، فإنّها تقرأ من آخرها كما تقرأ من أوّلها.

{ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ [41] وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ [42] وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ [43] إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ [44] }.

انتقال من عدّ آيات في الأرض وفي السماء إلى عدّ آية في البحر تجمع بين العبرة والمنّة وهي آية تسخير الفُلك أن تسير على الماء، وتسخير الماء لتطفو عليه دون أن يغرقها.

{ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ } ذكَّر الله الناس بآية عظيمة اشتهرت حتى كانت كالمشاهدة عندهم وهي آية إلهام نوح صنع السفينة لينجي الأنواع من الهلاك والاضمحلال بالغرق في حادث الطوفان. ولمّا كانت هذه الآية حاصلة لفائدة حمل أزواج من أنواع الحيوان جَعلت الآية نفس الحمل إدماجا للمنّة في ضمن العبرة.

{ حَمَلْنَا } أطلق على الإنجاء من الغرق على وجه المجاز المرسل للعلاقة السببية، أي: أنجينا ذرياتهم من الغرق بحملهم في الفلك حين الطوفان.

{ ذُرِّيَّتَهُمْ } والجمع ذرِّيَّات: نسل الإنسان.

{ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ } هو المعهود بين البشر في قصة الطوفان، وهو فلك نوح فقد اشتهر بهذا الوصف في القرآن كما في قوله تعالى { فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ } [الشعراء:119]، ولم يوصف غير فلك نوح بهذا الوصف.

{ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } معترضة في خلال آية البحر اقتضتها مراعاة النظير تذكيرا بنعمة خلق الإبل صالحة للأسفار.

{ مِنْ مِثْلِهِ } {مِنَ} هنا بيانية بتقديم البيان على المبين وهو جائز على الأصح. والمراد المماثلة في العظمة وقوّة الحمل ومداومة السير وفي الشكل.

{ مَا يَرْكَبُونَ } هنا الرواحل خاصة لأنّها التي تشبه الفلك في جعلها قادرة على قطع الرمال كما جعل الفلك صالحا لمخر البحار، وقد سمَّت العرب الرواحل سفائن البرّ.

{ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ } عطف على جملة { أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ } باعتبار دلالتها الكنائية على استمرار هذه الآية وهذه المنة تذكيراً بأنّ الله تعالى الذي امتنّ عليهم إذا شاء جعل فيما هو نعمة على الناس نقمة لهم لحكمة يعلمها. وهذا جري على عادة القرآن في تعقيب الترغيب بالترهيب وعكسه لئلّا يبطر الناس بالنعمة ولا ييأسوا من الرحمة.

الصريخ: الصارخ وهو المستغيث المستنجد. تقول العرب: جاءهم الصريخ، أي: المنكوب المستنجد لينقذوه، وهو فعيل بمعنى فاعل. ويطلق الصريخ على المغيث فعيل بمعنى مفعول، وذلك أن المنجد إذا صرخ به

المستنجد صرخ هو مجيبا بما يطمئن له من النصر.

{ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ } تقديم المسند إليه على المسند الفعلي لإفادة تقوي نفي الحكم وهو نفي إنقاذ أحد إياهم.

الإنقاذ: الانتشال من الماء.

المعنى: لا يجدون من يستصرخون به وهم في لجج البحر، ولا ينقذهم أحد من الغرق.

{ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ } الاستثناء منقطع، فإنّ الرحمة ليست من الصريخ ولا من المنقذ وإنّما هي إسعاف الله تعالى إيّاهم.

{ وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ } أي: إلّا رحمة هي تمتيع إلى أجل معلوم.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [45] وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ [46] }.

تخلَّص الكلام من عدم انتفاعهم بالآيات الدالة على وحدانية الله إلى عدم انتفاعهم بالأقوال المبلَّغة إليهم في القرآن؛ من المواعظ، والتذكير بما حلّ بالأمم المكذِّبة أن يصيبهم مثل ما أصابهم، وبعدم انتفاعهم بتذكير القرآن إياهم بالأدلة على وحدانية الله وعلى البعث.

{ وَإِذَا قِيلَ } بناء الفعل للمجهول لظهور أنّ القائل هو الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغه عن الله تعالى، أي: قيل لهم في القرآن.

{ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ } فُسِّرت هذه الآية بالوجهين:

فقيل: ما بين أيديكم من أمر الآخرة وما خلفكم من أحوال الأمم في الدنيا، وهو عن مجاهد عن ابن عباس.

وقيل: ما بين أيديكم أحوال الأمم في الدنيا وما خلفكم من أحوال الآخرة وهو عن قتادة وسفيان.

وتقدّم قوله تعالى { فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا } [البقرة:66].

{ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } للرجاء، أي: تُرجى لكم رحمة الله، لأنّهم إذا اتقوا حذروا واجتنبوا وبادروا بالتوبة فيما فرط فرضي ربّهم عنهم فرحمهم بالثواب وجنّبهم العقاب. والكلام في (لعلّ) الواردة في كلام الله تعالى تقدّم عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة:21].

{ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ } واقعة موقع التذييل لما قبلها، ففيها تعميم أحوالهم وأحوال ما يبلغونه من القرآن، فكأنّه قيل: وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا، والإعراض دأبهم.

{ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ } آيات القرآن التي تنزل فيقرؤها النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهم.

{ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ } للتنويه بالآيات والتشنيع عليهم بالإعراض عن كلام ربّهم كفرا بنعمة خلقه إيّاهم.

{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } [47].

كانوا مع ما هم عليه من الكرم يشحُّون على فقراء المسلمين فيمنعونهم البذل تشفِّيا منهم، فإذا سمعوا من القرآن ما فيه الأمر بالإنفاق، أو سألهم فقراء المسلمين من فضول أموالهم أو أن يعطوهم ما كانوا يجعلونه لله من أموالهم الذي حكاه الله عنهم بقوله { وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً} [الأنعام:136]. يتعلّلون لمنعهم بالاستهزاء فيقولون: لا نطعم من لو يشاء الله لأطعمه. وقد يقول بعضهم ذلك جهلا، فإنّهم كانوا يجهلون وضع صفات الله في مواضعها كما حكى الله عنهم { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [الزخرف: 20].

{ **قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } إظهار الموصول في مقام الإضمار، مع أن مقتضى الظاهر أن يقال: قالوا: أنطعم ...، لنكتة الإيماء إلى أنّ صدور هذا القول منهم إنّما هو لأجل كفرهم ولأجل إيمان الذين سُئل الإنفاق عليهم.

{ **لِلَّذِينَ آمَنُوا** } اللام يجوز أن تكون لتعدية فعل القول إلى المخاطب به، أي: خاطبوا المؤمنين بقولهم، ويجوز أن تكون اللام للعلّة، أي: قال الذين كفروا لأجل الذين آمنوا، أي: قالوا في شأن الذين آمنوا، كقوله تعالى { الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا } [آل عمران:168]، أي: قالوا ذلك تعلّة لعدم الإنفاق على فقراء المؤمنين.

{ **أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ** } الاستفهام إنكاري، أي: لا نطعم من لو يشاء الله لأطعمهم بحسب اعتقادكم أن الله هو المطعم.

{ **أَنُطْعِمُ** } التعبير في جوابهم بالإطعام مع أن المطلوب هو الإنفاق، إمّا المجرد التفنّن تجنبا لإعادة اللفظ، فإنّ الإنفاق يراد منه الإطعام، وإمّا لأنّهم سئلوا الإنفاق وهو أعم من الإطعام لأنّه يشمل الإكساء والإسكان فأجابوا بإمساك الطعام وهو أيسر أنواع الإنفاق، وإذا منعوا المؤمنين الطعام كان منعهم ما هو فوقه أحرى.

{ **إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } الجملة تعليل للإنكار المستفاد من الاستفهام. وهي من قول المشركين يخاطبون المؤمنين، أي: ما أنتم في قولكم {أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ} وما في معناه من اعتقاد أنّ الله متصرف في أحوالنا، إلّا في الضلال الواضح.

وجعلوه ضلالا لجهلهم بصفات الله، وجعلوه مبيّنا لأنّهم يحكّمون الظواهر من أسباب اكتساب المال وعدمه.

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [48] مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ [49] فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ [50] }.

ذُكر عقب استهزائهم بالمؤمنين لمّا منعوهم الإنفاق بعلّة أنّ الله لو شاء لأطعمهم، استهزاء آخر بالمؤمنين في تهديدهم المشركين بعذاب يحلّ بهم فكانوا يسألونهم: متى هذا الوعد؟

فالاستفهام مستعمل كناية عن التهكّم والتكذيب.

{ **هَذَا** } اسم الإشارة مستعمل في الاستخفاف بوعد العذاب.

{ **الْوَعْدُ** } أطلق على الإنذار والتهديد بالشرّ لأنّ الوعد أعمّ، ويتعيّن للخير والشر بالقرينة.

{ **مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً** } وإذا قد كان استهزاؤهم هذا يسوء المسلمين أعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأنّ الوعد واقع لا محالة وأنّهم ما ينتظرون إلّا صيحة تأخذهم فلا يفلتون من أخذتها.

{ **يَنْظُرُونَ** } مشتقّ من النّظِرة وهو الترقّب، وتقدّم في قوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ } [الأنعام:158].

الصيحة: الصوت الشديد الخارج من حلق الإنسان لزجر أو استغاثة. وأطلقت الصيحة في مواضع في القرآن على صوت الصاعقة كما في قوله تعالى في شأن ثمود { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ } [الحجر: 73]. فالصيحة هنا تحتمل المجاز، أي: ما ينظرون إلّا صعقة أو نفخة عظيمة. والمراد النفخة الأولى التي ينقضي بها نظام الحياة في هذا العالم، والأخرى تنشأ عنها النشأة الثانية وهي الحياة الأبدية.

فيكون أسلوب الكلام خارجا على الأسلوب الحكيم إعراضا عن جوابهم لأنّهم لم يقصدوا حقيقة الاستفهام فأجيبوا بأنّ ما أعد لهم من العذاب هو الأجدر بأن ينتظروه.

{ **تَأْخُذُهُمْ** } تهلكهم فجأة، كقوله { فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً } [الحاقة:10]. وإسناد الأخذ إلى الصيحة حقيقة عقلية لأنّهم يهلكون بصعقتها.

{ **وَهُمْ يَخِصِّمُونَ** } من الخصومة والخصام وهو الجدال، أي: تحلّ بهم وهم يختصمون. وتقدم في قوله تعالى { وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً } [النساء:105]، وقوله تعالى { هَذَانِ خَصْمَانِ } [الحج:19].

وأصله: يختصمون فوقع إبدال التاء صادا لقرب مخرجيهما طلبا للتخفيف بالإدغام.

{ **فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً** } تفريع على { تَأْخُذُهُمْ }، أي: لا يتمكّنون من توصية على أهلهم وأموالهم من بعدهم كما هو شأن المحتضر.

التوصية: مصدر وصَّى المضاعف، وتنكيرها للتقليل، أي: لا يستطيعون توصية ما.

{ **وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ** } أي: فلا يرجعون إلى أهلهم.

{ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ** } [51].

يجوز أن تكون الواو للحال والجملة موضع الحال، أي: ما ينظرون إلّا صيحة واحدة وقد نفخ في الصور.

ويجوز أن تكون الواو اعتراضية، وهذا الاعتراض واقع بين جملة { مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً } [49] وجملة { وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا } [66].

والمقصود: وعظهم بالبعث الذي أنكروه وبما وراءه.

{ **وَنُفِخَ** } الماضي مستعمل في تحقق الوقوع، مثل { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1]. والمعنى: وينفخ في الصور، أي: وينفخ نافخ في الصور، وهو الملك الموكل به، وأسمه إسرافيل. وهذه النفخة الثانية التي في قوله تعالى { ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } [الزمر:68].

{ **فَإِذَا** } للمفاجأة، وهي حصول مضمون الجملة التي بعدها سريعا وبدون تهيّؤ.

{ **هُمْ** } الضمير عائد إلى ما عادت إليه الضمائر السابقة. ويجوز أن يعود إلى معلوم من المقام، أي: فإذا الناس كلّهم ومنهم المتحدّث عنهم.

{ **الْأَجْدَاثِ** } جمع جَدَث (بالتحريك)، وهو القبر.

{ **إِلَى رَبِّهِمْ** } إلى حكم ربّهم وحسابه، وهو متعلق بـ { يَنْسِلُونَ }.

{ **يَنْسِلُونَ** } يمشون مشيا سريعا. وفعله من باب ضرب. والمصدر: النَّسَلان، على وزن الغليان، لما في معنى الفعل من التقليب والاضطراب، وتقدّم في [الأنبياء:96].

{ **قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ** } [52].

استئناف بياني عن سؤال مقدّر عن مقالهم حينما يرون حقيقة البعث.

{ **قَالُوا** } حُكي قولهم بصيغة الماضي اتباعا لحكاية ما قبله بصيغة الماضي لتحقيق الوقوع.

{ **يَا وَيْلَنَا** } كلمة يقولها الواقع في مصيبة أو المتحسِّر. وحرف النداء { **يَا** } للتنبيه وتنزيل الويل منزلة من يسمع فينادى ليحضر، وتقدّم عند قوله تعالى { قَالَتْ يَا وَيْلَتَى } [هود:72]. و**الويل**: سوء الحال.

وإنّما قالوا ذلك لأنّهم رأوا ما أُعِدَّ لهم من العذاب عندما بعثوا. وتقدّم عند قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } [البقرة:79].

{ **مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا** } استفهام عن فاعل البعث مستعمل في التعجّب والتحسّر من حصول البعث. ولمّا كان البعث عندهم محالا كنُّوا عن التعجّب من حصوله بالتعجب من فاعله، لأنّ الأفعال الغريبة تتوجه العقول إلى معرفة فاعلها.

الْمَرْقَد: مكان الرقاد. وحقيقة الرقاد: النوم. أطلقوا الرقاد على الموت والاضطجاع في القبور.

{ **هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ** } يجوز أن يكونوا يقولون ذلك كما يتكلّم المتحسّر بينه وبين نفسه، وأن يقوله بعضهم لبعض، كلٌّ يظنّ أنّ صاحبه لم يتفطن للسبب فيريد أن يعلمه به.

ومن المفسّرين من جعله من كلام الملائكة يجيبون به قول الكفار { مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا }، فهذا جواب يتضمّن بيان من بعثهم مع تنديمهم على تكذيبهم به في الحياة الدنيا حين أبلغهم الرسل ذلك عن الله تعالى.

واسم { الرَّحْمَنُ } حينئذ من كلام الملائكة لزيادة توبيخ الكفار على تجاهلهم به في الدنيا.

{ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ } [53]

فذلكة لقوله تعالى { مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً - إلى قوله - وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ } [49-52] لأنّ النفخ مرادف للصيحة في إطلاقها المجازي.

{ **وَاحِدَةً** } لأنّ ذلك الوصف هو المقصود من الاستثناء، أي: ما كان ذلك الفخ إلّا صيحة واحدة لا يكرّر استدعاؤهم للحضور، بل النفخ الواحد يخرجهم من القبور ويسير بهم ويحضرهم للحساب.

وأمّا قول تعالى { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } [الزمر:68] فتلك نفخة سابقة تقع على الناس في الدنيا فيفنى بها الناس.

{ **فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ** } بمنزلة العطف على قوله { فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ } [51]

{ **فَإِذَا** } إعادة حرف المفاجأة إيماء إلى حصول مضمون الجملتين المقترنتين بحرف المفاجأة في مثل لمح البصر حتّى كأنّ كليهما مفاجأ في وقت واحد. وتقدّم الكلام على نظير هذا التركيب آنفا.

{ **جَمِيعٌ** } نعت للمبتدأ، أي: هم جميعهم، فالتنوين عوض المضاف إليه الرابط للنعت بالمنعوت، أي: مجتمعون لا يحضرون أفواجا وزرافات، وتقدّم قوله تعالى { وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ } [32].

{ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [54].

إن كان قوله تعالى { هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ } [52] حكاية لكلام الكفار يوم البعث كان هذا كلاما من قبل الله تعالى بواسطة الملائكة وكانت الفاء في قوله { فَالْيَوْمَ } فاء فصيحة وهي التي تفصح وتنبئ عن كلام مقدّر نشأ عن قوله تعالى { فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ } [53].

والمعنى: فقد أيقنتم أنّ وعد الله حق وأنّ الرسل صدقوا فاليوم يوم الجزاء كما كان الرسل ينذرونكم.

وإن كان قوله تعالى { هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ } [52] من كلام الملائكة كانت الفاء تفريعا عليه وكانت جملة

{ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ...} [29] معترضة بين المفرّع والمفرّع عليه.

{ **فَالْيَوْمَ** } ظرف وتعريفه للعهد، وهو عهد حضور، يعني يوم الجزاء. وفائدة ذكره التنويه بذلك اليوم بأنّه يوم العدل.

{ **لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً** } أشعر بالتعريض بأنّهم سيلقون جزاء قاسياً لكنّه عادل لا ظلم فيه، لأنّ نفي الظلم يشعر بأنّ الجزاء ممّا يُخال أنّه متجاوز معادلة الجريمة.

{ **شَيْئاً** } انتصب على المفعول المطلق، أي: شيئا من الظلم.

{ **وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } أي: إلّا على وفاق ما كنتم تعملون وعلى مقداره.

{ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ [55] هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ [56] لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ [57] }.

هذا من الكلام الذي يُلقى من الملائكة، والجملة مستأنفة، وهذا ممّا يقال لمن حقّ عليهم العذاب إعلاما لهم بنزول مرتبتهم عن مراتب أهل الجنة، إعلانا بالحقائق، وإدخالا للندامة عليهم على ما فرّطوا فيه من طلب الفوز في الآخرة. وهذا يؤذن بأنّ أهل الجنّة عُجّل بهم إلى النعيم قبل أن يُبعث إلى النار أهلها، وأنّ أهل الجنّة غير حاضرين ذلك المحضر.

{ **الْيَوْمَ** } التعريف للعهد كما تقدّم. وفائدة ذكره التنويه به بأنّه يوم الفضل على المؤمنين المتّقين.

الشغل: مصدر شغله، إذا ألهاه. يقال: شغله بكذا عن كذا فاشتغل به. والظرفية مجازية، أي: أحاط بهم شغل عن مشاهدة موقف أهل العذاب، فقد صرفهم الله عن منظر المزعجات، لأنّ مشاهدتها لا تخلو من انقباض النفوس، ولكون هذا هو المقصود عدل عن ذكر ما يشغلهم إذ لا غرض في ذكره.

الفاكه: ذو الفُكاهة (بضم الفاء)، وهي المزاح بالكلام المسرّ والمضحك، وهي اسم مصدر: فكِه بكسر الكاف، إذا مزح وسرّ. قال تعالى { فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ } [الواقعة:65].

{ **هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ** } واقعة موقع البيان لجملة { إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ...} .

{ **وَأَزْوَاجُهُمْ** } الأزواج اللاتي أعدت لهم في الجنة. ومنهنّ من كنّ أزواجا لهم في الدنيا، إن كنّ غير ممنوعات من الجنة، { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ } [الرعد: 23].

{ **فِي ظِلالٍ** } قرأه الجمهور بوزن فُعال (بكسر أوّله) على جمع ظل، أي: ظل الجنات.

{ **عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ** } جمع أريكة. و**الاتكاء**: هيئة بين الاضطجاع والجلوس، وهو اضطجاع على جنب

دون وضع الرأس والكتف على الفراش. وهو جلسة أهل الرفاهية، وقد تقدم عند قوله تعالى { وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً } [يوسف:31].

وكان المترفهون من الأمم المتحضّرة يأكلون متكئين، كان ذلك عادة سادة الفرس والروم ومن يتشبّه بهم من العرب، ولذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أمّا أنا فلا آكل متكئا** ". وأمّا الاتكاء في غير حال الأكل فقد اتكأ النبيّ صلى الله عليه وسلم في مجلسه كما في حديث ضِمام بن ثعلبة وافد بني سعد بن بكر: أنّه دخل المسجد فسأل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فقيل له: " هو ذلك الأزهر المتكئ ".

{ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ }

الفاكهة: ما يؤكل للتلذّذ لا للشبع كالثمار، وإنّما خُصَّت بالذكر لأنّها عزيزة النوال للناس في الدنيا، ولأنّ شأن المتكئين أن يشتغلوا بتناول الفواكه.

{ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ } تعميم ما أعِدَّ لهم. و{ يَدَّعُونَ } يجوز أن تجعله من **(دعاء)** والافتعال هنا يجعل فعل (دعاء) قاصرا فينبغي تعليق مجرور به. والتقدير: ما يدعون لأنفسهم.

وإن جعلته من **(الادّعاء)** فمعناه: تتحدّث أنفسهم بذلك، فيؤول إلى معنى: ويتمنّون في أنفسهم دون احتياج إلى أن يسألوا بالقول، فلذلك قيل: معنى { يَدَّعُونَ } يتمنّون. يقال: ادع عليّ ما شئت، أي: تمنّ عليّ، ومنه قوله تعالى { وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ } [فصلت:31].

{ سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ } [58].

استئناف قُطع عن أن يعطف على ما قبله للاهتمام بمضمونه، وهو الدلالة على الكرامة والعناية بأهل الجنة من جانب القدس إذ يوجَّه إليهم سلام الله بكلام يعرفون أنّه من الله، إمّا بواسطة الملائكة، وإمّا بخلق أصوات يوقنون بأنّها مجعولة لأجل إسماعهم، كما سمع موسى كلام الله حين ناداه من جانب الطور من الشجرة.

فبعد أن أخبر بما حباهم به من النعيم مشيرا إلى أصول أصنافه، أخبر بأنّ لهم ما هو أسمَّى وأعلى وهو التكريم بالتسليم عليهم، قال تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة:72].

{ سَلامٌ } مرفوع في جمع القراءات المشهورة. وهو مبتدأ وتنكيره للتعظيم. ورفعه للدلالة على الدوام والتحقيق، فإنّ أصله النصب على المفعولية المطلقة نيابة عن الفعل، مثل قوله { قَالُوا سَلاماً } [هود:69].

فلمّا أريدت الدلالة على الدوام جيء به مرفوعا مثل قوله تعالى { قَالَ سَلامٌ } [هود: 69].

وحذف خبر { سَلامٌ } لنيابة المفعول المطلق **{ قَوْلاً }** عن الخبر، لأنّ تقديره: سلام يقال لهم قولا من الله.

{ مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ } تنوين { رَبٍّ } للتعظيم، ولأجل ذلك عدل عن إضافة { رَبٍّ } إلى ضميرهم، واختير في

التعبير عن الذات العلية بوصف الربّ لشدة مناسبته للإكرام والرضى عنهم بذكر أنّهم عبدوه في الدنيا فاعترفوا بربوبيّته.

{ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ } [59].

يجوز أن يكون عطفا على جملة { إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ } [55]، ويجوز أن يعطف على { سَلامٌ قَوْلاً } [58]، أي: ويقال: امتازوا اليوم أيّها المجرمون، على الضدّ ممّا يقال لأصحاب الجنّة.

والتقدير: سلام يقال لأهل الجنة قولا، ويقال للمجرمين: امتازوا، فتكون من توزيع الخطاب في مقام واحد، كقوله تعالى { يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ } [يوسف:29].

امتاز: مطاوع مازه، إذا أفرده عمّا كان مختلطا معه، وُجِّه الأمر إليهم بأن يمتازوا مبالغة في الإسراع بحصول الميز. والمراد: امتيازهم بالابتعاد عن الجنة، فيؤول إلى معنى: ادخلوا النار.

وهذا يقتضي أنّهم كانوا في المحشر ينتظرون ماذا يُفعل بهم.

{ **الْيَوْمَ** } تكرير الكلمة ثلاث مرات في هذه الحكاية للتعريض بالمخاطبين فيه، وهم الكفّار الذين كانوا يجحدون وقوع ذلك اليوم مع تأكيد ذكره على أسماعهم بقوله { فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ } [54]، وقوله { إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ } [55]، وقوله هنا { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ }.

{ **أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ** } نداؤهم بذلك للإيماء إلى علّة ميزهم عن أهل الجنة، فـ (اللام) في { الْمُجْرِمُونَ } موصولة، أي: أيّها الذين أجرموا.

{ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [60] وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [61] وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ [62] }.

إقبال على جميع البشر الذي جمعهم المحشر غير أهل الجنة الذين عُجِّلوا إلى الجنّة، فيشمل هذا جميع أهل الضلالة من مشركين وغيرهم، ولعلّه شامل لأهل الأعراف، وهو إشهاد على المشركين وتوبيخ لهم.

{ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ** } الاستفهام تقريري، وخُطبوا بعنوان { بَنِي آدَمَ } لأنّ مقام التوبيخ على عبادتهم الشيطان يقتضي تذكيرهم بأنّهم أبناء الذي جعله الشيطان عدوًّا له.

العهد: الوصاية، ووصاية الله بني آدم بألّا يعبدوا الشيطان هي ما تقرّر واشتهر في الأمم بما جاء به الرسل في العصور الماضية فلا يسع إنكاره. وبهذا الاعتبار صح الإنكار عليهم لأنّ حالهم شبيه بحال من يجحد ذلك

{ **أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ** } {أَنْ} تفسيرية، فسَّرت إجمال العهد، لأنّ العهد فيه معنى القول دون حروفه.
عبادة الشيطان: عبادة ما يأمر بعبادته من الأصنام ونحوها.
{ **إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** } تعليل لجملة { لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } وقد أغنت {أَنْ} عن فاء السببية كما تقدّم غير مرة.
{ **مُبِينٌ** } أسم فاعل من أبان بمعنى بان للمبالغة، أي: عدواته واضحة، ووجه وضوحها أنّ المرء إذ راقب عواقب الأعمال التي توسوسها له نفسه واتهمها وعرضها على وصايا الأنبياء والحكماء وجدها وخيمة.
{ **وَأَنِ اعْبُدُونِي** } عطف على { أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } بإعادة {أَنْ} التفسيرية، فهما جملتان مفسِّرتان للعهد.
{ **هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** } الإشارة للعهد المفهوم من فعل { أَعْهَدْ } أو للمذكور في تفسيره من جملتي { لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } و{ وَأَنِ اعْبُدُونِي }، أي: هذا المذكور صراطٌ مستقيم. والتنوين للتعظيم.
{ **وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً** } عطف على { إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } فعداوته واضحة بدليل التجربة فكانت علّة للنهي عن عبادة ما يأمرهم بعبادتهم. والمعنى: إنّ عداوته واضحة وضوح الصراط المستقيم لأنّها تقرَّرت بين الناس وشهدت بها العصور والأجيال، فإنّه لم يزل يُضلُّ الناس إضلالا تواتر أمره وتعذَّر إنكاره.
الجِبِلّ: (بكسر الجيم وكسر الموحدة وتشديد اللام) كما قرأه نافع وعاصم وأبو جعفر. هو الجمع العظيم، وهو مشتق من **الجَبْل** (بسكون الباء) بمعنى الخلق.
{ **أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ** } تفريع فيه توبيخ بقلّة العقل، فالاستفهام إنكاري عن عدم كونهم يعقلون، أي: يدركون، إذ لو كانوا يعقلون لتفطنوا إلى إيقاع الشيطان بهم في مهاوي الهلاك.
{ **تَكُونُوا** } زيادة فعل (الكون) للإيماء إلى أنّ العقل لم يتكوّن فيهم ولا هم كائنون به.

{ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [63] اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ [64] }.

إقبال على خطاب الذين عبدوا معبودات يسوّلها لهم الشيطان، إذ تبدو لهم جهنّم بحيث يشار إليها ويعرفون أنّها هي التي كانوا في الدنيا يُنذرون بها وتُذكر لهم في الوعيد مدّة الحياة.
{ **اصْلَوْهَا** } الأمر مستعمل في الإهانة والتنكير. من صَلِي يَصْلَى، إذا استدفأ بحر النّار، وإطلاق الصَلْي على الإحراق تهكّم.
{ **الْيَوْمَ** } تعريف العهد، أي: هذا اليوم الحاضر. وأريد به جواب ما كانوا يقولون في الحياة الدنيا من استبطاء الوعد والتكذيب، إذ يقولون { مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [48].
{ **بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** } الباء سببية، أي: بسبب كفركم في الدنيا.

{ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [65].

الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

{ الْيَوْمَ } ظرف متعلق بـ { نَخْتِمُ }، والقول فيه كالقول في نظائره الثلاثة المتقدّمة، وهو تنويه بذكره بحصول هذا الحال العجيب فيه، وهو انتقال النطق من موضعه المعتاد إلى الأيدي والأرجل.

{ أَفْوَاهِهِمْ ، أَيْدِيهِمْ ، أَرْجُلُهُمْ ، يَكْسِبُونَ } ضمائر الغيبة عائدة على الذين خوطبوا بقوله تعالى { هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } [63] على طريقة الالتفات.

ومواجهتهم بهذا الإعلام تأييس لهم بأنّهم لا ينفعهم إنكار ما أطلعوا عليه من صحائف إعمالهم، كما قال تعالى { اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً } [الإسراء:14].

وقد طوي في هذه الآية ما ورد تفصيله في آي أُخَر فقد قال تعالى { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } [الأنعام: 23/22]، وقال تعالى { وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ } [يونس:29/28].

وفي صحيح مسلم عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" يُخاطب العبد ربّه يقول: يا رب ألم تُجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: إنّي لا أجيز على نفسي إلّا شاهدا مني، فيقول الله: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، فيُختم على فيه. فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعدا لكنّ وسُحقا فعنكنّ كنت أناضل ".**

وقد يخيل تعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النور:24] ولا تعارض، لأن آية سورة يس في أحوال المشركين وآية سورة النور في أحوال المنافقين.

{ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } هو الشرك وفروعه. وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وما ألحقوا به من الأذى.

{ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ [66] وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلا يَرْجِعُونَ [67] }.

عطف على جملة { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ } [48]. والمعنى: أنّا ألجأناهم إلى الإقرار في الآخرة بأنّ ما كانوا عليه في الدنيا شرك وباطل ولو نشاء لأريناهم آياتنا في الدنيا ليرتدعوا ويرجعوا عن كفرهم وانكارهم.

{ وَلَوْ نَشَاءُ } لمّا كانت { لَوْ } تقتضي امتناعا لامتناع فهي تقتضي معنى: لكنّا لم نشأ ذلك فتركناهم على

شأنهم استدراجا وتمييزا بين الخبيث والطيب. فهذا كلام موجّه إلى المسلمين ومراد منه تبصرتهم وإرشادهم إلى الصبر على ما يلاقونه من المشركين حتّى يأتي نصر الله.

فالطمس والمسخ المتعلّقان على الشرط الامتناعي طمس ومسخ في الدنيا لا في الآخرة.

الطمس: مسخ شواهد العين بإزالة سوادها وبياضها أو اختلاطهما، وهو العمى أو العور، ويقال: طريق مطموسة، إذا لم تكن فيها آثار السائرين ليَقْفُوَها السائر.

{ **عَلَى أَعْيُنِهِمْ** } حرف الاستعلاء للدلالة على تمكّن الطمس وإلّا فإنّ (طمس) يتعدّى بنفسه.

الاستباق: افتعال من السبق، والافتعال دال على التكلّف والاجتهاد في الفعل أي: فبادروا.

{ **الصِّرَاطَ** } الطريق الذي يُمشى فيه، وتعدية فعل الاستباق إليه على حذف (إلى) بطريقة الحذف والإيصال. أو على تضمين { **فَاسْتَبَقُوا** } معنى ابتدروا، أي: ابتدروا الصراط متسابقين. وتقدّم قوله تعالى { إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ } [يوسف:17].

{ **فَأَنَّى يُبْصِرُونَ** } استفهام بمعنى (كيف) وهو مستعمل في الإنكار، أي: لا يبصرون وقد طمست أعينهم.

والمعنى: لو شئنا لعجّلنا لهم عقوبة في الدنيا يرتدعون بها فيقلعوا عن إشراكهم.

المسخ: تصيير جسم الإنسان في صورة جسم من غير نوعه، وتقدّم عند قوله تعالى { فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } [البقرة:65]. وعن ابن عباس أنّ الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام وعليه فلا شيء من الأشياء الموجودة الآن ببقية مسخ.

المكانة: تأنيث المكان على تأويله بالبقعة كما قالوا: مقام ومقامة، ودار ودارة، أي: لو نشاء لمسخنا الكافرين في الدنيا في مكانهم الذي أظهروا فيه التكذيب بالرسل فما استطاعوا انصرافا إلى ما خرجوا إليه ولا رجوعا إلى ما أتوا منه بل لزموا مكانهم لزوال العقل الإنساني منهم بسبب المسخ.

{ **وَلا يَرْجِعُونَ** } كان مقتضى المقابلة أن يقال: ولا رجوعا، ولكن عدل عن ذلك لرعاية الفاصلة فجعل قوله { وَلا يَرْجِعُونَ } عطفا على جملة { فَمَا اسْتَطَاعُوا } وليس عطفا على { مُضِيّاً } لأنّ فعل استطاع لا ينصب الجمل. والتقدير: فما مضوا ولا رجعوا فجعلنا لهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة وأرحنا منهم المؤمنين وتركناهم عبرة وموعظة لمن بعدهم.

{ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ } [68].

جعل كثير من المفسرين موقعها موقع الاستدلال على أنّ قدرة الله تعالى لا يستصعب عليها طمس أعينهم ولا مسخهم كما غيّر خلقة المعمّرين من قوّة إلى ضعف، فيكون قياس تقريب من قبيل ما يُسمَّى في أصول الفقه بالقياس الخفي وبالأَدْوَن.

وكل هذه التفسيرات بعيدة عن نظم الكلام، فالذي يظهر أنّ الذي دفع المفسّرين إلى ذلك هو ما ألفه الناس من إطلاق التعمير على طول عمر المعمَّر، فلمّا تأوَّلوه بهذا المعنى ألحقوا تأويل { نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ } على ما يناسب ذلك.

والوجه عندي أنّ لكون جملة { وَمَنْ نُعَمِّرْهُ } عطفا على جملة { وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ } [67] فهي جملة شرطية عطفت على جملة شرطية، فالمعطوف عليها جملة شرط امتناعي والمعطوفة جملة شرط تعليقي، والجملة الأولى أفادت إمهالهم والإملاء لهم، والجملة المعطوفة أفادت إنذارهم بعاقبة غير محمودة ووعيدهم بحلولها بهم، أي: إن كنّا لم نمسخهم ولم نطمس على عيونهم فقد أبقيناهم ليكونوا مغلوبين أذلّة.

فمعنى { **وَمَنْ نُعَمِّرْهُ** }، أي: من نبقيه منهم ولا نستأصله، فالتعمير بمعنى **الإبقاء**.

وهذا كالتعمير الذي في قوله تعالى { أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ } [فاطر:37]، أي: ألم نبقكم مدّة من الحياة تكفي المتأمّل، وهو المقدر بقوله تعالى { مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ }.

وليس المراد من التعمير فيها طول الحياة وإدراك الهرم كالذي في قولهم: فلان من المعمَّرين، فإنّ ذلك لم يقع بجميع أهل النار الذين خوطبوا بقوله { أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ } . وقد طويت في الكلام جملة تقديرها: ولو نشاء لأهلكناهم، يدلّ عليها قوله { وَمَنْ نُعَمِّرْهُ }، أي: نبقه حيا.

النكس: حقيقة قلب الأعلى أسفل أو ما يقرب من الأسفل، قال تعالى { نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ } [السجدة:12].

ويطلق مجازا على الرجوع من حال حسنة إلى سيئة، ولذلك يقال: فلان نكِس، إذا كان ضعيفا لا يرجى لنجدة { **نُنَكِّسْهُ** } مجاز في الإذلال بعد العزّة وسوء الحالة بعد زهرتها.

{ **فِي الْخَلْقِ** } أي نجعله ذليلا في الناس، وهو أليق بهذا المعنى دون في خلقته، لأنّ الإنكاس لا يكون في أصل الخلقة إنّما يكون في أطوارها، وقد فُسِّر بذلك قوله تعالى { وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً } [الأعراف:69] أي زادكم قوة وسعة في الأمم.

فالآية وعيد لهم ووعد للمؤمنين بالنصر على المشركين ووقوعهم تحت نفوذ المسلمين، فإنّ أولئك الذين كانوا رؤوسا للمشركين في الجاهلية صاروا في أسر المسلمين يوم بدر، وفي حكمهم يوم الفتح.

{ **أَفَلا يَعْقِلُونَ** } تفريع على الجمل الشرطية الثلاث وما تفرع عليها، استئناف إنكاري لعدم تأمّلهم في عظيم قدرة الله تعالى الدالة على أنّه لو شاء لطمس على أعينهم، ولو شاء لمسخهم على مكانتهم، وأنّه إن لم يفعل ذلك فإنّهم لا يسلمون من نصره المسلمين عليهم.

{ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ [69] لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ [70] }.

هذه الآية ترجع إلى ما تضمّنه قوله تعالى { وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ }[46] فقد بيَّنَّا أنّ المراد بالآيات آيات القرآن، فإعراضهم عن القرآن له أحوال شتى: بعضها بعدم الامتثال لما يأمرهم به من الخير مع الاستهزاء بالمسلمين وهو قوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } [47]، وبعضها بالتكذيب لما ينذرهم به من الجزاء، وهو قوله { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [48]. ومن إعراضهم عنه طعنهم في آيات القرآن بأقوال شتى منها قولهم: هو قول شاعر، فلمّا تصدّى القرآن لإبطال تكذيبهم بوعيد بالجزاء يوم الحشر، بما تعاقب من الكلام على ذلك، عاد هنا إلى طعنهم في ألفاظ القرآن. فالجملة معطوفة على جملة { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [48]، عطف القصة على القصة والغرض على الغرض.

ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافا ابتدائيا ويكون (الواو) للاستئناف، ولذلك اقتصر هنا على تنزيه القرآن عن أن يكون شعرا والنبيّ صلى الله عليه وسلم عن أن يكون شاعرا دون التعرّض لتنزيه عن أن يكون ساحرا، أو أن يكون مجنونا لأنّ الغرض الرد على إعراضهم عن القرآن.

{ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ } ما أوحينا إليه شعرا علَّمناه إيّاه.

التعليم: هنا بمعنى الوحي، أي: وما أوحينا إليه الشعر. أطلق التعليم على الوحي في قوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى } [النجم:5/4]، وقوله تعالى { وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ } [النساء:113].

وما بني عليه أسلوب القرآن من تساوي الفواصل لا يجعلها موازية للقوافي، كما يعلمه أهل الصناعة منهم، ولا أحسبهم دعوه شعرا إلّا تعجُّلا في الإبطال، أو تمويها على الإغفال، فأشاعوا في العرب أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم شاعر، وأن كلامه شعر.

روى البخاري عن ابن عباس، ومسلم عن عبد الله ابن الصامت، يزيد أحدهما على الآخر، قالا: " قال أبو ذر لأخيه (أُنَيْس بن جُنادة الغفاري) : اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنّه نبيّ يأتيه الخبر من السماء واستمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتّى قدم وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلاما ما هو بالشعر. قال أبو ذر: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر. وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على إقراء الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنّه شعر، والله إنّه لصادق وإنّهم لكاذبون ".

ومثله خبر الوليد بن المغيرة الذي رواه البيهقي وابن إسحاق: " أنّه جمع قريشا عند حضور الموسم

ليتشاوروا في أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال لهم: إنّ وفود العرب ترد عليكم فأجمعوا فيه رأيا لا يكذِّب بعضكم بعضا، فقالوا: نقول كاهن؟ فقال: والله ما هو بكاهن، وما هو بزمزمته ولا بسجعه، قالوا: نقول مجنون؟ فقال: والله ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته، [فذكر تردّدهم في وصفه إلى أن قالوا] نقول: شاعر؟ قال: ما هو بشاعر، قد عرفت الشعر كلّه رجزَه وهزجَه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه، وما هو بشاعر...".

واعلم <u>أنّ **الحكمة** في ألّا يكون القرآن من الشعر</u>، مع أن المتحدَّين به بلغاء العرب وجلّهم شعراء، **هي الجمع بين الإعجاز وبين سدّ باب الشبهة** التي تعرض لهم لو جاء القرآن على موازين الشعر، وهي شبهة الغلط أو المغالطة بعدِّهم النبيّ صلى الله عليه وسلم في زمرة الشعراء، فيحسب جمهور الناس الذين لا تغوص مدركاتهم على الحقائق أنّ ما جاء به الرسول ليس بالعجيب، وأنّ هذا الجائي به ليس بنبيّ ولكنّه شاعر، فكان القرآن معجزا لبلغاء العرب بكونه من نوع كلامهم لا يستطيعون جحودا لذلك، ولكنّه ليس من الصنف المسمَّى بالشعر بل هو فائق على شعرهم في محاسنه البلاغية، وليس هو في أسلوب الشعر بالأوزان التي ألفوها بل هو في أسلوب الكتب السماوية والذكر.

ولقد ظهرت حكمة علّام الغيوب في ذلك فإنّ المشركين لما سمعوا القرآن ابتدروا إلى الطعن في كونه منزَّلا من عند الله بقولهم في الرسول: هو شاعر، أي أنّ كلامه شعر حتى أفاقهم من غفلتهم عقلاؤهم مثل الوليد بن المغيرة، وأُنَيس بن جُنادة الغفاري، وحتّى قرعهم القرآن بهذه الآية { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ }.

{ **وَمَا يَنْبَغِي لَهُ** } جملة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين قُصد منها اتباع نفي أن يكون القرآن الموحى به للنبيّ صلى الله عليه وسلم شعرا بنفي أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم شاعرا فيما يقوله من غير ما أوحى به إليه. أي: لم يجعل له ملكة أصحاب قرض الشعر، لأنّه أراد أن يقطع من نفوس المكذِّبين دابر أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم شاعرا وأن يكون قرآنه شعرا ليتضح بهتانهم عند من له أدنى مسكة من تمييز للكلام. فتنزيه النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قول الشعر من قبيل حياطة معجزة القرآن وحياطة مقام الرسالة، مثل تنزيهه عن معرفة الكتابة.

<u>قال أبو بكر بن العربي</u>: هذه الآية ليست من عيب الشعر كما لم يكن قوله تعالى { وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ } [العنكبوت:48] من عيب الخط. فلمّا لم تكن الأميّة من عيب الخط كذلك لا يكون نفي النظم عن النبي صلى الله عليه وسلم من عيب الشعر.

ومن أجل ما للشعر من الفائدة والتأثير في شيوع دعوة الإسلام أن أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم حسانا وعبد الله بن رواحة بقوله، وأظهر استحسانه لكعب بن زهير حين أنشده القصيد المشهور: بانت سعاد.

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ** } استئناف بياني عن سؤال مقدّر عن طبيعة هذا الذي أوحي به إلى محمد صلى الله عليه وسلم . أي: ليس الذي عُلِّمه الرسول إلّا ذكرا وقرآنا.

الذكر: مصدر وصف به الكتاب المنزَّل على محمد صلى الله عليه وسلم وصفا للمبالغة، أي: إن هو إلّا مُذَكِّر للناس بما نسوه أو جهلوه. وتقدّم عند قوله { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } [الحجر:6].

القرآن: مصدر قرأ، أطلق على اسم المفعول، أي: الكلام المقروء، وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ } [يونس:61].

المبين: هو الذي أبان المراد بفصاحة وبلاغة.

{ **لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ** } متعلّق بقوله { عَلَّمْنَاهُ } باعتبار ما اتصل به من نفي كونه شعرا ثم إثبات كونه ذكرا وقرآنا، أي: وما علَّمناه إلّا ذكرا وقرآنا مبينا لينذر أو لتنذر.

الإنذار: الإعلام بأمر يجب التوقِّي منه.

الحيّ: مستعار لكامل العقل وصائب الإدراك، وهذا تشبيه بليغ، أي: من كان مثل الحيّ في الفهم.

والمقصود منه: التعريض بالمعرضين عن دلائل القرآن بأنّهم كالأموات لا انتفاع لهم بعقولهم كقوله تعالى { إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } [النمل:80].

{ **وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ** } عطف على { لِيُنْذِرَ } عطف المجاز على الحقيقة، لأنّ الـ (لام) النائب عنه (واو) العطف ليس (لام تعليل) ولكنه (لام عاقبة)، كاللام في قوله تعالى { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [القصص:8]. ففي (الواو) استعارة تبعية، وهذا قريب من استعمال المشترك في معنييه.

وفي هذه العاقبة احتباك إذ التقدير: لتنذر من كان حيا فيزداد حياة بامتثال الذكر فيفوز، ومن كان ميّتا فلا ينتفع بالإنذار فيحق عليه القول، كما قال تعالى في أوّل السورة { إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ } [11]، فجمع له بين الإنذار ابتداء والبشارة آخرا.

{ **الْقَوْلُ** } هو الكلام الذي جاء بوعيد من لم ينتفعوا بإنذار الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **الْكَافِرِينَ** } المستمرُّون على كفرهم.

وفي ذكر الإنذار عود إلى ما ابتدئت به السورة من قوله تعالى { لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ } [6]، فهو كردّ العجز على الصدر، وبذلك تمّ مجال الاستدلال عليهم وإبطال شبههم وتخلّص إلى الامتنان الآتي.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ [71] وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ [72] وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ [73]

بعد أن انقضى إبطال معاقد شرك المشركين أخذ الكلام يتطرّق غرض تذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم وكيف قابلوها بكفران النعمة وأعرضوا عن شكر المنعم وعبادته واتخذوا لعبادتهم آلهة زعما بأنّها تنفعهم وتدفع عنهم، وأدمج في التذكير بأنّ الأنعام مخلوقة بقدرة الله. فالجملة معطوفة عطف الغرض على الغرض.

{ **أَوَلَمْ** } الاستفهام إنكار وتعجيب من عدم رؤيتهم شواهد النعمة، فإن كانت الرؤية قلبية كان الإنكار جاريا على مقتضى الظاهر، وإن كانت الرؤية بصرية فالإنكار على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيل مشاهدتهم تلك المذكورات منزلة عدم الرؤية لعدم جريهم على مقتضى العلم بتلك المشاهدات الذي ينشأ عن رؤيتها ورؤية أحوالها.

{ **أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ / وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ** } إدماج شيء من دلائل الانفراد بالتصرّف في الخلق المبطلة لإشراكهم إيّاه غيره في العبادة في خلال هذا الامتنان.

{ **لَهُمْ** } محلّ الامتنان، أي: لأجلهم، فإنّ جميع المنافع التي على الأرض خلقها الله لأجل الإنسان، كما تقدّم في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً } [البقرة:29].

{ **مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا** } عبَّر عن ذلك الخلق بأنّه بيد الله استعارة تمثيلية لتقريب شأن الخلق الخفي البديع مثل قوله تعالى { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } [صّ:75]. وقرينة هذه الاستعارة ما تقرَّر من أن ليس كمثله شيء، وأنّه لا يشبه المخلوقات، فذلك من العقائد القطعية في الإسلام.

الأنعام: الإبل والبقر والغنم والمعز.

{ **فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ** } فرَّع على خلقها للناس أنَّهم لها مالكون قادرون على استعمالها فيما يشاؤون لأنّ الملك هو أنواع التصرّف. وهذا إدماج للامتنان في أثناء التذكير. وجيء بالجملة الاسمية لإفادة ثبات هذا الملك ودوامه.

{ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ [72] وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ }

التذليل: جعل الشيء ذليلا، والذليل ضدّ العزيز وهو الذي لا يدفع عن نفسه ما يكرهه. ومعنى تذليل الأنعام خلق مهانتها للإنسان في جبلّتها، فإذا زجرها الإنسان أو أمرها ذلّت له وطاعت.

الرَكوب : (بفتح الراء) المركوب مثل الحلوب وهو فعول بمعنى مفعول، فلذلك يطابق موصوفه يقال: بعير ركوب وناقة حلوبة.

المشارب: جمع مشرب، وهو مصدر ميمي بمعنى: الشرب، أريد به المفعول، أي: مشروبات.
{ **أَفَلا يَشْكُرُونَ** } فُرِّع على التذكير والامتنان استفهام تعجيبيٌّ لتركهم تكرير الشكر على هذه النعم العدّة فلذلك جيء بالمضارع المفيد للتجديد والاستمرار، لأنّ تلك النعم متتالية متعاقبة في كل حين.

{ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ [74] لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ [75] }.

عطف على جملة { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً } [71]، أي: ألم يروا دلائل الوحدانية ولم يتأمّلوا جلائل النعمة، واتخذوا آلهة من دون الله المنعم والمنفرد بالخلق. ولك أن تجعله عطفا على الجملتين المفرَّعتين، والمقصود من الإخبار باتخاذهم آلهة من دون الله التعجيب من جريانهم على خلاف حقّ النعمة ثم مخالفة مقتضى دليل الوحدانية المدمج في ذكر النعم.
{ **اللَّهِ** } الإتيان باسم الجلالة العلم دون الضمير إظهار في مقام الإضمار لما يُشعر به اسمه العلم من عظمة الإلهية إيماء إلى أنّ اتخاذهم آلهة من دونه جراءة عظيمة، ليكون ذلك توطئة لقوله بعده { فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ } [76]، أي: فإنّهم قالوا ما هو أشد نكرا.
{ **لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ** } وقعت (لعل) فيه موقعا غير مألوف لأنّ شأنها أن تفيد إنشاء رجاء المتكلّم بها وذلك غير مستقيم هنا. فإمّا أن يكون الكلام جرى على معنى الاستفهام وهو إنكاري أو تهكّمي والجملة معترضة.
وإمّا أن يُجعل الرجاء منصرفا إلى رجاء المخبر عنهم، أي: راجين أن تنصرهم تلك الآلهة. وتكون جملة { لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ } استئنافا للردّ عليهم.
المقصود: الإشارة إلى أن الكفار يزعمون أن الأصنام تشفع لهم عند الله في أمور الدنيا ويقولون {هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [يونس:18] وهم سالكون في هذا الزعم مسلك ما يألفونه من الاعتزاز بالموالاة والحلف.
{ **لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ** } ضمير { وَهُمْ } يجوز أن يعود إلى { آلِهَةً } تبعا لضمير { لا يَسْتَطِيعُونَ }. وضمير { لَهُمْ } للمشركين، أي: والأصنام للمشركين جند محضرون.
الجند: العدد الكثير. و**المحضر**: الذي جيء به ليحضر مشهدا.
والمعنى: أنّهم لا يستطيعون النصر مع حضورهم في موقف المشركين لمشاهدة تعذيبهم ومع كونهم عددا كثيرا، وهذا تأييس للمشركين من نفع أصنامهم.
ويجوز العكس، أي: والمشركين جند لأصنامهم محضرون لخدمتها.
ويجوز أن يكون هذا إخبارا عن حالهم مع أصنامهم في الدنيا وفي الآخرة.

{ **وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ** } ينبغي أن تكون الجملة في موضع الحال من ضمير { يَسْتَطِيعُونَ }، أي: ليس عدم استطاعتهم نصرهم لبعد مكانتهم وتأخّر الصريخ لهم ولكنّهم لا يستطيعون وهم حاضرون لهم.

{ فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ } [76].

{ **فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ** } فُرِّع على قوله { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً } [74]، أي تحذيره من أن يحزن لأقوالهم فيه فإنّهم قالوا في شأن الله ما هو أفظع .والنهي عن الحزن نهي عن سببه، وهو اشتغال بال الرسول بإعراضهم عن قبول الدين الحق.

{ **قَوْلُهُمْ** } من إضافة اسم الجنس فيعم، أي: فلا تحزنك أقوالهم في الإشراك وإنكار البعث والتكذيب والأذى لشخصك وللمؤمنين، ولذلك حذف المقول.

{ **إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** } تعليل للنهي عن الحزن لقولهم.

والخبر كناية عن مؤاخذتهم بما يقولون، أي: إنّا محصون عليهم أقوالهم وما تسرُّه أنفسهم ممّا لا يجهرون به فنؤاخذهم بذلك كله.

{ **مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** } والتعميم لجعل التعليل تذييلا أيضا. وقدّم الإسرار للاهتمام به لأنّه أشدُّ دلالة على إحاطة علم الله بأحوالهم، وذكر بعده الإعلان لأنّه محل الخبر، وللدلالة على استيعاب علم الله تعالى بجزئيات الأمور وكليّاتها.

{ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ [77] وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ [78] قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [79] }.

لما أُبطِلت شبه المشركين في إشراكهم بعبادة الله وإحالتهم قدرته على البعث وتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم في إنبائه بذلك إبطالا كلّيًا، عُطف الكلام إلى جانب تسفيه أقوال جزئية لزعماء المكذبين بالبعث توبيخا لهم على وقاحتهم وكفرهم بنعمة ربّهم، وهم رجال من أهل مكّة أحسب أنّهم كانوا يموِّهون الدلائل ويزيِّنون الجدل للناس ويأتون لهم بأقوال إقناعية جارية على وفق أفهام العامة.

{ **الْإِنْسَانُ** } التعريف للعهد وهو الإنسان المعيّن المعروف بهذه المقالة يومئذ. قيل أريد به أُبَي بن خلف. وقيل أريد به العاصي بن وائل، وقيل أبو جهل، وفي ذلك روايات بأسانيد، ولعل ذلك تكرَّر مرات.

قالوا في الروايات: جاء أحد هؤلاء الثلاثة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده عظم إنسان رميم ففتَّه وذراه في الريح وقال: يا محمد أتزعم أنّ الله يحيي هذا بعد ما أرم (أي: بَلِيَ) فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم "**.

وقد تقدّم أنّ قوله تعالى { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً } [مريم:66] نزل في أحد هؤلاء، وذُكر معهم الوليد بن المغيرة. ونظيره قوله تعالى { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ } [القيامة:3].

ووجه حمل التعريف هنا على التعريف العهدي أنّه لا يستقيم حملها على غير ذلك لأنّ جعله للجنس يقتضي أنّ جنس الإنسان ينكرون البعث، كيف وفيهم المؤمنون وأهل الملل، وحملها على الاستغراق أبعد إلّا أن يراد الاستغراق العرفي وليس مثل هذا المقام من مواقعه.

{ **مِنْ نُطْفَةٍ** } ذكر النطفة هنا تمهيد للمفاجأة بكونه خصيما مبينا عقب خلقه، أي: ذلك الهيّن المنشأ قد أصبح خصيما عنيدا، وليبني عليه قوله بعد { وَنَسِيَ خَلْقَهُ } أي: نسي خلقه الضعيف فتطاول وجاوز، ولأنّ خلقه من النطفة أعجب من إحيائه وهو عَظْمٌ، مجاراة لزعمه في مقدار الإمكان.

{ **فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ** } الجملة معطوفة على جملة { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ } [71]. والاستفهام كسابقه.

{ **فَإِذَا** } للمفاجأة. ووجه المفاجأة أنّ ذلك الإنسان خُلق ليعبد الله ويعلم ما يليق به فإذا لم يجر على ذلك فكأنّه فاجأ بما لم يكن مترقَّبا منه، مع إفادة أنّ الخصومة في شؤون الإلهية كانت بما بادر به حين عقل.

الخصيم: فعيل مبالغة في معنى مفاعل، أي: مخاصم شديد الخصام.

المبين: من أبان بمعنى بان، أي: ظاهر في ذلك. أي: أنّه شديد الشكيمة بعد أن كان أصله نطفة.

{ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ** } أي: أظهر للناس وأتى لهم بتشبيه حال قدرتنا بحال عجز الناس، إذ أحال إحياءنا العظام بعد أن أرمَّت، فهو كقوله تعالى { لَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ } [النحل:74]، أي لا تشبّهوه بخلقه فتجعلوا له شركاء.

ضرب المثل: إيجاده، كما يقال: ضرب خيمة، وضرب دينارا، وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:26].

المثل: تمثيل الحالة.

النسيان: هنا مستعار لانتفاء العلم من أصله، أي: لعدم الاهتداء إلى كيفية الخلق الأوّل، أي: نسي أننا خلقناه من نطفة، أي: لم يهتد إلى أنّ ذلك أعجب من إعادة عظمه، كقوله تعالى { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [ق:15].

{ **قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** } الاستفهام إنكاري. أي: لا أحد يحيي العظام وهي رميم. والجملة بيان لجملة { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً }.

الرميم: البالي، رَمَّ العظم وأَرَمَّ، إذا بَلِيَ، فهو فعيل بمعنى المصدر، يقال: رَمَّ العظم رميما.

{ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** } أُمِر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقول له ذلك.

أمر بجواب على طريقة الأسلوب الحكيم بحمل استفهام القائل على خلاف مراده، لأنّه لما قال { يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } لم يكن قاصدا تطلب تعيين المحيي وإنّما أراد الاستحالة، فأجيب جواب من هو متطلّبٌ علمًا.

فلذلك بني الجواب على فعل الإحياء مسندا للمُحيي.

على أنّ الجواب صالح لأن يكون إبطالا للنفي المراد من الاستفهام الإنكاري، كأنه قيل: بل يحييها الذي أنشأها أوّل مرة. أي: يحييها لأنّه أنشأها أوّل مرّة، فهو قادر على إنشائها ثاني مرّة. قال تعالى { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ } [الواقعة:62]، وقال { وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم:27].

{ **وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** } تذييل لهذا الاستدلال، أي: واسع العلم محيط بكل وسائل الخلق التي لا نعلمها.

{ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ } [80].

بدل من { الَّذِي أَنْشَأَهَا } [79] بدلا مطابقا. ولم تعطف الصلة على الصلة فيُكتفى بالعطف عن إعادة اسم الموصول لأن في إعادة الموصول تأكيدا للأوّل واهتماما بالثاني حتّى تستشرف نفس السامع لتلقّي ما يرد بعده فيفطن بما في هذا الخلق من الغرابة، إذ هو إيجاد الضدّ، وهو نهاية الحرارة، من ضدّه وهو الرطوبة.

{ **مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً** } ليس المراد من الأخضر اللون وإنّما المراد لازمه وهو الرطوبة، لأنّ الشجر أخضر اللون ما دام حيًّا فإذا جف وزالت منه الحياة استحال لونه إلى الغبرة، فصارت <u>الخضرة كناية عن رطوبة النبت وحياته</u>.

المراد بالشجر هنا **شجر المَرْخ** (بفتح الميم وسكون الراء) و**شجر العَفَار** (بفتح العين المهملة وفتح الفاء) فهما شجران يُقتدح بأغصانهما يؤخذ غصن من هذا وغصن من الآخر بمقدار المسواك وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ على العفار فتنقدح النار.

{ **فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ** } المفاجأة دالة على عجيب إلهام الله البشر لاستعمال الاقتداح بالشجر الأخضر واهتدائهم إلى خاصيته.

الإيقاد: إشعال النار، يقال: أوقد، ويقال: وَقَدَ. وجيء بالمسند فعلا مضارعا لإفادة تكرّر ذلك واستمراره.

{ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } [81].

عُطف هذا التقرير على الاحتجاجات المتقدِّمة على الإنسان المعني من قوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ } [77]، وذلك أنّه لما تبيّن الاستدلال بخلق أشياء على إمكان خلق أمثالها ارتقي في هذه الآية إلى الاستدلال بخلق مخلوقات عظيمة على إمكان خلق ما دونها. فإنّ البديهة قاضية بأنّ من خلق السماوات والأرض هو على خلق ناس بعد الموت أقدر.

{ مِثْلَهُمْ } الضمير عائد إلى { الْإِنْسَانُ } في قوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ } [77] على تأويله بالناس، سواء كان المراد شخصا معينا أم غير معين. فالمقصود: هو وأمثاله من المشايعين له على اعتقاده.

{ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } معترضة في آخر الكلام، أي: هو يخلق خلائق كثيرة وواسع العلم بأحوالها ودقائق ترتيبها.

{ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [82].

هذه فذلكة الاستدلال، وفصل المقال، فلذلك فُصلت عمّا قبلها كما تُفصل جملة النتيجة عن جملتي القياس، فقد نتج ممّا تقدّم أنّه تعالى إذا أراد شيئا تعلّقت قدرته بإيجاده بالأمر التكويني المعبّر عن تقريبه بـ **{ كُنْ }**، وهو أخصر كلمة تعبّر عن الأمر بالكون، أي: الاتصاف بالوجود.

{ إِنَّمَا أَمْرُهُ } الأمر هنا بمعنى الشأن، لأنّه المناسب لإنكارهم قدرته على إحياء الرميم، أي: لا شأن لله في وقت إرادته تكوين كائن إلّا تقديره بأن يوجده. فالقصر إضافي لقلب اعتقادهم أنّه يحتاج إلى جمع مادة وتكييفها ومُضيّ مدّة لإتمامها.

{ إِذَا } ظرف زمان في موضع نصب على المفعول فيه، أي: حين إرادته شيئاً.

{ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [83].

الفاء فصيحة، أي: إذا ظهر كل ما سمعتم من الدلائل على عظيم قدرة الله وتفرّده بالإلهية، وأنّه يعيدكم بعد الموت ينشأ تنزيهه عن أقوالهم في شأنه.

الملكوت: مبالغة في المِلك (بكسر الميم)، وتقدّم عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الأنعام:75].

{ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } عطف على جملة التسبيح، عطف الخبر على الإنشاء فهو ممّا شملته الفصيحة.

وتقديم { إِلَيْهِ } على { تُرْجَعُونَ } للاهتمام ورعاية الفاصلة، لأنهم لم يكونوا يزعمون أنّ ثمة رجعة إلى غيره ولكنّهم ينكرون المعاد من أصله.

والمعنى: قد اتضح أنّكم صائرون إليه غير خارجين من قبضة ملكه وذلك بإعادة خلقكم بعد الموت.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الصّافّات

اسمها المشهور المتّفق عليه (**الصّافّات**)، وبذلك سُمِّيت في كتب التفسير وكتب السنّة وفي المصاحف كلّها، ولم يثبت شيء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في تسميتها. قال في الإتقان: " رأيت في كلام الجعبري أنّ سورة (الصافات) تسمَّى (سورة الذبيح) وذلك يحتاج إلى مستند من الأثر ".

ووجه تسميتها وقوع هذا اللفظ فيها بالمعنى الذي أريد به أنّه وصف الملائكة وإن كان قد وقع في (سورة الملك) لكن بمعنى آخر إذ أريد هنالك صفة الطير، على أنّ الأشهر أنّ (سورة الملك) نزلت بعد (سورة الصافات).

وهي **مكية بالاتفاق**، وهي السادسة والخمسون في تعداد نزول السور، نزلت بعد سورة الأنعام وقبل سورة لقمان.

وعُدَّت آيها مائة واثنتين وثمانين عند أكثر أهل العدد. وعدها البصريون مائة وإحدى وثمانين.

أغراض السورة

*/ كانت فاتحتها مناسبة لأغراضها بأنّ القسم بالملائكة مناسب لإثبات الوحدانية لأنّ الأصنام لم يدعوا لها ملائكة، والذي تخدمه الملائكة هو الإله الحق، ولأنّ الملائكة من جملة المخلوقات الدال خلقها على عظم الخالق، ويؤذن القسم بأنّها أشرف المخلوقات العلوية.

*/ وفي الافتتاح بالقسم تشويق إلى معرفة المقسم عليه ليقبل عليه السامع بشراشره. فقد استكملت فاتحة السورة أحسن وجوه البيان وأكملها.

*/ إثبات وحدانية الله تعالى، وسوق دلائل كثيرة على ذلك، دلّت على انفراده بصنع المخلوقات العظيمة التي لا قبل لغيره بصنعها وهي العوالم السماوية بأجزائها وسكّانها.

*/ إثبات أنّ البعث يعقبه الحشر والجزاء.

*/ وصف حال المشركين يوم الجزاء ووقوع بعضهم في بعض.

*/ وصف حسن أحوال المؤمنين ونعيمهم. ومذاكرتهم فيما كان يجري بينهم وبين بعض المشركين من أصحابهم في الجاهلية ومحاولتهم صرفهم عن الإسلام.

*/ انتقل إلى تنظير دعوة محمد صلى الله عليه وسلم قومه بدعوة الرسل من قبله، وكيف نصر الله رسله ورفع شأنهم وبارك عليهم.

*/ أُدمِج في خلال ذلك شيء من مناقبهم وفضائلهم وقوّتهم في دين الله وما نجّاهم الله من الكروب التي حفّت بهم. وخاصة منقبة الذبيح، والإشارة إلى أنّه إسماعيل. وصف ما حل بالأمم الذين كذَّبوهم.

*/ الإنحاء على المشركين فساد معتقداتهم في الله ونسبتهم إليه الشركاء. وقولهم: الملائكة بنات الله، وتكذيب الملائكة إيّاهم على رؤوس الأشهاد. وقولهم في النبيّ صلى الله عليه وسلم والقرآن، وكيف كانوا يودُّون أن يكون لهم كتاب.

*/ وعد الله رسوله بالنصر كدأب المرسلين ودأب المؤمنين السابقين، وأنّ عذاب الله نازل بالمشركين، وتخلُص العاقبة الحسنى للمؤمنين.

{ وَالصَّافَّاتِ صَفّاً [1] **فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً** [2] **فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً** [3] **إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ** [4] }.

القسَم لتأكيد الخبر مزيد تأكيد لأنّه مقتضى إنكارهم الوحدانية، وهو قسَم واحد والمقسَم به نوع واحد مختلف الأصناف، وهو طوائف من الملائكة.

{ وَالصَّافَّاتِ / فَالزَّاجِرَاتِ / فَالتَّالِيَاتِ } عطف الصفات بالفاء يقتضي أنّ تلك الصفات ثابتة لموصوف واحد، لأنّ الأصل في العطف بالفاء اتصال المتعاطفات بها، لما في الفاء من معنى التعقيب. وتأنيث هذه الصفات باعتبار إجرائها على معنى الطائفة والجماعة ليدلّ على أنّ المراد أصناف من الملائكة لا آحاد منهم.

فعن جماعة من السلف: " أنّ هذه الصفات للملائكة ".

وقَسَمُ الله بمخلوقاته يُومئ إلى التنويه بشأن المقسَم به من حيث هو دال على عظيم قدرة الخالق أو كونه مشرَّفًا عند الله تعالى.

{ وَالصَّافَّاتِ } جمع صافَّة، وهي الطائفة المصطف بعضها مع بعض. يقال: صفَّ الأمير الجيش إذا جعله صفا واحدا أو صفوفا، فاصطفوا. ويقال: فصفُّوا، أي: صاروا مُصْطَفِّين. وتقدّم قوله تعالى { فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ } [الحج:36]، وقوله تعالى { وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ } [النور:41].

ووصف الملائكة بهذا الوصف يجوز أن يكون على حقيقته، فتكون الملائكة في العالم العلوي مصطفَّة صفوفا، وهي صفوف متقدِّم بعضها على بعض باعتبار مراتب الملائكة في الفضل والقرب.

ويجوز أن يكون كناية عن الاستعداد لامتثال ما يلقى إليهم من أمر الله تعالى، قال تعالى حكاية عنهم في هذه السورة { وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ } [165/166].

الزجر: الحثّ في نهي أو أمر بحيث لا يُترك للمأمور تباطؤ في الإتيان بالمطلوب، والمراد به: تسخير الملائكة المخلوقات التي أمرهم الله بتسخيرها خلقا أو فعلا، كتكوين العناصر، وتصريف الرياح، وإزجاء السحاب إلى الآفاق.

{ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً } المردِّدون لكلام الله تعالى الذي يتلقَّوْنه من جانب القدس لتبليغ بعضهم بعضا أو لتبليغه إلى الرسل، كما أشار إليه قوله تعالى { حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } [سبأ:23]. وبيَّنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : **" إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنّه سلسلة على صفوان، فإذا فُزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال الحق ".**

ومنه أيضا ما يتلونه من تسبيح وتقديس لله تعالى، لأنّ ذلك التسبيح لمّا كان ملقَّنا من لدن الله تعالى كان كلامهم به تلاوة.

التلاوة: القراءة، وتقدّمت في قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102]، وقوله تعالى { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ } [الأنفال:2].

الذكر: ما يُتذكَّر به من القرآن ونحوه، وتقدّم في قوله تعالى {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ} [الحجر:6]. وما تفيده الفاء من ترتيب معطوفها يجوز أن يكون ترتيبها في الفضل بأن يراد أنّ الزجر وتلاوة الذكر أفضل من الصفّ، لأنّ الاصطفاف مقدّمة لها ووسيلة، والوسيلة دون المتوسَّل إليه، وأنّ تلاوة الذكر أفضل من الزجر باعتبار ما فيها من إصلاح المخلوقات المزجورة بتبليغ الشرائع، إن كانت التلاوة تلاوة الوحي الموحى به للرسل، أو بما تشتمل علية التلاوة من تمجيد الله تعالى، فإنّ الأعمال تتفاضل تارة بتفاضل متعلّقاتها.

{ **إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ** } جواب القسم ومناط التأكيد صفة { لَوَاحِدٌ }، لأنّ المخاطبين كانوا قد علموا أنّ لهم إلاها ولكنّهم جعلوا عدّة آلهة فأبطل اعتقادهم بإثبات أنّه واحد غير متعدد.

{ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ } [5].

استئناف بياني لبيان الإله الواحد مع إدماج الاستدلال على تعيينه بذكر ما هو من خصائصه المقتضي تفرّده بالإلهية.

{ **رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } خبر لمبتدأ محذوف. والتقدير: هو رب السماوات، أي: إلهكم الواحد هو الذي تعرفونه بأنّه رب السماوات والأرض. فإنّ المشركين مع غلّوهم في الشرك لم يتجرَّأوا على ادعاء الخالقية لأصنامهم ولا التصرّف في العوالم العلوية، فكان تفرّد الله بالخالقية أفحم حجّة في بطلان إلهية الأصنام.

{ **وَرَبُّ الْمَشَارِقِ** } تخصيصها بالذكر، من بين ما بين السماوات والأرض، لأنّها أحوال مشهودة كل يوم.

المشرق: اسم لمكان شروق الشمس وهو ظهورها، فإذا راعوا الجهة دون الفصل قالوا: المشرق، بالإفراد، وإذا روعي الفصلان الشتاء والصيف قيل: رب المشرقين، والجمع باعتبار اختلاف مطلع الشمس، وهي مطالع متقاربة ليست متّحدة.

{ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ [6] وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ [7] }.

هذه الجملة تتنزّل من الجملة السابقة منزلة الدليل على أنّه ربّ السماوات. واقتصر على ربوبية السماوات لأنّ ثبوتها يقتضي ربوبية الأرض بطريق الأولى. أدمج فيها منّة على الناس بأن جعل لهم في السماء زينة

الكواكب تروق أنظارهم، فإنّ محاسن المناظر لذّة للناظرين، قال تعالى { وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النحل:6]. كما أنّ فيها منفعة دنيوية وهي الاهتداء بها في ظلمات البرّ والبحر.

ومنَّة على المسلمين بأن جعل في تلك الكواكب حفظا من تلقي الشياطين للسمع فيما قضى الله أمره في العالم العلوي، لقطع سبيل اطلاع الكهان على بعض ما سيحدث في الأرض فلا يفتنوا الناس في الإسلام كما فتنوهم في الجاهلية، وليكون ذلك تشريفا للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن قُطعت الكهانة عند إرساله.

وللإشارة إلى أنّ فيها منفعة عظيمة دينية وهي قطع دابر الشك في الوحي.

{ **السَّمَاءَ الدُّنْيَا** } إمّا لأنّها أدنى إلى الأرض من بقية السماوات، والسماء الدنيا على هذا هي الكرة التي تحيط بكرة الهواء الأرضية وهي ذات أبعاد عظيمة. ومعنى تزيينها بالكواكب والشهب على هذا أنّ الله جعل الكواكب والشهب سابحة في مقعَّر تلك الكرة على أبعاد مختلفة ووراء تلك الكرة السماوات السبع محيط بعضها ببعض في أبعاد لا يعلم مقدار سعتها إلّا الله تعالى.

ونظام الكواكب المعبر عنه بالنظام الشمسي على هذا من أحوال السماء الدنيا، ولا مانع من هذا، لأنّ هذه اصطلاحات، والقرآن صالح لها، ولم يأت لتدقيقها ولكنّه لا ينافيها. والسماء الدنيا على هذا هي التي وصفت في حديث الإسراء بالأولى.

وإما لأن المراد بالسماء الدنيا الكرة الهوائية المحيطة بالأرض وليس فيها شيء من الكواكب ولا من الشهب وأنّ الكواكب والشهب في أفلاكها وهي السماوات الست والعرش، فعلى هذا يكون النظام الشمسي كلّه ليس من أحوال السماء الدنيا. ومعنى تزيين السماء الدنيا بالكواكب والشهب، على هذا الاحتمال، أنّ الله تعالى جعل أديم السماء الدنيا قابلا لاختراق أنوار الكواكب في نصف الكرة السماوية الذي يغشاه الظلام من تباعد نور الشمس عنه فتلوح أنوار الكواكب متلألئة في الليل فتكون تلك الأضواء زينة للسماء الدنيا تزدان بها.

والآية صالحة للاحتمالين لأنّها لم يثبت فيها إلّا أنّ السماء الدنيا تزدان بزينة الكواكب، وذلك لا يقتضي كون الكواكب سابحة في السماء الدنيا.

{ **بِزِينَةٍ** } مصدر بوزن فِعله، من إضافة المصدر إلى فاعله، أي: زانتها الكواكب، أو إلى المفعول، أي: بزينة الله الكواكب. تأكيد والباء للسببية.

{ **الْكَوَاكِبِ** } الكريات السماوية التي تلمع في الليل عدا الشمس والقمر. وتُسمَّى النجوم. وتقدّم ذكر الكواكب في قوله تعالى { رَأى كَوْكَباً } [الأنعام:76].

وتقدّم الكلام على زينة السماء بالكواكب وكونها حفظا من الشياطين عند قوله تعالى { وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ } [الحجر:17/16].

{ **وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ** } الحفظ من الشياطين حكمة من حكم خلق الكواكب في علم الله تعالى لأنّ الكواكب خُلقت قبل استحقاق الشياطين الرجم، فإنّ ذلك لم يحصل إلّا بعد أن أُطْرِد إبليس من عالم الملائكة فلم يحصل شرط اتحاد المفعول لأجله مع عامله في الوقت، وأبو علي الفارسي لا يرى اشتراط ذلك.

ولك أن تجعل { حفظا } منصوبا على المفعول المطلق الآتي بدلا من فعله فيكون في تقدير: وحفظنا، عطفا على { زَيَّنَّا }، أي: حفظنا بالكواكب من كل شيطان مارد.

وليس الذي به الحفظ هو جميع الذي به التزيين بل العلّة موزعة فالذي هو زينة مشاهد الأبصار، والذي هو حفظ هو المبيّن بقوله تعالى { فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ } [10].

ومعنى كون الكواكب حفظا من الشياطين أن من جملة الكواكب الشهب التي تُرجم بها الشياطين عند محاولتها استراق السمع فتفرّ الشياطين خشية أن تصيبها.

وممّا علمتَ من تدحرج هذه الشهب من فلك الشمس إلى فلك الأرض تبيَّن لك سبب كونها من السماء الدنيا وسبب اتصالها بالأجرام الشيطانية الصاعدة من الأرض تتطلّب الاتصال بالسماوات.

وقد سُمِّيت شهبا على التشبيه بقبس النار وهو الجمر، وتقدم في قوله تعالى {أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ} [النمل:7]

المارد: الخارج عن الطاعة، قال تعالى { وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ } [التوبة:101].

وفي وصف الشيطان بالمارد إشارة إلى أنّ ما يصيب إخوانه من الضر بالشهب لا يعظه عن تجديد محاولة الاستراق لما جبل عليه طبعه الشيطاني من المداومة على تلك السجايا الخبيثة.

{ **لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ** [8] **دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ** [9] **إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ** [10] }.

اعتراض بين جملة { إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا } [6] وجملة { فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً } [11] قُصد منه وصف قصة طرد الشياطين. ويجوز جعل الجملة بيانا لكيفية الحفظ، أي: انتفى بذلك الحفظ سمع الشياطين.

{ **لا يَسَّمَّعُونَ** } قرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتشديد السين وتشديد الميم مفتوحتين على أن أصله: لا يتسمَّعون، فقلبت التاء سينا توصلا إلى الإدغام، والتسمَّع: تطلب السمع وتكلّفه.

وقرأ الجمهور { لا يَسْمَعُونَ } بسكون السين وتخفيف الميم. والقراءتان في معنى واحد.

وحاصل معنى القراءتين أنّ الشهب تحول بين الشياطين وبين أن يسمعوا شيئا من الملأ الأعلى، وقد كانوا قبل البعثة المحمدية ربّما اختطفوا الخطفة فألقوها إلى الكهّان، فلمّا بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم قدَّر

زيادة حراسة السماء بإرداف الكواكب بعضها ببعض حتّى لا يرجع من خطف الخطفة سالما، كما دلّ عليه قوله تعالى { إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ }.

فالشهب كانت موجودة من قبل وكانت لا تحول بين الشياطين وبين تلقّف أخبار مقطّعة من الملأ الأعلى فلمّا بُعث محمد صلى الله عليه وسلم حُرمت الشياطين من ذلك.

{ **إِلَى** } يشير إلى تضمين فعل { يَسَّمَّعُونَ } معنى: ينتهون فيسمعون، أي: لا يتركهم الرمي بالشهب منتهين إلى الملأ الأعلى بل تدحرهم قبل وصولهم، فلا يتلقّفون من علم ما يجري في الملأ الأعلى إلّا على أشياء مخطوفة غير متبيَّنة.

{ **الْمَلَإِ** } الجماعة أهل الشأن والقدر. والمراد بهم هنا الملائكة.

{ **الْأَعْلَى** } لتشريف الموصوف.

القذف: الرجم. وإسناد الفعل للمجهول لأنّ القاذف معلوم وهم الملائكة الموكلون بالحفظ المشار إليه في قوله تعالى { وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً } [الجن:8].

الجانب: الجهة.

{ **دُحُوراً** } الدحور: الطرد. وانتصب على أنّه مفعول مطلق لـ { يُقْذَفُونَ } .

العذاب الواصب: الدائم، يقال: وصب يصب وصوبا، إذا دام. والمعنى: أنّهم يُطردون في الدنيا ويُحقَّرون ولهم عذاب دائم في الآخرة. ويجوز أن يكون المراد عذاب القذف وأنّه واصب، أي: لا ينفكّ عنهم كلّما حاولوا الاستراق. لأنّهم مجبولون على محاولتهم.

{ **إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ** } مستثنى من ضمير { لا يَسَّمَّعُونَ } فهو في محل رفع على البدلية منه.

الخطف: ابتدار تناول شيء بسرعة، و**الخطفة** المرّة منه. فهو مفعول مطلق لـ {خَطِفَ} لبيان عدد مرّات المصدر، أي: خطفة واحدة، وهو هنا مستعار للإسراع بسمع ما يستطيعون سمعه من كلام غير تام، كقوله تعالى { يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ } [البقرة:20].

{ **فَأَتْبَعَهُ** } بمعنى تبعه، فهمزته لا تفيده تعدية، وهي كهمزة أبان بمعنى بان.

الشهاب: القبس والجمر من النار. والمراد به هنا ما يُسمَّى بالنيزك في اصطلاح علم الهيئة، وتقدّم في قوله تعالى { فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ } [الحجر:18].

الثاقب: الخارق، أي: الذي يترك ثقبا في الجسم الذي يصيبه، أي: ثاقب له.

وتقدّم الكلام على استراق السمع عند قوله تعالى { وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ } [الشعراء:211/210]

{ **فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ** } [11].

الفاء تفريع على قوله تعالى { إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ } [6]، باعتبار ما يقتضيه من عظيم القدرة على الإنشاء، أي: فسلهم عن إنكارهم البعث وإحالتهم إعادة خلقهم بعد أن يصيروا عظاما ورفاتا، أخلقهم حينئذ أشدّ علينا أم خلق تلك المخلوقات العظيمة؟

{ **فَاسْتَفْتِهِمْ** } ضمير الغيبة عائد إلى غير مذكور للعلم به من دلالة المقام وهم الذين أحالوا إعادة الخلق بعد الممات. وكذلك ضمائر الغيبة الآتية بعده.

وضمير الخطاب منه موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، أي: فسلهم يا محمد، وهو سؤال محاجّة وتغليط.

الاستفتاء: طلب الفتوى (بفتح الفاء وبالواو)، ويقال: الفُتيا (بضم الفاء وبالياء). وهي إخبار عن أمر يخفى عن غير الخواص في غرض ما. وهي: إمّا إخبار عن علمٍ مختصٍّ به المخبِر قال تعالى { يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ } [يوسف:46]، وقال { يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ } [النساء:176].

وإمّا إخبار عن رأيٍ يُطلب من ذي رأيٍ موثوق به، ومنه قوله تعالى { قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي } [النمل:32].

{ **أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا** } الهمزة للاستفهام المستعمل للتقرير بضعف خلق البشر بالنسبة للمخلوقات السماويّة، لأنّ الاستفهام يؤول إلى الإقرار.

أشدّ: أصعب وأعسر.

{ **خَلْقاً** } تمييز، أي: أخلقهم أشدّ أم خلق من خلقنا الذي سمعتم وصفه.

{ **أَمْ مَنْ خَلَقْنَا** } ما خلقه الله من السماوات والأرض وما بينهما الشامل للملائكة والشياطين والكواكب المذكورة آنفا. وهذا كقوله تعالى { أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ } [النازعات:27].

{ **إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ** } في موضع العلّة لما يتولّد من معنى الاستفهام السابق من الإقرار بأنّهم أضعف خلقا من خلق السماوات وعوالمها. والضمير عائد إلى المشركين وهو على حذف مضاف، أي: خلقنا أصلهم وهو آدم، فإنّه الذي خلق من طين لازب، فإذا كان أصلهم قد أنشئ من تراب فكيف يحيلون البعث بمقالاتهم التي منها قولهم { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } [الصافات:16].

الطين: التراب المخلوط بالماء.

اللازب: اللاصق بغيره، ومنه أطلق على الأمر الواجب: أمر لازب.

وقد قيل: إنّ باء لازب بدل من ميم لازم، والمعنى: أنّه طين عتيق صار حمأة.

{ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ [12] وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ [13] وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ [14] }.

{ **بَلْ** } للإضراب الانتقالي من التقرير التوبيخي إلى التعجيب من حالهم.

{ **عَجِبْتَ** } قرأ الجمهور بفتح التاء للخطاب. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. والفعل الماضي مستعمل في معنى الأمر، وهو من استعمال الخبر في معنى الطلب للمبالغة.

ويجوز أن يكون العجب قد حصل من النبيّ صلى الله عليه وسلم لمّا رأى إعراضهم وقلّة إنصافهم، فيكون الخبر مستعملا في حقيقته. ويجوز أن يكون الكلام على تقدير همزة الاستفهام، أي: بل أعجبت؟

والمعنى على جميع الوجوه: أنّ حالهم حَرِيَّة بالتعجّب، كقوله تعالى { وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [الرعد:5].

وقرأ حمزة والكسائي وخلف { **بَلْ عَجِبْتُ** } (بضم التاء) للمتكلم فيجوز أن يكون المراد: أنّ الله أسند العجب إلى نفسه. ويُعرف أنه ليس المراد حقيقة العجب المستلزمة الروعة والمفاجأة بأمر غير مترقَّب بل المراد التعجيب أو الكناية عن لازمه، وهو استعظام الأمر المتعجَّب منه. وإنّما عدل عن الصريح وهو الاستعظام لأنّ الكناية أبلغ من التصريح، والصارف عن معنى اللفظ الصريح في هذا الوجه ما هو معلوم من مخالفته تعالى للحوادث.

وليس لهذا الاستعمال نظير في القرآن ولكنّه تكرّر في كلام النبوّة، منه قوله صلى الله عليه وسلم: " **إنّ الله ليعجب من رجلين يقتُل أحدهما الآخر يدخلان الجنّة يقاتل هذا في سبيل الله فيُقتل ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد** " [رواه النسائي بهذا اللفظ]. يعني ثم يُسلم القاتل الذي كان كافر فيقاتل فيستشهد في سبيل الله.

وقوله في حديث الأنصاري وزوجه إذ أضافا رجلا فأطعماه عشاءهما وتركا صبيانهما: " **عجِب الله من فعالكما** ". ونزل فيهم قوله تعالى { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ } [الحشر:9]. [رواه البخاري].

وقوله صلى الله عليه وسلم: " **عجِب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل** " [رواه البخاري في الجهاد].

{ **وَيَسْخَرُونَ** } واو الحال، والجملة في موضع الحال من ضمير { عَجِبْتَ }، أي: كان أمرهم عجبا في حال استسخارهم بك في استفتائهم. وجيء بالمضارع لإفادة تجدّد السخرية، وأنّهم لا يرعَوون عنها.

السخرية: الاستهزاء، وتقدّمت في قوله تعالى { فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ } [الأنعام:10].

{ **وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ** } التذكير بأن يذكروا ما يغفلون عنه من قدرة الله تعالى عليهم، ومن تنظير حالهم بحال الأمم التي استأصلها الله تعالى، فلا يتّعظوا بذلك عنادا. أي: لا يحصل فيهم أثر التذكير.

ويجوز أن يراد لا يذكرون ما ذُكِّروا به، أي: لشدّة إعراضهم عن التأمّل فيما ذُكِّروا به، على حد قوله تعالى { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ } [الفرقان:44].

{ **وَإِذَا رَأَوْا آيَةً** } أي: خارق عادة أظهره الرسول صلى الله عليه وسلم دالا على صدقه، لأنّ الله تعالى لا

يُغيِّر نظام خلقته في العالم إلّا إذا أراد تصديق الرسول، لأنّ خرق العادة من خالق العادات وناظم سُنن الأكوان قائم مقام قوله: صدق هذا الرسول فيما أخبر به عني.
{ **يَسْتَسْخِرُونَ** } مبالغة في السخرية، فالسين والتاء للمبالغة كقوله { فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ } [آل عمران:195]. فالسخرية المذكورة سخرية من محاجة النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاهم بالأدلة.

{ **وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ [15] أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ [16] أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ [17] قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ [18] فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ [19]** }.
عطف على جملة { فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً } [11].
{ **وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ** } الإشارة إلى مضمون قوله تعالى { فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً }، وهو إعادة الخلق عند البعث. أي: أجابوا بأنّ ادعاء إعادة الحياة بعد البلى كلام سحر مبين، أي: كلامٌ لا يُفهم قُصد به سحر السامع.
{ **أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** } الاستفهام إنكاري، فلذلك كان قوله تعالى { قُلْ نَعَمْ } جوابا لقولهم { أَإِذَا مِتْنَا } على طريقة الأسلوب الحكيم بصرف قصدهم من الاستفهام إلى ظاهر الاستفهام، فجُعلوا كالسائلين: أيبعثون؟ فقيل لهم: نعم، تقريرا للبعث المُستفهم عنه، أي: نعم تبعثون.
{ **أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ** } قرأه قالون عن نافع وابن عامر وأبو جعفر بسكون واو {أَوْ} على أنّ الهمزة مع الواو حرف واحد هو (أو العاطفة) المفيدة للتقسيم هنا، ووجه العطف بـ {أو} هو جعلهم الآباء الأوّلين قِسْما آخر فكان عطفه ارتقاء في إظهار استحالة إعادة هذا القِسْم، لأنّ آباءهم طالت عصور فنائهم فكانت إعادة حياتهم أوغل في الاستحالة.
وقرأ الباقون بفتح الواو { أَوَ} على أنّ الواو واو العطف والهمزة همزة استفهام، فهما حرفان. وقُدِّمت همزة الاستفهام على حرف العطف حسب الاستعمال الكثير. والتقدير: و أآباؤنا الأولون مثلنا.
{ **قُلْ نَعَمْ** } وجيء بـ { قُلْ } غير معطوف لأنّه جار على طريقة الاستعمال في حكاية المحاورات.
{ **وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ** } جملة في موضع الحال. و**الداخر**: الصاغر الذليل، أي: تبعثون بعث إهانة مؤذنة بتقريب العقاب لا بعث كرامة.
{ **فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ** } فُرِّع على إثبات البعث الحاصل بقوله { نَعَمْ }، أنّ بعثهم وشيك الحصول لا يقتضي معالجة ولا زمنا إن هي إلّا إعادة تنتظر زجرة واحدة.
{ **هِيَ** } ضمير القصة والشأن، وهو لا معاد له إنّما تفسّره الجملة التي بعده.

الزجرة: الصيحة، وتقدّم آنفا قوله تعالى { فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً } [2].
{ **وَاحِدَةٌ** } تأكيد لما تفيده صيغة الفَعلة من معنى المّرة لدفع توهُّم أن يكون المراد من الصيحة الجنس دون الوجود، لأنّ وزن الفعلة يجيء لمعنى المصدر دون المرّة.
{ **فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ** } تفريع، ودلَّ فاء التفريع على تعقيب المفاجأة، ودل حرف المفاجأة (إذا) على سرعة حصول ذلك. وتقدّم في قوله تعالى { إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ } [يس:25].
والقول كناية عن الحياة الكاملة التي لا دهش يخالطها، لأنّ النظر لا يكون إلّا مع تمام الحياة. وأوثر النظر من بين بقية الحواس لمزيد اختصاصه بالمقام وهو التعريض بما اعتراهم من البهت لمشاهدة الحشر.

{ **وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ** } [20].

يجوز أن تكون الواو للحال، أي: يقول جميعهم: يا ويلنا، يقوله كل أحد عنه وعن أصحابه.
ويجوز أن يكون عطفا على جملة { يَنْظُرُونَ } [19]. والمعنى: ونظروا وقالوا.
الويل: سوء الحال. وحرف النداء للاهتمام. وتقدّم نظيرة في قوله تعالى { يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ } [يس:30].
{ **هَذَا** } الإشارة إلى اليوم المشاهد.
الدين: الجزاء، وتقدّم في سورة الفاتحة.

{ **هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** } [21].

يجوز أن يكون هذا كلاما موجَّهًا إليهم من جانب الله تعالى جوابا عن قولهم { يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ } [20]، والخبر مستعمل في التعريض بالوعيد.
ويجوز أن يكون من تمام قولهم، أي: يقول بعضهم لبعض { هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ }.
{ **الْفَصْلِ** } تمييز الحق من الباطل، والمراد به الحكم والقضاء.

{ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ** [22] **مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ** [23] **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ** [24] **مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ** [25] **بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ** [26] }.

تخلّص من الإنذار بحصول البعث إلى الإخبار عمّا يحلّ بهم عقبه إذا ثبتوا على شركهم وإنكارهم البعث.
{ **احْشُرُوا** } أمر، وهو يقتضي آمرا، أي: ناطقا به. وظاهر أنّه أمر من قبل الله تعالى للملائكة.

الحشر: جمع المتفرّقين إلى مكان واحد.

{ **الَّذِينَ ظَلَمُوا** } المشركون { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13].

{ **وَأَزْوَاجَهُمْ** } ظاهرة أنّ المراد به حلائلهم وهو تفسير مجاهد والحسن. وتأويله: أنهنّ الأزواج الموافقات لهم في الإشراك، أما من آمن فهنّ ناجيات من تبعات أزواجهنّ، وهذا كذكر أزواج المؤمنين في قوله { هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ } [يس:56]. وذكر الأزواج إبلاغ في الوعيد والإنذار لئلّا يحسبوا أن النساء المشركات لا تبعة عليهن.

وقيل: الأزواج: الأصناف، أي: أشياعهم في الشرك وفروعه. قاله قتادة وهو رواية عن عمر بن الخطاب وابن عباس. وعن الضحاك: " الأزواج: المقارنون لهم من الشياطين ".

{ **وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } ضمير { يَعْبُدُونَ } عائد إلى { الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ } . وما صدق (ما) غير العقلاء، فأمّا العقلاء فلا تزر وازرة وزر أخرى. إلّا من رضي بأن يكون معبودا من دون الله.

{ **فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ** } الضمير المنصوب عائد إلى { الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ }. والعطف بفاء التعقيب إشارة إلى سرعة الأمر بهم إلى النار عقب ذلك الحشر.

الهِداية و**الهَدْيُ**: الدلالة على الطريق لمن لا يعرفه، فهي إرشاد إلى مرغوب وقد غلبت في ذلك، لأنّ كون المهدي راغبا في معرفة الطريق من لوازم فعل الهداية ولذلك تُقابل بالضلالة وهي الحيرة في الطريق. فاللفظة هنا تهكّم بالمشركين.

الصراط: الطريق، أي: طريق جهنم.

{ **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ** } أمر بإيقافهم في ابتداء السير بهم، أي: أحبسوهم عن السير قليلا ليُسألوا.

{ **مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ** } الجملة مبيّنة لإبهام { مَسْئُولُونَ }. والاستفهام مستعمل في التعجيز والتعجيب، أي: أنّ هذه الحالة تستوجب التعجّب من عدم تناصركم. وفيه تنبيه على الخطأ الذي كانوا فيه في الحياة الدنيا. أي: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضا فيدفع عنه الشقاء الذي هو فيه؟ وأين تناصركم الذي كنتم تتناصرون في الدنيا وتتألبون على الرسول وعلى المؤمنين؟

{ **بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ** } الإضراب المستفاد من { **بَل** } إضراب لإبطال إمكانية التناصر بينهم، وليس ذلك مما يتوهّمه السامع، فلذلك كان الإضراب تأكيدا لما دلّ عليه الاستفهام من التعجيز.

الاستسلام: الإسلام القويّ، أي: إسلام النفس وترك المدافعة فهو مبالغة في أسلم.

{ **الْيَوْمَ** } ذكره لإظهار النكاية بهم، أي: زال عنهم ما كان لهم من تناصر وتطاول على المسلمين في الدنيا.

{ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ [27] قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ [28] قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ [29] وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ [30] فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ [31] فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ [32] }.

عطف على { مُسْتَسْلِمُونَ }، أي: استسلموا وعاد بعضهم على بعض باللائمة.

المتسائلون: المتقاولون وهم زعماء أهل الشرك ودهماؤهم كما تبيّنه حكاية تحاورهم.

{ **وَأَقْبَلَ** } عُبِّر عن إقبالهم بصيغة الماضي ممّا سيقع في القيامة، تنبيها على تحقيق وقوعه لأنّ لذلك مزيد تأثير في تحذير زعمائهم من التغرير بهم، وتحذير دهمائهم من الاعتزاز بتغريرهم.

الإقبال: المجيء من جهة قُبُل الشيء، أي: من جهة وجهه، وهو مجيء المتجاهر بمجيئه غير المُتختِّل الخائف. واستعير هنا للقصد بالكلام والاهتمام به كأنّه جاءه من مكان آخر.

{ **قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ** } حاصل المعنى حكاية عتاب ولوم توجّه به الذين اتبعوا على قادتهم. ودلالة التركيب أن يكون الإتيان أطلق على الدعاية والخطابة فيهم، لأنّ الإتيان يتضمّن القصد دون إرادة مجيء. وقد تقدّم استعماله واستعمال مرادفه وهو المجيء معا في قوله تعالى { قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ } [الحجر:64/63].

أو أن يكون اليمين مرادا به جهة الخير لأنّ العرب تضيف الخير إلى جهة اليمين. وقد اشتقت من **اليُمْن** وهو البركة، وهي مؤذنة بالفوز بالمطلوب عندهم. وعلى ذلك جرت عقائدهم في زجر الطير والوحش من التيمُّن بالسانح، وهو الوارد من جهة يمين السائر، والتشاؤم، أي ترقُّب ورود الشر من جهة الشمال.

وكان حق فعل { تَأْتُونَنَا } أن يُعدَّى إلى جهة اليمين بحرف (من) فلمّا عُدِّي بحرف { عَنِ } الذي هو للمجازة تعين تضمين { تَأْتُونَنَا } معنى (تصدّوننا) ليلائم معنى المجاوزة، أي: تأتوننا صادِّيننا عن اليمين، أي: عن الخير.

{ **بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** } جواب الزعماء إضراب إبطال لزعم الأتباع أنّهم الذين صدّوهم عن طريق الخير. أي: بل كنتم أنتم الآبين قبول الإيمان.

{ **وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ** } أي: من قهر وغلبة حتّى نكرهكم على رفض الإيمان.

{ **بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ** } تأكيد لقولهم السابق، أي: كان الطغيان، وهو التكبّر عن قَبول دعوة رجل منكم، شأنكم وسجيّتكم.

{ **كُنْتُمْ قَوْماً** } أقحموا لفظ { قَوْمًا } بين (كان) وخبرها لأنّ استحضارهم بعنوان القومية في الطغيان يؤذن بأنّ الطغيان من مقوّمات قوميتهم، كما قدّمنا عند قوله تعالى { لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [البقرة:164].

{ **فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ** } فرّعوا على كلامِّهم اعترافهم بأنّهم جميعا استحقّوا العذاب.

{ **فَحَقَّ** } هنا بمعنى ثبت.

{ **إِنَّا لَذَائِقُونَ** } بيان لـ { قَوْلُ رَبِّنَا }. وحُكِي القول بالمعنى على طريقة الالتفات ولولا الالتفات لقال: إنّكم لذائقون، أو لقيل: إنّهم لذائقون. <u>ونكتة الالتفات زيادة التنصيص على المعني بذوق العذاب</u>.

والمفعول محذوف لدلالة المقام عليه وهو الأمر بقوله تعالى { فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ } [23].

{ **فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ** } فَرَّعوا على مضمون ردِّهم عليهم من قولهم { بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ - إلى قولهم - قَوْماً طَاغِينَ }، أي: ما أكرهناكم على الشرك ولكنّا وجدناكم متمسّكين به وراغبين فيه فأغويناكم.

{ **إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ** } موقع هذه الجملة موقع العلّة. و(إن) مغنية غناء لام التعليل وفاء التفريع.

{ **كُنَّا** } زيادة للدلالة على تمكين الغواية من نفوسهم، وقد استبان لهم أنّ ما كانوا عليه غواية فأقروا بها.

{ **فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ [33] إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ [34]** }.

هذا الكلام من الله تعالى موجَّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ويُشبه أن يكون اعتراضا بين حكاية حوار الله أهل الشرك في القيامة وبين توبيخ الله إيّاهم بقوله { إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ } [38].

{ **فَإِنَّهُمْ** } الفاء للفصيحة، لأنّها وردت بعد تقرير أحوال، وكان ما بعد الفاء نتيجة لتلك الأحوال، فكانت الفاء مفصحة عن شرط مقدَّر، أي: إذ كان حالهم كما سمعتم فإنّهم يوم القيامة في العذاب مشتركون، لاشتراكهم في الشرك وتمالئهم، أي: لا عذر للكلام للفريقين؛ لا للزعماء بتسويلهم ولا للدهماء بنصرهم.

وقد يكون عذاب الدعاة المغوين أشدّ من عذاب الآخرين وذلك لا ينافي الإشراك في جنس العذاب كما دلّت عليه أدلة أخرى، لأنّ المقصود هنا بيان عدم إجداء معذرة كلا الفريقين وتنصّله.

{ **إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ** } تعليل لما اقتضته الجملة السابقة، أي: فإنّ جزاء المجرمين يكون مثل ذلك الجزاء في مؤاخذة التابع والمتبوع.

{ **بِالْمُجْرِمِينَ** } المشركون، أي: المجرمين مثل جرمهم، وقد بيَّنته الآية اللاحقة.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ** [35] **وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ** [36] }.

استئناف بياني أفاد تعليل جزائهم وبيان إجرامهم بذكر ما كانوا عليه من التكبّر عن الاعتراف بالوحدانية لله ومن وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بما هو منزّه عنه، وصفا يرمون به إلى تكذيبه فيما جاء به.

{ **إِنَّهُمْ** } فحرف (إن) هنا ليس للتأكيد لأنّ كونهم كذلك ممّا لا منازع فيه وإنّما هو للاهتمام بالخبر، فلذلك يفيد التعليل والربط ويغني غناء فاء التفريع.

{ **كَانُوا** } ذكر فعل الكون ليدل على أنّ ما تضمّنه الخبر وصف متمكِّن منهم.

{ **إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ** } يقال لهم على سبيل الدعوة والتعليم. وفاعل القول النبيّ صلى الله عليه وسلم، حُذف للعلم به.

الاستكبار: شدّة الكبر، فالسين والتاء للمبالغة، أي: يتعاظمون عن أن يقبلوا ذلك من رجل مثلهم.

ولك أن تجعل السين والتاء للطلب، أي: إظهار التكبّر، أي: يبدو عليهم التكبّر من هذا القول.

{ **وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ** } يقوله بعضهم لبعض ويقارن استكبارهم. أي: لا نترك آلهتنا لشاعر مجنون.

{ **لِشَاعِرٍ** } لام العلة والأجل، أي: لأجل شاعر، أي: لأجل دعوته.

{ **لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ** } قول موزع، أي: يقول بعضهم: هو شاعر، وبعضهم: هو مجنون، أو يقولون مرة: شاعر، ومرة: مجنون، كما في الآية الأخرى { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } [الذريات:52].

{ **بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ** } [37]

اعتراض في آخر الاعتراض قُصدت منه المبادرة بتنزيه النبيّ صلى الله عليه وسلم عمّا قالوه.

{ **بَلْ** } إضراب إبطال لقولهم { لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ } [36] وبإثبات صفته الحق لبيان حقيقة ما جاء به.

{ **جَاءَ بِالْحَقِّ** } هذا الوصف يكفي لنفي أن يكون شاعرا ومجنونا، فإنّ المشركين ما أرادوا بوصفه بشاعر أو مجنون إلّا التنفير من اتِّباعه فمثَّلوه بالشاعر يهجو أعداء قبيلته، أو بالمجنون يقول ما لا يقوله العقلاء.

{ **وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ** } تذكيرهم بأنّه ما جاء إلّا بمثل ما جاءت به الرسل من قبله، فكان الإنصاف أن يُلحقوه بالفريق الذي شابههم. أي: أنّ ما دعاكم إليه من التوحيد قد دعت إليه الرسل من قبله. وهذا احتجاج بالنقل عقب الاحتجاج بأدلة النظر.

{ **إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ** [38] **وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** [39] }.

هذا من كلام الله يوم القيامة الموجّه إلى المشركين عقب تساؤلهم وتحاورهم، فيكون ما بين هذا وبين محاورتهم المنتهية بقولهم { إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ } [32]اعتراضا، أي: فلمّا انتهوا من تحاورهم خُوطبوا بما يقطع طمعهم في قبول تنصّل كِلَا الفريقين من تبعات الفريق الآخر ليزدادوا تحقُّقا من العذاب الذي علموه من قولهم { فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ } [31]،

{ **لَذَائِقُو** } اسم الفاعل حقيقة في الحال، أي: حال التلبّس، فإنّه لمّا قيل لهم هذا كانوا مشريفين على الوقوع في العذاب. وذلك زمن حال في العرف العربي.

{ **وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } لمّا وُصف عذابهم بأنّه أليم عطف عليه إخبارهم بأنّ ذلك المقدار لا حيف عليهم فيه لأنّه على وفاق أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا من آثار الشرك، والحظ الأكبر من ذلك الجزاء هو حظ الشرك، ولكن كُنِّي عن الشرك بأعماله، وأمّا هو فهو أمر اعتقادي.

وفي هذا دليل على أنّ الكفّار مجازَوْن على أعمالهم السيئة من الأقوال والأفعال. وهو يؤيّد قول الذين ذهبوا إلى أنّ الكفّار مخاطبون بفروع الشريعة.

{ **إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** [40] **أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ** [41] **فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ** [42] **فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** [43] **عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ** [44] **يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ** [45] **بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ** [46] **لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ** [47] **وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ** [48] **كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ** [49] }.

{ **إِلَّا** } استثناء منقطع في معنى الاستدراك، والاستدراك تعقيب الكلام بما يضاده، وهذا الاستدراك تعقيب على قوله تعالى { فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ } [33]، فإنّ حال عباد الله المخلصين تام الضدّيَّة لحال الذين ظلموا، وليس يلزم في الاستدراك أن يكون رفع توهّم وإنّما ذلك غالب.

{ **عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** } ذكر المؤمنين بوصف العبودية المضافة لله تعالى تنويه بهم وتقريب، وذلك اصطلاح غالب في القرآن في إطلاق العبد والعباد مضافا إلى ضميره تعالى كقوله تعالى { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ } [صٓ:17]، وقوله تعالى { وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } [صٓ:45]، وقوله تعالى { يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ } [الزخرف:68].

وربما أطلق العبد غير مضاف مرادًا به التقريب أيضا كقوله { وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ } [صٓ:30].

والمراد هنا الذين آمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فإنّهم الذين يخطرون بالبال عند ذكر أحوال المشركين.

{ **الْمُخْلَصِينَ** } صفة عباد الله وهو (بفتح اللام) إذا أريد الذين أخلصهم الله لولايته، (وبكسرها) الذين أخلصوا دينهم لله. فقرأه نافع وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بفتح اللام. وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر اللام.

{ **أولئك** } إشارة إلى { عِبَادَ اللَّهِ }، قُصد منه التنبيه على أنّهم استحقوا ما بعد اسم الإشارة لأجل مما أُثْبِت لهم من صفة الإخلاص.

الرزق: الطعام، قال تعالى { وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً } [آل عمران:37].

المعلوم: الذي لا يتخلّف عن ميعاده ولا ينتظره أهله.

{ **فَوَاكِهُ** } عطف بيان من { رِزْقٌ }. والمعنى: أنّ طعامهم كلّه من الأطعمة التي يُتفكَّه بها لا ممّا يؤكل لأجل الشبع. و**الفواكه**: الثمار والبقول اللذيذة.

{ **وَهُمْ مُكْرَمُونَ** } عطف على { لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ }، أي: يعاملون بالحفاوة والبهجة. فإنّه وسط في أثناء وصف ما أُعِدَّ لهم من النعيم الجسماني، لأنّ به انتعاش النفس، مع ما في ذلك من خلوص النعمة ممّن يكدّرها، وذلك لأنّ الإحسان قد يكون مقترنا بأذى وذلك يكدّر من صفوه، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى } [البقرة:264]، فإذا كان الإحسان مع عبارات الكرامة فذلك الثواب.

{ **سُرُرٍ** } جمع سرير وهو ككرسي واسع يمكن الاضطجاع عليه، وكان الجلوس على السرير من شعار الملوك وأضرابهم، وذلك جلوس أهل النعيم، لأنّ الجالس على السرير لا يجد ملا لأنّه يغير جلسته.

{ **مُتَقَابِلِينَ** } كلّ واحد قبالة الآخر. وهذا أتم للأنس لأنّ فيه أنس الاجتماع وأنس نظر بعضهم إلى بعض.

{ **يُطَافُ** } يدار عليهم وهم في مجالسهم.

الكأس: تكون من فضة ومن ذهب ومن خزف ومن زجاج، وتُسمَّى قدحا وهو مذكر. وجمعها: كاسات وكؤوس وأكؤس. وكانت خاصة بسقي الخمر حتّى كانت الكأس من أسماء الخمر تسمية باسم المحل.

وقد قيل: لا يسمى ذلك الإناء كأسا إلا إذا كانت فيه الخمر وإلّا فهو قدح.

والمعني بها في الآية الخمر لأنّه أفراد الكأس مع أنّ المطوف عليهم كثيرون، ولأنّها وصفت بأنّها { مِنْ مَعِينٍ }. وروى ابن أبي شيبة والطبري عن الضحاك أنّه قال: " كلّ كأس في القرآن إنّما عني بها الخمر". وروي مثله عن ابن عباس وقال به الأخفش.

{ **مِنْ مَعِينٍ** } بفتح الميم، قيل أصله: مَعْيُون. فقيل: ميمه أصلية، وهو مشتق من مَعَنَ يقال: ماء مَعَنٌ، مثال مبالغة من (المَعْن) وهو الإبعاد في الفعل، شُبِّه جريه بالإبعاد في المشي، وهذا أظهر في الاشتقاق.

{ **بَيْضَاءَ** } صفة لـ { بِكَأْسٍ }. وإذ قد أريد بالكأس الخمر الذي فيها كان وصف { بَيْضَاءَ } للخمر.

اللذة: ما تجده النفس من راحة وسرور. يقال: لذَّه ولذَّ به، والمصدر: اللذة واللذاذة.

{ **لا فِيهَا غَوْلٌ** } صفة رابعة لكأس باعتبار إطلاقه على الخمر .و**الغَوْل**: (بفتح الغيْن) ما يعتري شارب الخمر من الصداع والألم، اشتق من الغول مصدر غاله، إذا أهلكه. وهذا في معنى قوله تعالى { لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا } [الواقعة:19].

{ **وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ** } معطوفة على جملة { لا فِيهَا غَوْلٌ }. مبني للمجهول عند الجمهور. يقال: نزف الشارب، شَبَّهوا عقل الشارب بالدم يقال: نزف دم الجريح، أي: أفرغ. وأصله من: نَزَفَ الرجُلُ ماء البئر: إذا نزحه ولم يبق منه شيئا.

وقرأه حمزة والكسائي وخلف { يُنْزِفُونَ } (بضم الياء وكسر الزاي) من أُنزف الشاربُ، إذا ذهب عقله، أي: صار ذا نزف، فالهمزة للصيرورة لا للتعدية.

{ **قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ** } أي: حابسات أنظارهن حياء وغَنجا. و**الطرف**: العين، وهو مفرد لا جمع له من لفظه لأنّ أصل الطرف مصدر: طرف بعينه من باب ضرب، إذا حرك جفنيه، فسُمِّيت العين طرفا، فالطرف هنا الأعين، أي: قاصرات الأعين، وتقدّم عند قوله تعالى { لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ } [إبراهيم:43]، وقوله تعالى { قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } [النمل:40].

{ **عِينٌ** } جمع: عيناء، وهي المرأة واسعة العين.

{ **كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ** } هو بيض النعام، والنعام يُكِنُّ بيضه في حفر في الرمل ويفرش لها من دقيق ريشه، وتُسمَّى تلك الحفر: الأداحِيَّ، واحدتها أدْحِيَةٌ، بوزن أثفية. فيكون البيض شديد لمعان اللون، وهو أبيض مشوب بياضه بصفرة، وذلك اللون أحسن ألوان النساء، وقديما شبهوا الحسان ببيض النعام.

{ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ [50] قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ [51] يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ [52] أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ [53] قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ [54] فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ [55] قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ [56] وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ [57]** }.

الفاء للتفريع، لأنّ شأن المتجالسين في مسرَّة أن يشرعوا في الحديث. فإذا استشعروا أنّ ما صاروا إليه من النعيم كان جزاء على ما سبق من إيمانهم وإخلاصهم تذكَّر بعضهم من كان يجادله في ثبوت البعث والجزاء فحمد الله على أن هداه لعدم الإصغاء إلى ذلك الصادِّ فحدَّث بذلك جلساءه وأراهم إيّاه في النار.

وهذا يدلّ على أنّ الناس في الآخرة تعود إليهم تذكراتهم التي كانت لهم في الدنيا مصفَّاة من الخواطر السيِّئة والأكدار النفسانية، مدركة الحقائق على ما هي عليه.

وجيء في حكاية هذه الحالة بصيغ الفعل الماضي مع أنّها مستقبلة لإفادة تحقيق وقوع ذلك حتّى كأنّه قد وقع على نحو قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [النحل:1]، والقرينة هي التفريع على الأخبار المتعلقة بأحوال الآخرة.
{ يَتَسَاءَلُونَ } أن يسأل بعضهم بعضا، وحُذف المتساءل عنه لدلالة ما بعده عليه، وقد بيّن نحوًا منه قوله تعالى { فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ } [المدثر:40-42].
{ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ } بدل اشتمال من جملة { يَتَسَاءَلُونَ }، أي: قال أحدهم في جواب سؤال بعضهم، فإن معنى التساؤل يشتمل على معنى الجواب فلذلك جعلناه بدل اشتمال لا بدل بعض ولا عطف بيان.
القرين: المصاحب الملازم، شُبِّهت الملازمة الغالبة بالقرن بين شيئين بحيث لا ينفصلان.
وقد فسّر بعض المفسرين القرين هنا بالشيطان الذي يلازم الإنسان لإضلاله وإغوائه. وطريق حكاية تصدِّي القائل من أهل الجنة لإخبار أهل مجلسه بحاله يبطل هذا التفسير لأنّه لو كان المراد الشيطان لكان إخباره به غير مفيد فما من أحد منهم إلّا كان له قرين من الشياطين، وما منهم إلّا عالم بأنّ مصير الشياطين إلى النار.
{ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ } أي: يقول له صاحبه لمّا أسلم وبقي صاحبه على الكفر، يجادله في الإسلام ويحاول تشكيكه في صحّته رجاء أن يرجع به إلى الكفر. والاستفهام مستعمل في الإنكار، أي: ما كان يحقّ لك أن تصدِّق بهذا.
المصدِّق: الموقن بالخبر.
{ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ } بيان لجملة { أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ } بيَّنت الإنكار المجمل بإنكار مفصّل، وهو إنكار أن يُبعث الناس بعد تفرّق أجزائهم وتحولها ترابا بعد الموت ثم يجازوا.
المَدِين: المُجَازَى. يقال: دانه يدينه، إذا جازاه، والأكثر استعماله في الجزاء على السوء، والدين: الجزاء.
{ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ } بدل اشتمال من جملة { قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ } لأنّ هذا القول ممّا اشتمل عليه قوله الأول إذ هو تكملة. والاستفهام مستعمل في العرض، عرض على رفقائه رؤية قرينه وما صار إليه، وذلك: إمّا لأنّه علم أنّ قرينه مات على الكفر بأن يكون قد سبقه بالموت، وإمّا لأنّه ألقي في روعه أنّ قرينه صار إلى النار. وحذف متعلق { مُطَّلِعُونَ } لدلالة آخر الكلام عليه { فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ } . فالتقدير: هل أنتم مطلعون على أهل النار لننظره فيهم.
{ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ } في الكلام اكتفاء، أي: فاطلع واطَّلعوا فرآه ورأوه في سواء الجحيم.
{ سَوَاءِ الْجَحِيمِ } وسطها.
{ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ } مستأنفة استئنافا بيانيا عن سؤال مقدّر عن قوله عندما رأى قرينه، ماذا قال؟ والقول توبيخ يتضمّن تنديمه على محاولة إرجاعه عن الإسلام.
{ تَاللَّهِ } القسم بالتاء من شأنه أن يقع فيما جواب قسمه غريب، كما في قوله تعالى { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ }

[يوسف:73]، وقوله تعالى { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ } [الأنبياء:57]. ومحل الغرابة هو اختلاف حال عاقبتيهما مع ما كانا عليه من شدّة الملازمة والصحبة.

{ **لَتُرْدِينِ** } توقعني في الردى وهو الهلاك، واصل الردى: الموت ثم شاعت استعارته لسوء الحال تشبيها بالموت لِمَا شاع من اعتبار الموت أعظم ما يصاب به المرء.

{ **وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ** } أي: لولا نعمة هداية الله وتثبيته لكنت من المحضرين معك في العذاب. وقد كثر إطلاق المحضر ونحوه على الذي يحضر لأجل العقاب.

{ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ [58] إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ [59] إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [60] }.

الاستفهام موجَّه من هذا القائل إلى بعض المتسائلين. وهو مستعمل في التقرير المراد به التذكير بنعمة الخلود، فإنّه بعد أن اطلعهم على مصير قرينه السوء أقبل على رفاقه بإكمال حديثه تحدُّثا بالنعمة واغتباطا وابتهاجا بها.

{ **إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى** } الاستثناء منقطع لأنّ الموت المنفي هو الموت في الحال.

{ **وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** } ليتمحّض الاستفهام للتحدُّث بالنعمة، لأنّ المشركين أيضا ما هم بميّتين ولكنّهم معذبون فحالهم شرّ من الموت.

{ **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } الظاهر أنّ الجملة حكاية لبقية كلام القائل لرفاقه، فهي بمنزلة التذييل والفذلكة.

{ **الفوز** } :الظفر بالمطلوب، أي: حالنا هو النجاح والظفر العظيم. فالحصر للمبالغة لعدم الاعتداد بغيره، ثم ألحقوا ذلك الحصر بوصفه بـ { العظيم }.

{ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ } [61]

هذا تذييل لحكاية حال عباد الله المخلَصين فهو كلام من جانب الله تعالى للتنويه بما هم فيه، وللتحريض على العمل بمثل ما عملوه ممّا أوجب لهم إخلاص الله تعالى إيّاهم.

{ **لِمِثْلِ هَذَا** } الإشارة إلى ما تضمَّنه قوله تعالى { أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ } [41]، أي: لمثل نعيمهم وأنسهم ومسرّتهم ولذّاتهم وبهجتهم وخلود ذلك كلّه.

{ **فَلْيَعْمَلِ** } الأمر للإرشاد الصادق بالواجبات والمندوبات.

{ **الْعَامِلُونَ**} الذين يعملون الخير ويسيرون على ما خطت لهم شريعة الإسلام.

{ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ [62] إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ [63] إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ [64] طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ [65] فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ [66] ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ [67] ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ [68] }.

استئناف بعد تمام قصة المؤمن ورفاقه قُصد منه التنبيه إلى البون بين حال المؤمن والكافر جرى على عادة القرآن في تعقيب القصص والأمثال بالتنبيه إلى مغازيها ومواعظها.

فالمقصود بالخبر هو قوله تعالى { إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ...}. وإنما صيغ الكلام على هذا الأسلوب للتشويق إلى ما يرد فيه.

{ **أَذَلِكَ خَيْرٌ** } الاستفهام مُكنًّى به عن التنبيه على فضل حال المؤمن وفوزه وخسار الكافر. والخطاب لكل سامع. والاشارة بـ (ذلك) إلى ما تقدّم من حال المؤمنين في النعيم والخلود.

النُزُل: (بضمّتين)، ويقال: نُزْل (بضم وسكون)، في أصل اللغة: المكان الذي ينزل فيه النازل. وأطلق إطلاقا شائعا كثيرا على الطعام المهيّأ للضيف لأنّه أعدَّ له لنزوله، تسمية باسم مكانه.

ويجوز أن يكون المراد من النزل هنا طعام الضيافة في الجنّة.

{ **أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ** } شجرة الزقوم ذُكرت هنا ذكر ما هو معهود من قبل لورودها معرفة بالإضافة لوقوعها في مقام التفاوت بين حالي خير وشر فيناسب أن تكون الحوالة على مثلين معروفين.

فإمّا أن يكون اسما جعله القرآن لشجرة في جهنم ويكون سبق ذكرها في { ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ } [الواقعة:52/51]، وكان نزولها قبل سورة الصافات.

ويبين هذا ما رواه الكلبي: " أنّه لما نزلت هذه الآية (آية سورة الواقعة) قال ابن الزِّبَعْرَى: " أكثر الله في بيوتكم الزقوم، فإنّ أهل اليمن يسمُّون التمر والزبد بالزقوم. فقال أبو جهل لجاريته: " زقمينا " فأتته بزبد وتمر فقال: " تزقموا ".

وإمّا أن يكون اسما لشجر معروف هو مذموم، قيل: " هو شجر من أخبث الشجر يكون بتِهامة وبالبلاد المجدبة المجاورة للصحراء كريهة الرائحة صغيرة الورق مسمومة ذات لبن إذا أصاب جلد الإنسان تورم ومات منه في الغالب ". قاله قطرب وأبو حنيفة.

وتصدّي القرآن لوصفها المفصّل هنا يقتضي أنّها ليست معروفة عندهم فذَكَرَها مجملة في سورة الواقعة فلمّا قالوا ما قالوا فصَّل أوصافها هنا بهذه الآية وفي سورة الدخان بقوله { إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ } [الدخان:43-46].

وقد سمّاها القرآن بهذه الإضافة كأنّها مشتقة من **الزُقْمة** (بضم الزاء وسكون القاف) وهم اسم الطاعون.

{ **إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ** } أي: عذابا، مثل ما في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } [البروج:10]، أي: عذّبوهم بأخدود النار.

وفُسِّرت الفتنة أيضا بأنّ خبر شجرة الزقوم كان فتنة للمشركين. أي: جعلنا ذكرها مثيرا لفتنتهم بالتكذيب والتهكّم دون تفهّم، وذلك مثل قوله تعالى { وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا } [المدثر:31]، فإنّه لما نزل قوله تعالى في وصف جهنم {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ } [المدثر:30] قال أبو جهل لقريش: " ثكلتكم أمهاتكم إنّ ابن أبي كبشة يخبركم أنّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدُّهم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم، فقال أبو الاشد الجمحمي: " أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين" فأنزل الله تعالى { وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا } [المدثر:31].

{ **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ** } استأنف لوصفها استئنافا ثانيا مكرّرا فيه كلمة { إِنَّهَا } للتهويل.

{ **تَخْرُجُ** } تنبت، كما قال تعالى { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ } [الأعراف:58]. ومن عجيب قدرة الله تعالى أن جعل من النار شجرة وهي نارية لا محالة. قال ابن عطية: "عن السدي ومجاهد قال الكفار: " كيف يُخبر محمد عن النار أنّها تُنبت الأشجار، وهي تأكلها وتذهبها، فقولهم هذا ونحوه من الفتنة، لأنّه يزيدهم كفرا وتكذيبا ".

{ **طَلْعُهَا** } أي: ثمرها، وأطلق عليه اسم الطلع على وجه الاستعارة تشبيها له بطلع النخلة لأن اسم الطلع خاص بالنخيل.

{ **كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ** } يجوز أن يكون مرادا بها رؤوس شياطين الجنّ، جمع شيطان بالمعنى المشهور ورؤوس هذه الشياطين غير معروفة لهم، فالتشبيه بالمجهول لتذهب المخيّلة كلّ مذهب، وذلك أوقع للخوف.

وقيل: أريد برؤوس الشياطين ثمر **الأَسْتَن** (بفتح الهمزة وسكون السين وفتح التاء) شجرة في بادية اليمن يشبه شخوص الناس ويُسمَّى ثمرة رؤوس الشياطين، وإنّما سَمَّوه كذلك لبشاعة مرآه ثم صار معروفا.

وقيل: جمع شيطان وهو من الحيّات ما لرؤوسها أعراف.

وهذه الصفات التي وُصفت بها شجرة الزقوم بالغة حدا عظيما من الذم وذلك الذم هو الذي عُبِّر عنه بالملعونة في قوله تعالى { وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ } [الإسراء:60].

{ **فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ** } أنذروا بأنّهم آكلون منها إنذارا مؤكَّدا. والمعنى: أنّهم آكلون منها كرها وذلك من العذاب، وإذا كان المأكول كريها يزيده كراهة سوء منظره.

{ **فَمَالِئُونَ** } فاء التفريع، وفيها معنى التعقيب، أي: لا يلبثون أن تمتلئ بطونهم من سرعة الالتقام.

ومَلءُ البطون كناية عن كثرة ما يكلون منها على كراهتها. وإسناد الأكل وملء البطون إليهم إسناد حقيقي وإن كانوا مكرهين على ذلك الأكل والملء.

{ **ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ** } { ثُمَّ } هنا للتراخي الرتبي لأنّها عطفت جملة، وليس للتراخي في الإخبار معنى إلّا إفادة أن ما بعد حرف التراخي أهمّ أو أعجب مما قبله، وهنا باعتبار أنّه زيادة في العذاب على الذي سبقه فوقعه أشدّ منه.

{ **عَلَيْهَا** } بعد أكلهم منها.

الشَّوب: أصله مصدر شاب الشيءَ بالشيء إذا خلطه به، ويطلق على الشيء المشوب به إطلاقا للمصدر على المفعول، كالخلق على المخلوق. وكلا المعنيين محتمل هنا.

الحميم: القيح السائل من الدمل، وتقدّم عند قوله تعالى { لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ } [الأنعام:70].

{ **ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ** } فعل { ثُمَّ } هنا نفسه في الجملة السابقة، التراخي الرتبي.

المرجع: مكان الرجوع، أي: المكان الذي يعود إليه الخارج منه بعد أن يفارقه. وقد يستعار للانتقال من حالة طارئة إلى حالة أصلية تشبيها بمغادرة المكان ثم العود إليه. وكذلك ينبغي أن يُفسَّر الرجوع في الآية لأن المشركين حين يطعمون من شجرة الزقوم ويشربون الحميم لم يفارقوا الجحيم، فأريد التنبيه على أنّ عذاب الأكل من الزقوم والشراب من الحميم زيادة على عذاب الجحيم، فليس الرجوع حقيقة.

{ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ [69] فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ [70] }.

تعليل لما جازاهم الله به من العذاب، وإبداء للمناسبة بينه وبين جرمهم، فإنّ جرمهم كان تلقِّيا لما وجدوا عليه آبائهم من الشرك وشُعَبه بدون نظر ولا اختيار، فكان من جزائهم على ذلك أنّهم يُطعمون طعاما مؤلما ويُسقون شرابا قذرا بدون اختيار كما تلقوا دين آبائهم تقليدا واعتباطا.

{ **إِنَّهُمْ** } موقع (إن) موقع فاء السببية، ومعناها معنى لام التعليل، وهي لذلك مفيدة ربط الجملة بالتي قبلها كما تربطها الفاء ولام التعليل. والمراد: المشركون من أهل مكة.

{ **أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ** } إيماء إلى أنّ ضلال آبائهم لا يخفى عن الناظر فيه لو تُركوا على الفطرة العقلية ولم يغشَوها بغشاوة العناد.

{ **فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ** } فاء العطف للتفريع والتسبُّب، أي: ضلالهم نتيجة أنّهم اقتفوا آثار آبائهم تقليدا بلا تأمّل، وهذا ذمّ لهم.

الآثار: ما تتركه خطى الماشين من موطئ الأقدام.

{ **عَلَى** } الاستعلاء التقريبي، وهو معنى المعيّة، لأنّهم يسيرون معها ولا يلزم أن يكونوا معتلين عليها.

{ **يُهْرَعُونَ** } (بفتح الراء) مبنيا للمجهول، مضارع: أَهْرَعَهُ، إذا جعله هَارِعًا، أي: حمله على الهَرَع وهو الإسراع المفرط في السير، عُبِّر به عن المتابعة والاعتقاد دون تأمّل.

{ **وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ [71] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ [72] فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ [73] إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [74]** }.

عُقّب وصف حال المشركين في الآخرة وما عُلِّل به من أنّهم ألفوا آباءهم ضالين فاتّبعوهم، بتنظيرهم بمن سلفوا من الضالين، وتذكيرا للرسول صلى الله عليه وسلم بذلك مسلاة له على ما يلاقيه من تكذيبهم، واستقصاءً لهم في العبرة والموعظة بما حلّ بالأمم قبلهم.

فالجملة معطوفة على مضمون الجملة التي قبلها إكمالا للتعليل، أي: اتبعوا آثار آبائهم واقتدوا بالأمم الضالة.

{ **أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ** } وصف الذين ضلُّوا قبلهم بذلك لئلّا يغترّ ضعفاء العقول بكثرة المشركين ولا يعتزّوا بها، ليعلموا أنّ كثرة العدد لا تبرِّر ضلال الضالين ولا خطأ المخطئين. قال تعالى { قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ } [المائدة:100].

{ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ** } إكمال للعلّة والتسلية والعبرة، أي: رسلا ينذرونهم، أي: يُحذِّرنهم ما سيحلّ بهم { **مُنْذِرِينَ** } خصّ المرسلين بهذا الوصف لمناسبة حال المتحدَّث عنهم وأمثالهم.

المعنى: أرسلنا في الأوّل منذِرين فاهتدى قليل وضلّ أكثرهم.

{ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ** } فُرّع على هذا التوجيه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ترشيحا لما في الكلام السابق من جانب التسلية والتثبيت، مع التعريض بالكلام لتهديد المشركين بذلك، ويجوز أن يكون الخطاب لكلِّ من يسمع القرآن فشمل النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **فَانْظُرْ** } الأمر بالنظر مستعمل في التعجيب والتهويل، فإن أريد بالعاقبة عاقبتهم في الدنيا فالنظر بصري، وإن أريد عاقبتهم في الآخرة، كما يقتضيه السياق، فالنظر قلبي، ولا مانع من إرادة الأمرين واستعمال المشترك في المعنيين.

{ **كَيْفَ كَانَ** } الاستفهام تعجيبي للتفظيع.

{ **الْمُنْذَرِينَ** } تعريف العهد، وهم المنذَرون الذين أُرسل إليهم المنذِرون، أي: فهم الضالون المعبّر عنهم بأنّهم { أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ }.

{ **عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** } استثناء من { الْأَوَّلِينَ }، استثناء متصلا، فإنّ عباد الله المخلصين كانوا من جملة المنذَرين فصدّقوا المنذِرين فلم يشاركوا المنذَرين في عاقبتهم المنظور فيها، وهي عاقبة السوء.

{ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ [75] وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ [76] وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ [77] وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ [78] سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ [79] إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [80] إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ [81] ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ [82] }.

اتبع التذكير والتسلية من جانب النظر في آثار ما حلّ بالأمم المرسل إليهم، وما أخبر عنه من عاقبتهم في الآخرة، بتذكير وتسلية من جانب الإخبار عن الرسل الذين كذَّبهم قومهم وآذوهم وكيف انتصر الله لهم، ليزيد رسوله صلى الله عليه وسلم تثبيتا ويُلْقِم المشركين تبكيتًا.

وذُكر في هذه السورة ست قصص من قصص الرسل مع أقوامهم، لأنّ في كلّ قصة منها خاصية لها شبه بحال الرسول صلى الله عليه وسلم مع قومه وبحاله الأكمل في دعوته. ويجمعها كلّها مقاومة الشرك ومقاومة أهلها. واختير هؤلاء الرسل الستة:

لأنّ نوحا القدوة الأولى.

وإبراهيم هو رسول الملة الحنيفية التي هي نواة الشجرة الطيبة، شجرة الإسلام.

وموسى لشبه شريعته بالشريعة الإسلامية في التفصيل والجمع بين الدين والسلطان.

فهؤلاء الرسل الثلاثة أصول. ثم ذُكر ثلاثة رسل تفرّعوا عنهم. فأما لوط فهو على ملة إبراهيم، وأمّا إلياس ويونس فعلى ملّة موسى.

{ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ } ابتدئ بقصة نوح مع قومه فإنّه أوّل رسول بعثه الله إلى الناس، وهو الأسوة الأولى والقدوة المثلى.

{ نَادَانَا } ابتداء القصة بذكر نداء نوح ربّه موعظة للمشركين ليحذروا دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ربه تعالى بالنصر عليهم كما دعا نوح على قومه، وهذا النداء هو المحكي في قوله تعالى { قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ } [المؤمنون:26]، وقوله تعالى { قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً } [نوح:21].

{ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ } الفاء تفريع على { نَادَانَا }، أي: نادانا فأجبناه، والمخصوص بالمدح محذوف، أي: فلنعم المجيبون نحن. وضمير المتكلّم المشارك مستعمل في التعظيم كما هو معلوم.

{ فَلَنِعْمَ } تأكيد الخبر وتأكيد ما فرّع عليه بـ (لام القسم) لتحقيق الأمرين، تحذيرا للمشركين بعد تنزيلهم منزلة من ينكر أنّ نوحا دعا فاستجيب له.

التنجية: الإنجاء، وهو جعل الغير ناجيا. والنجاة: الخلاص من ضرّ واقع. وأطلقت هنا على السلامة من ذلك قبل الوقوع فيه، لأنّه لمّا حصلت سلامته في حين إحاطة الضرّ بقومه نزلت سلامته بمنزلة الخلاص منه بعد

الوقوع فيه تنزيلا لمقاربة وقوع الفعل منزلة وقوعه، وهذا إطلاق كثير للفظ النجاة بحيث يصحّ أن يقال: النجاة خلاص من ضرّ واقع أو متوقع.

{ **وَأَهْلَهُ**} عائلته، إلّا من حق عليه القول منهم، وكذلك المؤمنون من قومه، قال تعالى { قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } [هود:40].

فالاقتصار على أهله هنا لقلّة من آمن به من غيرهم، أو أريد بالأهل أهل دينه، كقوله تعالى { إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ } [آل عمران:68].

{ **الْكَرْبِ** } الحزن الشديد والغم. ووصفه بـ { **العظيم** } لإفادة أنّه عظيم في نوعه. والمعني به الطوفان.

{ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** } ضمير الفصل في قوله تعالى { هُمُ الْبَاقِينَ } للحصر، أي: لم يبق أحد من الناس إلّا من نجّاه الله مع نوح في السفينة من ذرّيّته، ثم من تناسل منهم فلم يبق من أبناء آدم غير ذرية نوح.

وعموم الطوفان هو مقتضى ظواهر الكتاب والسنّة، ومن قالوا إنّ الطوفان لم يعم الأرض فإنّما أقدموا على إنكاره من جهة قصر المدة التي حُددت بها في كتب الإسرائيليين، وليس يلزم الاطمئنان لها في ضبط عمر الأرض وأحداثها، وذلك ليس من القواطع.

{ **وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ** } زيادة في عداد كرامة نوح عليه السلام.

الترك: حقيقة تخليف شيء والتخلّي عنه. وهو هنا مراد به الدوام على وجه المجاز المرسل أو الاستعارة، لأنّ شأن النعم في الدنيا أنّها متاع زائل، طال مكثها أو قصر، فكأنّ زوالها استرجاع من معطيها، كما جاء في الحديث: " **لله ما أخذ وله ما أعطى** ". فشرَّف الله نوحا بأن أبقى نعمه عليه في أمم بعده.

{ **عَلَيْهِ** } يتعلق بفعل { تَرَكْنَا } بتضمين هذا الفعل معنى (أنعمنا)، فكان مقتضى الظاهر أن يُعدَّى هذا الفعل بالـ (لام)، فلمّا ضُمِّن معنى (أنعمنا) أفاد بمادته معنى الإبقاء له. فكان التقدير: وتركنا له ثناء وأنعمنا عليه.

{ **فِي الْآخِرِينَ** } الظاهر أنّها باقية في جميع الأمم إلى انقضاء العالم، وقرينة المجاز تعليق {عَلَيْهِ} بـ {تَرَكْنَا} لأنّه يناسب الإبقاء، يقال: أبقى على كذا، أي: حافظ عليه ليبقى ولا يندثر.

فيجوز أن يراد بهذا الإبقاء تعميره ألف سنة، ويجوز أن يراد بقاء حسن ذكره بين الأمم كما قال إبراهيم عليه السلام { وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ } [الشعراء:84]، فكان نوح مذكورا بمحامد الخصال حتّى قيل: لا تجهل أمّة من أمم الأرض نوحا وفضله وتمجيده وإن اختلفت الأسماء التي يسمّونه بها باختلاف لغاتهم.

{ **سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ** } إنشاء ثناء على نوح وتحية له، ومعناه لازم التحية وهو الرضى والتقريب.

{ **فِي الْعَالَمِينَ** } في الأمم والقرون، وهو كناية عن دوام السلام عليه، كقوله تعالى { وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً } [مريم:15] في حق عيسى عليه السلام، وكقوله تعالى { سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ } [130]، وقوله تعالى { سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ } [109].

وزيد في سلام نوح في هذه السورة وصفه بأنّه { فِي الْعَالَمِينَ } دون السلام على غيره في قصة إبراهيم وموسى وهارون وإلياس للإشارة إلى أنّ التنويه بنوح كان سائرا في جميع الأمم لأنّهم كلّهم ينتمون إليه ويذكرونه ذكر صدق.

{ **إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** } تذييل لما سبق من كرامة الله نوحا. و(إن) تفيد تعليلا لمجازاة الله نوحا بما عدّه من النعم بانّ ذلك لأنّه كان محسنا، أي: متخلّقا بالإحسان، وهو الإيمان الخالص المفسَّر في قوله النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "**.

والمعنى: إنَّا مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين.

وفي هذا تنويه بنوح عليه السلام بأنّ جزاءه كان هو المثال والإمام لجزاء المحسنين على مراتب إحسانهم وتفاوت تقاربها من إحسانه وقوّته في تبليغ الدعوة. فهو أوّل من أوذي في الله فسن الجزاء لمن أوذي في الله، وكان على قالب جزائه، فلعله أن يكون له كفل من كل جزاء يجزاه أحد على صبره إذا أوذي في الله، فثبت لنوح بهذا وصف الإحسان.

{ **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** } تعليل لاستحقاقه المجازة الموصوفة بقوله { كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } فاختلف معلول هذه العلة ومعلول العلة التي قبلها.

{ **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا** } أفاد أنّه ممّن استحق هذا الوصف، وقد علمتَ غير مرة أنّ وصف (عبد) إذا أضيف إلى ضمير الجلالة أشعر بالتقريب ورفع الدرجة.

{ **الْمُؤْمِنِينَ** } اقتصر على هذا الوصف تنويها بشأن الإيمان ليزداد الذين آمنوا إيمانا ويقلع المشركون.

{ **ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ** } (ثمّ) كمعهودها للترتيب والتراخي الرتبيين، لأنّ بعض ما ذُكر قبلها في الكلام هو ممّا حصل بعد مضمون جملتها في نفس الأمر كما هو بيّن، ومعنى التراخي الرتبي هنا أن إغراق الذين كذّبوه، مع نجاته ونجاة أهله، أعظم رتبة في الانتصار له والدلالة على وجاهته عند الله تعالى وعلى عظيم قدرة الله تعالى ولطفه.

{ **الْآخَرِينَ** } بقية قومه، وفي التعبير عنهم بالآخرين ضرب من الاحتقار.

وفي هذه القصة عبرة للمشركين بما حلّ بقوم نوح وتسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وجعل نوح قدوة له، وإيماء إلى أنّ الله ينصره كما نصر نوحا على قومه وينجيه من أذاهم، وفيها تنويه بشأن المؤمنين.

وتقدّم ذكر نوح وقصته عند قوله { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً } [آل عمران:33]، وفي [الأعراف:59-64]، وفي [هود:25-49]، وذكر سفينته في [العنكبوت:15/14].

{ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ [83] إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [84] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ [85] أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ [86] فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [87] }.

تخلُّص إلى حكاية موقف إبراهيم عليه السلام من قومه في دعوتهم إلى التوحيد، وما لاقاه منهم، وكيف أيَّده الله ونجَّاه منهم، وقع هذا التخلُّص إليه بوصفه من شيعة نوح، ليفيد بهذا الأسلوب الواحد تأكيد الثناء على نوح وابتداء الثناء على إبراهيم وتخليد منقبة لنوح أن كان إبراهيم الرسول العظيم من شيعته وناهيك به.

وهذا كقوله تعالى { ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ } [الإسراء:3].

الشيعة: اسم لمن يناصر الرجل وأتباعه، فيقع لفظ شيعة على الواحد والجمع. وقد يجمع على شيع وأشياع إذا أريد: جماعات كلّ جماعة هي شيعة لأحد. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ } [الحجر:10]، وعند قوله تعالى { وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً } [القصص:4].

وكان إبراهيم من ذرّيّة نوح وكان دينه موافقا لدين نوح في أصله وهو نبذ الشرك.

وجعل إبراهيم من شيعة نوح لأنّ نوحا قد جاءت رسل على دينه قبل إبراهيم منهم هود وصالح، فقد كانا قبل إبراهيم لأنّ القرآن ذكرهما غير مرّة عقب ذكر نوح وقبل ذكر لوط معاصر إبراهيم. ولقول هود لقومه { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } [الأعراف:69]، ولقول صالح لقومه { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ } [الأعراف:74]، وقول شعيب لقومه { وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} [هود :89].فجعل قوم لوط أقرب زمنا لقومه دون قوم هود وقوم صالح. وكان لوط معاصر إبراهيم.

فهؤلاء كلهم شيعة لنوح وإبراهيم من تلك الشيعة.

وتوكيد الخبر بـ { **إِنَّ** } ولام الابتداء { **لَإِبْرَاهِيمَ** } للردّ على المشركين لأنّهم يزعمون أنّهم على ملة إبراهيم وهذا كقوله تعالى { وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [البقرة:135].

{ **إِذْ** } ظرف للماضي متعلق بلفظ شيعة لما فيه من معنى المشايعة والمتابعة، أي: كان من شيعته حين جاء ربه بقلب سليم كما جاء نوح. وفيها معنى التعليل لكونه من شيعته، فإنّ معنى التعليل كثير العروض لـ (إذ) كقوله تعالى { وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ } [الزخرف:39].

{ **جَاءَ رَبَّهُ** } أطلق المجيء على معاملته نفسه بما يرضي ربّه، على وجه التمثيل بحال من يجيء أحدا ملقيا إليه ما طلبه، فإنّ الله أمره بتزكية نفسه فامتثل، فأشبه حال من دعاه فجاءه. وهذا نظير قوله تعالى { أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ } [الاحقاف:31].

{ **بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** } الباء للمصاحبة، أي: جاء معه قلب صفته السلامة، والمعنى: إذ جاء ربه بسلامة قلب.

{ **سَلِيمٍ** } صفة مشبّهة مشتقّة من السلامة وهي الخلاص من العلل والأدواء النفسية والخُلُقيّة، لأنّه لمّا ذكر القلب ظهر أنّ السلامة سلامته ممّا تصاب به القلوب من أدوائها فلا جائز أن تعني الأدواء الجسدية لأنّهم ما كانوا يريدون بالقلب إلّا مقرّ الإدراك والأخلاق.

وقد جمع قوله { **بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** } جوامع كمال النفس وهي مصدر محامد الأعمال. وفي الحديث : **" ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب ".**

وقد حكي عن إبراهيم قوله { يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الشعراء:88-89]، فكان عماد ملّة إبراهيم هو المتفرع عن قوله تعالى { بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } وذلك جماع مكارم الأخلاق، ولذلك وُصف إبراهيم بقوله تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود:75]، فكان منزّها عن كلّ خلق ذميم واعتقاد باطل.

{ **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ** } بدل من { إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } بدل اشتمال، فإنّ قوله هذا لمّا نشأ عن امتلاء قلبه بالتوحيد والغضب لله على المشركين كان كالشيء المشتمل عليه قلبه السليم فصدر عنه.

{ **مَاذَا تَعْبُدُونَ** } استفهام إنكاري، ولذلك اتبعه باستفهام آخر إنكاري وهو { أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ }.

وهذا الذي اقتضى الإتيان باسم الإشارة (ذا) بعد (ما) الاستفهامية الذي هو مشرَّب معنى الموصول المشار إليه، فاقتضى أنّ ما يعبدونه مشاهد لإبراهيم، فانصرف الاستفهام بذلك إلى معنى الإنكار، بخلاف قوله تعالى { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ } [الشعراء:70] فإنّه استفهام على معبوداتهم ولذلك أجابوا عنه { قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ } [الشعراء:71].

وإنّما أراد بالاستفهام هنالك التمهيد إلى المحاجة فصوره في صورة الاستفهام لسماع جوابهم فينتقل إلى إبطاله، كما هو ظاهر من ترتيب حجاجه هنالك، فذلك حكاية لقول إبراهيم في ابتداء دعوته قومه، وأمّا ما هنا فحكاية لبعض أقواله في إعادة الدعوة وتأكيدها.

{ **أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ** } بيان لجملة { مَاذَا تَعْبُدُونَ } بيّن به مصبّ الإنكار في قوله { مَاذَا تَعْبُدُونَ } وإيضاحه، أي: كيف تريدون آلهة إفكا.

إرادة الشيء: ابتغاؤه والعزم على حصوله، وحقّ فعلها أن يتعدّى إلى المعاني، فإذا عُدِّي إلى الذوات كان على معنى يتعلّق بتلك الذوات. فلذلك كانت التعدية على معنى: تريدونها بالعبادة أو بالتأليه.

{ **إِفْكاً** } انتصب على الحال من ضمير { تُرِيدُونَ } أي آفكين. و**الإفك**: الكذب.

ويجوز أن يكون حالا من آلهة، أي: آلهة مكذوبة.

{ **دُونِ اللهِ** } أي: خلاف الله وغيره، وهذا صالح لاعتبار قومه عبدة أوثان غير معترفين بإله غير أصنامهم، ولاعتبارهم مشركين مع الله آلهة أخرى مثل المشركين من العرب، لأنّ العرب بقيت فيهم أثارة من الحنيفية فلم ينسوا وصف الله بالإلهية، وكان قوم إبراهيم يعبدون الكواكب نظير ما كان عليه اليونان والقبط.

{ **فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ** } فُرِّع على استفهام الإنكار استفهام آخر، وهو استفهام أريد به الإنكار والتوقيف على الخطأ.

{ **ظَنُّكُمْ** } أريد بالظن الاعتقاد الخطأ. وسُمِّي ظنا لأنّه غير مطابق للواقع ولم يسمّه علما لأنّ العلم لا يطلق إلّا على الاعتقاد المطابق للواقع ولذلك عرَّفوه بأنّه: " صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض"، ولا ينتفي احتمال النقيض إلّا متى كان موافقا للواقع.

وكثر إطلاق الظنّ على التصديق المخطئ والجهل المركّب، كما في قوله تعالى { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام:116]، وقوله تعالى { إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً } [يونس:36].

وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث** ".

والمعنى: أنّ اعتقادكم في جانب ربّ العالمين جهل منكَر.

وفعل ظنّ إذا عدِّي بـ (الباء) أشعر غالبا بظنّ غير صادق، كقوله { وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا } [الأحزاب:10] وقوله تعالى { وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ } [فصلت:23].

{ **فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ** [88] **فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ** [89] **فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ** [90] **فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ** [91] **مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ** [92] **فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ** [93] **فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ** [94] **قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ** [95] **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** [96] }.

مُفرَّع على جملة { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ } [85] تفريع قصص بعطف بعضها على بعض.

والمقصود من هذه الجمل المتعاطفة بالفاءات هو الإفضاء إلى قوله تعالى { فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ }، وأمّا ما قبلها فتمهيد لها وبيان كيفية تمكّنه من أصنامهم وكسرها ليظهر لعبدتها عجزها.

{ **فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ** } قال ابن كثير في تفسيره: " قال قتادة: " والعرب تقول لمن تفكَّر: نظر في النجوم، يعني قتادة: أنّه نظر إلى السماء متفكرا فيما يلهيهم به ".

وفي تفسير القرطبي عن الخليل والمبرد يقال: " للرجل إذا فكر في شيء يدبِّره: نظر في النجوم، أي: أنّه نظر في النجوم، ممّا جرى مجرى المثل في التعبير عن التفكير، لأنّ المتفكّر يرفع بصره إلى السماء لئلا يشتغل بالمرئيات فيخلو بفكره للتدبر، فلا يكون النجوم وذكر النجوم جري على المعروف من كلامهم.

والوجه: أنّ التعقيب الذي أفادته (الفاء) من قوله تعالى { فَنَظَرَ } تعقيب عرفي، [أي: لكلّ شيء نحسبه فيفيد كلاما مطويا يشير إلى قصة إبراهيم التي قال فيها { إِنِّي سَقِيمٌ }].

وتقييد النظرة بصيغة المرة في قوله { نَظْرَةً } <u>إيماء إلى أنّ الله ألهمه المكيدة وأرشده إلى الحجّة.</u>

كما قال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ } [الأنبياء:51].

{ **فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ** } السقيم: صفة مشبّهة، وهو المريض. يقال: سَقِمَ بوزن مرِض، ومصدره السَّقَم بالتحريك. عذر انتحله ليتركوه فيخلو ببيت الأصنام ليخلص إليها عن كثب فلا يجد من يدفعه عن الإيقاع بها. ولم ينطق إبراهيم بأنّ النجوم دلّته على أنّه سقيم ولكنّه لمّا جعل قوله { إِنِّي سَقِيمٌ } مقارنا لنظره في النجوم أوهم قومه أنّه عرف ذلك من دلالة النجوم حسب أوهامهم.

وقد ظهر من نظم الآية أنّ قوله { إِنِّي سَقِيمٌ } لم يكن مرضا، ولذلك جاء الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لم يكذب إبراهيم إلّا ثلاث كذبات اثنتين منهن في ذات الله عز وجل، قوله: { إِنِّي سَقِيمٌ }، وقوله: { قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا}** [الأنبياء:63]**، وبينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبّار من الجبابرة فسأله عن سارة فقال: "هي أختي ".**

فورد على الحديث إشكال من نسبة الكذب إلى نبيّ.

وجوابه عندي: أنّه لم يكن في لغة قوم إبراهيم التشبيه البليغ، ولا المجازُ، ولا التهكّم، فكان ذلك عند قومه كذبا وأنّ الله أذن له فعل ذلك وأعلمه بتأويله، كما أذن لأيوب أن يأخذ ضغثاً من عِصيّ فيضرب به ضربة واحدة ليبر قسمه، إذ لم تكن الكفارة مشروعة في دين أيوب عليه السلام.

{ **فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ** } التولّي: الإعراض والمفارقة. و{ **مُدْبِرِينَ** } حال، أي: ولَّوه أدبارهم، أي: ظهورهم. والمعنى: ذهبوا وخلَّفوه وراء ظهورهم بحيث لا ينظرونه. وقد قيل: إنّ { مُدْبِرِينَ } حال مؤكّدة وهو من التوكيد الملازم لفعل التولّي غالبا لدفع توهم أنّه تولِّي مخالفة وكراهة دون انتقال.

{ **فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ** } راغ: معناه حاد عن الشيء، ومصدره الروغ والروغان، وقد أطلق هنا على الذهاب إلى أصنامهم مخاتلة لهم، ولأجل الإشارة إلى تضمينه معنى الذهاب عدي بـ (إلى).

وإطلاق الآلهة على الأصنام مراعى فيه اعتقاد عبدتها بقرينة إضافتها إلى ضميرهم.

{ **فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ** } مخاطبة إبراهيم تلك الأصنام وهو في حال خلوة بها قصد به أن يثير في نفسه غضبا عليها إذ زعموا لها الإلهية ليزداد قوّة عزم على كسرها. فليس خطاب إبراهيم للأصنام مستعملا في حقيقته ولكنه مستعمل في لازمه وهو تذكر كذب الذين ألّهوها والذين سدنوا لها وزعموا أنّها تأكل الطعام الذي يضعونه بين يديها ويزعمون أنّها تكلّمهم وتخبرهم.

{ **فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ** } استعمل فعل (راغ) هنا مضمَّنا معنى (أقبل) من جهة مائلة عن الأصنام لأنّه كان مستقبلها ثم أخذ يضربها ذات اليمين وذات الشمال نظير قوله { فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ } [النساء:102].

{ **ضَرْباً بِالْيَمِينِ** } انتصب على الحال من ضمير { فَرَاغَ } أي: ضاربا. وتقييد الضرب باليمين للتأكيد، أي: ضربا قويّا، ونظيره قوله تعالى { لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ } [الحاقة:45].

{ **فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ** } فلمّا علموا بما فعل إبراهيم بأصنامهم أرسلوا إليه من يحضره في ملئهم حول أصنامهم كما هو مفصّل في [الأنبياء:59-70] وأُجمِل هنا.

الزفّ: الإسراع في الجري، ومنه زفيف النعامة: عدوها الأوّل حين تنطلق.

أي: جاءه المرسلون إليه مسرعين، أي: يعدون.

{ **قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ** } استئناف بياني عن سؤال مقدّر عن حال إبراهيم عندما جاءه المرسلون على تلك الهيئة وهو فاقد للنصير معرض للنكال فتكون الآية جوابا وبيانا لما يسأل عنه. وذلك منبئ عن رباطة جأش إبراهيم إذ لم يتلق القوم بالاعتذار ولا بالاختفاء، ولكنه لقيهم بالتهكم بهم. كما في قوله تعالى { بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا } [الأنبياء:63].

{ **قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ** } ثم أنحى عليهم باللائمة والتوبيخ وتسفيه أحلامهم إذ بلغوا من السخافة أن يعبدوا صورا نحتوها بأيديهم أو نحتها أسلافهم، فإسناد النحت إلى المخاطبين من قبيل إسناد الفعل إلى القبيلة إذا فعله بعضها.

النحت: بري العود ليصير في شكل يراد، فإن كانت الأصنام من الخشب فإطلاق النحت حقيقة، وإن كانت من حجارة كما قيل، فإطلاق النحت على نقشها وتصويرها مجاز.

والاستفهام إنكاري والإتيان بالموصول والصلة لما تشتمل عليه الصلة من تسلّط فعلهم على معبوداتهم، أي: أنّ شأن المعبود أن يكون فاعلا لا منفعلا، فمن المنكر أن تعبدوا أصناما أنتم نحتموها.

{ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** } واو الحال، والحال مستعملة في التعجيب لأنّ في الكلام حذفا بعد واو الحال، إذ التقدير: ولا تعبدون الله وهو خلقكم وخلق ما نحتموه، أو وأنتم مشركون معه في العبادة مخلوقات دونكم.

{ **تَعْمَلُونَ** } تنحتون. وإنّما عدل عن إعادة فعل { تَنْحِتُونَ } لكراهية تكرير الكلمة.

يقال: عملت قميصا وعملت خاتما. وفي حديث صنع المنبر: " أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأة من الأنصار: **أن مُري غلامك النجّار يعمل لي أعوادا أكلّم عليها الناس** ".

<u>وخلق الله إيّاها ظاهر</u>، هو خلق المادة التي تُصنع منها من حجر أو خشب، ولذلك جمع بين إسناد الخلق إلى الله بواو العطف، وإسناد العمل إليهم بإسناد فعل { تَعْمَلُونَ }.

وقد احتج الأشاعرة على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى بهذه الآية. وهو تمسّك ضعيف لما في الآية من الاحتمالين ولأن المقام مقام المحاجّة بأن الأصنام أنفسها مخلوقة لله، فالأولى المصير إلى أدلة أخرى.

{ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ [97] فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ [98] }.

الجحيم: النار شديدة الوقود، وكلّ نار على نار وجمر فوق جمر فهو جحيم.

وتقدّم نظير هذه الآية في [الأنبياء:68-70]، وعبر هنا بـ { الْأَسْفَلِينَ } وهنالك بـ { الْأَخْسَرِينَ }، والأسفل هو المغلوب، لأنّ الغالب يُتخيَّل مُعْتَلِيًا على المغلوب، فهو استعارة للمغلوب، والأخسر هنالك استعارة لمن لا يحصل من سعيه على بُغيته.

{ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ [99] رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ [100] }.

لمّا نجا إبراهيم من نارهم صمّم على الخروج من بلده (أور الكلدانيين).

وهذه أوّل هجرة في سبيل الله للبعد عن عبادة غير الله. والتوراة بعد أن طوت سبب أمر الله إيّاه بالخروج ذُكر فيها أنّه خرج قاصدا بلاد حَران في أرض كنعان (بلاد الفينيقيين).

والظاهر أنّ هذا القول قاله علنا في قومه ليكفّوا عن أذاه، ويحتمل أن يكون قال ذلك في أهله الذين يريد أن يخرج بهم معه.

{ ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي } مهاجر إلى حيث أعبد ربي وحده ولا أعبد آلهة غيره ولا أفتن في عبادته.

ومراد الله أن يفضي إلى بلوغ مكة ليقيم هنالك أوّل مسجد لإعلان توحيد الله فسلك به المسالك التي سلكها حتّى بلغ به مكّة وأودع بها أهلا ونسلا، وأقام بها قبيلة دينها التوحيد، وبنى لله معبدا، وجعل نسله حفظة بيت الله، ولعل الله أطلعه على تلك الغاية بالوحي أو سترها عنه حتّى وجد نفسه عندها فلذلك أنطقه بأن ذهابه إلى الله نطقا عن علم أو عن توفيق.

{ سَيَهْدِينِ } يجوز أن تكون حالا وهو الأظهر، لأنّه أراد إعلام قومه بأنّه واثق بربه وأنّه لا تردّد له في مفارقتهم، وهي حال من اسم الجلالة، ولا يمنع من جعل الجملة حالا اقترانها بحرف الاستقبال فإنّ حرف الاستقبال يدل على أنّها حال مقدرة، والتقدير: أني ذاهب إلى ربي مقدِّرا، كما لم يمتنع مجيء الحال معمولا لعامل مستقبل كما في قوله تعالى { سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر:60]، وقوله تعالى { إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء:62].

ويجوز أن تكون جملة { سَيَهْدِينِ } مستأنفة وبذلك أجاب نحاة البصرة عن تمسك نحاة الكوفة بالآية في جواز اقتران الحال بعلم الاستقبال، فالاستئناف بياني، بيانا لسبب هجرته.

{ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ } بقية قوله، فإنّه بعد أن أخبر أنّه مهاجر استشعر قلّة أهله وعقم امرأته وثار

ذلك الخاطر في نفسه عند إزماع الرحيل لأنّ الشعور بقلة الأهل عند مفارقة الأوطان يكون أقوى لأنّ المرء إذا كان بين قومه كان له بعض السلوّ بوجود قرابته وأصدقائه.

وممّا يدلّ على أنّه سأل النسل ما جاء في [سفر التكوين، الإصحاح:15] وقال أبرام: " إنّك لم تعطني نسلا وهذا ابن بيتي (بمعنى مولاه) وارث لي (لأنّهم كانوا إذا مات عن غير نسل ورثه مواليه).

فحذف مفعول الفعل لدلالة الفعل عليه. ووصفه بأنّه من الصالحين لأنّ نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحا فإنّ صلاح الأبناء قرّة عين للآباء، ومن صلاحهم برهم بوالديهم.

{ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ [101] فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ [102] }.

{ فَبَشَّرْنَاهُ } الفاء للتعقيب، و**البشارة**: الإخبار بخير وارد عن قرب أو على بعد.

فإن كان الله بشّر إبراهيم بأنّه يولد له ولد أو يوجد له نسل عقب دعائه، كما هو الظاهر وهو صريح في [سفر التكوين، الإصحاح:15] فقد أُخبره بأنّه استجاب له وأنّه يهبه ولدا بعد زمان، فالتعقيب على ظاهره.

وإن كان الله بشَّره بغلام بعد ذلك حين حملت منه هاجر جاريته بعد خروجه بمدة طويلة، فالتعقيب نسبي.

وعلى الاحتمالين فالغلام الذي بُشِّر به هو الولد الأوّل الذي ولد له، وهو إسماعيل لا محالة.

الحليم: الموصوف بالحلم، وهو اسم يجمع أصالة الرأي ومكارم الأخلاق والرحمة.

وهذا الغلام الذي بُشِّر به إبراهيم هو إسماعيل ابنه البكر وهذا غير الغلام الذي بشَّره به الملائكة الذين أرسلوا إلى قوم لوط في قوله تعالى { قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ } [الذريات:28]، فذلك وصف بأنّه { عَلِيمٍ } وهذا وصف بـ { حَلِيمٍ }.

وإسحاق كانت البشارة به بمحضر سارة أمّه، وقد جعلت هي المبشَّرة في قوله تعالى { فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً } [هود:72/71]، فتلك بشارة كرامة والأولى بشارة استجابة دعائه.

فالبشارة بإسماعيل لما كانت عقب دعاء إبراهيم أن يهب الله له من الصالحين عطف هنا بفاء التعقيب، وبشارته بإسحاق ذكرت في هذه السورة معطوفا بالواو عطف القصة على القصة.

{ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ } الفاء فصيحة لأنّها مفصحة عن كلام مقدّر، تقديره: فولد له ويفع وبلغ السعي، فلما بلغ السعي قال...، أي: بلغ سن من يمشي مع إبراهيم في شؤونه. وكان عمر إسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة، وحينئذ حدَّث إبراهيم ابنه بما رآه في المنام.

ورؤيا الأنبياء وحي. وكان أوّل ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة، ولكن الشريعة لم يوح بها إليه إلّا في اليقظة مع رؤية جبريل دون رؤيا المنام.

{ **أَنِّي أَذْبَحُكَ** } أمر ابتلاء، وليس المقصود به التشريع إذ لو كان تشريعا لما نسخ قبل العمل به، لأنّ ذلك يبطل الحكمة من التشريع بخلاف أمر الابتلاء.

والمقصود من هذا الابتلاء إظهار عزمه وإثبات علو مرتبته في طاعة ربّه، فإنّ الولد عزيز على نفس الوالد، والولد الوحيد، الذي هو أمل الوالد في مستقبله، أشدّ عزّة على نفسه لا محالة.

فقابل أمر ربّه بالامتثال وحصلت حكمة الله، وهذا معنى قوله تعالى { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ } [106].

{ **فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى** } فاء تفريع، أو هي فاء الفصيحة، أي: إذا علمت هذا فانظر ماذا ترى. وذلك لأنّ الأمر لمّا تعلق بذات الغلام كان للغلام حظ في الامتثال، وكان عرض إبراهيم هذا على ابنه عرض اختيار لمقدار طواعيته بإجابة أمر الله في ذاته لتحصل له بالرضى والامتثال مرتبة بذل نفسه في إرضاء الله، وهو لا يرجو من ابنه إلّا القبول لأنّه أعلم بصلاح ابنه.

النظر: هنا نظر العقل لا نظر البصر فحقّه أن يتعدى إلى مفعولين ولكن علّقه الاستفهام عن العمل.

{ **قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ** } حُكي جوابه دون عطف، جريا على حكاية المقاولات. وابتداء الجواب بالنداء واستحضار المنادى بوصف الأبوّة وإضافة الأب إلى ياء المتكلم المعوض عنها التاء المشعر تعويضها بصيغة ترقيق وتحنّن.

{ **افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ** } صيغة الأمر مستعملة في الإذن. والتعبير عن الذبح بالموصول دون أن يقول: اذبحني، للجمع بين الإذن وتعليله، أي: أذنت لك أن تذبحني لأنّ الله أمرك بذلك، ففيه تصديق أبيه وامتثال أمر الله فيه.

{ **سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** } الجملة هي الجواب، لأنّ الجمل التي قبلها تمهيد للجواب كما علمت، فإنّه بعد أن حثّه على فعل ما أُمِر به وَعَدَه بالامتثال له. وهو الوعد الذي شكره الله عليه في قوله { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ } [مريم:54].

{ **إِنْ شَاءَ اللَّهُ** } سأل الله العون والثبات على تحقيق وعده.

{ **مِنَ الصَّابِرِينَ** } في هذا التركيب من المبالغة في اتصافه بالصبر ما ليس في الوصف: بصابر، لأنّه يفيد أنّه سيجده في عداد الذين اشتهروا بالصبر وعرفوا به.

{ **فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ [103] وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ [104] قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [105] إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ [106] وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ [107]** }.

{ **أَسْلَمَا** } استسلما. يقال: سلَّم واستسلم وأسلم بمعنى: انقاد وخضع، وحذف المتعلق لظهوره من السياق، أي: أسلما لأمر الله، فاستسلام إبراهيم بالتهيُّؤ لذبح ابنه، واستسلام الغلام بطاعة أبيه فيما بلغه عن ربه.

{ **تَلَّهُ** } :صرعه على الأرض، وهو فعل مشتق من اسم التلّ، وهو الصبرة من التراب كالكُدْية.

{ **لِلْجَبِينِ** } اللام بمعنى (على)، كقوله تعالى { يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً } [الإسراء:107].

الجبين: أحد جانبي الجهة، وللجهة جبينان، وليس الجبين هو الجبهة. والمعنى: أنّه ألقاه على الأرض على جانب بحيث يباشر جبينه الأرض من شدة الاتصال.

{ **وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ** } بطريق الوحي بإرسال الملك، أسندت المناداة إلى الله تعالى لأنّه الآمر بها.

{ **قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا** } تصديق الرؤيا: تحقيقها في الخارج بأن يعمل صورة العمل الذي رآه. يقال: رؤيا صادقة، إذا حصل بعدها في الواقع ما يماثل صورة ما رآه الرائي. قال الله تعالى { لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ } [الفتح:27]. وفي حديث عائشة: " أوّل ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح ". وبضدّ ذلك يقال: كذبت الرؤيا، إذا حصل خلاف ما رأى. وفي الحديث: " **إذا اقترب الزمان لم تكد تكذب رؤيا المؤمن** ".

وهذا ثناء من الله تعالى على إبراهيم بمبادرته لامتثال الأمر ولم يتأخّر ولا سأل من الله نسخ ذلك.

فإبراهيم صدَّق الرؤيا إلى أن نهاه الله عن إكمال مثالها، فأطلق على تصديقه أكثرها أنّه صدَّقها، وجعل ذبح الكبش تأويلا لذبح الولد الواقع في الرؤيا.

{ **إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** } تعليل لجملة { وَنَادَيْنَاهُ } لأنّ نداء الله إيّاه ترفيع لشأنه فكان ذلك النداء جزاء على إحسانه. وهذه الجملة يجوز أن تكون من خطاب الله تعالى إبراهيمَ، ويجوز أن تكون معترضة بين جمل خطاب إبراهيم.

{ **كَذَلِكَ** } الإشارة إلى المصدر المأخوذ من فعل { صَدَّقْتَ } وهو التصديق، أي: إنّا نجزي المحسنين كذلك التصديق، أي: مثل عظمة ذلك التصديق نجزي جزاء عظيما للمحسنين.

فهذا وعد بمراتب عظيمة من الفضل الرباني، وتضمّن وعد ابنه بإحسان مثله من جهة نوط الجزاء بالإحسان، وقد كان إحسان الابن عظيما ببذل نفسه.

{ **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ** } تأكيد للمعنى السابق. أي: هذا التكليف الذي كلفناك هو الاختبار البيّن، أي: الظاهر دلالة على مرتبة عظيمة من امتثال أمر الله. والجملة في محلّ العلة للجملة السابقة.

{ **وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** } يظهر أنّها من الكلام الذي خاطب الله به إبراهيم.
والمعنى: وقد فدينا ابنك بذبح عظيم، ولولا هذا التقدير تكون حكاية نداء الله إبراهيم غير مشتملة على المقصود من النداء وهو إبطال الأمر بذبح الغلام.
الفِدَى - الفداء: إعطاء شيء بدلًا عن حق للمعطى، ويطلق على الشيء المفدى به من إطلاق المصدر على المفعول. وأسند الفداء إلى الله لأنّه الآذن به، فهو مجاز عقلي، فإن الله أوحى إلى إبراهيم أن يذبح الكبش فداء عن ذبح ابنه، وإبراهيم هو الفادي بإذن الله، وابن إبراهيم مُفْدًى.
الذِبح (بكسر الذال): المذبوح.
{ **عَظِيمٍ** } بمعنى شرف قدر هذا الذِّبح، وهو أنّ الله فدى به ابن رسول، وأبقى به من سيكون رسولا فعظّمه بعظم أثره، ولأنّه سخره الله لإبراهيم في ذلك الوقت وذلك المكان.
الحكمة من عدم تسمية الذبيح
وقد أشارت هذه الآيات إلى قصة الذبيح ولم يسمّه القرآن لعلّه لئلّا يثير خلافا بين المسلمين وأهل الكتاب في تعيين الذبيح من ولدي إبراهيم، وكان المقصد تألّف أهل الكتاب لإقامة الحجّة عليهم في الاعتراف برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وتصديق القرآن، ولم يكن ثمّة مقصد مهم يتعلّق بتعيين الذبيح ولا في تخطئة أهل الكتاب في تعيينه.
وأمارة ذلك أنّ القرآن سمَّى إسماعيل في مواضع غير قصة الذبح وسمَّى إسحاق في مواضع، ومنها بشارة أمّه على لسان الملائكة الذين أرسلوا إلى قوم لوط، وذكر اسمَي إسماعيل وإسحاق أنّهما وهبا له على الكبر، ولم يسم أحدا في قصة الذبح قصدا للإبهام مع عدم فوات المقصود من الفضل، لأن المقصود من القصة التنويه بشأن إبراهيم، فأي ولديه كان الذبيح كان في ابتلائه بذبحه وعزمه عليه، وما ظهر في ذلك من المعجزة تنويه عظيم بشأن إبراهيم.
مع ما في ذلك من تجنّب المجادلة غير المجدية مع بني إسرائيل، قال الله تعالى { وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [العنكبوت:46]، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ". إلّا أنّه شاع من أخبار أهل الكتاب أن الذبيح هو إسحاق بن إبراهيم بناء على ما جاء في [سفر التكوين، الإصحاح:22] وعلى ما كان يقصّه اليهود عليهم، ولم يكن فيما علموه من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ما يخالفه ولا كانوا يسألونه.
والتأمّل في هذه الآية يقوّي الظنَّ بأنّ الذبيح إسماعيل، فإنّه ظاهر قوي في أنّ المأمور بذبحه هو الغلام الحليم في قوله { فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ } [101]، وأنّه هو الذي سأل إبراهيم ربّه أن يهب له، فساقت الآية قصة الابتلاء بذبح هذا الغلام الحليم الموهوب لإبراهيم، ثم أعقبت قصته بقوله تعالى { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ

الصَّالِحِينَ } [112]، وهذا قريب من دلالة النص على أنّ إسحاق هو غير الغلام الحليم الذي مضى الكلام على قصته، لأنّ الظاهر أن قوله { وَبَشَّرْنَاهُ } [112] بشارة ثانية، وأنّ ذكر اسم إسحاق يدلّ على أنّه غير الغلام الحليم الذي أجريت عليه الضمائر المتقدمة. فهذا دليل أول.

الدليل الثاني: أنّ الله لما ابتلى إبراهيم بذبح ولده كان الظاهر أن الابتلاء وقع حين لم يكن لإبراهيم ابن غيره لأنّ ذلك أكمل في الابتلاء كما تقدّم.

الدليل الثالث: أنّ الله تعالى ذكر { فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ } [101] عقب ما ذكر من قول إبراهيم { رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ } [100]، فدل على هذا الغلام الحليم الذي أمر بذبحه هو المبشَّر به استجابة لدعوته، وقد ظهر أنّ المقصود من الدعوة أن لا يكون عقيما يرثه عبيد بيته كما جاء في (سفر التكوين) وتقدّم آنفا.

الدليل الرابع: أنّ إبراهيم بنى بيتا لله بمكة قبل أن يبني بيتا آخر بنحو أربعين سنة، كما في حديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومن شأن بيوت العبادة في ذلك الزمان أن تقرَّب فيها القرابين فقربان أعز شيء على إبراهيم هو المناسب لكونه قربانا لأشرف هيكل. وقد بقيت في العرب سنة الهدايا في الحج كلّ عام، وما تلك إلّا تذكرة لأول عام أمر فيه إبراهيم بذبح ولده وأنّه الولد الذي بمكة.

الدليل الخامس: أن أعرابيا قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم: " يا ابن الذبيحين "، فعلم مراده وتبسّم، وليس في آباء النبيّ صلى الله عليه وسلم ذبيح غير عبد الله وإسماعيل.

الدليل السادس: ما وقع في [سفر التكوين، الإصحاح22] أنّ الله امتحن إبراهيم فقال له: " خذ ابنك وحيدك الذي تحبّه إسحاق واذهب إلى أرض المُرَيَّا وأصعد هنالك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك ".

ولم يكن إسحاق ابنا وحيدا لإبراهيم فإنّ إسماعيل ولد قبله بثلاث عشرة سنة. ولم يزل إبراهيم وإسماعيل متواصلين وقد ذكر في [سفرالتكوين،الإصحاح:25] عند ذكر موت إبراهيم عليه السلام: " ودفنه إسحاق وإسماعيل ابناه "، فإقحام اسم (إسحاق) بعد قوله: " ابنك وحيدك "، من زيادة كاتب التوراة.

واختلف علماء السلف في تعيين الذبيح:

فقال جماعة: **إسماعيل** وممن قاله أبو هريرة، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، وعبد الله بن عمر، وابن عباس، ومعاوية بن أبي سفيان. وقاله من التابعين سعيد بن المسيب، والشعبي، ومجاهد، وعلقمة، والكلبي، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، وأحمد بن حنبل.

وقال جماعة: **إسحاق** ونقل عن ابن مسعود، والعباس بن عبد المطلب، وجابر بن عبد الله، وعمر، وعلي من الصحابة، وقاله جمع من التابعين منهم: عطاء وعكرمة والزهري والسدي. وفي جامع العتبية أنّه قول مالك بن أنس.

{ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ [108] سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ [109] كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [110] إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ [111] }.

القول في هذه الآيات كالقول في نظيرها في ذكر نوح عليه السلام [78-81]، وإعادته هنا تأكيد لما سبق لزيادة التنويه بإبراهيم عليه السلام.

ولم يذكر هنا { فِي الْعَالَمِينَ } [79]، لأنّ إبراهيم لا يعرفه جميع الأمم من البشر بخلاف نوح عليه السلام.

{ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ [112] وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ [113] }.

هذه بشارة أخرى لإبراهيم ومكرمة له، وهي غير البشارة بالغلام الحليم، فإسحاق غير الغلام الحليم. وهذه البشارة هي التي ذُكرت في القرآن في قوله تعالى { فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} [هود:71].

{ بِإِسْحَاقَ } وتسمية المبشَّر به إسحاق تحتمل أن ّالله عيَّن له اسما يسمِّيه به، وهو مقتضى ما في [سفر التكوين، الإصحاح:17]: " سارة امرأتك تلد ابنا وتدعو اسمه إسحاق ".

وتحتمل أنّ المراد: بشّرناه بولد الذي سُمِّي إسحاق. وهو على الاحتمالين إشارة إلى أنّ الغلام المبشَّر به في الآية قبل هذه ليس هو الذي اسمه إسحاق، فتعيّن أنه الذي سُمِّي إسماعيل.

{ نَبِيئّاً } انتصب على الحال من { إِسْحَاقَ }، فيجوز أن يكون حكاية للبشارة فيكون الحال حالا مقدَّرا لأنّ اتصاف إسحاق بالنبوّة بعد زمن البشارة بمدة طويلة، بل هو لم يكن موجودا. وطول زمان الاستقبال لا يتحدّد، ومنه ما تقدّم في قوله تعالى { وَيَأْتِينَا فَرْداً } [مريم:80].

واعلم أنّ معنى الحال المقدّرة أنّها مقدَّر حصولها غير حاصلة الآن والمقدِّر هو الناطق بها، وهي وصف لصاحبها في المستقبل وقيد لعاملها كيفما كان.

{ مِنَ الصَّالِحِينَ } حال ثانية، وذكرها للتنويه بشأن الصلاح، فإنّ الأنبياء معدودون في زمرة أهله وإلّا فإن كلّ نبيّ لا بد أن يكون صالحا، والنبوّة أعظم أحوال الصلاح لما معها من العظمة.

{ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ } بارك: جعله ذا بركة، والبركة زيادة الخير في مختلف وجوهه.

وتقدّم تفسيرها عند قوله تعالى { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً } [آل عمران[96]. وقوله تعالى { وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ } [هود:48].

{ عَلَيْهِ وَعَلَى } للاستعلاء المجازي، أي: تمكّن البركة من الإحاطة بهما.

{ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ } لمّا ذكر ما أعطاهما نقل الكلام إلى ذريتهما.

فمنهم { **مُحْسِنٌ** } أي: عامل بالعمل الحسن. ومنهم { **وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ** } أي: مشرك غير مستقيم.
إشارة إلى أنّ ذرّيّتهما ليس جميعها كحالهما بل هم مختلفون. ونظيره قوله تعالى { قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة:124].
وفيه تنبيه على أنّ الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر، فقد يلد البر الفاجر والفاجر البر، وعلى أنّ فساد الأعقاب لا يعد غضاضة على الآباء، وأنّ مناط الفضل هو خصال الذات وما اكتسب المرء من الصالحات، وأمّا كرامة الآباء فتكملة للكمال وباعث على الاتساع بفضائل الخلال.
فكان في هذه التكملة إبطال غرور المشركين بأنّهم من ذرية إبراهيم. قال تعالى { وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ } [الأنفال:34] وقال {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا} [آل عمران:68].
وفي الآية مثل لحال النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه من أهل مكة ولحال المشركين من أهل مكة.

{ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ [114] وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ [115] وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ [116].

عطف على قوله { وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ } [75]، والمناسبة هي ما ذكر هنالك.
{ **وَلَقَدْ مَنَنَّا** } ذُكر هنا ما كان منّة على موسى وهارون وهو النبوّة، فإنّها أعظم درجة يُرفع إليها الإنسان، ولذلك أكتفي عن تعيين الممنون به لحمل الفعل على أكمل معناه. وجُعلت منّة من الله عليهما لأنّ موسى لم يسأل النبوّة، إذ ليست النبوة بمكتسبة، وكانت منّة على هارون أيضا لأنه إنّما سأل له موسى ذلك، فهي منّة عليه وإرضاء لموسى، والمنّة عليهما من قبيل إيصال المنافع، فإنّ الله أرسل موسى لإنقاذ بني إسرائيل من استعباد القبط لبني إبراهيم إسرائيل.
وفي اختلاف مبادئ القصص الثلاث إشارة إلى أنّ الله يغضب لأوليائه، إمّا باستجابة دعوة، وإمّا لجزاء على سلامة طوية وقلب سليم، وإمّا لرحمة منه ومنّة على عباده المستضعفين.
{ **وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ** } كرامة أخرى لهما ولقومهما بسببهما، وهذه نعمة إزالة الضرّ، فحصل لموسى وهارون نوعا الإنعام وهما: إعطاء المنافع، ودفع المضار.
{ **الْكَرْبِ الْعَظِيمِ** } هو ما كانوا فيه من المذلّة تحت سلطة الفراعنة، ومن اتّباع فرعون إيّاهم في خروجهم.
{ **وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ** } و{ هُمُ } ضمير فصل وهو يفيد قصرا، أي: هم الغالبين لغيرهم، أي لم يُغلبوا ولو مرة واحدة. فكان بنو إسرائيل منتصرين في كل موقعة قاتلوا فيها عن أمر موسى وما انهزموا إلّا

حين أقدموا على قتال العمالقة والكنعانيين في سهول وادي (شكول) لأنّ موسى نهاهم عن قتالهم هنالك كما هو مسطور في تاريخهم.

{ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ [117] وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [118] وَتَرَكْنَا عَلَيهِمَا فِي الْآخِرِينَ [119] سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ [220] إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [121] إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ [122] }.

{ **وَآتَيْنَاهُمَا** } تعدية فعل الإيتاء إلى ضمير موسى وهارون مع أنّ الذي أوتي التوراة هو موسى، كما قال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } [المؤمنون:49] من حيث إنّ هارون كان معاضدا لموسى في رسالته فكان له حظ من إيتاء التوراة، كما في قوله تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً } [الأنبياء: 48]، وهذا من استعمال الإيتاء في معنييه الحقيقي والمجازي.

{ **الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ** } هو التوراة، و**المستبين**: قوي الوضوح، فالسين والتاء للمبالغة يقال: استبان الشيء إذا ظهر ظهورا شديدا.

{ **الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** } الدين الحق، كما تقدّم في [الفاتحة:6]، وقد كانت شريعة التوراة يوم أوتيها موسى عليه السلام هي الصراط المستقيم فلما نُسخت بالقرآن صار القرآن هو الصراط المستقيم للأبد.

ويجوز أن يراد أصول الديانة التي لا تختلف فيها الشرائع، وهي التوحيد وكليات الشرائع التي أشار إليها قوله تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً - إلى قوله - وَمُوسَى وَعِيسَى } [الشورى:13].

{ **وَتَرَكْنَا عَلَيهِمَا فِي الْآخِرِينَ** } القول فيها إلى آخر الآيات الأربع، كالقول في نظائرها عند ذكر نوح.

وفي ذكر قصة موسى وهارون عبرة مَثَل كامل للنبيّ صلى الله عليه وسلم في رسالته وإنزال القرآن عليه وهدايته وانتشار دينه وسلطانه بعد خروجه من ديار المشركين.

{ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ [123] إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ [124] أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ [125] اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ [126] فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ [127] إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [128] وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ [129] سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ [130] إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [131] إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ [132] }.

أُتبِع الكلام على رسل ثلاثة أصحاب الشرائع: نوح، وإبراهيم، وموسى بالخبر عن ثلاثة أنبياء وما لقوه من قومهم، وذلك كلّه شواهد لتسلية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقوارع من الموعظة لكفّار قريش.

{ **وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** } هو (**إيلياء**) من أنبياء بني إسرائيل التابعين لشريعة التوراة، وأطلق عليه وصف الرسول لأنّه أُمِر من جانب الله تعالى بتبليغ ملوك إسرائيل أنّ الله غضب عليهم من أجل عبادة الأصنام، فإطلاق وصف الرسول عليه مثل إطلاقه على الرسل إلى أهل أنطاكية المذكورين في سورة يس.

{ **إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ** } { إذ } ظرف متعلّق بـ { الْمُرْسَلِينَ }، أي: أنّه من حين ذلك القول كان مبلِّغا رسالة عن الله تعالى إلى قومه. وتقدّم ذكر إلياس في [الأنعام:85].

قومه: بنو إسرائيل، وكانوا قد عبدوا بعلا معبود الكنعانيين بسبب مصاهرة بعض ملوك يهودا للكنعانيين، ولذلك قام إلياس داعيا قومه إلى نبذ عبادة بعل الصنم وإفراد الله بالعبادة.

{ **ألاَ** } كلمتان: همزة الاستفهام للإنكار، و{ لا } النافية ،إنكار لعدم تقواهم، وحذف مفعول { تَتَّقُونَ } لدلالة ما بعده عليه.

{ **بَعْلاً** } اسم صنم الكنعانيين، وهو أعظم أصنامهم، لأنّ كلمة بعل في لغتهم تدل على معنى الذكورة. ثم دلّت على معنى السيادة، فلفظ البعل يطلق على الذكر، وهو عندهم رمز على الشمس ويقابله كلمة (**تانيت**)، أي: الأنثى، وكانت لهم صنمة تسمى عند الفينيقيين بقرطاجنة (تانيت) وهي عندهم رمز القمر، وعند فينيقيي أرض فينيقية [الوطن الأصلي للكنعانيين] تُسمَّى هذه الصنمة (العشتاروث).

وقد أطلق على بعل في زمن موسى عليه السلام اسم (مُولك) أيضا، وقد مثَّلوه بصورة إنسان له رأس عجل وله قرنان وعليه إكليل وهو جالس على كرسي مادا يديه كمن يتناول شيئا وكانت صورته من نحاس وداخلها مجوف وقد وضعوها على قاعدة من بناء كالتنور فكانوا يوقدون النار في ذلك التنور حتّى يحمى النحاس ويأتون بالقرابين فيضعونها على ذراعيه فتحترق بالحرارة فيحسبون لجهلهم الصنم تقبلها وأكلها من يديه، وكانوا يقربون له أطفالا من أطفال ملوكهم وعظماء ملّتهم، وقد عبده بنو إسرائيل غير مرّة تبعا للكنعانيين، والعمونيين، والمؤبيين.

{ **وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ** } جيء بذكر صفة الله دون اسمه العلم تعريضا بتسفيه عقول الذين عبدوا بعلا بأنّهم تركوا عبادة الرب المتّصف بأحسن الصفات وأكملها وعبدوا صنما ذاته وحش، فكأنّه قال: أَتَدْعون صنما بشعا جمع عنصري الضعف؛ وهما المخلوقية وقبح الصورة وتتركون من له صفة الخالقية والصفات الحسنى.

{ **اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ** } قرأ الأكثر برفع اسم الجلالة وما عطف عليه فهو مبتدأ والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا والخبر مستعمل في التنبيه على الخطأ بأن عبدوا { بعلاً }.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف بنصب اسم الجلالة على عطف البيان لـ { أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ }، والمقصود من البيان زيادة التصريح لأنّ المقام مقام إيضاح لأصل الديانة.

وعلى كلتا القراءتين فالكلام مسوق لتذكيرهم بأنّ من أصول دينهم أنّهم لا ربّ لهم إلّا الله.

{ **وَرَبَّ آبَائِكُمُ** } إشارة إلى إبراهيم، فإنّ أباءهم لم يعبدوا غير الله من عهد إبراهيم عليه السلام، وهو الأب الأوّل من حين تميزت أمتهم عن غيرهم، أو إشارة إلى يعقوب، قال تعالى { وَأَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة:132].

{ **الْأَوَّلِينَ** } احتراز عن آبائهم الذين كانوا في زمان ملوكهم بعد سليمان.

وجمع هذا الخبرُ تحريضًا على إبطال عبادة (**بعل**) لأنّ في الطبع محبة الاقتداء بالسلف في الخير.

{ **فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ** } أي: أنّهم لم يطيعوه تملُّقا لملوكهم الذين أجابوا رغبة نسائهم المشركات لإقامة هياكل للأصنام، فإنّ (إيزابل) ابنة ملك (الصيدونيين) زوجة (أخاب) ملك إسرائيل، لمّا بلغها ما صنع إلياس بسدنة بَعْل ثأراً لمن قتلته هي من صالحي إسرائيل أرسلت إلى إلياس تتوعده بالقتل فخرج إلى موضع اسمه (بئر سبع) ثم ساح في الأرض وسأل الله أن يقبضه إليه فأمره بأن يعهد إلى صاحبه (**اليسع**) بالنبوّة من بعده، ثمّ قبضه الله إليه فلم يعرف أحد مكانه.

{ **فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ** } أي: أنّ الله يحضرهم للعقاب، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } [57].

{ **إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** } استُثْنِيَ من ذلك عبادُ الله المخلَصون وهم الذين اتّبعوا إلياس وأعانوه على قتل سدنة (بعل). وتقدّم القول فيه فيما سبق من هذه السورة [74]

{ **وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ** } إلى آخر الآية تقدّم نظيره.

{ **إِلْ يَاسِينَ** } قرأ نافع وابن عامر { **ءَالِ يَاسِينَ** } بهمزة بعدها ألف على أنّهما كلمتان (ءال – ياسين).

وقرأه الباقون بهمزة مكسورة دون ألف بعدها وبإسكان اللام { **إِلْ يَاسِينَ** } على أنّها كلمة واحدة هي اسم إلياس، ولا منافاة بينها وبين القراءتين لأنّ (**آل**) قد ترسم مفصولة عن مدخولها.

قيل: أريد به إلياس خاصة وعبّر عنه بـ { ياسين } لأنّه يُدعى به.

وقيل: إن ياسين هو أبو إلياس. فالمراد: سلام على إلياس وذويه من آل أبيه.

والأظهر أنّ المراد بـ { إِلْ يَاسِينَ } أنصاره الذين اتبعوه وأعانوه. وهؤلاء هم أهل (جبل الكرمل) الذين استنجدهم إلياس على سدنة بعل فأطاعوه وأنجدوه وذبحوا سدنة بعل كما هو موصوف بإسهاب في [سفر الملوك الأول، الإصحاح:18].

{ وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ [133] إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ [134] إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ [135] ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ [136] }.

هذا ثاني الأنبياء الذين جمعهم التنظير في هذه الآية، ولوط كان رسولا للقرى التي كان ساكنا في إحداها فهو رسول لا شريعة له سوى أنّه جاء ينهى الأقوام الذين كان نازلا بينهم عن الفاحشة وتلك لم يسبق النهي عنها في شريعة إبراهيم.

{ **إذ** } ظرف متعلق بـ { الْمُرْسَلِينَ }، والمعنى: أنّه في حين إنجاء الله إيّاه وإهلاك الله قومه كان قائما بالرسالة عن الله تعالى ناطقا بما أمره الله. وتقدّمت قصة لوط في [الأعراف:80-84].

العجوز: امرأة لوط، وتقدّم خبرها، وتقدم نظير الآية في [الشعراء:171].

{ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ [137] وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ [138] }.

الخطاب لقريش الذين سيقت هذه القصص لعظتهم.

المرور: مجاوزة السائر بسيره شيئا يتركه، والمراد هنا: في السفر، وكان أهل مكة إذا سافروا في تجارتهم إلى الشام يمرون ببلاد فلسطين فيمرّون بأرض لوط على شاطئ البحر الميت المسمّى بحيرة لوط.

{ **عَلَيْهِمْ** } بتقدير مضاف: على أرضهم، كما قال الله تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ } [البقرة:259].

يقال: مرّ عليه ومرّ به، وتعديته بحرف (على) تفيد تمكّن المرور أشد من تعديته بـ (الباء).

وكانوا يمرّون بجانبها، لأنّ قراهم غمرها البحر الميت و آثارها باقية تحت الماء.

{ **مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ** } يمرون على منازلهم في الصباح تارة وفي الليل تارة. بحسب تقدير السير في أوّل النهار وآخره، لأنّ رحلة قريش إلى الشام تكون في زمن الصيف ويكون السير بكرة وعشيا وسُرًى.

{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } استفهام إنكاري من عدم فطنتهم لدلالة تلك الآثار على ما حلّ بهم من سخط الله وعلى سبب ذلك، وهو تكذيب رسول الله لوط.

وقد أشرنا إلى وجه تخصيص قصة لوط مع القصص الخمس في أول الكلام على قصة نوح، من كونه على ملّة إبراهيم، مثل ما تدّعيه قريش، وتزيد على تلك القصص بأنّ فيها مشاهدة آثار قومه الذين كذبوا وأصروا على الكفر.

{ **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ [139] إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ [140] فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ [141] فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ [142] فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ [143] لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [144]** }.

يونس: هو ابن متَّى، واسمه بالعبرانية (يونان بن آمتاي)، وهو من أهل فلسطين، وهو من أنبياء إسرائيل أرسله الله إلى أهل (**نينوى**)، وكانت نينوى مدينة عظيمة من بلاد الآشوريين وكان بها أسرى بني إسرائيل الذين بأيدي الآشوريين وكانوا زهاء مائة ألف بقوا بعد (دانيال). وكان يونس في أوّل القرن الثامن قبل المسيح، وتقدّم ذكره وذكر قومه في [الأنعام:86]، وفي [يونس:98].

{ **إذ** } ظرف متعلّق بـ { الْمُرْسَلِينَ } وإنّما وُقِّتت رسالته بالزمن الذي أبق فيه إلى الفلك لأنّ فعلته تلك كانت عند ما أمره الله بالذهاب إلى نينوى لإبلاغ بني إسرائيل أنّ الله غضب عليهم لأنّهم انحرفوا عن شريعتهم.

فحينما أوحى الله إليه بذلك عظم عليه هذا الأمر فخرج من بلده وقصد مرسى (يافا) ليذهب إلى مدينة (ترشيش) وهي (طرطوسية) على شاطئ بلاد الشام، فهال البحر حتّى اضطر أهل السفينة إلى تخفيف عدد ركّابها فاستهموا على من يطرحونه من سفينتهم في البحر فكان يونس ممّن خرج سهم إلقائه في البحر فالتقمه حوت عظيم وجرت قصته المذكورة في [الأنبياء:88/87]، فلمّا كان هروبه من كلفة الرسالة مقارنا لإرساله وُقِّت بكونه من المرسلين.

{ **أَبَقَ** } مصدره إبَاق (بكسر الهمزة وتخفيف الباء) وهو فرار العبد من مالكه.

والمراد هنا: أنّ يونس هرب من البلد الذي أوحي إليه فيه قاصدا بلدا آخر تخلُّصا من إبلاغ رسالة الله إلى أهل (نينوى) ولعلّه خاف بأسهم واتهم صبر نفسه على أذاهم المتوقّع لأنّهم.

ففعل { أَبَقَ } هنا استعارة تمثيلية، شُبِّهت حالة خروجه من البلد الذي كلفه ربه فيه بالرسالة، تباعدا من كلفة ربه، بإباق العبد من سيده الذي كلّفه عملا.

{ **الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** } المملوء بالراكبين، وتقدّم معناه في قصة نوح [75].

ساهم: قارع. وأصله مشتق من اسم السهم لأنّهم كانوا يقترعون بالسهام وهي أعواد النبال، وتسمَّى الأزلام. وكانت القرعة طريقا من طرق القضاء عند التباس الحق أو عند استواء عدد في استحقاق شيء. وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ } [آل عمران:44]. وهي طريقة إقناعية كان البشر يصيرون إليها لفصل التنازع، يزعمون أنّها دالة على إرادة الله تعالى عند الأمم المتدينة، أو إرادة الأصنام عند الأمم التي تعبد الأصنام، تمييزَ صاحب الحق عند التنازع.

ولعلّها من مخترعات الكهنة وسدنة الأصنام. فلمّا شاعت في البشر أقرّتها الشرائع لما فيها من قطع الخصام والقتال، ولكن الشرائع الحق لمّا أقرتها اقتصدت في استعمالها بحيث لا يصار إليها إلّا عند التساوي في الحق وفقدان المرجّح، الذي هو مؤثّر في نوع ما يختلفون فيه.

وقد اقتصرت الشريعة الإسلامية في اعتبارها على أقل ما تعتبر فيه. مثل تعيين أحد الأقسام المتساوية لأحد المتقاسمين إذ تشاحوا في أحدها، قال ابن رشد في المقدّمات: "والقرعة إنّما جعلت تطييبا لأنفس المتقاسمين وأصلها قائم في كتاب الله لقوله تعالى في قصة يونس {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ } ".

وعندي: أنّ ليس في الآية دليل على مشروعية القرعة في الفصل بين المتساويين لأنّها لم تحك شرعا صحيحا كان قبل الإسلام، إذ لا يعرف دين أهل السفينة الذين أجرَوْا الاستهام على يونس.

وقال القرافي في (الفرق): " متّى تعينت المصلحة أو الحق في جهة لا يجوز الاقتراع لأنّ في القرعة ضياع الحق، ومتى تساوت الحقوق أو المصالح فهذا موضع القرعة دفعا للضغائن، فهي مشروعة بين الخلفاء إذا استوت فيهم الأهلية للولاية، والأئمة، والمؤذنين، إذا استووا، والتقدّم للصف الأول عند الازدحام، وتغسيل الأموات عند تزاحم الأولياء وتساويهم، وبين الحاضنات والزوجات في السفر والقسمة، والخصوم عند الحكّام [...] والحق عندي أنّها تجري في كل مشكل ".

الإدحاض: جعل المرء داحضا، أي: زالقا غير ثابت الرجلين، وهو هنا استعارة للخسران والمغلوبية.

الالتقام: البلع. والحوت الذي التقمه: حوت عظيم يبتلع الأشياء ولا يعض بأسنانه.

المُليم: اسم فاعل من ألام، إذا فعل ما يلومه عليه الناس، لأنّه جعلهم لائمين، فهو ألامهم على نفسه.

وكان غرقه في البحر المُسمَّى بحر الروم وهو الذي نسمّيه البحر البيض المتوسط.

{ **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** } كما في قوله { لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الأنبياء:87] فأنجاه الله بسبب تسبيحه وتوبته فقذفه الحوت إلى البر بعد أن مكث في جوف الحوت ثلاث ليال، وقيل: يوما وليلة، وقيل: بضع ساعات.

{ **لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** } التأبيد.

{ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ [145] وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ [146] }.

الفاء فصيحة لأنّها تفصح عن كلام مقدّر دل عليه قوله { فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ...}. فالتقدير: يسبح ربه في بطن الحوت أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجاب الله له ونجّاه.

النبذ: الإلقاء، وأسند نبذه إلى الله لأنّ الله هو الذي سخّر الحوت لقذفه من بطنه إلى شاطئ لا شجر فيه.

العراء: الأرض التي لا شجر فيها ولا ما يغطّيها.

{ **وَهُوَ سَقِيمٌ** } وكان يونس قد خرج من بطن الحوت سقيما لأنّ أمعاء الحوت أضرّت بجلده.

{ **وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ** } أنبت الله شجرة من يقطين لتظلله وتستره. و**اليقطين**: الدُّبَّاء، وهي كثيرة الورق تتسلق أغصانها في الشيء المرتفع. واختير له اليقطين ليمكن له أن يقتات من غلّته فيصلح جسده لطفا من ربه به بعد أن أجرى له حادثا لتأديبه، شأن الرب مع عبيده أن يُعقب الشدّة باليسر.

وهذا حَدَث لم يعهد مثيله من الرسل ولأجله قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **ما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى**"، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه إذ لا يحتمل أن يكون أراد أحدا آخر إذ لا يخطر بالبال أن يقوله أحد غير الأنبياء. والمعنى نفي الأخيرية في وصف النبوة، أي: لا يظننّ أحد أن فعلة يونس تسلب عنه النبوّة.

واعلم أنّ الغرض من ذكر يونس هنا تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يلقاه من ثقل الرسالة بأنّ ذلك قد أثقل الرسل من قبله، فظهرت مرتبة النبيّ صلى الله عليه وسلم في صبره على ذلك وعدم تذمّره، وإعلام جميع الناس بأنّه مأمور من الله تعالى بمداومة الدعوة للدين، لأنّ المشركين كانوا يلومونه على إلحاحه عليهم ودعوته إيّاهم في مختلف الأزمان والأحوال.

فلذكر قصة يونس أثر من موعظة التحذير من الوقوع فيما وقع فيه من غضب ربه، ألا ترى إلى قوله تعالى { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ } [القلم:49/48].

وليعلم الناس أنّ الله إذا اصطفى أحدا للرسالة لا يُرخَّص له في الفتور عنها ولا ينسخ أمره بذلك لأنّ الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

{ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ [147] فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ [148] }.

ظاهر ترتيب ذكر الإرسال بعد الإنجاء من الحوت أنّه إعادة لإرساله. وهذا هو مقتضى ما في كتاب يونس من كتب اليهود إذ وقع في الإصحاح الثالث: " ثم صار قول الربّ إلى يونس ثانية: قم اذهب إلى نينوى وناد لها المناداة التي أنا مكلمك بها ".

المرسل إليهم :اليهود القاطنون في نينوى في أسر الآشوريين كما تقدّم. والظاهر أنّ الرسول إذا بعث إلى قوم مختلطين بغيرهم أن تعمّ رسالته الجميع، لأنّ في تمييز البعض بالدعوة تقريرا لكفر غيرهم. ولهذا لما بعث الله موسى عليه السلام لتخليص بني إسرائيل دعا فرعون وقومه إلى نبذ عبادة الأصنام.

{ **مِائَةِ أَلْفٍ** } يحتمل أنّهم اليهود وأن المعطوفين بقوله { **أَوْ يَزِيدُونَ** } هم بقية سكان نينَوى. فحرف (أو) بمعنى (بل).

وذُكر في كتاب يونس أن دعوة يونس لما بلغت ملك نينوى قام عن كرسيه وخلع رداءه ولبس مسحا وأمر أهل مدينته بالتوبة والإيمان. ولم يُذكر أن يونس دعا غير أهل نينوى من بلاد أشور مع سعتها.

{ **فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ** } الفاء في { فَآمِنُوا } للتعقيب العرفي لأنّ يونس لمّا أرسل إليهم ودعاهم امتنعوا في أوّل الأمر فتوعّدهم بهلاكهم بعد أربعين يوما ثم خافوا فآمنوا، كما في قوله {فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس:98].

{ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ } [149]

تفريع على ما تقدّم من الإنكار على المشركين وإبطال دعاويهم، وضرب الأمثال لهم بنظرائهم من الأمم ففُرّع عليه أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بإبطال ما نسبه المشركون إلى الله من الولد.

{ **فَاسْتَفْتِهِمْ** } ضمير الغيبة عائد على غير مذكور يُعلم من المقام. مثل نظيره السابق في قوله { فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا } [11]. والمراد: التهكّم عليهم بصورة الاستفتاء إذ يقولون: ولد الله، على أنّهم قسموا قسمة ضيزى حيث جعلوا لله البنات وهم يرغبون في الأبناء الذكور ويكرهون الإناث، فجعلوا لله ما يكرهون وقد جاءوا في مقالهم هذا بثلاثة أنواع من الكفر:

أحدها: أنّهم أثبتوا التجسيم لله لأنّ الولادة من أحوال الأجسام.

الثاني: إيثار أنفسهم بالأفضل وجعلهم لله الأقل. قال تعالى { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ } [الزخرف:17].

الثالث: أنّهم جعلوا للملائكة المقربين وصف الأنوثة.

{ **أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ** } بيان لجملة { فَاسْتَفْتِهِمْ }. وضمير { لِرَبِّكَ } مخاطب به النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ } [150]

{ **أَمْ** } منقطعة بمعنى (بل)، وهي لا يفارقها معنى الاستفهام، فالكلام بعدها مقدّر بهمزة الاستفهام، أي: بل أخلقنا الملائكة إناثا. والاستفهام إنكاري وتعجيبي من جرأتهم وقولهم بلا علم.

{ **خَلَقْنَا** } التفات من الغيبة إلى التكلّم.

{ **وَهُمْ شَاهِدُونَ** } في موضع الحال وهي قيد للإنكار، أي: كانوا حاضرين حين خلقنا الملائكة، لأنّ هذا لا يثبت لأمثالهم إلّا بالمشاهدة. وبقي أن يكون ذلك بالخبر القاطع فذلك ما سينفيه بقوله { أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ } [156]، وذلك لأنّ أنوثة الملائكة ليست من المستحيل ولكنه قول بلا دليل.

{ أَلَا إِنَّـهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ [151] وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّـهُمْ لَكَاذِبُونَ [152] }.

ارتقاء في تجهيلهم بأنّهم يقولون المستحيل فضلا على القول بلا دليل فلذلك سمَّاه **إفكا**. والجملة معترضة بين جمل الاستفتاء.

{ **أَلَا** } حرف تنبيه للاهتمام بالخبر.

الإفك: الكذب، أي: قولهم هذا بعض من أكذوباتهم.

{ **وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** } مؤكَّدا بـ (إن) واللام، أي: شأنهم الكذب في هذا وفي غيره من باطلهم.

{ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ [153] مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [154] أَفَلا تَذَكَّرُونَ [155] أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ [156] فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [157] }.

{ **أَصْطَفَى** } قرأه الجمهور بهمزة قطع مفتوحة على أنّها همزة الاستفهام وأمّا همزة الوصل التي في الفعل فمحذوفة لأجل الوصل. وقرأه أبو جعفر بهمزة وصل على أنّ همزة الاستفهام محذوفة.

والكلام ارتقاء في التجهيل، أي: لو سلّمنا أنَّ الله اتخذ ولدا فلماذا اصطفى البنات دون الذكور؟

{ **مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** } بدل اشتمال من جملة { أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ } فإنّ إنكار اصطفاء البنات يقتضي عدم الدليل في حكمهم ذلك، فأبدل {مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} من إنكار ادعائهم اصطفاء الله البنات.

{ **مَا لَكُمْ** } { ما } استفهام عن ذات وهي مبتدأ و{ لكم } خبر. والمعنى: أي شيء حصل لكم؟

وهذا إبهام فلذلك كانت كلمة (ما لك) ونحوها في الاستفهام يجب أن يتلى بجملة حال تبيّن الفعل المستفهم عنه نحو { مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ } [92]، ونحو قوله تعالى { مَا لَكَ لا تَأْمَنَنَا عَلَى يُوسُفَ } [يوسف:11].

{ **كيف** } اسم استفهام عن الحال، وهي في موضع الحال من ضمير {تَحْكُمُونَ} قُدمت لأجل صدارة الاستفهام { **تَحْكُمُونَ** } حال من ضمير { لكم } فحصل استفهامان:

<u>أحدهما</u>: عن الشيء الذي حصل لهم فحكموا هذا الحكم.

<u>ثانيهما</u>: عن الحالة التي اتصفوا بها لمّا حكي هذا الحكم الباطل.

وهذا إيجاز حذف، إذ التقدير: ما لكم تحكمون هذا الحكم؟ كيف تحكمونه؟

وحُذف متعلق { تَحْكُمُونَ } لما دلّ عليه الاستفهامان من كون ما حكموا به منكرا يحقّ العجب منه، فكلا الاستفهامين إنكار وتعجيب.

{ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } فُرّع عليه الاستفهام الإنكاري عن تذكّرهم، أي استعمال ذُكرهم، وهو العقل. أي: فمنكر عدم تفهّمكم فيما يصدر من حكمكم.

{ **أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ** } إضراب انتقالي فـ { أم } منقطعة بمعنى (بل) التي معناها الإضراب الصالح للإضراب الإبطالي والإضراب الانتقالي. والاستفهام الذي تقتضيه { أم } بعدها إنكاري أيضا.

السلطان: الحجّة. و**المبين**: الموضِّح للحق. أي: ما لكم حجّة ودليل على قولكم إنّ الملائكة بنات الله.

{ **فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } تفرّع على إنكار أن تكون لهم حجّة بما قالوا أن خوطبوا بالإتيان بكتاب على ذلك إن كانوا صادقين فيما زعموا، أي: فإن لم تأتوا بكتاب على ذلك فأنتم غير صادقين.

{ **فَأْتُوا** } الأمر تعجيز مثل قوله {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ} [البقرة:23].

{ **بِكِتَابِكُمْ** } إضافة الكتاب إليهم على معنى المفعولية، أي: كتاب مرسل إليكم.

{ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } .[158]

ذلك أنّ المشركين زعموا أنّ الملائكة بنات الله من سَروات الجنّ، أي: من فريق نساء من الجن، من أشراف الجنّ، وتقدّم في قوله تعالى { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ } [الأعراف:184].

{ **الْجِنَّةُ** } الجماعة من الجن، فتأنيث اللفظ بتأويل الجماعة مثل تأنيث رَجْلة، الطائفة من الرجال.

النسب: القرابة العمودية أو الأفقية. أي: ذوي نسب لله تعلى، وهو نسب البنوّة، لزعمهم أنّ الملائكة بنات الله تعالى. أي: نسله سبحانه ناشئ من بينه وبين الجن.

{ **وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ** } معترضة بين السابقة واللاحقة.

{ **إِنَّهُمْ** } الضمير عائد إلى المشركين أو إلى الجنة، والوجهان مرادان فإنّ الفريقين معاقبان.

المحضرون: المجلوبون للحضور، والمراد: محضرون للعقاب، بقرينه مقام التوبيخ، فإنّ التوبيخ يتبعه التهديد، والغالب في فعل الإحضار أن يراد به إحضار سوء، قال تعالى { وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ } [57]، فأمّا الإتيان بأحد لإكرامه فيطلق عليه المجيء.

والمعنى: أنّ الجنّ تعلم كذب المشركين في ذلك كذبا فاحشا يجازون عليه بالإحضار للعذاب.

{ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } [159]

أُتبعت حكاية قولهم الباطل والوعيد عليه باعتراض بين المستثنى منه والمستثنى يتضمّن إنشاء تنزيه الله تعالى عما نسبوه إليه، فهو إنشاء من جانب الله تعالى لتنزيهه، وتلقين للمؤمنين بأن يقتدوا بالله في ذلك التنزيه، وتعجيب من فظيع ما نسبوه إليه.

{ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } [160]

اعتراض بين جملة { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } [159] وجملة { فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ } [161]، والاستثناء منقطع، قيل: نشأ عن قوله { إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ } [158]، والمعنى: لكن عباد الله المخلصين لا يحضرون.

وقيل: عن قوله { عَمَّا يَصِفُونَ } [159]، أي: لكن عباد الله المخلصين لا يصفونه بذلك.

وقيل: من ضمير { وَجَعَلُوا } [158]، أي: لكن عباد الله المخلصين لا يجعلون ذلك.

والوجه عندي: أن يكون استثناء منقطعا نشأ عن قوله { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } [159].

والمعنى: لكن الملائكة عباد الله المخلصين، فالمراد من { عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } الملائكة، فهذه الآية في معنى قوله تعالى { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ } [الأنبياء:26].

{ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ [161] مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ [162] إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ [163] }.

عُقِّب قولهم في الملائكة والجنّ بهذا، لأنّ قولهم ذلك دعاهم إلى عبادة الجن وعبادة الأصنام التي سوَّلها لهم الشيطان، وحرَّضهم عليها الكهَّانُ خَدَمةُ الجن، فعُقِّب ذلك بتأييس المشركين من إدخال الفتنة على المؤمنين في إيمانهم بما يحاولون منهم من الرجوع إلى الشر.

أو هي فاء فصيحة، والتقدير: إذا علمتم أنّ عباد الله المخلصين منزهون عن مثل قولكم، فإنّكم لا تفتنون إلّا من هو صالي الجحيم.

{ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ [164] وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ [165] وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ [166] }.

يجوز أن يكون من كلام الملائكة، عطفا على قوله { إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } [40]، فيكون عطفا على معنى الاستثناء المنقطع، لأنّ معناه أنّهم ليسوا أولاد الله تعالى، وعطف عليه أنّهم يتبرّأون من ذلك. والتقدير: ويقولون ما منا إلّا له مقام معلوم وإنّا لنحن الصافون وإنّا لنحن المسبّحون.

وهذا الوجه أوفق بالصفات المذكورة { إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ - الصَّافُّونَ - الْمُسَبِّحُونَ }، الشائع وصف الملائكة بأمثالها في القرآن، كما تقدّم في أول السورة وصفهم بالصافات.

ووصفهم بالتسبيح كثير، كقوله تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } [الشورى:5].

وذكر مقاماتهم في قوله تعالى { ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ } [التكوير:21/20]، وقوله تعالى { وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى } [النجم:14/13].

ويجوز أن يكون هذا ممّا أُمِر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يقوله للمشركين عطفا على التفريع الذي في قوله { فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ } [161] إلى آخره. والمعنى: ما أنتم بفاتنيننا فتنةَ جَرَاءة على ربّنا فنقول مثل قولكم: الملائكة بنات الله والجن أصهار الله، فما منَّا إلّا له مقام معلوم لا يتجاوزه، وهو مقام المخلوقية لله والعبودية له.

المقام: أصله مكان القيام. ولمّا كان القيام يكون في الغالب لأجل العمل كثر إطلاق المقام على العمل الذي يقوم به المرء، كما حكي في قول نوح { إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي } [يونس:71]، أي: عملي.

المعلوم: المعيَّن المضبوط، وأطلق عليه وصف { مَعْلُومٌ }، لأنّ الشيء المعيّن المضبوط لا يشتبه على المتبصر فيه فمن تأمَّله علِمَه.

والمعنى: ما من أحد منّا معشر المؤمنين إلّا له صفة وعمل نحو خالقه لا يستزلّه عنه شيء ولا تروج عليه فيه الوساوس، فلا تطمعوا أن تزِلُّونا عن عبادة ربّنا.

فالمقام هو صفة العبودية لله بقرينة وقوع هذه الجملة عقب قوله تعالى { فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ} [162/161]، أي: ما أنتم بفاتنين لنا فلا يلتبس علينا فضل الملائكة فنرفعه إلى مقام البنوّة لله تعالى.

{ **وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ** } أي: وإنّا معشر المسلمين:

الصّافون: أي: الواقفون لعبادة الله صفوفا بالصلاة. ووصف وقوفهم في الصلاة بالصف تشبُّها بنظام الملائكة قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث مسلم: " **جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة** ".

المسبّحون: المنزّهون لله تعالى عن أن يتّخذ ولدا أو يكون خلق صهرا له أو صاحبة.

وحذف متعلق { الصَّافُّونَ / الْمُسَبِّحُونَ } لدلالة قوله تعالى { مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ } [162]عليه، أي: الصافون لعبادته المسبّحون له.

{ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ [167] لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ [168] لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [169] فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [170] }.

انتقال من ذكر كفر المشركين بتعدّد الإله، وبإنكار البعث، وما وصفوا به الرسول صلى الله عليه وسلم من السحر والجنون، ثمّ بما نسبوا لله ممّا لا يليق بإلهيته، وما تخلَّل ذلك من المواعظ والوعيد لهم والوعد للمؤمنين، والعبرة بمصارع المكذِّبين السابقين وما لقيه رسل الله من أقوامهم.

فانتقل الكلام إلى ذكر ما كفر به المشركون من تكذيب القرآن الذي أنزله الله هدى لهم، فالمقصود من هذا هو قوله { فَكَفَرُوا بِهِ } أي: الذكر، وإنّما قُدِّم له في نظم الكلام ما فيه تسجيل عليهم تهافتهم في القول إذ كانوا قبل

أن يأتيهم محمد صلى الله عليه وسلم بالكتاب المبين يودُّون أن يشرِّفهم الله بكتاب لهم كما شرَّف الأولين ويرجون لو كان ذلك أن يكونوا عبادا لله مخلصين له، فلمّا جاءهم ما رغبوا فيه كفروا به، وذلك أفظع الكفر، لأنّه كفر بما كانوا على بصيرة من أمره إذ كانوا يتمنَّونه لأنفسهم ويغبطون الأمم التي أنزل عليهم مثله، فلم يكن كفرهم عن مباغتة ولا عن قلة تمكّن من النظر.

{ **وَإِنْ** } تأكيد الخبر بـ (إن) المخففة من الثقيلة وبـ (لام الابتداء) الفارقة بين المخففة والنافية، للتسجيل عليهم بتحقيق وقوع ذلك منهم ليُسدَّ عليهم باب الإنكار.

{ **كَانُوا** } للدلالة على أن خبر (كان) ثابت لهم في الماضي.

{ **لَيَقُولُونَ** } التعبير بالمضارع لإفادة أنّ ذلك تكرّر منهم.

{ **لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ** } {لو} شرطية، وسدَّت {أن} وصلتها مسد فعل الشرط، وهو كثير في الكلام.

الذكر: الكتاب المقروء، سُمِّي ذكرا لأنّه يذكّر الناس بما يجب عليهم. وتقدّم عند قوله تعالى { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } [الحجر:6].

{ **مِنَ الْأَوَّلِينَ** } صفة لـ { ذِكْرًا }، والمراد: الرسل السابقون، أي: مثل موسى وعيسى.

ومرادهم بهذا أنّ الرسل الأوّلين لم يكونوا مرسلين إليهم ولا بلَّغوا إليهم كتابهم ولو كانوا مرسلين إليهم لآمنوا بهم، فكانوا عباد الله المخلصين.

{ **لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** } صيغة قصر من أجل كون المسند إليه معرفة بالإضمار والمسند بالإضافة، أي: لكنا نحن عباد الله دون غيرنا. وهو يؤول إلى معنى تفضيل أنفسهم في الإخلاص لله حينئذ، كما صرّح به في قوله تعالى { أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ } [الأنعام:157].

{ **فَكَفَرُوا بِهِ** } الفاء للتعقيب على { لَيَقُولُونَ }، أي: استمر قولهم حتّى كان آخره أن جاءهم الكتاب فكفروا به. أو هي فاء الفصيحة، والتقدير: فكان عندهم ذكر فكفروا به، فالضمير عائد إلى الذكر وهو القرآن، قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ } [فصلت:41]. وهذا معنى قوله تعالى { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً } [فاطر:42]

{ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } وعيد، وهوَّله بما ضمّنه من الإبهام. و(سوف) أخت السين في إفادة مطلق الاستقبال.

{ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ [171] إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ [172] وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ [173] }.

تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم على ما تضمّنه قوله { فَكَفَرُوا بِهِ } [170]، وبيان لبعض الوعيد الذي في قوله { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }، بمنزلة بدل البعض من الكل، ولكنّه غلب عليه جانب التسلية فعطف بالواو عطف القصة على القصة.

{ **كَلِمَتُنَا** } مراد بها الكلام، عُبِّر عن الكلام بكلمة إشارة إلى أنّه منتظم في معنى واحد دال على المقصود دلالة سريعة، فشُبِّه بالكلمة الواحدة في سرعة الدلالة وإيجاز اللفظ، كقوله تعالى { كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا } [المؤمنون:100]، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل ".**

{ **إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ** } بيان للكلمة، أي: الكلام المتضّمن وعدهم بأن ينصرهم الله على الذين كذّبوهم وعادَوهم، وهذه بشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم عقب تسليته، لأنّه داخل في عموم المرسلين.

{ **وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** } عطف بشارة للمؤمنين، فإنّ المؤمنين جند الله، أي: أنصاره، لأنّهم نصروا دينه وتلقوا كلامه، كما سُمُّوا (حزب الله) في قوله تعالى { أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [المجادلة:22].

{ **لَهُمُ الْغَالِبُونَ** } يشمل علوّهم على عدوّهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوّهم عليهم في الآخرة، كما قال تعالى { وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [البقرة:212]، فهو من استعمال الحقيقة والمجاز.

{ **الْمَنْصُورُونَ / الْغَالِبُونَ** } في أكثر الأحوال وباعتبار العاقبة، فلا ينافي أنّهم يُغلبون في بعض المواقع ثم تكون لهم العاقبة، أو المراد النصر والغلبة الموعود بهما قريبا، وهما ما كان يوم بدر.

{ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ [174] وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ [175] }.

هذا مفرَّع على التسلية التي تضمّنها قوله تعالى { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا } [171].

التولِّي :حقيقته المفارقة كما تقدّم في قصة إبراهيم { فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ } [90]، واستعمل هنا مجازا في عدم الاهتمام بما يقولونه وترك النكد من إعراضهم.

الحين: الوقت. وأُجمِل هنا إيماء إلى تقليله، أي: تقريبه، فالتنكير للتحقير المعنوي، وهو التقليل.

{ **أَبْصِرْهُمْ** } أنظر إليهم، أي: من الآن، وعدِّي الفعل إلى ضميرهم الدال على ذواتهم، وليس المراد النظر إلى ذواتهم لكن إلى أحوالهم، أي: تأمّل أحوالهم تر كيف نصرك عليهم، وهذا وعيد بما حلّ بهم يوم بدر.

وصيغة الأمر مستعملة في الإرشاد.
وعُبِّر عن ترتيب نزول الوعيد بهم بفعل الإبصار للدلالة على أنّ ما تُوعِّدوا به واقع لا محالة وأنّه قريب حتّى أنّ الموعود بالنصر يتشوّف إلى حلوله، فكان ذلك كناية عن تحقّقه وقربه لأنّ تحديق البصر لا يكون إلّا إلى شيء أشرف على الحلول.
{ **فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ** } تفريع على { وَأَبْصِرْهُمْ } تفريع لإنذارهم بوعيد قريب على بشارة النبيّ صلى الله عليه وسلم بقربه، فإنّ ذلك المُبْصَر يَسرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ويُحزن أعداءه، ففي الكلام اكتفاء، كأنّه قيل: أبصرهم وما ينزل بهم فسوف تُبصر ما وعدناك وليُبصروا ما ينزل بهم.

{ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ [146] فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ [177] }.

هذا تفريع على التأجيل المذكور في قوله تعالى { حَتَّى حِينٍ } [174]، فإنّه لمّا أنذرهم بعذاب يحلّ بهم توقّع أنّهم سيقولون على سبيل الاستهزاء أرنا العذاب الذي تخوفنا به وعجّله لنا. وبعض المفسرين ذكر أنّهم قالوه. والتفريع استفهام تعجيبي من استعجالهم ما في تأخيره والنظرة به رأفة بهم واستبقاء لهم حينا.
{ **فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ** } الفاء الفصيحة، أي: كانوا يستعجلون بالعذاب فإذا نزل بهم فبئس وقت نزوله.
وإسناد النزول إلى العذاب وجعله في ساحتهم استعارة تمثيلية مكنية، شُبِّهت هيئة حصول العذاب لهم، بعد ما أنذِروا به فلم يعبأوا، بهيئة نزول جيش عدو في ساحتهم بعد أن أنذرهم به النذير العريان فلم يأخذوا أهبتهم.
{ **فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ** } ذُكر الصباح لأنّه من علائق الهيئة المشبّهة بها، فالغارة تكون في الصباح.
{ **الْمُنْذَرِينَ** } وصفهم بذلك ترشيح للتمثيل وتورية في اللفظ، لأنّ المشبَّهين منذرون من الله بالعذاب. والذين يسوء صباحهم عند الغارة هم المهزومون فكأنّه قيل: فإذا نزل بساحتهم كانوا مغلوبين.

{ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ [178] وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ [179] }.

عطف على جملة { فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ } [177]، لأنّ معنى المعطوف عليها الوعد بأنّ الله سينتقم منهم، فعطف عليه أمره رسوله صلى الله عليه وسلم بألَّا يهتم بعنادهم. وهذه نظير التي سبقتها المفرّعة بـ (الفاء) فلذلك يحصل منها تأكيدا نظيرتها. ويحتمل أن يكون إلى حين من أحيان الآخرة.

{ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ [180] وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ [181] وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [152] }.

خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم تذييلا لخطابه المبتدأ بقوله تعالى { فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ } [149]. فإنّه خلاصة جامعة لما حوته من تنزيه الله وتأييده رسله.

وهذه الآية فذلكة لما احتوت عليه السورة من الأغراض، جمعت تنزيه الله والثناء على الرسل والملائكة، وحمد الله على ما سبق ذكره من نعمة على المسلمين؛ من هدى ونصر وفوز بالنعيم المقيم.

وهذه المقاصد الثلاثة هي أصول كمال النفوس في العاجل والآجل، لأنّ معرفة الله تعالى بما يليق به تنقذ النفس من الوقوع في مهاوي الجهالة المفضية إلى الضلالة فسوء الحالة. وإنّما يتم ذلك بتنزيهه عما لا يليق.

{ سُبْحَانَ رَبِّكَ } إشارة إلى تنزيهه.

{ رَبِّ الْعِزَّةِ } أشار إلى التوصيف بصفات الكمال، فإن العزّة تجمع الصفات النفسية وصفات المعاني والمعنوية، لأنّ الربوبية هي كمال الاستغناء عن الغير.

ولما كانت النفوس وإن تفاوتت في مراتب الكمال لا تسلم من نقص أو حيرة كانت في حاجة إلى مرشدين يبلّغونها مراتب الكمال بإرشاد الله تعالى وذلك بواسطة الرسل إلى الناس، وبواسطة المبلِّغين من الملائكة إلى الرسل، وكانت غاية ذلك هي بلوغ الكمال في الدنيا والفوز بالنعيم الدائم في الآخرة.

وتلك نعمة تستوجب على الناس حمد الله تعالى على ذلك لأنّ الحمد يقتضي اتصاف المحمود بالفضائل وإنعامه بالفواضل وأعظمها نعمة الهداية بواسطة الرسل، فهم المبلِّغون إرشاد الله إلى الخلق.

{ رَبِّ } هنا بمعنى: مالك. ومعنى كونه تعالى مالك العزة: أنّه منفرد بالعزة الحقيقية وهي العزة التي لا يشوبها افتقار.

{ الْعِزَّةِ - الْحَمْدُ } تعريف الجنس، فيقتضي انفراده تعالى به لأنّ ما يثبت لغيره من ذلك الجنس كالعدم.

{ سَلامٌ } التنكير للتعظيم.

{ الْمُرْسَلِينَ } وصف يشمل الأنبياء والملائكة، فإنّ الملائكة مرسلون فيما يقومون به من تنفيذ أمر الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ص

سُمِّيت في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنّة والآثار عن السلف (سورة صاد) كما ينطق باسم حرف الصاد، تسمية لها بأوّل كلمة منها.

وفي (الإتقان) عن كتاب (جمال القرّاء) للسخاوي: " أنّ سورة ص تُسمَّى أيضا سورة داود ".

وكُتب اسمها في المصاحف بصورة حرف صاد (**ص**) مثل سائر الحروف المقطعة في أوائل السور اتباعا لما كتب في الصحف.

وهي **مكّية** في قول الجميع، وذكر في (الإتقان) أنّ الجعبري حكى قولا بأنّها مدنية.

وهي السورة **الثامنة والثلاثون** في عداد نزول السورة، نزلت بعد سورة القمر وقبل سورة الأعراف.

وعُدّت آيها ستا وثمانين عند أهل الحجاز والشام والبصرة وعدّها أيوب بن المتوكل البصري خمسا وثمانين. وعدت عند أهل الكوفة ثمانا وثمانين.

روى الترمذي عن ابن عباس قال: " مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاءه النبيّ صلى الله عليه وسلم وعند أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل يمنع النبيّ صلى الله عليه وسلم من أن يجلس وشكوه إلى أبي طالب، فقال: " يا بن أخي ما تريد من قومك؟ قال: " **إنّي أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم العجم الجزية** ". قال: " كلمة واحدة ". قال: " **يا عم يقولوا لا إله إلا الله** "، فقالوا: " أإلها واحدا ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إن هذا إلّا اختلاق، قال: فنزل فيهم القرآن {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ - إلى قوله - مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ } [1-7] ". قال:" حديث حسن".

فهذا نص في أنّ نزولها في آخر حياة أبي طالب، وهذا المرض مرض موته، كما في أبن عطية، فتكون هذه السورة قد نزلت في سنة ثلاث قبل الهجرة.

أغراض السورة

*/ أصلها ما علمت من حديث الترمذي في سبب نزولها.

*/ توبيخ المشركين على تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وتكبّرهم عن قبول ما أرسل به.

*/ تهديدهم بمثل ما حلّ بالأمم المكذِّبة قبلهم، وأنّهم إنّما كذَّبوه لأنّه جاء بتوحيد الله تعالى ولأنّه اختص بالرسالة من دونهم.

*/ تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وأنّ يقتدي بالرسل من قبله، داود وأيوب وغيرهم، وما جُوزوا عن صبرهم.

*/ استطراد الثناء على داود وسليمان وأيوب، وأتبع ذكر أنبياء آخرين لمناسبة سنذكرها.

*/ إثبات البعث لحكمة جزاء العاملين بأعمالهم من خير وشر. ووصف أحوالهم يوم القيامة.

*/ ذكر أوّل غواية حصلت وأصل كلّ ضلالة وهي غواية الشيطان في قصّة السجود لآدم.

وقد جاءت فاتحتها مناسبة لجميع أغراضها إذ ابتدئت بالقسم بالقرآن الذي كذَّب به المشركون، وجاء المقسم عليه أن الذين كفروا في عزّة وشقاق، وكلّ ما ذكر فيها من أحوال المكذبين سببه اعتزازهم وشقاقهم، ومن أحوال المؤمنين سببه ضدّ ذلك، مع ما في الافتتاح بالقسم من التشويق إلى ما بعده، فكانت فاتحتها مستكملة خصائص حسن الابتداء.

{ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ } [1]

{ ص } القول في هذا الحرف كالقول في نظائره من الحروف المقطّعة الواقعة في أوائل بعض السور، بدون فرق، إنّها مقصودة للتهجّي تحدّيا لبلغاء العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وتورُّكا عليهم إذ عجزوا عنه.

واتفق أهل العد على أن { ص } ليس بآية مستقلة بل هي في مبدأ آية، لأنّها حرف واحد، كما لم يعد **{ ق }** [ق] و**{ ن }** [القلم] آية.

{ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ } الواو للقسم، أقسم بالقرآن قسم تنويه به. ووصف بـ { ذِي الذِّكْرِ } لأنّ { ذي } تضاف إلى الأشياء الرفيعة فتجري على متّصف مقصود التنويه به.

{ الذكر } التذكير، أي: تذكير الناس بما هم عنه غافلون. ويجوز أن يراد بالذكر ذكر اللسان، وهو على معنى: الذي يُذكر، بالبناء للنائب، أي: والقرآن المذكور، أي: الممدوح المستحق الثناء.

وقد تردّد المفسرون في تعيين جواب القسم على أقوال سبعة أو ثمانية.

والذي أرى أنّ الجواب محذوف أيضا دلّ عليه الإضراب الذي في قوله تعالى { بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ } [2]، بعد أن وُصِف القرآن بـ { ذِي الذِّكْرِ }، لأنّ ذلك الوصف يشعر بأنّه ذِكر ومُوقظ للعقول، فكأنه قيل: إنّه لذكر ولكنّ الذين كفروا في عزّة وشقاق يجحدون أنّه ذكر ويقولون: سحر مفترى، وهم يعلمون أنّه حق، كقوله تعالى { فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام:33].

فجواب القسم محذوف يدل عليه السياق. والغرض من حذف جواب القسم هنا الإعراض عنه إلى ما هو أجدر بالذكر وهو صفة الذين كفروا وكذبوا القرآن عنادا أو شقاقا منهم.

{ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ } [2]

{ بَلِ } للإضراب الإبطالي، وهو ليس إبطالا محضا للكلام السابق بحيث يكون حرف { بَلِ } فيه بمنزلة حرف النفي كما هو غلاب الإضراب الإبطالي، ولا هو إضراب انتقالي، ولكن هذا إبطال لتوهّم ينشأ عن الكلام الذي قبله إذ دل وصف القرآن بـ { ذِي الذِّكْرِ } [1] أنّ القرآن مُذَكِّر سامعيه تذكيرا ناجعا، فعقّب بإزالة توهم من يتوهم أنّ عدم تذكر الكفار ليس لضعف في تذكير القرآن ولكن لأنّهم متعزّزون مشاقّون.

فحرف { بَلِ } في مثل هذا بمنزلة حرف الاستدراك، والمقصود منه تحقيق أنّه ذو ذكر، وإزالة الشبهة التي قد تعرض في ذلك. ومثله قوله تعالى { ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ } [قّ:2/1].

ولك أن تجعل { بَلِ } إضراب انتقال من الشروع في التنويه بالقرآن إلى بيان سبب إعراض المعرضين عنه، لأنّ في بيان ذلك السبب تحقيقا للتنويه بالقرآن. ومعنى ذلك أنّ الكلام أخذ في الثناء على القرآن ثم انقطع عن

ذلك إلى ما هو أهم وهو بيان سبب إعراض المعرضين عنه لاعتزازهم بأنفسهم وشقاقهم، فوقع العدول عن جواب القسم استغناء بما يفيد مفاد ذلك الجواب.

العزّة: تحوم إطلاقاتها في الكلام حول معاني المنعة والغلبة والتكبّر، فإن كان ذلك جاريا على أسباب واقعة فهي العزة الحقيقية، وإن كان عن غرور وإعجاب بالنفس فهي عزة مزوّرة، قال تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ } [البقرة:206]، أي: أخذته الكبرياء وشدّة العصيان.

وهي هنا عزة باطلة أيضا لأنّها إباء من الحق وإعجاب بالنفس. وضدّ العزة الذلة قال تعالى { أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ } [المائدة:54].

الشقاق: العناد والخصام. والمراد: وشقاق لله بالشرك ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب.

والمعنى: أنّ الحائل بينهم وبين التذكير بالقرآن هو ما في قرارة نفوسهم من العزة والشقاق.

{ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ } [3].

استئناف بياني، لأنّ العزّة عن الحقّ والشقاق لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ممّا يثير في خاطر السامع أن يسأل عن جزاء ذلك فوقع هذا بيانا له، وهذه الجملة معترضة بين السابقة واللاحقة.

وكان هذا البيان إخبارا مرفقا بحجّة من قبيل قياس تمثيل، ومتضمّنا تحذيرا من التريث عن إجابة دعوة الحق، أي: ينزل بهم العذاب فلا ينفعهم ندم ولا متاب كما لم ينفع القرون من قبلهم.

{ مِنْ قَبْلِهِمْ } يجوز أن يكون ظرفا مستقرا جعل صفة لـ { قَرْنٍ } مقدّمة عليه فوقعت حالا، وإنّما قدّم للاهتمام بمضمونه ليفيد الاهتمام، إيماء إلى أنّهم أسوة لهم في العزة والشقاق وأنّ ذلك سبب إهلاكهم.

ويجوز أن يكون متعلّقا بـ { أَهْلَكْنَا } على أنّه ظرف لغو، وقدّم على مفعول فعله اهتماما به.

{ كَمْ } اسم دال على عدد كثير.

{ مِنْ قَرْنٍ } تمييز لإبهام العدد، أي: عددا كثيرا من القرون، وهي في موضع نصب بالمفعولية لـ { أَهْلَكْنَا }.

القرن: الأمّة، كما في قوله تعالى { ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِين } [المؤمنون:42].

فالتقدير: سيجازون على عزّتهم وشقاقهم بالهلاك كما جوزيت أمم كثيرة من قبلهم في ذلك، فليحذروا، فإنّهم إن حقّت عليهم كلمة العذاب لم ينفعهم متاب كما لم ينفع الذين من قبلهم متاب عند رؤية العذاب.

{ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ } فُرّع على الإهلاك أنّهم نادوا فلم ينفعهم نداؤهم، تحذيرا من أن يقع هؤلاء في مثل ما وقعت فيه القرون من قبلهم إذ أضاعوا الفرصة فنادوا بعد فواتها فلم يفدهم نداؤهم ولا دعاؤهم.

{ فَنَادَوْا } نداؤهم الله تعالى تضرّعا، وهو الدعاء، كما حكي عنهم في قوله تعالى { رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ } [الدخان:12]، وقوله { حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ } [المؤمنون:64].

{ **وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ** } في موضع الحال، أي: نادوا في حال لا مناص لهم فيه.

{ **لاتَ** } حرف مختص بنفيّ أسماء الأزمان وما يتضمّن معنى الزمان من إشارة ونحوها. وهي مركّبة من (لا) النافية وصلت بها تاء زائدة لا تفيد تأنيثا. والنفي بها لغير الزمان ونحوه خطأ في اللغة.

المناص: النجاء والفوت، وهو مصدر ميمي، يقال: ناصه، إذا فاته.

والمعنى: فنادوا مبتهلين في حال ليس وقت نجاء وفوت، أي: قد حق عليهم الهلاك، كما قال تعالى { فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ } [غافر:85].

{ **وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** [4] **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** [5] }.

{ **وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ** } عطف على جملة { بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ } [2]، فهو من الكلام الواقع الإضراب للانتقال إليه.

والمعنى: أنّه استقر في نفوسهم استحالة بعثة رسول منهم فذلك سبب آخر لانصرافهم عن التذكّر بالقرآن.

العجب: حقيقته انفعال في النفس ينشأ عن علم بأمر غير مترقّب وقوعه، ويطلق عن إنكار شيء نادر على سبيل المجاز بعلاقة اللزوم، كما في قوله تعالى { قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [هود:73]، فإنّ محل العتاب هو كون امرأة إبراهيم أحالت أن تلد وهي عجوز.

المنذر: الرسول، أي: منذر لهم بعذاب على أفعال متلبّسون بها.

{ **مُنْذِرٌ مِنْهُمْ** } عُبِّر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف المنذر، ووُصف بأنه منهم للإشارة إلى حمقهم في عجبهم، لأنّ شأن النذير أن يكون من القوم ممّن ينصح لهم، فكونه منهم أولى من أن يكون من غيرهم.

وإن كان مرادا به أنّه بعض البشر، وهو الظاهر، فتجهيلهم بيّن، لأنّ من كان من جنسهم أجدر بأن ينصح لهم من رسول من جنس آخر كالملائكة.

وهذا العجب تكرّر تصريحهم به غير مرة، فهو مستقر في قرارة نفوسهم، وهو الأصل الداعي لهم إلى الإعراض عن تصديقه، فلذلك ابتدئت به حكاية أقوالهم التي قالوها في مجلس أبي طالب.

{ **وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** } بعد أن كُشف ما انطوت عليه نفوسهم من العزّة والشقاق وإحالة بعثة رسول للبشر من جنسهم، حُوسبوا بما صرَّحوا به من القول في مجلسهم ذلك، إشارة بهذا الترتيب إلى أنّ مقالتهم هذه نتيجة لعقيدتهم تلك.

{ **الْكَافِرُونَ** } وضعُ الظاهر موقع المضمر، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: وقالوا هذا ساحر، وهذا لقصد

وصفهم بأنّهم كافرون بربّهم، مقابلة لما وصموا به النبيّ صلى الله عليه وسلم، فوصِفوا بما هو شتم لهم، يجمع ضروبا من الشتم تأصيلا وتفريعا وهو الكفر الذي هو جماع فساد التفكير وفاسد الأعمال.

{ **هذا** } أشاروا به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، استعملوا اسم الإشارة للتحقير. وإنّما قالوا مقالتهم هذه حين انصرافهم من مجلس أبي طالب المذكور في سبب نزول السورة.

{ **سَاحِرٌ كَذَّابٌ** } لأنّهم لمّا لم تقبل عقولهم ما كلّمهم به، زعموا ما لا يفهمون منه، مثل كون الإله واحدا أو كونه يعيد الموتى أحياء، سحرا، إذ كانوا يألفون من السحر أقوالا غير مفهومة.

وزعموا ما يفهمونه ويحيلونه، مثل ادعاء الرسالة عن الله، كذبا.

{ **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً** } بيان لجملة { هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ }، أي: حيث عدّوه مباهتا لهم بقلب الحقائق والإخبار بخلاف الواقع. والهمزة للاستفهام الإنكاري التعجّبي ولذلك أتبعوه بما هو كالعلة لقولهم {سَاحِرٌ}:

{ **إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** } أي يُتعجَّب منه كما يُتعجَّب من شعوذة الساحر.

{ **عُجَابٌ** } وصف الشيء الذي يُتعجَّب منه كثيرا، لأنّ وزن فُعال (بضم أوله) يدل على تمكّن الوصف.

وقد ابتدأوا الإنكار بأوّل أصل من أصول كفرهم، فإن أصول كفرهم ثلاثة: الإشراك، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنكار البعث والجزاء في الآخرة.

{ وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ [6] مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ [7] }.

الانطلاق: حقيقته الانصراف والمشي، ويُستعمل استعمال أفعال الشروع، لأنّ الشارع ينطلق إليه، ونظيره في ذلك (ذهب) بفعل كذا. وكذلك (قام)، كما في قوله تعالى { إِذْ قَامُوا فَقَالُوا } [الكهف:14].

وقيل: إنّ الانطلاق هنا على حقيقته، أي: وانصرف الملأ منهم عن مجلس أبي طالب.

{ **الْمَلأُ** } سادة القوم. قال ابن عطية: " قائل ذلك عقبة بن أبي معيط ". وقال غيره: " إنّ من القائلين أبا جهل"، والعاصي بن وائل، والأسود بن عبد يغوث.

{ **أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ** } لمّا أسند الانطلاق إلى الملأ منهم، ما كانوا لينطلقوا إلا لتدبير في ماذا يصنعون، فكان ذلك مقتضيا تحاورا وتقاولا احتيج إلى تفسير فكانت هذه الجملة.

{ **امْشُوا** } يحتمل أن يكون الأمر حقيقة، أي: انصرفوا عن هذا المكان، مكان المجادلة، واشتغلوا بالثبات على آلهتكم. ويجوز أن يكون مجازا في الاستمرار على دينهم كما يقال: كما سار الكرام، أي: اعمل كما عملوا، ومنه سُمِّيت الأخلاق والأعمال المعتادة سيرة.

الصبر: الثبات والملازمة، يقال: صبر الدابة إذا ربطها، ومنه سُمِّي الثبات عند حلول الضرّ صبرا لأنّه ملازمة للحلم والأناة بحيث لا يضطرب بالجزع، ونظير هذه الآية قوله تعالى { إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا } [الفرقان:42].

{ **عَلَى** } يدل على تضمين { اصبروا } معنى: اعكفوا وأثبتوا، فحرف {على} هنا للاستعلاء المجازي وهو التمكّن، مثل { أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ } [البقرة:5]. ولذلكم يخلفه (اللام) في مثل ذلك الموقع نحو قوله تعالى { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ } [القلم:48]. ولا بد هنا من تقدير مضاف، أي: على عبادة آلهتكم.

وليس هو حرف (على) المتعارف تعدية فعل الصبر به، في نحو قوله تعالى { اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } [المزمل:10]، فإنّ ذلك بمعنى (مع).

{ **إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ** } تعليل للأمر بالصبر على آلهتهم لقصد تقوية شكّهم في صحة دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّها شيء أراده لغرض، كما يقال: هذا أمر دبّر بليل.

{ **هَذَا** } إشارة إلى ما كانوا يسمعونه في المجلس من دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم إيّاهم أن يقولوا: لا إله إلا الله.

{ **مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ** } من كلام الملأ.

{ **مَا سَمِعْنَا** } نفي السماع هنا خبر مستعمل كناية عن الاستبعاد والاتهام بالكذب.

{ **بِهَذَا** } الإشارة إلى ما أشير إليه بقولهم { إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ } أي: هذا القول وهو { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً } [5]. وإعادة اسم الإشارة من وضع الظاهر موضع المضمر لقصد زيادة تمييزه.

{ **الْمِلَّةِ** } الدين، قال تعالى { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ } [البقرة:120].

{ **الْآخِرَةِ** } تأنيث الآخر، وهو الذي يكون بعد مضي مدة تقررت فيها أمثاله، كقوله تعالى { ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ } [العنكبوت:20]. والمعنى: ما سمعنا بهذا قبل اليوم فلا نعتدُّ به.

<u>ويجوز</u> على هذا التقدير أن يكون المراد بـ { الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ } دين النصارى، وهو عن ابن عباس وأصحابه.

<u>ويجوز</u> أن يريدوا { الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ } الملّة التي هم عليها، ويكون إشارة إلى قول ملأ قريش لأبي طالب في حين احتضاره حين قال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله** "، فقالوا له جميعا: " أترغب عن ملة عبد المطلب ".

{ **إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ** } مبيّنة لجملة { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا } وهذا هو المتحصل من كلامهم المبدوء بـ { امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ } فهذه الجملة كالفذلكة لكلامهم.

الاختلاق: الكذب المخترع الذي لا شبهة لقائله.

{ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ } [8]

{ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا } يجوز أن يكون من كلام عموم الكافرين، بيانا لجملة { وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ } [4]، فيكون متصلا بقوله { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً } [5]، ولكونه بيانا للذي قبله لم يعطف عليه، ويكون ما بينهما من قوله { وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ - إلى قوله - إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاقٌ } [7/6] اعتراضا بين جملتي البيان. ويجوز أن يكون تمام كلام الملأ.

والاستفهام إنكاري، ومناط الإنكار هو الظرف { مِنْ بَيْنِنَا } وهو في موضع حال من ضمير { عَلَيْهِ }، أنكروا أن يُخصَّ محمد صلى الله عليه وسلم بالإرسال وإنزال القرآن دون غيره منهم، وهذا هو المحكي في قوله تعالى { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31]، أي: من مكة أو الطائف، ولم يريدوا بهذا الإنكار تجويز أصل الرسالة عن الله وإنّما مرادهم استقصاء الاستبعاد، فإنّهم أنكروا أصل الرسالة كما اقتضاه قوله تعالى { وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ } [4] وغيره من الآيات.

وهذا الأصل الثاني من أصول كفرهم وهو أصل إنكار بعثة رسول منهم.

{ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي } يجوز أن يكون هذا جوابا عن قولهم { أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا }، أي: ليس قصدهم الطعن في اختصاصك بالرسالة ولكنّهم شاكون في أصل إنزاله، فتكون { بل } إضرابا إبطاليا، تكذيبا لما يظهر من إنكارهم إنزال الذكر عليه من بينهم.

ويجوز أن يكون انتقالا من خبر عنهم إلى خبر آخر فيكون استئنافا وتكون { بل } للإضراب الانتقالي، والمعنى: وهم في شك من ذكري، أي: في شك من كنه القرآن، فمرة يقولون: افتراه، ومرة يقولون: شعر، ومرة: سحر، ومرة: أساطير الأولين، ومرة: قول كاهن.

{ مِنْ ذِكْرِي } إضافة الذكر إلى ضمير المتكلم، وهو الله تعالى، إضافة تشريف ولتحقيق كونه من عند الله. والذكر على هذا الوجه هو عين المراد من قوله تعالى { أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ }، وإنّما وقع التعبير عنه بالظاهر دون الضمير توصّلا إلى التنويه به بأنّه من عند الله.

{ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ } أُتبِع ذلك الإضراب بإضراب آخر يبيّن أن الذي جرَّأهم على هذا الشقاق أنّهم لمّا تأخّر حلول العذاب بهم ظنّوا وعيده كاذبا فأخذوا في البذاءة والاستهزاء ولو ذاقوا العذاب لألقمت أفواههم بالحجر.

{ لَمَّا } حرف نفي بمعنى (لم) إلّا أنّ فيها خصوصية، وهي أنّها تدلّ على أنّ المنفي بها متصل الانتفاء إلى وقت التكلم بخلاف (لم)، فلذلك كان النفي بـ { لَمَّا } قد يفهم منه ترقّب حصول المنفي بعد ذلك.

{ عَذَابِ } إضافة إلى ياء المتكلم لاختصاصه بالله لأنّه مقدّره. وحذفت ياء المتكلّم تخفيفا للفاصلة، وأبقيت الكسرة دليلا عليها، وهو حذف كثير في الفواصل والشعر على نحو حذفها من المنادى.

{ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ } [9]

{ أَمْ } منقطعة وهي للإضراب أيضا وهو إضراب انتقالي، فإنّ { أَمْ } مشعرة باستفهام بعدها هو للإنكار والتوبيخ، إنكارا لقولهم { أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا } [8]، أي: ليست خزائن فضل الله تعالى عندهم فيتصدُّوا لحرمان من يشاؤون حرمانه من مواهب الخير فإن المواهب من الله يصيب بها من يشاء، فهو يختار للنبوّة من يصطفيه وليس الاختيار لهم.

{ عِنْدَهُمْ } تقديم الظرف للاهتمام لأنّه مناط الإنكار وهو كقوله { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ } [الزخرف:32]

الخزائن: جمع خِزانة (بكسر الخاء). وهي البيت الذي يُخزن فيه المال أو الطعام، ويطلق أيضا على صندوق من خشب أو حديد يخزن فيه المال. و**الخزن**: الحِفْظ والحِرْز.

الرحمة: ما به رفق بالغير وإحسان إليه. شُبِّهت رحمة الله بالشيء النفيس المخزون الذي تطمح إله النفوس في أنّه لا يُعطى إلّا بمشيئة خازنه، تشبيه على طريقة الاستعارة المكنية.

{ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ } الإضافة على معنى لام الاختصاص. والعدول عن اسم الجلالة إلى وصف الربّ، لأنّ له مزيد مناسبة للغرض الذي الكلام فيه، إيماء إلى أنّ تشريفه إيّاه بالنبوّة من آثار صفة ربوبيّته له، لأنّ وصف الربّ مؤذن بالعناية والإبلاغ إلى الكمال.

{ الْعَزِيزِ } الذي لا يغلبه شيء، وأجري على الربّ صفة { الْعَزِيزِ } لإبطال تدخلهم في تصرفاته.

{ الْوَهَّابِ } كثير المواهب، فإنّ النبوّة رحمة عظيمة فلا يُخوَّل إعطاؤها إلّا لشديد العزّة وافر الموهبة. وأجري على الرب صفة { الْوَهَّابِ } لإبطال جعلهم الحرمان من الخير تابعا لرغباتهم دون موادة الله تعالى.

{ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ } [10]

إضراب انتقالي إلى ردٍ يأتي على جميع مزاعمهم بكلمة جامعة كالحوصلة فيشبه التذييل لما يتضمّنه من عموم الملك وعموم الأماكن المقتضي عموم العلم وعموم التصرّف.

والاستفهام، المقدّر بعد { أَمْ } المنقطعة، تهكّمي وليس إنكاري، لأنّ تفريع أمر التعجيز عليه يعيّن أنّه تهكمي.

{ فَلْيَرْتَقُوا } الأمر للتعجيز مثل قوله تعالى { فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ } [الحج:15].

{ الْأَسْبَابِ } التعريف لعهد الجنس، لأنّ المعروف أنّ لكل محل مرتفع أسبابا يُصعد بها إليه.

السبب: الحبل الذي يتعلّق به الصاعد إلى النخلة للجذاذ، فإن جُعل من حبلين ووُصِل بين الحبلين بحبال معترضة مشدودة أو بأعواد فهو السلم.

{ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ } [11]

يجوز أن يكون استئنافا يتصل بقوله { كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ } [3]، أريد به وصل الكلام السابق، فإنّه تقدّم قوله { بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ } [2]. فلمّا تقضَّى الكلام على تفصيل ما للذين كفروا من عزة وشقاق وما لذلك من الآثار ثُنِي العنان إلى تفصيل ما أهلك من القرون أمثالهم من قبلهم في الكفر ليفضي به إلى قوله تعالى { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ } [12].

ويجوز أن يكون استئنافا ابتدائيا مستقلًّا خارجا مخرج البشارة للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّ هؤلاء جند من الأحزاب مهزوم، أي: مقدّر انهزامه في القريب، وهذه البشارة من الإخبار بالغيب خُتم بها وصف أحوالهم.

قال قتادة: " وعد الله أنّه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلها يوم بدر". وقال الفخر: " إشارة إلى فتح مكة ".

وقال بعض المفسّرين: " إشارة إلى نصر يوم الخندق ".

الجند: الجماعة الكثيرة، قال تعالى { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ } [البروج:18/17].

{ **مَا** } حرف زائد يؤكِّد معنى ما قبله، فهي توكيد لما دلّ عليه { جُنْدٌ } بمعناه وتنكيره للتعظيم، أي: جند عظيم، لأنّ التنوين وإن دلّ على التعظيم فليس نصًّا فصار بالتوكيد نصا.

{ **مَهْزُومٌ** } وصف على معنى الاستقبال، أي: سيهزم، واسم المفعول كاسم الفاعل مجاز في الاستقبال.

{ **الْأَحْزَابِ** } الذين على رأي واحد يتحزَّب بعضهم لبعض، وتقدّم في [الأحزاب:20]. و{ **مِن** } للتبعيض.

{ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ [12] وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ [13] إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ [14] }.

لمّا كان قوله { جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ } [11] تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ووعدا له بالنصر وتعريضا بوعيد مكذِّبيه، جيء بما هو كالبيان لهذا التعريض.

{ **وَفِرْعَوْنُ** } خُصّ فرعون بإسناد التكذيب إليه دون قومه لأنّ الله أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون ليطلق بني إسرائيل فكذَّب موسى، ثم كان عقب ذلك مضمرا أذى موسى ومعلنا بتكذيبه.

{ **ذُو الْأَوْتَادِ** } ووصف فرعون بذلك لعظمة ملكه وقوته، فلم يكن ذلك ليحول بينه وبين عذاب الله.

{ **الْأَوْتَادِ** } جمع وتِد (بكسر التاء) عود غليظ له رأس مفلطح يدق في الأرض تُشد به شقة البيت والخيمة.

وتقديم ذكر فرعون على ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة مع أنّ قصّته حدثت بعد قصصهم لأنّ حاله مع موسى أشبه بحال زعماء أهل الشرك بمكة من أحوال الأمم الأخرى، فإنّه قاوم موسى بجيش كما قاوم المشركون المسلمين بجيوش.

{ **وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ** } تقدّم الكلام عليهم غير مرة.

{ **وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ** } تقدم خبرهم وتحقيق أنّهم من قوم شعيب وأنّهم مختلطون مع مدين، [الشعراء:176].

{ **أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ** } معترضة بين جملة { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ } وجملة { إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ }. واسم الإشارة مستعمل في التعظيم، أي: تعظيم القوة. وتعريف { الْأَحْزَابُ } استغراق ادعائي وهو المسمّى بالدلالة على معنى الكمال، مثل: هم القوم وأنت الرجل. والحصر المستفاد من تعريف المسند والمسند إليه حصر ادعائي، قصرت صفة الأحزاب على المشار إليهم بـ { أُولَئِكَ } وأنّ غيرهم لمّا يبلغون مبلغ أن يعدّوا من الأحزاب. فظاهر القصر ولام الكمال لتأكيد معنى الكمال. أي: أولئك المذكورون هم الأمم لا تضاهيهم أمم في القوة. وهذا تعريض بتخويف مشركي العرب من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك على حد قوله تعالى { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [غافر:22/21].

{ **إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ** } مؤكّد لجملة {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ - إلى قوله - وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ}، أخبر أولا عنهم بأنّهم كذّبوا وأكّد ذلك بالإخبار عنهم بأنّهم ليسوا إلّا مكذبين على وجه الحصر كأنّهم لا صفة لهم إلّا التكذيب.

{ **كَذَّبَ الرُّسُلَ** } مع أنّ كلّ أمّة إنّما كذّبت رسولها، المقصود تفظيع التكذيب، لأنّ الأمة إنما كذبت رسولها مستندة لحجة سفسطائية هي استحالة أن يكون واحد من البشر رسولا من الله، فهذه السفسطة تقتضي أنّهم يكذّبون جميع الرسل.

{ **فَحَقَّ عِقَابِ** } أي: عقابي، فحذفت ياء المتكلم للرعاية على الفاصلة وأبقيت الكسرة في حالة الوصل.

حقّ: تحقّق، أي: كان حقا، لأنّه اقتضاه عظيم جرمهم.

العقاب: هو ما حلّ بكل أمّة منهم من العذاب وهو الغرق والتمزيق بالريح، والغرق أيضا، والصيحة، والخسف، وعذاب يوم الظلة.

وفي هذا تعريض بالتهديد لمشركي قريش بعذاب مثل عذاب أولئك لاتّحادهم في موجِبِه.

{ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ } [15]

لمّا أشعر قوله تعالى { فَحَقَّ عِقَابِ } [14] بتهديد مشركي قريش بعذاب ينتظرهم، جريا على سنّة الله في جزاء المكذّبين رسله، عطف على جملة الإخبار عن حلول العذاب بالأحزاب السابقين جملة توعّد بعذاب الذين ماثلوهم في التكذيب.

{ **هَؤُلَاءِ** } إشارة إلى كفار قريش، لأنّ تجدّد دعوتهم ووعيدهم وتكذيبهم يوما فيوما جعلهم كالحاضرين.

وقد تتبّعتُ اصطلاح القرآن فوجدته إذا استعمل { **هَؤُلاءِ** } ولم يكن معه مشار إليه مذكور، أنّه يريد به المشركين من أهل مكة، كما نبهت عليه فيما مضى غير مرّة.

{ **يَنْظُرُ** } مشتق من النظر بمعنى الانتظار، قال تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ } [الأنعام:158]، أي: ما ينتظر المشركون إلّا صيحة واحدة، وهذا كقوله تعالى { فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ } [يونس:102].

والمتبادر من الآية أنّها تهديد بصيحة صاعقة ونحوها كصيحة ثمود، أو صيحة النفخ في الصور التي يقع عندها البعث للجزاء.

{ **وَاحِدَةً** } إشارة إلى أنّ الصاعقة عظيمة مهلكة، أو أن النفخة واحدة وهي نفخة الصعق.

الفواق: (بفتح الفاء وضمها) اسم لما بين حلبتي حالب الناقة ورضعتي فصيلها. فهم قبل ابتداء الحلب يتركون الفصيل يرضعها لتدرّ باللبن، ثمّ إنّ الحالب يحلب الناقة ثم يتركها ساعة ليرضعها فصيلها ثانية ليدر اللبن في الضرع ثم يعودون فيحلبونها، فالمدة التي بين الحلبتين تسمّى فَواقا.

{ **مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ** } أي: ليس بعدها إمهال بقدر الفواق، وهذا كقوله تعالى { مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً } [يّس:50/49].

{ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ } [16]

لمّا هدّدهم القرآن بعذاب الله قالوا: ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب في الدنيا قبل يوم الحساب، إظهارا لعدم اكتراثهم بالوعيد وتكذيبه، لئلّا يظن المسلمون أنّ استخفافهم بالوعيد لأنّهم لا يؤمنون بالبعث فأبانوا لهم أنّهم لا يصدّقون النبيّ صلى الله عليه وسلم في كّل وعيد حتّى الوعيد بعذاب الدنيا.

فالقول هذا قالوه على وجه الاستهزاء، وحكي عنهم هنا إظهارا لرقاعتهم وتصلّبهم في الكفر.

وهذا الأصل الثالث من أصول كفرهم المتقدم ذكرها، وهو إنكار البعث والجزاء.

قيل: قائل ذلك النضر ابن الحارث، وقيل: أبو جهل والقوم حاضرون راضون فأسند القول إلى الجميع.

القط: هو القسط من الشيء، ويطلق على قطعة من الورق أو الرق أو الثوب التي يكتب فيها العطاء لأحد ولذلك يفسر بالصك. فالقط يطلق على ما يكتب فيه عطاء أو عقاب، والأكثر أنّه ورقة العطاء.

{ **يَوْمِ الْحِسَابِ** } من التهكّم لأنّهم لا يؤمنون بالحساب.

{ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ [17] إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ [18] وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ [19] وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ [20] }.

أُعقِبت حكاية أقوالهم من التكذيب، بأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على قولهم، إذ كان جميعها أذى، إمّا صريحا، كما قالوا {سَاحِرٌ كَذَّاب }، وإمّا ضمنا وذلك ما في سائر أقوالهم من إنكار ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والاستهزاء بقولهم { رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا } [16].

{ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ** } إلى آخره، يجوز أن يكون عطفا على قوله { اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } بأن أتبع أمره بالصبر وبالائتساء ببعض الأنبياء السابقين فيما لقوه من الناس ثم كانت لهم عاقبة النصر وكشف الكرب.

ويجوز أن يكون عطفا على مجموع ما تقدّم، عطف القصة والغرض نفسه.

وابتُدئ بذكر داود لأنّ الله أعطاه ملكا وسلطانا لم يكن لآبائه، ففي ذكره إيماء إلى أنّ شأن محمد صلى الله عليه وسلم سيصير إلى العزة والسلطان، فقد أشبه حال النبيّ صلى الله عليه وسلم حال داود عليه السلام.

{ **وَاذْكُرْ** } فالمصدر هو الذُكر (بضم الذال) وهو التذكُّر، وليس هو ذِكر اللسان، لأنّه إنّما أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك لتسليته وحفظ كماله لا ليُعْلِمه المشركين ولا لِيُعْلِمه المسلمين، على أنّ كلا الأمرين حاصل.

{ **عَبْدَنَا** } وصف تشريف بالإضافة، بقرينة المقام، كما في قوله { إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ } [الصافات:40].

الأيد: القوّة والشدة، مصدر: آد يئيد، إذا اشتد وقوي، ومنه التأييد التقوية، قال تعالى { فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ } [الأنفال:26].

وكان داود قد أعطى قوّة نادرة وشجاعة وإقداما عجيبين، وكان يرمي الحجر بالمقلاع فلا يخطئ الرمية.

{ **إِنَّهُ أَوَّابٌ** } تعليل للأمر بذكره، إيماء إلى أنّ الأمر لقصد الاقتداء به، كما قال تعالى { فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } [الأنعام:90]، فالجملة معترضة بين جملة { وَاذْكُرْ } وجملة بيانها وهي { إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ }.

الأوّاب: الكثير الأوب، أي: الرجوع. والمراد: الرجوع إلى ما أمر الله به والوقوف عنده حدوده وتدارك ما فرط فيه. والتائب يطلق عليه الأوّاب، وهو غالب استعمال القرآن، وهو مجاز، ولا تسمَّى التوبة أوباً.

و(**زبور**) داود المسمَّى عند اليهود بـ (المزامير) مشتمل على كثير من الاستغفار وما في معناه من التوبة.

{ **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ** } بيان لجملة { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا }، أي: اذكر فضائله وما أنعمنا عليه من تسخير الجبال.

{ **مَعَهُ** } ظرف لـ { يُسَبِّحْنَ }، وقُدِّم على متعلقه للاهتمام بمعيَّته المذكورة، وليس ظرفا لـ { سَخَّرْنَا }.

وتقدّم تسخير الجبال والطير لداود في [الأنبياء:79].

{ **يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ** } حال. واختير الفعل المضارع دون الوصف الذي هو الشأن في الحال لأنّه

أريد الدلالة على تجدّد تسبيح الجبال معه كلّما حضر فيها، ولمّا في المضارع من استحضاره تلك الحالة الخارقة للعادة.

التسبيح: أصله قول: سبحان الله، ثم أطلق على الذكر وعلى الصلاة، وليس هذا المعنى مرادا هنا.

العشيّ: ما بعد العصر. يقال: عشيٌّ وعشيَّة.

{ **الْإِشْرَاقِ** } وقت ظهور ضوء الشمس واضحا على الأرض وهو وقت الضحى، يقال: أشرقت الأرض ولا يقال: أشرقت الشمس، وإنّما يقال: شَرَقَت الشمس وهو من باب قعد، ولذلك كان قياس المكان منه المَشْرَق (بفتح الراء) ولكنه لم يجيء إلّا بكسر الراء. ووقت طلوع الشمس هو المشرق ووقت الإشراق الضحى.

{ **وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ** } هذه معجزة له لأنّ شأن الطير النفور من الإنس.

المحشورة: المجتمعة حوله عند قراءته الزبور. وانتصب على الحال من { وَالطَّيْرَ }.

ولم يؤت بالمضارع كما جيء به في { يُسَبِّحْنَ }، إذ الحشر يكون دفعة فلا يقتضي المقام دلالة على تجدّد.

{ **كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ** } التنوين عوض عن المضاف إليه. والتقدير: كلّ المحشورة له أوّاب، أي: كثير الرجوع إليه، أي: يأتيه من مكان بعيد.

{ **وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ** }

الشدّ: الإمساك وتمكّن اليد ممّا تمسكه، فيكون لقصد النفع كما هنا، ويكون لقصد الضرّ كقوله تعالى { وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [يونس:88].

فشدّ ملكه هو تقويته وسلامته من أضرار الثورات ومن غلبة أعدائه عليه في حروبه. وقد ملك داود أربعين سنة ومات وعمره سبعون سنة في ظل ملك ثابت.

{ **الْحِكْمَةَ** } النبوّة. والحكمة في الأعم: العلم بالأشياء كما هي والعمل بالأمور على ما ينبغي، وقد اشتمل كتاب (الزبور) على حكم جمّة.

{ **فَصْلَ الْخِطَابِ** } بلاغه الكلام وجمعه للمعنى المقصود بحيث لا يحتاج سامعه إلى زيادة تبيان.

ووصف القول بـ { فَصْلَ } وصف المصدر، أي: فاصل. والفاصل: الفارق بين شيئين، وهو ضد الواصل، ويطلق مجازا على ما يميّز شيئا عن الاشتباه بضدّه.

وعطفه هنا على الحكمة قرينة على أنّه استُعمل في معناه المجازي، كما في قوله تعالى { إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً } [النبأ:17].

المعنى: أن داود أوتي من أصالة الرأي وفصاحة القول ما إذا تكلم جاء بكلام فاصل بين الحق والباطل شأن كلام الأنبياء والحكماء، وحسبك بكتابه (الزبور / المزامير) فهو مثل في بلاغة القول في لغتهم.

{ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ [21] إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ [22] إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ [23] قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ [24] فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ [25] }.

{ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ** } إلى آخرها، معطوفة على جملة { إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ } [18]. والإنشاء هنا في معنى الخبر، فإنّ هذه الجملة قصّت شأنا من شأن داود مع ربه تعالى، فهي نظير ما قبلها.

والاستفهام مستعمل في التعجيب أو في الحثّ على العلم، فإن كانت القصة معلومة للنبيّ صلى الله عليه وسلم كان الاستفهام مستعملا في التعجيب، وإن كان هذا أوّل عهده بعلمها كان الاستفهام للحثّ، مثل { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ } [الغاشية:1].

والخطاب يجوز أن يكون لكل سامع، والوجهان الأوّلان قائمان.

النبأ: الخبر.

{ **الْخَصْمِ** } التعريف للعهد الذهني، أي: نبأ خصم معيّن هذا خبره، والخصام والاختصام: المجادلة والتداعي، وتقدّم في قوله تعالى { هَذَانِ خَصْمَانِ } [الحج:19]. والْخَصْمِ اسم يطلق على الواحد واكثر، وأريد به هنا خصمان، لقوله بعده { خَصْمَانِ } .

{ **إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ** } ضمير الجميع مراد به المثنّى، والمعنى: إذ تسورا المحراب، والعرب يعدلون عن صيغة التثنية إلى صيغة الجمع إذا كانت هناك قرينة، لأنّ في صيغة التثنية ثقلا لندرة استعمالها، قال تعالى { فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } [التحريم:4]، أي: قلباكما.

التسوُّر: تفعُّل مشتق من السُّور، وهو الجدار المحيط بمكان أو بلد. يقال: تسوَّر، إذا اعتلى على السور، ونظيره قولهم: تسنَّم جَمَلَه، إذا علا سَنامه.

المعنى: أن بيت عبادة داود عليه السلام كان محوطا بسور لئلا يدخله أحد إلّا بأذن.

{ **الْمِحْرَابَ** } البيت المتّخذ للعبادة، وتقدّم عند قوله تعالى { يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ } [سبأ:13].

{ **إِذْ دَخَلُوا** } بدل من { إِذْ تَسَوَّرُوا } لأنّهم تسورا المحراب للدخول على داود.

داود: ترجمته تقدّمت عند قوله تعالى { وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ } [الأنعام:84]، وقوله تعالى { وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً } [النساء:163].

الفزع: الذُّعر، وهو انفعال يظهر منه اضطراب على صاحبه من توقّع شدّة أو مفاجأة، وتقدّم في قوله تعالى { لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ } [الأنبياء:103].

وللإجابة عن إشكال فزع داود عليه السلام وقد قويت نفسه بالنبوة نقول:

أولا: بأنّ الخوف انفعال جبلّي وضعه الله في أحوال النفوس عند رؤية المكروه فلا تخلو من بوادره نفوس البشر، فيعرض لها ذلك الانفعال بادئ ذي بدء ثم يطرأ عليها الثبات، ونفوس الناس متفاوتة في ذلك.

ثانيا: بأنّ الذي حصل لداود عليه السلام فزع وليس بخوف. والفزع أعمّ من الخوف إذ هو اضطراب يحصل من الإحساس بشيء شأنه أن يُتخلص منه، وقد جاء في حديث خسوف الشمس: " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فَزِعاً ". أي: مسرعا مبادرا للصلاة توقّعا أن يكون ذلك الخسوف نذير عذاب.

ولذلك قال القرآن { فَفَزِعَ مِنْهُمْ } ولم يقل: خاف.

وأمّا قول الخصم لداود { لا تَخَفْ } فهو قول يقوله القادم بهيئة غير مألوفة من شأنها أن تريب الناظر.

ثالثا: أنّ الأنبياء مأمورون بحفظ حياتهم لأنّ حياتهم خير للأمة، فقد يفزع النبيّ من توقّع خطر خشية أن يكون سببا في هلاكه فينقطع الانتفاع به لأمته.

وقد جاء في حديث عائشة: " أنّ النبيّ صلى الله عليه والسلم أرق ذات ليلة فقال: " **ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة** "، إذ سمعنا صوت السلاح فقال: " **من هذا؟** " قال: سعد بن أبي وقاص جئت لأحرسك. قالت: " فنام النبيّ صلى الله عليه والسلم حتى سمعنا غطيطه ".

وروى الترمذي:" أنّ العباس كان يحرس النبيّ صلى الله عليه والسلم حتّى نزل قوله تعالى { وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } فتركت الحراسة.

{ **بَغَى بَعْضُنَا** } اعتدى وظلم. **والبغي**: الظلم. ولم يبيّنا الباغي منهما.

{ **فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ** } الفاء تفريع على قوله { خَصْمَانِ }، لأنّ داود عليه السلام لمّا كان ملكا وكان اللذان حضرا عنده خصمين كان طلب الحكم بينهما مفرّع على ذلك.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، وهي متعلّقة بـ { احْكُمْ }. وهذا مجرّد طلب منهما للحق كقول الرجل للنبيّ صلى الله عليه والسلم الذي افتدى ابنه ممّن زنى بامرأته: " فاحكم بيننا بكتاب الله ".

{ **وَلَا تُشْطِطْ** } النهي مستعمل في التذكير والإرشاد.

{ **تُشْطِطْ** } :مضارع أشطّ، يقال: أشطّ عليه، إذا جار عليه، وهو مشتق من الشطط وهو مجاوزة الحد والقدر المتعارف. ومخاطبة الخصم داود بهذا خارجة مخرج الحرص على إظهار الحقّ، وهو من قبيل: اتق الله في أمري. وصدوره قبل الحكم أقرب إلى معنى التذكير وأبعد عن الجفاء، فإن وقع بعد الحكم كان أقرب إلى

الجفاء، كالذي قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم في قسمة قسمها: " اعدل، فقال له الرسول: " **ويلك فمن يعدل إن لم أعدل** ".

{ **وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ** } يصرف عن إرادة الجفاء من قولهما { وَلا تُشْطِطْ }، لأنّهما عرفا أنّه لا يقول إلّا حقّا، وأنّهما تطلّبا منه الهدى.

الهدى: هنا مستعار للبيان وإيضاح الصواب.

{ **سَوَاءِ الصِّرَاطِ** } مستعار للحق الذي لا يشوبه باطل، لأنّ الصراط الطريق الواسع، والسواء منه هو الذي لا التواء فيه ولا شُعب تتشعّب منه فهو أسرع إيصالا إلى المقصود باستوائه وأبعد عن الالتباس.

{ **إِنَّ هَذَا أَخِي** } الظاهر أنّهما أرادا أخوّة النسب.

{ **أَكْفِلْنِيهَا** } اجعلها في كفالتي، كناية عن الإعطاء والهبة، أي: هبها لي.

{ **عَزَّنِي** } غلبني في مخاطبته، أي: أظهر في الكلام عزّة عليَّ وتطاولا. فجعل الخطاب ظرفا للعزّة مجازا.

<u>المعنى</u>: أنّه سأله أن يعطيه نعجته، ولمّا رأى منه تمنُّعا اشتد عليه بالكلام وهدّده. وبهذا يتبيَّن أن موضع هذا التحاكم طلب الإنصاف في معاملة القرابة لئلّا يفضي الخلاف بينهم إلى التواثب فتنقطع أواصر المبرّة بينهم. وقد علم داود من تساوقهما للخصومة، ومن سكوت أحد الخصمين أنّهما متقاربان على ما وصفه الحاكي منهما، أو كان المدَّعَى عليه قد اعترف. فحكم داود بأنّ سؤال الأخ أخاه نعجته ظلم، وتطاوله عليه في الخطاب ظلم أيضا.

{ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** } ذِكْر غالب أحوال الخلطاء أراد به الموعظة لهما بعد القضاء بينهما على عادة أهل الخير من انتهاز فرص الهداية، فأراد داود عليه السلام أن يرغّبهما في إيثار عادة الخلطاء الصالحين وأن يُكرّه إليهما الظلم والاعتداء. ويستفاد من المقام أنّه يأسف لحالهما، وأنّه أراد تسلية المظلوم عمّا جرى عليه من خليطه، وأنّ له أسوة في اكثر الخلطاء

{ **وَقَلِيلٌ مَا هُمْ** } التذييل حثٌّ لهما أن يكونا من الصالحين لما هو متقرّر في النفوس من نفاسة كلّ شيء قليل، قال تعالى { قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ } [المائدة:100].

والسبب في ذلك من جانب الحكمة أنّ الدواعي إلى لذات الدنيا كثيرة والمشي مع الهوى محبوب ومجاهدة النفس عزيزة الوقوع، فالإنسان محفوف بجواذب السيّئات، وأمّا دواعي الحق والكمال فهو الدين والحكمة، وفي أسباب الكمال إعراض عن محرّكات الشهوات، وهو إعراض عسير لا يسلكه إلّا من سما بدينه وهمّته إلى الشرف النفساني وأعرض عن الداعي الشهواني، فذلك هو العلّة في هذا الحكم بالقلة.

{ **مَا** } زيادة لقصد الإبهام كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ } [11]، وفي هذا الإبهام إيذان بالتعجب من ذلك بمعونة السياق والمقام.

وقد اختلف المفسرون في ماهية هذين الخصمين: فقال السدي والحسن ووهب بن منبّه: " كانا ملكين أرسلهما الله في صورة رجلين لداود عليه السلام لإبلاغ هذا المثل إليه عتابا له ". ورواه الطبري عن أنس مرفوعا.

وقيل: كانا أخوين شقيقين من بني إسرائيل، أي: ألهمهما الله إيقاع هذا الوعظ.

واعلم أن سوق هذا النبأ عقب التنويه بداود عليه السلام ليس إلّا تتميما للتنويه به لدفع ما قد يُتوهّم أنه ينقض ما ذُكر من فضائله ممّا جاء في كتاب (صمويل الثاني) من كتب اليهود في ذكر هذه القصة من أغلاط باطلة تنافي مقام النبوّة، فأريد بيان المقدار الصادق منها وتذييله بأنّ ما صدر عن داود عليه السلام يستوجب العتاب ولا يقتضي العقاب، ولذلك خُتمت بقوله تعالى { وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ } [40].

وهذا النبأ الذي تضمَّنته الآية يشير به إلى قصة تزوّج داود عليه السلام زوجة (أوريا الحثّي) من رجال جيشه، وكان داود رآها فمال إليها ورام تزوّجها فسأله أن يتنازل له عنها، وكان في شريعتهم مباحا أن الرجل يتنازل عن زوجه إلى غيره لصداقة بينهما فيطلقها ويتزوجها الآخر، كما كان ذلك في صدر الإسلام. وخرج أوريا في غزو مدينة فقُتل في الحرب. وكان اسم المرأة (بثشبع بنت اليعام) وهي أم سليمان.

وحكى القرآن القصة اكتفاء بأنّ نبأ الخصمين يُشعر بها، لأنّ العبرة بما أعقبه نبأ الخصمين في نفس داود فعتب الله على داود أن استعمل لنفسه هذا المباح، فعاتبه بهذا المثل المشخّص.

وليس في قول الخصمين { هَذَا أَخِي } ولا في فرضهما الخصومة التي هي غير واقعة ارتكاب الكذب لأنّ ما يجري من خلالها من الأوصاف والنسب غير الواقع إنّما هو على سبيل الفرض والتقدير وعلى نية المشابهة.

وفي هذا دليل شرعي على جواز وضع القصص التمثيلية التي يُقصد منها التربية والموعظة.

وفيها دليل شرعي لجواز تمثيل تلك القصص بالأجسام إذا لم تخالف الشريعة، ومنه تمثيل الروايات والقصص في ديار التمثيل، فإنّ ما يجري في شرع من قبلنا يصلح دليلا لنا في شرعنا إذا حكاه القرآن أو سنة النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يرد في شرعنا ما ينسخه.

وأخذ من الآية مشروعية القضاء في المسجد، قالوا: وليس في القرآن ما يدلّ على ذلك سوى هذه الآية بناء على أنّ من قبلنا شرع لنا إذا حكاه الكتاب أو السنة.

وقد حكيت هذه القصة في [سفر صمويل الثاني، الإصحاح:11] على خلاف ما في القرآن وعلى خلاف ما تقتضيه العصمة لنبوّة داود عليه السلام، فاحذروه. والذي في القرآن هو الحق، ولو حكي ذلك بخبر آحاد في المسلمين لوجب ردُّه والجزم بوضعه لمعارضته المقطوع به من عصمة الأنبياء من الكبائر عند جميع أهل السنّة، ومن الصغائر عند المحققين منهم وهو المختار.

{ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ }

أي: علم داود بعد انتهاء الخصومة أنّ الله جعلها له فتنة ليُشعره بحال فعلته مع (أوريا)، وقد أشعره بذلك ما

دله عليه انصراف الخصمين بصورة غير معتادة، فعلم أنّهما ملكان وأن الخصومة صورية، فعلم أنّ الله بعثهما إليه عَتْباً له على متابعة نفسه زوجة (أوريا) وطلبه التنازل عنها.

{ **وَظَنَّ دَاوُدُ** } عبر عن علمه ذلك بالظنّ لأنّه علم نظري اكتسبه بالتوسُّم في حال الحادثة، وكثيرا ما يُعبَّر عن العلم النظري بالظنّ لمشابهته الظنّ من حيث إنّه لا يخلو من تردّد في أوّل النظر.

{ **أَنَّمَا** } مفتوحة الهمزة أخت (إنّما) تفيد الحصر، أي: ظنّ أنّ الخصومة ليست إلّا فتنة له، أو ظنّ أنّ ما صدر منه في تزوج امرأة (أوريا) ليس إلا فتنة.

ويجوز أن يكون الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار، كقوله تعالى لموسى { وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً } [طه:40].

{ **فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ** } تفريع على ذلك الظنّ، أي: لمّا علم ذلك طلب الغفران من ربّه لما صنع.

{ **وَخَرَّ** } خرورا: سقط، وتقدّم في قوله تعالى { فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ } [النحل:26].

الركوع: الانحناء بقصد التعظيم دون وصول إلى الأرض، قال تعالى { تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً } [الفتح:29]، قالوا: لم يكن لبني إسرائيل سجود على الأرض وكان لهم الركوع، وعليه فتقييد فعل {خَرَّ} بحال { رَاكِعاً } تنبيها على شدّة الانحناء حتى قارب الخرور.

ويحتمل أن يكون السجود عبادة الأنبياء كشأن كثير من شرائع الإسلام كانت خاصة بالأنبياء من قبل، كما في قوله تعالى { فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة:132]، وقوله تعالى { وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً } [يوسف:100].

وكان ركوع داود عليه السلام تضرُّعا لله تعالى ليقبل استغفاره.

الإنابة: التوبة: يقال: أناب، ويقال: ناب. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود:75].

وعند قوله تعالى { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ } [الروم:31].

وهنا موضع سجدة من سجود القرآن من العزائم عند مالك لثبوت سجود النبيّ صلى الله عليه والسلم عندها.

ففي صحيح البخاري عن مجاهد: " سألت ابن عباس عن السجدة في (ص) فقال: " أوما تقرأ { وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ - إلى قوله - أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } [الأنعام:84-90]، فكان داود ممّن أُمر نبيّكم أن يقتدي به، فسجدها داود فسجدها رسول الله ".

وقول أبي حنيفة فيها مثل قول مالك. ولم يرَ الشافعي سجودا في هذه الآية لأنّه لا يرى شرع من قبلنا دليلا.

{ **فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ** } اسم الإشارة إلى ما دلّت عليه خصومة الخصمين من تمثيل ما فعله داود بصورة قضية الخصمين، وهذا من لطائف القرآن إذ طوى القصّة ثم أشار إلى المطوي باسم الإشارة.

{ **وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ** } أتبع الله الخبر عن الغفران له بما هو أرفع درجة وهو أنّه من المقرّبين عند الله المرضي عنهم، وأنّه لم يوقف به عند الغفران.

الزلفى: القربى، وهو مصدر أو اسم مصدر.

المآب: مصدر ميمي بمعنى الأوب، وهو الرجوع. والمراد به الرجوع إلى الآخرة. وسُمِّي رجوعا لأنّه رجوع إلى الله، أي: إلى حكمه البحث ظاهرا وباطنا قال تعالى { إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ } [الرعد:36].

حسن المآب: حسن المرجع، وهو أن يرجع رجوعا حسنا عند نفسه وفي مرأى الناس، أي: له حسن رجوع عندنا وهو كرامة عند الله يوم الجزاء، أي: الجنة يؤوب إليها.

{ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } [26]

مقول قول محذوف معطوف على { فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ } [25]، أي: صفحنا عنه وذكَّرناه بنعمة الملك ووعظناه. فجمع له بهذا تنويها بشأنه وإرشادا للواجب. وافتتاح الخطاب بالنداء لاسترعاء وعيه واهتمامه بما سيقال له.

الخلفية: الذي يخلف غيره في عمل، أي: يقوم مقامه فيه، فإن كان مع وجود المخلوف عنه قيل: هو خليفة فلان، وإن كان بعدما مضى المخلوف قيل: هو خليفة من فلان. والمراد هنا: المعنى الأول.

فالمعنى: أنّه خليفة الله في إنفاذ شرائعه للأمّة المجعول لها خليفة ممّا يوحي به إليه، وممّا سبق من الشريعة التي أوحي إليه العمل بها. وخليفة عن موسى عليه السلام وعن أحبار بني إسرائيل الأولين المدعوّين بالقضاة، أو خليفة عمّن تقدمه في الملك وهو شاول.

{ **الْأَرْضِ** } أرض مملكته المعهودة، أي: جعلناك خليفة في أرض إسرائيل. ويجوز أن يجعل الأرض مرادا به جميع الأرض، فإنّ داود كان في زمنه أعظم ملوك الأرض فهو متصرّف في مملكته ويخاف بأسه ملوك الأرض، فهو خليفة الله في الأرض إذ لا ينفلت شيء من قبضته، وهذا قريب من الخلافة في قوله تعالى { ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ } [يونس:14]، وقوله تعالى { وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ } [النمل:62]. وهذا المعنى خلاف معنى قوله تعالى { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30] فإن الأرض هنالك هي هذه الكرة الرضية.

{ **فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ** } فُرِّع على جعله خليفة أمره بأن يحكم بين الناس بالحق للدلالة على أنّ ذلك واجبه وأنّه أحق الناس بالحكم بالعدل.

{ **النَّاسِ** } ناس مملكته، فالتعريف للعهد أو هو للاستغراق العرفي.

الحقّ: هو ما يقتضيه العدل الشرعي من معاملة الناس بعضهم بعضا وتصرفاتهم في خاصّتهم وعامتهم، ويتعيّن الحق بتعين الشريعة. والباء في { بِالْحَقِّ } باء المجازية، جُعل الحق كالآلة التي يعمل بها العامل.

{ **وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى** } المقصود من التفريع. وإنّما تقدّم عليه أمره بالحكم بالحق ليكون توطئة للنهي عن اتباع الهوى سدا لذريعة الوقوع في خطأ الحق، فإنّ داود ممّن حكم بالحق فأمره به باعتبار المستقبل.

{ **الْهَوَى** } تعريف الجنس المفيد للاستغراق، فالنهي يعمّ كلّ ما هو هوى، سواء كان هوى المخاطب أو هوى غيره مثل هوى زوجه وولده ...، أو هوى الجمهور، كما في قوله تعالى { قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } [الأعراف:138].

الهوى: المحبة، وأطلق على الشيء المحبوب مبالغة، أي: ولو كان هوى شديدا تَعْلَق النفس به.

وهو هنا كناية عن الباطل والجور والظلم، لما هو متعارف من الملازمة بين هذه الأمور وبين هوى النفوس، فإنّ العدل والأنصاف ثقيل على النفوس فلا تهواه غالبا.

{ **سَبِيلِ اللَّهِ** } الأعمال التي تحصل منها مرضاته، وهي الأعمال التي أمر الله بها ووعد بالجزاء عليها، شُبِّهت بالطريق الموصل إلى الله، أي: إلى مرضاته.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** } يظهر أنّها مما خاطب الله به داود، وهي عند أصحاب العدد آية واحدة من قوله { يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ – إلى قوله - يَوْمَ الْحِسَابِ }، فهي في موقع العلّة للنهي، فكانت { إنّ } مغنية عن فاء التسبّب والترتّب، فالشيء الذي يفضي إلى العذاب الشديد خليق بأن يُنهى عنه.

وإن كانت الجملة كلاما منفصلا عن خطاب داود كانت معترضة ومستأنفة استئنافا بيانيا لبيان خطر الضلال عن سبيل الله.

والعموم الذي في الجملة يكسبها وصف تذييل أيضا وكلا الاعتبارين موجب لعدم عطفها.

{ **الَّذِينَ يَضِلُّونَ** } جيء بالوصول للإيماء إلى أنّ الصلة علّة لاستحقاق العذاب.

{ **بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** } الباء سببية. والـ (مَا) مصدرية، أي، بسبب نسيانهم يوم الحساب.

النسيان: مستعار للإعراض الشديد، لأنّه يشبه نسيان المعرض عنه، كما في قوله تعالى { نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ } [التوبة:67]، وهو مراتب أشدّها إنكار البعث والجزاء، قال تعالى { فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ } [السجدة:14]. ودونه مراتب العذاب لأنّه إذا كان السبب ذا مراتب كانت المسببات تبعا لذلك.

{ **يَوْمَ الْحِسَابِ** } المراد ما يقع فيه من الجزاء على الخير والشر، فهو في المعنى على تقدير مضاف، أي: جزاء يوم الحساب، على حد قوله تعالى { وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ } [الكهف:57]، أي: لم يفكر في عاقبة ما يقدمه من الأعمال.

وفي جعل الضلال عن سبيل الله ونسيان يوم الحساب سببين لاستحقاق العذاب الشديد تنبيه على تلازمهما فإنّ الضلال عن سبيل الله يفضي إلى الإعراض عن مراقبة الجزاء.

{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ } [27]

لمّا جرى في خطاب داود ذكر نسيان يوم الحساب وكان أقصى آيات ذلك النسيان جحود وقعه لأنّه يفضي إلى عدم مراعاته ومراقبته أبدا، أعترِض بين القصتين بثلاث آيات لبيان حكمة الله تعالى في جعل الجزاء ويومه احتجاجا على منكريه من المشركين.

الباطل: ضدّ الحقّ، فكلّ ما كان غير حق فهو الباطل، ولذلك قال تعالى في الآية الأخرى { مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [الدخان:39].

والمراد بالحقّ، المأخوذ من نفي الباطل هنا، هو أنّ تلك المخلوقات خلقت على حالة لا تخرج عن الحق، إمّا حالا كخلق الملائكة والرسل والصالحين، وإمّا في المآل كخلق الشياطين والمفسدين، لأن إقامة الجزاء عليهم من بعد استدراك لمقتضى الحقّ.

{ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا } أي: خلق المذكورات باطلا هو ظن الذين كفروا، أي: اعتقادهم.

وأطلق الظنّ على العلم لأنّ ظنّهم علم مخالف للواقع، فهو باسم الظن أجدر، لأنّ إطلاق الظن يقع عليه أنواع من العلم المشبه والباطل. وفي هذه الآية دليل على أن لازم القول يعتبر قولا، وأنّ لازم المذهب مذهب.

{ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ } تفريع على هذا الاستدلال وعدم جري المشركين على مقتضاه، أي: نار جهنم. وعُبِّر عنهم بالوصول لما تشير إليه الصلة من أنّهم استحقوا العقاب على سوء اعتقادهم وسوء أعمالهم، وأنّ ذلك أيضا من آثار انتفاء الباطل عن خلق السماوات والأرض وما بينهما، لأنّهم كانوا على باطل في إعراضهم عن الاستدلال بنظام السماوات والأرض، وفي ارتكابهم مفاسد عوائد الشرك وملته، وقد تمتعوا بالحياة الدنيا أكثر ممّا تمتع بها الصالحون فلا جرم استحقوا جزاء أعمالهم.

{ فَوَيْلٌ } و لفظ يدل على أشد السوء. وكلمة: ويل له، تقال للتعجيب من شدة سوء حالة المتحدث عنه، وهي هنا كناية عن شدّة عذابهم في النار. كما في قوله تعالى { فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ } [البقرة:79].

{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}[28]

{ **أَمْ** } منقطعة أفادت إضرابا انتقاليًّا وهو ارتقاء في الاستدلال على ثبوت البعث وبيان لما هو من مقتضى خلق السماء والأرض بالحق، بعد أن سيق ذلك بوجه الاستدلال الجملي، وقد كان هذا الانتقال بناء على ما اقتضاه قوله تعالى { ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا } [27] فلأجل ذلك بني على استفهام مقدَّر بعد { أم }، وهو من لوازم استعمالها، وهو استفهام إنكاري. والمعنى: لو انتفى البعث والجزاء كما تزعمون لاستوت عند الله

أحوال الصالحين وأحوال المفسدين.

{ **كَالْمُفْسِدِينَ** } التشبيه للتسوية. والمعنى: إنكار أن يكونوا سواء في جعل الله، أي: إذا لم يجاز كلّ فريق بما يستحقّه على عمله، فالمشاهَد في هذه الحياة الدنيا خلاف ذلك، فتعيَّن أن يكون الجزاء في عالم آخر وهو الذي يسلك له الناس بعد البعث.

{ **أَمْ** } الثانية منقطعة أيضا ومفادها إضراب انتقال ثان للارتقاء في الاستدلال على أن الحكمة الربَّانية بمراعاة الحق وانتفاء الباطل في الخلق تقتضي الجزاء والبعث لأجله.

ومعنى الاستفهام الذي تقتضيه { أم } الثانية إنكاري. وهذا الارتقاء في الاستدلال لقصد زيادة التشنيع على منكري البعث والجزاء بأنّ ظنهم ذلك يقتضي أن جعل الله المتقين مساوين للفجار في أحوال وجود الفريقين.

المتّقون: هم الذين كانت التقوى شعارهم. و**التقوى**: ملازمة اتباع المأمورات واجتناب المنهيات في الظاهر والباطن، وقد تقدّم في أوّل سورة البقرة.

الفجّار: الذين شعارهم الفجور، وهو أشد المعصية. والمراد به: الكفر وأعماله التي لا يراقب أصحابها التقوى، كما في قوله تعالى { أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ } [عبس:42].

والمقصود من هذا الإطناب زيادة التهويل والفظيع على الذين ظنوا ظنا يفضي إلى أنّ الله خلق شيئا من السماء والأرض وما بينهما باطلا، فإنّ في الانتقال من دلالة الأضعف إلى دلالة الأقوى وفي تكرير أداة الإنكار شأنا عظيما من فضح أمر الضالين.

{ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } [29]

بعد الإمعان في تهديد المشركين وتجهيلهم على إعراضهم عن التدبُّر بحكمة الجزاء ويوم الحساب عليه والاحتجاج عليهم، أعرض الله عن خطابهم ووجّه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه والسلم بالثناء على الكتاب المنزَّل عليه، وأنّه إن حَرَمَ المشركون أنفسهم من الانتفاع به فقد انتفع به أولو الألباب وهم المؤمنون. وفي ذلك إدماج الاعتزاز بهذا الكتاب لمن أنزل عليه ولمن تمسّك به واهتدى بهديه من المؤمنين.

والجملة استئناف معترض وفي هذا الاستئناف نظر إلى قوله في أوّل السورة { وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ } [1]، إعادة للتنويه بشأن القرآن كما سيعاد ذلك في قوله تعالى { هَذَا ذِكْرٌ } [49].

{ **كِتَابٌ** } التنكير للتعظيم، لأنّ الكتاب معلوم فما كان تنكيره إلا لتعظيم شأنه، وهو مبتدأ سوَّغ الابتداء به وصفه بجملة { أَنْزَلْنَاهُ } و{ مُبَارَكٌ } هو الخبر. ولك أن تجعل ما في التنكير من معنى التعظيم مسوِّغا للابتداء وتجعل جملة { أَنْزَلْنَاهُ } خبرا أول و{ مُبَارَكٌ } خبرا ثانيا، و{ لِيَدَّبَّرُوا } متعلق بـ { أَنْزَلْنَاهُ }.

المبارك: المُنْبَثَّة فيه البركة، وهي الخير الكثير، وكلّ آيات القرآن مبارك فيها، لأنّها: إمّا مرشدة إلى خير،

وإمّا صارفة عن شر وفساد، وذلك سبب الخير في العاجل والآجل ولا بركة أعظم من ذلك.
التدبّر: التفكّر والتأمّل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وإنّما يكون ذلك في كلام قليل اللفظ كثير المعاني التي أودعت فيه بحيث كلّما ازداد المتدبّر تدبرا انكشف له معان لم تكن بادية له بادئ النظر.
وتقدّم عند قوله تعالى { أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ } [النساء:82].
التذكّر: استحضار الذهن ما كان يعلمه، وهو صادق باستحضار ما هو منسي، وباستحضار ما الشأن أن لا يُغفل عنه، وهو ما يهم العلم به.
فجُعل القرآن للناس ليتدبَّروا معانيه ويكشفوا عن غوامضه بقدر الطاقة.
{ **أُولُو الْأَلْبَابِ** } أهل العقول، وفيه تعريض بأن الذين لم يتذكّروا بالقرآن ليسوا من أهل العقول، وأنّ التذكّر من شأن المسلمين الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، فهم ممّن تدبروا آياته فاستنبطوا من المعاني ما لم يعلموا، والكافرون أعرضوا عن التدبّر فلا جرم فاتهم التذكّر.

{ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** } [30]
جُعل التخلُّصُ إلى مناقب سليمان عليه السلام من جهة أنّه من مِنَنِ الله على داود عليه السلام، فكانت قصة سليمان كالتكملة لقصة داود. ولم يكن لحال سليمان عليه السلام شبه بحال محمد صلى الله عليه وسلم، فلذلك جزمنا بأن لم يكن ذكر قصته هنا مثالا لحال محمد صلى الله عليه وسلم، وبأنّها إتمام لما أنعم الله به على داود إذ أعطاه سليمان ابنا بهجة له في حياته وورث ملكه بعد مماته.
ولهذه النكتة لم تفتتح قصة سليمان بعبارة: (واذكر)، كما افتتحت قصة داود ثم قصة أيوب، والقصص بعدها مفصَّلها ومجملها، غير أنّها لم تخل من مواضع أسوة وعبرة وتحذير على عادة القرآن من افتراض الإرشاد.
ومن حسن المناسبة لذكر موهبة سليمان أنّه ولد لداود من المرأة التي عوتب داود لأجل استنزال زوجها عنها كما تقدّم، فكانت موهبة سليمان لداود منها مكرمة عظيمة هي أثر مغفرة الله لداود تلك المخالفة.
{ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ** } عطف على جملة { إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ } [18]وما بعدها من الجمل.
{ **نِعْمَ الْعَبْدُ** } في موضع الحال من { سُلَيْمَانَ } وهي ثناء عليه ومدح له من جملة من استحقوا عنوان العبد لله، وهو العنوان المقصود منه التقريب بالقرينة، كما تقدّم في قوله تعالى { إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ } [الصافات:41/40].
والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة ما تقدم عليه وهو قوله { سُلَيْمَانَ }، والتقدير: نعم العبد سليمان.
{ **إِنَّهُ أَوَّابٌ** } تعليل للثناء عليه، و**الأوّاب**: مبالغة في الآيب أي كثير الأوب، أي: الرجوع إلى الله بقرينة أنّه مادحه. والمراد من الأوب إلى الله: الأوب إلى أمره ونهيه. وتقدّم ذلك آنفا في ذكر داود.

{ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ [31] فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ [32] رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ [33] }.

{ **إِذْ عُرِضَ** } يتعلق بـ { أَوَّابٌ }. وتعليق هذا الظرف بـ { أَوَّابٌ } تعليق تعليل، وصيغة أوّاب تقتضي المبالغة، كما تقدّم، والأصل منها الكثرة، فتعين أنّ القصة مثال من حوادث أوبته.

العرض: الإمرار والإحضار أمام الرائي، أي عرض سُوّاس خيله إيّاها عليه.

العشيّ: من العصر إلى الغروب. وتقدّم في قوله تعالى { بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ } [الأنعام:52]. وذلك وقت افتقاد الخيل والماشية بعد روحها من مراعيها ومراتعها. وذكر العشيّ ليبنى عليه قوله { حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ }.

{ **الصَّافِنَاتُ** } وصف لموصوف محذوف استغنى عن ذكره لدلالة الصفة عليه لأنّ الصافن لا يكون إلّا من الخيل والأفراس وهو الذي يقف على ثلاث قوائم وطرف حافر القائمة الرابعة لا يمكِّن القائمة الرابعة من الأرض، وتلك من علامات خفّته الدالة على كرم أصل الفرس وحسن خلاله، يقال: صفن الفرس صُفونا.

{ **الْجِيَادُ** } جمع جواد (بفتح الواو) وهو الفرس ذو الجودة، أي: النفاسة.

{ **أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ** } أصل التركيب: أحببت الخير حبا، فحُوِّل التركيب فصار { حُبَّ الْخَيْرِ } تمييزا لإسناد نسبة المحبة إلى نفسه لغرض الإجمال ثم التفصيل، كما قوله تعالى { وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً } [القمر:12].

{ **أَحْبَبْتُ** } ضُمِّن معنى عوَّضت، فعدِّي بـ { عن } في قوله { **عَنْ ذِكْرِ رَبِّي** } فصار المعنى: أحببت الخير حبا فجاوزت ذكر ربي.

{ **عَنْ ذِكْرِ رَبِّي** } الصلاة، فلعلّها صلاة كان رتّبها لنفسه، لأنّ وقت العشي ليست فيه صلاة مفروضة في شريعة موسى إلّا المغرب.

{ **الْخَيْرِ** } المال النفيس كما في قوله تعالى { إِنْ تَرَكَ خَيْراً } [البقرة:180]. والخيل من المال النفيس.

وقال الفراء: " الخير بالراء من أسماء الخيل ". وقلت: إن العرب من عادتهم التفاؤل ولهم بالخيل عناية عظيمة، فلعلّهم سمُّوها الخير تفاؤلا لتتمحّض للسعد والبخت.

{ **حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ** } الضمير للشمس بقرينة ذكر العشيّ وحرف الغاية ولفظ الحجاب.

التواري: الاختفاء، و**الحجاب**: الستر في البيت الذي تحتجب وراءه المرأة وغيرها.

والكلام تمثيل لحالة غروب الشمس بتواري المرأة وراء الحجاب.

المعنى: عرضت عليه خيله فاشتغل بأحوالها حبا فيها، حتى غربت الشمس ففاتته صلاة كان يصليها في المساء قبل الغروب.

{ **رُدُّوهَا عَلَيَّ** } الخطاب لسوّاس خيله. والضمير المنصوب عائد إلى الخيل بالقرينة، أي: أرجعوا الخيل إليّ.

{ **فَطَفِقَ** } الفاء تعقيبيّة، وطفق من أفعال الشروع، أي: فشرع.

{ **مَسْحاً** } مصدر أقيم مقام الفعل، أي: طفق يمسح مسحا. و**المسح**: حقيقته إمرار اليد على الشيء لإزالة ما عليه من ماء أو غبار وغير ذلك ممّا لا يراد بقاؤه على الشيء ويكون باليد وبخرقة أو ثوب، وقد يطلق المسح مجازا على معان منها: الضرب بالسيف يقال: مسحه بالسيف. ويقال: مسحَ السيفَ به. ولعلّ أصله كناية عن القتل بالسيف، لأنّ السيف يمسح عنه الدم بعد الضرب به.

{ **بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ** } حرف التعريف عوض عن المضاف إليه، أي: بسوقها وأعناقها، كقوله تعالى { فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى } [النازعات:41].

{ **بِالسُّوقِ** } جمع ساق. وقرأه الجمهور بواو ساكنة وبوزن فُعْل مثل: دار ودُور. والباء مزيدة للتأكيد، أي: تأكيد اتصال الفعل بمفعوله، كالتي في قوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6].

{ **الْأَعْنَاقِ** } جمع عنق وهو الرقبة.

وقد تردّد المفسّرون في المعنى الذي عني بقوله تعالى { فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ }:

فعن ابن عباس والزهري وابن كيسان وقطرب: " طفق يمسح أعراف الخيل وسوقها بيده حبا لها ".

وهذا هو الجاري على المناسب لمقام نبيّ والأوفق بحقيقة المسح ولكنّه يقتضي إجراء ترتيب الجمل على خلاف مقتضى الظاهر بأن يكون قوله { رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ } متصلا بقوله { إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ }، أي: بعد أن استعرضها وانصرفوا بها لتأوي إلى مذاودها قال: { رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ } إكراما لها ولحبها. ويجعل قوله { فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ } معترضا بينهما، وإنّما قدّم للتعجيل بذكر ندمه على تفريطه.

وعن الحسن وقتادة ومالك بن أنس في رواية ابن وهب والفراء وثعلب: " أنّ سليمان لمّا ندم على اشتغاله بالخيل حتّى أضاع ذكر الله في وقت كان يذكر الله فيه أمر أن تردّ عليه الخيل التي شغلته فجعل يعرقب سوقها ويقطع أعناقها لحرمان نفسه منها مع محبته إيّاها توبة منه وتربية لنفسه ".

وتجنّب بعضهم هذا الوجه وجعل المسح مستعارا للتوسيم بسمة الخيل الموقوفة في سبيل الله بكي نار أو كشط جلد، فشُبِّهت تلك الإزالة بإزالة المسح ما على ظهر الممسوح من ملتصق به، وهذا أسلم عن الاعتراض من القول الأول وهو معزو لبعض المفسرين في (أحكام القرآن) لابن العربي.

{ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ [34] قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ [35] }.

قلتُ آنفا عند قوله تعالى { وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ } [30]: إنّ ما ذكر من مناقب سليمان لم يخل من مقاصد ائتساء وعبرة وتحذير، على عادة القرآن في ابتدار وسائل الإرشاد بالترغيب والترهيب، فكذلك كانت الآيات المتعلقة بندمه على الاشتغال بالخيل عن ذكر الله موقع إسوة به في مبادرة التوبة والتحذير من الغفلة.

وكذلك جاءت هذه الآيات مشيرة إلى فتنة عرضت لسليمان أعقبتها إنابة ثم أعقبتها إفاضة نعم عظيمة.

{ **فَتَنَّا** } الفتن والفتون والفتنة: اضطراب الحال الشديد الذي يظهر به مقدار صبر وثبات من يحل به، وتقدّم ذلك عند قوله تعالى { إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ } [البقرة:102].

وقد أشارت الآية إلى حدث عظيم حلّ بسليمان، واختلفت أقوال المفسرين في تعيين هذه الفتنة فذكروا قصصا هي بالخرافات أشبه، ومقام سليمان عن أمثالها أنزه.

وأظهر أقوالهم أن تكون الآية إشارة إلى ما في صحيح البخاري عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " قال سليمان لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلّهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه: " قل إن شاء الله ". فلم يقل: إن شاء الله. فطاف عليهن جميعا فلم تحمل منهم إلّا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيم الذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون" .

وليس في كلام النبي صلى الله عليه وسلم أن ذلك تأويل هذه الآية ولا وضع البخاري ولا الترمذي الحديث في التفسير من كتابيهما. وهذا تفسير بعيد لأنّ الخبر لم يقتض أنّ الشق الذي ولدته المرأة كان حيا ولا أنّه جلس على كرسي سليمان. وتركيب هذه الآية على ذلك الخبر تكلّف.

وقال وهب بن منبه وشهر بن حوشب: " تزوّج سليمان ابنة ملك صيدون بعد أن غزا أباها وقتله فكانت حزينة على أبيها، وكان سليمان قد شغف بحبها فسألته لترضى أن يأمر المصورين ليصنعوا صورة لأبيها فصنعت لها فكانت تغدو وتروح مع ولائدها يسجدن لتلك الصورة فلمّا علم سليمان بذلك أمر بكسر التمثال.

وهذا القول مختزل مما وقع في [سفر الملوك الأول، الإصحاح:11]، ويؤخذ من ذلك كلّه أنّ سليمان اجتهد وسمح لنسائه المشركات أن يعبدن أصنامهن في بيوتهن.

وعلى هذا التأويل يكون المراد بالجسد الصنم لأنّه صورة بلا روح، كما سمَّى الله العجل الذي عبده بنو إسرائيل جسدا في قوله { فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ } [طه:88]. ويكون معنى إلقائه على كرسيه نصبه في بيوت زوجاته المشركات بقرب من مواضع جلوسه.

{ **ثُمَّ أَنَابَ** } عطف بحرف { ثم } المفيد للتراخي الرتبي. و**الإنابة**: التوبة.

{ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي** } بدل اشتمال من جملة { أَنَابَ } لأنّ الإنابة تشتمل على ترقّب العفو عمّا عسى أن يكون قد صدر منه ممّا لا يرضى الله تعالى صدوره من أمثاله.

{ **وَهَبْ لِي مُلْكاً** } كان سليمان يومئذ في ملك عظيم فسؤال موهبة الملك مراد به استدامة ذلك الملك، وصيغة الطلب ترد لطلب الدوام مثل { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [النساء:136].

{ **مُلْكاً** } التنكير للتعظيم.

{ **لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي** } ارتقاء وتدرّج في السؤال. أي: لا يعطيه الله أحدا يبتغيه من بعده.

فكنّى بـ { لا يَنْبَغِي } عن معنى لا يُعطى لأحد، أي: لا تعطيه من بعدي.

{ **مِنْ بَعْدِي** } في معنى: من دوني، كقوله تعالى { فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ } [الجاثية:23].

أي: أنّه لا ينبغي لأحد غيري، أي: في وقت حياتي، فهذا دعاء بأن لا يُسلَّط أحد على ملكه مدّة حياته.

ويجوز أن يبقى { مِنْ بَعْدِي } على ظاهره، أي: بعد حياتي. أي: لا ينبغي مثله لأحد بعد وفاتي.

وقد تضمّنت دعوته شيئين: هما أن يعطى ملكا عظيما، وأن لا يعطى غيره مثله في عظمته.

وقد حكى الله دعاء سليمان وهو سرّ بينه وبين ربه إشعارا بأنّه ألهمه إيّاه، وأنّه استجاب له دعوته تعريفا برضاه عنه وبأنّه جعل استجابته مكرمة توبته. ومعنى ذلك أنّه لا يأتي ملك بعده له من السلطان جميع ما لسليمان، فإنّ ملك سليمان عمّ التصرّف في الجن وتسخير الريح والطير، ومجموع ذلك لم يحصل لأحد بعده.

وفي الصحيح عن أبي هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " **إنّ عفريتا من الجن تفلّتَ البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه بسارية من سواري المسجد حتّى تنظروا إليه كلّكم فذكرت دعوة أخي سليمان: " رب هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي فرددته خاسئا** ".

{ **إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ** } علّة للسؤال كله وتمهيد الإجابة، فقامت (إن) مقام حرف التفريع، ودلت صيغة المبالغة في { الْوَهَّابُ } على أنّه تعالى يهب الكثير والعظيم، لأنّ المبالغة تفيد شدّة الكميّة أو شدّة الكيفية أو كلتيهما بقرينة مقام الدعاء، فمغفرة الذنب من المواهب العظيمة لما يُرتَّب عليه من درجات الآخرة، وإعطاء مثل هذا الملك هو هبة عظيمة.

{ **أَنْتَ** } ضمير فصل أفاد به قصرا، فصار المعنى: أنت قوي الموهبة لا غيرك.

{ **فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ [36] وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ [37] وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ [38]** }

اقتضت الفاء وترتيب الجمل أنّ تسخير الريح وتسخير الشياطين كانا بعد أن سأل الله مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده أن أعطاه الله هاتين الموهبتين زيادة في قوّة ملكه وتحقيقا لاستجابة دعوته.

التسخير: الإلجاء إلى عمل بدون اختيار، وهو مستعار هنا لتكوين أسباب تصرّف الريح إلى الجهات التي يريد سليمان توجيه سفنه إليها. تقدّم في قوله تعالى { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ} [سبأ:12] وفي قوله تعالى { تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } [الأنبياء:81].

{ **له** } الام العلة، أي: لأجله، أي: ذلك التسخير كرامة من الله له بأن جعل تصريف الرياح على نحو رغبته.

{ **بِأَمْرِهِ** } الأمر مستعار للرغبة أو للدعاء، بأن يدعو الله أن تكون الريح متجهة إلى صوب كذا حسب خطة أسفار سفائنه، أو يرغب ذلك في نفسه، فيصرف الله الريح إلى ما يلائم رغبته، وهو العليم بالخفيَّات.

الرُّخاء: الليّنة التي لا زعزعة في هبوبها. وانتصب { رُخَاءً } على الحال من ضمير {تَجْرِي}، أي: تجري بأمره لينة مساعدة لسير السفن، وهذا من التسخير لأن شأن الريح أن تهب شديدة عاصفة.

وقد قال تعالى في [الأنبياء:81] { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً } ومعناه: سخرنا لسليمان الريح التي شأنها العصوف، فانتصب { عَاصِفَةً } في آية سورة الأنبياء على الحال من {الرِّيحَ} وهي حال منتقلة.

ولما أعقبه هنا بقوله { تَجْرِي بِأَمْرِهِ } عُلم أنّ عصفها يصير إلى لين بأمر سليمان، أي: بعزمه، أو برغبته، لأنّه لا تصلح له أن تكون عاصفة بحال من الأحوال، فهذا وجه دفع التنافي بين الحالين في الآيتين.

{ **حَيْثُ أَصَابَ** } معناه قصد، وهو مشتقّ من الصوب، أي: الجهة، أي: تجري إلى حيث قصد السير.

{ **الشَّيَاطِينَ** } جمع شيطان، وحقيقته الجنّي، ويُستعمل مجازا للبالغ غاية المقدرة والحذق في العمل الذي يعمله. ومنه قوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ } [الأنعام:112]، فسخَّر الله النوع الأول لسليمان تسخيرا خارقا للعادة على وجه المعجزة، فهو مسخَّر له في الأمور الروحانية والتصرفات الخفية، وسخر النوع الثاني له تسخير إذلال ومغلوبيّة لعظم سلطانه وإلقاء مهابته في قلوب الأمم، فكانوا يأتون طوعا للانضواء تحت سلطانه كما فعلت بلقيس وقد تقدّم في سورة سبا.

فيجوز أن يكون { الشَّيَاطِينَ } مستعملا في حقيقته ومجازه.

{ **كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ** } بدل من { الشَّيَاطِينَ } بدل بعض من كل، أي: كل بناء وغواص منهم.

{ **كُلَّ** } هنا مستعملة في معنى الكثير، وهو استعمال وارد في القرآن والكلام الفصيح، قال تعالى { وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ } [يونس:97]، وقال تعالى { ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } [النحل:69].

البنَّاء: الذي يبني، وهو اسم فاعل مصوغ على زنة المبالغة للدلالة على معنى الصناعة مثل نجّار وحدّاد.
الغوّاص: الذي يغوص في البحر لاستخراج محار اللؤلؤ، وهو أيضا مما صيغ على وزن المبالغة للدلالة على الصناعة. قال تعالى { وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ } [الأنبياء:82].
{ **وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ** } عطف على { كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ } فهو من جملة بدل البعض.
{ **آخَرِينَ** } جمع آخر بمعنى مغاير. فيجوز أن تكون المغايرة في النوع، أي: من غير نوع الجن.
ويجوز أن تكون المغايرة في الصفة، أي: غير بنّائين وغوّاصين.
المقرَّن: اسم مفعول من قَرَنَه مبالغة في قرنه، أي: جَعَله قرينا لغيره لا ينفك أحدهما عن الآخر.
{ **الْأَصْفَادِ** } جمع صَفَد (بفتحتين) وهو القيد. يقال: صفده، إذا قيَّده.
وهذا صنف ممن عبر عنهم بالشياطين شديد الشكيمة يُخشى تفلّته ويرام أن يستمر يعمل أعمالا لا يجيدها غيره فيُصفد في القيود ليعمل تحت حراسة الحراس، فيكون معنى {مُقَرَّنِينَ} على حقيقته.
ويجوز أن يكون تمثيلا لمنع الشياطين من التفلّت.

{ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [39]

الإشارة إلى التسخير المستفاد من قوله تعالى { فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ - إلى قوله - وَالشَّيَاطِينَ } [37/36]، أي: هذا التسخير عطاؤنا.
{ **عَطَاؤُنَا** } الإضافة لتعظيم شأن المضاف لانتسابه إلى المضاف إليه، فكأنّه قيل: هذا عطاء عظيم أعطيناكه.
العطاء: مصدر بمعنى المعطى مثل الخلق بمعنى المخلوق.
{ **فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ** } أمر مستعمل في الإذن والإباحة، أي: فأنعم على من شئت بالإطلاق، أو أمسك في الخدمة من شئت. وتقديم { فَامْنُنْ } لتعجيل المسرّة بالنعمة. ويكون { **بِغَيْرِ حِسَابٍ** } حالا من ضمير { فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ }، ويكون **الحساب** بمعنى المحاسبة المكنّى بها عن المؤاخذة. والمعنى: امنن أو أمسك لا مؤاخذة عليك فيمن مننت عليه بالإطلاق، ولا فيمن أمسكته في الخدمة.
ويجوز أن يكون { **بِغَيْرِ حِسَابٍ** } مجاز وكناية في التحديد والتقدير، أي: هذا عطاؤنا غير محدّد ولا مقتر فيه، أي: عطاؤنا واسعا وافيا لا تضييق فيه عليك.
المنّ: كناية عن الإطلاق بلازم اللازم، كقوله تعالى { فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً } [بمحمد:4].

{ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ } [40]
تقدم نظيره آنفا في قصة داود [25].

{ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ [41] ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ [42] }.

هذا مَثَل ثان ذُكِّر به النبيّ صلى الله عليه وسلم إسوة به في الصبر على أذى قومه والالتجاء إلى الله في كشف الضرّ، وهو معطوف على { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ } [17]، ولكونه مقصودا بالمثل أعيد معه فعل { اذْكُرْ } كما نبَّهنا عليه في قوله تعالى { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ } [17]، وقد تقدّم الكلام على نظير صدر هذه الآية في [الأنبياء:83].

{ أَيُّوبَ } ترجمته عليه السلام تقدّمت في [الأنعام:84].

{ إِذْ نَادَى رَبَّهُ } بدل اشتمال من أيوب، لأنّ زمن ندائه ربّه ممّا تشتمل عليه أحوال أيوب. وخُصّ هذا الحال بالذكر من بين أحواله لأنّه مظهر توكّله على الله واستجابة الله دعاءه بكشف الضرّ عنه.

النداء: نداء دعاء، لأنّ الدعاء يفتتح بـ: يا رب، ونحوه.

{ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ } متعلق بـ { نَادَى } بحذف الباء، أي: نادى: بأني مسَّني الشيطان. والخبر مستعمل في الدعاء والشكاية، كقوله { رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا } [آل عمران:36]، وقد قال في سورة الأنبياء { أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [الأنبياء:83]

النُصْب: (بضم النون وسكون الصاد): المشقة والتعب، وهي لغة في نَصب (بفتحتين)، وتقدّم النصب في [الكهف:62].

العذاب: الألم. والمراد به المرض. كما في الآية الأخرى { أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ } [الأنبياء:83].

وظاهر إسناد المس بالنصب والعذاب إلى الشيطان أنّ الشيطان مس أيوب بهما. أي: أصابه بهما حقيقة مع أنّ النصب والعذاب هما الماسان أيوب، ففي سورة الأنبياء[83] {أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ} فأسند المس إلى الضر، والضر هو النصب والعذاب.

وترددت أفهام المفسرين في معنى إسناد المس بالنصب والعذاب إلى الشيطان، فإنّ الشيطان لا تأثير له في بني آدم بغير الوسوسة كما هو مقرّر من مكرر آيات القرآن وليس النصب والعذاب من الوسوسة ولا من آثارها. وتأوّلوا ذلك على أقوال تتجاوز العشرة وفي أكثرها سماجة، وكلّها مبني على حملهم الباء في قوله تعالى { بِنُصْبٍ } على أنّها باء التعدية، لتعدية فعل { مَسَّنِيَ } ،أو باء الآلة مثل: ضربه بالعصا، أو يؤول

النصب والعذاب إلى معنى المفعول الثاني من باب أعطى.

والوجه عندي: أن تُحمل الباء على معنى السببية بجعل النصب والعذاب مُسبَبين لمس الشيطان إيّاه، أي: مسني بوسواس سببه نصب وعذاب، فجعل الشيطان يوسوس إلى أيوب بتعظيم النصب والعذاب عنده ويلقي إليه أنّه لم يكن مستحقا لذلك العذاب ليُلقي في نفس أيوب سوء الظن بالله أو السخط من ذلك.

أو نحمل الباء على المصاحبة، أي مسني بوسوسة مصاحبة لضر وعذاب، ففي قول أيوب { أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ } كناية لطيفة عن طلب لطف الله به ورفع النصب والعذاب عنه بأنّهما صارا مدخلا للشيطان إلى نفسه فطلب العصمة من ذلك على نحو قول يوسف عليه السلام { وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [يوسف:33].

{ **ارْكُضْ بِرِجْلِكَ** } مقولة لقول محذوف، أي: قلنا له اركض برجلك، وذلك إيذان بأن هذا استجابة لدعائه.

الركض: الضرب في الأرض بالرجل، فقوله { بِرِجْلِكَ } زيادة في بيان معنى الفعل مثل { وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ } [الأنعام:38]، وقد سَمَّى الله ذلك استجابة في [الأنبياء:84] { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ }.

{ **هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ** } جملة مقولة لقول محذوف دلّ عليه المقول الأول، وفي الكلام حذف دلت عليه الإشارة. فالتقدير: فركض الأرض فنبع ماء فقلنا له: هذا مغتسل بارد وشراب.

{ **هَذَا** } إشارة إلى ماء، لأنّه الذي يغتسل به ويشرب.

{ **بَارِدٌ وَشَرَابٌ** } وصْف الماء بذلك في سياق الثناء عليه، مشير إلى أنّ ذلك الماء فيه شفاؤه إذا اغتسل به وشرب منه، ليتناسب قول الله له مع ندائه ربه، لظهور أنّ القول عقب النداء هو قول استجابة الدعاء.

{ **مُغْتَسَلٌ** } اسم مفعول من فعل اغتسل، أي: مغتسل به، فهو على حذف حرف الجر.

{ **بَارِدٌ** } إيماء إلى أنّ به زوال ما بأيوب من الحمى من القروح. قال النبي صلى الله عليه وسلم: **" الحمى من فيح جهنم فأطفئوها بالماء "**.

{ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [43]

اقتصار أيوب في دعائه على التعريض بإزالة النُّصب والعذاب يُشعر بأنّه لم يصب بغير الضر في بدنه.

ويحتمل أن يكون قد أصابه تلف المال وهلاك العيال كما جاء في كتاب أيوب من كتب اليهود، فيكون اقتصاره على النصب والعذاب في دعائه لأنّ في هلاك الأهل والمال نصبا وعذابا للنفس.

ولم يتقدّم في هذه الآية ولا في آية سورة الأنبياء أنّ أيوب رُزِئَ أهله فيجوز أن يكون معنى { وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ } أنّ الله أبقى له أهله فلم يصب فيهم بما يكره وزاده بنين وحفدة.

ويكون فعل { وَهَبْنَا } مستعملا في حقيقته ومجازه. ويؤيد هذا المحمل وقوع كلمة { مَعَهُمْ } عقب كلمة

{وَمِثْلَهُمْ }، فإنّ (مع) تشعر بأنّ الموهوب لاحق بأهله ومزيد فيهم.
وليس في الأخبار الصحيحة ما يخالف هذا إلّا أقوالا عن المفسرين ناشئة عن أفهام مختلفة.
وتقدم نظير هذه الآية في قوله { وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ } [الأنبياء:84].
وما بين الآيتين من تغيير يسير هو مجرّد تفنّن في التعبير لا يقتضي تفاوتا في البلاغة.
وأمّا ما بينهما من مخالفة في قوله هنا { وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ } وقوله في الأنبياء { وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ }،
فأمّا قوله هنا { وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ } فإنّ الذكرى هي التذكير بما خفي أو بما يخفى، وأولوا الألباب هم أهل العقول، أي: تذكرة لأهل النظر والاستدلال. فإنّ في قصّة أيوب ما إذا سمعه العقلاء المعتبرون بالحوادث والقائسون على النظائر استدلوا على أنّ صبره قدوة لكل من هو في حرج و ينتظر الفرج.
فلمّا كانت قصص الأنبياء في هذه السورة مسوقة للاعتبار بعواقب الصابرين وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمون مأمورين بالاعتبار بها حُقَّ أن يشار إليهم بـ { لِأُولِي الْأَلْبَابِ }.
وأمّا الذي في سورة الأنبياء فإنّه جيء بأيوب عليه السلام شاهدا على أنّ النبوّة لا تنافي البشرية وأنّ الأنبياء تعتريهم من الأحداث ما يعتري البشر مما لا يُنقص منهم في نظر العقل والحكمة، وأنّهم إنّما يقومون بأمر الله، وأنّهم معرّضون لأذى الناس ممّا لا يخلّ بحرمتهم الحقيقية، وذُكر من الأنبياء من ابتلي من قومه فصبر، وكيف كانت عاقبة صبرهم واحدة مع اختلاف الأسباب الداعية إليه. فكانت في ذلك آيات للعابدين، أي: الممتثلين أمر الله المجتنبين نهيه، فإنّ ممّا أمر به الله الصبر على ما يلحق المرء من ضر لا يستطيع دفعه، لكون دفعه خارجا عن طاقته، فختم بخاتمة { وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ }.

{ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } [44]

{ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ } مقول لقول محذوف دلّت عليه صيغة الكلام، والتقدير: وقلنا خذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث، وهو قول غير القول المحذوف في قوله { ارْكُضْ بِرِجْلِكَ } [42]، لأنّ ذلك استجابة دعوة وهذا إفتاء برخصة، وذلك له قصته، وهذا له قصة أخرى أشارت إليها الآية إجمالا ولم يرد في تعيينها أثر صحيح ومجملها:
أنّ زوج أيوب حاولت عملا ففسد عليه صبره من استعانة ببعض الناس على مواساته، فلمّا علم بذلك غضب وأقسم ليضربنّها عددا من الضرب، ثم ندّم وكان محبًّا لها، وكانت لائذة به في مدّة مرضه، فلما سرّي عنه أشفق على امرأته من ذلك، ولم يكن في دينهم كفارة اليمين، فأوحى الله إليه أن يضربها بحزمة فيها عدد من الأعواد بعدد الضربات التي أقسم عليها، رفقا بزوجه لأجله، وحفظا ليمينه من حنثه، إذ لا يليق الحنث بمقام النبوة. وليست هذه القضية ذات أثر في الغرض وإنما ذكرت هنا تكملة لمظهر لطف الله بأيوب.

ومعاني الآية ظاهرة في أنّ هذا الترخيص رفق بأيوب، وأنّه لم يكن مثله معلوما في الدين الذي يدين به أيوب، فهو رخصة لا محالة في حكم الحنث في اليمين.

فجاء علماؤنا ونظروا في الأصل المقرّر في المسألة المفروضة في أصول الفقه وهي: أن شرع من قبلنا هل هو شرع لنا إذا حكاه القرآن أو السنة الصحيحة، ولم يكن في شرعنا ما ينسخه من نص أو أصل من أصول الشريعة الإسلامية.

فأمّا الذين لم يروا أن شرع من قبلنا شرع لنا وهم أبو بكر الباقلاني من المالكية وجهور الشافعية وجميع الظاهرية فشأنهم في هذا ظاهر.

وأمّا الذين أثبتوا أصل الاقتداء بشرع من قبلنا بقيوده المذكورة وهم مالك وأبو حنيفة والشافعي فتخطّوا للبحث في أنّ هذا الحكم الذي في هذه الآية هل يُقرَّر مثله في فقه الإسلام في الإفتاء في الأيمان وهل يُتعدَّى به إلى جعله أصلا للقياس في كل ضرب يتعيّن في الشرع له عدد، إذا قام في المضروب عذر يقتضي الترخيص بعد البناء على إثبات القياس على الرخص؟

فأمّا في الإيمان فقد كفانا الله التكلّف بأن شرع لنا كفارات الأيمان. وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **إنّي والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلّا كفرت عن يميني وفعلت الذي هو خير"** ، فصار ما في شرعنا ناسخا لما شُرع لأيوب فلا حاجة إلى الخوض فيها.

وأمّا القياس على فتوى أيوب في كل ضرب معين بعدد، أي: في باب الحدود والتعزيرات فهو تطوّح في القياس لاختلاف الجنس بين الأصل والفرع، ولاختلاف مقصد الشريعة من الكفارات ومقصدها من الحدود والتعزيرات، ولترتّب المفسدة على إهمال الحدود والتعزيرات دون الكفارات. ولا شك أنّ مثل هذا التسامح في الحدود يفضي إلى إهمالها ومصيرها عبثا.

{ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** } علة لجملة { ارْكُضْ بِرِجْلِكَ } وجملة { وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ }، أي: أنعمنا عليه بجبر حاله لأنّا وجدناه صابرا على ما أصابه. فكانت (إِنْ) مغنية عن فاء التفريع.

{ **وَجَدْنَاهُ** } أنّه ظهر في صبره ما كان في علم الله منه.

{ **نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** } مثل قوله في سليمان { نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } [30]، فكان سليمان أوَّابا لله من فتنة الغنى والنعيم، وأيوب أوَّابا لله من فتنة الضر والاحتياج، وكان الثناء عليهما متماثلا لاستوائهما في الأوبة وإن اختلفت الدواعي. قال سفيان: " أثنى الله على عبدين ابتليا: أحدهما صابر، والآخر شاكر، ثناء واحدا. فقال لأيوب ولسليمان {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } ".

{ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ [45] إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ [46] وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ [47] }.

القول فيه كالقول في نظائره لغة ومعنى. وذِكْر هؤلاء الثلاثة ذكر اقتداء وائتساء بهم:

فأمّا إبراهيم عليه السلام فيما عرف من صبره على أذى قومه، وإلقائه في النار، وابتلائه بتكليف ذبح ابنه.

وأمّا ذكر إسحاق ويعقوب فاستطراد بمناسبة ذكر إبراهيم، ولما اشتركا به من الفضائل مع أبيهما التي يجمعها اشتراكهم في معنى قوله { أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ } ليقتدي النبيّ صلى الله عليه وسلم بثلاثتهم في القوّة في إقامة الدين والبصيرة في حقائق الأمور.

وابتدئ بإبراهيم لتفضيله بمقام الرسالة والشريعة، وعطف عليه ذكر ابنه وعطف على ابنه ابنه يعقوب.

الأيدي: جمع يد بمعنى القوّة في الدين. كقوله تعالى { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ } [الذاريات:47].

الأبصار: جمع بصر بالمعنى المجازي، وهو النظر الفكري المعروف بالبصيرة، أي: التبصُّر في مراعاة أحكام الله تعالى وتوخِّي مرضاته.

{ **إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ** } علّة للأمر بذكرهم لأنّ ذكرهم يكسب الذاكر الاقتداء بهم في إخلاصهم ورجاء الفوز بما فازوا به من الاصطفاء والأفضلية في الخير.

{ **أَخْلَصْنَاهُمْ** } جعلناهم خالصين، فالهمزة للتعدية، أي: طهَّرناهم من درن النفوس فصارت نفوسهم نقيّة من العيوب العارضة للبشر، وهذا الإخلاص هو معنى العصمة اللازمة للنبوّة.

العصمة

قوّة يجعلها الله في نفس النبيّ تصرفه عن فعل ما هو في دينه معصية لله تعالى عمدا أو سهوا، وعمّا هو موجب للنفرة والاستصغار عند أهل العقول الراجحة من أمّة عصره.

ومبدأ العصمة هو الوحي الإلهي بالتحذير ممّا لا يرضي الله وتخويف عذاب الآخرة وتحبيب نعيمها، فتحدث في نفس النبيّ شدّة الحذر من المعصية وحب الطاعة، ثم لا يزال الوحي يتعهّده ويوقظه ويجنِّبه الوقوع فيما نُهي عنه فلا يلبث أن تصير العصمة ملكة للنبيّ يكره بها المعاصي، فأصل العصمة هي منتهى التقوى التي هي ثمرة التكليف، وبهذا يمكن الجمع بين:

قول أصحابنا: " العصمة عدم خلق المعصية مع بقاء القدرة على المعصية ".

وقول المعتزلة: " إنّها ملكة تمنع عن إرادة المعاصي ".

فأصحابنا نظروا إلى المبدأ والمعتزلة نظروا إلى الغاية، وبه يظهر أيضا أنّ العصمة لا تنافي التكليف وترتّب المدح على الطاعات.

وأركان العصمة أربعة:

الأول: خاصية للنفس يخلقها الله تعالى تقتضي ملكة مانعة من العصيان.

الثاني: حصول العلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات.

الثالث: تأكيد ذلك العلم بتتابع الوحي والبيان من الله تعالى.

الرابع: العتاب من الله على ترك الأولى وعلى النسيان.

{ **أَخْلَصْنَاهُمْ** } وإسناد الإخلاص إلى الله تعالى لأنّه أمر لا يحصل للنفس البشرية إلّا بجعل خاص من الله تعالى وعناية لدنية بحيث تُنزع من النفس غلبة الهوى في كل حال، وتُصرف النفس إلى الخير المحض فلا تبقى في النفس إلّا نزعات خفيفة تقلع النفس عنها سريعا بمجرد خطورها، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

" إنّي ليُغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة ".

{ **بِخَالِصَةٍ** } الباء للسببية تنبيها على سبب عصمتهم. وعُبِّر عن هذا السبب تعبيرا مجملا تنبيها على أنّه أمر عظيم دقيق لا يُتصور بالكنه ولكن يُعرف بالوجه، ولذلك استُحضر هذا السبب بوصف مشتق من فعل {أَخْلَصْنَاهُمْ }.

الذكرى: اسم مصدر يدلّ على قوة معنى المصدر.

الدار: هي المعهودة لأمثالهم: الدار الآخرة، أي: بحيث لا ينسون الآخرة ولا يقبلون على الدنيا، فالدار التي هي محل عنايتهم هي الدار الآخرة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **" فأقول ما لي وللدنيا ".**

{ **بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ** } إشارة إلى أنّ مبدأ العصمة هو الوحي الإلهي بالتحذير ممّا لا يرضي الله وتخويف عذاب الآخرة وتحبيب نعيمها.

<u>ويجوز</u> أن يكون { ذِكْرَى } مرادف الذِكر (بكسر الذال)، أي: الذكر الحسن، كقوله تعالى { وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً } [مريم:50]، وتكون { الدَّارِ } هي الدار الدنيا.

{ **وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ** } لأنه ممّا يبعث على ذكرهم بأنّهم اصطفاهم الله من بين خلقه فقرَّبهم إليه وجعلهم أخيارا.

{ **الْأَخْيَارِ** } جمع خيِّر (بتشديد الياء)، أو جمع خير (بتخفيفها) مثل الأموات جمعا لميِّت ومَيْت، وكلتا الصيغتين تدل على شدة الوصف في الموصوف.

{ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ } [48]

فُصل ذكر إسماعيل عن أبيه إبراهيم وأخيه إسحاق لأنّه كان جدّ الأمة العربية، أي: معظمها، فإنّه أبو العدنانيين. وجدّ للأم لمعظم القحطانيين، لأنّ زوج إسماعيل جُرْهُمِيّة.

وأمّا قرن ذكره بذكر أليسع وذي الكفل بعطف اسميهما على اسمه فوجهه دقيق في البلاغة وليس يكفي في توجيهه ما تضمّنه قوله { وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ }، لأن التماثل في الخيرية ثابت لجمع الأنبياء والمرسلين.

فإنّ شرط قبول العطف بالواو أن يكون بين المعطوف والمعطوف عليه جامع عقلي أو وهمي أو خيالي.

فبنا أن نطلب الدقيقة التي حسَّنت في هذه الآية عطف اليسع وذي الكفل على إسماعيل.

فأمّا عطف **الْيَسَعَ** على إسماعيل فلأن اليسع كان مقامه في بني إسرائيل كمقام إسماعيل في بني إبراهيم، لأنّ اليسع كان بمنزلة الابن للرسول إلياس (إيليا)، وكان إلياس يدافع ملوك يهودا وملوك إسرائيل عن عبادة الأصنام، وكان اليسع في إعانته كما كان إسماعيل في إعانة إبراهيم. وتقدّم ذكره في [الأنعام:86]

وأما عطف **ذي الكفل** على إسماعيل فلأنّه مماثل لإسماعيل في صفة الصبر، قال الله تعالى { وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ } [الأنبياء:85]. وتقدّمت ترجمة ذي الكفل في آية الأنبياء.

{ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ } تنوين { كُلٌّ } عوض عن المضاف إليه، أي: وكل أولئك الثلاثة من الأخيار.

{ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ [49] جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ [50] مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ [51] وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ [52] }.

{ هَذَا ذِكْرٌ } جملة فصلت الكلام السابق عن الكلام الآتي بعدها قصدا لانتقال الكلام من غرض إلى غرض.

وهذا الأسلوب من الانتقال هو المسمَّى في عرف علماء الأدب بالاقتضاب.

والمقصود التذكّر والاقتداء، مع إرادة التوجيه بلفظ { ذِكْرٌ } بتحميله معنى حسن السمعة.

{ هَذَا } يجوز أن تكون الإشارة إلى القرآن، أي: القرآن ذكر، فتكون الجملة استئنافا للتنويه بشأن القرآن.

{ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ } يجوز أن تكون الواو للعطف الذكري، أي: انتهى الكلام السابق بقولنا {هَذَا} ونعطف عليه.

ويجوز أن تكون واو الحال. واللام لام الاختصاص، أي: لهم حسن مآب يوم الجزاء.

{ وَحُسْنَ مَآبٍ } تقدّم سابقا.

{ جَنَّاتِ عَدْنٍ } انتصب على البيان من { وَحُسْنَ مَآبٍ }. و**العدن**: الخلود.

{ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ } حال من { جَنَّاتِ عَدْنٍ }. والتقدير: أبوابها. وتفتيح الأبواب كناية عن التمكين من الانتفاع بنعيمها، لأنّ تفتيح الأبواب يستلزم الإذن بالدخول وهو يستلزم التخلية بين الداخل وبين الانتفاع.

{ **مُتَّكِئِينَ فِيهَا** } انتصب على الحال من { لِلْمُتَّقِينَ } وهي حال مقدّرة. وتقدّم قريب منه في [يس:56].
{ **يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ** } يأمرون بأن يُجلب لهم، يقال: دعا بكذا، أي: سأل ان يُحضر له.
قال تعالى { لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ } [يس:57].
الشراب: اسم للمشروب، وغلب إطلاقه على الخمر إذا لم يكن في الكلام ذكر للماء، كقوله آنفا { هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ } [42]. وتنوين { شَرَابٍ } للتعظيم، أي: شراب نفيس في جنسه.
{ **وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ** } أي نساء قاصرات النظر. وقصر الطرف توجيهه إلى منظور غير متعدّد.
فيجوز أن يكون المعنى: أنّهنّ قاصرات أطرافهن على أزواجهن. أي: لا يوجهن أنظارهن إلى غيرهم، وذلك كناية عن المحبّة.
ويجوز أن يكون المعنى: أنّهن يقصرن أطراف أزواجهن عليهن فلا تتوجّه أنظار أزواجهن إلى غيرهن اكتفاء منهم بحسنهن، وذلك كناية عن تمام الحسن. وإسناد { قَاصِرَاتُ } إليهن مجاز عقلي، لأنّ الأطراف المقصورة أطراف أزواجهن.
{ **أَتْرَابٌ** } جمع تِرْب (بكسر التاء وسكون الراء)، وهو اسم لمن كان عمره مساويا عمر من يضاف إليه، تقول: هو ترب فلان، وهي ترب فلانة، ولا تلحق لفظ ترب علامة تأنيث. والمراد: أنّهنّ أتراب بعضهن لبعض، وأنّهنّ أتراب لأزواجهن. وتقدّم قوله تعالى { وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ } [الصافات:48].

{ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ } [53]

استئناف ابتدائي، فيجوز أن يكون كلاما قيل للمتقين وقت نزول الآية، فهو مؤكّد لمضمون جملة { وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ } [49].
{ **هَذَا** } الإشارة إلى ما سبق ذكره من قوله { لَحُسْنَ مَآبٍ }، وجيء باسم الإشارة القريب تنزيلا للمشار إليه منزلة الحاضر إيماء إلى أنّه محقَّق وقوعه، تبشيرا للمتقين. فالإشارة إذن إلى ما هو مشاهد عندهم من النعيم.
ويجوز أن يكون كلاما يقال للمتقين في الجنة، فتكون الجملة مقول قول محذوف هو في محل حال ثانية من (المتقين). والتقدير: مقولا لهم: هذا ما توعدون ليوم الحساب.
والقول: إمّا من الملائكة مثل قوله تعالى { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل:32]، وإمّا من جانب الله تعالى نظير قوله لضدّهم { وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } [آل عمران:181].
{ **لِيَوْمِ الْحِسَابِ** } اللام لام العلة، أي: وعدتموه لأجل يوم الحساب. فلما كان الحساب مؤذنا بالجزاء جعل اليوم هو العلة. وهذه اللام تفيد معنى التوقيت تبعا كقوله تعالى { أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } [الإسراء:78] تنزيلا للوقت منزلة العلة. ولذلك قال الفقهاء: أوقات الصلوات أسباب.

{ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ } [54]

يجري محمل اسم الإشارة هذا على الاحتمالين المذكورين في الكلام السابق. والتوكيد بـ { إنّ } للاهتمام.

والعدول عن الضمير إلى اسم الإشارة لكمال العناية بتمييزه وتوجيه ذهن السامع إليه.

{ **لَرِزْقُنَا** } أطلق على النعمة كما في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لو أنّ أحدهم قال حين يضاجع أهله: اللهم جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا ثم ولد لهما ولد لم يمسه شيطان أبدا "** فسمّى الولد رزقا.

النفاد: الانقطاع والزوال.

{ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ [55] جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ [56] }.

{ **هَذَا** } اسم الإشارة مستعمل في الانتقال من غرض إلى غرض تنهية للغرض الذي قبله. والتقدير: هذا شأن المتقين، أو هذا الشأن، أو هذا كما ذكر.

الطاغي: الموصوف بالطغيان، وهو مجاوزة الحد في الكبر والتعاظم. والمراد بهم عظماء أهل الشرك لأنّهم تكبّروا بعظمتهم على قبول الإسلام، وأعرضوا عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بكبر واستهزاء، وحكموا على عامة قومهم بالابتعاد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين وعن سماع القرآن، وهم: أبو جهل، وأمية بن خلف، وعتبة ابن ربيعة، والوليد بن عتبة، والعاصي بن وائل وأضرابهم.

{ **يَصْلَوْنَهَا** } حال من { جَهَنَّمَ }، وهي حال مؤكّد لمعنى اللام الذي هو عامل في { لِلطَّاغِينَ }، فإنّ معنى اللام أنّ جهنّم تختصّ بهم، واختصاصها بهم هو ذوق عذابها لأنّ العذاب ذاتي لجهنّم.

{ **فَبِئْسَ الْمِهَادُ** } الفاء لترتيب الإخبار وتسبّبه على قبله، نظير عطف الجمل بـ (ثم)، وهذا استعمال بديع كثير في القرآن وهو يندرج في استعمالات الفاء العاطفة.

وعبر عن جهنّم بـ { الْمِهَادُ } على وجه الاستعارة، شبه ما هم فيه من النار من تحتهم بالمهاد وهو فراش النائم، كقوله تعالى { لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ } [الأعراف:41].

{ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ [57] وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ [58] }.

اسم الإشارة هنا جار على غالب مواقعه، وهو نظير قوله { هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ } [53].

وإشارة القريب لتقريب الإنذار، والمشار إليه ما تضمّنه قوله تعالى { جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا } [56]، من الصلي ومن معنى العذاب، أو الإشارة إلى شرّ من قوله تعالى { لَشَرَّ مَآبٍ } [55].

{ **فَلْيَذُوقُوهُ** } جملة معترضة بين اسم الإشارة والخبر عنه، وهذا من الاعتراض المقترن بالفاء دون الواو.
{ **حَمِيمٌ** } خبر عن اسم الإشارة. ومعنى الجملة في معنى بدل الاشتمال، لأنّ شر المآب أو العذاب مشتمل على الحميم والغساق وغيره من شكله، والمعنى: أن ذلك لهم لقوله { وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ } [صّ:55].
الحميم: الماء شديد الحرارة.
الغساق: قرأه الجمهور بتخفيف السين. وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتشديدها. قيل هما لغتان وقيل: غسَّاق بالتشديد مبالغة في غسَاق بمعنى سائل، فهو على هذا وصف لموصوف محذوف.
الغسَّاق: سائل يسيل في جهنم، يقال: غَسَق الجرح، إذا سال منه ماء أصفر. واحسب أنّ هذا الاسم بهذا الوزن أطلقه القرآن على سائل كريه يُسْقَونه كقوله تعالى { بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ } [الكهف:29]. وأحسب أنه لم تكن هذه الزنة من هذه المادة معروفة عند العرب، وهذا سبب اختلاف المفسرين في المراد منه. والأظهر: أنّه صيغ له هذا الوزن ليكون اسما لشيء يشبه ما يغسِق به الجرح، ولذلك سمي بالمهل والصديد في آيات أخرى.
{ **وَآخَرُ** } صفة لموصوف محذوف دلّت عليه الإشارة بقوله { هَذَا }، وهو يدلّ على مغاير.
{ **مِنْ شَكْلِهِ** } يدلّ على أنّه مغاير له بالذات وموافق في النوع، فحصل أنّه عذاب آخر أو مذوق آخر.
الشَّكل: (بفتح الشين) المِثل، أي: المماثل في النوع، أي: وعذاب آخر غير ذلك الذي ذاقوه من الحميم والغساق هو مثل ذلك المشار إليه أو مثل ذلك الذوق في التعذيب والألم.
الأزواج: جمع زوج بمعنى النوع والجنس، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } [الرعد:3]. أي: وعذاب آخر هو أزواج أصناف كثيرة.

{ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ } [59]

ابتداء كلام حُكي به تخاصم المشركين في النار فيما بينهم إذا دخلوها، كما دلّ عليه قوله تعالى في آخره { إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ }، وبه فسّر قتادة وابن زيد، وجريانه بينهم ليزدادوا مقتا بأن يضاف إلى عذابهم الجسماني عذاب أنفسهم برجوع بعضهم على بعض بالتنديم وسوء المعاملة.
وأسلوب المقاولة يقتضي أن المتكلِّم به هم الطاغون الذين لهم شرّ المآب، لأنّهم أساس هذه القضية، فالتقدير: يقول الطاغون بعضهم لبعض: هذا فوج مقتحم معكم، أي: يقولون مشيرين إلى فوج من أهل النار أقحم فيهم ليسوا من أكفائهم ولا من طبقتهم وهم فوج الأتباع من المشركين الذين اتبعوا الطاغين في الحياة الدنيا، وذلك ما دل عليه قولهْ { أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا } [60]، أي: أنتم سبب إحضار هذا العذاب لنا.

وهو الموافق لمعنى نظائره في القرآن، كقوله تعالى { كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا - إلى قوله - بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } [الأعراف:39/38]، وقوله تعالى { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا } [البقرة:166]، وقوله تعالى { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ } [الصافات:27]. وأوضح من ذلك كلّه قوله تعالى في آخر هذه الآية { إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ } [64].

{ **هَذَا فَوْجٌ** } إلى آخرها مقول القول المحذوف.

الفوج: الجماعة العظيمة من الناس، وتقدّم في قوله تعالى { وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً } [النمل:83].

الاقتحام: الدخول في الناس، و(مع) مؤذنة بأنّ المتكلّمين متبوعون، وأنّ الفوج المقتحم أتباع لهم، فأدخلوا فيهم مدخل التابع مع المتبوع بعلامات تشعر بذلك.

{ **لا مَرْحَباً بِهِمْ** } معترضة مستأنفة لإنشاء ذم الفوج. نفي لكلمة يقولها المزور لزائره وهي إنشاء دعاء للوافد. أي: أتيت رحبا، أي: مكانا ذا رحب، فإذا أرادوا كراهية الوافد والدعاء عليه قالوا: لا مرحبا به.

وإنّما قالوا ذلك لأنّهم كرهوا أن يكونوا هم وأتباعهم في مكان واحد، جريا على خلق جاهليتهم من الكبرياء واحتقار الضعفاء.

{ **إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ** } خبر ثان عن اسم الإشارة، والخبر مستعمل في التضجّر منهم، أي: أنّهم مضايقوننا في مضيق النار، كما أومأ إليه قولهم تعالى { مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ }.

{ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ } [60]

فسَمِعَهم الأتباع، فيقولون { بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ } إضرابا عن كلامهم. وجيء بحكاية قولهم على طريقة المحاورات فلذلك جُرّد من حرف العطف، أي: أنتم أولى بالشتم والكراهية، لأنّكم الذين تسبّبتم لأنفسكم ولنا في هذا العذاب بإغرائكم إيّانا على التكذيب والدوام على الكفر.

{ **بَلْ** } للإضراب الإبطالي لردّ الشتم عليهم وأنّهم أولى به منهم.

{ **أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا** } علّة لقلب الشتم إليهم، أي: لأنكم قدمتم العذاب لنا.

{ **قَدَّمْتُمُوهُ** } ضمير النصب عائد إلى العذاب المشاهد، وهو حاضر في الذهن غير مذكور في اللفظ، ووقوع { أَنْتُمْ } قبل { قَدَّمْتُمُوهُ } المسند الفعلي يفيد الحصر، أي: لم يضلّنا غيركم، فأنتم أحقّاء بالعذاب.

التقديم: جعل الشيء قدام غيره، قال { ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ } [آل عمران:182/181].

وإسناد تقديم العذاب إلى المخاطبين مجاز عقلي لأنّ الرؤساء كانوا سببا في تقديم العذاب لأتباعهم بإغوائهم وكان العذاب جزاء عن الغواية. وجعل العذاب مقدّما وإنّما المقدّم العمل الذي استحق العذاب، وهذا مجاز عقلي في المفعول، فاجتمع في قوله تعالى { قَدَّمْتُمُوهُ } مجازان عقليان.

{ **فَبِئْسَ الْقَرَارُ** } موقعه كموقع قوله آنفا { فَبِئْسَ الْمِهَادُ } [56]. وهو ذم لإقامتهم في جهنم، تشنيعا عليهم فيما تسبَّبوا لأنفسهم فيه. والمعنى: فبئس القرار ما قدمتموه لنا، أي: العذاب.

القرار: المكث.

{ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ } [61]

{ **قَالُوا** } أي: الفوج المقتحم، وهو فوج الأتباع. أعيد فعل القول تأكيدا للفعل الأوّل لقصد تأكيد فاعل القول تبعا لأنّه محتمل لضمير القائلين. وأمّا تجريد فعل { قَالُوا } عن العاطف فلأنّه قصد به التوكيد اللفظي والتوكيد اللفظي على مثال المؤكَّد.

{ **مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا** } تحذير كبراء المشركين من عواقب رئاستهم وزعامتهم التي يجرُّون بها الويلات على أتباعهم فيوقعونهم في هاوية السوء حتّى لا يجد الأتباع لهم جزاء بعد الفوت إلّا طلب مضاعفة العذاب لهم.

{ **فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ** } خبر عن { مَنْ }، واقتران الخبر بالفاء جرى على معاملة الموصول معاملة الشرط في قرن خبره بالفاء وهو كثير، وتقدّم عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [التوبة:34].

الضِعف: (بكسر الضاد) تستعمل اسم مصدر ضعّف وضاعف، فهم اسم التضعيف والمضاعفة، أي: تكرير المقدار وتكرير القوّة. ويستعمل اسما بمعنى الشيء المضاعف.

{ وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ [62] أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ [63] }.

عطف على { هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ } [59]، فهذا من قول الطاغين فإنّهم كانوا يحقِّرون المسلمين.

{ **مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً** } استفهام يلقيه بعضهم لبعض تلهُّفا على عدم رؤيتهم من عرفوهم من المسلمين، مُكنًّى به عن ملام بعضهم لبعض على تحقيرهم المسلمين واعترافهم بالخطأ في حسبانهم. فليس الاستفهام حقيقيا ناشئا عن ضنّ أنّهم يجدون رجال المسلمين معهم، إذ لا يخطر ببال الطاغين أن يكون رجال المسلمين معهم. ويجوز أن يكون حقيقيا، استفهموا عن مصير المسلمين لأنّهم لا يرونهم يومئذ.

{ **الْأَشْرَارِ** } جمع شرّ الذي هو بمعنى الأشرّ، مثل الأخيار جمع خير بمعنى الأَخْيَر، أو هو: جمع شرير ضد الخيِّر، أي: الموصوفين بشر الحالة، أي: كنا نحسبهم أشقياء قد خسروا لذة الحياة بإتباعهم الإسلام .

{ **أَتَّخَذْنَاهُمْ** } قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم بهمزة قطع هي همزة الاستفهام، وحذفت همزة الوصل

من فعل (اتخذنا) لأنّها لا تثبت مع همزة الاستفهام لعدم صحة الوقف على همزة الاستفهام. والجملة بدل من جملة { مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً }.

{ **أم** } حرف إضراب، والتقدير: بل زاغت عنهم أبصارنا.

الزيغ: الميل عن الجهة، أي: مالت أبصارنا عن جهتهم فلم تنظرهم.

{ **الْأَبْصَارُ** } التعريف عوض عن المضاف إليه، أي: أبصارنا.

السخريّ: اسم مصدر سَخِر منه، إذا استهزأ به، فالسخريّ الاستهزاء، وهو دال على شدّة الاستهزاء لأنّ ياءه في الأصل ياء نسب وياء النسب تأتي للمبالغة في الوصف.

{ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ } [64]

تذييل وتنهية لوصف حال الطاغين وأتباعهم، وعذابهم، وجدالهم.

{ **إِنَّ** } تأكيد الخبر منظور فيه لما يلزم الخبر من التعريض بوعيد المشركين وإثبات حشرهم وجزائهم بأنّه حق، أي: ثابت، كقوله تعالى { وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ } [الذريات:6].

{ **ذَلِكَ** } الإشارة إلى ما حُكي عنهم من المقاولة. وسُمِّيت المقاولة تخاصما، أي: تجادلا، وإن لم تقع بينهم مجادلة، فإنّ الطاغين لم يجيبوا الفوج على قوله { بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ } [60]، ولكن لمّا اشتملت المقاولة على ما هو أشد من الجدال وهو قول كل فريق للآخر {لا مَرْحَباً بِكُمْ } كان الذمّ أشد من المخاصمة، فأطلق عليه اسم التخاصم حقيقة. وتقدّم ذكر الخصام عند قوله تعالى { هَذَانِ خَصْمَانِ } [الحج:19].

{ **تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ** } أضيف هذا التخاصم إلى أهل النار كلّهم اعتبارا لغالب أهلها، لآنّ غالب أهل النار أهل الضلالات الاعتقادية وهم لا يعدون أن يكونوا دعاة للضلال أو أتباعا للدعاة إليه، فكلّهم يجري بينهم هذا التخاصم. والجملة استئناف لزيادة بيان مدلول اسم الإشارة، أو هو مرفوع على أنّه خبر ثان عن { إِنَّ }، أو على بدل من { لَحَقٌّ }.

{ **أَهْلِ النَّارِ** } هم الخالدون فيها، كقولهم: أهل قرية كذا.

{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [65] رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ [66] }.

هذا راجع إلى قوله تعالى { وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ - إلى قوله - أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا } [4-8] فلما ابتدرهم الجواب على ذلك التكذيب بأن نظّر حالهم بحال الأمم المكذِّبة من قبلهم، وتنظّير حال الرسول

صلى الله عليه وسلم بحال الأنبياء الذين صبروا، واستوعب ذلك بما فيه مقنع، عاد الكلام إلى تحقيق مقام الرسول صلى الله عليه وسلم من قومه فأمره الله أن يقول:

{ **إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ** } مقابل قولهم { هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ } [4].

{ **وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ** } مقابل إنكارهم التوحيد كقولهم { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً } [5].

{ **الْوَاحِدُ** } ذكر هذه الصفة تأكيد لمدلول { مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ }، إماء إلى ردّ إنكارهم.

{ **الْقَهَّارُ** } ذكر هذه الصفة تعريض بتهديد المشركين بأن الله قادر على قهرهم، أي: غلبهم.

وتقدم الكلام على **القهر** عند قوله تعالى { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } [الأنعام:18].

{ **رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** } تصريح بعموم ربوبيّته وأنّه لا شريك له في شيء منها.

{ **الْعَزِيزُ** } تمهيد للوصف بـ { **الْغَفَّارُ** } ،أي: الغفّار عن عزّة ومقدرة لا عن عجز وملق أو مراعاة جانب.

والمقصود استدعاء المشركين إلى التوحيد بعد تهديدهم بمفاد وصف { الْقَهَّارُ } لكي لا ييأسوا من قبول التوبة بسبب كثرة ما سيق إليهم من الوعيد، جريا على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس.

{ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ [67] أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ [68] مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ [69] إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ [70] }.

يجوز أن تكون الجملة في موقع الاستئناف الابتدائي انتقالا من غرض وصف أحوال أهل المحشر إلى غرض قصة خلق آدم وشقاء الشيطان، فيكون ضمير { **هُوَ** } ضمير شأن يفسّره ما بعده.

جعل هذا كالمقدمة للقصة تشويقا لتلقيها فيكون المراد { **نَبَأٌ عَظِيمٌ** } نبأ خلق آدم وما جرى بعده، ويكون ضمير { يَخْتَصِمُونَ } عائدا إلى الملأ الأعلى لأنّ الملأ جماعة. ويراد بـ { **يَخْتَصِمُونَ** } الاختلاف الذي جرى بين الشيطان وبين من بلغ إليه من الملائكة أمر الله بالسجود لآدم، فالملائكة هم الملأ الأعلى، وكان الشيطان بينهم فعُدّ منهم قبل أن يطرد من السماء.

ويجوز أن تكون الجملة تذييلا للذي سبق من قوله { وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ } [49] إلى هنا، تذييلا يشعر بالتنويه به وبطلب الإقبال على التدبّر فيه والاعتبار به. وعليه يكون ضمير { **هُوَ** } ضميرا عائدا إلى الكلام السابق على تأويله بالمذكور، فلذلك أتي لتعريفه بضمير المفرد.

فيكون { **النبأ** } على هذا الوجه، خبر الحشر وما أعِدَّ فيه للمتقين من حسن مآب، وللطاغين من شرّ مئاب، ومن سوء صحبة بعضهم لبعض، وتراشقهم بالتأنيب والخصام بينهم. ويكون الوصف { **عَظِيمٌ** } تهويلا، على نحو قوله تعالى { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ } [النبأ:1-3].

وتكون جملة { **مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى** - إلى قوله - **نَذِيرٌ مُبِينٌ** } استئنافا للاستدلال على صدق النبأ بأنّه وحي من الله ولولا أنه وحي لما كان للرسول صلى الله عليه وسلم قبل بمعرفة هذه الأحوال على حدّ قوله { وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [آل عمران:44]، ونظائر هذا الاستدلال كثيرة في القرآن.

وعلى هذا فضمير { **يَخْتَصِمُونَ** } عائد إلى أهل النار من قوله تعالى { تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ } [صّ:64]، إذ لا تخاصم بين أهل الملأ الأعلى.

والمعنى: ما كان لي من علم بعالم الغيب وما يجري فيه من الإخبار، وبما سيكون من تخاصم أهل النار.

{ **أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ** } على كلا التفسيرين، أنّهم غافلون عن العلم به، فقد أُعلِموا بالنبأ بمعناه الأوّل وسيعلمون قريبا بالنبأ بمعناه الثاني. وجيء بالجملة الاسمية لإفادة إثبات إعراضهم وتمكّنه منهم. والقول توبيخ لهم وتحميق.

ولعل هذه الآية من هذه السورة هي أوّل ما نزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم من ذكر قصة خلق آدم وسجود الملائكة وإباء إبليس من السجود، فإنّ هذه السورة في ترتيب نزول سور القرآن لا يوجد ذكر قصة آدم في سورة نزلت قبلها. فذلك وجه التوطئة للقصّة بأساليب العناية والاهتمام ممّا خلا غيرها عن مثله وبأنّها نبأ كانوا معرضين عنه.

{ **مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ** } اعتراض إبلاغ في التوبيخ على الإعراض عن النبأ العظيم، وحجّة على تحقق النبأ بسبب أنّه موحى به من الله وليس للرسول صلى الله عليه وسلم سبيل إلى عمله لولا وحي الله إليه به.

{ **بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى** } الباء، على كل المعنيين للنبأ، لتعدية { عِلم } لتضمينه معنى الإحاطة، وهو استعمال شائع في تعدية العلم. ومنه ما في حديث سؤال الملكين في الصحيح فيقال له: **" ما علمك بهذا الرجل "**.

الملأ: الجماعة ذات الشأن، ووصفه بـ { الْأَعْلَى } لأنّ المراد ملأ السماوات وهم الملائكة ولهم علوّ حقيقي وعلوّ مجازي بمعنى الشرف.

{ **إِذْ يَخْتَصِمُونَ** } ظرف متعلّق بفعل { مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ }، أي: حين يختصم أهل الملأ الأعلى على أحد التأويلين، أي: في حين تنازع الملائكة وإبليس في السماء. والتعبير بالمضارع لقصد استحضار الحالة.

أو حين يختصم الطاغون وأتباعهم في النار بين يدي الملأ الأعلى، أي: ملائكة النار أو ملائكة المحشر.

الاختصام: افتعال من خَصَمَه، إذا نازعه وخالفه فهو مبالغة في خَصَم.

{ **إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ** } مبيّنة للجملة السابقة، أي: ما علمت بذلك النبأ إلّا بوحي من الله، وإنّما أوحى الله إليّ ذلك لأكون نذيرا مبينا.

{ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ [71] فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [72] فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [73] إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ[74]}

{ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ } موقع الجملة صالح لأن يكون استئنافا، فإذا جعلنا النبأ بمعنى نبأ أهل المحشر الموعود به يكون { إِذْ قَالَ } متعلقا بفعل محذوف تقديره: اذكر. وأمّا على جعل النبأ بمعنى نبأ خلق آدم فإنّ الجملة بدل من { إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [69] بدل بعض من كل، لأنّ مجادلة الملأ الأعلى، على كلا التفسيرين المتقدمين، غير مقتصرة على قضية قصة إبليس.

{ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ } قصة خلق آدم تقدّم ذكرها في سور كثيرة أشبهها بما هنا ما في [الحجر:28-40]، وأبينها ما في [البقرة:30-39].

{ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ } يبين الباعث على الإباية التي في [الحجر:31] { إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى }.

{ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }، زيادة هنا وهو بيان لكون المراد من قوله تعالى { أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ } [الحجر:31] الإباية من الكون من الساجدين لله، أي: المنزّهي الله عن الظلم والجهل. ومعناه أنّه كان كافرا ساعتئذ، أي: ساعة إبائه من السجود ولم يكن قبلُ كافرا.

ووجه كونه من الكافرين أنّه امتنع من طاعة الله امتناع طعن في حكمة الله وعمله، وذلك كفر لا محالة، وليس كامتناع أحد من أداء الفرائض إن لم يجحد أنّها حقّ خلافا للخوارج وكذلك المعتزلة.

وقد بدت من إبليس نزعة كانت كامنة في جبلّته وهي نزعة الكبر والعصيان، ولم تكن تظهر منه قبل ذلك، لأنّ الملأ الذي كان معهم كانوا على أكمل حسن الخلطة فلم يكن منهم مثير لما سكن في نفسه من طبع الكبر والعصيان. فلمّا طرأ على ذلك الملأ مخلوق جديد وأُمِر أهل الملأ الأعلى بتعظيمه كان ذلك موريا زناد الكبر في نفس إبليس فنشأ عنه الكفر بالله وعصيان أمره.

وهذا ناموس خُلُقي جعله الله مبدأ لهذا العالم قبل تعميره، وهو أن تكون الحوادث والمضائق معيار الأخلاق والفضيلة، فلا يُحكم على نفس بتزكية أو ضدّها إلّا بعد تجربتها وملاحظة تصرّفاتها عند حلول الحوادث بها.

{ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ [75] قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [76] }.

لا شك أنّ هذا الخطاب حينئذ كان بواسطة ملك من الملائكة، لأنّ إبليس لمّا أستكبر قد انسلخ عن صفة الملكية فلم يعد أهلا لتلقّي الخطاب من الله، ولم يكن أرفع رتبة من الرسل الذين قال الله فيهم { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ } [الشورى:51].

وتقدّم قريب من هذه الآية في [الحجر:33/32] إلّا قوله هنا:

{ **مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ** } في إلقاء هذا السؤال إلى إبليس قطع بمعذرته. أي: ما منعك من السجود.

ووقع في [الأعراف:12] { أَلَّا تَسْجُدَ } على أن (لا) زائدة.

{ **لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** } آي: خلقته بقدرتي، أي: خلقا خاصا دفعة ومباشرة لأمر التكوين، فكان تعلّق هذا التكوين أقرب من تعلّقه بإيجاد الموجودات المرتَّبة لها أسباب تباشرها، من حمل وولادة، كما هو المعروف في تخلّق الموجودات عن أصولها. فلا شك في أنّ خلق آدم فيه عناية زائدة وتشريف اتصال أقرب.

{ **بِيَدَيَّ** } تمثيل لتكوّن آدم من مجرد أمر التكوين للطين. وكان السلف يقرّون أنّ اليدين صفة خاصة لله تعالى لورودهما في القرآن مع جزمهم بتنزيه الله عن مشابهة المخلوقات وعن الجسمية، وقصدهم الحذر من تحكيم الآراء في صفات الله. وقد تقدّم القول في الآيات المشابهة في [آل عمران:7].

{ **أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ** } أي: أمن أجل أنّك تتعاظم بغير حق أم لأنّك من أصحاب العلو؟ والمراد بالعلو الشرف، أي: من العالين على آدم فلا يستحق أن تعظّمه.

{ **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** } تبيّن أنّ إبليس يعدّ نفسه أفضل من آدم لأنّه مخلوق من النار وآدم مخلوق من الطين، يعني: والنار أفضل من الطين في رأيه.

ولم يرد في القرآن أنّ الله ردّ عليه هذا التأصيل لأنّه أحقر من ذلك فلعنه وأطرده لأنه ادَّعى باطلا وعصى. وطَرْدُه أجمع لإبطال علمه ودحض دليله.

<u>ومعنى كون الشيطان مخلوقا من النار</u> أنّ ابتداء تكون الذرّة الأصلية لقوام ماهيته من عنصر النار، ثم تمتزج تلك الذرة بعناصر أخرى مثل الهواء وما الله أعلم به.

<u>ومعنى كون آدم مخلوقا من الطين</u> أن ابتداء تكون ذرات جثمانه من عنصر التراب وأُدخِل على تلك الذرات ما امتزجت به عناصر الهواء والماء والنار وما يتولّد على ذلك التركيب من عناصر كيماوية وقوة كهربائية تتقوّم بمجموعها ماهية الإنسان.

{ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ [77] وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ [78] }.

تقدّم تفسير نظير هذه الآية في [الحجر:35/34].

اللعنة: الإبعاد من رحمة الله، وأضيفت إلى الله لتشنيع متعلّقها وهو الملعون لأنّ الملعون من جانب الله هو أشنع ملعون.

{ **يَوْمِ الدِّينِ** } غاية اللعنة، للدلالة على دوامها مدة هذه الحياة كلّها، وليس المراد حصول ضد اللعنة له يوم الدين، أعني الرحمة، لأنّ يوم الدين يوم الجزاء على الأعمال فجزاء الملعون العذاب الأليم.

{ **قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** [79] **قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ** [80] **إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ** [81] }.

تقدّم نظير هذه الآية في [الحجر:36-38]، وتفسيرها هناك مستوفى.

{ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** [82] **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** [83] }.

أقسم الشيطان بعزة الله تحقيقا لقيامه بالإغواء دون تخلّف، وإنّما أقسم على ذلك وهو يعلم عظمة هذا القسم لأنّه وجد في نفسه أنّ الله أقدره على القيام بالإغواء والوسوسة، وقد قال في [الحجر:39] { رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ }.

العزّة: القهر والسلطان، وعزّة الله هي العزة الكاملة التي لا تختل حقيقتها ولا يتخلّف سلطانها.

وتقدم تفسير نظيره في [الحجر:40/39].

{ **قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ** [84] **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** [85] }.

أي قال الله تعالى تفريعا، وهذا التفريع نظير التفريع في قوله { فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [82].

قوبل تأكيد عزم الشيطان الذي دلّ عليه قوله { فَبِعِزَّتِكَ } بتأكيد مثله، وهو لفظ { الْحَقَّ } الدال على أنّ ما بعده حق ثابت لا يخلف.

{ **فَالْحَقُّ** } قرأه عاصم وحمزة بالرفع على أنّه لمّا تعرّف باللام غلبت عليه الاسمية فتنوسي كونه نائبا عن الفعل. وهذا الرفع إمّا على الابتداء، أي: فالحقُّ قولي، وإمّا على الخبرية، أي: فقولي الحقَّ.

وقرأ الجمهور { فَالْحَقَّ } بالنصب وانتصابه على المفعولية المطلقة بدلا عن فعل من لفظه محذوف تقديره: أحق، أي: أوجب وأحقق.

{ **وَالْحَقَّ أَقُولُ** } تقديم المفعول للاختصاص، أي: ولا أقول إلّا الحق .

{ **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** } مبيّنة لجملة { فَالْحَقُّ } وهي مؤكد بلام القسم والنون.

{ **مِنْكَ** } (مِن) بيانية وهي التي تدخل على التمييز وينتصب التمييز بتقديمه معناها. ولمّا كان شأن مدخول (من) البيانية أن يكون نكرة تعيّن اعتبار كاف الخطاب في معنى اسم الجنس، أي: من جنسك الشياطين.

{ **وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ** } أي: من تبعك من الذين أغويتهم من بني آدم.

{ **أَجْمَعِينَ** } توكيد لـ { مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ }.

{ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ [86] إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [87] وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ [88] }.

لما أمر الله رسوله بإبلاغ المواعظ والعبر التي تضمنتها هذه السورة أمره عند انتهائها أن يقرع أسماعهم بهذا الكلام الذي هو كالفذلكة للسورة تنهية لها، تسجيلا عليهم أنّه ما جاءهم إلّا بما ينفعهم وليس طالبا من ذلك جزاء.

{ **عَلَيْهِ** } الضمير عائد إلى القرآن المعلوم من المقام، فإن مبدأ السورة قوله تعالى {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} [1]، فهذا من رد العجز على المصدر.

{ **وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** } أفاد انتفاء جميع التكلّف عن النبي صلى الله عليه وسلم. والتركيب أشد في نفي التكلّف من أن يقول: ما أنا بمتكلّف، كما تقدّم بيانه عند قوله تعالى { قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [البقرة:67].

التكلّف: معالجة الكلفة، وهي ما يشق على المرء عمله والتزامه لكونه يحرجه أو يشق عليه. فالمتكلِّف هو الذي يتطلب ما ليس له أو يدَّعي علم ما لا يعلمه.

أي: ما أنا بمدّع النبوّة باطلا من غير أن يوحى إليّ، وهو رد لقولهم { كَذَّابٌ } [4].

ومنه حديث الدارقطني عن ابن عمر قال: " خرج رسول الله في بعض أسفاره فمر على رجل جالس عند مقراة له [حوض ماء]، فقال عمر: " يا صاحب المَقراة أَوَلَغَتْ السباع الليلة في مقراتك؟ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" يا صاحب المَقراة لا تخبره، هذا متكلّف، لها ما حملت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور".**

وفي الصحيحين عن ابن مسعود أنّه قال: " يأيها الناس من علم منكم علما فليقل به ومن لم يعلم فليقل: الله علم، قال الله لرسوله: { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ } ".

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** } بدل اشتمال من جملة { وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ } اشتمال نفي الشيء على ثبوت ضدّه، فلما نفى بقوله { وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ } أن يكون تقوَّل القرآن على الله، ثبت من ذلك أنّ القرآن ذكر للناس ذكَّرهم الله به.

ولك أن تجعلها تذييلا، إذ لا منافاة بينهما هنا.

والقصر الذي اشتملت عليه الجملة قصر قلب إضافي، أي: هو ذكر لا أساطير ولا سحر ولا شعر ولا غير ذلك، للردّ على المشركين ما وسموا به القرآن من غير صفاته الحقيقية.

{ **وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ** } عطف على الجملة السابقة، باعتبار ما يشتمل عليه القصر من جانب الإثبات.

أي: وستعلمون خبر هذا القرآن بعد زمان علما جزما فيزول شككم فيه.

النبأ: الخبر، وأصل الخبر: الصدق، أي: الموافقة للواقع. أي: ستعلمون صدق وصف هذا القرآن أنّه الحق، وهذا كما قال تعالى { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } [فصلت:53].

وفُسِّر النبأ بمعنى المفعول، أي: ما أنبأ به القرآن من إنذاركم بالعذاب، فهو تهديد.

وكلا الاحتمالين واقع فإنّ من المخاطَبين من عُجِّل له عذاب السيف يوم بدر، وبقيّتهم رأوا ذلك رأي العين، منهم من علموا دخول الناس في الإسلام فماتوا بغيضهم، ومنهم من شاهدوا فتح مكة وآمنوا، أو رأوا قبائل العرب تدخل في الدين أفواجا فعلموا نبأ صدق القرآن وما وعد به بعد حين فازدادوا إيمانا.

الحين: الزمن من ساعة إلى أربعين سنة.

خُتم الكلام بتسجيل التبليغ وأنّ فائدة ما أبلغهم لهم لا للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزمر

سُمِّيت (سورة الزمر) من عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقد روى الترمذي عن عائشة قالت: " كان النبيّ صلى الله عليه وسلم لا ينام حتّى يقرأ الزمر وبني إسرائيل " (الإسراء). وإنّما سُمِّيت كذلك لوقوع هذا اللفظ فيها دون غيرها من سور القرآن.

وفي تفسير القرطبي عن وهب بن منبه أنّه سمَّاها (سورة الغُرف) وتناقله المفسّرون. ووجهه أنّها ذُكر فيها لفظ الغرف، أي: بهذه الصيغة دون الغرفات، في قوله تعالى { لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ } [20].

وهي مكّية كلّها عند الجمهور، وقيل بعض آياتها مدنية [الآية 53 و الآيات الثلاث بعدها، وقيل: إلى سبع آيات]، نُقل عن ابن عباس، وسنده ضعيف، وقصّته عليها مخائل القصص.

وهي السورة التاسعة والخمسون في ترتيب النزول على المختار، نزلت بعد سورة سبأ وقبل سورة غافر.

وعُدَّت آيتها عند المدنيين والمكّيين والبصريين اثنتين وسبعين، وعند أهل الشام ثلاثا وسبعين، وعند أهل الكوفة خمسا وسبعين.

أغراض السورة

ابتدئت هذه السورة بما هو كالمقدّمة للمقصود، وذلك بالتنويه بشأن القرآن تنويها تكرر في ستة مواضع من هذه السورة، لأنّ القرآن جامع لأغراضها.

*/ إثبات تفرّد الله بالإلهية وإبطال الشرك فيها.

*/ إبطال تعلّلات المشركين لإشراكهم وأكاذيبهم.

*/ نفي ضرب من ضروب الإشراك وهو زعمهم أنّ لله ولدا.

*/ الاستدلال على وحدانية الله في الإلهية بدلائل تفرّده بإيجاد العوالم العلوية والسفلية، وبتدبير نظامها وما تحتوي عليه ممّا لا ينكر المشركون انفراده به. والخلق العجيب في أطوار تكوين الإنسان والحيوان.

*/ الاستدلال عليهم بدليل من فعلهم وهو التجاؤهم إلى الله عندما يصيبهم الضرّ.

*/ الدعوة إلى التدبّر فيما يُلقى إليهم من القرآن الذي هو أحسن القول.

*/ تنبيههم على كفرانهم شكر النعمة.

*/ المقابلة بين حالهم وبين حال المؤمنين المخلصين لله.

*/ أنّ دين التوحيد هو الذي جاءت به الرسل من قبل.

*/ التحذير من أن يحلّ بالمشركين ما حلّ بأهل الشرك من الأمم الماضية.

*/ إعلام المشركين بأنّهم وشركاءهم لا يُعبأ بهم عند الله وعند رسوله صلى الله عليه وسلم، فالله غنيّ عن عبادتهم، ورسوله لا يخشاهم ولا يخاف أصنامهم لأنّ الله كفاه إيّاهم جميعا.

*/ إثبات البعث والجزاء لتجزى كل نفس بما كسبت. وتمثيل البعث بإحياء الأرض بعد موتها. وضرب لهم مثله والإفاقة بعده وأنّه يوم الفصل بين المؤمنين والمشركين.

*/ تمثيل حال المؤمنين وحال المشركين في الحياتين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

*/ دعاء المشركين للإقلاع عن الإسراف على أنفسهم.

*/ دعاء المؤمنين للثبات على التقوى ومفارقة دار الكفر.

*/ ختمت بوصف حال يوم الحساب.

وتخلّل ذلك كله وعيد ووعد، وأمثال، وترهيب وترغيب، ووعظ وإيماء بقوله تعالى { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ } [9]، إشارة إلى أنّ شأن المؤمنين أنّهم أهل علم وأنّ المشركين أهل جهالة، وذلك تنويه برفعة العلم ومذمّة الجهل.

{ **تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [1] إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ [2]** }.

فاتحة أنيقة في التنويه بالقرآن جُعلت مقدّمة لهذه السورة لأنّ القرآن جامع لما حوته وغيره من أصول الدين.

{ **تَنْزِيلُ** } مصدر نزَّل (المضاعف) وهو مشعر بأنّه أنزله منجَّما. واختيار هذه الصيغة هنا للردّ على الطاعنين لأنّهم من جملة ما تعلّلوا به قولهم { لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [الفرقان:32].

{ **الْكِتَابِ** } التعريف للعهد، وهو القرآن المعهود بينهم عند كلّ تذكير وكلّ مجادلة.

{ **مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** } للإيماء إلى أنّ ما ينزل منه سبحانه يأتي على ما يناسب الصفتين:

العزيز: قال تعالى { وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ } [فصلت:41]، أي: القرآن عزيز غالب بالحجة لمن كذَّب به، وغالب بالفضل لما سواه من الكتب من حيث إنّ الغلبة تستلزم التفضل والتفوق، وغالب لبلغاء العرب إذ أعجزهم عن معارضة سورة منه.

الحكيم: إمّا بمعنى الحاكم، فالقرآن أيضا حاكم على معارضيه بالحجّة، وحاكم على غيره من الكتب السماوية بما فيه من التفصيل والبيان، قال تعالى { مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [المائدة:48].

وإمّا بمعنى المُحكم المتقن، فالقرآن مشتمل على البيان الذي لا يحتمل الخطأ.

وإمّا بمعنى الموصوف بالحكمة، فالقرآن مشتمل على الحكمة كاتصاف منزّله بها.

وفي وصف { الْحَكِيمِ } إيماء كذلك إلى أنّه أنزله بالحكمة وهي الشريعة قال تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة:269]. وفي هذا إرشاد إلى وجوب التدبّر في معاني هذا الكتاب ليُتوصَّل بذلك التدبّر إلى العلم بأنّه حقّ من عند الله.

ومعنى { **الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** } في صفات الله تقدّم في تفسير قوله تعالى { فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة:269].

{ **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ** } تتنزَّل الجملة منزلة البيان لجملة { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ }. وافتتاحها بحرف (إن) مراعى فيه ما استعمل فيه الخبر من الامتنان. فيُحمل حرف (إن) على الاهتمام بالخبر. وما أريد به من التعريض بالذين أنكروا أن يكون منزَّلا من الله فيُحمل الحرف على التأكيد، استعمالا للمشترك في معنييه.

ولما في هذه الآية من زيادة الإعلان بصدق النبيّ المنزَّل عليه الكتاب جدير بالتأكيد لأنّ دليل صدقه ليس في ذاته بل هو قائم بالإعجاز الذي في القرآن وبغيره من المعجزات، فكان مقتضى التأكيد موجودا بخلاف مقتضى الحال في قوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ }.

{ **الْكِتَابَ** } إعادة اللفظ للتنويه بشأنه جريا على خلاف مقتضى الظاهر بالإظهار في مقام الإضمار.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، وهي ظرف مستقر حالا من { الْكِتَابَ }، أي: أنزلنا إليك القرآن ملابسا للحق في جميع معانيه { لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ } [فصلت:42].

{ **فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ** } فُرِّع على المعنى الصريح من قوله { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } أن أمر بأن يعبد الله مخلصا له العبادة. وهذا إيماء إلى أنّ إنزال الكتاب عليه نعمة كبرى تقتضي أن يقابلها الرسول صلى الله عليه وسلم بالشكر بإفراده بالعبادة، وفي القول إيماء إلى أنّ إشراك المشركين بالله غيره في العبادة كفر لنعمه التي أنعم بها، فإنّ الشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خُلق لأجله، وفي العبادة تحقيق هذا المعنى، قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات:56].

فالمقصود من الأمر بالعبادة التوطئة إلى تقييد العبادة بحالة الإخلاص من قوله { مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ }.

فالمأمور به عبادة خاصة، ولذلك لم يكن الأمر بالعبادة مستعملا في معنى الأمر بالدوام عليها.

الإخلاص: الإمْحَاض وعدم الشَّوب بمغاير، وهو يشمل الإفراد. وسُمِّيت السورة التي فيها توحيد الله سورة الإخلاص، أي: إفراد الله بالإلهية. وأوثر الإخلاص هنا لإفادة التوحيد وأخصَّ منه وهو أن تكون عبادة النبيّ صلى الله عليه وسلم ربه غير مشوبة بحظ دنيوي، كما في قوله { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} [الفرقان:57].

الدين: المعاملة. والمراد به هنا معاملة المخلوق ربَّه وهي عبادته. فالمعنى: مخلِصا له العبادة.

{ **مُخْلِصاً** } انتصب على الحال من الضمير المستتر في { أَعْبُدَ }.

{ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ } [3]

{ **أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** } استئناف للتخلّص إلى استحقاقه تعالى الإفراد بالعبادة، وهو غرض السورة.

{ **أَلا** } افتتحت الجملة بأداة التنبيه تنويها بمضمونها لتتلقّاه النفس بشراشِرها، وذلك هو ما رجَّح اعتبار الاستئناف فيها، وجعل معنى التعليل حاصلا تبعا من ذكر إخلاص عام بعد إخلاص خاص ومورِدهما واحد.

{ **لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** } اللام لام الملك الذي هو بمعنى الاستحقاق، أي: لا تحقّ الطاعة غير المشوبة إلّا له، على نحو قوله تعالى { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الفاتحة:2]. وتقديم المسند لإفادة الاختصاص، فأفاد القول أنّه سبحانه مستحقّه وأنّه مختصّ به.

الدين: الطاعة كما تقدّم.

الخالص: السالم من أن يشوبه تشريك غيره في عبادته، فهذا هو المقصود من الآية.

وعرّف الغزالي الإخلاص: " بأنّه تجريد قصد التقرّب إلى الله عن جميع الشوائب ".

والإخلاص في العبادة أن يكون الداعي إلى الإتيان بالمأمور وإلى ترك المنهي إرضاء الله تعالى، وهو معنى قولهم: لوجه الله، أي: لقصد الامتثال، بحيث لا يكون الحظ الدنيوي هو الباعث على العبادة. ولذا قيل: الرياء الشرك الأصغر، أي: إذا كان هو الباعث على العمل.

فأمّا إن كان للنفس حظ عاجل وكان حاصلا تبعا للعبادة وليس هو المقصود فهو مغتفر وخاصة إذا كان ذلك لا تخلو عنه النفوس، أو كان ممّا يعين على الاستزادة من العبادة.

وأقول: إن قصد إلى العبادة ليتقرّب إلى الله فسأله ما فيه صلاحا في الدنيا أيضا لا ضير فيه، لأنّ تلك العبادة جُعلت وسيلة للدعاء ونحوه، وكلّ ذلك تقرّب إلى الله تعالى، وقد شُرعت صلوات لكشف الضرّ وقضاء الحوائج مثل صلاة الاستخارة وصلاة الضر والحاجة، ومن المغتفر أيضا أن يقصد العامل من عمله أن يدعو له المسلمون ويذكروه بخير.

وقد علمتَ من تقييدنا الحظ بأنّه حظ دنيوي أنّ رجاء الثوب واتقاء العقاب هو داخل في معنى الإخلاص لأنّه راجع إلى التقرّب لرضى الله تعالى.

وينبغي أن تعلم أن فضيلة الإخلاص في العبادة هي قضية أخصّ من قضية صحة العبادة وأجزائها في ذاتها إذ قد تعرو العبادة عن فضيلة الإخلاص وهي مع ذلك صحيحة مجزئة، فللإخلاص أثر في تحصيل ثواب العمل وزيادته ولا علاقة له بصحة العمل.

{ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } عطف على الجملة السابقة لزيادة تحقيق معنى الإخلاص لله في العبادة وأنّه خلوص كامل لا يشوبه شيء من الإشراك، ولا إشراك الذين زعموا أنّهم اتخذوا أولياء وعبدوهم حرصا على القرب من الله يزعمونه عذرا لهم، فقولهم من فساد الوضع وقلب حقيقة العبادة بأن جعلوا عبادة غير الله وسيلة إلى القرب من الله، فنقضوا بهذه الوسيلة مقصدها وتطلّبوا القربة بما أبعدها، والوسيلة إذا أفضت إلى إبطال المقصد كان التوسّل بها ضربا من العبث.

{ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } اسم الموصول مراد به المشركون، وهو في محل رفع على الابتداء وخبره جملة { إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ }.

{ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } مقول لقول محذوف لأنّ نظمها يقتضي ذلك، إذ ليس في الكلام ما يصلح لأن يعود عليه نون المتكلم ومعه غيره، فتعيّن أنّه ضمير عائد إلى المبتدأ. وفعل القول محذوف.

<u>فيجوز أن يُقدَّر بصيغة اسم الفاعل</u>، فيكون حالا من { الَّذِينَ اتَّخَذُوا } أي: قائلين: ما نعبدهم.

<u>ويجوز أن يُقدَّر بصيغة الفعل</u>. والتقدير: قالوا ما نعبدهم، وتكون الجملة حينئذ بدل اشتمال من { اتَّخَذُوا }، فإنّ اتخاذهم الأولياء اشتمل على هذه المقالة.

{ **إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** } استثناء من علل محذوفة، أي: ما نعبدهم لشيء إلّا لعلة أن يقربونا إلى الله، فيفيد قصرا على هذه العلة قصر قلب إضافي، أي: دون ما شنّعتم علينا من أنّنا كفرنا نعمة خالقنا إذ عبدنا غيره. وقد قدّمنا آنفا من أنّهم أرادوا به المعذرة.

الزُلفى: منزلة القرب، أي: ليقرّبونا إلى الله، والمراد به منزلة الكرامة والعناية في الدنيا لأنّهم لا يؤمنون بمنازل الآخرة، ويكون منصوبا بدل اشتمال من ضمير { لِيُقَرِّبُونَا }، أي: ليقربوا منزلتنا إلى الله.

<u>ويجوز</u> أن يكون { زُلْفَى } اسم مصدر فيكون مفعولا مطلقا، أي: قربا شديدا.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ** } وعيد لهم على قولهم ذلك، القصد منه إبطال تعلّلهم في قولهم { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ }، لأن الواقع يشهد أنّهم عبدوا الأصنام أكثر من عبادتهم الله.

{ **فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** } اختلاف طرائقهم في عبادة الأصنام وفي أنواعها من الأنصاب والملائكة والجن على اختلاف المشركين في بلاد العرب.

وأفاد النظم أمرين: أنّ الاختلاف ثابت لهم، وأنّه متكرّر متجدّد، فالأوّل من تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، والثاني من كون المسند فعلا مضارعا.

ومعنى الحكم بينهم أنّه يبيّن لهم ضلالهم جميعا يوم القيامة إذ ليس معنى الحكم بينهم مقتضيا الحكم لفريق منهم على فريق آخر بل قد يكون الحكم بين المتخاصمين بإبطال دعوى جميعهم.

<u>ويجوز</u> أن يكون على تقدير معطوف على { بَيْنَهُمْ } مماثل له دلّت عليه الجملة المعطوف عليها وهي { أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ }، لاقتضائها أنّ الذين أخلصوا الدين لله قد وافقوا الحق، فالتقدير: يحكم بينهم وبين المخلصين.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** } <u>يجوز أن يكون خبرا ثانيا</u> عن قوله تعالى { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } وهو كناية عن كونهم كاذبين في قولهم { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ } وعن كونهم كافرين بسبب ذلك، وكناية عن كونهم ضالين.

<u>ويجوز أن يكون استئنافا بيانيا</u>، لأنّ قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } يثير في نفوس السامعين سؤالا عن مصير حالهم في الدنيا من جراء اتخاذهم أولياء من دونه، فيُجاب بأنّ الله لا يهدي من هو كاذب كفّار، أيْ يذرهم في ضلالهم ويمهلهم إلى يوم الجزاء بعد أن بيَّن لهم الدين فخالفوه.

{ **مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** } المراد بهم الذين اتخذوا من دونه أولياء، أي: المشركين، فكان مقتضى الظاهر الإتيان بضميرهم، وعدل عنه إلى الإضمار لما في الصلة من وصفهم بالكذب وقوّة الكفر.

<u>وهداية الله المنفية عنهم هي</u>: أن يتداركهم الله بلطفه بخلق الهداية في نفوسهم، فالهداية المنفية هي الهداية التكوينية لا الهداية بمعنى الإرشاد والتبليغ، وهو ظاهر.

والتعبير عنهم بطريق الموصولية لما في الموصول من الصلاحية لإفادة الإيماء إلى علّة الفعل ليفيد أن سبب حرمانهم التوفيق هو كذبهم وشدّة كفرهم.

الكاذب: كذبهم هو ما اختلقوه من الكفر بتأليه الأصنام، وما ينشأ عن ذلك من اختلاق صفات وهمية للأصنام وشرائع يدينون بها لهم.

الكَفَّار: شديد الكفر بليغُه، وذلك كفرهم بالله وبالرسول صلى الله عليه وسلم وبالقرآن بإعراضهم عن تلقيه، والتجرد عن الموانع للتدبّر فيه.

{ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } [4]

موقع هذه الآية موقع الاحتجاج على أنّ المشركين كاذبون وكافرون في اتخاذهم أولياء من دون الله، وفي قولهم { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [3]، وأنّ الله حرمهم الهدى .

فقصد إبطال شركهم بإبطال أقواه، وهو عدّهم في جملة شركائهم شركاء زعموا لهم بنوّة الله تعالى، حيث قالوا { اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً } [البقرة:116]، فإن المشركين يزعمون اللات والعزى ومناة بنات الله تعالى { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى } [النجم:19-21].

<u>والمعنى</u>: لو كان الله متخذا ولدا لأختار من مخلوقاته ما يشاء اختياره، أي: لاختار ما هو أجدر بالاختيار ولا يختار لبنوّته حجارة كما زعمتم.

فكان هذا إبطالا لما تضمّنه قوله { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ - إلى قوله – كَفَّارٌ } [3].

وليس هو إبطالا لمقالة بعض العرب: إن الملائكة بنات الله، لأنّ ذلك لم يكن من عقيدة المشركين بمكة الذين وُجِّه الخطاب إليهم، ولا إبطالا لبنوّة المسيح عند النصارى، لأنّ ذلك غير معتقد عند المشركين المخاطبين، وليس المقصود محاجة النصارى، ولم يتعرض القرآن المكي إلى محاجة النصارى.

{ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً } واعلم أنّه بنى الدليل على قاعدة استحالة الولد على الله تعالى إذ بني القياس الشرطي على فرض اتخاذ الولد لا على فرض التولّد، فاقتضى أنّ المراد باتخاذ الولد التبنّي، لأن إبطال التبني بهذا الاستدلال يستلزم إبطال تولّد الابن بالأولى.

{ سُبْحَانَهُ } تنزيه له عمّا نسبوه إليه من الشركاء بعد أن أبطله بالدليل الامتناعي، عودا إلى خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين الذي فارقه من قوله { فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ } [2].

{ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } دليل للتنزيه المستفاد من { سُبْحَانَهُ }.

{ هُوَ اللَّهُ } تمهيد للوصفين، وذكر اسمه العلم لإحضاره في الأذهان بالاسم المختصّ به.

{ الْوَاحِدُ } إثبات الوحدانية له يبطل الشريك في الإلهية على تفاوت مراتبه.

{ **الْقَهَّارُ** } إثبات القهر والغلبة يبطل ما زعموه من أنّ أولياءهم تقرّبهم إلى الله زلفى وتشفع لهم.

القهر: الغلبة، أي: هو شديد الغلبة لكل شيء لا يغلبه شيء ولا يصرفه عن إرادته.

{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ } [5].

بيان لجملة { هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } [4]، فإنّ خلق هذه العوالم والتصرّف فيها، على شدّتها وعظمتها، يبيّن معنى الوحدانية ومعنى القهّارية، فتكون جملة { هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } ذات اتصالين:

اتصال بجملة { لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً } [4] اتصال التذييل، واتصال بجملة { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ } اتصال التمهيد.

وقد انتقل من الاستدلال باقتضاء حقيقة الإلهية نفي الشريك إلى الاستدلال بخلق السماوات والأرض على أنّه المنفرد بالخلق، إذ لا يستطيع شركاؤهم خلق العوالم.

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، أي: خلقها خلقا ملابسا للحق وهو هنا ضدّ العبث، أي: خلقهما خلقا ملابسا للحكمة والصواب والنفع لا يشوب خلقهما عبث ولا اختلال، قال تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [الدخان:38/39]

{ **يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ** } بيان ثان وهو كتعداد الجمل في مقام الاستدلال أو الامتنان. وأوثر المضارع في هذه الجملة للدلالة على تجدّد ذلك وتكرّره، أو لاستحضار حالة التكوير تبعا لاستحضار آثارها، فإنّ حالة تكوير الله الليل على النهار غير مشاهدة وإنّما المشاهد أثرها، وتجدّد الأثر يدل على تجدد التأثير.

التكوير: حقيقته اللف واللَيُّ، يقال: كوّر العمامة على رأسه إذا لواها ولفها، ومُثِّلت به هنا هيئة غشيان الليل على النهار في جزء من سطح الأرض وعكس ذلك على التعاقب.

وممّا يزيد التمثيل إبداعا إيثار مادة التكوير الذي هو معجزة علمية من معجزات القرآن المشار إليها في المقدمة الرابعة والموضّحة في المقدمة العاشرة، فإنّ مادة التكوير جائية من اسم الكرة، والأرض كروية الشكل في الواقع، وذلك كان يجهله العرب وجمهور البشر يومئذ فأومأ القرآن إليه بوصف العرضين اللذين يعتريان الأرض على التعاقب وهما النور والظلمة، أو الليل والنهار، إذ جعل تعاورهما تكويرا، لأنّ عرض الكرة يكون كرويا تبعا لذاتها، فلمّا كان سياق هذه الآية للاستدلال على الإلهية الحق بإنشاء السماوات والأرض اختير للاستدلال على ما يتبع ذلك الإنشاء من خلق العرضين العظيمين للأرض مادة التكوير.

{ **وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ** } تسخير الشمس والقمر هو تذليلهما للعمل على ما جعل الله لهما من نظام السير، سير المتبوع والتابع، وقد تقدّم في [الأعراف:54] وغيرها.

وعطفت الجملة على سابقتها، لأن ذلك التسخير مناسب لتكوير الليل على النهار وعكسه، فإن ذلك التكوير من آثار ذلك التسخير.

{ **كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً** } بدل اشتمال من جملة { سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ } وذلك أوضح أحوال التسخير.

{ **كُلٌّ** } التنوين للعوض، أي: كلّ واحد.

الجري: السير السريع.

{ **لِأَجَلٍ** } لام العلّة. وهو أجل فنائهما، فإنّ جريهما لمّا كان فيه تقريب فنائهما جعل جريهما كأنّه لأجْل الأجَل، أي: لأجل ما يطلبه ويقتضيه أجل البقاء، كقوله تعالى { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا } [يس:38].

<u>ويجوز</u> أن يكون المراد بالأجل أجل حياة الناس الذي ينتهي بانتهاء الأعمار المختلفة.

المسمَّى: المجعول له وَسْم، أي: ما به يُعيَّن، وهو ما عيَّنه الله لأن يبلغ إليه.

وقد جاء في آيات أخرى { كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ } [لقمان:29]، بحرف انتهاء الغاية، ولام العلة وحرف الغاية متقاربان في المعنى الأصلي وأحسب أنّ اختلاف التعبير بهما مجرد تفنّن في الكلام.

{ **أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ** } استئناف ابتدائي في معنى الوعيد والوعد.

{ **الْعَزِيزُ** } كناية عن أنّه يفعل ما يشاء لا غالب له فلا تجدي المشركين عبادة أوليائهم.

{ **الْغَفَّارُ** } مؤذن باستدعائهم إلى التوبة باتباع الإسلام. وفي هذا الوصف مناسبة لذكر الأجل، لأنّ المغفرة يظهر أثرها بعد البعث الذي يكون بعد الموت وانتهاء الأجل، تحريضا على البدار بالتوبة قبل الموت.

{ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } [6]

{ **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا** } انتقال إلى الاستدلال بخلق الناس وهو الخلق العجيب.

وأدمج فيه الاستدلال بخلق أصلهم وبخلق زوجه ليتقوّم ناموس التناسل.

<u>يجوز</u> أن تكون الجملة في موضع الحال من ضمير الجلالة، <u>ويجوز</u> أن تكون استئنافا ابتدائيا تكريرا للاستدلال. والخطاب للمشركين بدليل قوله بعده { فَأَنَّى تُصْرَفُونَ }، وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب.

وتقدّم نظير هذه الجملة في [الأعراف:189]، إلّا أنّ في هذه الجملة عطف قوله { جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا } بحرف { ثُمَّ } الدال على التراخي الرتبي، لأنّ مساقها الاستدلال على الوحدانية وإبطال الشريك بمراتبه، فكان خلق آدم دليلا على عظيم قدرته تعالى وخلق زوجه من نفسه دليلا أخر مستقل الدلالة على عظيم قدرته. فعطف بحرف (ثم) إشارة إلى استقلال الجملة المعطوفة بها بالدلالة مثل الجملة المعطوفة هي عليها، فكان خلق زوج آدم منه أدلّ على عظيم القدرة، لأنّه خلق لم تجر به عادة فكان ذلك الخلق أجلب لعجب السامع من خلق الناس، فجيء له بحرف التراخي المستعمل في تراخي المنزلة لا في تراخي الزمن، لأن زمن خلق زوج آدم سابق على خلق الناس.

فأمّا آية الأعراف فمساقها مساق الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد، فذكر الأصلان للناس معطوفا أحدهما على الآخر بحرف التشريك في الحكم الذي هو الكون أصلا لخلق الناس.

{ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ } استدلال بما خلقه الله تعالى من الأنعام عطف على الاستدلال بخلق الإنسان، لأنّ المخاطبين بالقرآن يومئذ قوام حياتهم بالأنعام، ولا تخلو الأمم يومئذ من الحاجة إلى الأنعام ولم تزل الحاجة إلى الأنعام حافّة بالبشر في قوام حياتهم.

والجملة اعتراض بين { خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } وبين { يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ } لمناسبة أزواج الأنعام لزوج النفس الواحدة.

وأدمج في هذا الاستدلال امتنان بما فيها من المنافع للناس لما دلّ عليه قوله { لَكُمْ }، لأنّ في الأنعام مواد عظيمة لبقاء الإنسان، وهي التي في قوله تعالى { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ - إلى قوله - إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ} [النحل:5-7]، وقوله تعالى { وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا } [النحل:80].

الإنزال: نقل الجسم من علو إلى سُفل، ويطلق على تذليل الأمر الصعب، لأنّ الأمر الصعب يتخيل صعب المنال. كما يقال: نزلوا على حكم فلان.

فإطلاق الإنزال هنا بمعنى التذليل والتمكين على نحو قوله تعالى { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ } [الحديد:25]،أي سخرناه للناس فألهمناهم إلى معرفة تدبيره.

الأزواج: الأنواع، كما في قوله تعالى { وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } [الرعد:3]، والمراد أنواع الإبل والغنم والبقر والمعز.

وأطلق على النوع اسم الزوج الذي هو المثنّى لغيره لأنّ كل نوع يتقوّم كيانه من الذكر والأنثى.

{ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ } بدل من جملة { خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } وضمير المخاطبين هنا راجع إلى الناس لا غير، وهو استدلال بتطوّر خلق الإنسان على عظيم قدرة الله.

والتعبير بصيغة المضارع لإفادة تجدّد الخلق وتكرّره مع استحضار صورة هذا التطوّر العجيب.

{ **خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ** } أي: طورا من الخلق بعد طور آخر يخالفه.

{ **فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ** } ظلمة بطن الأم، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. وفي ذكر هذه الظلمات تنبيه على إحاطة علم الله تعالى بالأشياء ونفوذ قدرته إليها في أشدّ ما تكون فيه من الخفاء.

{ **خَلْقاً** } انتصب على المفعولية المطلقة المبيّنة للنوعية باعتبار وصفه بأنّه { مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ }.

{ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ** } بعد أن أجري على اسم الله تعالى من الأخبار والصفات القاضية بأنّه المتصرّف في الأكوان كلّها: جواهرها وأعراضها، ظاهرها وخفيها، ابتداء من قوله تعالى { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ } [5]، ما يرشد العاقل إلى أنّه المنفرد بالتصرف المستحق العبادة أعقب ذلك باسم الإشارة للتنبيه على أنّه حقيق بما يرد بعده من أجل تلك التصرّفات والصفات.

والجملة فذلكة ونتيجة أنتجتها الأدلة السابقة ولذلك فصلت.

{ **ذَلِكُمُ** } اسم الإشارة لتمييز صاحب تلك الصفات عن غيره تمييزا يفضي إلى ما يرد بعد اسم الإشارة.

<u>والمعنى</u>: ذلكم الذي خلق وسخر وأنشأ الناس والأنعام وخلق الإنسان أطوارا هو الله، فلا تشركوا معه غيره إذ لم تبق شبهة تعذر أهل الشرك بشركهم.

{ **اللَّهُ** } الإتيان باسم العلَم لإحضار المسمَّى في الأذهان باسم مختص زيادة في البيان لأنّ حال المخاطبين نزل منزلة حال من لم يعلم أنّ فاعل تلك الأفعال العظيمة هو الله تعالى. واسم الجلالة خبر عن اسم الإشارة.

{ **رَبُّكُمْ** } صفة لاسم الجلالة. ووصفه بالربوبية تذكير لهم بنعمة الإيجاد والإمداد وهو معنى الربوبية، وتوطئة للتسجيل عليهم بكفران نعمته الآتي في قوله تعالى { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ } [7].

{ **لَهُ الْمُلْكُ** } خبر ثان عن اسم الإشارة.

الملك: أصله مصدر ملك، (مثلث الميم) إلّا أن مضمون الميم خصّه الاستعمال بملك البلاد ورعاية الناس، وصاحبه: مَلِك، (بفتح الميم وكسر اللام)، وجمعه: ملوك. منه قوله تعالى { تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ } [آل عمران:26].

وتقديم المجرور لإفادة الحصر الادعائي، لإبطال ادعاء المشركين.أي: الملك لله لا لغيره.

{ **لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } بيان لجملة الحصر { لَهُ الْمُلْكُ } .

{ **فَأَنَّى تُصْرَفُونَ** } استفهام إنكاري تفريع عن انصرافهم عن توحيد الله تعالى. ولمّا كان الانصراف حالة استفهم عنها بكلمة { أَنَّى } التي هي بمعنى (كيف)، كقوله تعالى { أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ } [الأنعام:101].

الصرف: الإبعاد عن شيء، والمصروف عنه هنا محذوف، تقديره: عن توحيده، بقرينة قوله { لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } وجعلهم مصروفين عن التوحيد ولم يذكر لهم صارفا، فجاء في ذلك بالفعل المبني للمجهول ولم يقل لهم:

فأنى تنصرفون، نعيا عليهم بأنّهم كالمقودين إلى الكفر غير المستقلّين بأمورهم، يصرفهم الصارفون، يعني أئمة الكفر أو الشياطين الموسوسين لهم. وذلك إلهاب لأنفسهم ليكفوا عن الخضوع، عسى أن ينظروا بأنفسهم في دلائل الوحدانية المذكورة لهم.

{ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [7]

{ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ } أتبع إنكار انصرافهم عن توحيد الله بعد ما ظهر على ثبوته من الأدلة، بأن أُعلِموا بأنّ كفرهم إن أصرّوا عليه لا يضرّ إلّا أنفسهم.
وهذا شروع في الإنذار والتهديد للكافرين ومقابلته بالترغيب والبشارة للمؤمنين، فالجملة مستأنفة واقعة موقع النتيجة لما سبق من إثبات توحيد الله بالإلهية.
{ إِنْ تَكْفُرُوا } مبيّنة لإنكار انصرافهم عن التوحيد، أي: إن كفرتم بعد هذا الزمن فاعلموا أنّ الله غنيّ عنكم.
وهذا كناية عن كون طلب التوحيد منهم لنفعهم ودفع الضرّ عنهم لا لنفع الله، وتذكيرهم بهذا ليُقْبِلوا على النظر من أدلة التوحيد. والخبر مستعمل كناية في تنبيه المخاطب على الخطأ من فعله.
{ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } اعتراض بين الشرطين لقصد الاحتراس من أن يتوهّم السامعون أنّ الله لا يكترث بكفرهم ولا يعبأ به، فيتوهّموا أنّه والشكر سواء عنده، ليتأكّد بذلك معنى استعمال الخبر في تنبيه المخاطب على الخطأ.
{ لِعِبَادِهِ } تعيّن أن يكون المراد العباد الذين وُجِّه الخطاب إليهم في قوله { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ } ، وذلك جري على أصل استعمال اللغة لفظ العباد، كقوله { وَيَوْمَ نحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ } [الفرقان:17]. وإن كان الغالب في القرآن في لفظ العباد المضاف إلى اسم الله تعالى أو ضميره أن يطلق على خصوص المؤمنين والمقربين، وقرينة السياق ظاهرة هنا.
الرضى: حقيقته حالة نفسانية تعقب حصول ملائم مع ابتهاج به، وهو، على التحقيق، فيه معنى ليس في معنى الإرادة، لما فيه من الاستحسان والابتهاج، ويُعبَّر عنه بترك الاعتراض، ولهذا يقابل الرضى بالسخط، وتقابل الإرادة بالإكراه، والرضى آئل إلى معنى المحبّة.
فإذا أسند الرضى إلى الله تعالى تعيَّن أن يكون المقصود لازم معناه الحقيقي لأنّ الله منزه عن الانفعالات، كشأن إسناد الأفعال والصفات الدالة في اللغة على الانفعالات مثل: الرحمن والرؤوف، وإسناد الغضب والفرح والمحبة، فيؤول الرضى بلازمه من الكرامة والعناية والإثابة إن عُدّي إلى الناس، ومن النفاسة

والفضل إن عدِّي إلى أسماء المعاني.

وفعل الرضى يُعدَّى في الغالب بحرف (عن). وقد يعدّى بـ (الباء) نحو: رضيت بحكم فلان.

وقد يعدَّى إلى مفعول ثان بواسطة (لام الجر) نحو { وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً } [المائدة:3]، أي: رضيته لأجلكم وأحببته لكم، أي: لمنفعتكم وفائدتكم. وفي هذا التركيب مبالغة في التنويه بالشيء المرضي لدى السامع حتّى كأنّ المتكلم يرضاه لأجل السامع.

وقد ثار إشكال بين المتكلّمين عند اعتبار العموم في قوله { لِعِبَادِهِ }، وذلك في تعلّق إرادة الله تعالى بأفعال العباد، إذ من الضروري أنّ من عباد الله كثيرا كافرين، وقد أخبر الله تعالى أنّه لا يرضى لعباده الكفر، وثبت بالدليل أنّ كلّ واقع هو مراد الله تعالى، إذ لا يقع في ملكه إلّا ما يريد، فتعين أن تكون الإرادة والرضى حقيقتين مختلفتين، وأن يكون لفظاهما غير مترادفين.

الشيخ أبو الحسن الأشعري تخلّص من الإشكال عندما قال: " إنّ الإرادة غير الرضى، والرضى غير الإرادة والمشيئة، فالإرادة والمشيئة بمعنى واحد والرضى والمحبة والاختيار بمعنى واحد ". وهذا حمل لهذه الألفاظ القرآنية على معان يمكن معها الجمع بين الآيات:

فيكون قوله تعالى { وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } راجعا إلى خطاب التكاليف الشرعية.

وقوله { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ } [الأنعام:112] راجعا إلى تعلق الإرادة بالإيجاد والخلق.

ويتركّب من مجموعهما ومجموع نظائر كل منهما الاعتقاد بأنّ للعباد كسبا في أفعالهم الاختيارية وأنّ الله تتعلق أرادته بخلق تلك الأفعال الاختيارية عند توجّه كسب العبد نحوها، فالله خالق لأفعال العبد غير مكتسب لها. والعبد مكتسب غير خالق.

فالكسب عند الأشعري هو الاستطاعة المفسَّرة عنده بسلامة أسباب الفعل وآلاته، وهي واسطة بين القدرة والجبر، أي: هي دون تعلّق القدرة وفوق تسخير الجبر، جمعا بين الأدلة الدينية الناطقة بمعنى: أنّ الله على كل شيء قدير، وأنّه خالق كلّ شيء، وبين دلالة الضرورة على الفرق بين حركة المرتعش وحركة الماشي، وجمعا بين أدلة عموم القدرة وبين توجيه الشريعة خطابها للعباد بالأمر بالإيمان والأعمال الصالحة، والنهي عن الكفر والسيّئات وترتيب الثواب والعقاب.

وأمّا المعتزلة فهم بمعزل عن ذلك كلّه لأنّهم يثبتون القدرة للعباد على أفعالهم وأنّ أفعال العباد غير مقدورة لله تعالى ويحملون ما ورد في الكتاب من نسبة أفعال العباد إلى الله أو إلى قدرته أنّه على معنى أنّه خالق أصولها وأسبابها، ويحملون ما ورد من نفي ذلك، كما في قوله { وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ }، على حقيقته ولذلك أوردوا هذه الآية للاحتجاج بها.

{ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ } عطف على جملة { إِنْ تَكْفُرُوا }، والمعنى: وإن تشكروا بعد هذه الموعظة

فتقْلِعُوا عن الكفر وتشكروا الله بالاعتراف له بالوحدانية والتنزيه يرضى لكم الشكر، أي: يجازيكم.

{ **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** } كأنّ موقع هذه الآية أنّه لمّا ذُكر قبلها أنّ في المخاطبين كافرا وشاكرا، وهم في بلد واحد بينهم وشائج القرابة والولاء، فربما تحرّج المؤمنون من أن يمسَّهم إثم من جراء كفر أقربائهم وأوليائهم، أو أنّهم خشوا أن يصيب الله الكافرين بعذاب في الدنيا فيلحق منه القاطنين معهم بمكة، فأنبأهم الله بأنّ كفر أولئك لا يُنقص إيمان هؤلاء، فالآية تطمين وتعليم.

الوِزر: (بجر الواو) أصله الثقل، وأطلق على الإثم لأنّه يلحق صاحبه تعب كتعب حامل الثقل. ويقال: وَزَرَ بمعنى حمل الوِزر، أي: كسب الإثم.

{ **وَازِرَةٌ** } التأنيث باعتبار إرادة معنى النفس.

وفي الآية تعريض بالمتاركة وقطع اللجاج مع المشركين وأنّ قصارى المؤمنين أن يرشدوا الضُلَّال لا أن يلجئوهم إلى الإيمان.

{ **ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } { **ثُمَّ** } للترتيبين الرتبي والتراخي، أي: وأعظم من كون الله غنيّا عنكم أنّه أعدَّ لكم الجزاء على كفركم وسترجعون إليه.

وتقدم نظيرها في [الأنعام:164]. وإنّما جاء في الأنعام { بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }، لأنّها وقعت إثر آيات كثيرة تضمّنت الاختلاف بين أحوال المؤمنين وأحوال المشركين ولم يجيء مثل ذلك هنا، فلذلك قيل هنا { بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }، أي: مِن كُفْر من كَفَر وشُكْر من شَكَر.

الإنباء: مستعمل مجازا في الإظهار الحاصل به العلم، ويجوز أن يكون مستعملا في حقيقة الإخبار، بأن يُعلن لهم بواسطة الملائكة أعمالهم. وفيه تعريض بالوعد والوعيد.

{ **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } تعليل لجملة { يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } لأنّ العليم بذات الصدور لا يغادر شيئا إلّا علمه فإذا أنبأ بأعمالهم كان إنباؤه كاملا.

الصدور: مراد بها القلوب المعبّر بها عمّا به الإدراك والعزم، وتقدّم في قوله تعالى { وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [الأنفال:43].

{ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ } [8]

{ **وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ** } الجملة معطوفة على جملة { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ } [6]، لاشتراك الجملتين في

الدلالة على أنّ الله منفرد بالتصرّف مستوجب للشكر، وعلى أنّ الكفر به قبيح، وتتضمّن الاستدلال على وحدانية إلهية بدليل من أحوال المشركين به، فإنّهم إذا مسهم الضرّ لجأوا إليه وحده، وإذا أصابتهم نعمة أعرضوا عن شكره وجعلوا له شركاء.

{ **الْإِنْسَانَ** } تعريف الجنس ولكن عمومه هنا عموم عرفي لفريق من الإنسان وهم أهل الشرك خاصة، لأنّ قوله تعالى { وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً } لا يتفق مع حال المؤمنين. والقول بأن المراد انسان معين (عتبة بن ربيعة، أو أبو جهل) خروج عن مهيع الكلام، وإنّما هذان وأمثالهما من جملة هذا الجنس.

وذكر الإنسان إظهار في مقام الإضمار لأنّ المقصود به المخاطبون بقوله تعالى { **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ** - إلى قوله - **فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } [7/6]، فعدل إلى الإظهار لما في معنى الإنسان من مراعاة ما في الإنسانية من التقلّب والاضطراب، إلا من عصمة الله بالتوفيق، ولأنّ في اسم الإنسان مناسبة مع النسيان الآتي في قوله { نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ }.

وتقدّم نظير لهذه الآية في قوله تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ } [الروم:33].

التخويل: الإعطاء والتمليك دون قصد عوض. وهو مشتق من **الخَوَل** (بفتحتين) وهو اسم للعبيد والخدم.

النسيان: ذهول الحافظة عن الأمر المعلوم سابقا.

{ **مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ** } ما صدق { مَا } هو الضرّ، أي: نسي الضرّ الذي كان يدعو الله إلى كشفه.

ويجوز أن يكون { مَا } صادقا على الدعاء، وضُمِّن الدعاء معنى الابتهال والتضرع فعدّي بحرف (إلى).

والمعنى: نسي عبادة الله والابتهال إليه.

الأنداد: جمع نِدّ (بكسر النون)، وهو الكُفء. أي: وزاد على نسيان ربّه فجعل له شركاء.

{ **لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ** } اللام لام العاقبة، أي: لام التعليل المجازي، لأنّ الإضلال لمّا كان نتيجة الجعل جاز تعليل الجعل به كأنّه هو العلة للجاعل. والمعنى: وجعل لله أندادا فضل عن سبيل الله.

{ **قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ** } استئناف بياني لأنّ ذكر حالة الإنسان الكافر المُعْرِض عن شكر ربّه يثير وصفها سؤال السامع عن عاقبة هذا الكافر. أي: قل يا محمد للإنسان الذي جعل لله أندادا، أي: قل لكل واحد من ذلك الجنس. والتقدير: قل تمتعوا بكفركم قليلا إنّكم من أصحاب النار.

{ **تَمَتَّعْ** } الانتفاع الموّقت، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [الأعراف:24].

وصيغة الأمر مستعملة في الإمهال المراد منه الإنذار والوعيد.

{ **بِكُفْرِكَ** } الباء ظرفية أو للملابسة وليست لتعدية فعل التمتّع. ومتعلق التمتّع محذوف دل عليه سياق التهديد.

والتقدير: تمتعّ بالسلامة من العذاب في زمن كفرك.

{ **قَلِيلاً** } وصف التمتع بالقليل لأنّ مدة الحياة الدنيا قليل بالنسبة إلى العذاب في الآخرة.

وهذا كقوله تعالى { فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ } [التوبة:38].
{ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ } بيان للمقصود من جملة { تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً } وهو الإنذار بالمصير إلى النار بعد مدة الحياة. و{ من } للتبعيض لأنّ المشركين بعض الأمم والطوائف المحكوم عليها بالخلود في النار.
أصحاب النّار: هم الذين لا يفارقونها، فإنّ الصحبة تشعر بالملازمة، فأصحاب النار: المخلَّدون فيها.

{ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [9]
{ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ }
قرأ نافع وابن كثير وحمزة وحدهم { **أَمَنْ** } بتخفيف الميم على أنّ الهمزة دخلت على (من) الموصولة فيجوز أن تكون الهمزة همزة استفهام و(من) مبتدأ والخبر محذوف دلّ عليه الكلام قبله من ذكر الكافر. والاستفهام إنكاري والقرينة على إرادة الإنكار تعقيبه بقوله { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ }، لظهور أنّ {هل} فيه للاستفهام الإنكاري.
تقديره: أمن هو قانت أفضل أم من هو كافر؟ والاستفهام حينئذ تقريري ويقدر له معادل محذوف دل عليه قوله عقبه { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ }.
وقرأ الجمهور { **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ** } بتشديد الميم على أنّه لفظ مركب من كلمتين (أم) و(من) وفي معناه وجهان:
الوجه الأوّل: أن تكون (أم) معادلة لهمزة استفهام محذوفة مع جملتها دلت عليها (أم) لاقتضائها معادلا. ودلّ عليها تعقيبه بـ { هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ } لأنّ التسوية لا تكون إلّا بين شيئين. فالتقدير: أهذا الجاعل لله أندادا الكافر خير أمن هو قانت، والاستفهام حقيقي والمقصود لازمه، وهو التنبيه على الخطأ.
الوجه الثاني: أن تكون (أم) منقطعة لمجرد الإضراب الانتقالي. وهي تقتضي استفهاما مقدَّرا بعدها. ومعنى الكلام: دع تهديدهم بعذاب النار وانتقل بهم إلى هذا السؤال: أذلك الإنسان الذي جعل لله أندادا هو قانت، وقائم، ويحذر الله ويرجو رحمته؟ والاستفهام مستعمل في التهكّم لظهور أنّه لا تتلاقى تلك الصفات الأربع مع صفة جعله لله أندادا.
القانت: العابد. وتقدّم عند قوله تعالى { وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } [البقرة:283].
الآناء: جمع أَنًى مثل أمعاء ومعًى، والأنى: الساعة، ويقال أيضا: إنَى (بكسر الهمزة)، كما تقدّم في قوله تعالى { غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ } [الأحزاب:53]. وانتصب { آنَاءَ } على الظرف لـ { قَانِتٌ }.

{ **اللَّيْلِ** } تخصيص الليل بقنوتهم لأنّ العبادة بالليل أعون على تمحّض القلب لذكر الله، وأبعد على مداخلة الرياء وأدلّ على إيثار عبادة الله على حظ النفس من الراحة والنوم، فإنّ الليل أدعى إلى طلب الراحة، فإذا آثر المرء العبادة فيه استنار قلبه بحب التقرّب إلى الله تعالى { إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً } [المزمل:6]، فلا جرم كان تخصيص الليل بالذكر دالا على أنّ هذا القانت لا يخلو من السجود والقيام آناء النهار بدلالة فحوى الخطاب، قال تعالى { إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً } [المزمل:7]، وبذلك يتم انطباق هذه الصلة على حال النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **سَاجِداً وَقَائِماً** } حالان مبيّنان لـ { قَانِتٌ } ومؤكدان لمعناه. لوصف عمله الظاهر.

{ **يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ** } حالان، لوصف عمل قلبه، وهو أنّه بين الخوف من سيّئاته وفلتاته وبين الرجاء لرحمة ربّه أن يثيبه على حسناته.

وفي هذا تمام المقابلة بين حال المؤمنين الجارية على وفق حال نبيّهم صلى الله عليه وسلم وحال أهل الشرك الذين لا يدعون الله إلّا في نادر الأوقات، وهي أوقات الاضطرار، ثم يشركون به بعد ذلك، فلا اهتمام لهم إلا بعاجل الدنيا لا يحذرون الآخرة ولا يرجون ثوابها.

{ **يَحْذَرُ الْآخِرَةَ** } أي: يحذر عقاب الآخرة، فتعيّن أن الرجاء المأمول في الآخرة.

الرجاء: انتظار ما فيه نعيم وملاءمة للنفس. والمراد هنا: الملاءمة الأخروية.

وللخوف مزيّته من زجر النفس عمّا لا يرضي الله، وللرجاء مزيّته من حثّها على ما يرضي الله وكلاهما أنيس السالكين. وإنّما يكون الرجاء أو الخوف ظنًّا مع تردد في المظنون، أمّا المقطوع به فهو اليقين واليأس وكلاهما مذموم، قال تعالى { فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } [الأعراف:99]، وقال تعالى { إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف:87].

{ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** } استئناف بياني أثاره وصف المؤمن الطائع، والمعنى: أعلمهم يا محمد بأنّ هذا المؤمن العالم بحق ربه ليس سواء للكافر الجاهل بربه.

{ **قُلْ** } الإعادة هنا للاهتمام بهذا المقول ولاسترعاء الأسماع إليه.

{ **هَلْ يَسْتَوِي** } الاستفهام هنا مستعمل في الإنكار. والمقصود: إثبات عدم المساواة بين الفريقين، وعدم المساواة يكنّى به عن التفضيل. والمراد: تفضيل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون.

{ **الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** } الفعل في الموضعين منزّل منزلة اللازم فلم يذكر له مفعول. أي: أهل العقول، والعقل والعلم مترادفان، أي: لا يستوي الذين لهم علم فهم يدركون حقائق الأشياء على ما هي عليه وتجري أعمالهم على حسب علمهم، مع الذين لا يعلمون فلا يدركون الأشياء على ما هي عليه بل تختلط

عليهم الحقائق وتجري أعمالهم على غير انتظام، كحال الذين توهموا الحجارة آلهة ووضعوا الكفر موضع الشكر.

فالذين يعلمون هم أهل الإيمان، قال تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر:28]، والذين لا يعلمون هم أهل الشرك الجاهلون، قال تعالى { قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ } [الزمر:64].

وفي ذلك إشارة إلى أنّ الإيمان أخو العلم لأنّ كليهما نور ومعرفة حق، وأنّ الكفر أخو الضلال لأنه والضلال ظلمة وأوهام باطلة.

{ **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ** } واقع موقع التعليل لنفي الاستواء بين العالم وغيره، المقصود منه تفضيل العالم والعلم.

الألباب: العقول، وأولو الألباب: هم أهل العقول الصحيحة، وهم أهل العلم.

{ **قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** } [10].

لمّا أجري الثناء على المؤمنين بإقبالهم على عبادة الله في أشد الآناء، وبشدّة مراقبتهم إيّاه بالخوف والرجاء، وبتمييزهم بصفة العلم والعقل والتذكّر، بخلاف حال المشركين في ذلك كله، أتبع ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإقبال على خطابهم للاستزادة من ثباتهم ورباطة جأشهم، والتقدير: قل للمؤمنين.

{ **قُلْ يَا عِبَادِ** } ابتداء الكلام بالأمر بالقول للوجه الذي تقدم في نظيره آنفا، وابتداء المقول بالنداء وبوصف العبودية المضاف إلى ضمير الله تعالى، كل ذلك يؤذن بالاهتمام بما سيقال وبأنّه عن ربّهم، وهذا وضع لهم في مقام المخاطبة من الله، وهي درجة عظيمة.

{ **عِبَادِ** } حذفت ياء المتكلم، وهو استعمال كثير في المنادى المضاف إلى ياء المتكلّم.

{ **اتَّقُوا رَبَّكُمْ** } الأمر بالتقوى مراد به الدوام على المأمور به لأنّهم متّقون من قبل، وهو يشعر بأنّهم قد نزل بهم من الأذى في الدين ما يُخشى عليهم معه أن يقصّروا في تقواهم. وهذا الأمر تمهيد لما سيوجَّه إليهم من أمرهم بالهجرة للسلامة من الأذى في دينهم، وهو ما عرَّض به في قوله تعالى { وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ }

{ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ** } استئناف بياني، تمهيد وإشارة إلى موافقتهم الحسنى في هجرتهم.

ويجوز أن تكون الجملة مسوقة مساق التعليل للأمر بالتقوى الواقع بعدها.

الذين أحسنوا: الذين اتقوا الله، وهو المؤمنون الموصوفون بما تقدّم من قوله تعالى { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ } [9]، لأنّ تلك الخصال تدلّ على الإحسان المفسَّر بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم**

تكن تراه فإنه يراك "، فعدل عن التعبير بضمير الخطاب بأن يقال: لكم في الدنيا حسنة، إلى الإتيان باسم الموصول الظاهر { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا } ليشمل المخاطبين وغيرهم ممّن ثبتت له هذه الصلة. وذلك في معنى: اتقوا ربكم لتكونوا محسنين، فإنّ للذين أحسنوا حسنة عظيمة فكونوا منهم.

{ **فِي هَذِهِ الدُّنْيَا** } التوسّط بين { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا } وبين { حَسَنَةٌ } نظم ممّا اختصّ به القرآن في مواقع الكلم لإكثار المعاني التي يسمح بها النظم، وهذا من طرق إعجاز القرآن.

فيجوز أن يكون قوله { فِي هَذِهِ الدُّنْيَا } حالا من { حَسَنَةٌ } قُدِّم على صاحب الحال للتنبيه من أوّل الكلام على أنّها جزاؤهم في الدنيا. قال السدي: " الحسنة في الدنيا الصحة والعافية ".

ويجوز أن يكون في قوله { فِي هَذِهِ الدُّنْيَا } متعلّقا بفعل {أَحْسَنُوا} على أنّه ظرف لغوي، أي: فعلوا الحسنات في الدنيا، فيكون المقصود التنبيه على المبادرة بالحسنات في الحياة الدنيا قبل الفوات.

{ **حَسَنَةٌ** } التنوين للتعظيم، وهو بالنسبة لحسنة الآخرة للتعظيم الذاتي، وبالنسبة لحسنة الدنيا تعظيم وصفي، أي: حسنة أعظم من المتعارف، وأيًّا ما كان فاسم الإشارة { هَذِهِ } لتمييز المشار إليه وإحضاره في الأذهان. وتقدّم نظير هذه الآية عند قوله تعالى { وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ } [النحل:30].

{ **وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ** } عطف المقصود على التوطئة. وهو خبر مستعمل في التعريض بالحثّ على الهجرة في الأرض فرارا بدينهم من الفتن، بقرينة أنّ كون الأرض واسعة أمر معلوم لا يتعلّق الغرض بإفادته وإنّما كنّي به عن لازم معناه. والمعنى: إنّ الله وعدهم أن يلاقوا حسنة إذا هم هاجروا من ديار الشرك.

قال ابن عباس في قوله تعالى { قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ } : " يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة ".

ونكتة الكناية هنا إلقاء الإشارة إليهم بلطف وتأنيس دون صريح الأمر لما في مفارقة الأوطان من الغم على النفس.

{ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** } تذييل لجملة { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا } وما عطف عليها، لأنّ مفارقة الوطن والتغرّب والسفر مشاق لا يستطيعها إلّا صابر، فذيّل الأمر به بتعظيم أجر الصابرين ليكون إعلاما للمخاطبين بأنّ أجرهم على ذلك عظيم، إذ هو بغير حساب.

{ **إِنَّمَا** } الحصر منصبٌّ على القيد وهو { بِغَيْرِ حِسَابٍ }، والمعنى: ما يوفّى الصابرون أجرهم إلّا بغير حساب، وهو قصر قلب مبني على قلب ظنّ الصابرين أنّ أجر صبرهم بمقدار صبرهم.

التوفية: إعطاء الشيء وافيا، أي: تاما.

الصبر: سكون النفس عند حلول الآلام والمصائب بأن لا تضجر ولا تضطرب لذلك.

{ **الصَّابِرِينَ** } صيغة العموم تشمل كلّ من صبر على مشقة في القيام بواجبات الدين وامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، ومراتب هذا الصبر متفاوتة وبقدرها يتفاوت الأجر.

الأجر: الثواب في الآخرة كما هو مصطلح القرآن.

{ **بِغَيْرِ حِسَابٍ** } كناية عن الوفرة والتعظيم، لأنّ الشيء الكثير لا يُتصدى لعدّه، ولا يُحاط بمقداره.

وفي ذكر التوفية وإضافة الأجر إلى ضميرهم تأنيس لهم بأنّهم استحقوا ذلك لا منّة عليهم فيه، وإن كانت المنّة لله على كل حال.

الهجرة إلى الحبشة كانت سنة خمس قبل الهجرة (5 ق هـ). وكان سببها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا رأى ما يصيب أصحابه من البلاء وأنّ عمه أبا طالب لا يقدر أن يمنع أصحابه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" **لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكا لا يظلم عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه** "، فخرج معظم المسلمين مخافة الفتنة فخرج ثلاثة وثمانون رجلا وتسع عشرة امرأة سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا. وقد كان أبو بكر الصديق استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فأذن له فخرج قاصدا بلاد الحبشة فلقيه (ابن الدغِنَة) فَصدَّه وجعله في جواره.

ولما تعلقت إرادة الله تعالى بنشر الإسلام في مكة بين العرب لحكمة اقتضت ذلك، لم يأذن لرسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى موطن آخر، حتّى إذا تمّ مراد الله في تلك الأرض التي نشأ فيها رسوله صلى الله عليه وسلم، وأصبح انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بلد آخر أسعد بانتشار الإسلام في الأرض أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة بعد أن هيأ له بلطفه دخول أهلها في الإسلام، وكل ذلك جرى بقدرة وحكمة ولطف.

{ **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ [11] وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ [12]** }.

بعد أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بخطاب المسلمين بقوله { قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا } [10] أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول قولا يتعيّن أنّه مقول لغير المسلمين.

نقل الفخر عن مقاتل: " أنّ كفار قريش قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: " ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به، ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى، فأنزل الله { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ } ". وحقا فإن إخبار النبيّ بذلك إذا حمل على صريحه إنّما يناسب توجيهه إلى المشركين الذين يبتغون صرفه عن ذلك.

ويجوز أن يكون موجَّها إلى المسلمين الذين أذن الله لهم بالهجرة إلى الحبشة على أنّه توجيه لبقائه بمكة لا يهاجر معهم. فآذنهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله أمره أن يعبد الله مخلصا له الدين، أي: أن يوحده

في مكة، فتكون الآية ناظرة إلى قوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئينَ } [الحجر:95/94]. أي: أنّ الله أمره بأن يقيم على التبليغ بمكة، فإنّه لو هاجر إلى الحبشة لانقطعت الدعوة، وإنّما كانت هجرتهم إلى الحبشة رخصة لهم ولم يُرخّص ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [13]

هذا القول متعيّن لأن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم مأمورا بأن يواجه به المشركين الذين كانوا يحاولون النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يترك الدعوة وأن يتابع دينهم.

{ **قُلْ** } إعادة الأمر بالقول على هذا للتأكيد اهتماما بهذا المقول.

{ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي [14] فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ [15] }.

{ **قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي [14] فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ** } أمر بأن يعيد التصريح بأنّه يعبد الله وحده تأكيدا لقوله { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ } [11]، لأهمّيته، وإن كان مفاد الجملتين واحدا لأنّهما معا تفيدان أنّه لا يعبد إلّا الله تعالى.

{ **فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ** } الفاء لتفريع الكلام الذي بعدها على الكلام قبلها فهو تفريع ذكري. والأمر مستعمل في معنى التخلية، ويعبّر عنه بالتسوية. كناية عن قلة الاكتراث بفعل المخاطب. كقوله تعالى { فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف:29]. أي: اعبدوا أي شيء شئتم عبادته من دون الله.

{ **مَا شِئْتُمْ** } جعلت الصلة هنا فعل المشيئة إيماء إلى أنّ رائدهم في تعيين معبوداتهم هو مجرد المشيئة والهوى بلا دليل.

{ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } أعقب أمر التسوية في شأنهم بشيء من الموعظة حرصا على إصلاحهم على عادة القرآن، ولوحظ في إبلاغهم هذه الموعظة مقام ما سبق من التخلية بينهم وبين شأنهم، جمعا بين الإرشاد وبين التوبيخ، فجيء بالموعظة على طريق التعريض والحديث عن الغائب والمراد المخاطبون.

{ **قُلْ إِنَّ** } افتتح المقول بحرف التوكيد تنبيها على أنّه واقع حتما.

{ **الْخَاسِرِينَ** } تعريف الجنس، أي: أنّ الجنس الذين عرفوا بالخسران هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم.

<u>ومعنى خسرانهم أنفسهم</u>: أنّهم تسبّبوا لأنفسهم في العذاب في حين حسبوا أنّهم سعوا لها في النعيم والنجاح.

وأمّا خسرانهم أهليهم: فهو مثل خسرانهم أنفسهم وذلك أنّهم أغروا أهليهم، من أزواجهم وأولادهم، بالكفر كما أوقعوا أنفسهم فيه، فلم ينتفعوا بأهليهم في الآخرة ولم ينفعوهم { لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } [عبس:37]، وهذا قريب من قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً } [التحريم:6].

{ **أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** } استئناف هو بمنزلة الفذلكة والنتيجة من الكلام السابق لأنّ وصف { الَّذِينَ خَسِرُوا } بأنّهم خسروا أحبّ ما عندهم، وبأنّهم الذين انحصر فيهم جنس الخاسرين، يُستخلص منه أنّ خسارتهم أعظم خسارة وأوضحها للعيان، ولذلك أوثرت خسارتهم باسم { الْخُسْرَانُ } الذي هو اسم مصدر الخسارة دال على قوة المصدر والمبالغة فيه.

وأشير إلى العناية والاهتمام بوصف خسارتهم، بأن افتتح الكلام بحرف التنبيه { أَلا } داخلا على اسم الإشارة { ذَلِكَ } المفيد تمييز المشار إليه أكمل تمييز، وبتوسط ضمير الفصل { هُوَ } المفيد للقصر وهو قصر ادعائي، والقول فيه كالقول في الحصر في قوله تعالى { إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ }.

{ **لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ**}[16].

{ **لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ** } بدل اشتمال من { أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } [15]، وخُصّ بالإبدال لأنّه أشدّ خسرانهم عليهم لتسلّطه على إهلاك أجسامهم. والخسران يشتمل على غير ذلك من الخزي وغضب الله واليأس من النجاة.

{ **لَهُمْ** } الضمير عائد إلى مجموع { أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ } [15].

الظلل: اسم جمع ظُلّة، وهي شيء مرتفع من بناء أو أعواد مثل الصُّفَّة يستظل به الجالس تحته، مشتقّة من الظِل، لأنّها يكون لها ظل في الشمس، وتقدّم عند قوله تعالى { إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ } [البقرة:210]، وقوله تعالى { وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ } [لقمان:32]. وهي هنا استعارة للطبقة التي تعلو أهل النار في نار جهنم بقرينة قوله: { مِنَ النَّارِ}، شبهت بالظلة في العلو والغشيان مع التهكّم، لأنّهم يتمنّون ما يحجب عنهم حر النار فعبّر عن طبقات النار بالظلل إشارة إلى أنّهم لا واقي لهم من حر النار.

{ **وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ** } من باب المشاكلة، ولأنّ الطبقات التي تحتهم من النار تكون ظللا لكفار آخرين لأنّ جهنم دركات كثيرة.

{ **ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ** } تذييل للتهديد بالوعيد من قوله تعالى { قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ }، أو استئناف بياني لعلّة ذكر العذاب. وتخويف الله به معناه أنّه يخوفهم بالإخبار به وبوصفه.

ويُعلم من هذا بطريق المقابلة جعل الجنّة لترغيب عباده في التقوى، إلّا أنّه طوى ذكرها لأنّ السياق موعظة أهل الشرك، فالله جعل الجنة وجهنم إتماما لحكمته ومراده من نظام الحياة الدنيا ليكون الناس فيها على أكمل

ما ترتقي إليه النفس الزكيّة.

{ **ذَلِكَ** } إشارة إلى ما وُصف من الخسران والعذاب بتأويل المذكور.

التخويف: مصدر خوّفه، إذا جعله خائفا إذا أراه ووصف له شيئا يثير في نفسه الخوف، وهو الشعور بما يؤلم النفس بواسطة إحدى الحواس الخمس.

{ **عِبَادَهُ** } العباد المضاف إلى ضمير الجلالة في الموضعين هنا يعمّ كل عبد من الناس من مؤمن وكافر إذ الجميع يخافون العذاب على العصيان، والعذاب متفاوت وأقصاه الخلود لأهل الشرك، وليس العباد هنا مرادا به أهل القرب لأنّه لا يناسب مقام التخويف. ففرق بينه وبين نحو قوله { يَا عِبَادِي لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ } [الزخرف:68].

{ **يَا عِبَادِ فَاتَّقُون** } تفريع وتعقيب للجملة السابقة، لأنّ التخويف مؤذن بأنّ العذاب أعد لأهل العصيان فناسب أن يُعقّب بأمر الناس بالتقوى للتفادي من العذاب.

وقُدِّم النداء مع أن مقتضى الظاهر تأخيره كقوله تعالى { وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } [البقرة:197]، لأنّ المقام هنا مقام تحذير وترهيب، فهو جدير باسترعاء ألباب المخاطبين إلى ما سيرد من بعد من التفريع على التخويف، بخلاف آية البقرة فإنّها في سياق الترغيب في إكمال أعمال الحجّ والتزوّد للآخرة فلذلك جاء الأمر بالتقوى فيها معطوفا بالواو.

{ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ [17] الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ [18] }.

لمّا انتهى تهديد المشركين وموعظة الخلائق أجمعين ثُنِّي عنان الخطاب إلى جانب المؤمنين فيما يختصّ بهم من البشارة مقابلة لنذارة المشركين. والجملة معطوفة على جملة { قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ }.

{ **وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ** } التعبير عن المؤمنين بذلك لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر.

الطاغوت: مصدر أو اسم مصدر طَغا على وزن فَعَلُوت بتحريك العين بوزن رحموت وملكوت. ومن العلماء من جعل الطاغوت اسما أعجميا على وزن فاعول مثل جالوت وطالوت وهارون. وذكره في (الإتقان) فيما وقع في القرآن من المعرّب وقال: " إنّه الكاهن بالحبشية ".

وأطلق الطاغوت في القرآن والسنة على القوي في الكفر أو الظلم، فأطلق على الصنم، وعلى جماعة الأصنام، وعلى رئيس أهل الكفر مثل كعب بن الأشرف.

وأمّا جمعه على **طواغيت** فذلك على تغليب الاسمية علما بالغلبة.

وهو هنا مراد به جماعة الأصنام وقد أجري عليه ضمير المؤنث في قوله { أَنْ يَعْبُدُوهَا } باعتبار أنّه جمع لغير العاقل، وأجري عليه ضمير جماعة الذكور في قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ } [البقرة:257] باعتبار أنّه وقع خبرا عن الأولياء وهو جمع مذكّر، وباعتبار تنزيلها منزلة العقلاء في زعم عبادها.

{ **أَنْ يَعْبُدُوهَا** } بدل من { الطَّاغُوتُ } بدل اشتمال.

الإنابة: التوبة وتقدّمت في قوله تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود:75].والمراد بها هنا التوبة من كل ذنب ومعصية، وأعلاها التوبة من الشرك الذي كانوا عليه في الجاهلية.

{ **لَهُمُ الْبُشْرَى** } في تقديم المسند إفادة القصر. والمراد بها هنا: البشرى بالجنة.

البشرى: البشارة، وهي الإخبار بحصول نفع، وتقدّمت في قوله تعالى {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } [يونس:64].

{ **فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** } تفريع على قوله { لَهُمُ الْبُشْرَى }. وهم الذين اجتنبوا الطاغوت، فعدل عن الإتيان بضميرهم بأن يقال: فبشّرهم، إلى الإظهار باسم العباد مضاف إلى ضمير الله تعالى، وبالصلة لزيادة مدحهم بصفتين أخريين وهما: صفة العبودية لله، وصفة استماع القول واتباع أحسنه.

{ **الْقَوْلَ** } تعريف الجنس، أي: يستمعون الأقوال مما يدعو إلى الهدى مثل القرآن وإرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم، ويستمعون الأقوال التي يريد أهلها صرفهم عن الإيمان من ترّهات أئمة الكفر، فإذا استمعوا ذلك اتّبعوا أحسنه وهو ما يدعو إلى الحق.

أثنى الله عليهم بأنّهم أهل نقد يميّزون بين الهدى والضلال والحكمة والأوهام، نُظّار في الأدلة الحقيقية، نُقّاد للأدلة السفسطائية. وفي الموصول إيماء إلى أنّ اتّباع أحسن القول سبب في حصول هداية الله إياهم.

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ** } مستأنفة لاسترعاء الذهن لتلقي هذا الخبر. وأكد هذا الاسترعاء بجعل المسند إليه اسم إشارة ليتميّز المشار إليهم أكمل تميّزه، مع التنبيه على أنّهم كانوا أحرياء بهذه العناية الربّانية لأجل ما اتصفوا به من الصفات المذكورة قبل اسم الإشارة، وهي صفات اجتنابهم عبادة الأصنام مع الإنابة إلى الله واستماعهم كلام الله واتباعهم إيّاه نابذين ما يلقي به المشركون من أقوال التضليل.

وقد أفاد تعريف الجزأين قصر الهداية عليهم وهو قصر صفة على موصوف وهو قصر إضافي قصر تعيين، أي: دون الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم.

{ **هَدَاهُمُ اللَّهُ** } أنّهم نالوا هذه الفضيلة بأن تهيّأت نفوسهم لذلك وأقبلوا على سماع الهدى بشراشِرهم وسعوا إلى ما يبلّغهم إلى رضاه وطلبوا النجاة من غضبه. وليس المراد بهدي الله إيّاهم أنه وجّه إليهم أوامر إرشاده لأنّ ذلك حاصل للذين خوطبوا بالقرآن فأعرضوا عنه ولم يتطلبوا البحث عما يرضي الله تعالى.

{ **وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ** } دلّ ثناء الله على عباده المؤمنين الكُمَّل بأنّهم أحرزوا صفة اتّباع أحسن القول الذي يسمعونه، على شرف النظر والاستدلال للتفرقة بين الحق والباطل وللتفرقة بين الصواب والخطأ.

{ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ } [19]

لمّا أفاد الحصر في قوله تعالى { لَهُمُ الْبُشْرَى } [17] والحصران اللذان في قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ } [18] أنّ من سواهم، وهم المشركون، لا بشرى لهم، ولم يهدهم الله، ولا ألباب لهم لعدم انتفاعهم بعقولهم، وكان حاصل ذلك أنّ المشركين محرومون من حسن العاقبة بالنعيم الخالد، فُرّع على ذلك استفهام إنكاري مفيد التنبيه على انتفاء الطماعية في هداية الفريق الذي حقّت عليه كلمة العذاب.

{ **أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ** } تحقّقت في الواقع، أي: كانت كلمة العذاب المتوعّد بها حقًّا غير كذب، فمعنى { حَقَّ } هنا تحقّق، وحق كلمة العذاب عليهم ضد هدي الله الآخرين، وكونهم في النار ضد كون الآخرين لهم البشرى، وترتيب المتضادين جرى على طريقة شبه اللف والنشر المعكوس.

{ **حَقَّ** } تجريد الفعل من تاء التأنيث مع أنّ فاعله مؤنث { كَلِمَةُ }، لأنّ الفاعل اكتسب التذكير ممّا أضيف هو إليه نظرا لإمكان الاستغناء عن المضاف بالمضاف إليه، فكأنّه قيل: أفمن حق عليه العذاب.

{ **كَلِمَةُ الْعَذَابِ** } هي كلام الله المقتضي أنّ الكافر في العذاب، أي: تقدير الله ذلك للكافر في وعيده.

{ **أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ** } تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي مفيد لتقوّي الحكم، وهو إنكار أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم بتكرير دعوته يخلّصهم من تحقيق الوعيد أو يحصل لهم الهداية إذا لم يقدّرها الله لهم.

{ **مَنْ فِي النَّارِ** } هم من حقّت عليهم كلمة العذاب، فوقع إظهار في مقام الإضمار، والأصل: أفأنت تنقذه من النار. وفائدة هذا الإظهار تهويل حالتهم لما في الصلة من حرف الظرفية المصوّر لحالة إحاطة النار بهم. فشبّه تحقّق الوقوع في المستقبل بتحقّقه في الحال.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم تهوينا عليه بعض حرصه على تكرير دعوتهم إلى الإسلام، وحزنه على إعراضهم وضلالهم، وإلّا فلم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم بالذي يظنّ أنّه ينقذهم من وعيد الله.

وحاصل نظم هذا التركيب: أفمن حق عليه كلمة العذاب فهو في النار أفأنت تنقذه وتنقذ من في النار.

وقد أشار إلى هذه الحالة الممثّلة في الآية حديث أبي هريرة أنّه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: " **إنّما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعل الفَراش، وهذه الدوابُ التي تقع في النار، يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحُجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها** ".

ولا متمسك للمعتزلة في الاستدلال بالآية على نفي الشفاعة المحمّدية لأهل الكبائر، على أننا لو سلمنا أن الآية مسوقة في غرض الشفاعة فإنّما نفت الشفاعة لأهل الشرك. ولا خلاف في أن المشركين لا شفاعة فيهم قال تعالى { فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } [المدثر:48]، على أنّ المنفي هو أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم منقذا لمن أراد الله عدم إنقاذه، فأمّا الشفاعة فهو سؤال الله أن ينقذه.

{ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ } [20]

أعيدت بشارة الذين اجتنبوا الطاغوت تفصيلا للإجمال الواقع من قبل.

{ **لَكِنِ** } الافتتاح بحرف الاستدراك لزيادة تقرير الفارق بين حال المؤمنين وحال المشركين والمضادة بينهما، فحرف الاستدراك هنا لمجرّد الإشعار بتضاد الحالين ليعلم السامع أنّه سيتلقى حكما مخالفا لما سبق.

{ **الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ** } هم الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت وأنابوا إلى الله واتبعوا أحسن القول واهتدوا بهدي الله وكانوا أولي ألباب، فعدل عن الإتيان بضميرهم هنا إلى الموصول لقصد مدحهم بمدلول الصلة، وللإيماء إلى أنّ الصلة سبب للحكم المحكوم به على الموصول، وهو نوالهم الغرف.

{ **رَبَّهُمْ** } عدل عن اسم الجلالة إلى وصف الربّ المضاف إلى ضمير المتّقين لما في تلك الإضافة من تشريفهم برضى ربّهم عنهم.

{ **لَهُمْ غُرَفٌ** } اللام للاختصاص. والمعنى: أنّها لهم في الجنة.

الغُرف: جمع غُرفة (بضم الغين وسكون الراء)، وهي البيت المرتكز على بيت آخر، ويقال لها العُلِّيَّة (بضم العين وكسرها وبكسر اللام مشددة والتحتية كذلك) وتقدّمت **الغرفة** في [الفرقان:57].

{ **مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ** } أنّها موصوفة باعتلاء غرف عليها وكل ذلك داخل في حيز لام الاختصاص، فالغرف التي فوق الغرف هي لهم أيضا لأنّ ما فوق البناء تابع له، وهو المسمَّى بالهواء في اصطلاح الفقهاء.

فالمعنى: لهم أطباق من الغرف، وذلك مقابل ما جعل لأهل النار في قوله { لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ } [16].

{ **مَبْنِيَّةٌ** } الممسوكة الجدران بحجر وجِصّ، أو حجر وتراب، أو بطوب مشمّس ثم توضع عليها السقف.

وقد تردّد المفسرون في وجه وصف الغرف بكونها مبنية مع أن الغرفة لا تكون إلّا من بناء.

<u>فقيل</u> :ذكر المبنية للدلالة على أنّها غرف حقيقية لا أشياء مشابهة الغرف، فرقا بينها وبين الظلل التي جعلت للذين خسروا يوم القيامة فإن ظللهم كانت من نار فلا يظنّ السامع أن غرف المتقين مجاز عن سحابات من

الظل أو نحو ذلك لعدم الداعي إلى المجاز هنا بخلافه هنالك، لأنّه اقتضاه مقام التهكّم.

وقيل: أريد أنّها مهيّأة لهم من الآن. فهي موجودة، لأن اسم المفعول كاسم الفاعل في اقتضائه الاتصاف بالوصف في زمن الحال فيكون إيماء إلى أنّ الجنّة مخلوقة من الآن.

ويجوز عندي أن يكون الوصف احترازا عن نوع من الغرف تكون نحتا في الجبال مثل غرف ثمود.

ويجوز أن يكون وصفا للغرف باعتبار ما دل عليه لفظها من معنى المبني المعتلي، فيكون الوصف دالا على تمكّن المعنى الموصوف، أي: مبنية بناء بالغا الغاية في نوعه.

{ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** } جريُ الأنهار من تحتها من كمال حسن منظرها. أي: أنّ الأنهار تمرّ على ما يجاور تحتها، كما تقدّم في قوله تعالى { جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [آل عمران:15]، فأطلق اسم (تحت) على المجاورة.

ويجوز أن يكون المعنى: تجري من تحت أسسها الأنهار، أي: تخترق أسسها وتمر فيها وفي ساحاتها، وذلك من أحسن ما يرى في الديار، كديار دمشق وقصر الحمراء بالأندلس وديار أهل الترف في مدينة فاس فيكون إطلاق (تحت) حقيقة.

{ **وَعْدَ اللَّهِ** } مصدر منصوب على أنّه مفعول مطلق مؤكّد لنفسه، لأن قوله { لَهُمْ غُرَفٌ } في معنى: وعدهم الله غرفا وعدا منه. ويجوز انتصابه على الحال من { غُرَفٌ }. وإضافة { وَعْدَ } إلى اسم الجلالة مؤذنة بأنّه وعد موفى به.

{ **لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ** } بيانا لمعنى { وَعْدَ اللَّهِ }.

الميعاد: مصدر ميمي بمعنى الوعد.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [21]

استئناف ابتدائي انتقل به إلى غرض التنويه بالقرآن وما أحتوى عليه من هدى الإسلام، وهو الغرض الذي ابتدئت به السورة وانثنى الكلام منه إلى الاستطراد بقوله تعالى { فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ } [2] إلى هنا، فهذا تمهيد لقوله { أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ - إلى قوله - ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ } [23/22] فمُثِّلت حالة إنزال القرآن واهتداء المؤمنين به والوعد بنماء ذلك الاهتداء، بحالة إنزال المطر ونبات الزرع به واكتماله.

وقريب من تمثيل هذه الآية ما في الصحيحين عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال :**" مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقيَّةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هُدى الله الذي أرسلت به ".**

{ **أَلَمْ تَرَ** } استفهام تقريري، والخطاب لكل من يصلح للخطاب فليس المراد به معينا. والرؤية بصرية.

{ **أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** } تقدّم نظيره في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } [الأنعام:99].

{ **سَلَكَهُ** } أدخله، أي: داخلا، ففعل سلك هنا متعدّ، وتقدّم عند قوله تعالى { وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً } [طه:53]، وذكرنا هنالك أنّ فعل سلك يكون قاصرا ومتعدّيا.

{ **يَنَابِيعَ** } جمع ينبوع وهو العين من الماء، وتقدّم في قوله تعالى { حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً } [الإسراء:90]. وانتصب { يَنَابِيعَ } على الحال من ضمير { مَاءً }.

{ **ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً** } عُطف بـ { ثُمَّ } لإفادة التراخي الرتبي لأنّ إخراج الزرع من الأرض بعد إقْحالها أوقع في نفوس الناس، لأنّه أقرب لأبصارهم وأنفع لعيشهم، وإذ هو المقصود من المطر.

الألوان: جمع لون، واللون: كيفية لائحة على ظاهر الجسم في الضوء، وتقدّم في [فاطر:28/27].

واختلاف ألوان الزرع بالمعنى الأول أنّ لكل نوع من الزرع لونا ولنَوْرها ألوانا، ولكلّ صنف من الزرع ألوان مختلفة في أطوار نباته وبلوغه أشدّه، وهذا الاختلاف مع اتحاد الأرض التي تنبت فيها واتحاد الماء الذي نبت به.

{ **يَهِيجُ** } يغلظ ويرتفع. وحقيقة الهياج: ثورة الإنسان أو الحيوان، ويستعار الهياج لشدّة الشيء من غير الحيوان يقال: هاجت ريح، ومنه هياج الزرع في الآية، لأنّ الزرع تطول سوقه وسنابله فيتم جفافه فإذا تحرك بمرور الريح عليه صار له حفيف وخشخشة.

الحطام: المحطوم، أي: المكسور المفتوت، ووزن فُعال (بضم الفاء) يدلّ على المفعول كالفُتات والدُقاق، ومثله الفعالة كالصبابة والقلامة والقمامة. والمعنى: أنّه يبلغ من اليبس إلى حد أن يتحطّم ويتكسر بحك بعضه بعضا وتساقطه وكسر الريح إيّاه.

وجميع الأطوار السابقة آيات على دقّة صنعه سبحانه وكيف أودع الأطوار الكثيرة في الشيء الواحد يخلف بعضها بعضا، من طور وجوده إلى طور إضمحلاله.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ** } مبيّنة للاستفهام التقريري، وفذلكة للأطوار المستفهم عنها، فالإشارة بذلك إلى المذكور من الإنزال إلى آخر الأطوار.

{ **أُولِي الْأَلْبَابِ** } هم الذين ينتفعون بألبابهم فيهتدون بما نصب لهم من الأدلة، كما تقدم آنفا في قوله { إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [9]، وهم الذين استدلوا فآمنوا. وفي هذا التعريض بأنّ الذين لم يستفيدوا من الأدلة بمنزلة من عدموا العقول.

{ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [23]

{ **أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ** } استفهام تقريري، وشرحُ الصدر للإسلام استعارة لقبول العقل هدي الإسلام ومحبته.

الشرح: حقيقته شق اللحم، ومنه سُمِّي علم مشاهدة باطن الإنسان وتركيبه علم التشريح.

ولمّا كان الإنسان إذا تحيّر وتردّد في أمر يظهر تأثّره في انضغاط نفسه حتّى يصير تنفّسه عسيرا ويكثر تنهده، وكان عضو التنفس في الصدر، شُبِّه ذلك الانضغاط بالضيق والانطباق، فقالوا: ضاق صدره. قال تعالى عن موسى عليه السلام { وَيَضِيقُ صَدْرِي } [الشعراء:13]، وقالوا: انطبق صدره وانطبقت أضلاعه، وقالوا في ضد ذلك: شرح الله صدره. وجمع بينهما قوله تعالى { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ } [الأنعام:125].

ومن رشاقة ألفاظ القرآن إيثار كلمة { شَرَحَ } للدلالة على قبول الإسلام، لأن تعاليم الإسلام وأخلاقه وآدابه تُكسب المسلم فرحا بحاله ومسرّة برضى ربه واستخفافا للمصائب والكوارث لجزمه بأنّه على حق في أمره وأنّه مثاب على ضره، وأنّه راج رحمة ربه في الدنيا والآخرة، ولعدم مخالطة الشك والحيرة ضميره.

{ **لِلْإِسْلامِ** } لام العلة، أي: شرحه لأجل الإسلام، أي: لأجل قبوله.

{ **فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ** } تفريع على أن شرح الله صدره للإسلام، فالضمير عائد إلى { من } .

{ **عَلَى** } استعارة تبعية أو تمثيلية للتمكّن من النور، كما استعيرت في قوله تعالى { أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ } [البقرة:5].

النور: مستعار للهدى ووضوح الحق، لأنّ النور به تنجلي الأشياء ويخرج المبصر من غياهب الضلالة.

{ **مِنْ رَبِّهِ** } نعت لنور و{ من } ابتدائية، أي: نور موصوف بأنّه جاء به من عند الله، فهو نور كامل لا تخالطه ظلمة، وهو النور الذي أضيف إلى اسم الله في قوله تعالى { يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ } [النور:35].

{ **فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ** } أجمل سوء حالهم بما تدلّ عليه كلمة { وَيْلٌ } من بلوغهم أقصى غايات الشقاوة والتعاسة، وتقدّم تفصيل معانيه عند قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } [البقرة:79].

القاسي: المتّصف بالقساوة في الحال، وحقيقة القساوة: الغلظ والصلابة في الأجسام، وقد تقدّمت عند قوله تعالى { فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً } [البقرة:74].

قسوة القلب: مستعارة لقلة تأثر العقل بما يُسدى إلى صاحبه من المواعظ ونحوها، ويقابل هذه الاستعارة استعارة اللين لسرعة التأثّر بالنصائح ونحوها، كما سيأتي في قوله تعالى { ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ } [23].

{ **مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ** } يجوز أن تكون { مِنْ } بمعنى (عن) بتضمين { الْقَاسِيَةِ } معنى المعرضة والنافرة.

ذكر الله: القرآن، وإضافته إلى الله زيادة تشريف له.

وحاصل المعنى: أنّ كفرهم يحملهم على كراهية ما يسمعونه من الدعوة إلى الإسلام بالقرآن فكلّما سمعوه أعرضوا وعاندوا وتجدّدت كراهية الإسلام في قلوبهم حتّى ترسخ تلك الكراهية في قلوبهم فتصير قلوبهم قاسية.

فكان القرآن سبب اطمئنان قلوب المؤمنين قال تعالى { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [الرعد:28]. وكان سببا في قساوة قلوب الكافرين. فذكر الله سبب في لين القلوب وإشراقها إذا كانت القلوب سليمة من مرض العناد والمكابرة والكبر، فإذا حل فيها هذا المرض صارت، إذا ذكر الله عندها، أشد ّمرضا ممّا كانت عليه.

{ **أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } علّة لقسوة قلوبهم، حسبما اقتضاه وقوع جملته استئنافا بيانيا. ومضمونها مفعولا لقسوة قلوبهم حسبما اقتضاه تصدير جملتها باسم الإشارة وعقب وصف المشار إليهم بأوصاف. وكذلك شأن الأعراض النفسية أن تكون فاعلة ومنفعلة باختلاف المثار وما تتركه من الآثار، لأنّها علل ومعلولات.

المبين: الشديد الذي لا يخفى لشدّته، فالمبين كناية عن القوّة والرسوخ فهو يبين للمتأمّل أنّه ضلال.

{ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [23]

{ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ** } جملة مبيّنة أنّ قساوة قلوب الضالين من سماع القرآن إنّما هي لرَين في قلوبهم وعقولهم لا لنقص في هدايته. وهي تكميل للتنويه بالقرآن المفتتح به غرض السورة.

{ **اللَّهُ نَزَّلَ** } افتتاح الجملة باسم الجلالة يؤذن بتفخيم أحسن الحديث المنزّل، بأنّ منزّله هو أعظم عظيم. ثم الإخبار عن اسم الجلالة بالخبر الفعلي يدلّ على تقوية الحكم وتحقيقه على نحو قولهم: هو يعطي الجزيل،

ويفيد مع التقوية دلالة على الاختصاص، أي: اختصاص تنزيل الكتاب بالله تعالى، والمعنى: الله نزل الكتاب لا غيره، ففيه إثبات أنه منزل من عالم القدس، وذلك أيضا كناية عن كونه وحيا من عند الله لا من وضع البشر. ردا لقول المشركين: هو أساطير الأولين.

{ **أَحْسَنَ الْحَدِيثِ** } الوصف الأول: أي: أحسن الخبر.

الحديث: التعريف للجنس، الخبر، سُمِّي حديثا لأن شأن الإخبار أن يكون عن أمر حدث وجدّ.

وسُمِّي القرآن حديثا باسم بعض ما أشتمل عليه من أخبار الأمم والوعد والوعيد. وأمّا ما فيه من الإنشاء من أمر ونهي ونحوهما فإنّه لمّا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم مبلّغه للناس آل إلى أنّه إخبار عن أمر الله ونهيه.

وقد سُمِّي القرآن حديثا في مواضع كثيرة، كقوله تعالى { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف:185]، وقوله تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفا } [الكهف:6].

ومعنى كون القرآن أحسن الحديث أنّه أفضل الأخبار لأنّه أشتمل على أفضل ما أشتملت عليه الأخبار من المعاني النافعة والجامعة لأصول الإيمان، والتشريع، والاستدلال الحق، ومن فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه البالغين حد الإعجاز، ومن كونه مصدّقا لما تقدّمه من كتب الله ومهيمنا عليها.

وفي إسناد إنزاله إلى الله استشهاد على حسنه، حيث نزّله العليم بنهاية محاسن الأخبار والذكر.

{ **كِتَاباً** } الوصف الثاني : أنّه كتاب.

أي: مجموع كلام مراد قراءته وتلاوته والاستفادة منه، مأمور بكتابته ليبقى حجّة على مر الزمان، فإنّ جعل الكلام كتابا يقتضي أهمية ذلك الكلام والعناية بتنسيقه والاهتمام بحفظه على حالته.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر كتّاب الوحي من أصحابه أن يكتبوا كلّ آية تنزل من الوحي في الموضع المعيّن لها بين أخواتها استنادا إلى أمر من الله، لأنّ الله أشار إلى الأمر بكتابته في مواضع كثيرة من أوّلها قوله تعالى { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ } [البروج:23/22]، وقوله تعالى { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ } [الواقعة:78/77].

{ **مُتَشَابِهاً** } الوصف الثالثة : متشابهة أجزاؤه متماثلة في فصاحة ألفاظها وشرف معانيها.

فهي متكافئة في الشرف والحسن. فمعانيه متشابهة في صحّتها وأحكامها وابتنائها على الحقّ والصدق، ومصادفة المقنع من الحجّة وتبكيت الخصوم، وكونها صلاحا للناس وهدى. وفي هذا إشارة إلى أنّ جميع آيات القرآن بالغ الطرف الأعلى من البلاغة، وأنّها متساوية في ذلك بحسب ما يقتضيه حال كلّ آية منها. وأمّا تفاوتها في كثرة الخصوصيات وقلتها فذلك تابع لاختلاف المقامات ومقتضيات الأحوال، فإنّ بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال، والطرف الأعلى من البلاغة هو مطابقة الكلام لجميع ما يقتضيه الحال.

وهذا المعنى ممّا يدخل في قوله تعالى { أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً} [النساء:82].

وبما قررنا تعلم أنّ المتشابه هنا مراد به معنى غير المراد في قوله تعالى {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران:7].

{ **مَثَانِيَ** } الوصف الرابع : مكرّر الأغراض.

جمع مُثَنَّى (بضم الميم وبتشديد النون) جمعا على غير قياس، أو اسم جمع. ويجوز كونه جمع مَثْنَى (بفتح الميم وتخفيف النون) وهو اسم لجعل المعدود أزواجا اثنين، اثنين، وكلا الاحتمالين يطلق على معنى التكرير. كُنِّي عن معنى التكرير بمادة التثنية لأن التثنية أوّل مراتب التكرير.

وقد تقدّم بيان معنى { مَثَانِيَ } في قوله تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي } [الحجر:87]، فالقرآن مثاني لأنه مكرّر الأغراض. وهذا يتضمّن امتنانا على الأمّة بأنّ أغراض كتابها مكرّرة فيه لتكون مقاصده أرسخ في نفوسها، وليسمعها من فاته سماع أمثالها من قبل.

ويتضمّن أيضا تنبيها على ناحية من نواحي إعجازه، وهي عدم الملل من سماعه وأنّه كلما تكرّر غرض من أغراضه زاده تكرّره قبولا وحلاوة في نفوس السامعين. ولذا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن : " **بأنّه لا يخلق على كثرة الردّ** ". [رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب مرفوعا].

{ **تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ** } الوصف الخامس:

وهذا الوصف مرتّب على الوصف السابق، وهو مشتمل على ثلاث جهات:

الجهة الأولى في جهات هذا الوصف: وصف القرآن بالجلالة والروعة في قلوب سامعيه، وذلك لِما في آياته الكثيرة من الموعظة التي تَوْجَل منها القلوب، وهو وصف كمال، لأنّه من آثار قوّة تأثير كلامه في النفوس.

وقد اقتضى قوله تعالى { تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ } أنّ القرآن يشتمل على معان تقشعر منها الجلود، وهي المعان الموسومة بالجزالة التي تثير في النفوس روعة وجلالة ورهبة تبعث على امتثال السامعين له وعملهم بما يتلقّونه من قوارع القرآن وزواجره، وكُنِّي عن ذلك بحالة تقارن انفعال الخشية والرهبة في النفس، لأنّ الإنسان إذا ارتاع وخشي اقشعر جلده من أثر الانفعال والرهبة.

قال تعالى { لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الحشر:21].

حُكي في الحديث الصحيح عن جبير بن مطعم قال: " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ قوله تعالى { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ - إلى قوله – الْمُصَيْطِرُونَ } [الطور:35-37] كاد قلبي أن يطير وذلك أوّل ما وقر الإسلام في قلبي ".

الجهة الثانية في جهات هذا الوصف: لين قلوب المؤمنين عند سماعه أيضا عقب وجلها العارض من سماعه.

اللين: مستعار للقبول والسرور، وهو ضدّ للقساوة التي في قوله { فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ } [22]، فإنّ المؤمن إذا سمع آيات الوعيد والتهديد يخشى ربّه ويتجنّب ما حذّر منه، فيقشعر جلده فإذا عُقِّب ذلك بآيات البشارة والوعد استبشر وفرح وعرض أعماله على تلك الآيات فرأى نفسه متحلّية بالعمل الذي وعد الله عليه بالثواب فاطمأنت نفسه وأنقلب الوجل والخوف رجاء وترقبا، فذلك معنى لين القلوب.

وإنّما يبعث هذا اللين في القلوب ما في القرآن من معاني الرحمة وذلك في الآيات الموصوفة معانيها بالسهولة نحو قوله تعالى { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [الزمر:53]، والموصوفة معانيها بالرقّة نحو قوله تعالى { يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ } [الزخرف:68-69].

وقد عُلم في فن الخطابة أنّ للجزالة مقاماتها وللسهولة والرقة مقاماتها.

الجهة الثالثة في جهات هذا الوصف: أعجوبة جمعه بين التأثيرين المتضادين: مرة بتأثير الرهبة، ومرة بتأثير الرغبة، ليكون المسلمون في معاملة ربّهم جارين على ما يقتضيه جلاله وما يقتضيه حلمه ورحمته.

وهذه الجهة اقتضاها الجمع بين الجهتين المصرّح بهما وهما جهة القشعريرة وجهة اللين، مع كون الموصوف بالأمرين فريقا واحدا وهم الذين يخشون ربهم، والمقصود وصفهم بالتأثرين عند تعاقب آيات الرحمة بعد آيات الرهبة.

فالآية هنا ذكرت لهم الحالتين لوقوعها بعد قوله { مَثَانِيَ }، وإلّا فقد اقتصر على وصف حال المؤمنين بالوجل في قوله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } [الأنفال:5]، فالمقام هنا لبيان تأثير المؤمنين بالقرآن، والمقام هنالك للثناء على المؤمنين بالخشية من الله في غير حالة قراءة القرآن.

{ **ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ** } جمع بين الجلود والقلوب ولم يكتف بأحد الأمرين عن الآخر كما اكتفي في قوله { تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ } لأنّ اقشعرار الجلود حالة طارئة عليها لا يكون إلّا من وجل القلوب وروعتها فكُنِّي به عن تلك الروعة. وأمّا لين الجلود عقب تلك القشعريرة فهو رجوع الجلود إلى حالتها السابقة قبل اقشعرارها، وذلك قد يحصل عن تناس أو تشاغل بعد تلك الروعة، فعطف عليه لين القلوب ليُعلم أنّه لين خاص ناشئ عن اطمئنان القلوب بالذكر، كما قال تعالى { أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [الرعد:28]، وليس مجرّد رجوع الجلود إلى حالتها التي كانت قبل القشعريرة.

{ **ذِكْرِ اللَّهِ** } هو أحسن الحديث، وعدل عن ضميره لبعد المعاد، وعدل عن إعادة اسمه السابق لمدحه بأنّه ذكر من الله بعد أن مدح بأنّه أحسن الحديث.

{ **ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ** } استئناف بياني. ومعنى إسناد الهدى والإضلال إلى الله راجع إلى مراتب تأثّر المخاطبين بالقرآن وعدم تأثّرهم، بحيث كان القرآن مستوفيا لأسباب اهتداء الناس به، فكان منهم من اهتدى به ومنهم من ضلّ عنه.

ويجوز أن تكون الإشارة إلى { أَحْسَنَ الْحَدِيثِ }، وهو الكتاب، أي: ذلك القرآن هدى الله، أي دليل لذلك.

{ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** } تذييل للاستئناف البياني.

{ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } [24]

{ **أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } جعلها المفسّرون تفريعا على جملة { ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [23]، بدلالة مجموع الجملتين على فريقين: فريق مهتد، وفريق ضال، ففُرّع على ذلك هذا الاستفهام المستعمل في معنى مجازي. وجعل المفسِّرون في الكلام حذفا، وتقدير المحذوف: كمن أمن العذاب أو كمن هو في النعيم. وجعلوا الاستفهام تقريريا أو إنكاريا، والمقصود: عدم التسوية بين من هو في العذاب وهو الضال، ومن هو في النعيم وهو الذي هداه الله.

الاتقاء: تكلّف الوقاية وهي الصون والدفع، وفعلها يتعدّى إلى مفعولين، يقال: وقى نفسه ضرب السيف، ويتعدّى بـ (الباء) إلى سبب الوقاية، يقال: وقى بترسه.

{ **بِوَجْهِهِ** } وإذا كان وجه الإنسان ليس من شأنه أن يوقى به شيء من الجسد، إذ الوجه أعز ما في الجسد وهو يوقى ولا يُتّقى به، فإنّ من جبلّة الإنسان إذا توقّع ما يصيب جسده ستر وجهه خوفا عليه، فتعيّن أن يكون الاتقاء بالوجه مستعملا كناية عن عدم الوقاية على طريقة التهكّم أو التمليح، فكأنّه قيل: من يطلب وقاية وجهه فلا يجد ما يقيه به إلّا وجهه، وهذا من إثبات الشيء بما يشبه نفيه، وقريب منه قوله تعالى { وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ } [الكهف:29].

{ **سُوءَ الْعَذَابِ** } منصوب على المفعولية لفعل { يَتَّقِي }. وأصله مفعول ثان إذ أصله: وقى نفسه سوء العذاب، فلمّا صيغ منه الافتعال صار الفعل متعدّيا إلى مفعول واحد هو الذي كان مفعولا ثانيا.

{ **وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** } يجوز أن يكون عطفا على الصلة. والتقدير: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب، وقيل لهم. وجاء فعل { وَقِيلَ } بصيغة الماضي لأنّه لتحقّق وقوعه نزل منزلة فعل مضى.

{ **الظَّالِمِينَ** } إظهار في مقام الإضمار للإيماء إلى أنّ ما يلاقونه من العذاب مسبَّب على ظلمهم، أي: شركهم

والمعنى: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب فلا يجد وقاية تنجيه من ذوق العذاب فيقال لهم: ذوقوا العذاب.

ويجوز أن يكون المراد بـ { الظَّالِمِينَ } جميع الذين أشركوا بالله من الأمم، غير خاص بالمشركين المتحدَّث

عنهم، فيكون { الظَّالِمِينَ } إظهارا على أصله لقصد التعميم، فتكون الجملة في معنى التذييل، أي: ويقال لهؤلاء وأشباههم. ويظهر بذلك وجه تعقيبه بقوله تعالى { كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [25].

ويجوز أن تكون الجملة في موضع الحال بتقدير: (وقد)، ولذلك لا يُحتاج إلى تأويل صيغة الماضي.

الذوق: مستعار لإحساس ظاهر الجسد، لأنّ إحساس الذوق باللسان أشدّ من إحساس ظاهر الجلد فوجه الشبه قوّة الحسّ.

المذوق: هو العذاب فهو جزاء ما اكتسبوه في الدنيا من الشرك وشرائعه، فجعل المذوق نفس ما كانوا يكسبون، مبالغة مشيرة إلى أنّ الجزاء وفق أعمالهم وأنّ الله عادل في تعذيبهم.

{ **تَكْسِبُونَ** } أوثر على تعملون لأنّ خطابهم كان في حال اتقائهم سوء العذاب ولا يخلو حال المعذَّب من التبرم الذي هو كالإنكار على معذِّبه. فجيء بالصلة الدالة على أنّ ما ذاقوه جزاء ما اكتسبوه، قطعا لتبرّمهم.

{ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ [25] فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [26] }.

استئناف بياني لأنّ ما ذُكر قبله من مصير المشركين إلى سوء العذاب يوم القيامة ويوم يقال للظالمين هم وأمثالهم: ذوقوا ما كنتم تكسبون، يثير في نفوس المؤمنين سؤالا عن تمتّع المشركين بالنعمة في الدنيا، ويتمنون أن يُعجَّل لهم العذاب، فكان جوابا عن ذلك. أي: هم مظنّة أن يأتيهم العذاب كما أتي العذاب الذين من قبلهم، إذ أتاهم العذاب في الدنيا بدون إنذار غير مترقّبين مجيئه، على نحو قوله تعالى { فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ } [يونس:102]، فكان عذاب الدنيا خزيا يجزي به الله من يشاء من الظالمين، وأمّا عذاب الآخرة فجزاء يجزي به الله الظالمين على ظلمهم.

{ **فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ** } حرف (الفاء) عائد على { مَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ } [24]، باعتبار أن (من) تفيد الجمع. وفي هذا تعريض بإنذار المشركين بعذاب يحلّ بهم في الدنيا، وهو عذاب السيف الذي أخزاهم الله به يوم بدر. فالمراد بالعذاب الذي أتى الذين من قبلهم: هو عذاب الدنيا، لأنّه الذي يوصف بالإتيان من حيث لا يشعرون.

{ **مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** } { حَيْثُ } ظرف مكان، أي: جاء العذاب الذين من قبلهم من مكان لا يشعرون به، فقوم أتاهم من جهة السماء بالصواعق، وقوم أتاهم من الجو مثل ريح عاد، قال تعالى { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الاحقاف:24]، وقوم أتاهم من تحتهم بالزلازل والخسف مثل قوم لوط، وقوم أتاهم من نبع الماء من الأرض مثل قوم نوح، وقوم

عمّ عليهم البحر مثل قوم فرعون.
وكان العذاب الذي أصاب كفار قريش لم يخطر لهم ببال، وهو قطع السيوف رقابهم وهم في عزّة من قومهم وحرمة عند قبائل العرب ما كانوا يحسبون ايديًا تقطع رقابهم، كحال أبي جهل وهو في الغرغرة يوم بدر حين قال له ابن مسعود: " أنت أبا جهل؟ " فقال: " وهل أعمد من رجل قتله قومه ".
{ **فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ** } استعارة الإذاقة لإهانة الخزي تخييليّة، وهي من تشبيه المعقول بالمحسوس.
{ **وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ** } للاحتراس، أي: أنّ عذاب الآخرة هو الجزاء، وأمّا عذاب الدنيا فقد يصيب الله به بعض الظلمة زيادة خزي لهم.
{ **أَكْبَرُ** } أشدّ، فهو أشّد كيفية من عذاب الدنيا، وأشدّ كمّية لأنّه أبدي.
{ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** } جملة معترضة في آخر الكلام. و{ **لَوْ** } جوابها محذوف دلّ عليه التعريض بالوعيد في قوله { كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }، تقديره: لو كانوا يعلمون أن ما حّل بهم سببه تكذيبهم رسلهم، كما كذب هؤلاء محمدا صلى الله عليه وسلم.
{ **يَعْلَمُونَ** } المفعول دل عليه الكلام المتقدّم، أي: لو كان هؤلاء يعلمون أنّ الله أذاق الآخرين الخزي في الدنيا بسبب تكذيبهم الرسل، وأنّ الله أعدّ لهم عذابا في الآخرة هو أشد.
وضمير { يَعْلَمُونَ } عائد إلى ما عاد إليه ضمير { قَبْلِهِمْ }.

{ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [27] قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [28] }.

عطف على جملة { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ - إلى قوله - فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [23]، تتمّة للتنويه بالقرآن وإرشاده وللتعريض بتسفيه أحلام الذين كذّبوا به وأعرضوا عن الاهتداء بهديه.
{ **وَلَقَدْ** } تأكيد الخبر بلام القسم وحرف التحقيق منظور فيه إلى حال الفريق الذين لم يتدبَّروا القرآن وطعنوا فيه وأنكروا أنّه من عند الله.
{ **النَّاسِ** } التعريف للاستغراق، أي: لجميع الناس، فإنّ الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم للناس كافة.
ضَرْب المثل: ذِكره ووصفُه، وقد تقدّم في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً } [البقرة:26].
{ **مَثَلٍ** } التنوين للتعظيم والشرف، أي: من كل أشرف الأمثال.
فالمعنى: ذكرنا للناس في القرآن أمثالا هي بعض من كلّ أنفع الأمثال وأشرفها. والمراد: شرف نفعها.
وخُصَّت أمثال القرآن بالذكر من بين مزايا القرآن لأجل لفت بصائرهم للتدبّر في ناحية عظيمة من نواحي

إعجازه وهي بلاغة أمثاله، فإنّ بلغاءهم كانوا يتنافسون في جودة الأمثال وإصابتها المحزّ من تشبيه الحالة بالحالة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً } [الإسراء:89]، وعند قوله تعالى { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } [الروم:58].

{ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } معنى الرجاء منصرف إلى أنّ حالهم عند ضرب الأمثال القرآنية كحال من يرجو الناس منه أن يتذكّر، وهذا مثل نظائر هذا الترجي الواقع في القرآن.

التذكّر: التأمّل والتدبّر لينكشف لهم ما هم غافلون عنه، سواء ما سبق لهم به علم فنسوه وشغلوا عنه بسفساف الأمور، وما لم يسبق لهم علم به مما شأنه أن يستبصره الرأي الأصيل، حتّى إذا انكشف له كان كالشيء الذي سبق له علمه وذهل عنه، فمعنى التذكّر معنى بديع شامل لهذه الخصائص.

{ **قُرْآناً** } انتصب على الحال من اسم الإشارة المبيَّن بالقرآن، فالحال موطِّئة لأنّها توطئة للنعت { **عَرَبِيّاً** }. والمقصود من هذه الحال التورّك على المشركين حيث تلقّوا القرآن تلقي من سمع كلاما لم يفهمه كأنّه بلغة غير لغته لا يعيره بالا، كقوله تعالى { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [الدخان:58].

مع ما فيه من التحدّي لهم بأنّهم عجزوا عن معارضته وهو من لغتهم، وهو أيضا ثناء على القرآن من حيث استقامة ألفاظه، لأنّ اللغة العربية أفصح لغات البشر.

العِوَج: (بكسر العين) أريد به اختلال المعاني دون الأعيان، وأمّا **العَوج** (بفتح العين) فيشملها، وهذا مختار أئمة اللغة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا } [الكهف:1]، وقوله تعالى { لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً } [طه:107]. وهذا ثناء على القرآن بكمال معانيه بعد أن أثني عليه باستقامة ألفاظه.

ووجه العدول عن وصفه بالاستقامة إلى وصفه بانتفاء العوج عنه التوسل إلى إيقاع { عِوَجٍ }، وهو نكرة في سياق ما هو بمعنى النفي وهو كلمة {غير} فيفيد انتفاء جنس العوج على وجه عموم النفي، أي: ليس فيه عوج قط، ولأنّ لفظ { عِوَجٍ } مختص باختلال المعاني، فيكون الكلام نصًّا في استقامة معاني القرآن، لأنّ الدلالة على استقامة ألفاظه ونظمه قد استفيدت من وصفه بكونه عربيا كما علمته آنفا.

{ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** } مثل قوله { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }، وذكر هنا { يَتَّقُونَ } لأنّهم إذا تذكّروا يسرت عليهم التقوى، ولأنّ التذكّر أنسب بضرب الأمثال، لأنّ في الأمثال عبرة بأحوال الممثَّل به، فهي مفضية إلى التذكّر، والاتقاء أنسب بانتفاء العوج، لأنّه إذا استقامت معانيه كان العمل بما يدعو إليه أيسر، وذلك هو التقوى.

{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [29]

استئناف وهو من قبيل التعرُّض إلى المقصود بعد المقدّمة فإنّ قوله { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } [27] توطئة لهذا المثل المضروب لحال أهل الشرك وحال أهل التوحيد. فهذا المثل متّصل بقوله تعالى { أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ - إلى قوله - أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [22]، فهو مثل لحال من شرح الله صدرهم للإسلام وحال من قست قلوبهم.

{ ضَرَبَ اللَّهُ } مجيء الفعل بصيغة الماضي لتقريب زمن الحال من زمن الماضي لقصد التشويق إلى علم هذا المثل. وفيه التنبيه على أنّه أمر محقّق الوقوع، كما في قوله { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً } [النحل:112].

أمّا صاحب الكشاف فجعل فعل { ضَرَبَ } <u>مستعملا في معنى الأمر</u> إذ فسَّره بقوله: اضرب لهم مثلا.

{ رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ } وما بعده في موضع البيان لـ { مَثَلاً }. وجُعل الممثَّل به حالة رجل ليس للاحتراز عن امرأة أو طفل ولكن لأنّ الرجل هو الذي يسبق إلى أذهان الناس في المخاطبات والحكايات، ولأنّ ما يراد من الرجال من الأعمال أكثر ممّا يراد من المرأة والصبي.

{ فِيهِ شُرَكَاءُ } نعت لـ { رَجُلاً }، وتقديم المجرور على { شُرَكَاءُ } لأنّ خبر النكرة يحسن تقديمه عليها إذا وصفت، فإذا لم توصف وجب تقديم الخبر لكراهة الابتداء بالنكرة. أي: في ملكه شركاء.

التشاكس: شدّة الاختلاف، وشدّة الاختلاف في الرجل الاختلاف في استخدامه وتوجيهه.

{ سَلَماً } قرأه الجمهور (بفتح السين وفتح اللام بعدها ميم) وهو اسم مصدر: سلم له، إذا خلص. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب {سالماً} بصيغة اسم الفاعل وهو من: سلم. والمعنى: <u>أنه لا شركة فيه للرجل</u>.

وهذا تمثيل لحال المشرك في تقسم عقله بين آلهة كثيرين فهو في حيرة وشك من رضى بعضهم عنه وغضب بعض. ويقابله تمثيل حال المسلم الموحّد يقوم بما كلَّفه ربّه عارفا بمرضاته مؤمِّلا رضاه وجزاءه.

{ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً } الاستفهام يجوز أن يكون تقريريا، ويجوز أن يكون إنكاريا، وجيء فيه بـ { هَلْ } لتحقيق التقرير أو الإنكار.

المثل: الحال. والتقدير: هل يستوي حالاهما، والاستواء يقتضي شيئين فأكثر، وإنّما أفرد التمييز المراد به الجنس، وقد عرف التعدد من فاعل { يَسْتَوِيَانِ }.

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ } <u>يجوز أن تكون جوابا للاستفهام التقريري</u> بناء على أنّ أحد الظرفين المقرّر عليهما محقّق الوقوع لا يسع المقرّر عليه إلّا الإقرار به، فيقدِّرون: أنّهم أقرّوا بعدم استوائهما في الحالة، أي: بأنّ أحدهما أفضل من الآخر، فإن مثل هذا الاستفهام لا ينتظر السائل جوابا عنه، فلذلك يصح أن يتولى الجواب عنه قبل

أن يجيب المسؤول، كقوله تعالى {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} [النبأ:2/1]، وقد يبنى على أن المسؤول اعترف فيؤتى بما يناسب اعترافه كما هنا، فتكون الجملة استئنافا، فموقعها كموقع النتيجة بعد الدليل، وتكون جملة { **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } قرينة على أنّهم نزلوا منزلة من علم فأقرّ وأنّهم ليسوا كذلك في نفس الأمر. ويجوز أن تكون معترضة إذا جُعل الاستفهام إنكاريا، فتكون معترضة بين الإنكار وبين الإضراب الانتقالي في قوله { **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** }، أي: لا يعلمون عدم استواء الحالتين ولو علموا لاختاروا لأنفسهم الحسنى منهما، ولما أصروا على الإشراك. وأفاد هذا أن ما انتحلوه من الشرك وتكاذيبه لا يمت إلى العلم بصلة فهو جهالة واختلاق. وأسند عدم العلم لأكثرهم لأنّ أكثرهم عامة أتباع لزعمائهم الذين سنُّوا لهم الإشراك.

{ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ [30] ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ [31] }.

لمّا جرى الكلام من أوّل السورة في مهيع إبطال الشرك وإثبات الوحدانية للإله، وتوضيح الاختلاف بين حال المشركين وحال الموحدين المؤمنين بما ينبئ بتفضيل حال المؤمنين، وفي مهيع إقامة الحجّة على بطلان الشرك وعلى أحقية الإيمان، وإرشاد المشركين إلى التبصّر في هذا القرآن، وتخلَّل في ذلك ما يقتضي أنّهم غير مقلعين عن باطلهم، وخُتم بتسجيل جهلهم وعدم علمهم، خُتم هذا الغرض بإحالتهم على حكم الله بينهم وبين المؤمنين يوم القيامة حين لا يستطيعون إنكارا، وحين يلتفتون فلا يرون إلّا نارا.

{ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ** } قدّم لذلك تذكيرهم بأنّ الناس كلّهم صائرون إلى الموت، فإنّ الموت آخر ما يُذكَّر به السادر في غلوائه إذا كان قد اغتر بعظمة الحياة ولم يتفكّر في اختيار طريق السلامة والنجاة، وهذا من انتهاز القرآن فرص الإرشاد والموعظة. فالمقصود قوله { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ } فاغتنم هذا الغرض ليجتلب معه موعظة بما يتقدّمه من الحوادث عسى أن يكون لهم بها معتبر، فحصلت بهذا فوائد:

*/ تمهيد ذكر يوم القيامة.

*/ التذكير بزوال هذه الحياة.

*/ حثّ المؤمنين على المبادرة للعمل الصالح.

*/ إشعارهم بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم يموت كما مات النبيّون من قبله، ليغتنموا الانتفاع به في حياته ويحرصوا على ملازمة مجلسه.

*/ ألّا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره.

*/ تعليم المسلمين أنّ الله سوّى في الموت بين الخلق دون رعي لتفاضلهم في الحياة.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو خبر مستعمل في التعريض بالمشركين إذ كانوا يقولون { نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [الطور:30].

{ **وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ** } ضمير الغيبة للمشركين المتحدّث عنهم، وأمّا المؤمنون فلا غرض هنا للإخبار بأنّهم ميّتون كما هو بين من تفسير الآية. وتأكيد الخبرين بـ (إن) لتحقيق المعنى التعريضي المقصود منها.

الميّت: الصائر إلى الموت فهو من استعمال الوصف فيمن سيتصف به في المستقبل تنبيها على تحقيق وقوعه، مثل استعمال اسم الفاعل في المستقبل كقوله تعالى { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30].

ومثله **الميْت** (بتخفيف السكون على الياء)، والتحقيق أنّه لا فرق بينهما.

{ **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ** } عطف بحرف { ثمّ } الدال على الترتيب الرتبي، لأنّ الإنباء بالفصل بينهم يوم القيامة أهمّ في هذا المقام من الإنباء بأنّهم صائرون إلى الموت. وتأكيد الجملة لردّ إنكار المشركين البعث. وتقديم { عِنْدَ رَبِّكُمْ } على { تَخْتَصِمُونَ } للاهتمام ورعاية الفاصلة.

الاختصام: كناية عن الحكم بينهم، أي: يحكم بينكم فيما اختصمتم فيه في الدنيا، فهو كقوله تعالى { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [النحل:124].

{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ } [32]

أفادت الفاء تفريع ما بعدها على ما قبلها تفريع القضاء عن الخصومة التي في قوله تعالى { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ } [31] إذ قد علمت أنّ الاختصام كنّي به عن الحكم بينهم فيما خالفوا فيه وأنكروه، والمعنى: يقضي بينكم يوم القيامة فيكون القضاء على من كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه، إذ هو الذي لا أظلم منه.

وعُدل عن صَوْغ الحكم عليهم بصيغة الإخبار إلى صوغه في صورة الاستفهام للإيماء إلى أنّ السامع لا يسعه إلّا الجواب بأنّهم أظلم. فالاستفهام مستعمل مجازا مرسلا أو كناية مراد به أنّهم أظلم الظالمين.

فإنّهم أتوا أصنافا من الظلم العظيم:

ظلم الاعتداء على حرمة الرب بالكذب في صفاته إذ زعموا أنّ له شركاء في الربوبية، والكذب عليه بادعاء أنّه أمرهم بما هم عليه من الباطل.

ظلم الرسول صلى الله عليه وسلم بتكذيبه.

ظلم القرآن بنسبته إلى الباطل.

ظلم المؤمنين بالأذى.

وظلم حقائق العالم بقلبها وإفسادها.

ظلم أنفسهم بإقحامها في العذاب الخالد.

{ **بِالصِّدْقِ** } القرآن الذي جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم

{ **إِذْ جَاءَهُ** } بلوغه إيّاهم، أي: سماعهم إيّاه وفهمهم، فإنّه بلسانهم وجاء بأفصح بيان بحيث لا يُعرض عنه إلّا مكابر مؤثر حظوظ الشهوة والباطل على حظوظ الإنصاف والنجاة.

{ **إِذْ** } ظرف زمن ماض وهو مشعر بالمقارنة بين الزمن الذي تدلّ عليه الجملة المضاف إليها، وحصول متعلّقه. ويدل هنا على أنّه كذَّب بالقرآن بمجرد بلوغه، أي: بادر بالتكذيب من غير تدبّر ولا إعمال بصيرة.

{ **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ** } مبيّنة لمضمون جملة { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ } أي: أنّ ظلمهم أوجب أن يكون مثواهم في جهنم. والاستفهام تقريري، ويجوز أن يكون الاستفهام إنكاريا ردا لاعتقادهم أنّهم ناجون من النار الدال عليه تصميمهم على الإعراض عن التدبر في دعوة القرآن.

الكافرون: هم الذين كفروا بالله فأثبتوا له الشركاء أو كذّبوا الرسل بعد ظهور دلالة صدقهم، والتعريف للجنس المفيد للاستغراق، فشمل الكافرين المتحدَّث عنهم شمولا أوّليا.

وتكون الجملة مفيدة للتذييل أيضا، ويكون اقتضاء مصير الكافرين المتحدَّث عنهم إلى النار ثابتا بشبه الدليل الذي يعمّ مصير جميع الجنس الذي هم منه.

المثوى: اسم مكان الثواء، وهو القرار، فالمثوى المقرّ.

{ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ [33] لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ [34] لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ [35] }.

الذي جاء بالصدق: هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الصدق: القرآن، كما تقدم آنفا في قوله تعالى { وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ } [32].

{ **وَصَدَّقَ بِهِ** } صلة موصول محذوف تقديره: والذي صدَّق به، لأنّ المصدِّق غير الذي جاء بالصدق.

{ **بِهِ** } الضمير يجوز أن يعود على (الصدق) ويجوز أن يعود على الذي { جَاءَ بِالصِّدْقِ }، والتصديق بكليهما متلازم، وإذ قد كان المصدّقون بالقرآن أو بالنبيّ صلى الله عليه وسلم من ثبت له هذا الوصف كان مرادا به أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** } خبر عن اسم الموصول. وجيء باسم الإشارة للعناية بتمييزهم أكمل تمييز. وضمير الفصل { هُمُ } يفيد قصر جنس المتقين على { الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ } لأنّه لا متقِّي يومئذ غير الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه. قال تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } [آل عمران:110].

المعنى: أولئك هم الذين تحقّق فيهم ما أريد من إنزال القرآن الذي أشير إليه في قوله { لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } [28].

{ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ } مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّهم لمّا قصر عليهم جنس المتقين كان ذلك مشعرا بمزية عظيمة، فكان يقتضي أن يسأل السامع عن جزاء هذه المزيّة فبُيِّن له أنّ لهم ما يشاءون عند الله.

{ مَا يَشَاءُونَ } ما يريدون ويتمنّون، أي: يعطيهم الله ما يطلبون في الجنّة. ويجوز أنّه كناية عن سعة ما يعطونه، كما ورد في الحديث: **" ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر".**

وفي الحديث: **" إنّ الله يقول لأحدهم: تمنَّه، فلا يزال يتمنّى حتّى تنقطع به الأمني فيقول الله: لك ذلك وعشرة أمثاله معه ".**

{ عِنْدَ رَبِّهِمْ } أنّ الله ادّخر لهم ما يبتغونه، وهذا من صيغ الالتزام ووعد الإيجاب، يقال: لك عندي كذا، أي: ألتزم لك بكذا. وعدل عن اسم الجلالة إلى وصف { رَبِّهِمْ } إيماء إلى أنّه يعطيهم عطاء الربوبية.

{ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ } تنويه بهذا الوعد، والمشار إليه هو ما يشاءون لِما تضمّنه من أنّه جزاء لهم على التصديق. وأشير إليه باسم الإشارة لتضمّنه تعظيما لشأن المشار إليه.

{ الْمُحْسِنِينَ } أولئك الموصوفون بأنّهم المتقون، وكان مقتضى الظاهر أن يؤتى بضميرهم فيقال: ذلك جزاؤهم، فوقع الإظهار في مقام الإضمار لإفادة الثناء عليهم بأنّهم محسنون.

الإحسان: هو كمال التقوى لأنّه فسَّره النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنه : **" أن تعبد الله كأنك تراه ".**

وأيّ إحسان وأيّ تقوى أعظم من نبذهم ما نشأوا عليه من عبادة الأصنام، ومن تحمُّلهم مخالفة أهليهم وذويهم وعداوتهم وأذاهم، ومن صبرهم على مصادرة أموالهم ومفارقة نسائهم، تصديقا للذي جاء بالصدق وإيثارا لرضى الله على شهوة النفس ورضي العشيرة.

{ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا } اللام للتعليل وهي تتعلّق بفعل محذوف دلّ عليه قوله { لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ }، والتقدير: وعدهم الله بذلك والتزم لهم ذلك ليكفِّر عنهم أسوأ الذي عملوا.

والمقصود من هذا الخبر إعلامهم به ليطمئنوا من عدم مؤاخذتهم على ما فرط منهم من الشرك وأحواله.

{ أَسْوَأَ } يجوز أن يكون باقيا على ظاهر اسم التفضيل من اقتضاء مفضّل عليه، فالمراد بأسوأ عملهم هو أعظمه سوءا وهو الشرك، سئل النبيّ صلى الله عليه وسلم: " أي الذنب أعظم؟ فقال: **" أن تدعوا لله ندا وهو خلقك ".**

{ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا } إضافة حقيقية، باعتبار أنّ الشرك عمل قلبي أو باعتبار ما يستتبعه من السجود للصنم.

وإذا كفّر عنهم أسوأ الذي عملوا كفّر عنهم ما دونه من سيئ أعمالهم بدلالة الفحوى، فأفاد أنّه يكفر عنهم جميع ما عملوا من سيئات.

فإن أريد بذلك ما سبق قبل الإسلام فالآية تعمّ كلّ من صدق بالرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن بعد أن كان كافرا، فإن الإسلام يجبّ ما قبله، وأن أريد بذلك ما عسى أن يعمله أحد منهم من الكبائر في الإسلام كان

هذا التكفير خصوصية لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنّ فضل الصحبة عظيم. روي عن رسول الله أنه قال: **" لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبا ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه ".**

وقد أوصى أئمة سلفنا الصالح ألّا يُذكر من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلّا بأحسن ذكر، وبالإمساك عمّا شجر بينهم، وأنّهم أحق الناس بأن يُلتمس لهم أحسن المخارج فيما جرى بين بعضهم، ويُظن بهم أحسن المذاهب، ولذلك اتفق السلف على تفسيق ابن الأشتر النخعي ومن لف لفّه من الثوار الذين جاءوا من مصر إلى المدينة لخلع عثمان بن عفان، واتفقوا على أنّ أصحاب الجمل وأصحاب صفين كانوا متنازعين عن اجتهاد وما دفعهم عليه إلّا السعي لصلاح الإسلام والذبّ عن جامعته من أن تتسرب إليها الفرقة والاختلال، فإنّهم جميعا قدوتنا وواسطة تبليغ الشريعة إلينا، والطعن في بعضهم يفضي إلى مخاوف في الدين، ولذلك أثبت علماؤنا عدالة جميع أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ** } علّة ثانية، وهو المقصود من التعليل للوعد الذي تضمّنه قوله تعالى { لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ }.

{ **بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ** } الباء للسببية وهي ظرف مستقر صفة لـ { أَجْرَهُمْ } وليست متعلّقة بفعل { يَجْزِيَهُمْ }، أي: يجزيهم أجرا على أحسن أعمالهم.

وفي الجمع بين كلمة { أَسْوَأَ } وكلمة { بِأَحْسَنِ } محسّن الطبق.

{ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [36] وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ [37] }.

{ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ** } استفهام إنكاري، أنكر عليهم ظنّهم ألّا حامي للرسول صلى الله عليه وسلم من ضرّ الأصنام. وفي الكشاف و تفسير القرطبي: " أنّ قريشا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنّا نخاف أن تُخْبِلَك آلهتنا، وإنّا نخشى عليك معرَّتها لعيبك إيّاها ". وفي تفسير ابن عطية ما هو بمعنى هذا. فلما حكى تكذيبَهم النبيّ عطف الكلام إلى ما هدّدوه به وخوّفوه من شر أصنامهم. فهذا الكلام معطوف على قوله {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ } [29].

<u>والمعنى</u>: أن الله الذي أفردته بالعبادة هو كافيك شرّ المشركين وباطل آلهتهم التي عبدوها من دونه.

{ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** } تمهيد لقوله { وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ } قُدِّم عليه لتعجيل مساءة المشركين بذلك، ويستتبع ذلك تعجيل مسرّة الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّ الله ضامن له الوقاية، كقوله تعالى { فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ } [البقرة:137]. وأصل النظم: ويخوّفونك بالذين من دون الله والله كافيك.

ولك أن تجعل نظم الكلام على ترتيبه في اللفظ فتجعل جملة { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ } استئنافا وتصير جملة {وَيُخَوِّفُونَكَ} حالا.

{ **عَبْدَهُ** } وقع التعبير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بالاسم الظاهر دون ضمير الخطاب لأنّ المقصود توجيه الكلام إلى المشركين. وفي استحضار الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف العبودية وإضافته إلى ضمير الجلالة معنى عظيم من تشريفه بهذه الإضافة وتحقيق أنّه غير مسلمِه إلى أعدائه.

{ **وَيُخَوِّفُونَكَ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو التفات من ضمير الغيبة، ونكتة هذا الالتفات هو تمحيض قصد النبيّ بمضمون هذه الجملة.

{ **بِالَّذِينَ** } هم الأصنام. عُبِّر عنهم، وهم حجارة، بموصول العقلاء لكثرة استعمال التعبير عنهم في الكلام بصيغ العقلاء.

{ **مِنْ دُونِهِ** } صلة الموصول على تقدير محذوف يتعلق به المجرور دل عليه السياق، تقديره: اتخذوهم من دونه أو عبدوهم من دونه.

وقرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف { عِبَادَهُ } بصيغة الجمع، أي: النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فإنّهم لمّا خوّفوا النبي صلى الله عليه وسلم فقد أرادوا تخويفه وتخويف أتباعه، وأنّ الله كفاهم شرهم.

{ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ** } اعتراض بين جملة { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} وجملة { أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ }، قصد من هذا الاعتراض أنّ ضلالهم قد ثبّتته الأيام، ورسَّخه تعاقب الأجيال، فران بغشاوته على ألبابهم، فلمّا صار ضلالهم كالمجبول المطبوع أسند إيجاده إلى الله كناية عن تعسّر أو تعذر اقتلاعه من نفوسهم.

{ **فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** } أريد نفي حصول الاهتداء، فكنِّي عن عدم حصول الهدى بانتفاء الهادي، لأنّ عدم الاهتداء يجعل هاديهم كالمنفي. وقد تقدّم قوله تعالى { مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ } [الأعراف:186].

والآيتان متساويتان في إفادة نفي جنس الهادي. والاختلاف بين الأسلوبين تفنن في الكلام.

{ **وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ** } اقتضاها أنّ الكلام الذي اعترضت بعده الجملتان اقتضى فريقين: فريقا متمسِّكًا بالله القادر على النفع والضرّ، وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، وآخر متمسِّكًا بالأصنام العاجزة عن الأمرين. فلمَّا بُيِّن أنّ ضلال الفريق الثاني ضلال مكين ببيان أنّ هدى الفريق الآخر راسخ متين فلا مطمع للفريق الضال بأن يجرُّوا المهتدين إلى ضلالهم.

{ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ** } استفهام تقريري لأنّ العلم بعزة الله متقرّر في النفوس لاعتراف الكلّ بإلهيّته، والإلهية تقتضي العزة، ولأنّ العلم بأنّه منتقم متقرّر من مشاهدة آثار أخذه لبعض الأمم مثل عاد وثمود.
فإذا كانوا يقرّون لله بالوصفين المذكورين فما عليهم إلّا أن يعلموا أنّه كاف عبده بعزّته فلا يقدر أحد على إصابة عبده بسوء، وبانتقامه من الذين يبتغون لعبده الأذى.
العزيز: صفة مشبّهة مشتقّة من العزّ، وهو منعة الجانب، وألّا يناله المتسلط، وهو ضدّ الذلّ. وتقدّم عند قوله تعالى { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة:209].
الانتقام: المكافأة على الشرّ بشرّ، وهو مشتق من النقم وهو الغضب، كأنه مطاوعه لأنّه مسبَّب عن النقم، وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ } [الأعراف:136].وانظر قوله تعالى { وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } [المائدة:95].

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } [38].
{ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** } اعتراض بين جملة { أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ } [37] وجملة { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ }. ويجوز أن يكون معطوفا على جملة { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ } [36]، وهو تمهيد لما يأتي بعده، لأنّه قصد به التوطئة إليه بما لا نزاع فيه، لأنّهم يعترفون بأنّ الله هو المتصرف في عظائم الأمور، أي: خلقهما وما تحويانه، وتقدّم نظيره في [العنكبوت61].
{ **قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ** } جاءت الجملة على أسلوب حكاية المقاولة والمجاوبة لكلامهم المحكي بجملة { لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } ولذلك لم تعطف الثانية بالواو ولا بالفاء، والمعنى: ليقولن: الله، فقل: أفرأيتم ما تدعون من دون الله.
{ **أَفَرَأَيْتُمْ** } الفاء لتفريع الاستفهام الإنكاري على جوابهم تفريعا يفيد محاجّتهم على لازم اعترافهم بأنّ الله هو خالق السماوات والأرض. وهذا تفريع الإلزام على الإقرار، والنتيجة على الدليل، فإنّهم لمّا أقروا بأنّه الخالق لهما يلزمهم أن يقرُّوا بأنّه المتصرّف فيما تحويه السماوات والأرض. والرؤية قلبية، أي: أفظننتم.
{ **مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } مفعول { أَفَرَأَيْتُمْ } الأوّل والمفعول الثاني محذوف سدّ مسدَّة جواب الشرط المعترض بعد المفعول الأول.

{ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ } جواب { إِنْ }. وجواب الشرط دليل على المفعول الثاني لفعل الرؤية.

الكاشفات: المزيلات، فالكشف مستعار للإزالة بتشبيه المعقول، وهو الضرّ، بشيء مستتر، وتشبيه إزالته بكشفه، أي إخراجه، وهي مكنية، والكشف استعارة تخييلية.

الإمساك: أيضا مكنية بتشبيه الرحمة بما يُسعَف به، وتشبيه التعرّض لحصولها بإمساك صاحب المتاع متاعه عن طالبيه.

{ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } لمّا ألقمهم الله بهذه الحجّة الحجر وقطعهم فلا يحيروا ببنت شَفَة أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول هذا القول.

{ قُلْ } أعيد الأمر بالقول ولم ينتظم { حَسْبِيَ اللَّهُ } في جملة الأمر الأول، لأنّ هذا المأمور بأن يقوله ليس المقصود توجيهه إلى المشركين، فإنّ فيما سبقه مقنعا من قلة الاكتراث بأصنامهم، وإنّما المقصود أن يكون هذا القول شعار النبيّ صلى الله عليه وسلم في جميع شؤونه، وفيه حظ للمؤمنين معه. فإعادة الفعل للتنبيه على استقلال هذا الغرض عن الغرض الذي قبله.

الحسب: الكافي، وتقدّم في قوله تعالى { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران:173]. وحُذف المتعلق في هذه الجملة لعموم المتعلّقات، أي: حسبي الله من كل شيء وفي كل حال.

والمراد بقوله اعتقاده ثم تذكّره ثم الإعلان به لتعليم المسلمين وإغاظة المشركين.

التوكّل: تفويض أمور المفوّض إلى من يكفيه إيّاه، وتقدّم في قوله { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } [آل عمران:159].

{ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } يجوز أن تكون ممّا أُمر بأن يقوله تذكّرا من النبيّ صلى الله عليه وسلم وتعليما للمسلمين، فتكون الجملة تذييلا للتي قبلها لأنّها أعم منها باعتبار القائلين، لأن {حَسْبِيَ اللَّهُ } يؤول إلى معنى: توكلت على الله.

ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى خاطب به رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يأمره بأن يقوله، فتكون الجملة تعليلا للأمر بقول { حَسْبِيَ اللَّهُ }، أي: اجعل الله حسبك، لأنّ أهل التوكّل يتوكّلون على الله دون غيره وهم الرسل والصالحون، وإذ قد كنت من رفيقهم فكن مثلهم في ذلك، على نحو قوله تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } [بالأنعام:90].

{ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ } تقديم المجرور لإفادة الاختصاص، لأنّ أهل التوكّل الحقيقيين لا يتوكّلون إلّا على الله تعالى، وذلك تعريض بالمشركين إذ اعتمدوا في أمورهم على أصنامهم.

{ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [39] مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ [40] }.

لمّا أبلغهم الله من الموعظة لأقصى مبلغ، ونصب لهم من الحجج أسطع حجّة، وثبّت رسوله صلى الله عليه وسلم أرسخ تثبيت، لا جرم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يوادعهم موادعة مستقرب النصر، ويواعدهم ما أعد لهم من خسر.

{ **قُلْ** } لم تعطف الجملة على السابقة لدفع توهّم أن يكون أمره { قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ } لقصد إبلاغه إلى المشركين. ولأنّها انتقال من غرض الدعوة والمحاجة إلى غرض التهديد.

{ **يَا قَوْمِ** } ابتدأ المقول بالنداء بوصف القوم لما يشعر به من الترقيق لحالهم والأسف على ضلالهم، لأنّ كونهم قومه يقتضي ألّا يدَّخرهم نصحا.

المكانة: المكان، وتأنيثه روعي فيه معنى البقعة، استعير للحالة المحيطة بصاحبها إحاطة المكان بالكائن فيه.

<u>والمعنى</u>: اعملوا على طريقتكم وحالكم من عداوتي، وتقدّم نظيره في [الأنعام:135].

{ **إِنِّي عَامِلٌ** } حُذف المتعلق ليعمّ كل متعلّق يصلح أن يتعلق بـ {عَامِلٌ } مع الاختصار، فإنّ مقابلته بقوله: { اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ } يدلّ على أنّه أراد من { إِنِّي عَامِلٌ } أنّه ثابت على عمله في نصحهم ودعوتهم إلى ما ينجيهم. وأنّ حذف ذلك مشعر بأنه لا يقتصر على مقدار مكانته وحالته بل حاله تزداد كل حين قوّة وشدّة لا يعتريها تقصير ولا يثبطها إعراضهم، وهذا من مستتبعات الحذف.

العذاب المخزي: هو عذاب الدنيا. والمراد به هنا عذاب السيف يوم بدر.

العذاب المقيم: هو عذاب الآخرة، وإقامته خلوده.

{ **عَذَابٌ** } التنوين في الموضعين للتعظيم المراد به التهويل.

{ **يَأْتِيهِ** } أسند الفعل إلى العذاب المخزي لأنّ الإتيان مشعر بأنّه يفاجئهم.

{ **وَيَحِلُّ** } وكذلك إسناد الفعل إلى العذاب المقيم لأنّ الحلول مشعر بالملازمة والإقامة معهم، وهو عذاب الخلود، ولذلك يُسمَّى منزل القوم حِلّة، ويقال للقوم القاطنين غير المسافرين: هم حِلال، فكان الفعل مناسبا لوصفه بالمقيم. وتعدية فعل { يَحِلُّ} بحرف (على) للدلالة على تمكّنه.

{ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ } [41].

تعليل للأمر بأن يقول لهم اعملوا على مكانتكم، المفيد موادعتهم وتهوين تصميم كفرهم عليه، وتثبيته على دعوته. والمعنى: لأنّا نزّلنا عليك الكتاب بالحق لفائدة الناس وكفاك ذلك شرفا وهداية، وكفاك تبليغه إليهم، فمن اهتدى من الناس فهدايته لنفسه بواسطتك، ومن ضلّ فضلاله على نفسه، وما عليك من ضلالهم تبعة، لأنّك بلغت ما أُمرت به. ولذلك خولف بين هذه وبين قوله في صدرها { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } [2]، لأنّ تلك في غرض التنويه بشأن النبيّ صلى الله عليه وسلم فناسب أن يكون إنزال الكتاب إليه.

{ لِلنَّاسِ } متعلق بـ { أَنْزَلْنَا }. واللام للعلّة، أي: لأجل الناس. وفي الكلام مضاف مفهوم ممّا تؤذن به اللام من معنى الفائدة والنفع، أي: لنفع الناس، أو ممّا يؤذن به التفريع في قوله تعالى { فَمَنِ اهْتَدَى }.

{ بِالْحَقِّ } حال من { الْكِتَابَ }، والباء للملابسة.

{ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ } الفاء للتفريع وهو تفريع ناشئ من معنى اللام. و(من) شرطية، أي: من حصل منه الاهتداء في المستقبل فإن اهتداءه لفائدة نفسه لا غير، أي: ليست لك من اهتدائه فائدة لذاتك.

وتقدم نظيرها في قوله تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } [يونس:108]، وفي قوله تعالى { وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } [النمل:92/91]، ولكن جيء في تينك الآيتين بصيغة قصر الاهتداء على نفس المهتدي { فَإِنَّمَا }، وترك ذلك في هذه السورة، ووجه ذلك أنّ تينك الآيتين واردتان بالأمر بمخاطبة المشركين فكان المقام فيهما مناسبا لإفادة أنّ فائدة اهتدائهم لا تعود إلّا لأنفسهم، أي: ليست لي منفعة من اهتدائهم، خلافا لهذه الآية فإنّها خطاب موجّه من الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ليس فيها حال من ينزل منزلة المُدل باهتدائه.

{ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } صيغة القصر فيه لتنزيل الرسول صلى الله عليه وسلم في أسفه على ضلالهم المفضي بهم إلى العذاب منزلة من يعود عليه من ضلالهم ضرّ فخوطب بصيغة القصر، وهو قصر قلب.

{ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ } القول فيه كالقول في { وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ } [يونس:108]. والجملة عطف على جملة { فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ }، أي: لست مأمورا بإرغامهم على الاهتداء، فصيغ هذا الخبر في جملة اسمية للدلالة على ثبات حكم هذا النفي.

{ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [42]

يصلح هذا أن يكون مثلا لحال ضلال الضالين وهدى المهتدين نشأ عن قوله { فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ - إلى قوله - وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ } [الزمر:41]. والمعنى: أنّ استمرار الضال على ضلاله قد يحصل بعده اهتداء وقد يوافيه أجله وهو في ضلاله، فضرب المثل لذلك بنوم النائم قد تعقبه إفاقة وقد يموت النائم في نومه.

وهذا تهوين على نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم برجاء إيمان كثير ممّن هم يومئذ في ضلال وشرك كما تحقق ذلك. فتكون الجملة تعليلا للجملة قبلها ولها اتصال بقوله { أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ - إلى قوله - أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [22].

ويجوز أن يكون انتقالا إلى استدلال على تفرّد الله تعالى بالتصرّف في الأحوال، فإنّه ذكر دليل التصرّف بخلق الذوات ابتداء من قوله { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ - إلى قوله - فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ } [6/5]، ثمّ دليل التصرّف بخلق أحوال ذوات وإنشاء ذوات من تلك الأحوال وذلك من قوله { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ - إلى قوله - لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [21]، وأعقب كلّ دليل بما يظهر فيه أثره من الموعظة والعبرة والزجر عن مخالفة مقتضاه، فانتقل هنا إلى الاستدلال بحالة عجيبة من أحوال أنفس المخلوقات وهي حالة الموت وحالة النوم. وقد أنبأ عن الاستدلال قوله { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}. فهذا دليل للناس من أنفسهم، فتكون الجملة استئنافا ابتدائيا للتدرّج في الاستدلال.

وعلى كلا الوجهين أفادت الآية إبراز حقيقتين عظميتين من نواميس الحياتين النفسية والجسدية.

{ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ } تقديم اسم الجلالة على الخبر الفعلي لإفادة تخصيصه بمضمون الخبر، أي: الله يتوفّى لا غيره، فهو قصر حقيقي.

التوفّي: الإماتة، وسُمِّيت توفِّيا لأنّ الله إذا أمات أحدا فقد توفّاه أجله، فالله المتوفِّي وملك الموت متوفٍّ أيضا لأنه مباشر التوفِّي. والميّت: متوفًّى، بصيغة المفعول. وتقدّم في قوله { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ } [البقرة:234]، وقوله تعالى { قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ } [السجدة:11].

الأنفس: جمع نفس، وهي الشخص والذات، قال تعالى { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ } [الذريات:21]، وتطلق على الروح الذي به الحياة والإدراك.

{ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ } عطف على الأنفس باعتبار قيد { حِينَ مَوْتِهَا } لأنّه في معنى الوصف، فكأنه قيل: يتوفّى الأنفس التي تموت في حالة نومها، والأنفس التي لم تمت في نومها أفاقت.

وهو تشبيه نُحي به منحى التنبيه إلى حقيقة علمية فإنّ حالة النوم حالة انقطاع أهم فوائد الحياة عن الجسد وهي الإدراك سوى أن أعضاءه الرئيسية لم تفقد صلاحيتها للعودة إلى أعمالها حين الهبوب من النوم، ولذلك قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ } [الأنعام:60].

الإمساك: الشدّ باليد وعدم تسليم المشدود. والمعنى: فيبقي ولا يردّ النفس التي قضى عليها بالموت، أي: يمنعها أن ترجع إلى الحياة، فإطلاق الإمساك على بقاء حالة الموت تمثيل لدوام تلك الحالة.

الإرسال: الإطلاق والتمكين من مبارحة المكان للرجوع إلى ما كان عليه.

{ **الأخرى** } المراد بـها { الَّتِي لَمْ تَمُتْ } ولكن الله جعلها بمنزلة الميّتة. والمعنى: يرد إليها الحياة كاملة.

{ **إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً** } يتعلق بفعل { يُرْسِلُ } لما فيه من معنى يردّ الحياة إليها، أي: فلا يسلبها الحياة كلّها إلا في أجلها المسمَّى، أي: المعيَّن لها في تقدير الله تعالى.

التسمية: التعيين، وتقدّمت في قوله تعالى { إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ } [البقرة:282].

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } مستأنفة، كما تُذكر النتيجة عقب الدليل، أي: أنّ في حالة الإماتة والإنامة دلائل على انفراد الله تعالى بالتصرّف، وأنّه المستحقّ للعبادة دون غيره، وأنّ ليس المقصود من هذا الخبر الإخبار باختلاف حالتي الموت والنوم بل المقصود التفكّر والنظر في مضرب المثل، وفي دقائق صنع الله والتذكير بما تنطوي عليه من دقائق الحكمة التي تمر على كل إنسان كل يوم في نفسه، وتمر على كثير من الناس في آلِهم وفي عشائرهم وهم معرضون عمّا في ذلك من الحكم وبديع الصنع.

{ **لَآياتٍ** } جعل ما تدل عليه آيات كثيرة لأنّهما حلتان عجيبتان ثمّ في كل حالة تصرّف يغاير التصرّف الذي في الأخرى.

التفكير: تكلّف الفكرة، وهو معالجة الفكر ومعاودة التدبر في دلالة الأدلة على الحقائق.

{ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ [43] قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [44] }.

{ أَمِ } منقطعة وهي للإضراب الانتقالي، انتقالا من تشنيع إشراكهم إلى إبطال معاذيرهم في شركهم، ذلك أنّهم لما دمغتهم حجج القرآن باستحالة أن يكون لله شركاء تمحَّلوا تأويلا لشركهم فقالوا { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [3]،كما حُكي عنهم في أوّل السورة. والاستفهام الذي تشعر به { أم } للإنكار.

{ **قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ** } أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم مقالة تقطع بهتانهم.

{ **شَيْئاً** } أفاد التنكير في سياق النفي عموم كل ما يُملك، فيدخل في عمومه جميع أنواعه الشفاعة. ولمّا كانت الشفاعة أمرا معنويا كان معنى ملكها: تحصيل إجابتها. والكلام تهكّم إذ كيف يشفع من لا يعقل.

{ **قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً** } لمَّا نُفي أن يكون لأصنامهم شيء من الشفاعة في عموم نفي مِلك شيء من الموجودات عن الأصنام، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقابل قولهم بقوله { لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً }، أي: الشفاعة كلّها لله. ليعلموا أنّه لا يملك الشفاعة إلا الله، أي: هو مالك إجابة شفاعة الشفعاء الحقّ.

{ **جَمِيعاً** } حال من الشفاعة مفيدة للاستغراق، وقد تأكّد بلازم هذه الحال ما دلّ عليه الحصر من انتفاء أن يكون شيء من الشفاعة لغير الله.

{ **لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } لتعميم انفراد الله بالتصرّف في السماوات والأرض الشامل للتصرّف في مؤاخذة المخلوقات وتسيير أمورهم، فموقعها موقع التذييل المفيد لتقرير الجملة التي قبله وزيادة.

وهذا إبطال لأن تكون لآلهتهم شفاعة.

{ **ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } عطف على الجملة السابقة للإشارة إلى إثبات البعث وإلى أنّه لا يشفع أحد عند الله بعد الحشر إلّا من أذنه الله بذلك.

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي كشأنها في عطف الجمل، ذلك لأنّ مضمون { إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } أنّ لله مُلك الآخرة كما كان له مُلك الدنيا، ومُلك الآخرة أعظم.

{ **إِلَيْهِ** } تقديمه على { تُرْجَعُونَ } للاهتمام والتقوّي، وللرعاية على الفاصلة.

{ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [45]

عطف على جملة { اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ } [43]، لإظهار تناقضهم في أقوالهم المشعر بأنّ ما يقولونه أقضية سفسطائية، يقولونها للتنصّل من دمغات الحجج التي جبههم بها القرآن، فإنّهم يعتذرون تارة على إشراكهم بأن شركاءهم شفعاء لهم عند الله .وهذا يقتضي أنّهم معترفون بأنّ الله هو إلههم وإله شركائهم، ثمّ إذا ذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّ الله واحد أو ذكر المسلمون كلمة لا إله إلا الله اشمأزت قلوبهم من الاقتصار على ذكر الله، وذلك مؤذن بأنّهم يسوّونها بالله تعالى.

{ **وَحْدَهُ** } لك أن تجعله حالا من اسم الجلالة ومعناه منفردا. ويقدر في قوله { ذُكِرَ اللَّهُ } معنى: بوصف الإلهية، ويكون معنى { ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ } ذكر تفرّده بالإلهية.

ولك أن تجعله مصدرا، أي: مفعول مطلق لفعل {ذُكِرَ} لبيان نوعه، أي: لم يُذكر مع اسم الله أسماء أصنامهم.

وهذا الذكر هو الذي يجري في دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم وفي الصلوات وتلاوة القرآن وفي مجامع المسلمين.

{ **إِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ** } أي: إذا ذكرت أصنامهم بوصف الإلهية، وذلك حين يسمعون أقوال جماعة المشركين في أحاديثهم وأيمانهم باللات والعزى، أي: ولم يذكر اسم الله معها، فاستبشارهم بالاقتصار على ذكر أصنامهم مؤذن بأنّهم يرجّحون جانب الأصنام على جانب الله تعالى.

الذكر: هو النطق بالاسم. والمراد إذا ذكر المسلمون اسم الله اشمأزّ المشركون لأنّهم لم يسمعوا ذكر آلهتهم وإذا ذكر المشركون أسماء أصنامهم استبشر الذين يسمعونهم من قومهم.

والاقتصار على التعرض لهذين الذكرين لأنّهما أظهر في سوء نوايا المشركين نحو الله تعالى، وفي بطلان اعتذارهم بأنّهم ما يعبدون الأصنام إلّا ليقربوهم إلى الله ويشفعوا لهم عنده.

الاشمئزاز: شدّة الكراهية والنفور، أي: كرهت ذلك قلوبهم ومداركهم.

الاستبشار: شدّة الفرح حتّى يظهر أثر ذلك على بشرة الوجه، وتقدّم في قوله تعالى { وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ } [الحجر:67].

ومقابلة الاشمئزاز بالاستبشار مطابقة كاملة لأنّ الاشمئزاز غاية الكراهية والاستبشار غاية الفرح.

{ **الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ** } التعبير عن المشركين بذلك لأنّهم عرفوا بهذه الصلة بين الناس مع قصد إعادة تذكيرهم بوقوع القيامة.

{ **إذا** } الأولى والثانية ظرفان مضمّنان معنى الشرط كما هو الغالب. والثالثة للمفاجأة، للدلالة على أنّهم يعاجلهم الاستبشار حينئذ من فرط حبهم آلهتهم.

{ **يَسْتَبْشِرُونَ** } جيء بالمضارع لإفادة تجدّد استبشارهم، و تأكيدا لسرعته.

{ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [46]

لمّا كان أكثر ما تقدّم من السورة مشعرا بالاختلاف بين المشركين والمؤمنين، وبأنّ المشركين مصمّمون على باطلهم، على ما غمرهم من حجج الحق، أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم عقب ذلك بأن يقول هذا القول تنفيسا عنه من كدر الأسى على قومه، وأعذارا لهم بالنذارة، وإشعارا لهم بأنّ الحقّ في جانبهم مضاع، وأنّ الأجدر بالرسول صلى الله عليه وسلم متاركتهم وأن يفوّض الحكم في خلافهم إلى الله. وفي هذا التفويض إشارة إلى أنّ الذي فوَّض أمره إلى الله هو الواثق بحقِّيَّة دينه المطمئن بأن التحكيم يظهر حقّه وباطل خصمه.

{ **قُلِ اللَّهُمَّ** } ابتدئ خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ربّه بالنداء، لأنّ المقام مقام توجيه وتحاكم.

{ **فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** } إجراء الوصفين على اسم الجلالة لما فيهما من المناسبة بخضوع الخلق كلّهم لحكمه وشمول علمه لدخائلهم من مُحِقّ ومُبطل.

الفاطر: الخالق، وفاطر السماوات والأرض: فاطر لما تحتوي عليه. والوصف مشعر بصفة القدرة، وتقديمه قبل وصف العلم لأنّ شعور الناس بقدرته سابق على شعورهم بعلمه، ولأن القدرة أشد مناسبة لطلب الحكم، لأنّ الحكم إلزام وقهر فهو من آثار القدرة مباشرة.

الغيب: ما خفي وغاب عن علم الناس.

الشهادة: ما يعلمه الناس ممّا يدخل تحت الإحساس الذي هو أصل العلوم.

{ **بَيْنَ عِبَادِكَ** } العدول عن الإضمار إلى الاسم الظاهر، دون أن يقول: بيننا، لما في { عِبَادِكَ } من العموم لأنّه جمع مضاف فيشمل الحكم بينهم في قضيتهم هذه والحكم بين كلّ مختلفين، لأن التعميم أنسب بالدعاء والمباهلة.

{ **أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ** } خبر مستعمل في الدعاء. والمعنى: احكم بيننا. وفي تلقين هذا الدعاء للنبيّ صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أنّه الفاعل الحق. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله { أَنْتَ تَحْكُمُ } لإفادة الاختصاص، أي: أنت لا غيرك.

وهذا يؤمئ إلى العذر للرسول صلى الله عليه وسلم في قيامه بأقصى ما كُلِّف به لأنّ هذا القول إنّما يصدر عمّن بذل وسعه فيما وجب عليه، فلما لقّنه ربه أن يقوله كان ذلك في معنى: أنّك أبلغت وأديت الرسالة فلم يبق إلّا ما يدخل تحت قدرة الله تعالى، وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم، ووعيد للمعاندين.

{ **تَحْكُمُ** } يصدق بحكم الآخرة وهو المحقَّق الذي لا يُخلف، ويشمل حكم الدنيا بنصر المحقّ على المبطل، إذا شاء الله أن يُعجِّل بعض حكمه، بأن يُعجل لهم العذاب في الدنيا.

{ **فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** } الإتيان بفعل الكون صلة لـ { ما } الموصولة ليدل على تحقُّق الاختلاف، وكون خبر (كان) مضارعا { يَخْتَلِفُونَ } تعريض بأنّه اختلاف متجدّد، إذ لا طماعية في ارعواء المشركين.

وتقديم { **فِيهِ** } للرعاية على الفاصلة مع الاهتمام بالأمر المختلف فيه.

{ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ [47] وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [48] }.

عطف على جملة { قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [46]، لأنّها تشير إلى أنّ الحقّ في جانب النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو الذي دعا ربّه للمحاكمة، وأنّ الحكم سيكون على المشركين، فأعقب ذلك بتهويل ما سيكون به الحكم، بأنّه لو وجد المشركون فدية منه بالغة ما بلغت لافتدوا بها.

{ مَا فِي الْأَرْضِ } يشمل كلّ عزيز من أهليهم وأموالهم بل وأنّفسهم، فهو أهون من سوء العذاب يوم القيامة. فالكلام تمثيل لحالهم في شدّة الدرك والشقاء بحال من لو كان له ما ذكر لبذله فدية من ذلك العذاب.

وتقدّم نظير هذا في [المائدة:36].

{ وَلَوْ } تضمّن حرف الشرط أن كون ما في الأرض لهم منتف، فأفاد ألّا فداء لهم، وهو تأييس لهم.

{ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ } {مِنْ} هنا بمعنى لام التعليل، أي: لافتدوا به لأجل العذاب السيّئ الذي شاهدوه.

<u>ويجوز</u> أن تكون للبدل، أي: بدلا عن { سُوءِ الْعَذَابِ }.

{ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ } عطف على ذلك التأييس تهويل آخر في عظم ما ينالهم من العذاب، لما في الموصول من الإيهام الذي تذهب فيه نفس السامع إلى كل تصوير من الشدّة.

<u>ويجوز</u> جعل الواو للحال، أي: لافتدوا به في حال ظهور ما لم يكونوا يحتسبون.

{ مِنَ اللَّهِ } متعلق بـ { بَدَا }. و{من} ابتدائية، أي: ظهر لهم ممّا أعدَّ الله لهم الذي لم يكونوا يظنُّونه.

الاحتساب: مبالغة في الحساب بمعنى الظنّ. مثل: اقترب بمعنى قرب. أي: ما لم يكونوا يظنّونه، وذلك كناية عن كونه متجاوزا أقصى ما يتخيّله المتخيّل حين يسمع أوصافه.

ومقابل هذا في الوعد بالخير قوله تعالى { فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ } [السجدة:17].

{ سَيِّئَاتُ } جمع سيّئة، وهو وصف أضيف إلى موصوفه وهو {مَا كَسَبُوا}، أي: مكسوباتهم السيّئات.

وتأنيثها باعتبار شهرة إطلاق السيّئة على الفعلة وإن كان فيما كسبوه ما هو من فاسد الاعتقاد، فجرى تأنيث الوصف على تغليب السيّئات العملية، مثل الغضب والقتل والفواحش، تغليبا لفظيا لكثرة الاستعمال.

{ كَسَبُوا } أوثر على فعل: عملوا، لقطع تبرّمهم من العذاب بتسجيل أنّهم اكتسبوا أسبابه بأنفسهم.

الحَوْق: الإحاطة، أي: أحاط بهم فلم ينفلتوا منه، وتقدّم في قوله تعالى { وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ } [الأنعام:10].

{ **مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } هو عذاب الآخرة، أي: يستهزئون بذكره، تنزيلا للعقاب منزلة مستهزأ به، فيكون الضمير المجرور استعارة مكنية. ولك أن تجعل الباء للسببية، وتجعل متعلق { يَسْتَهْزِئُونَ } محذوفا، أي: يستهزئون بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بسبب ذكره العذاب.

وتقديم { **بِهِ** } للاهتمام به وللرعاية على الفاصلة.

{ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [49]

الفاء لتفريع هذا الكلام على قوله تعالى { وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } [45] وما بينهما اعتراض مسلسل بعضه مع بعض للمناسبات.

والتفريع تفريع وصف بعض من غرائب أحوالهم على بعض، وهل أغرب من فزعهم إلى الله وحده بالدعاء إذا مسّهم الضرّ وقد كانوا يشمئزّون من ذكر اسمه وحده، فهذا تناقض من أفعالهم وتعكيس، فإنّه تسبُّب حديث على حديث وليس تسببا على الوجود. وهذه النكتة هي الفارقة بين العطف بالفاء هنا وعطف نظيرها بالواو في أول السورة { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ } [8].

والمقصود بالتفريع هو قوله تعالى { فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا }.

وقد تقدّم القول في نظير صدر هذه الآية في قوله تعالى { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ } [8]. وأنّ المراد بالإنسان كلّ مشرك. والمخالفة بين الآيتين تفنن ولئلّا تخلو إعادة الآية من فائدة زائدة، كما هو عادة القرآن في القصص المكرّرة.

{ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ** } أي: ما أوتيت الذي أوتيته من نعمة إلّا لعلم مني بطرق اكتسابه. وتركيز ضمير الغائب في قوله { أُوتِيتُهُ } عائد إلى { نِعْمَةً } على تأويل حكاية مقالتهم بأنّها صادرة منهم في حال حضور ما بين أيديهم من أنواع النعم، فهو من عود الضمير إلى ذات مشاهدة، فالضمير بمنزلة اسم الإشارة.

{ **عَلَى عِلْمٍ** } للتعليل، أي: بسبب علم. وخولف بين هذه الآية وبين قوله تعالى { عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } [القصص:78]، فلم يذكر هنا { عِنْدِي }، لأنّ المراد بالعلم هنا مجرد الفطنة والتدبير، وأريد هنالك علم صوغ الذهب والفضة والكيمياء التي اكتسب بها قارون من معرفة تدابيرها مالا عظيما.

{ **بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ** } للإضراب الإبطالي، وهو إبطال لزعمهم أنّهم أوتوا ذلك بسبب علمهم وتدبيرهم، أي: بل إنّ الرحمة التي أوتوها إنّما آتاهم الله إيّاها ليظهر للأمم مقدار شكرهم.

{ **هِيَ** } الضمير عائد إلى القول المستفاد من { قال } على طريقة إعادة الضمير على المصدر المأخوذ من فعل، وإنّما أُنِّث ضميره باعتبار الإخبار عنه بلفظ { فِتْنَةٌ }، أو على تأويل القول بالكلمة.

أي: أنّ ذلك القول سبب فتنة أو مسبَّب عن فتنة في نفوسهم. ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى { نِعْمَةً }.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } الاستدراك ناشئ عن مضمون جملة { إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ }، أي: لكن لا يعلم أكثر الناس، ومنهم القائلون، أنّهم في فتنة بما أتوا من نعمة إذا كانوا مثل هؤلاء القائلين الزاعمين أنّ ما هم فيه من خير نتيجة مساعيهم وحيلهم.

{ **أَكْثَرُهُمْ** } الضمير عائد إلى معلوم من المقام غير مذكور في الكلام إذ لم يتقدّم ما يناسب أن يكون له معادا، والمراد به الناس، فدخل في هذا الأكثر جميع المشركين.

{ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [50] فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ [51] }.

{ **قَدْ قَالَهَا** } مبيِّنة لمضمون { هِيَ فِتْنَةٌ } [49]، لأنّ بيان مغبة الذين قالوا هذا القول في شأن النعمة التي تنالهم يبيِّن أنّ نعمة هؤلاء كانت فتنة لهم.

{ **قَالَهَا** } الضمير عائد إلى قول القائل { إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ } [49]، على تأويل القول بالكلمة.

{ **الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } منهم قارون [القصص:78].

{ **فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } الفاء لتفريع عدم إغناء ما كسبوه على مقالتهم تلك، فإنّ عدم الإغناء مشعر بأنّهم حلّ بهم من السوء ما شأن مثله أن يتطلّب صاحبه الافتداء منه، فإذا كان ذلك السوء عظيما لم يكن له فداء، ففي الكلام إيجاز حذف يبيّنه قوله بعده { فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا } .

وكان مقتضى الظاهر في ترتيب الجمل أن تكون جملة { فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا } مقدّمة على جملة { فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }، لأنّ الإغناء إنّما يُترقَّب عند حلول الضير بهم، فإذا تقرّر عدم الإغناء يذكر بعده حلول المصيبة، فعُكس الترتيب على خلاف مقتضى الظاهر لقصد التعجيل بإبطال مقالة قائلهم { إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ } [49]، أي: لو كان لعلمهم أثر في جلب النعمة لهم لكان له أثر في دفع الضرّ عنهم.

{ **هؤلاء** } الإشارة إلى المشركين من أهل مكة.

إصابة السيّئات: مراد بها في الموضعين إصابة جزاء السيّئات، وهو عقاب الدنيا وعقاب الآخرة.

المعجز: الغالب، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } [الأنعام:134]، أي: ما هم بمعجزينا، فحذف مفعول اسم الفاعل لدلالة القرينة عليه.

{ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [52]

عطف على جملة { وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [49]، فبعد أن وصف أكثرهم بانتفاء علمهم بذلك وإهمالهم النظر في الأدلة المفيدة للعلم، وصمّهم آذانهم عن الآيات التي تذكّرهم بذلك حتّى بقوا في جهالة مركّبة، وكان الشأن أن يعلموا أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، أي: يعطي الخير من يشاء، ويمنع من يشاء.

{ **أَوَلَمْ يَعْلَمُوا** } الاستفهام إنكار عليهم في انتفاء علمهم بذلك لأنّهم تسبَّبوا في انتفائه، فالإنكار يتضمّن توبيخا.

{ **أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** } اقتصر في الإنكار على إنكار انتفاء العلم بأنّ بسط الرزق وقدره من فعل الله تعالى لأنّه أدنى لمشاهدتهم أحوال قومهم، فكم من كادٍ غير مرزوق وكم من آخر يجيئه الرزق من حيث لا يحتسب.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } لأنّ اختلاف أحوال الرزق دالة على أنّ التصرف بيد الله تعالى. وجُعلت الآيات لقوم يؤمنون لأنّ المؤمنين قد علموا ذلك وتخلّقوا به ولم تكن فيه آيات للمشركين الغافلين.

{ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [53]

أُطنبت آيات الوعيد بأفنانها السابقة إطنابا يبلغ من نفوس سامعيها أيّ مبلغ من الرعب والخوف، على رغم تظاهرهم بقلّة الاهتمام بها. وقد يبلغ بهم وقعها مبلغ اليأس من سعي ينجيهم من وعيدها.

وقد تثير في نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم خشية أن يحيط غضب الله بالذين دعاهم إليه فأعرضوا، أو حبّبهم في الحق فأبغضوا، فلعلّه لا يُفتح لهم باب التوبة، ولا تُقبل منهم بعد إعراضهم أوبة، ولا سيما بعد أن أمره بتفويض الأمر إلى حكمه، فكان أمره لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يناديهم بهذه الدعوة تنفيسا عليه، وتفتيحا لباب الأوبة إليه، فهذا كلام ينحل إلى استئنافين:

{ **قُلْ** } استئناف لبيان ما ترقّبه أفضل النبيين صلى الله عليه وسلم، أي: بلغ عني هذا القول.

{ **يَا عِبَادِيَ** } استئناف ابتدائي من خطاب الله لهم. وابتداء الخطاب بالنداء وعنوان العباد مؤذن بأنّ ما بعده إعداد للقبول وإطماع في النجاة. والخطاب مراد به المشركون ابتداء بدليل قوله تعالى { وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ } [54]، وقوله تعالى { وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ } [56]، وقوله تعالى { بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [59].

فهذا الخطاب جرى على غير الغالب في مثله في عادة القرآن عند ذكر { عِبَادِيَ } بالإضافة إلى ضمير المتكلم تعالى.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: " أنّ ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا: " إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أنّ لما عملنا كفارة فنزل { وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ - إلى قوله - إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً } [الفرقان:68-70]، ونزل { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ } ".

وعموم { يَا عِبَادِيَ } وعموم صلة { الَّذِينَ أَسْرَفُوا } يشمل أهل المعاصي من المسلمين.

الإسراف: الإكثار. والمراد به هنا الإسراف في الذنوب والمعاصي، وتقدّم ذكره في قوله تعالى { وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً } [النساء:6]، وقوله تعالى { فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ } [الإسراء:33]. والأكثر أن يُعدَّى إلى متعلّقة بحرف (مِن)، وتعديته هنا بـ (على) لأنّ الإكثار هنا من أعمال تتحمّلها النفس وتثقل بها وذلك متعارف في التبعات والعدوان، تقول: أكثرت على فلان.

<u>فالمعنى</u>: أنّهم جلبوا لأنفسهم ما تثقلهم تبعته، ليشمل ما اقترفوه من شرك وسيّئات.

القنوط: اليأس، وتقدّم في قوله تعالى { فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ } [الحجر:55].

{ **إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً** } تعليل للنهي عن اليأس من رحمة الله.

{ **يَغْفِرُ** } مادة الغفر ترجع إلى الستر، وهو يقتضي وجود المستور واحتياجه للستر فدل { يَغْفِرُ الذُّنُوبَ } على أنّ الذنوب ثابتة، أي: المؤاخذة بها ثابتة والله يغفرها، أي: يزيل المؤاخذة بها.

وهذه المغفرة تقتضي أسبابا أُجملت هنا وفُصِّلت في دلائل أخرى من الكتاب والسنّة منها قوله تعالى { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى } [طه:82]، وتلك الدلائل يجمعها أنّ للغفران أسبابا تطرأ على المذنب، فكان قوله { إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ } دعوة إلى تطلّب أسباب هذه المغفرة.

{ **جَمِيعاً** } حال من { الذُّنُوبَ }، أي: عمومها، فيغفر كلّ ذنب منها إن حصلت من المذنب أسباب ذلك.

{ **إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** } تعليل للجملة السابقة، أي: لا يعجزه أن يغفر جميع الذنوب، لأنّه شديد الغفران شديد الرحمة.

{ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ } [54]

لمَّا فتح لهم باب الرجاء أعقبه بالإرشاد إلى وسيلة المغفرة معطوفا بالواو، وللدلالة على الجمع بين النهي عن القنوط من الرحمة وبين الإنابة، جمعا يقتضي المبادرة، وهي أيضا مقتضى صيغة الأمر.

الإنابة: التوبة، ولما فيها وفي التوبة من معنى الرجوع عُدِّي الفعلان بحرف { إلى }.

{ **وَأَسْلِمُوا لَهُ** } أي: التصديق بالنبيّ صلى الله عليه وسلم والقرآن واتباع شرائع الإسلام.

{ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ** } إيذان بوعيد قريب إنّ لم ينيبوا ويسلموا كما يلمّح إليه فعل {يَأْتِيَكُمُ }.

{ **الْعَذَابُ** } تعريف الجنس، وهو يقتضي أنّهم إن لم ينيبوا ويسلموا يأتهم العذاب. والعذاب منه ما يحصل في الدنيا إن شاءه الله، وهذا خاص بالمشركين، وأمّا المسلمون فقد استعاذ لهم منه الرسول صلى الله عليه وسلم حين نزل { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ } [الأنعام:65]، ومن العذاب عذاب الآخرة وهو جزاء الكفر والكبائر.

وهذا الخطاب يأخذ كل فريق منه بنصيب، فنصيب المشركين الإنابة إلى التوحيد واتباع دين الإسلام، ونصيب المؤمنين منه التوبة، إذا أسرفوا على أنفسهم، والإكثار من الحسنات، وأمّا الإسلام فحاصل لهم.

النصر: الإعانة على الغلبة، ولا نصير لأحد على الله.

وهذه الفقرة أكثر حظ فيها هو حظ المشركين.

{ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ} [55]

{ **أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ** } هو القرآن، وهو معنى قوله تعالى { الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ } [18].

والحظ للمشركين في هذه الآية لأنّ المسلمين قد اتبعوا القرآن كما قال تعالى { فَبَشِّرْ عِبَادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ } [18/17].

{ **أَحْسَنَ** } اسم تفضيل مستعمل في معنى كامل الحسن، وليس في معنى تفضيل بعضه على بعض لأنّ جميع ما في القرآن حسن، فهو من باب قوله تعالى { قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ } [يوسف:33].

{ **الْعَذَابُ** } هو العذاب المذكور قبل بنوعيه، وكلّه بغتة إذ لا يتقدمه إشعار، فعذاب الدنيا يحلّ بغتة وعذاب الآخرة كذلك لأنه تظهر بوارقة عند البعث.

{ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ [56] أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [57] أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [58] }.

{ **أَنْ تَقُولَ** } تعليل للأوامر في قوله تعالى { وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ } [54]، وفي قوله تعالى { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ } [55]، على حذف لام التعليل مع (أنْ) وهو كثير. وفيه حذف (لا) النافية بعد (أن).

<u>والمعنى</u>: لئلّا تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله.

وظاهر القول أنّه القول جهرة وهو شأن الذي ضاق صبره عن إخفاء ندامته في نفسه فيصرخ بما حدَّث به نفسه، فتكون هذه الندامة المصرَّح بها زائدة على التي أسرّها، ويجوز أن يكون قولا باطنا في النفس.

{ **نَفْسٌ** } تنكير للنوعية، أي: أن يقول صنف من النفوس، وهي نفوس المشركين، فهو كقوله تعالى { عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ } [التكوير:14].

{ **يَا حَسْرَتَى** } حرف (يا) استعارة مكنية بتشبيه الحسرة بالعاقل الذي ينادى ليقبل، أي: يا حسرتى احضري فأنا محتاج إليك، وشاع ذلك في كلامهم حتّى صارت هذه الكلمة كالمثل لشدّة التحسّر.

الحسرة: الندامة الشديدة. والألف عوض عن ياء المتكلم.

وتعدية الحسرة بحرف الاستعلاء كما هو غالبها للدلالة على تمكّن التحسُّر من مدخول { **عَلَى** }.

{ **مَا فَرَّطْتُ** } والـ { مَا } مصدرية، أي: على تفريطي في جنب الله.

التفريط: التضييع والتقصير، يقال: فرَّطه. والأكثر أن يقال: فرّط فيه.

الجنب والجانب: مترادفان، وهو ناحية الشيء ومكانه، ومنه { وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ } [النساء:36]، أي: الصاحب المجاور.

{ **فِي جَنْبِ اللَّهِ** } حرف { في } هنا الراجح أن يكون لتعدية فعل { فَرَّطْتُ } فلا يكون للفعل مفعول، ويكون المفرّط فيه هو جنب الله، أي: جهته، ويكون الجنب مستعار للشأن والحق، أي: شأن الله وصفاته ووصاياه.

{ **وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ** } خبر مستعمل في إنشاء الندامة على ما فاتها من قبول ما جاءها به الرسول من الهدى فكانت تسخر منه، والجملة حال من فاعل فرّطت، أي: فرّطت في جنب الله تفريط الساخر.

{ **مِنَ السَّاخِرِينَ** } أشدّ مبالغة في الدلالة على اتصافهم بالسخرية من أن يقال: وإن كنتُ لساخرة.

{ **أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** } يقولونه لقصد الاعتذار والتنصّل، تعيد أذهانهم ما اعتادوا الاعتذار به للنبيّ صلى الله عليه وسلم كما حُكِي عنهم { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [الزخرف:20]، وهم كانوا يقولونه لقصد إفحام النبيّ حين يدعوهم.

{ **مِنَ الْمُتَّقِينَ** } الكلام فيه كالقول في قوله تعالى { مِنَ السَّاخِرِينَ }.

{ **أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** } هو تمنّ محض. و{ لو } فيه للتمنّي، وانتصب { فَأَكُونَ } على جواب التمنّي.

الكَرَّة: الرَّجْعة. وتقدّم في قوله تعالى { فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الشعراء:102]، أي: كَرَّة إلى الدنيا فأُحْسِن.

وقد حُكي كلام النفس في ذلك الموقف على ترتيبه الطبيعي في جولانه في الخاطر بالابتداء بالتحسُّر على ما أوقعت فيه نفسها، ثمَّ الاعتذار والتنصُّل طمعا أن ينجيها ذلك، ثمَّ بتمنِّي أن تعود إلى الدنيا لتعمل الإحسان

كقوله تعالى { قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ } [المؤمنون:100/99]. فهذا الترتيب في النظم هو أحكم ترتيب ولو رُتِّب الكلام على خلافه لفاتت الإشارة إلى تولُّد هذه المعاني في الخاطر حينما يأتيهم العذاب.

{ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [59]

{ **بَلَى** } حرف لإبطال منفي أو فيه رائحة النفي، لقصد إثبات ما نفي قبله، فتعيَّن أن تكون هنا جوابا لقول النفس { لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } [57]، لما تقتضيه { لو } التي استعملت للتمنِّي من انتفاء ما تمنّاه، وهو أن يكون الله هداه ليكون من المتقين، أي: لم يهدني الله فلم أتق.

{ **قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي** } تفصيل للإبطال وبيان له، وهو مثل الجواب بالتسليم بعد المنع، أي: هداك الله.

وقد قوبل كلام النفس بجواب يقابله على عدد قرائنه الثلاث:

{ **قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا** } وهذا مقابل { لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي } [57].

{ **وَاسْتَكْبَرْتَ** } وهو مقابل { عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ } [الزمر:56]، أي ليست نهاية أمرك التفريط بل أعظم منه وهو الاستكبار.

{ **وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ** } وهذا مقابل { لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } [57].

<u>المعنى</u>: أنّ الله هداك في الدنيا بالإرشاد بآيات القرآن فقابلتَ الإرشاد بالتكذيب والاستكبار والكفر بها فلا عذر لك.

{ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ } [60]

عطف على إحدى الجمل المتقدّمة المتعلّقة بعذاب المشركين في الدنيا والآخرة، والأحسن أن يكون عطفا على جملة { وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا } [51]، أي: في الدنيا كما أصاب الذين من قبلهم، ويوم القيامة تسودُّ وجوههم.

{ **تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ** } الخطاب في قوله { تَرَى } لغير معيَّن. والَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ هم الذين نسبوا إليه ما هو منزَّه عنه من الشريك وغير ذلك من تكاذيب الشرك، وهم الذين ظلموا في قوله تعالى { وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا } [51]، وصفوا أوّلا بالظلم ثم وصفوا بالكذب على الله هنا.

ويدخل فيهم كلّ من نسب إلى الله صفة لا دليل له فيها، ومن شرع شيئا فزعم أنّ الله شرعه متعمّدا قاصدا ترويجه للقبول بدون دليل، فيدخل أهل الضلال الذين اختلقوا صفات لله أو نسبوا إليه تشريعا.

ولا يدخل أهل الاجتهاد المخطئون في الأدلة، إذا استفرغوا الجهود. ونسبة شيء إلى الله أمرها خطير، ولذلك قال أئمتنا: إنّ الحكم المقيس غير المنصوص يجوز أن يقال هو دين الله ولا يجوز أن يقال: قاله الله.

{ **وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ** } مبتدأ وخبر، وموقع الجملة موقع الحال من { الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ }، لأنّ الرؤية هنا بصرية لا ينصب فعلها مفعولين. ولا يلزم اقتران جملة الحال الاسمية بالواو.

يجوز أنّ يكون اسوداد الوجوه حقيقة، جعله الله علامة لهم وجعل بقية الناس بخلافهم. وقد جعل الله اسوداد الوجوه يوم القيامة علامة على سوء المصير، كما جعل بياضها علامة على حسن المصير، قال تعالى { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [آل عمران:107/106]. ويجوز أن يكون ابيضاض الوجوه مستعملا في النضرة والبهجة قال تعالى { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ } [القيامة:22].

{ **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ** } واقعة موقع الاستئناف البياني للجملة السابقة، على كلا المعنيين، لأنّ السامع يسأل عن سبب اسوداد الوجوه فيجاب بأنّ في جهنم مثواهم، يعني لأن السواد يناسب ما سيفلح وجوههم من مسّ النار، فأجيب بطريقة الاستفهام التقريري بتنزيل السائل المقدَّر منزلة من يعلم أن مثواهم جهنم فلا يليق به أن يغفل عن مناسبة سواد وجوههم لمصيرهم إلى النار.

التكبّر: شدّة الكبر، ومن أوصاف الله تعالى المتكبِّر، و**الكِبر**: إظهار المرء التعاظم على غيره لأنّه يعدّ نفسه عظيما. والتعريف هنا للاستغراق.

وفي وصفهم بالمتكبّرين إيماء إلى أنّ عقابهم بتسويد وجوههم كان مناسبا لكبريائهم.

{ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } [61]

عطف على الجملة السابقة، أي: وينجي الله الذين اتقوا من جهنم لأنّهم ليسوا بمتكبِّرين. وهذا إيذان بأنّ التقوى تنافي التكبّر، لأنّ التقوى كمال الخلق الشرعي وتقتضي اجتناب المنهيّات وامتثال الأمر في الظاهر والباطن، والكبر مرض قلبي باطني فإذا كان الكبر ملقيا صاحبه في النار فضدّ أولئك ناجون منها، وهم المتقون.

المفازة: يجوز أن تكون مصدرا ميميا للفوز وهو الفلاح، مثل المتاب. كما في قوله تعالى { فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ } [آل عمران:188]، والباء للملابسة، أي: متلبِّسين بالفوز، أو الباء للسببية، أي: بسبب ما حصلوا عليه من الفوز.

ويجوز أن تكون المفازة اسم للفلاة، سُمِّيت مفازة باسم مكان الفوز، أيّ النجاة، وتأنيثها بتأويل البقعة، وسمُّوها مفازة باعتبار أنّ من حلّ بها سلم من أن يلحقه عدوه. وعلى هذا المعنى فالباء بمعنى (في).
وتكون المفازة هنا الجنّة. قال تعالى { إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً } [النبأ:31-33].
{ **لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** } مبيِّنة للجملة السابقة، لأنّ نفي مسّ السوء هو إنجاؤهم، ونفي الحزن عنهم نفي لأثره. وجيء في جانب نفي السوء عنهم بالجملة الفعلية، لأنّ ذلك لنفي حالة أهل النار عنهم، وأهل النار في مسّ من السوء متجدّد. وجيء في نفي الحزن عنهم بالجملة الاسمية، لأنّ أهل النار أيضا في حزن وغم ثابت لازم لهم. ومن لطيف التعبير هذا التفنّن، فإنّ شأن الأسواء الجسدية تجدّد آلامها، وشأن الأكدار القلبية دوام الإحساس بها.

{ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ [62] لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [63] }

هذا استئناف ابتدائي تمهيد لقوله تعالى { قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ } [64] في ذكر تمسُّك الرسول صلى الله عليه وسلم والرسل من قبله بالتوحيد ونبذ الشرك والبراءة منه والتصلّب في مقاومته وقطع دابره.
وقد اشتمل هذا الاستئناف ومعطوفاته على ثلاث جمل وجملة رابعة:
الجملة الأولى: { **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** } هذه الجملة أدخلت كلّ موجود في أنّه مخلوق لله تعالى، فهو وليّ التصرّف فيه لا يخرج من ذلك إلّا ذات الله تعالى وصفاته، والمقصود من هذا إثبات حقيقة، وإلزام الناس بتوحيده لأنّه خالقهم، وليس في هذا قصد ثناء ولا تعاظم.
والمقصود من هذه المقدّمة تذكير الناس بأنّهم جميعا عبيد لله وحده ليس لغيره منّة عليهم بالإيجاد.
الجملة الثانية: { **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** } جيء بها عطوفة لأنّ مدلولها مغاير لمدلول التي قبلها.
الوكيل: المتصرّف في شيء بدون تعقّب. ولمّا لم يعلّق بذلك الوصف شيء عُلم أنّه موكول إليه جنس التصرّف وحقيقته، فعمّ تصرُّفه أحوال جميع الموجودات، من تقدير الأعمال والآجال والحركات.
وهذه المقدمة تقتضي الاحتياج إليه بالإمداد، فهم بعد أن أوجدهم لم يستغنوا عنه لمحة ما.
الجملة الثالثة: { **لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } جيء بها مفصولة لأنّها تفيد بيان الجملة التي قبلها، فإنّ الوكيل على شيء يكون هو المتصرّف في العطاء والمنع.
المقاليد: جمع إقليد (بكسر الهمزة وسكون القاف) وهذا جمع على غير قياس، وإقليد قيل معرّب عن الفارسية، وأصله (كليد) قيل من الرومية، وقيل كلمة يمانية.

وهي كناية عن حفظ ذخائر السماوات والأرض، فذخائر الأرض عناصرها ومعادنها وكيفيّات أجوائها وبحارها، وذخائر السماوات سير كواكبها وتصرّفات أرواحها في عوالمها وعوالمنا. وما لا يعلمه إلا الله تعالى. ولمّا كانت تلك العناصر والقوى شديدة النفع للناس وكان الناس في حاجة إليها شُبِّهت بنفائس المخزونات، فصحّ أيضا أن تكون المقاليد استعارة مكنية.

وهذه المقدمة تشير إلى أنّ الله هو معطي ما يشاء لمن يشاء من خلقه، ومن أعظم ذلك النبوّة وهدي الشريعة فإن جهل المشركين بذلك هو الذي جرّأهم على أن أنكروا اختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة دونهم، واختصاص أتباعه بالهدى فقالوا { أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا } [الأنعام:53].

فهذه الجمل اشتملت على مقدّمات ثلاث تقتضي كل واحدة منها دلالة على وحدانية الله بالخلق، ثم بالتصرّف المطلق في مخلوقاته، ثمّ بوضع النظم والنواميس الفطرية والعقلية والتهذيبية في نظام العالم وفي نظام البشر. وكلّ ذلك موجب توحيده وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم والاستمساك بعروته.

<u>الجملة الرابعة</u>: { **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } تحتمل الاعتراض ولكن اقترانها بالواو بعد نظائرها يرجّح أن تكون (الواو) فيها عاطفة وأنّها مقصودة بالعطف على ما قبلها لأنّ فيها زيادة على مفاد الجملة قبلها، وتكون مقدّمة رابعة للمقصود، تجهيلا للذين هم ضدّ المقصود من المقدمات، فإنّ الاستدلال على الحق بإبطال ضده ضرب من ضروب الاستدلال. لأنّ الاستدلال يعود إلى ترغيب وتنفير، فإذا كان الذين كفروا بآيات الله خاسرين لا جرم كان الذين آمنوا بآيات الله هم الفائزين.

فهذه الجملة تقابل جملة { وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ } [61] المنتقل منها إلى هؤلاء الآيات، وهي مع ذلك مفيدة إنذارهم وتأفين آرائهم، لأنّ موقعها بعد دلائل الوحدانية يقتضي التنديد عليهم في عدم الاهتداء بها.

آيات الله: هي دلائل وجوده ووحدانيّته التي أشارت إليها الجمل الثلاث السابقة.

{ **أُولَئِكَ** } الإخبار عن الذين كفروا باسم الإشارة للتنبيه على أنّ المشار إليهم خسروا لأجل ما وصفوا به قبل اسم الإشارة، وهو الكفر بآيات الله.

{ **هُمُ** } توسّط ضمير الفصل لإفادة حصر الخسارة فيهم، وهو قصر ادعائي بناء على عدم الاعتداد بخسارة غيرهم بالنسبة إلى خسارتهم، فخسارتهم أعظم خسارة.

{ **الْخَاسِرُونَ** } لأنّهم كفروا بآيات من له مقاليد خزائن الخير فعرَّضوا أنفسهم للحرمان ممَّا في خزائنه وأعظمها خزائن خير الآخرة.

{ **قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ** } [64]
هذا نتيجة المقدِّمات وهو المقصود بالإثبات.
{ **قُلْ** } هو الواسطة في جعل المقام لخطاب المشركين خاصة بعد أن كان مقام الكلام قبله مقام البيان لكلّ سامع من المؤمنين وغيرهم.
{ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ** } الفاء لتفريع الكلام المأمور الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله على الكلام الموحى به إليه ليقرع به أسماعهم، فإنّ الحقائق المتقدِّمة موجهة إلى المشركين. فبعد تقرُّرها عندهم وإنذارهم على مخالفة حالهم لما تقتضيه تلك الحقائق، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بان يوجه إليهم هذا الاستفهام الإنكاري.
{ **أَعْبُدُ** } قيل متعلّق بـ { تَأْمُرُونِّي } على حذف حرف الجر مع (أن). والجمهور يجعلون { أَعْبُدُ } هو المستفهم عنه، وفعل { تَأْمُرُونِّي } اعتراضا أو حالا، والتقدير: أأعبد غير الله حال كونكم تأمرونني بذلك.
{ **أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ** } نداؤهم بوصف الجاهلين تقريع لهم بعد أن وُصفوا بالخسران ليجمع لهم بين نقص الآخرة ونقص الدنيا. والجهل هنا ضد العلم، لأنّهم جهلوا دلالة الدلائل المتقدّمة فلم تفد منهم شيئا فعمُوا عن دلائل الوحدانية التي هي بمرأى منهم ومسمع، فجهلوا دلالتها على الصانع الواحد ولم يكفهم هذا الحظ من الجهل حتى تدلوا إلى حضيض عبادة أجسام من الصخر الأصم.
وحُذف مفعول { الْجَاهِلُونَ } لتنزيل الفعل منزلة اللازم، كأنّ الجهل صار لهم سجيّة فلا يفقهون شيئا، فهم جاهلون بما أفادته الدلائل من الوحدانية التي لو علموها لما أشركوا ولما دعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى إتباع شركهم.

{ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** [65] **بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** [66] }.
تأييد لأمره بأن يقول للمشركين تلك المقالة، مقالة إنكار أن يطمعوا منه في عبادة غير الله. وأعقب بأنّهم جاهلون بأنّ التوحيد هو سنة الأنبياء، وأنّهم لا يتطرّق الإشراك حوالي قلوبهم، فالمقصود الأهم من هذا الخبر التعريض بالمشركين إذ حاولوا النبيّ صلى الله عليه وسلم على الاعتراف بإلهية أصنامهم.
{ **وَلَقَدْ** } الواو عاطفة على جملة { قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي } [64]. وتأكيد الخبر بلام القسم وبحرف (قد) تأكيدا لما فيه من التعريض للمشركين.
{ **الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ** } هم الأنبياء والمرسلون.
{ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** } مبيّنة لمعنى { أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ }.

والتاء في { أَشْرَكْتَ } تاء الخطاب لكلّ من أوحي إليه بمضمون هذه الجملة من الأنبياء. ويجوز أن يكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. وأيًّا ما كان فالمقصود بالخطاب تعريض بقوم الذي أوحي إليه، لأنّ فرض إشراك النبيّ صلى الله عليه وسلم غير متوقّع.

{ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ** } اللام موطِّئة للقسم المحذوف دالة عليه، واللام في { لَيَحْبَطَنَّ } لام جواب القسم.

الحَبط: البطلان والدحض، حبط عمله: ذهب باطلا. والمراد بالعمل هنا: العمل الصالح الذي يُرجى منه الجزاء الحسن الأبدي. وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ } [البقرة:217].

{ **وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } ثمّ عُطف عليه أنّ صاحب الإشراك من الخاسرين، شُبِّه حاله حينئذ بحال التاجر لذي أخرج مالا ليربح فيه زيادة فعاد وقد ذهب ماله أو أكثره.

وفي تقدير فرض وقوع الإشراك من الرسول والذين من قبله، مع تحقّق عصمتهم، التنبيه على عظم أمر التوحيد وخطر الإشراك، ليعلم الناس أنّ أعلى الدرجات في الفضل لو فُرض أن يأتي عليها الإشراك لما أبقى منها أثرا ولدحضها دحضا.

{ **بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** } لإبطال مضمون جملة { لَئِنْ أَشْرَكْتَ }، أي: بل لا تشرك، أو لإبطال مضمون جملة { أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ }.

{ **فَاعْبُدْ** } الفاء يظهر أنّها تفريع على التحذير من حبط العمل ومن الخسران.

فحصل باجتماع (بَل) و(الفاء)، في صدر الجملة، أن جمعت غرضين: غرض إبطال كلامهم، وغرض التحذير من أحوالهم، وهذا وجه رشيق.

{ **اللَّهَ فَاعْبُدْ** } تقديم المعمول على { فاعبد } لإفادة القصر، أي: أعبد الله لا غيره، وهذا في مقام الردّ على المشركين كما تضمّنه قوله تعالى { قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ } [64].

الشكر: هنا العمل الصالح، لأنّه عطف على إفراد الله تعالى بالعبادة. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولمن قبله، أو خاص به ويقاس عليه الأنبياء. نظير ما في القول السابق { لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ }.

{ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [67]

لمّا جرى الكلام على أنّ الله تعالى خلق كلّ شيء وأنّ له مقاليد السماوات والأرض وهو ملك عوالم الدنيا، وذُيِّل ذلك بأنّ الذين كفروا بدليل الوحدانية هم الخاسرون، انتقل الكلام هنا إلى عظمة ملك الله تعالى في

العالم الأخروي الأبدي، وأنّ الذين كفروا بآيات الله الدالة على ملكوت الدنيا قد خسروا بترك النظر، فلو اطّلعوا على عظيم ملك الله في الآخرة لقدَّروه حقّ قدره.

{ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** } اعتراض بين جملة { وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } وجملة { لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [63]، أي: ما عرفوا عظمته حيث لم ينزّهوه عمّا لا يليق بجلاله من الشريك.

{ **حَقَّ قَدْرِهِ** } من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ما قدَّروا الله قدره الحقّ، فانتصب { حَقَّ } على النيابة عن المفعول المطلق المبيِّن للنوع، وتقدّم نظير هذا في [الأنعام:91].

{ **وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ** } يجوز أن تكون الجملة عطف غرض على غرض، انتقل به إلى وصف يوم القيامة وأحوال الفريقين فيه.

{ **جَمِيعاً** } أصله اسم مفعول. وبذلك استعمل توكيدا مثل (كلّ) و (أجمع)، قال تعالى { يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً } [المجادلة :6]. وقد وقع { جَمِيعاً } هنا حالا من { الْأَرْضُ }، وتجريده من علامة التأنيث جريا على الوجه الغالب. وتقدّم نظيره آنفا في قوله تعالى { قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً } [44].

القَبضة: (بفتح القاف) المرّة من القبض، وتقدّم في قوله تعالى { فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ } [طه:96]. والإخبار عن الأرض بهذا المصدر الذي هو بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق للمبالغة في الاتصاف بالمعنى المصدري، وإنّما صيغ لها وزن المرّة تحقيرا لها في جانب عظمة ملك الله تعالى. والقبضة تدلّ على تمام التمكّن من المقبوض، وأنّ المقبوض لا تصرّف له ولا تحرّك.

{ **وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** } استعارة مكنية لتشويش تنسيقها واختلال أبعاد أجرامها، فإنّ الطي رد ولف بعض شقق الثوب أو الورق على بعض بعد أن كانت مبسوطة منتشرة، قال تعالى { يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } [الأنبياء:104]. وإثبات الطي تخييل.

{ **بِيَمِينِهِ** } الباء للآلة والسببية. و**اليمين**: وصف لليد، ولا يد هنا وإنّما هي كناية عن القدرة لأنّ العمل يكون باليد اليمين. أي: بقدرة.

{ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** } إنشاء تنزيه لله تعالى عن إشراك المشركين له آلهة، وهو يؤكد جملة { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ }.

{ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ** } [68]

انتقال من إجمال عظمة القدرة يوم القيامة إلى تفصيلها، لما فيه تهويل وتمثيل لمجموع الأحوال يومئذ، ممّا ينذر الكافر ويبشّر المؤمن، ويذكّر بإقامة العدل والحقّ. ثم تمثيل إزجاء المشركين إلى جهنم وسَوق المؤمنين إلى الجنة. والجملة من عطف القصة على القصة، ومناسبة العطف ظاهرة.

{ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ** } عُبّر بالماضي مجازا لأنّه محقَّق الوقوع، كقوله تعالى {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ} [النحل:1]، ويجوز أن تكون (الواو) للحال بتقدير (قد)، أي: والحال قد نفخ في الصور، فتكون صيغة الماضي مستعملة في حقيقتها.

الصور: بوق ينادى به البعيد المتفرّق مثل الجيش، وقد كان اليهود ينادون به للصلاة، كما جاء في حديث بدء الأذان في الإسلام. والمراد به هنا نداء الخلق لحضور الحشر أحيائهم وأمواتهم، وتقدّم عند قوله تعالى { يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ} [الأنعام:73].

وهو علامة لأمر التكوين، فالأحياء يصعقون فيموتون، كما يموت المفزوع، بالنفخة الأولى، والأموات يُصعقون اضطرابا تدُبّ بسببه فيهم الحياة، فيكونون مستعدّين لقبول الحياة، فإذا نُفخت النفخة الثانية حلّت الأرواح في الأجساد المخلوقة لهم.

{ **إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ** } الاستثناء من اسم الموصول الأوّل، أي: إلّا من أراد الله عدم صعقة وهم الملائكة والأرواح، وتقدّم في قوله { وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ } [النمل:87].

{ **ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى** } { ثمّ } تؤذن بتراخي الرتبة لأنّها عاطفة جملة، ويجوز أن تفيد مع ذلك المهلة.

{ **أُخْرَى** } صفة لمحذوف، أي: نفخة أخرى، وهي نفخة مخالف تأثيرها لتأثير النفخة الأولى، لأنّ الأولى نفخة إهلاك وصعق، والثانية نفخة إحياء، وذلك باختلاف الصوتين أو باختلاف أمري التكوين.

وإنّما ذكرت النفخة الثانية في هذه الآية ولم تذكر في [النمل:87]، لأنّ تلك في غرض الموعظة بفناء الدنيا وهذه الآية في غرض عظمة شأن الله يوم القيامة، وكذلك وصف النفخة بالواحدة في قوله تعالى { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ } [الحاقة:13-15].

{ **فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ** } { إذا } للمفاجأة، للتنبيه على سرعة حلول الحياة فيهم وقيامهم إثره. وضمير { هم } عائد على { مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ }. و{ **قِيَامٌ** } جمع قائم.

{ **يَنْظُرُونَ** } الإبصار، أي: لا غشاوة على أبصارهم، كما في قوله { فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ} [الصافات:19]، أو أريد أنّهم ينظرون نظر المقلّب بصره. ويجوز أن يكون من النظرة، أي: الانتظار.

{ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ [69] وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ [70] }.

صوَّرت هذه الآيات جلال ذلك الموقف وجماله أبدع تصوير.

{ **الْأَرْضُ** } تعريف العهد الذكري الضمني، فقد تضمن قوله تعالى { فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } [68]، أنّهم قيام، فإنّ القيام يستدعي مكانا تقوم فيه تلك الخلائق، وهو أرض الحشر، وهي الساهرة في قوله تعالى { فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ } [النازعات:14/13]. وفُسِّرت بأنها الأرض البيضاء النقية، وليس المراد التي كانوا عليها في الدنيا، فإنّها قد اضمحلت لقوله تعالى { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ } [إبراهيم: 48].

{ **وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ** } انتشار الضوء عليها، يقال: أشرقت الأرض، ولا يقال: أشرقت الشمس.

{ **بِنُورِ رَبِّهَا** } إضافة النور إلى الربّ إضافة تعظيم لأنّه منبعث منه، وهو الذي في قوله تعالى { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ } [النور:35]. فإضافة نور إلى الرب إضافة تشريف للمضاف، كقوله تعالى { هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً } [الأعراف:73].

أي: بنور خاص خلقه الله فيها، لا بسطوع مصباح ولا بنور كوكب شمس أو غيرها، وإذ قد كان النور نورا ذاتيا لتلك الأرض كان إشارة إلى خلوصها من ظلمات الأعمال، فدلّ على أنّ ما يجري على تلك الأرض من الأعمال والأحداث حقّ وكمال في بابه، لأنّ عالم الأنوار لا يشوبه شيء من ظلمات الأعمال.

وهذا يغني عن جعل النور مستعارا للعدل، فإنّ ذلك المعنى حاصل بدلالة الالتزام كناية.

الوضع: الحط، والمراد به هنا الإحضار.

{ **الْكِتَابُ** } تعريفه تعريف الجنس، أي: وضعت الكتب، وهي صحائف أعمال العباد أحضرت للحساب.

ويجوز أن يكون المراد بالكتاب كتب الشرائع التي شرعها الله للعباد على ألسنة الرسل ويكون إحضارها شاهدة على الأمم بتفاصيل ما بلَّغه الرسل إليهم، لئلا يزعموا أنّهم لم تبلغهم الأحكام.

{ **وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ** } للشهادة على أممهم، كما تقدّم في قوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41].

{ **وَالشُّهَدَاءِ** } من الملائكة الحفظة الموكلين بِحصاء أعمال العباد.

{ **وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ** } أي: صدر القضاء فيهم بما يستحقّون وهو مسمَّى الحق.

فمن القضاء ما هو فصل بين الناس في معاملات بعضهم مع بعض من كل ظالم ومظلوم ومعتدٍ ومعتدًى عليه، قال تعالى { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [النحل:124].

ومنه أيضا القضاء على كل نفس بما هي به حقيقة من مرتبة الثواب أو العقاب، وهو قوله تعالى { وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ} .

فقضاء الله هو القضاء العام الذي لا يقتصر على إنصاف المتداعين كقضاء القاضي، ولا على سلوك الداعرين كقضاء والي الشرطة، ولا على مراقبة المغيرين كقضاء والي الحسبة، ولكنه قضاء على كل نفس بما اختلت به من عمل وبما أضمرته من ضمائر إن خيرًا فخيرٌ وإنّ شرًّا فشرٌّ.

وإلى ذلك تشير المراتب الثلاث في الآية:

مرتبة { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }.

مرتبة { وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ }.

مرتبة { وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ }.

التوفية: إعطاء الشيء وافيا لا نقص فيه عن الحق، ولا عن عطاء أمثاله.

{ **مَا عَمِلَتْ** } مضاف محذوف، أي: جزاء ما عملت، لظهور أنّ ما عمله المرء لا يوفَّاه بعد أن عمله وإنّما يوفَّى جزاءه.

{ **وَأَشْرَقَتِ / وَجِيءَ / قُضِيَ / وُفِّيَتْ** } عُبِّر بالماضي مجازا لأنّه محقَّق الوقوع.

{ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ [71] قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ [72]}.

هذا تنفيذ القضاء الذي جاء في قوله تعالى { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ} [69]، وقوله تعالى { وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ } [70]، فإنّ عاقبة ذلك ونتيجته إيداع المجرمين في العقاب وإيداع الصالحين في دار الثواب.

وابتدئ في الخبر بذكر مستحقّي العقاب لأنّه الأهم في هذا المقام، إذ هو مقام إعادة الموعظة والترهيب للذين لم يتّعظوا بما تكرّر في القرآن من العظات مثل هذه.

السَّوق: أن يجعل الماشي ماشيا آخر يسير أمامه ويلازمه، وضدّه القَود، والسَّوق مشعر بالإزعاج والإهانة، قال تعالى { كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ } [لأنفال:6].

الزُّمَر: جمع زُمْرَة، وهي الفوج من الناس المتبوع بفوج آخر، فلا يقال: مرّت زمرة من الناس، إلّا إذا كانت متبوعة بأخرى. وإنّما جعلوا زمرا لاختلاف درجات كفرهم.

{ **حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا** } التقدير: فلمّا جاءوها فتحت أبوابها، أي: وكانت مغلقة لتفتح في وجوههم حين مجيئهم فجأة، تهويلا ورعبا. وقرأ الجمهور { فُتِّحَتْ } بتشديد التاء للمبالغة في الفتح. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف التاء على أصل الفعل.

الخَزَنة: جمع خازن وهو الوكيل والبوّاب، غلب عليه اسم الخازن لأنه يقصد لخزن المال.

{ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ** } استفهام تقريري مستعمل في التوبيخ والزجر.

{ **مِنْكُمْ** } صفة لـ { رُسُلٌ } والمقصود التورك عليهم لأنّهم كانوا يقولون {أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ} [القمر:24].

التلاوة: قراءة الرسالة والكتاب، لأنّ القارئ يتلو بعض الكلام ببعض.

الآيات: أصلها العلامات، مثل آيات الطريق. وأطلقت على الأقوال الدالة على الحقّ. والمراد بها هنا القوال الموحى بها إلى الرسل، مثل صحف إبراهيم وموسى والقرآن، ولأنّ في معاني كثير من القرآن والكتب السماوية ما فيه دلائل نظرية على الوحدانية والبعث ونحوها من الاستدلال.

وأسندت التلاوة إلى جميع الرسل وإن كان فيهم من ليس له كتاب على طريقة التغليب.

{ **قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ** } لم يعطف فعل { قالوا } على ما قبله لأنّه جاء في معرض المقاولة. وجوابهم بحرف { بلى } إقرار بإبطال المنفي، وهو إتيان الرسل وتبليغهم، فمعناه إثبات إتيان الرسل وتبليغهم.

{ **كَلِمَةُ الْعَذَابِ** } هي الوعيد به على ألسنة الرسل، كما في قول بعضهم { فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ } [الصافات:31]، أي: تحقّقت فينا.

{ **وَلَكِنْ** } محل الاستدراك هو ما طوي في الكلام ممّا اقتضى أن تحقّ عليهم كلمات الوعيد، وذلك بإعراضهم عن الإصغاء لأمر الرسل، فالتقدير: ولكن تكبَّرْنَا وعانَدْنَا فحقت كلمة العذاب على الكافرين.

وهذا الجواب من قبيل جواب المتندِّم المكروب فإنّه يوجز جوابه ويقول لسائله أو لائمه: الأمر كما ترى.

{ **قِيلَ** } مبني للنائب للعلم بالفاعل إذ القائل: ادخلوا أبواب جهنم، هم خزنتها.

دخول الباب: ولوجه لوصول ما وراءه، قال تعالى { ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ } [المائدة:23].

المَثْوَى: محلّ الثواء وهو الإقامة، والمخصوص بالذمّ محذوف دلّ عليه ما قبله والتقدير: بئس مثوى المتكبرين جهنّم.

{ **الْمُتَكَبِّرِينَ** } لأنهم أعرضوا عن قبول الإسلام تكبّرا عن أن يتبعوا واحدا منهم.

{ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ } [73]

أطلق على تقدمة المتقين إلى الجنة فعل السَّوق على طريقة المشاكلة، والمشاكلة من المحسِّنات، وهي عند التحقيق من قبيل الاستعارة التي لا علاقة لها إلّا المشابهة الجُملية التي تحمل عليها مجانسة اللفظ.

{ **زُمَراً** } بحسب مراتب التقوى.

{ **وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا** } واو الحال، أي: حين جاءوها وقد فتحت أبوابها، فوجدوا الأبواب مفتوحة، على ما هو الشأن في اقتبال أهل الكرامة.

{ **طِبْتُمْ** } دعاء بالطيب لهم، أي: التزكية وطيب الحالة ،والجملة إنشاء تكريم ودعاء.

{ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } [74]

عطف هذا الكلام يؤذن بأن قولهم ذلك غير جواب لقول الملائكة بل حمدوا الله على ما منحهم من النعيم الذي وعدهم به، وإنّما وعدهم به بعنوان الأعمال الصالحة، فلمّا كانوا أصحاب الأعمال الصالحة جعلوا وعد العاملين للصالحات وعدا لهم، لتحقق المعلَّق عليه الوعد فيهم.

{ **صَدَقَنَا** } حقَّق لنا وعده.

{ **وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ** } كلام جرى مجرى المثل لمن ورث الملك، قال تعالى { أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } [الأنبياء:105]. <u>ويجوز</u> أن يكون لفظ { الْأَرْضَ } مستعارا للجنة، لأنّها قرارهم كما أنّ الأرض قرار الناس في الحياة الأولى.

{ **وَأَوْرَثَنَا** } وإطلاق الإيراث استعارة، تشبيها للإعطاء بالتوريث في سلامته من تعب الاكتساب.

التبوُّؤ: السكنى والحلول، والمعنى: أنّهم ينتقلون في الغرف والبساتين تفنّنا في النعيم.

{ **العَاملين** } أرادوا أنفسهم، أي: عاملي الخير، وهذا من التصريح بالحقائق فليس فيه عيب تزكية النفس.

{ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [75]

عطف على ما قبله من ذكر أحوال يوم القيامة التي عطف بعضها على بعض ابتداء من قوله تعالى { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ } [68]، أنّ من جملة تلك الأحوال حفّ الملائكة حول العرش.

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم فيكون إيذانا بأنّها رؤية دنوّ من العرش وملائكته، وذلك تكريم له بأن يكون قد حواه موكب الملائكة الذين حول العرش.

الحَفُّ: الإحداق بالشيء، والكون بجوانبه.

{ **يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** } حال، أي: يقولون أقوالا تدل على تنزيه الله تعالى وتعظيمه ملابسة لحمدهم إيّاه. فالباء للملابسة تتعلق بـ { يُسَبِّحُونَ } .

{ **رَبِّهِمْ** } في استحضار الله تعالى بوصف ربّهم إيماء إلى أنّ قربهم من العرش ترفيع في مقام العبودية الملازمة للخلائق.

{ **وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ** } تأكيد لجملة { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } [69].

{ **وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } يجوز أن يكون توكيدا لجملة { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ } [74]. ويجوز أن يكون حكاية قول آخر لقائلين من الملائكة والرسل وأهل الجنة، فهو أعمّ من القول المتقدّم الذي هو قول المسوقين إلى الجنة من المتقين، فهذا قولهم يحمدون الله على عدل قضائه وجميع صفات كماله.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة غافر

وردت تسمية هذه السورة في السنّة (**حم المؤمن**). روى الترمذي عن أبي هريرة قال: " قال رسول الله صلى الله وسلم: **" من قرأ حم المؤمن إلى { إِلَيْهِ الْمَصِيرُ } [1-3]، وآية الكرسي حين يصبح حُفِظ بهما "**.

وبذلك اشتهرت في مصاحف المشرق، وبذلك ترجمها البخاري في صحيحه والترمذي في الجامع.

ووجه التسمية أنّها ذكرت فيها قصّة مؤمن آل فرعون ولم تذكر في سورة أخرى بوجه صريح.

وتُسمّى أيضا (**سورة الطَّوْل**) لقوله تعالى في أوّلها { ذِي الطَّوْلِ} [3]، وقد تنوسي هذا الاسم.

وتسمَّى (**سورة غافر**) لذكر وصفه تعالى { غَافِرِ الذَّنْبِ } [3] وبهذا الاسم اشتهرت في مصاحف المغرب.

وهي **مكّية بالاتفاق،** وعن الحسن استثناء قوله تعالى { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } [55]، لأنّه كان يرى أنّها نزلت في فرض الصلوات الخمس وأوقاتها. وهو ضعيف.

وأشدّ منه ما روي عن أبي العالية أنّ قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ } [56] نزلت في يهود من المدينة.

وهذه السورة **جُعلت الستين في عداد ترتيب نزول السور** نزلت بعد سورة الزمر وقبل سورة فصلت، وهي أول سور (آل حم) نزولا.

وقد كانت هذه السورة مقروءة عقب وفاة أبي طالب، أي: سنة ثلاث قبل الهجرة، لما سيأتي أنّ أبا بكر قرأ آية { أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ } [28] حين آذى نفر من قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم حول الكعبة، وإنّما اشتد أذى قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أبي طالب.

وقد **عُدَّت آيها أربعا وثمانين** في عد أهل المدينة وأهل مكّة، وخمسا وثمانين في عد أهل الشام والكوفة، واثنتين وثمانين في عد أهل البصرة.

أغراض السورة

*/ تضمّنت هذه السورة أغراضا من أصول الدعوة إلى الإيمان.

*/ ابتدئت بما يقتضي تحدِّي المعاندين في صدق القرآن، كما اقتضاه الحرفان المقطّعان في فاتحتهما.

*/ التعريض بدعوتهم إلى الإقلاع عمّا هم فيه، فكانت فاتحة السور مثل ديباجة الخطبة مشيرة إلى الغرض من تنزيل هذه السورة.

*/ عقَّب ذلك بأنّ دلائل تنزيل هذا الكتاب من الله بيّنة لا يجحدها إلّا الكافرون من الاعتراف بها حسدا، وأنّ جدالهم تشغيب. وقد تكرَّر ذكر (المجادلين في آيات الله) خمس مرات في هذه السورة.

*/ تمثيل حالهم بحال الأمم التي كذّبت رسل الله بذكرهم إجمالا.

*/ التنبيه على آثار استئصالهم وضرب المثل بقوم فرعون.

*/ موعظة مؤمن آل فرعون قومه بمواعظ تشبه دعوة محمد صلى الله عليه وسلم قومه.

*/ التنبيه على دلائل تفرّد الله تعالى بالإلهية إجمالا.

*/ إبطال عبادة ما يعبدون من دون الله.

*/ التذكير بنعم الله على الناس ليشكره الذين أعرضوا عن شكره.

*/ الاستدلال على إمكان البعث.

*/ إنذارهم بما يلقون من هوله وما يترقّبهم من العذاب.

*/ توعّدهم بأن لا نصير لهم يومئذ، وبأنّ كبراءهم يتبرّؤون منهم.

*/ تثبيت الله رسوله صلى الله عليه وسلم بتحقيق نصر هذا الدين في حياته وبعد وفاته.

*/ تخلّل ذلك الثناء على المؤمنين ووصف كرامتهم، وثناء الملائكة عليهم.

{ حم } [1]
القول فيه كالقول في نظائره من الحروف المقطّعة في أوائل السور، وأنّ معظمهما وقع بعده ذكر القرآن وما يشير إليه لتحدي المنكرين بالعجز عن معارضته. وقد مضى ذلك في أول سورة البقرة.
وذكرنا أنّ الحروف التي أسماؤها ممدودة الآخر ينطق بها في هذه الفواتح مقصورة بحذف الهمزة تخفيفا.

{ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [2]
القول فيه كالقول في فاتحة سورة الزمر. ويزاد هنا أنّ المقصود بتوجيه هذا الخبر هم المشركين المنكرون أنّ القرآن منزَّل من عند الله. فتجريد الخبر عن المؤكِّد إخراج له على خلاف مقتضى الظاهر بجعل المنكر كغير المنكر، لأنّه يحفّ به من الأدلة ما إن تأمَّله المُنكر ارتدع عن إنكاره فما كان من حقِّه أن ينكر ذلك.
{ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } تعريض بأنّ منكري تنزيل الكتاب منه مغلوبون مقهورون، وبأنّ الله يعلم ما تكنّه نفوسهم فهو محاسبهم على ذلك، ورمز إلى أنّ القرآن كلام العزيز العليم فلا يقدر غير الله على مثله ولا يعلم غير الله أن يأتي بمثله. وهذا وجه المخالفة بين هذه الآية ونظيرتها من الزمر التي جاء فيها وصف { الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } [الزمر:1]، على أنه يتأتى في الوصف بالعلم ما تأتَّى في بعض احتمالات وصف { الْحَكِيمِ }.

{ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ } [3]
أجريت على اسم الله ستة نعوت معارف، بعضها بحرف التعريف وبعضها بالإضافة إلى معرَّف بالحرف.
وفي إتباع الوصفين العظيمين { الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } بهذه الأوصاف ترشيح لذلك التعريض، كأنّه يقول: إن كنتم أذنبتم بالكفر بالقرآن فإنّ تدارك ذنبكم في مَكْنتكم لأنّ الله مقرّر اتصافه بقبول التوبة وبغفران الذنب، فكما غفر لمن تابوا من الأمم فقبل إيمانهم يغفر لمن يتوب منكم.
{ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ } تقديم { غَافِرِ } على { قَابِلِ التَّوْبِ } مع أنّه مرتَّب عليه في الحصول للاهتمام بتعجيل الإعلام به لمن استعدّ لتدارك أمره، فالوصف تعريض بالترغيب.
التوب: مصدر تاب، والتوب والثوب والأَوْب كلها بمعنى الرجوع، أي: الرجوع إلى أمر الله وامتثاله بعد الابتعاد عنه. وإنّما عطفت صفة { وَقَابِلِ التَّوْبِ } بالواو على صفة { غَافِرِ الذَّنْبِ } إشارة إلى نكتة جليلة وهي إفادة أن يُجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيجعلها له طاعة، وبين أن يمحو عنه بها الذنوب التي تاب منها وندم على فعلها، فيصبح كأنّه لم يفعلها. وهذا فضل من الله.

{ **غَافِرِ / قَابِلِ** } أي: أنّه موصوف بمدلوليهما فيما مضى، إذ ليس المراد أنّه سيغفر وسيقبل، فاسم الفاعل فيهما مقطوع عن مشابهة الفعل، فلذلك يكتسب التعريف بالإضافة التي تزيد تقريبه من الأسماء.
{ **شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ** } تعريض بالترهيب. لأنّ مجيئه بعد قوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ } [2] يفيد أنّه المقصود من هذا الكلام بواسطة دلالة مستتبعات التراكيب.
{ **ذِي الطَّوْلِ** } الطوْل يطلق على سعة الفضل وسعة المال، ويطلق على القدرة، ووقوعه مع { شَدِيدِ الْعِقَابِ } ومزاوجتها بوصفي { غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ } ليشير إلى التخويف بعذاب الآخرة من وصف { شَدِيدِ الْعِقَابِ }، وبعذاب الدنيا من وصف { ذِي الطَّوْلِ }.
{ **لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } أعقب ذلك بما يدلّ على الوحدانية وبأنّ المرجع إليه، تسجيلا لبطلان الشرك وإفسادا لإحالتهم البعث. فالجملة في موضع الصفة.
{ **إِلَيْهِ الْمَصِيرُ** } إنذارا بالبعث والجزاء، لأنّه لما أجريت صفات { غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ } أثير في الكلام الإطماع والتخويف، فكان حقيقيا بأن يشعروا بأنّ المصير إمّا إلى ثوابه وإمّا إلى عقابه فليزنوا أنفسهم ليضعوها حيث يلوح من حالهم. وتقديم المجرور للاهتمام وللرعاية على الفاصلة.
وقد اشتملت فاتحة هذه السورة على ما يشير إلى جوامع أغراضها ويناسب الخوض في تكذيب المشركين بالقرآن، ويشير إلى أنّهم قد اعتزُّوا بقوّتهم ومكانتهم، وأنَّ ذلك زائل عنهم كما زال عن أمم أشدّ منهم. فاستوفت هذه الفاتحة كمال ما يُطلب في فواتح الأغراض ممّا يسمى براعة المطلع أو براعة الاستهلال.

{ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ } [4]

استئناف بياني نشأ من قوله تعالى { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [2]. وإذ قد كان كُفْر المكذِّبين بالقرآن أمرا معلوما كان الإخبار عنهم بأنّهم كافرون غير مقصود منه إفادة اتصافهم بالكفر، فتعيّن أن يكون الخبر غير مستعمل في فائدة الخبر لا بمنطوقه ولا بمفهومه، لإنّ مفهوم الحصر: أنّ الذين آمنوا لا يجادلون في آيات الله، وهو كذلك أمر معلوم مقرّر.
يجوز أن يُجعل المراد بالذين كفروا نفس المجادلين في آيات الله وأنّ المراد بكفرهم كفرهم بوحدانية الله بسبب إشراكهم، فالمعنى: لا عجب في جدالهم بآيات الله فإنّهم أتوا بما هو أعظم وهو الإشراك، على طريقة قوله تعالى { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً } [النساء:153].
ويجوز أن يُجعل المراد بالذين كفروا جميع الكافرين بالله من السابقين والحاضرين، أي: ما الجدل في آيات

الله إلّا من شأن أهل الكفر والإشراك، ومجادلة مشركي مكة شعبة من شعب مجادلة كل الكافرين، فيكون استدلالا بالأعم على الخاص.

{ **يُجَادِلُ** } المراد هنا المجادلة بالباطل بقرينة السياق. فصيغة المفاعلة للمبالغة في الفعل من جانب واحد لإفادة التكرّر، وهم يتلوّنون في الاختلاق ويعاودون التكذيب من نحو قولهم {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام:25]، وقولهم { سِحْر ٌمُبِينٌ } [المائدة:110]، وقولهم { قَوْلِ كَاهِنٍ } [الحاقة:42]، و{ بِقَوْلِ شَاعِرٍ } [الحاقة:41].

ومن المجادلة تورّكهم على الرسول صلى الله عليه وسلم بسؤاله أن يأتيهم بآيات، نحو قولهم { لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً } [الإسراء:90]، وقولهم { لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً } [الفرقان:7].

{ **فِي آيَاتِ اللَّهِ** } في صدق آيات الله، فتعيّن تقدير مضاف دلّ عليه المقام.

{ **في** } لتعلق الظرفية بالجدال موقع عظيم من البلاغة لأنّ الظرفية تحوي جميع أصناف الجدال، وجعل مجرور الحرف نفس الآيات دون تعيين نحو صدقها أو وقوعها أو صنفها، فكان قوله { فِي آيَاتِ اللَّهِ } جامعا للجدل بأنواعه ولمتعلق الجدل باختلاف أحواله.

{ **آيَاتِ اللَّهِ** } إظهار اسم الجلالة دون أن يقول: في آياته، لتفظيع أمرها بالصريح، لأنّ ذكر اسم الجلالة مؤذن بتفظيع جدالهم وكفرهم، وللتصريح بزيادة التنويه بالقرآن.

{ **فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ** } تفريع على مضمون الجملة السابقة، أي: إنّما هو استدراج ومقدار من حلم الله ورحمته بهم وقتاً ما، أو أنّ معناه نحن نعلم أنّهم يجادلون في آياتنا إصرارا على الكفر فلا يوهمك تقلّبهم في البلاد أنَّا لا نؤاخذهم بذلك.

الغرور: ظنّ أحد شيئا حسنا وهو بضدّه، يقال: غرَّك، إذا جعلك تظن السيىء حسنا. ويكون التغرير بالقول أو بتحسين صورة القبيح.

التقلّب: اختلاف الأحوال، وهو كناية عن تناول محبوب ومرغوب.

{ **الْبِلادِ** } الأرض، وأريد بها هنا الدنيا كناية عن الحياة.

{ **فَلا يَغْرُرْكَ** } المخاطب بالنهي يجوز أن يكون غير معيّن فيعمّ كلّ من شأنه أن يغرّه تقلّب الذين كفروا في البلاد، وعلى هذا يكون النهي جاريا على حقيقة بابه.

ويجوز أن يكون الخطاب موجها للنبيّ صلى الله عليه وسلم، على أن تكون صيغة النهي تمثيلية، بتمثيل حال النبيّ صلى الله عليه وسلم في استبطائه عقاب الكافرين بحال من غرّه تقلّبهم في البلاد سالمين.

كقوله تعالى { وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ } [إبراهيم:42] وفي معنى هذه قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران:196/197].

{ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } [5]

بيان لجملة { فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ } [4]. المعنى: سبقتهم أمم بتكذيب الرسل كما كذَّبوك وجادلوا بالباطل رسلهم كما جادلك هؤلاء إلى أن أخذهم.

الأحزاب: جمع حزب (بكسر الحاء وسكون الزاي) وهو اسم للجماعة الذين هم سواء في شأن من اعتقاد أو عمل أو عادة. والمراد بهم هنا الأمم الذين كانت كلّ أمة منهم متفقة في الدين، فكلّ أمّة منهم حزب.

{ **مِنْ بَعْدِهِمْ** } إشارة إلى أنّ قوم نوح كانوا حزبا أيضا فكانوا يدينون بعبادة الأصنام: يغوث، ويعوق، ونسر، وود، وسواع، وكذلك كانت كل أمّة من الأمم التي كذبت الرسل حزبا متفقين في الدين، فعاد حزب، وثمود حزب، وأصحاب الأيكة حزب. والمعنى: أنّهم جميعا اشتركوا في تكذيب الرسل وإن تخالفوا في الأديان.

{ **قَبْلَهُمْ - بَعْدِهِمْ** } في الجمع بينهما محسِّن الطباق في الكلام.

الهمُّ: العزم. وحقّه أن يّعدَّى بـ (الباء) إلى المعاني، لأنّ العزم فعل نفساني لا يتعلّق إلّا بالمعاني. كقوله تعالى { وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا } [التوبة:74]، ولا يتعدّى إلى الذوات، فإذا عُدّي إلى اسم ذات تعيَّن تقدير معنى من المعاني التي تلابس الذات يدلّ عليها المقام. وقد يذكر بعد اسم الذات ما يدلّ على المعنى الذي يهم به كما في قوله هنا { لِيَأْخُذُوهُ } إن الهم بأخذه، واختيار هذا الأسلوب لقصد الإجمال الذي يعقبه التفصيل.

{ **كُلُّ أُمَّةٍ** } كلّ أمة من الأحزاب المذكورين.

{ **لِيَأْخُذُوهُ** } يستعمل الأخذ مجازا بمعنى التصرّف في الشيء بالعقاب والتعذيب والقتل ونحو ذلك من التنكيل، قال تعالى { فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً } [الحاقة:10]، ويقال للأسير: أخيذ، وللقتيل: أخيذ.

واختير هذا الفعل هنا ليشمل مختلف ما همّت به كلّ أمة برسولها من قتل أو غيره كما قال تعالى { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ } [الأنفال:30].

المعنى: أنّ الأمم السابقة من الكفرة لم يقتصروا على تكذيب الرسول بل تجاوزوا ذلك إلى الأذى من الهمّ بالقتل، كما حكى الله عن ثمود { قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } [النمل:49]. وقد تآمر كفّار قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة دار الندوة ليقتلوه، فأخذ الله الأمم عقوبة لهم على همّهم برسلهم فأهلكهم واستأصلهم.

{ **وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ** } الضمير عائد على { كُلُّ أُمَّةٍ }. والمقصود: من تعداد جرائم الأمم السابقة من تكذيب الرسل، والهمّ بقتلهم، والجدال بالباطل، تنظير حال المشركين بمكة بحال الأمم السابقين سواء، لينطبق الوعيد على حالهم أكمل انطباق في قوله { فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ }.

{ **بِالْبَاطِلِ** } الباء للملابسة، أي: جادلوا ملابسين للباطل، فالمجرور في موضع الحال من الضمير، أو الباء للآلة، بتنزيل الباطل منزلة الآلة لجدالهم.

الإدحاض: إبطال الحجّة، قال تعالى { حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ } [الشورى:16]. والمعنى: أنّهم زوّروا الباطل في صورة الحق وروّجوه بالسفسطة في صورة الحجّة ليبطلوا حجج الحق وكفى بذلك تشنيعا لكفرهم.

{ **فَأَخَذْتُهُمْ** } تفريع على قوله { وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ }، يفهم منه إنذار المشركين أنّ همَّهم بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم هو منتهى أمد الإمهال لهم، فإذا صمَّموا العزم على ذلك أخذهم الله كما أخذ الأمم المكذّبة قبلهم حين همّت كلّ أمة برسولهم ليأخذوه، فإنّ قريشا لمّا همُّوا بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم أنجاه الله منهم بالهجرة ثم أمكنه من نواصيهم يوم بدر.

الأخذ: هنا الغلب.

{ **فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب من حالة العقاب، وذلك يقتضي أنّ المخاطب بالاستفهام قد شاهد ذلك الأخذ والعقاب، وإنّما بني ذلك على مشاهدة آثار ذلك الأخذ في مرور الكثير على ديارهم في الأسفار، وفي سماع الأخبار عن نزول العقاب بهم، فنزل جميع المخاطبين منزلة من شاهد نزول العذاب بهم، ففي هذا الاستفهام تحقيق وتثبيت لمضمون جملة { فَأَخَذْتُهُمْ }.

{ **عِقَابِ** } حذفت ياء المتكلم تخفيفا مع دلالة الكسرة عليها.

{ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ } [6]

عطف على جملة { فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } [5]، أي: ومثل ذلك الحقّ حقّت كلمات ربك، فالمشار إليه المصدر المأخوذ من قوله { حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ }، وهو يفيد أنّ المشبّه بلغ الغاية في وجه الشبه حتّى لو أراد أحد أن يشبّهه لم يشبهه إلّا بنفسه.

ولك أن تجعل المشار إليه الأخذ المأخوذ من قوله { فَأَخَذْتُهُمْ } [5]، أي: ومثل ذلك الأخذ الذي أخذ الله به قوم نوح والأحزاب من بعدهم حقّت كلمات الله على الذين كفروا، لأنّ ذلك الأخذ كان تحقيقا لكلمات الله.

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } جميع الكافرين، فالكلام تعميم بعد تخصيص، فهو تذييل، لأنّ المراد بالأحزاب الأمم المعهودة التي ذُكرت قصصها. ويجوز أن يكون المراد كفّار قومك، أي: حقت عليهم كلمات الوعيد إذا لم يقلعوا عن كفرهم.

{ **كَلِمَتُ رَبِّكَ** } هي أقواله التي أوحى بها إلى الرسل بوعيد المكذِّبين. وقرأ الجمهور { كَلِمَتُ رَبِّكَ } بالإفراد. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بصيغة الجمع، والإفراد هنا مساو للجمع لأنّ المراد به الجنس.

{ **أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ** } يجوز أن يكون بدلا من { كَلِمَتُ رَبِّكَ } بدلا مطابقا، فيكون ضمير { أَنَّهُمْ } عائد إلى

{ الَّذِينَ كَفَرُوا }، أي: حقّ عليهم أن يكونوا أصحاب النار. ويجوز أن يكون على تقدير لام التعليل محذوفة. والمعنى: لأنّهم أصحاب النار، فيكون ضمير { أَنَّهُم } عائدا إلى جميع ما ذكر قبله من قوم نوح والأحزاب من بعدهم ومن الذين كفروا.

{ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } [7]

استئناف ابتدائي اقتضاه الانتقال من ذكر الوعيد المؤذن بذمّ الذين كفروا إلى الثناء على المؤمنين، والمناسبة المضادة بين الحالين والمقالين. ويجوز أن يكون استئنافا بيانيّا ناشئا عن وعيد المجادلين في آيات الله أن يسأل سائل عن حال الذين لا يجادلون في آيات الله فآمنوا بها.

وخصَّ في هذه الآية طائفة من الملائكة موصوفة بأوصاف تقتضي رفعة شأنهم تذرّعا من ذلك إلى التنويه بشأن المؤمنين الذين تستغفر لهم هذه الطائفة الشريفة من الملائكة، وإلّا فإنّ الله قد أسند مثل هذا الاستغفار لعموم الملائكة في قوله تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ } [الشورى:5].

{ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ } هم الموكلون برفع العرش المحيط بالسماوات، وهو أعظم السماوات، ولذلك أضيف إلى الله في قوله تعالى { وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ } [الحاقة:17].

{ مَنْ حَوْلَهُ } طائفة من الملائكة تحفّ بالعرش تحقيقا لعظمته، قال تعالى { وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } [الزمر: 75].

{ يُسَبِّحُونَ - يُؤْمِنُونَ - يَسْتَغْفِرُونَ } صيغة المضارع مفيدة لتجدّد ذلك وتكرّره، وذلك مشعر بأنّ المراد أنّهم يفعلون ذلك في الدنيا كما هو الملائم لقوله تعالى { فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا }.

ومعنى تجدّد الإيمان المستفاد من { وَيُؤْمِنُونَ } تجدّد ملاحظته في نفوس الملائكة، وإلّا فإنّ الإيمان عقد ثابت في النفوس وإنّما تجدّده بتجدد دلائله وآثاره. وفائدة الإخبار عنهم بأنّهم يؤمنون مع كونه معلوما في جانب الملائكة التنويه بشأن الإيمان بأنّه حال الملائكة، والتعريض بالمشركين.

{ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } الباء للملابسة، أي: يسبّحون الله تسبيحا مصاحبا للحمد، فحذف مفعول { يُسَبِّحُونَ } للدلالة على المتعلّق به.

{ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا } المراد بالذين آمنوا المؤمنون المعهودون، وهم المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنّهم المقصود في هذا المقام، وإن كان صالحا لكلّ المؤمنين.

{ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً } مبيّنة لـ { يَسْتَغْفِرُونَ }، وفيها قول محذوف دلّت عليه طريقة التكلّم.

{ **رَبَّنَا** } افتتح دعاء الملائكة للمؤمنين بالنداء لأنّه أدخل في التضرّع وأرجى للإجابة. وتوجّهوا إلى الله بالثناء بسعة رحمته وعلمه لأنّ سعة الرحمة مما يُطمِع باستجابة الغفران، وسعة العلم تتعلّق بثبوت إيمان الذين آمنوا.

{ **وَسِعْتَ** } ومعنى السعة في الصفتين كثرة تعلّقهما، وذكر سعة العلم كناية عن يقينهم بصدق إيمان المؤمنين فهو بمنزلة قول القائل: أنت تعلم أنّهم آمنوا بك ووحّدوك.

وجيء في وصفه بالرحمة الواسعة والعلم الواسع بأسلوب التمييز لما في تركيبه من المبالغة بإسناد السعة إلى الذات ظاهراً حتّى كأنّه ذاته هي التي وَسِعَتْ. والمراد أنّ الرحمة والعلم وسعا كل موجود الآن، أي: في الدنيا، وذلك هو سياق الدعاء كما تقدم آنفاً، فما من موجود في الدنيا إلّا وقد نالته قسمة من رحمة الله سواء في ذلك المؤمن والكافر والإنسان والحيوان.

{ **كُلَّ شَيْءٍ** } كل موجود، وهو عام مخصوص بالادراك بالنسبة للرحمة، أي: كل شيء محتاج إلى الرحمة، وتلك هي المجودات التي لها إدراك تدرك به الملائم والمنافر والنافع والضار، من الإنسان والحيوان، إذ لا فائدة في تعلّق الرحمة بالحجر والشجر ونحوهما. وأمّا بالنسبة إلى العلم فالعموم على بابه، قال تعالي { أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ } [الملك:14].

{ **فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** } تفريع على التوطئة بمناجاة الله تعالى ما هو المتوسَّل إليه منها وهو طلب المغفرة للذين تابوا، لأنّه إذا كان قد علم صدق توبة من تاب منهم وكانت رحمته وسعت كلّ شيء فقد استحقّوا أن تشملهم رحمته لأنّهم أحرياء بها.

{ **فَاغْفِرْ** } المفعول محذوف للعلم، أي: اغفر لهم ما تابوا منه، أي: ذنوب الذين تابوا.

التوبة: المراد بها الإقلاع عن المعاصي وأعظمها الإشراك بالله.

{ **وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ** } هو العمل بما أمرهم واجتناب ما نهاهم عنه، فالإرشاد يشبه الطريق الذي رسمه الله لهم ودلّهم عليه فإذا عملوا به فكأنّهم اتبعوا السبيل فمشوا فيه فوصلوا إلى المقصود.

{ **وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** } عطف على { فَاغْفِرْ }، فإنّ الغفران يقتضي هذه الوقاية، لأنّ غفران الذنب هو عدم المؤاخذة به. وعذاب الجحيم جعله الله لجزاء المذنبين.

الجحيم: شدّة الالتهاب، وسمّيت جهنم دار الجزاء على الذنوب.

{ **رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** [8] **وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** [9] }.

{ **رَبَّنَا** } إعادة النداء في خلال جمل الدعاء اعتراض للتأكيد بزيادة التضرّع، وهذا ارتقاء من طلب وقايتهم العذاب إلى طلب إدخالهم مكان النعيم.

العَدْن: الإقامة، أي: الخلود. والدعاء لهم بذلك مع تحقّقهم أنّهم موعودون به تأدب مع الله تعالى، لأنّه لا يُسأل عما يفعل، كما تقدم في قوله تعالى { رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ } [آل عمران:194].

ويجوز أن يكون المراد بقولهم { وَأَدْخِلْهُمْ } عجّل لهم بالدخول. ويجوز أن يكون ذلك تمهيدا لقولهم: { **وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ** } فإنّ أولئك لم يكونوا موعودين به صريحا. والمعنى: دعاء بأن يجعلهم الله معهم في مساكن متقاربة، كما تقدم في قوله تعالى { هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ } [يس:56]، وقوله تعالى { أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهُمْ } [الطور:21].

ورتبت القرابات في هذه الآية على ترتيبها الطبيعي فإنّ الآباء أسبق علاقة بالأبناء ثم الأزواج ثم الذرّيّات.

{ **إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } اعتراض بين الدعوات استقصاء للرغبة في الإجابة بداعي محبة الملائكة لأهل الصلاح، لما بين نفوسهم والنفوس الملكية من التناسب. واقتران هذه الجملة بحرف التأكيد للاهتمام بها.

{ **وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ** } أعقبوا بسؤال النجاة من العذاب والنعيم بدار الثواب بدعاء بالسلامة من عموم كلّ ما يسوؤهم يوم القيامة، وهو دعاء جامع إذ السيّئات جمع سيّئة وهي الحالة أو الفعلة التي تسوء من تعلّقت به.

{ **السَّيِّئَاتِ** } التعريف للجنس وهو صالح لإفادة الاستغراق، فوقوعه في سياق ما هو كالنفي، وهو فعل الوقاية، يفيد عموم الجنس، على أن بساط الدعاء يقتضي العموم. وفي الحديث: " **اللهم أعط منفقا خلفا، وممسكا تلفا** "، أي: كل منفق وممسك.

والمراد إبلاغ هؤلاء المؤمنين أعلى درجات الرضى والقبول يوم الجزاء بحيث لا ينالهم العذاب ولا يعتريهم ما يكدّرهم. وقد جاء هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله تعالى { فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ } [الانسان:11].

{ **وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ** } تذييل، أي: وكلّ من وُقي السيّئات يوم القيامة فقد نالته رحمة الله، أي: نالته الرحمة كاملة، ففعل { رَحِمْتَهُ } مراد به تعظيم مصدره. وتنوين { يَوْمَئِذٍ } عوض عن المضاف إليه، أي: يوم إذ تدخلهم جنّات عدن.

{ **وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } إشارة للتنويه والتعظيم. ووصف الفوز بالعظيم لأنّه فوز بالنعيم خالصا من الكدرات التي تنقص حلاوة النعمة.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ } [10]

مقابلة سؤال الملائكة للمؤمنين بالنعيم الخالص يوم القيامة بما يُخاطب به المشركون يومئذ من التوبيخ والتنديم، والانتقال منه إلى بيان ما سيحل بالمشركين يومئذ، فالجملة استئناف بياني كأنّ سائلا سأل عن تقبّل دعاء الملائكة للمؤمنين فأجيب بأنّ الأهم أن يسأل عن ضدّ ذلك، وفي هذا الأسلوب إيماء ورمز إلى أنّ المهمّ من هذه الآيات كلّها هو موعظة أهل الشرك، رجوعا إلى قوله تعالى { وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ } [6].

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } مشركو أهل مكة، فإنّهم المقصود بهذه الأخبار.

{ **يُنَادَوْنَ** } يدل على كلام محذوف تقديره: أن الذين كفروا يمقتهم الله وينادون لمقت الله.

مقت الله: بغضه إيّاهم، وهو مجاز مرسل أطلق على المعاملة بآثار البغض من التحقير والعقاب، فهو أقرب إلى حقيقة البغض لأنّ المراد به أثره وهو المعاملة بالنكال، وهذا الخبر مستعمل في التوبيخ والتنديم.

{ **أَكْبَرُ** } بمعنى أشد وأخطر أثرا، فإطلاق الكبر عليه مجاز، لأنّ الكبر من أوصاف الأجسام لكنه شاع إطلاقه على القوّة في المعاني.

{ **مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ** } أنّهم فعلوا لأنفسهم ما يشبه المقت إذ حرموها من فضيلة الإيمان ومحاسن شرائعه ورضوا لأنفسهم دين الكفر بعد أن أوقظوا على ما فيه من ضلال ومغبَّة سوء، فكان فعلهم ذلك شبيها بفعل المرء لبغيضه من الضرّ والكيد، وهذا كما يقال: فلان عدو نفسه.

فالمقت مستعار لقلة التدبّر فيما يضرّ. وقد أشار إلى وجه هذه الاستعارة قوله تعالى { إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ }، فمناط الكلام هو { فَتَكْفُرُونَ }. فالمقت الأول قريب من قوله { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } [البقرة:16]، والمقت الثاني قريب من قوله تعالى { وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً } [فاطر:39]، وهو مقت العذاب.

{ **إِذْ تُدْعَوْنَ** } ظرف لـ { مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ }، و{ إِذْ } ظرف للزمن الماضي، أي: حين كنتم تدعون إلى الإيمان على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم. وبني الفعل إلى النائب لظهور أنّ الداعي هو الرسول صلى الله عليه وسلم أو الرسل عليهم السلام.

{ **فَتَكْفُرُونَ** } تفريع بالفاء على { تدعون } يفيد أنّهم أعقبوا الدعوة بالكفر، أي: بتجديد كفرهم السابق وبإعلانه، أي: دون أن يتمهّلوا مهلة النظر والتدبّر فيما دعوا إليه.

{ **تُدْعَوْنَ - تَكْفُرُونَ** } جيء بالمضارع للدلالة على تكرّر دعوتهم إلى الإيمان وتكرّر كفرهم، أي: تجدّده.

{ **قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ** } [11].

جواب عن النداء الذي نودوا به من قبل الله تعالى فحكى مقالهم على طريقة حكاية المحاورات بحذف حرف العطف، طمعوا أن يكون اعترافهم بذنوبهم وسيلة إلى منحهم خروجا من العذاب ليستريحوا منه ولو بعض الزمن، وذلك لأنّ النداء الموجّه إليهم من قبل الله أوهمهم أنّ فيه إقبالا عليهم.

{ **أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ** } أي: أيقنّا أنّ الحياة الثانية حق، وذلك تعريض بأنّ إقرارهم صدق لا مواربة فيه ولا تصنّع لأنّه حاصل عن دليل، ولذلك جُعل مسبّبا على هذا الكلام بعطفه بفاء السببية {فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا}

الموتة الأولى: الحالة التي يكون بها الجنين لحما لا حياة فيه في أوّل تكوينه قبل أن ينفخ فيه الروح، وإطلاق الموت على تلك الحالة مجاز، بناء على أنّ حقيقة الموت انعدام الحياة من الحي بعد أن اتصف بالحياة، فإطلاقه على انعدام الحياة قبل حصولها فيه استعارة، إلّا أنّها شائعة في القرآن حتّى ساوت الحقيقة، فلا إشكال في استعمال { أَمَتَّنَا } في حقيقته ومجازه. وتقدّم في قوله تعالى { وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ } [البقرة:28].

على أن إطلاق الموت على الحالة التي قبل نفخ الروح في هذه الآية أسوغ لأنّ فيه تغليبا للموتة الثانية.

الموتة الثانية: هي الموتة المتعارفة عند انتهاء حياة الإنسان والحيوان.

الإحياءة الأولى: عند نفخ الروح في الجسد بعد مبدأ تكوينه.

الإحياءة الثانية: التي تحصل عند البعث.

وهو في معنى قوله تعالى { وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [البقرة:28].

{ **فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا** } تفريع على قولهم { وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ } اعتبار أن إحدى الإحياءتين كانت السبب في تحقّق ذنوبهم التي من أصولها إنكارهم البعث، فلمّا رأوا البعث رأي العين أيقنوا بأنّهم مذنبون إذ أنكروه ومذنبون بما استكثروه من الذنوب لاغترارهم بالأمن من المؤاخذة عليهم بعد الحياة العاجلة.

فالجملة إنشاء إقرار بالذنوب ولذلك جيء فيها بالفعل الماضي كما هو غالب صيغ الخبر المستعمل في الإنشاء، مثل صيغ العقود نحو: بعت. والمعنى: نعترف بذنوبنا.

{ **فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ** } جعلوا اعترافهم ضربا من التوبة توهّما منهم أنّ التوبة تنفع يومئذ. فالاستفهام مستعمل في العرض والاستعطاف لرفع العذاب. وقد تكرّر في القرآن حكاية سؤال أهل النار الخروج أو التخفيف ولو يوما.

{ **خُرُوجٍ** } التنكير للنوعية تلطفا في السؤال، أي: إلى شيء من الخروج قليل أو كثير، لأنّ كل خروج ينتفعون به راحةٌ من العذاب، كقولهم { ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ } [غافر:49].

السبيل: الطريق، واستعير إلى الوسيلة التي يحصل بها الأمر المرغوب، وكثر تصرّف الاستعمال في إطلاقات السبيل والطريق والمسلك والبلوغ على الوسيلة وبحصول المقصود. والتنكير كسابقه.

{ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ } [12]

عدل عن جوابهم بالحرمان من الخروج إلى ذكر سبب وقوعهم في العذاب، وإذا قد كانوا عالمين به حين قالوا { فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا } [11]، كانت إعادة التوقيف عليه بعد سؤال الصفح عنه كناية عن استدامته وعدم استجابة سؤالهم الخروج منه، على وجه يشعر بتحقيرهم. وزيد ذلك تحقيقا بقوله { فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ }.

{ **ذَلِكُمْ** } الإشارة إلى ما هم فيه من العذاب الذي أنبأ به قوله { يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ }[10] وما عقَّب به من قولهم { فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ } [11].

{ **بِأَنَّهُ** } الباء للسببية، أي: بسبب كفركم إذا دُعي الله وحده.

{ **إِذَا** } مستعملة هنا في الزمن الماضي، لأنّ دعاء الله واقع في الحياة الدنيا وكذلك كفرهم بوحدانية الله، فالدعاء الذي مضى مع كفرهم به كان سبب وقوعهم في العذاب.

الدعاء: النداء، والتوجّه بالخطاب. وكلا المعنيين يُستعمل فيه الدعاء، ويطلق الدعاء على العبادة، كما سيأتي عند قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } [60].

فالدعاء هنا الإعلان والذكر، ولذلك قوبل بقوله {كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا }، والدعاء بهذا المعنى أعم من الدعاء بمعنى سؤال الحاجات ولكنّه يشمله. فالمعنى: إذا نودي الله بمسمعكم نداء دالا على أنّه إله واحد، مثل آيات القرآن الدالة على نداء الله بالوحدانية.

{ **كَفَرْتُمْ** } جدّدتم الكفر، وذلك إمّا بصدور أقوال منهم ينكرون فيها انفراد الله بالإلهية، وإمّا بتذكّر آلهتهم.

{ **وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا** } صيغة المضارع في الفعلين مؤوَّل بالماضي بقرينه ما قبله، وإيثار صيغة المضارع في الفعلين لدلالتهما على تكرّر ذلك منهم في الحياة الدنيا، فإنّ لتكرّره أثرا في مضاعفة العذاب. والمتعلقان محذوفان لدلالة ما قبلهما. والتقدير: كفرتم بتوحيده وتؤمنوا بالشركاء.

المعنى: إن يصدر ما يدلّ على الإشراك بالله من أقوال زعمائهم ورفاقهم الدالة على تعدّد الآلهة، أو إذا أشرك به في العبادة تؤمنوا، أي: تجدِّدوا الإيمان بتعدّد الآلهة في قلوبكم أو تؤيِّدوا ذلك بأقوال التأييد والزيادة.

{ **إِذَا دُعِيَ / وَإِنْ يُشْرَكْ** } جيء في الشرط الأول بـ { **إِذَا** } التي الغالب في شرطها تحقّق وقوعه إشارة إلى أنّ دعاء الله وحده أمر محقّق بين المؤمنين لا تخلو عنه أيّامهم ولا مجامعهم، مع ما تفيد { إذا } من الرغبة في الحصول مضمون شرطها. وجيء في الشرط الثاني بحرف { **إِنْ** } التي أصلها عدم الجزم بوقوع شرطها، أو أنّ شرطها أمر مفروض، مع أنّ الإشراك محقّق، تنزيلا للمحقَّق منزلة المشكوك المفروض للتنبيه على أنّ دلائل بطلان الشرك واضحة بأدنى تأمّل وتدبر.

{ **فَالْحُكْمُ لِلَّهِ** } الألف واللام للجنس، واللام في { لله } للملك، أي: جنس الحكم ملك لله، كما تقدّم في قوله تعالى { الْحَمْدُ لِلَّهِ } [الفاتحة:2]، وهو قصر حقيقي إذ لا حكم يوم القيامة لغير الله تعالى.

{ **الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ** } إيثار هذين صفتين بالذكر هنا لأنّ معناهما مناسب لحرمانهم من الخروج من النار، أي: لعدم نقض حكم الله عليهم بالخلود في النار، لأنّ (العلوّ) في وصفه تعالى مجازي اعتباري بمعنى شرف القدر وكماله، ومن جملة ما يقتضيه ذلك تمام العلوّ وتمام العدل، فلا يحكم إلّا بما تقتضيه الحكمة والعدل.
ووصف { الْكَبِيرِ } كذلك هو كبر مجازي، وهو قوّة صفات كماله، فإنّ الكبير قويّ، وهو الغنيّ المطلق.
وكلا الوصفين صيغ على مثال الصفة المشبّهة للدلالة على الاتصاف الذاتي المكين.

{ **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ** } [13].
استئناف ابتدائي إقبال على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعد أن انقضى وصف ما يلاقي المشركون من العذاب، وما يدعون من دعاء لا يستجاب، وقرينه ذلك قوله { وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [14].
ومناسبة الانتقال هي وَصْفا { الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ } [12]، لأنّ جملة { يُرِيكُمْ آيَاتِهِ } تناسب وصف العلو، وجملة {وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً } تناسب وصف {الْكَبِيرِ}، بمعنى الغنيّ المطلق.
{ **آيَاتِهِ** } دلائل وجوده ووحدانيّته. وهي المظاهر العظيمة التي تبدو للناس في هذا العالم كقوله تعالى { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً } [الرعد:12]، وقوله تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [آل عمران:190].
{ **وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً** } هو نزول المطر، لأنّ المطر سبب الرزق، وهو في نفسه آية أدمج معها امتنان، ولذلك عقب الأمران بقوله { وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ }.
{ **يُرِيكُمُ - وَيُنَزِّلُ** } صيغة المضارع تدلّ على أنّ المراد إراءة متجدّدة وتنزيل متجدّد، وإنّما يكون ذلك في خطاب المشركين في جهنّم، ويزيد ذلك تأييدا قوله { فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [14] وعُدِّي الفعلان إلى ضمير المخاطبين، وهم المؤمنون، لأنّهم الذين انتفعوا بالآيات فآمنوا وانتفعوا بالرزق فشكروا بالعمل بالطاعات، فجعل غيرهم بمنزلة غير المقصودين بالآيات لأنّهم لم ينتفعوا بها، كما قال تعالى { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } [العنكبوت:43] فجعل غير العالمين كمن لا يعقل.
{ **وَيُنَزِّلُ لَكُمْ** } وتقديم { لَكُمْ } على مفعول { يُنَزِّلُ } وهو { رِزْقاً } لكمال الامتنان، بأن جعل تنزيل الرزق لأجل الناس. وجُعل تنزيل الرزق لأجل المخاطبين، وهم المؤمنين، إشارة إلى أنّ الله أراد كرامتهم ابتداء وأنّ انتفاع غيرهم بالرزق انتفاع بالتبع لهم لأنّهم الذين بمحل الرضى من الله تعالى.
{ **وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ** } تذييل، أي: من آمن ونبذ الشرك، لأنّ الشرك يصدّ أهله عن الإنصاف وإعمال النظر في الأدلة.
الإنابة: التوبة، وفي صيغة المضارع إشارة إلى أنّ الإنابة المحصِّلة للمطلوب هي الإنابة المتجدّدة المتكرّرة،

وإذا قد كان المخاطبون منيبين إلى الله كان القول دالا بدلالة الاقتضاء على أنّهم رأوا الآيات واطمأنّوا بها، وأنّهم عرفوا قدر النعمة وشكروها، فكان بين الإنابة وبين التذكّر تلازم عادي.

{ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } [14].

تفريع على ما شاهدوا من الآيات وما أفيض عليهم من الرزق، وعلى أنّهم المُرْجَون للتذكير، أي: إذ كنتم بهذه الدرجة فادعوا الله مخلصين، ففي الفاء معنى الفصيحة.

{ **فَادْعُوا اللَّهَ** } الأمر مستعمل في طلب الدوام لأّن المؤمنين قد دعوا الله مخلصين له، فالمقصود: دوموا على ذلك ولو كره الكافرون، لأنّ كراهية الكافرين ذلك من المؤمنين تكون سببا لمحاولتهم صرفهم عن ذلك بكل وسيلة، فيُخشى أن يفتن ذلك فريقا من المؤمنين، فالكراهية كناية عن المقاومة والصدّ، لأنّهما لازمان للكراهية، لأنّ شأن الكاره ألّا يصبر على دوام ما يكرهه.

{ **مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** } تقدم تفسيرها عند قوله تعالى { فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ } [الزمر:2].

{ **وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** } في موضع الحال من فاعل { ادْعُوا }. و(لو) وصلية تفيد أنّ شرطها أقصى ما يكون من الأحوال التي يراد تقييد عامل الحال بها، أي: اعبدوه في كل حال حتّى في حال كراهية الكافرين ذلك.

وهذا في معنى قوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } [الحجر:94].

{ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ [15] يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [16] }.

{ **رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ** } خبر عن مبتدأ محذوف هو ضمير اسم الجلالة في قوله { فَادْعُوا اللَّهَ } [14].

{ **رَفِيعُ** } <u>يجوز أن يكون صفة مشبّهة</u>. والتعريف في { الدَّرَجَاتِ } عوض عن المضاف إليه. والتقدير: رفيعةٌ درجاته. يقال: فلان حسنٌ فعله، ويقال: حسنُ الفعل، فيؤول قوله { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ } إلى صفة ذاته.

{ **الدَّرَجَاتِ** } مستعارة للمجد والعظمة، والمعنى: أنّه حقيق بإخلاص الدعاء إليه.

<u>ويجوز أن يكون { رَفِيعُ } من أمثلة المبالغة</u>، أي: كثير رفع الدرجات لمن يشاء، كقوله تعالى { نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ } [يوسف:76]. والمقصود: تثبيتهم على عبادة الله بالترغيب بالتعرّض إلى رفع الله درجاتهم، كقوله تعالى { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } [المجادلة:6].

{ **ذُو الْعَرْشِ** } خبر ثان، وفيه إشارة إلى أنّ رفع الدرجات منه متفاوت، كما أنّ مخلوقاته العليا متفاوتة في العظم والشرف إلى أن تنتهي إلى العرش، وهو أعلى المخلوقات.

{ **يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ** } خبر ثالث، أو بدل بعض من جملة { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ }، فإنّ مِن رفع الدرجات أن يرفع بعض عباده إلى درجة النبوّة، وذلك أعظم رفعٍ بالنسبة لعباده.

الإلقاء: حقيقته رمي الشيء من اليد إلى الأرض، ويستعار للإعطاء إذا كان غير مترقّب، وكثر هذا في القرآن، قال تعالى { فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ } [النحل:87/86].

واستعير هنا للوحي، لأنّه يجيء فجأة على غير ترقّب.

الروح: هنا الشريعة، وحقيقة الروح: ما به حياة الحي من المخلوقات، ويستعار للنفيس من الأمور، وللوحي لأنّه به حياة الناس المعنوية، وهي كمالهم وانتظام أمورهم. ويطلق الروح على الملك قال تعالى { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً } [مريم:17]

{ **مِنْ أَمْرِهِ** } ابتدائية، أي: بأمره، فالأمر على ظاهره. ويجوز أن تكون {من} تبعيضية، أي: بعض شؤونه التي لا يطلع عليها غيره إلّا من ارتضى، فيكون الأمر بمعنى الشأن.

وهذا الآية تشير إلى أنّ النبوّة غير مكتسبة لأنّها ابتدئت بقوله تعالى { فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } [14]، ثم أعقب بقوله تعالى { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ }، فأشار إلى أنّ عبادة الله بإخلاص سبب لرفع الدرجات، ثم أعقب بقوله تعالى { يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ } فجيء بفعل الإلقاء وبكون الروح من أمره وبصلة {مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} فآذن بأنّ ذلك بمحض اختياره وعلمه، كما قال تعالى { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهُ } [الأنعام: 124].

وفي الكلام تعريض بتسفيه المشركين بقولهم { لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ } [الأنعام:124].

{ **لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ** } تُخلّص من ذكر النبوّة إلى النذارة بيوم الجزاء. ليعود وصف يوم الجزاء الذي انقطع الكلام عليه من قوله تعالى { ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ } [12].

الإنذار: إخبار فيه تحذير ممّا يسوء وهو ضدّ التبشير إذ هو إخبار بما فيه مسرّة. والضمير المستتر عائد إلى اسم الجلالة من قوله { فَادْعُوا اللَّهَ } [14]، والأحسن أن يعود على { مَنْ } الموصولة، لِيُنْذِرَ من ألقى عليه الروحَ قومَه، ولأنّ فيه تخلّصا إلى ذكر الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم الذي هو بصدد الإنذار دون الرسل الذين سبقوا، إذ لا تلائمهم صيغة المضارع.

{ **يَوْمَ التَّلَاقِ** } يوم الحشر، وسُمِّي يوم التلاقي لأنّ النّاس كلّهم يلتقون فيه، أو لأنّهم يلقون ربّهم لقاء مجازيًّا، أي: يقفون في حضرته وأمام أمره مباشرة، كما قال تعالى { الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا } [يونس:7]، أي: لا يرجون يوم الحشر.

{ **يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ** } بدل من { يَوْمَ التَّلَاقِ }. وضمير الغيبة عائد إلى { الكافرون } من قوله تعالى { وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [14].

{ **لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ** } بيان لجملة { هُمْ بَارِزُونَ }، والمعنى: أنّهم واضحة ظواهرهم وبواطنهم

فإنّ ذلك مقتضى قوله تعالى { مِنْهُمْ شَيْءٌ }.

{ **مِنْهُمْ شَيْءٌ** } من مجموعهم، أي: من مجموع أحوالهم وشؤونهم، فالمعنى: لا يخفى على الله شيء من أحوالهم ظاهرها وباطنها.

{ **لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** } مقول لقول محذوف. والتقدير: يقول الله لمن الملك اليوم.

والاستفهام إمّا تقريري ليشهد الطغاة من أهل المحشر على أنفسهم أنّهم كانوا في الدنيا مخطئين فيما يزعمونه لأنفسهم من ملك لأصنامهم حين يضيفون إليها التصرّف في ممالك من الأرض والسماء، مثل قول اليونان بإله البحر وإله الحرب وإله الحكمة، وقول أقباط مصر بإله الشمس وإله الموت وإله الحكمة، وقول العرب باختصاص بعض الأصنام ببعض القبائل مثل اللات لثقيف، وذي الخَلَصة لدوْس، ومناة للأوس والخزرج. وكذلك ما يزعمونه لأنفسهم من سلطان على الناس.

ويفسر هذا المعنى ما في الحديث في صفة يوم الحشر: **" ثم يقول الله أنا الملك أين ملوك الأرض "**.

ويجوز أيضا أن يكون الاستفهام كناية عن التشويق إلى ما يرد بعده من الجواب، لأنّ الشأن أنّ الذي يسمع استفهاما يترقّب جوابه، فيتمكّن من نفسه الجواب عند سماعه أفضل تمكّن، على أنّ حصول التشويق لا يفوت على اعتبار الاستفهام للتقرير.

{ **الْيَوْمَ** } هو اليوم الحاضر، أي: اليوم الذي وقع فيه هذا القول كما هو شأن أسماء الزمان الظروف إذا عُرّفت باللام.

{ **لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** } يجوز أن تكون من بقيّة القول المقدّر الصادر من جانب الله تعالى، بأن يصدر من ذلك الجانب استفهام ويصدر منه جوابه، لأنّه لمّا كان الاستفهام مستعملا في التقرير أو التشويق كان من الشأن أن يتولّى الناطق به الجواب عنه، ونظيره قوله تعالى { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ } [النبأ:2/1].

ويجوز أن تكون مقول قول آخر محذوف، أي: فيقول المسؤولون ذلك إقرارا منهم، فتكون معترضة.

وذكر الصفتين دون غيرهما من الصفات العلى لأنّ لمعنييهما مزيد مناسبة بقوله تعالى { لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ } حيث شوهدت دلائل الوحدانية لله وقهره جميع الطغاة والجبّارين.

{ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [17]

لا ريب في أنّ هذه الجمل الثلاث متّصلة بالمقول الصادر من جانب الله تعالى، سواء كان مجموع الجملتين السابقتين مقولا واحدا أم كانت الثانية منهما من مقول أهل المحشر.

وترتيب هذه الجمل الخمس هو أنّه لمّا تقرّر أنّ الملك لله وحده في ذلك اليوم بمجموع الجملتين السابقتين، عُدِّدت آثار التصرّف بذلك الملك وهي: الحكم على العباد بنتائج أعمالهم، وأنّه حكم عادل لا يشوبه ظلم، وأنّه

عاجل لا يبطئ، لأنّ الله لا يشغله عن إقامة الحق شاغل، ولا هو بحاجة إلى التدبّر والتأمّل في طرق قضائه.
وعلى هذه النتائج جاء ترتيب الجمل، وأمّا مواقعها:
{ **الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** } واقعة موقع البيان لما في جملة { لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ } وجوابها من إجمال.
{ **لا ظُلْمَ الْيَوْمَ** } واقعة موقع بدل الاشتمال من جملة { الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ }، أي: جزاء عادلا لا ظلم فيه، أي: ليس فيه أقل شوب من الظلم.
{ **إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } واقعة موقع التعليل لوقوع الجزاء في ذلك اليوم ولانتفاء الظلم عن ذلك الجزاء.
وتأخيرها عن تينك الجملتين مشير إلى أنّها علّة لهما، فحرف التوكيد واقع موقع فاء السببية، كما هو شأن (إن) إذا جاءت في غير مقام ردّ الإنكار، فسرعة الحساب تقتضي سرعة الحكم. وسرعة الحكم تقتضي تملُّؤ الحاكم من العلم بالحقّ. والمعنى: أن الله محاسبهم حسابا سريعا لأنّه سريع الحساب.
الحساب: مصدر حاسب غيره إذا حَسِب له ما هو مطلوب بإعداده، وفائدة ذلك تختلف؛ فتارة يكون الحساب لقصد استحضار أشياء كيلا يضيع منها شيء، وتارة يكون لقصد توقيف من يتعيّن توقيفه عليها، وتارة يكون لقصد مجازاة كلّ شيء منها بعدله، وهذا الأخير هو المراد هنا، ولأجله سُمِّي يوم الجزاء يوم الحساب.
{ **بِمَا كَسَبَتْ** } الباء للسببية، أي: تجزى بسبب ما كسبت، أي: مناسبا لما كسبت، أي: عملت.
وفي الآية إيماء إلى أنّ تأخير القضاء بالحق بعد تبيّنه للقاضي، بدون عذر، ضرب من مضروب الجور، لأنّ الحقّ إن كان حقّ العباد فتأخير الحكم لصاحب الحقّ إبقاء لحقه بيد غيره، ففيه تعطيل انتفاعه بحقه برهة من الزمان وذلك ظلم، ولعلّ صاحب الحق في حاجة إلى التعجيل حقه لنفع معطل أو لدفع ضر جاثم، ولعلّه أن يهلك في مدة تأخير حقّه فلا ينتفع به، أو لعلّ الشيء المحكوم به يتلف بعارض أو عن قصد.
وإن كان الحقّ حقَّ الله كان تأخير القضاء فيه إقرار للمنكر.

{ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ } [18]

الأظهر أن تكون معترضة بين جملة { إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [17] وجملة { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ } [19] على الوجهين الآتيين في موقع جملة { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ }، والمناسبة أنّ ذكر الحساب به يقتضي التذكير بالاستعداد له، وهو يوم الآزفة.
{ **يَوْمَ الْآزِفَةِ** } يوم القيامة. وأصل الآزفة اسم فاعل مؤنث مشتق من فعل أزف الأمر، إذا قرب، فالآزفة صفة لموصوف محذوف تقديره: الساعة الآزفة، أو القيامة الآزفة، مثل الصاخة، فتكون إضافة { يَوْمَ } إلي { الْآزِفَةِ } حقيقية.

{ **إذْ** } بدل من { يَوْمَ } فهو اسم زمان منصوب على المفعول به، مضاف إلى جملة { الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ }.

{ **الْقُلُوبُ - الْحَنَاجِرِ** } تعريف العهد عوض عن المضاف إليه. وأصله: إذ قلوبهم لدى حناجرهم.

المعنى: إذ قلوب الذين تنذرهم، يعني المشركين، فأمّا قلوب الصالحين يومئذ فمطمئنة.

القلوب لدى الحناجر: أنّ القلوب يشتدّ اضطراب حركتها من فرط الجزع ممّا يشاهد أهلها من بوارق الأهوال حتّى تتجاوز القلوب موضعها صاعدة الى الحناجر، كما قال تعالى في ذكر يوم الأحزاب { وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ } [الأحزاب:10].

كاظم: اسم فاعل من كَظَمَ كُظُومًا، إذا احتبس نفَسه (بفتح الفاء).

{ **كَاظِمِينَ** } ساكنين لا يستطيعون كلاما. فعلى هذا التأويل لا يقدر لـ { كَاظِمِينَ } مفعول لأنّه عومل معاملة الفعل اللازم. ويقال: كظم كظما، إذا سدّ شيئا مجرى ماء أو بابا أو طريقا فهو كاظم، فعلى هذا يكون المفعول مقدّرا، أي: كاظمين حناجرهم إشفاقا من أن تخرج منها قلوبهم من شدّة الاضطراب.

{ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ** } في موضع بدل اشتمال من جملة { الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ }، لأنّ تلك الحالة تقتضي أن يستشرفوا إلى شفاعة من اتخذوهم ليشفعوا لهم عند الله فلا يلفون صديقا ولا شفيعا.

{ **الظَّالِمِينَ** } التعريف للاستغراق ليعمّ كلّ ظالم، أي: مشرك، فيشمل الظالمين المنذَرين، ومن مضى من أمثالهم، فيكون بمنزلة التذييل، ولذلك فليس ذكر الظالمين من الإظهار في مقام الإضمار.

الحميم: المحب المشفق.

{ **شَفِيعٍ** } وصف بجملة { يُطَاعُ } وصف كاشف، إذ ليس المراد أنّ لهم شفعاء لا تطاع شفاعتهم، لظهور قلة جدوى ذلك، ولكن لمّا كان شأن من يتعرّض للشفاعة أن يثق بطاعة المشفوع عنده له.

والمعنى: إنّ الشفيع إذا لم يُطَع فليس بشفيع. والله لا يجترئ أحد على الشفاعة عنده إلّا إذا أذن له، فلا يشفع عنده إلّا من يطاع.

{ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** } [19]

يجوز أن تكون الجملة خبرا عن مبتدأ محذوف هو ضمير عائد إلى أسم الجلالة من قوله { إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [17] على نحو ما قُرّر قبله في قوله { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ } [15]. ومجموع الظاهر والمقدّر استئناف للمبالغة في الإنذار، لأنّهم إذا ذكّروا بأنّ الله يعلم الخفايا كان إنذارا بالغا يقتضي الحذر من كل اعتقاد أو عمل نهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عنه.

فبعد أن أيأسهم من شفيع يسعى لهم في عدم المؤاخذة بذنوبهم، أيأسهم من أن يتوهّموا أنّهم يستطيعون إخفاء شيء من نواياهم أو أدني حركات أعمالهم على ربّهم.

{ **خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ** } مصدر مضاف إلى فاعله، فالخائنة مصدر على وزن اسم الفاعل مثل العافية للمعافاة، والكاذبة في قوله تعالى { لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ } [الواقعة:2]، ويجوز إبقاء {خَائِنَةَ} على ظاهر اسم الفاعل فيكون صفة لموصف محذوف دل عليه { الْأَعْيُنِ }، أي: يعلم نظرة الأعين الخائنة.

الخيانة: حقيقتها عمل من أؤتمن على شيء بضدّ ما أؤتمن لأجله بدون علم صاحب الأمانة، ومن ذلك نقض العهد بدون إعلان بنبذه. و{ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ } خيانة النظر، أي مسارقة النظر لشيء بحضرة من لا يحب النظر إليه.

{ **وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** } النوايا والعزائم التي يضمرها صاحبها في نفسه.

{ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [20]

كان مقتضى الظاهر أن يُؤتى بجملة { يَقْضِي بِالْحَقِّ } معطوفة بالواو على جملة { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ } [19] فيقال: ويقضي بالحق، ولكن عدل عن ذلك لما في الاسم العَلَم لله تعالى من الإشعار بما يقتضيه المسمَّى به من صفات الكمال التي منها العدل في القضاء. وليحصل من تقديم المسند إليه تقوّي المعنى.

{ **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ** } ناظرة إلى جملة { مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ } [18]، فبعد أن نُفي عن أصنامهم الشفاعة، نُفي عنها القضاء بشيء ما بالحق أو بالباطل، إظهارا لعجزها. ولا تحسِبنَّ الجملة مسوقة ضميمة إلى جملة { وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ } ليفيد مجموع الجملتين قصر القضاء بالحق على الله تعالى قصر قلب، أي: دون الأصنام، لأنّ المنفى عن آلهتهم أعمّ من المثبت لله تعالى.

فالمراد: التذكير بعجز الذين يدعونهم وأنّهم غير أهل للإلهية، وهذه طريقة في إثبات صفة لموصوف ثم تعقيب ذلك بإظهار نقيضه فيما يعدُّ مساويا له.

الدعاء: يجوز أن يكون بمعنى النداء وأن يكون بمعنى العبادة، كما تقدّم آنفا.

{ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } مقرّرة لجمل { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ - إلى قوله - لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ } [20/19]. فتوسّط ضمير الفصل { هُوَ } مفيد للقصر، وهو تعريض بأنّ آلهتهم لا تسمع ولا تبصر فكيف ينسبون إليها الإلهية. وتأكيد الجملة بحرف التأكيد تحقيق للقصر.

{ **السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } اثبات المبالغة في السمع والبصر لله تعالى يقرّر معنى { يَقْضِي بِالْحَقِّ }.

{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ [21] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ [22] }.

انتقال من إنذارهم بعذاب الآخرة على كفرهم إلى موعظتهم وتحذيرهم من أن يحلّ بهم عذاب الدنيا كما حلّ بأمم أمثالهم.

{ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ** } الواو عاطفة على جملة { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ } [18]. والاستفهام تقريري على ما هو الشائع في مثله من الاستفهام الداخل على نفي في الماضي بحرف (لم). والتقرير موجَّه للذين ساروا من قريش ونظروا آثار الأمم الذين أبادهم الله جزاء تكذيبهم رسلهم، فهم شاهدوا ذلك في رحلتيهم، رحلة الشتاء ورحلة الصيف، وإنّهم حَدَّثوا بما شاهدوه مَن تضمُّهم نواديهم ومجالسهم، فقد صار معلوما للجميع.

{ **كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً** } مستأنفة استئنافا بيانيا لتفصيل الإجمال الذي في قوله تعالى { كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ }، لأنّ العبرة بالتفريع بعدها بقوله { فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ }.

{ **كَانُوا هُمْ** } الضمير المنفصل ضمير فصل عائد إلى { الظَّالِمِينَ } [18]، وهم كفار قريش الذين أريدوا بقوله { وَأَنْذِرْهُمْ } [18]، وهو لمجرَّد توكيد الحكم وتقويته وليس مرادا به قصر المسند على المسند إليه، أي: قصر الأشدية على ضمير { كانوا }، إذ ليس للقصر معنى هنا.

{ **قُوَّةً** } المراد بها القوّة المعنوية، وهي كثرة الأمّة ووفرة وسائل الاستغناء عن الغير، كما قال تعالى { فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً } [فصلت:15].

الآثار: جمع أثر، مثل أثر الماشي في الرمل، قال تعالى { فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ } [طه: 96]، ويستعار الأثر لما يقع بعد شيء، كقوله تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ } [الكهف:6].

{ **فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ** } الفاء لتفريغ الأخذ على كونهم أشدّ قوة من قريش، لأنّ القوة أريد بها هنا الكناية عن الإباء من الحق والنفور من الدعوة، فالتقدير: فأعرضوا، أو كفروا فأخذهم الله.

الآخذ: الاستئصال والإهلاك، كني عن العقاب بالأخذ، أو استعمل الأخذ، مجازا في العقاب.

الذنوب: جمع ذنب وهو المعصية، والمراد بها الإشراك وتكذيب الرسل، وذلك يستتبع ذنوبا جمّة، وسيأتي تفسيرها بقوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } [22].

{ **بِذُنُوبِهِمْ** } الباء للسببية، أي: ذلك الأخذ بسبب أنّهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا بهم.

فالتقدير: ذلك بسبب تحقق مجيء الرسل إليهم فكفرهم به.

{ **وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ** } ما كان لهم من يدفع عنهم العقاب، **فالواقي**: هو المدافع الناصر.
{ **مِنَ** } الأولى متعلّقة بـ { وَاقٍ }، وقُدِّم الجار والمجرور للاهتمام بالمجرور.
{ **مِنَ** } الثانية زائدة لتأكيد النفي بحرف (ما)، وذلك إشارة إلى المذكور وهو أخذ الله إيّاهم بذنوبهم.
{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا** } أفاد المضارع في قوله { تَأْتِيهِمْ } تجدّد الإتيان مرة بعد مرة لمجموع تلك الأمم، أي: يأتي لكلّ أمّة منهم رسول، فجمع الضمير في { تَأْتِيهِمْ - رُسُلُهُمْ } وجمع الرسل في قوله { رُسُلُهُمْ } من مقابلة الجمع بالجمع. فالمعنى: أنّ كلّ أمّة منهم أتاها رسول فكفروا به.
{ **فكفروا** } لم يؤت بالمضارع لأنّ كفر أولئك الأمم واحد، وهو الإشراك وتكذيب الرّسل.
{ **فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ** } تكرّر بعد أن تقدّم نظيره في قوله { فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ }، إطنابا لتقرير أخذ الله إيّاهم بكفرهم برسلهم، وتهويلا على المنذرين بهم أن يساووهم في عاقبتهم كما ساووهم في أسبابها.
{ **إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } تعليل وتبيين لأخذ الله إيّاهم وكيفيّته وسرعة أخذه المستفاد من فاء التعقيب، فالقويّ لا يعجزه شيء، فلا يُعطّل مراده ولا يتريث. على حد قوله تعالى { فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ } [القمر:42].

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ [23] إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ [24] }.

هذا ذكر فريق آخر من الأمم لم يشهد العرب آثارهم وهم قوم فرعون، وتقدّم النظير في [هود:97/96].
هامان: لقب وزير فرعون، وتقدّم ذكره في [القصص:38].
قارون: هو من بني إسرائيل، وتقدّم ذكره في [القصص:76].
وفي هذه القصة أنّها تزيد على ما أجمل من قصص أمم أخرى أنّ فيها عبرتين: عبرة بكيد المكذّبين وعنادهم ثم هلاكهم، وعبرة بصبر المؤمنين وثباتهم ثم نصرهم، وفي كلتا العبرتين وعيد ووعد.
{ **فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** } معترضة بين جملة { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى } وجملة { فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ } [25].
أي: فاشترك أولئك في رمي رسولهم بالكذب والسحر كما فعلت قريش.

{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ } [25]

{ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ** } أي: أظهر لهم الآيات الحقّ، أي: الواضحة، فأطلق { جَاءَهُمْ } على ظهور الحقّ كقوله تعالى { جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [الإسراء:81].

ووجه وقوع { فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ } بعد قوله { أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا } [23]، مع اتحاد مفاد الجملتين، أنّ الأول للتنويه برسالة موسى وعظمة موقفه أمام أعظم ملوك الأرض يومئذ، وأمّا قوله { فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ } فهو بيان لدعوته إيّاهم وما نشأ عنها. وتقدير الكلام: رسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون فلمّا جاءهم بالحق... فسُلكت في هذا النظم طريقة الإطناب للتنويه والتشريف.

{ **جَاءَهُمْ** } الضمير يُحمل على أنّه عائد إلى غير مذكور في اللفظ، لأنّه ضمير جمع يدلّ عليه المقام، وهم أهل مجلس فرعون الذين لا يخلو عنهم مجلس الملك في مثل هذه الحوادث العظيمة، كما في قوله { وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ } [القصص:38].

وليس عائدا إلى فرعون وهامان وقارون لأنّ قارون لم يكن مع فرعون حين دعاه موسى، ولم يكن من المكذّبين لموسى في وقت حضوره لدى فرعون ولكنه طغى بعد خروج بني إسرائيل من مصر وبلغ به طغيانه إلى الكفر، كما تقدّم في قصته في [القصص:76].

{ **مِنْ عِنْدِنَا** } وصف للحق لإفادة أنّه حق خارق للعادة لا يكون إلّا من تسخير الله وتأييده.

{ **قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ** } أرادوا بقولهم هذا أن يرهبوا أتباعه حتّى ينفضّوا عنه فلا يجد أنصارا ويبقى بنو إسرائيل في خدمة المصريين.

{ **قَالُوا** } أبهم القائلون لعدم تعلّق الغرض بعلمه، فالفعل بمنزلة المبني للنائب أو بمنزلة: قال قائل، لأنّ المقصود قوله بعده { وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ }.

{ **اقتلوا** } الضمير مُخاطب به فرعون خطاب تعظيم.

وهذا القتل غير القتل الذي فعله فرعون الذي ولد موسى وفي زمنه.

{ **وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** } سُمّي هذا الرأي كيدا لأنّهم تشاوروا فيه فيما بينهم دون أن يعلم بذلك موسى والذين آمنوا معه، وأنّهم أضمروه ولم يعلنوه ثم شغلهم عن إنفاذه ما حلّ بهم من المصائب التي ذكرت في قوله تعالى { وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ } [الأعراف:130]، ثم بقوله تعالى { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ } [لأعراف:133].

الضلال: الضياع والاضمحلال كقوله { وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [السجدة: 10].

أي: هذا الكيد الذي دبّروه قد أخذ الله على أيديهم فلم يجدوا لإنفاذه سبيلا.

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ } [26]

{ وَقَالَ } العطف بالواو يدلّ على أنّه قال هذا القول في موطن آخر ولم يكن جوابا لقولهم { اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ } [25]، وفي هذا الأسلوب إيماء إلى أنّ فرعون لم يعمل بإشارتهم وأنّه سكت ولم يراجعهم بتأييد ولا إعراض، ثم رأى أنّ الأجدر قتل موسى دون أن يقتل الذين آمنوا معه لأنّ قتله أقطع لفتنتهم.

{ ذَرُونِي } إعلامهم بعزمه بضرب من إظهار ميله لذلك وانتظاره الموافقة عليه، لأنّ ذلك التركيب ممّا يُخاطَب به الممانع واللائم ونحوهما. ثم استعمل هذا التعبير عن الرغبة وإن لم يكن ثمّة معارض أو ممانع، وهو استعمال شائع في هذا وما يرادفه مثل: دعني وخلّني، كما في قوله تعالى { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً } [المدثر:11]، وقوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ } [المزمل:11].

وذلك يستتبع كناية عن خطر ذلك العمل وصعوبة تحصيله لأنّ مثله ممّا يمنع المستشار مستشيره من الإقدام عليه، ولذلك عطف عليه { وَلْيَدْعُ رَبَّهُ } لأنّ موسى خوَّفهم عذاب الله وتحدَّاهم بالآيات التسع.

{ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ } لام الأمر مستعملة في التسوية وعدم الاكتراث.

{ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ } تعليل للعزم على قتل موسى. والخوف مستعمل في الإشفاق، أي: أظنّ ظنًّا قويًّا أن يبدّل دينكم.

التبديل: تعويض الشيء بغيره. وتوسَّم فرعون ذلك من إنكار موسى على فرعون زعمه أنّه إله لقومه، فإنّ تبديل الأصول يقتضي تبديل فروع الشريعة كلّها.

{ دِينَكُمْ } الإضافة تعريض بأنّهم أولى بالذبّ عن الدين وإن كان هو دينه أيضا، وذلك كلّه إلهاب وتحضيض

{ أَوْ أَنْ } للترديد، أي: لا يخلو سعي موسى عن حصول أحد هاذين. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمر وأبو جعفر { وأَنْ } بواو العطف.

الأرض: هي المعهودة عندهم وهي مملكة فرعون.

{ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ } [27]

هذا حكاية كلام صدر من موسى في غير حضرة فرعون لا محالة، لأنّ موسى لم يكن ممّن يضمّه ملأ استشارة فرعون حين قال لقومه { ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى } [26]، لكن موسى لمّا بلغه ما قاله فرعون في ملائه قال ذلك، ولذلك حُكي فعل قوله معطوفا بالواو لأنّ ذلك القول لم يقع في محاورة مع مقال فرعون.

{ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ } خطاب لقومه من بني إسرائيل تطمينا لهم وتسكينا لإشفاقهم عليه.

العَوْذ: الالتجاء إلى المحلّ الذي يستعصم به العائذ فيدفع عنه من يروم ضرّه، يقال: عاذ بالجبل، وعاذ بالجيش، وقال تعالى { فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } [النحل:98].

{ **بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ** } عبّر عن الجلالة بصفة الربّ مضافا إلى ضمير المتكلّم لأنّ في صفة الرب إيماء إلى توجيه العوذ به لأن العبد يعوذ بمولاه. وزيادة وصفه برب المخاطبين للإيماء إلى أنّ عليهم ألّا يجزعوا من مناواة فرعون لهم، وأنّ عليهم أن يعوذوا بالله من كل ما يفظعهم.

{ **لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ** } جُعلت هذه الصفة مغنية عن صفة الكفر أو الإشراك لأنّها تتضمّن الإشراك وزيادة، لأنّه إذا اجتمع في المرء التجبّر والتكذيب بالجزاء قلت مبالاته بعواقب أعماله فكملت فيه أسباب القسوة والجرأة على الناس.

{ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ } [28]

عطف قول هذا الرجل يقتضي أنّه قال قوله هذا في غير مجلس فرعون، لأنّه لو كان قوله جاريا مجرى المحاورة مع فرعون في مجلس استشارته، أو كان أجاب به عن قول فرعون { ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى } [26] لكانت حكاية قوله بدون عطف على طريقة المحاورات.

والذي يظهر أنّ الله ألهم هذا الرجل بأن يقول مقالته إلهاما كان أوّل مظهر من تحقيق الله لاستعاذة موسى بالله، فلمّا شاع توعّد فرعون بقتل موسى عليه السلام جاء هذا الرجل إلى فرعون ناصحا، ولم يكن يتّهمه فرعون لأنّه من آله.

{ **وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ** } وهو غير الرجل المذكور في قوله تعالى { وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى } [القصص:20] فإنّ تلك القصة كانت قبيل خروج موسى من مصر، وهذه القصة في مبدأ دخوله مصر. ولم يوصف هنالك بأنّه مؤمن ولا بأنه من آل فرعون بل كان من بني إسرائيل كما هو صريح سفر الخروج. والظاهر أنّ الرجل المذكور هنا كان رجلا صالحا نظّارًا في أدلة التوحيد ولم يستقر الإيمان في قلبه على وجهه إلّا بعد أن سمع دعوة موسى، وإنّ الله يقيض لعباده الصالحين حماة عند الشدائد.

<u>قيل اسم هذا الرجل حبيب النجّار وقيل سمعان</u>، وقد تقدّم في سورة يس أنّ حبيبا النجّار من رسل عيسى عليه السلام. وقصّة هذا الرجل غير مذكورة في التوراة بالصريح ولكنّها مذكورة إجمالا: " فقال عبيد فرعون إلى متى يكون لنا هذا [أي موسى] فخًّا، أطْلِق الرجال ليعبدوا الرب إلههم ". [الإصحاح العاشر]

{ **مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ** } صريح في أنّه من القبط ولم يكن من بني إسرائيل. والأظهر أنّه كان من قرابة فرعون وخاصته لما يقتضيه لفظ { **آل** } حقيقة أو مجازا.

{ **يَكْتُمُ إِيمَانَهُ** } وكان كتمه الإيمان تقيةً من فرعون وقومه، إذ علم أنّ إظهاره الإيمان يضرّه ولا ينفع غيره.

{ **أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ** } استفهام إنكار، والخطاب موجَّه إلى فرعون لأنّه الآمر به، ولحكاية كلام فرعون عقب كلام مؤمن آل فرعون بدون عطف بالواو في قوله { قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى } [29].

أي: يقبح بكم أن تقتلوا رجلا لأنه يقول: ربي الله، أي: ولم يجبركم على أن تؤمنوا به ولكنه قال لكم قولا فاقبلوه أو ارفضوه. فهذا محمل قوله { أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ }، وهو الذي يمكن الجمع بينه وبين كون هذا الرجل يكتم إيمانه. وذكر اسم الله لأنّه الذي ذكره موسى ولم يكن من أسماء آلهة القبط.

أراد أن يسعى لحفظ موسى من القتل بفتح باب المجادلة في شأنه لتشكيك فرعون في تكذيبه بموسى.

{ **وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ** } ارتقاء في الحجاج بعد أن استأنس في خطاب قومه بالكلام الموجَّه فارتقى إلى التصريح بتصديق موسى بعلّة أنّه قد جاء بالبينات، أي: الحجج الواضحة بصدقه.

{ **وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ** } رجوع إلى ضرب من إيهام الشك في صدق موسى ليكون كلامه مشتملا عل احتمالي تصديق وتكذيب يتداولهما في كلامه، فلا يؤخذ عليه أنّه مصدّق لموسى بل يُخيَّل إليهم أنّه في حالة نظر وتأمّل ليسوق فرعون وملأه إلى أدلّة صدق موسى بوجه لا يثير نفورهم.

وقدم احتمال كذبه على احتمال صدقه زيادة في التباعد عن ظنّهم به الانتصار لموسى فأراد أن يظهر في مظهر المهتم بأمر قومه ابتداء.

{ **وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ** } المراد بالوعد هنا الوعد بالسوء وهو المسمَّى بالوعيد. أي: فإن استمررتم على العناد يصبكم جميع ما توعّدكم به.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ** } يجوز أنّها من قول مؤمن آل فرعون، فالمقصود منها تعليل لقوله السابق، أي: لأنّ الله لا يقرّه على كذبه، فإن كان كاذبا على الله فلا يلبث أن يفتضح أمره أو يهلكه.

المسرف: متجاوز المعروف في شيء، فالمراد هنا مسرف في الكذب، لأنّ أعظم الكذب أن يكون على الله، قال تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ } [الأنعام:93].

وفي هذا اعتراف من هذا المؤمن بالله الذي أنكره فرعون، رماه بين ظهرانيهم.

ويجوز أن تكون الجملة معترضة بين كلامي مؤمن آل فرعون ليست من حكاية كلامه وإنّما هي قول من جانب الله قصد منها تزكية هذا الرجل المؤمن إذ هداه الله للحق، وأنّه تقي صادق، فيكون نفي الهداية عن المسرف الكذّاب كناية عن تقوى هذا الرجل وصدقه لأنه نطق عن هدى والله لا يعطي الهدى من هو مسرف كذّاب.

{ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [29]

لمّا توسَّم نهوض حجّته بينهم وأنّها داخلت نفوسهم، أمِن بأسهم، وانتهز فرصة انكسار قلوبهم، فصارحهم بمقصوده من الإيمان بموسى، على سَنَن الخطباء وأهل الجدل بعد تقرير المقدِّمات والحجج أن يهجموا على الغرض المقصود، فوعظهم بهذه الموعظة.

{ يَا قَوْمِ } أدخل قومه في الخطاب فناداهم ليستهويهم إلى تعضيده أمام فرعون فلا يجد فرعون بُدًا من الانصياع إلى اتفاقهم وتظاهرهم، وأيضا فإنّ تشريك قومه في الموعظة أدخل في باب النصيحة، فابتدأ بنصح فرعون لأنّه الذي بيده الأمر والنهي، وثنّى بنصيحة الحاضرين من قومه تحذيرا لهم من مصائب تصيبهم من جرّاء امتثالهم أمر فرعون بقتل موسى. وهذا الترتيب في إسداء النصيحة نظير الترتيب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: **" ولأئمة المسلمين وعامتهم ".**

ولا يخفى ما في ندائهم بعنوان أنّهم قومه من الاستصغاء لنصحه وترقيق قلوبهم لقوله.

{ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ } ابتداء الموعظة بتذكيرهم بنعمة الله عليهم، تمهيدا لتخويفهم من غضب الله. يعني: لا تغرّنّكم عظمتكم وملككم فإنّهما معرَّضان للزوال إن غضب الله عليكم. والمقصود تخويف فرعون من زوال ملكه، ولكنَّه جعل الملك لقومه لتجنّب مواجهة فرعون بفرض زوال ملكه.

{ ظَاهِرِينَ } غالبين، وتقدّم آنفا.

الأرض: أرض مصر، أي: نافذا حكمكم في هذا الصقع.

{ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا } تفريع على التمهيد، و{ مَنْ } للاستفهام الإنكاري عن كل ناصر.

<u>فالمعنى</u>: فلا نصر لنا من بأس الله. أي: إن كنتم قادرين على قتل موسى فالله قادر على هلاككم.

وأدمج نفسه مع قومه في { يَنْصُرُنَا - جَاءَنَا } ، ليريهم أنّه يأبى لقومه ما يأباه لنفسه، وأنّ المصيبة إن حلّت لا تصيب بعضهم دون بعض.

البأس: القوة على العدو والمعاند، فهو القوّة على الضرّ.

{ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ } تفطّن فرعون إلى أنّه المعرَّض به في خطاب الرجل فقاطعه كلامه وبيَّن أنّه ما عرض عليهم قتل موسى إلّا لأنّه لا يرى نفعا إلّا في ذلك ويرى ذلك هو سبيل الرشاد، وكأنّه أراد ألّا يترك لنصيحة مؤمنهم مدخلا إلى نفوس ملئه، خيفة أن يتأثّروا بنصحه.

{ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى } الرؤية علمية، أي: لا أشير إلّا بما هو معتقدي.

السبيل: مستعار للعمل، وإضافته إلى الرشاد قرينة، أي: ما أهديكم وأشير عليكم إلّا بعمل فيه رشاد. وكأنّه يعرِّض بأنّ كلام مؤمنهم سفاهة رأي.

{ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ [30] مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ [31] }.

{ وَقَالَ } لمّا كان هذا تكملة لكلام الذي آمن ولم يكن فيه تعريج على محاورة فرعون على قوله { مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى } [29]، وكان الذي آمن قد جعل كلام فرعون في البين واسترسل يكمل مقالته عطف فعل قوله بالواو ليتّصل كلامه بالكلام الذي قبله، ولئلا يُتوهّم أنّه قصد به مراجعة فرعون ولكنه قصد إكمال خطابه.

{ الَّذِي آمَنَ } عُبِّر عنه بـذلك لأنّه قد عّرف بمضمون الصلة بعد ما تقدّم.

{ يَا قَوْمِ } إعادته نداء قومه تأكيد لما قصده من النداء الأوّل حسبما تقدّم.

{ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ } مراد به الجنس لا يومٌ معيّن بقرينة إضافته إلى جمع أزمانهم المتباعدة. فالتقدير: أخاف عليكم مثل أيام الأحزاب، فإفراد (يوم) للإيجاز. والمراد: أيّام إهلاكهم، والعرب يطلقون اليوم على يوم الغالب ويوم المغلوب.

الأحزاب: الأمم، لأنّ كلّ أمّة حزبٌ تجمعهم أحوال واحدة وتناصر بينهم، فلذلك تسمَّى الأمّة حزبا، وتقدّم عند قوله تعالى { كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [المؤمنون:53].

{ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ } عطف بيان من { مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ }.

الدأب: العادة والعمل الذي يدأب عليه عامله، أي: يلازمه ويكرّره، وتقدّم في قوله تعالى { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ} [آل عمران:11].

ودأبهم الذي اشتركوا فيه هو الإشراك بالله. فالتقدير: مثل يوم جزاء عملهم.

وهذا يقتضي أنّ القبط كانوا على علم بما حلّ بقوم نوح وعاد وثمود، فأمّا قوم نوح فكان طوفانهم مشهورا، وأمّا عاد وثمود فلقرب بلادهم من البلاد المصرية وكان عظيما لا يخفى على مجاوريهم.

{ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ } معترضة، وهي اعتراض بين كلاميه المتعاطفين، أي: أخاف عليكم جزاء عادلا من الله، وهو جزاء الإشراك.

{ وَمَا اللَّهُ } تقديم اسم { اللَّهُ } على الخبر الفعلي لإفادة قصر مدلول المسند على المسند إليه.

{ يُرِيدُ } يطلق بمعنى المشيئة كقوله تعالى { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ } [المائدة:6]، ويطلق بمعنى

المحبّة، كقوله تعالى { مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ } [الذاريات:57]، فلمّا وقع فعل الإرادة في حيّز النفي اقتضى عموم نفي الإرادة بمعنييها، على طريقة استعمال المشترك في معنييه.

الظلم: يطلق على الشرك { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13]، ويطلق على المعاملة بغير الحق. وقد جمع قوله { وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ } نفي الظلم بمعنييه، على طريقة استعمال المشترك في معنييه.

فالله تعالى لا يحب صدور ظلم من عباده ولا يشاء أن يظلم عباده. وأوّل المعنيين في الإرادة وفي الظلم أعلق بمقام الإنذار، والمعنى الثاني تابع للأوّل لأنّه يدلّ على أنّ الله تعالى لا يترك عقاب أهل الشرك لأنّه عدل، لأنّ التوعّد بالعقاب على الشرك والظلم أقوى الأسباب في إقلاع الناس عنه، وصدق الوعيد من متمّمات ذلك مع كونه مقتضى الحكمة لإقامة العدل.

{ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ [32] يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [33] }.

أعقب تخويفهم بعقاب الدنيا الذي حلّ مثله بقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم بأن خوَّفهم وأنذرهم عذاب الآخرة.

{ **وَيَا قَوْمِ** } أقحم بين حرف العطف والمعطوف نداء قومه للغرض الذي تقدّم آنفا.

{ **يَوْمَ التَّنَادِ** } يوم الحساب والحشر، لأنّ الخلق يتنادون يومئذ: فمِن مستشفع، ومِن متضرع، ومن موبَّخ، ومن معتذر، قال تعالى { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ } [فصلت: 47]، وقوله { أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ } [فصلت:44] وقوله { وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ } [لأعراف:44]، وقوله { دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً } [الفرقان:13]، وقوله { وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ } [الأعراف:50]، وقوله { يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ } [الإسراء:71]، وقوله { يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ } [القمر:6]، ونحو ذلك.

ومن بديع البلاغة ذكر هذا الوصف لليوم في هذا المقام ليذكّرهم أنّه في موقفه بينهم يناديهم بـ { وَيَا قَوْمِ } ناصحا ومريدا خلاصهم من كلّ نداء مفزع يوم القيامة، وتأهيلَهم لكلّ نداء سارٍّ فيه.

{ **يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ** } بدل من { يَوْمَ التَّنَادِ }، و**التوالي**: الرجوع، و**الإدبار**: أن يرجع من الطريق التي وراءه، أي: من حيث أتى، هربا من الجهة التي ورد إليها لأنّه وجد فيها ما يكره.

أي: يوم تفرُّون من هول ما تجدونه.

{ **مُدْبِرِينَ** } حال مؤكدة لعاملها وهو { تُوَلُّونَ }.

{ **مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ** } في موضع الحال. والمعنى: حالة لا ينفعكم فيها التولِّي.

{ **مِنَ اللَّهِ** } من عذابه وعقابه، لأنّ المنع إنّما تتعلق به المعاني لا الذوات.
العاصم: المانع والحافظ. وضُمِّن فعل عصم معنى: أنقذ وانتزع.
{ **مِنْ عَاصِمٍ** } { مِنْ } مزيدة لتأكيد النفي.
{ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** } عطف على جملة { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ } لتضمّنها معنى: إنّي أرشدكم إلى الحذر من يوم التنادي. وفي الكلام إيجاز بحذف جمل تدلّ عليها الجملة المعطوفة. والتقدير: هذا إرشاد لكم فإن هداكم الله عملتم به وإن أعرضتم عنه فمالكم من هاد، وفي هذه الجملة معنى التذليل.

{ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ [34] الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ [35] }.

{ **وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً** } توسَّم فيهم قلّة جدوى النصح لهم وأنّهم مصمِّمون على تكذيب موسى فارتقى في موعظتهم إلى اللوم على ما مضى، ولتذكيرهم بأنّهم من ذرّيّة قوم كذّبوا يوسف لمّا جاءهم بالبينات.
{ **وَلَقَدْ** } تأكيد الخبر بـ (قد) و(لام القسم) لتحقيقه، لأنّهم مظنّة أن ينكروه لبعد عهدهم به.
{ **جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ** } المجيء مستعار للحصول والظهور، والباء للملابسة، أي: ولقد ظهر لكم يوسف ببيّنات. ولا يلزم أن يكون إظهار البيّنات مقارنا دعوة إلى شرع، لأنّه لمّا أظهر البيّنات وتحقَّقوا مكانته كان عليهم بحكم العقل السليم أن يتبيَّنوا آياته ويستهدوا طريق الهدى، فإنّ الله لم يأمر يوسف بأن يدعو فرعون وقومه، لحكمة لعلَّها هي انتظار الوقت المناسب الذي ادّخره الله لموسى عليه السلام.
البيّنات: الدلائل البيّنة المُظهرة أنّه مصطفى من الله للإرشاد إلى الخير.
وبيّنات يوسف: إخباره بما هو مغيّب عنهم من أحوالهم بطريق الوحي في تعبير الرؤى، وكذلك آية العصمة التي انفرد بها من بينهم وشهدت له بها امرأة العزيز وشاهد أهلها، حتّى قال الملك { ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي } [يوسف:54]، فكانت دلائل نبوّة يوسف واضحة ولكنّهم لم يستخلصوا منها استدلالا يقتفون به أثره في صلاح آخرتهم، وحرصوا على الانتفاع به في تدبير أمور دنياهم فأودعوه خزائن أموالهم وتدبير مملكتهم، فقال له الملك { إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } [يوسف:54].

فإن قلتَ: لماذا لم يدعهم يوسف إلى الاعتقاد بالحقّ واقتصر على أن سأل من الملك { اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [يوسف:55].

قلتُ: لأنّ الله لم يأمره بالدعوة للإرشاد إلّا إذا سئل منه ذلك، لحكمة كما علمت آنفا، فأقامه الله مقام المفتي والمرشد لمن استرشد لا مقام المحتسب المغيِّر للمنكر، و{ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهُ } [الأنعام:124]، فلمّا أقامه الله كذلك وعلم يوسف من قول الملك { إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } [يوسف:54] أنّ الملك لا يريد إلّا تدبير مملكته وأمواله، لم يسأله أكثر ممَّا يفي له بذلك. وأمّا وجوب طلبهم المعرفة والاسترشاد منه فذلك حقّ عليهم.

{ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ } الإنحاء على أسلافهم في قلّة الاهتمام بالبحث عن الكمال الأعلى، وهو الكمال النفساني باتباع الدين القويم، أي: فما زال أسلافكم يشعرون بأنّ يوسف على أمر عظيم من الهدى غير مألوف لهم، ويهرعون إليه في مهمّاتهم، ثم لا تعزم نفوسهم على أن يطلبوا منه الإرشاد في أمور الدين. فهم من أمره في حالة شك. فالملام متوجّه عليهم لتقصيرهم في طلب ما ينجيهم بعد الموت.

{ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً } أي: قال أسلافكم لا يبعث الله في المستقبل أبدا رسولا بعد يوسف. وهذا قول جرى منهم على عادة المعاندين والمقاومين لأهل الإصلاح والفضل أن يعترفوا بفضلهم بعد الموت تندّما على ما فاتهم من خير كانوا يدعونهم إليه.

ومقالتهم هذه لا تقتضي أنّهم كانوا يؤمنون بأنّه رسول وإنّما أرادوا بها قطع هذا الاحتمال في المستقبل.

وظاهر هذه الآية أن يوسف كان رسولا. والوجه أن يكون { رَسُولاً } مفعول { يَبْعَثَ }، وأنّه لا يقتضي وصف يوسف به، فإنّه لم يرد في الأخبار عدّه في الرسل ولا أنّه دعا إلى دين في مصر، ولا شك في أنّه نبيّ إذا وجد مساغا للإرشاد أظهر، كقوله { يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } [يوسف:40/39]، وقوله { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [يوسف:38/37].

{ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ [34] الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ } جرى أكثر المفسّرين على أنّ هذه الجمل حكاية لبقية كلام المؤمن، وبعضهم جعل بعضها من حكاية كلام المؤمن وبعضها كلاما من الله تعالى، وسكت بعضهم عن ذلك مقتصرا على بيان المعنى دون تصدٍّ لبيان اتصالها بما قبلها.

والذي يظهر أنّ هذه الجمل كلّها من كلام الله تعالى معترض بين كلام المؤمن وكلام فرعون، فإنّ هذا من

المعاني الإسلامية قُصد منه العبرة بحال المكذّبين بموسى، تعريضا بمشركي قريش، أي: كضلال قوم فرعون يضلّ الله من هو مسرف مرتاب أمثالكم، فكذلك يكون جزاؤكم.

ويؤيّد هذا الوجه قوله في آخرها { وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا }. ومما يزيد يقينا بهذا أن وصف { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ } تكرّر أربع مرّات من أول السورة، ثم كان هنا وسطا في قوله { إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ } [56]، ثم كان خاتمة في قوله { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ } [69].

{ **كَذَلِكَ** } الإشارة إلى الضلال المأخوذ من قوله { يُضِلُّ اللَّهُ }، أي: مثل ذلك الضلال يُضلّ الله المسرفين المرتابين، أي: أنّ ضلال المشركين في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم مثل ضلال قوم فرعون في تكذيبهم موسى عليه السلام. والخطاب بالكاف المقترنة باسم الإشارة خطاب للمسلمين.

المسرف: المُفْرِط في فعل لا خير فيه.

المرتاب: شديد الريب، أي: الشك.

{ **الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ** } يجوز أن يكون مبتدأ خبره { كَبُرَ مَقْتاً }، ويجوز أن يكون بدلا مِن { مَنْ } في قوله تعالى { مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ }.

{ **يُجَادِلُونَ** } اختيار المضارع لإفادة تجدّد مجادلتهم وتكرّرها. وهذا صريح في ذمّهم، وكناية عن ذمّ جدالهم الذي أوجب ضلالهم.

المجادلة: تكرير الاحتجاج لإثبات مطلوب المجادل وإبطال مطلوب من يخالفه، قال تعالى { وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل:125]، فمن المجادلة في آيات الله: المحاجّة لإبطال دلالتها، ومنها المكابرة فيها كما قالوا { قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } [فصلت:5]، ومنها قطع الاستماع لها.

{ **بِغَيْرِ سُلْطَانٍ** } متعلّق بـ { يُجَادِلُونَ }، والباء للاستعانة، و**السلطان**: الحجّة. والمعنى: أنّهم يجادلون بما ليس بحجّة ولكن باللجاج والاستهزاء.

{ **أَتَاهُمْ** } صفة لـ {سلطان}. والإتيان مستعار للظهور والحصول. وحصول الحجّة هو اعتقادها ولَوْحُهَا في العقل، أي: يجادلون جدلا ليس ممّا تثيره العقول والنظر الفكري ولكنّه تمويه وإسكات.

{ **كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ** } خبر { إِنَّ } من باب الإخبار بالإنشاء، وهي إنشاء ذمّ جدالهم المقصود منه الصدّ عن اتباع الحقّ.

{ **مَقْتاً** } تمييز للكُبْر، وهو تمييز نسبة محوَّل عن الفاعل، والتقدير: كبر مقت جدالهم.

{ **كَبُرَ** } هنا ملحق بأفعال الذمّ مثل: ساء.

تفظيعٌ بالصراحة بعد أن استفيد من صلة الموصول أنّ جدالهم هو سبب إضلالهم ذلك الإضلال المكين، فحصل بهذا الاستئناف تقرير فظاعة جدالهم بطريقي الكناية والتصريح.

الكِبَر: مستعار للشدّة، أيّ مُقِت جدالهم مقتا شديدا.

المقت: شدّة البغض، وهو كناية عن شدّة العقاب على ذلك من الله.

{ **عِنْدَ اللَّهِ** } وكونه مقتا عند الله تشنيع له وتفظيع.

{ **وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا** } لم أر في التفاسير الكثيرة التي بين يديّ من عرّج على فائدة هذا العطف ما عدا المهائمي في (تبصرة الرحمن) إذ قال: " عند الذين آمنوا، [لأنّهم] المظاهر التي يظهر فيها ظهور الحق ". يعني أنّ كونه مقتا عند الله لا يحصل في علم الناس إلّا بالخبر فزيد الخبر تأييدا بالمشاهدة، فإنّ الذين آمنوا على قلّتهم يومئذ يظهر بينهم بغض مجادلة المشركين.

وعندي: أنّ الله أراد التنويه بالمؤمنين ولم يرد إقناع المشركين، فإنّهم لا يعبأون ببغض المؤمنين ولا يصدِّقون ببغض الله إيّاهم، فالمقصود الثناء على المؤمنين بأنّهم يكرهون الباطل، مع الإشارة إلى تبجيل مكانتهم بأن ضُمَّت عنديّتهم إلى عنديّة الله تعالى، على نحو قوله تعالى { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ } [آل عمران:18]، وقوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } [الأنفال: 62].

وفي إسناد كراهية الجدال في آيات الله بغير سلطان للمؤمنين تلقين للمؤمنين بالإعراض عن مجادلة المشركين، على نحو قوله تعالى { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ } [القصص:55]، وقوله تعالى { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً } [الفرقان:63]، وقوله تعالى { وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً } [الفرقان:72].

{ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** } كالقول في { كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ }.

الطبع: الختم، وتقدّم في قوله تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } [البقرة:7].

المتكبّر: ذو الكبر المبالغ فيه، ولذلك استعيرت صيغة التكلّف.

الجبّار: مثال مبالغة من الجبر، وهو الإكراه، فالجبّار: الذي يُكره الناس على ما لا يحبّون عمله لظلمه.

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ [36] أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ [37] }.

هذه مقالة أخرى لفرعون في مجلس آخر غير المجلس الذي حاجَّه فيه موسى ولذلك عُطف قوله بالواو كما أشرنا إليه فيما عطف من الأقوال السابقة آنفا، وكما أشرن إليه في [القصص:38]، وتقدّم الكلام هنالك

مستوفى على نظير معنى هذه الآية على حسب ظاهرها. وتقدم ذكر **هامان** و**الصرح** هنالك.

الأسباب: جمع سبب، والسبب ما يوصل إلى مكان بعيد، فيطلق السبب على الطريق، ويطلق على الحبل لأنّهم كانوا يتوصّلون به إلى أعلى النخيل، والمراد هنا: طرق السماوات، كما في قول زهير:

ومـن هـاب أسبـاب الـمـنـايـا يَـنَـلْـنَـه ... وإن يَـرْقَ أسـبـاب الـسـمـاء بسُلَّـم

{ **أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ** } انتصب على البدل المطابق لقوله { الْأَسْبَابَ }. وجيء بهذا الأسلوب من الإجمال ثم التفصيل للتشويق إلى المراد بالأسباب تفخيما لشأنها وشأن عمله لأنّه أمر عجيب.

الاطّلاع: (بتشديد الطاء) مبالغة في الطلوع، والطلوع: الظهور. والأكثر أن يكون ظهورا من ارتفاع، ويعرف ذلك أو عدمه بتعدية الفعل، فإن عُدّي بحرف (على) فهو الظهور من ارتفاع، وأن عُدّي بحرف (إلى) فهو ظهور مطلق.

{ **فَأَطَّلِعَ** } قرأه حفص عن عاصم بالنصب على جواب الترجّي لمعاملة الترجي معاملة التمنِّي وإن كان ذلك غير مشهور، وقد تكون له ههنا نكتة وهي استعارة حرف الرجاء إلى معنى التمنّي على وجه الاستعارة التبعية، إشارة إلى بعد ما ترجاّه، وجعل نصب الفعل بعده قرينه على الاستعارة. وقرأ الجمهور { فَأَطَّلِعُ } بالرفع تفريعا على { أَبْلُغُ } كأنّه قيل: أبلغُ ثمّ اطلعُ.

{ **وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً** } معترضة للاحتراس من أن يظنّ هامان وقومه أنّ دعوة موسى أوهنت منه يقينه بدينه وآلهته وأنّه يروم أن يبحث بحث متأمّل ناظر في أدلة المعرفة فحقَّق لهم أنّه ما أراد بذلك إلّا نفي ما ادعاه موسى بدليل الحسّ. وجيء بحرف التوكيد المعزّز بلام الابتداء لينفي عن نفسه الاتهام.

{ **لَأَظُنُّهُ** } الظنّ هنا مستعمل في معنى اليقين والقطع، ولذلك سَمَّى الله عزمه هذا كيدا.

{ **وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ** } عطف على { وَقَالَ فِرْعَوْنُ } لبيان حال اعتقاده وعمله بعد أن بيَّن حال أقواله، <u>والمعنى</u>: أنّه قال قولا منبعثا عن ضلال اعتقاد ومغريا فساد الأعمال. ولهذا الاعتبار لم تفصل هذه الجملة عن التي قبلها إذ لم يقصد بها ابتداء قصة أخرى.

{ **وَكَذَلِكَ** } كافتتاح قوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً } [البقرة:143]، أي: مثل ذلك التزيين زُيّن له سوء عمله، مبالغة في أنّ تزيين عمله له بلغ من القوّة في نوعه ما لا يوجد له شبه يُشبَّه به غير نفسه.

{ **زُيِّنَ** } بني الفعل إلى المجهول لأنّ المقصود معرفة مفعول التزيين لا معرفة فاعله، أي: حصل له تزيين سوء عمله في نفسه فحسب الباطل حقًّا والضلال اهتداء.

{ **وَصُدَّ** } قرأ الجمهور { وَصَدَّ } بفتح الصاد وهو يجوز اعتباره قاصرا الذي مضارعه **يَصِدّ** بكسر الصاد، ويجوز اعتباره متعديا الذي مضارعه **يصُدّ** بضم الصاد، أي: أعرض عن السبيل ومنع قومه اتباع السبيل. وقرأه حمزة الكسائي وعاصم بضم الصاد. والقول فيه كالقول في { زُيِّنَ }.

{ **السَّبِيلِ** } التعريف للعهد، أي: سبيل الله، أو سبيل الخير، أو سبيل الهدى، ويجوز أن يكون التعريف للدلالة على الكمال في النوع، أي: صدّ عن السبيل الكامل الصالح.

{ **وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ** } عطف على جملة { وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ }.

{ **كَيْدُ فِرْعَوْنَ** } ما أمر به من بناء الصرح والغاية منه، وسُمِّي كيدا لأنّه عمل ليس المراد به ظاهره بل أريد به الإفضاء إلى إيهام قومه كذب موسى عليه السلام.

التباب: الخسران والهلاك، ومنه { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } [المسد:1].

{ **إِلَّا فِي** } حرف الظرفية استعارة تبعية لمعنى شدّة الملابسة، كأنه قيل: وما كيد فرعون إلّا في تباب شديد. والاستثناء من أحوال مقدرة.

{ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ [38] يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ [39] مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ [40] }.

هذا مقال في مقام آخر قاله مؤمن آل فرعون، فهذه المقالات المعطوفة بالواو مقالات متفرّقة.

{ **يَا قَوْمِ** } ابتدأ موعظته بندائهم بعنوان أنّهم قومه ليلفت إليه أذهانهم، ولتصغى إليه أفئدتهم.

{ **اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ** } رتّب خطبته على أسلوب تقديم الإجمال ثم تعقيبه بالتفصيل، و

سبيل الرشاد: مجمل وهو على إجماله ممّا تتوق إليه النفوس، فربط حصوله باتباعهم إيّاه ممّا يُقبل بهم على تلقّي ما يفسر هذا السبيل. وتقدّم ذكر { سَبِيلَ الرَّشَادِ } [29].

{ **يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ** } أعاد النداء تأكيدا لإقبالهم إذ لاحت بوارقه فأكمل مقدمته بتفصيل ما أجمله، يُذكِّرهم بأنّ الحياة الدنيا محدودة بأجل غير طويل، وأنّ وراءها حياة أبدية.

وقد بنى هذه المقدّمة على ما كانوا عليه من معرفة أنّ وراء هذه الحياة حياة أبدية فيها حقيقة السعادة والشقاء، وفيها الجزاء على الحسنات والسيّئات بالنعيم أو العذاب، إذ كانت ديانتهم تثبت حياة أخرى بعد الحياة الدنيا ولكنها حرَّفت معظم وسائل السعادة والشقاوة، فهذه حقائق مسلَّمة عندهم على إجمالها.

{ **إِنَّمَا** } قصر موصوف على صفة، أي: لا صفة للدنيا إلّا أنّها نفعٌ مؤقّت، وهو قصر قلب، لتنزيل قومه في تهالكهم على منافع الدنيا منزلة من يحسبها منافع خالدة.

المتاع: ما ينتفع به انتفاعا معجّلا. و**القرار**: الدوام في المكان.

{ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ } القصر المستفاد من ضمير الفصل قصر قلب نظير القصر السابق، وهو مؤكّد له، من تأكيد إثبات ضدّ الحكم لضد المحكوم عليه، أي: لا الدنيا.

{ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ } أي: لا يُجزى عن عمل السوء بجزاء الخير، أي: لا يطمعوا أن يعملوا السيئات وأنهّم يجازَون عليها جزاء خير.

و{ مَنْ } شرطية، وجوابها { فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ } .

{ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى } بيان لما في { مَنْ } من الإبهام، مراد به عموم الناس بذكر صنفيهم تنصيصا على إرادة العموم. وليس المقصود به إفادة مساواة الأنثى للذكر في الجزاء على الأعمال إذ لا مناسبة له في هذا المقام.

{ وَهُوَ مُؤْمِنٌ } لم يهمل ذكر الإيمان بعد أن اهتم بتقديم الأعمال، فالإيمان هو أس هيكل النجاة، ولذلك كان الكفر أس الشقاء الأبدي.

{ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ } جملة جواب الشرط ، وجيء باسم الإشارة للتنبيه على أنّ المشار إليه يستحقّ ما سيذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما ذكر قبل اسم الإشارة من الأوصاف، وهي عمل الصالحات مع الإيمان. وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في جملة لإفادة الحصر. والمعنى: أنكم إن مِتُّم على الشرك والعمل السيّئ لا تدخلونها.

{ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ } كناية على سعة الرزق ووفرته، كما تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران[37].

{ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ [41] تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ [42] لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ [43] }.

أعاد نداءهم وعطفت حكايته بواو العطف للإشارة إلى أنّ نداءه اشتمل على ما يقتضي في لغتهم أن الكلام قد تخطى من غرض إلى غرض. حيث انتقل هنا إلى أن أنكر عليهم شيئا جرى منهم نحوه وهو أنّهم أعقبوا موعظته إيّاهم بدعوته للإقلاع عن ذلك وأن يتمسَّك بدينهم، وهذا شيء مطوي في خلال القصة دلَّت عليه حكاية إنكاره عليهم، وهو كلام آيس من استجابتهم لقوله { فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ } [44]، ومتوقِّع أذاهم لقوله { وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ } [44]، ولقوله تعالى آخر القصة { فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا } [45].

فصرَّح هنا وبيّن بأنّه لم يزل يدعوهم إلى اتباع ما جاء به موسى، وفي اتباعه النجاة من عذاب الآخرة، فهو يدعوهم إلى النجاة حقيقة.

{ **مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ** } استفهام تعجّبي باعتبار تقييده بجملة الحال { وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ }، وليست بعطف. وتركيب: ما لي ونحوه، هو كتركيب: هل لك ونحوه في قوله تعالى { فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى } [النازعات:18]. فإذا قامت القرينة على انتفاء إرادة الاستفهام الحقيقي انصرف ذلك إلى التعجّب من الحالة، أو إلى الإنكار أو نحو ذلك.

المعنى: أنّه يعجب من دعوتهم إيّاه لدينهم مع ما رأوا من حرصه على نصحهم ودعوتهم إلى النجاة وما أتاهم به من الدلائل على صحة دعوته وبطلان دعوتهم.

{ **تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ** } بيان لجملة { وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ } لأنّ الدعوة إلى النار أمر مجمل مستغرب فبيّنه ببيان أنّهم يدعونه إلى التلبّس بالأسباب الموجبة عذاب النار.

{ **وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ** } ما ليس لي بصحته أو بوجوده علم، والكلام كناية عن كونه يعلم أنّها ليست آلهة.

{ **وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ** } عطف، فكان بيانا لمجمل جملة { أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ }.

وإبراز ضمير المتكلّم لإفادة تقوّي الخبر بتقديم المسند إليه على خبره الفعلي.

{ **الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ** } استعارة مكنية، وعدل عن اسم الجلالة إلى الصفتين لإدماج الاستدلال على استحقاقه الإفراد بالإلهية والعبادة، ولإدماج ترغيبهم في الإقلاع عن الشرك بأن المستحقّ للإلهية يغفر لهم ما سلف من شركهم، حتّى لا ييأسوا من عفوه بعد أن أساءوا إليه.

{ **لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** } بيان لجملة { تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ } .

{ **لا جَرَمَ** } بفتحتين في الأفصح من لغات ثلاث فيها، كلمة يراد بها معنى: <u>لا يثبت</u> أو <u>لا بد</u>، فالمعنى: ثبوته، لأنّ الشيء الذي لا ينقطع هو باق وكل ذلك يؤول إلى معنى حقَّ. والأظهر أن (جَرم) اسم لا فعل. والأكثر أن يقع بعدها (أنَّ) المفتوحة المشدّدة، فيقدر معها حرف (في) ملتزما حذفه غالبا. والتقدير: لا شك في أنّ ما تدعونني إليه ليس له دعوة. وتقدّم عند قوله تعالى { لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ } [هود:23].

{ **لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الْآخِرَةِ** } انتفاء أن يكون الدعاء إليه بالعبادة أو الالتجاء نافعا، لا نفي وقوع الدعوة، لأن وقوعها مشاهد. أي: لا يملك إجابتهم.

{ **وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ** } لأنّه إذ تبيّن أنّ ربّ موسى المسمى (الله) هو الذي له الدعوة، تبين أن المَردّ، أي: المصير إليه في الدنيا بالالتجاء والاستنصار، وفي الآخرة بالحكم والجزاء.

وعطفت الجملة بالواو اهتماما بشأنها لتكون مستقلّة الدلالة بنفسها غير باحث سامعها على ما ترتبط به.

{ **وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ** } لأنّه إذا كان المصير إليه كان الحكم والجزاء بين الصائرين إليه من مثاب ومعاقب، فيتعيّن أنّ المعاقب هم الكافرون بالله.

{ **الْمُسْرِفِينَ** } الإسراف هنا إفراط الكفر، ويشمل ما قيل: إنّه أريد هنا سفك الدم بغير حق، ليصرف فرعون عن قتل موسى عليه السلام. والوجه أن يعمّ أصحاب الجرائم والآثام. والتعريف فيه تعريف الجنس المفيد للاستغراق، وهو تعريض بالذين يخاطبهم.

{ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } [44]

هذا الكلام متاركة لقومه وتنهية لخطابه إيّاهم، ولعلّه استشعر من ملامحهم أو من مقاطعتهم كلامه بعبارات الإنكار ما أيأسه من تأثّرهم بكلامه، فتحدّاهم بأنّهم إن أعرضوا عن الانتصاح لنصحه سيندمون حين يرون العذاب، إمّا في الدنيا كما اقتضاه تهديده لهم بقوله { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ } [30]. أو في الآخرة كما اقتضاه قوله { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ } [32].

{ **فَسَتَذْكُرُونَ** } الفاء للتفريع على جملة { مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ } [41]. والفعل مشتق من الذُكر (بضم الذال) وهو ضد النسيان. المعنى: سيحل بكم من العذاب ما يذكّركم ما أقوله لكم الآن.

{ **وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ** } عطف على جملة { مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ }، ومساق هذه الجملة مساق الانتصاف منهم لما أظهروه له من الشرّ، يعني: أنّي أكِل شأني وشأنكم معي إلى الله فهو يجزي كلّ فاعل بما فعل.

{ **إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** } تعليل لتفويض أمره معهم إلى الله بأنّ الله عليم بأحوال جميع العباد، فعموم العباد شمله وشمل خصومه.

البصير: المطّلع الذي لا يخفى عليه الأمر. والباء للتعدية كما في قوله تعالى { فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ } [القصص:11]، فإذا أرادو تعدية فعل البصر بنفسه قالوا: أبصره.

{ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ [45] النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ [46] }.

{ **فَوَقَاهُ اللَّهُ** } تفريع مؤذن بأنّهم أضمروا مكرا به. وتسمية مكرا مؤذن بأنّهم لم يشعروه به، وأن يكون فرّ من فرعون ولم يعثروا عليه.

{ **سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا** } إضافة { سَيِّئَاتِ } إلى { مَكَرُوا } إضافة بيانية، وهي هنا في قوّة إضافة الصفة إلى الموصوف لأنّ المكر سيّء. و{ مَا } مصدرية. والمعنى: سيّئات مكرهم. وإنّما جمع السيّئات باعتبار تعدّد أنواع مكرهم التي بيّتوها.

حاق: أحاط. و**العذاب**: الغرق. والتعريف للعهد لأنّه مشهور معلوم.

{ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً** } يجوز أن يكون بدلا من جملة { وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ }، لأنّ سوء العذاب إذا أريد به الغرق كان مشتملا على موتهم وموتهم يشتمل على عرضهم على النار غدوا وعشيا، فالمذكور عذابان: عذاب الدنيا، عذاب الغرق وما يلحق به من عذاب قبل عذاب يوم القيامة.

ويجوز أن يكون { النَّارُ } بدلا مفردا من { سُوءُ الْعَذَابِ } بدلا مطابقا، وجملة { يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا } حالا من {النار}، فيكون المذكور في الآية عذابا واحدا ولم يذكر عذاب الغرق.

وعلى كلا الوجهين فالمذكور في الآية عذاب قبل عذاب يوم القيامة المذكور بعده { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ }.

{ **يُعْرَضُونَ** } والعرض حقيقته إظهار شيء لمن يراه لترغيب أو تحذير، وهو يتعدّى إلى الشيء المُظْهَر بنفسه وإلى من يُظهَر لأجله بحرف (على)، وهذا يقتضي أنّ المعروض عليه لا يكون إلّا من يعقل أو منزَّلا منزلة من يعقل. وقد يقلب هذا الاستعمال لقصد المبالغة، كقول العرب: "عرضت الناقة على الحوض"، وحقّه: عرضت الحوض على الناقة، وهو الاستعمال الذي في هذه الآية وفي قوله تعالى { وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ } [الأحقاف:20].

ومعنى عرضهم على النار: أنّ أرواحهم تشاهد المواضع التي أعِدَّت لها في جهنّم، وهو ما يبيّنه حديث عبد الله بن عمر في الصحيح قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" إنّ أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعدُه بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتّى يبعثك الله يوم القيامة ".**

{ **غُدُوّاً وَعَشِيّاً** } كناية عن الدوام، لأنّ الزمان لا يخلو من هاذين الوقتين.

{ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** } هذا ذكر عذاب الآخرة الخالد.

{ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ [47] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ [48] }.

{ **إِذْ** } يجوز أن يكون معمولا لـ (اذكر) محذوف، فيكون عطفا على جملة { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ } [18]، والضمير عائدا إلى { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ } [35]، وما بين هذا وذاك اعتراض واستطراد لأنّها قُصد منها عظة المشركين بمن سبقهم من الأمم المكذّبين، فلمّا استوفي ذلك عاد الكلام إليهم.

ويجوز أن تكون { وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ } عطفا على { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } [46]، لأنّ (إذ) و(يوم) كليهما ظرف بمعنى (حين).

التحاجّ: الاحتجاج من جانبين فأكثر، أي: إقامة كل فريق حجّته، وهو يقتضي وقوع خلاف بين المتحاجّين، إذ الحجّة تأييد لدعوى لدفع الشك في صحّتها.

{ **فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا** } الفاء لإفادة كون هذا القول ناشئا عن تحاجّهم في النار مع كون ذلك دالا على أنّه في معنى متعلق { إذ }. وهذا استعمال من استعمالات الفاء التي يسميها النحاة زائدة.

الضعفاء: عامة النّاس الذين لا تصرّف لهم في أمور الأمّة.

الذين استكبروا: سادة القوم، أي: الذين تكبّروا كبرا شديدا، فالسين والتاء فيه للمبالغة.

{ **إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً** } وقول الضعفاء للكبراء هذا الكلام يحتمل أنّه على حقيقته فهو ناشئ عمّا اعتادوه من اللجإ إليهم في مهمّهم حين كانوا في الدنيا، فخالوا أنّهم يتولّون تدبير أمورهم في ذلك المكان، ولهذا أجاب الذين استكبروا بما يفيد أنّهم اليوم سواء في العجز وعدم الحيلة فقالوا { إِنَّا كُلٌّ فِيهَا }.

ويحتمل أنّه مستعمل في التوبيخ، أيّ كنتم تدعوننا إلى دين الشرك فكانت عاقبة ذلك أن صرنا في هذا العذاب فهل تستطيعون الدفع عنّا.

التبع: اسم لمن يتبع غيره، يستوي فيه الواحد والجمع، وهو مثل خدم وحشم لأنّ أصله مصدر، وقيل التبع: جمع لا يجري على الواحد، فهو إذن من الجموع النادرة.

{ **فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ** } الاستفهام مستعمل في الحثّ واللوم على خذلانهم وترك الاهتمام بما هم فيه من عذاب. وجيء بالجملة الاسمية الدالة على الثبات، أي: هل من شأنكم أنّكم مغنون عنّا.

{ **مُغْنُونَ** } اسم فاعل من أغنى غَناء (بفتح الغين والمد)، أي: فائدة وإجزاء. وقد ضُمِّن معنى دافعون ورادُّون، فلذلك عُدّي إلى مفعول وهو { نَصِيباً }.

النصيب: الحظ والحصّة من الشيء، قال تعالى { لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ } [النساء:7]. أي: جُزءا من حرّ النار.

{ **مِنَ النَّارِ** } بيان لـ { نَصِيباً }، كقوله تعالى { فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } [إبراهيم:21] فهم قانعون بكل ما يُخفَّف عنهم من شدّة حرّ النار، وغير طامعين في الخروج منها.

ويجوز أن يكون { مُغْنُونَ } على معناه دون تضمين ويكون { نَصِيباً } منصوبا على المفعول المطلق لمغنون والتقدير غناء نصيبا، أي: غناء ما ولو قليلا.

ويجوز أن يكون النصيب الجزء من أزمنة العذاب، فيكون على حذف مضاف تقديره: من مدّة النّار.

{ **قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ** } لمّا كان جواب الذين استكبروا للذين استضعفوا جاريا في مجرى المحاورة جُرِّد فعل { قال } من حرف العطف على طريقة المحاورة.

{ **إِنَّا كُلٌّ فِيهَا** } أي: نحن وأنتم مستوون في الكون في النار فكيف تطمعون أن ندفع عنكم شيئا من العذاب.

وعلى وجه أن يكون قول الضعفاء توبيخا ولوما لزعمائهم يكون قول الزعماء { إِنَّا كُلٌّ فِيهَا } اعترافا بالغلط أي: دعوا لومنا وتوبيخنا فقد كفانا أنّا معكم في النّار.

{ **إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ** } تتنزَّل منزلة بدل الاشتمال من جملة { إِنَّا كُلٌّ فِيهَا }، فكلتا الجملتين جواب لهم مؤيِّس من حصول التخفيف عنهم. وما في هذه الجملة الثانية من عموم تعلّق فعل الحكم بين العباد ما يجعل هذا البدل بمنزلة التذييل، أي: أنّ الله حكم بين العباد كلّهم بجزاء أعمالهم فكان قسطنا من الحكم هذا العذاب.

وفي هذه الآية عبرة لزعماء الأمم وقادتهم أن يحذروا الارتماء بأنفسهم في مهاوي الخسران فيوقعوا المقتدين بهم في تلك المهاوي.

{ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ [49] قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ [50] }.

لمّا لم يجدوا مساغا للتخفيف من العذاب في جانب كبرائهم، وتنصَّل كبراؤهم من ذلك أو اعترفوا بغلطهم وتوريطهم قومَهم وأنفسَهم تمالأ الجميع على محاولة طلب تخفيف العذاب بدعوة من خزنة جهنم.

{ **الَّذِينَ فِي النَّارِ** } أي: جميعهم، من الضعفاء والذين استكبروا.

خزنة: جمع خازن، وهو الحافظ لما في المكان من مال أو عروض.

{ **خَزَنَةِ جَهَنَّمَ** } هم الملائكة الموكَّلون بما تحويه جهنّم من النار ووقودها والمعذبين فيها، ولذلك يقال لهم: خزنة النّار.

{ **ادْعُوا رَبَّكُمْ** } في إضافة (ربّ) إلى ضمير المخاطبين ضرب من الإغراء بالدعاء، أي: لأنّكم أقرب إلى استجابته لكم.

{ **يُخَفِّفْ** } جُزم بعد الأمر بالدعاء، ولعله بتقدير (لام الأمر) لكثرة الاستعمال. وهذا الجزم شائع بعد الأمر بالقول وما في معناه، وحقّه الرفع أو إظهار لام الأمر. وضُمِّن معنى يُنقص فنصب { يَوْماً } على المفعول، أو هو على تقدير مضاف، أي: عذاب يوم، أي: مقدار يوم.

{ **يَوْماً** } كناية عن القلة، أي: يخفف عنّا ولو زمنا قليلا.

{ **مِنَ الْعَذَابِ** } بيان لـ { يَوْماً } لأنّه أريد به المقدار، فاحتاج إلى البيان على نحو التمييز.

{ **قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ** } جَوابُ خزنة جهنم لهم بطريق الاستفهام التقريري المراد به إظهار سوء صنيعهم بأنفسهم إذ لم يتّبعوا الرسل حتّى وقعوا في هذا العذاب، وتنديمهم على ما أضاعوه في حياتهم

الدنيا من وسائل النجاة من العقاب. وهو كلام جامع يتضمّن التوبيخ، والتنديم، والتحسير، وبيان سبب تجنب الدعاء لهم، وتذكيرهم بأنّ الرسل كانت تحذرهم من الخلود في العذاب.

{ **أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ** } زيادة فعل الكون للدلالة على أنّ مجيء الرسل إلى الأمم أمر متقرّر محقَّق، لما يدل عليه فعل الكون من الوجود بمعنى التحقّق، وأمّا الدلالة على أنّ فعل الإتيان كان في الزمن الماضي فهو مستفاد من (لم) النافية في الماضي.

البيّنات: الحجج الواضحة والدعوات الصريحة إلى اتباع الهدى.

{ **قَالُوا بَلَى** } لم يسعهم إلّا الاعتراف بمجيء الرسل إليهم بالبينات.

{ **قَالُوا فَادْعُوا** } ردَّ عليهم خزنة جهنم بالتنصّل من أن يدعوا الله بذلك، إلى إيكال أمرهم إلى أنفسهم.

أي: كما تولّيتم الإعراض عن الرسل استبدادًا بآرائكم فتولّوا اليوم أمر أنفسكم فادعوا أنتم.

{ **فَادْعُوا** } مستعمل في الإباحة أو في التسوية، وفيه تنبيه على خطأ السائلين في سؤالهم.

{ **وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** } يجوز أن تكون من كلام خزنة جهنم تذييلا لكلامهم يبيّن أنّ قولهم {فَادْعُوا} مستعمل في التنبيه على الخطأ، أي: دعاؤكم لم ينفعكم لأنّ دعاء الكافرين في ضلال.

ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى تذييلا واعتراضا.

الضلال: الضياع، وأصله: خطأ الطريق، كما في قوله تعالى { أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [السجدة:10].

المعنى: أنّ دعاءهم لا ينفعهم ولا يُقبل منهم.

{ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ [51] يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [52] }.

كلام مستأنف وهو استخلاص للعبرة من القصص الماضية مسوق لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ووعده بحسن العاقبة، وتسلية المؤمنين ووعدهم بالنصر وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

وذلك أنّ الكلام من ابتداء السورة كان بذكر مجادلة المشركين في القرآن بقوله تعالى { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا } [4]، وأومأ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّ شيعهم آيلة إلى خسار بقوله تعالى { فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ } [4]، وامتد الكلام في الرد على المجادلين وتمثيل حالهم بحال أمثالهم من الأمم التي آل أمرها إلى خيبة واضمحلال في الدنيا وإلى عذاب دائم في الآخرة، ولما استوفى الغرض مقتضاه من إطناب البيان بيّن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم عقبه أنّه ينصر رسله والذين آمنوا في الدنيا.

{ **إِنَّا لَنَنْصُرُ** } التعبير بالمضارع لما فيه من استحضار حالات النصر العجيبة التي وصف بعضها في السورة ووُصف بعضٌ آخر في سور أخرى تقدّم نزولها، وإلّا فإنّ نصر الرسل الذين سبقوا محمدا صلى الله عليه وسلم قد مضى ونصر محمد صلى الله عليه وسلم مترقَّب غير حاصل حين نزول الآية.

وهو وعد للمؤمنين بأنّ الله ناصرهم على من ظلمهم في الحياة الدنيا.

{ **وَيَوْمَ يَقُومُ** } الوقوف في الموقف. وذلك اليوم هو يوم الحشر.

الأشهاد: جمع شاهد. وهم الرسل، والملائكة الحفظة والمؤمنون من هذه الأمّة، كما أشار إليه قوله { لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } [البقرة:143]، وشهادة الرسل على الذين كفروا بهم من جملة نصرهم عليهم، وكذلك شهادة المؤمنين.

{ **يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ** } بدل من { يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } وهو منصوب على البدلية من الظرف.

الظالمين: المشركون.

المعذرة: اسم مصدر اعتذر، وتقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ } [الأعراف:164].

وظاهر إضافة المعذرة إلى ضميرهم أنّهم تصدر منهم يومئذ معذرة يعتذرون بها عن الأسباب التي أوجبت لهم العذاب، مثل قولهم { رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا } [الأعراف:38].

وهذا لا ينافي قوله تعالى { وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ } [المرسلات: 36] الذي هو في انتفاء الاعتذار من أصله، لأنّ ذلك الاعتذار هو الاعتذار المأذون فيه، وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى { فَيَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ } [الروم:57].

{ **وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ** } البعد والطرد من رحمة الله.

{ **وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** } هي جهنم.

{ **وَلَهُمْ** } التقديم في هاتين الجملتين للاهتمام بالانتقام منهم.

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرائيلَ الْكِتَابَ [53] هُدىً وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ [54]** }

هذا من أوضح مُثُل نصر الله رسله والذين آمنوا بهم، وهو أشبه الأمثال بالنصر الذي قدّره الله تعالى للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنّ نصر موسى على قوم فرعون كانت نتيجته أمّة عظيمة لم تكن يؤبه بها، وأوتيت شريعة عظيمة وملكا عظيما. وأي نصر أعظم من الخلاص من العبودية والقلّة والتبع لأمّة أخرى، إلى مصير الأمّة المالكة أمر نفسها.

وهو إيماء إلى الوعد بأنّ القرآن الذي كذب به المشركون باق موروث في الأمّة الإسلامية.

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى** } أي: الرسالة وما أنزل إليه من الشريعة وهي المراد بـ { **الْكِتَابَ** }، أي: التوراة.

{ **وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرائيلَ الْكِتَابَ** } أي: أخذوه منه في حياته وأبقاه الله لهم بعد وفاته، فإطلاق الإيراث استعارة. وذلك إيذان بأنّ الكتاب من جملة الهدى الذي أوتيه موسى، قال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ } [المائدة:44]، ففي الكلام إيجاز حذف تقديره: ولقد آتينا موسى الهدى والكتاب وأورثنا بني إسرائيل الكتاب، فإنّ موسى أتي من الهدى ما لم يرثه بنو إسرائيل وهو الرسالة، وأوتي من الهدى ما أورثه بنو إسرائيل وهو الشريعة التي في التوراة.

أولو الألباب: أولو العقول الراجحة القادرة على الاستنباط.

{ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } [55]

تفريع على قوله { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا } [51]، أي: فاعلم أنّا ناصروك والذين آمنوا، فاصبر على ما تلاقيه من قومك ولا تهن.

{ **إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** } تعليل للأمر بالصبر. و{ **إِنَّ** } للاهتمام بالخبر، وهي في مثل هذا المقام تغني غناء فاء التعليل، فكأنّه قيل: فوعد الله حقّ.

وعد الله: هو وعد رسوله بالنصر في الآية السابقة وفي غير ما آية. والمعنى: لا تستبطئ النصر فإنّه واقع.

{ **وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ** } عُطف على الأمر بالصبر الأمر بالاستغفار والتسبيح، فكانا داخلين في سياق التفريع على الوعد بالنصر رمز إلى تحقيق الوعد، لأنّه أمرَ عَقِبَه بما هو من آثار الشكر، كناية عن كون نعمة النصر حاصلة لا محالة، وهذه كناية رمزية.

{ **وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ** } أمر بأن يطلب من الله تعالى المغفرة التي اقتضتها النبوّة، أي: اسأل الله دوام العصمة لتدوم المغفرة، وهذا مقام التخلية عن الأكدار النفسية، وفيه تعريض بأنّ أمّته مطلوبون بذلك بالأحرى، كقوله تعالى { وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ } [الزمر:65]. وأيضا فالنبيّ صلى الله عليه وسلم مأمور بالاستغفار تعبّدا وتأدّبا.

وقد أخبر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم بأنّه قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر كما في أول سورة الفتح، فتعيّن أن أمره بالاستغفار، هنا، قبل أن يخبره بذلك، لطلب دوام المغفرة، وكان أمره به في سورة النصر بعد أن أخبره بغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر، للإرشاد إلى شكر نعمة النصر.

وقد قال بعض الصحابة للنبيّ صلى الله عليه وسلم في شأن عبادته: " إنّ الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر "، فقال: " **أفلا أكون عبدا شكوا** ". وكان يكثر أن يقول في سجوده: " **سبحانك اللّهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي** " بعد نزول سورة { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ } [النصر:1]، قالت عائشة رضي الله عنها: " يتأوّل القرآن ".

{ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ** } أمر بتسبيح الله تعالى وتنزيهه بالعشي والإبكار، أي: الأوقات كلّها، فاقتصر على طرفي أوقات العمل. وهذا مقام التحلّي بالكمالات النفسية وبذلك يتم الشكر ظاهرا وباطنا.
العشيّ: آخر النهار إلى ابتداء ظلمة الليل، ولذلك سُمِّي طعام الليل عشاء، وسمّيت الصلاة الأخير بالليل عشاء. وتقدّمت في قوله تعالى { وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ } [الأنعام:52].
الإبكار: اسم لبكرة النهار، كالإصباح اسم للصباح، وتقدّمت في قوله { أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً } [مريم:11].
وجُعل الأمران معطوفين على الأمر بالصبر لأنّ الصبر هنا لانتظار النصر الموعود، ولذلك لم يؤمر بالصبر لمّا حصل النصر في قوله تعالى { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ } [النصر:1-3]، فإنّ ذلك مقام محض الشكر دون الصبر.
وبحكم السياق تعلم أنّ الآية لا علاقة لها بفرض الصلاة ولا بأوقاتها وإنّما هي على نحو قوله تعالى { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ } [النصر:3].

{ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [56]

{ **إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ** } جرى الكلام من أوّل السورة إلى هنا في ميدان الردّ على مجادلة المشركين في آيات الله ودحض شبههم وتوعّدهم على كفرهم، وضرب الأمثال لهم بأمثالهم من أهل العناد ابتداء من قوله { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا } [4]، وقوله { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ } [21]، كما ذُكرت أمثال أضدادهم من أهل الإيمان، من حضر منهم ومن غبر، من قوله { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ } [23]، ثمّ قوله { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ } [28]، وخُتم ذلك بوعد النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالنصر كما نُصر النبيّون من قبله والذين آمنوا بهم، وأُمِر بالصبر على عناد قومه والتوجه إلى عبادة ربه.
وبهذه المناسبة انتقل هنا إلى كشف ما تكنّه صدور المجادلين من أسباب جدالهم بغير حق، ليعلم الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ الذي يدفعهم إلى التكذيب هو التكبّر عن أن يكونوا تبعا للرسول صلى الله عليه وسلم ووراء الذين سبقوهم بالإيمان ممّن كانوا لا يعبأون بهم. وهذا نحو قوله تعالى { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام: 33].

{ **إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ** } استئناف ابتدائي وهو كالتكرير لجملة { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ } [35]، تكرير تعداد للتوبيخ عند تنهية غرض الاستدلال.

{ **الَّذِينَ يُجَادِلُونَ** } هم مشركو أهل مكة، وهم المخبر عنهم في قوله { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ } [4]. ومعنى **المجادلة في آيات الله** تقدّم هناك.

ومن المفسّرين من جعل ما صدق { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ } هنا اليهود، وارتقى بذلك إلى القول بأنّ هذه الآية مدنية ألحقت بالسورة المكية، وأيدوا تفسيرهم هذا بآثارهم لو صحّت لم تكن فيها دلالة على أكثر من صلوحية الآية لأن تُضرب مثلا لكلّ فريق يجادلون في آيات الله بغير سلطان، جدالا يدفعهم إليه الكبر.

{ **بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ** } يتعلق بـ{ يجادلون }. والباء للمصاحبة، أي: أنّهم يجادلون مجادلة عناد وغصب. وفائدة هذا القيد تشنيع مجادلتهم وإلّا فإن المجادلة في آيات الله لا تكون إلّا بغير سلطان، فهذا القيد نظير القيد في قوله تعالى { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ } [القصص:50].

{ **سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ** } لزيادة تفظيع مجادلتهم بأنّها عريّة عن حجّة لديهم، فهم يجادلون بما ليس لهم به علم.

{ **إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ** } { إنْ } هنا نافية، والجار والمجرور خبر مقدّم، والاستثناء مفرّع، و{ كبر } مبتدأ مؤخر، والجملة كلّها خبر عن { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ }.

{ **فِي صُدُورِهِمْ** } أطلق الصدور على القلوب مجازا بعلاقة الحلول، والمراد ضمائر أنفسهم، والعرب يطلقون القلب على العقل، لأنّ القلب هو الذي يحسّ الإنسان بحركته عند الانفعالات النفسية من الفرح وضدّه، والكبر من الانفعالات النفسية، وهو: إدراك الإنسان خواطر تشعره بأنّه أعظم من غيره فلا يرضى بمساواته بله متابعته، وتقدّم في قوله تعالى { إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ } [البقرة:34].

{ **إِلَّا كِبْرٌ** } أثبت لهم الكبر الباعث على المجادلة بطريق القصر لينفي أن يكون داعيهم إلى المجادلة شيء آخر غير الكبر على وجه مؤكّد، فإنّ القصر تأكيد على تأكيد لما يتضمّنه من إثبات الشيء بوجه مخصوص مؤكّد، ومن نفي ما عداه، فتضمّن جملتين. والتنكير للتعظيم، أيّ كبر شديد بتعدّد أنواعه، وتمكنه من نفوسهم.

{ **مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ** } يجوز أن تكون معترضة، ويجوز أن تكون في موضع الصفة لـ{ كِبْرٌ }.

البلوغ: حقيقته الوصول، قال تعالى { إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ } [النحل:7]، ويطلق على نوال الشيء وتحصيله مجازا مرسلا كما في قوله تعالى { وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ } [سبأ:45]، وهو هنا محمول على المعنى المجازي لا محالة، أي: ما هم ببالغي الكبر.

وإذ قد كان الكبر مثبتا حصوله في نفوسهم إثباتا مؤكّدا بقوله { إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ }، تعيَّن أنّ نَفْيَ بلوغهم الكبر منصرف إلى حالات الكبر:

فإمّا أن يراد نفي أهليتهم للكبر إذ هم أقل من أن يكون لهم الكبر كقوله تعالى { لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } [المنافقون:8]، أي: لا عزّة حقًّا لهم. فالمعنى هنا: كبر زيف.

وإمّا أن يراد نفي نوالهم شيئا من آثار كِبْرهم مثل تحقير الذين يتكبَّرون عليهم. فالمعنى: ما هم ببالغين مرادهم الذي يأملونه منك في نفوسهم الدالة عليه أقوالهم، مثل قولهم {نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} [الطور:30]، وقولهم { لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت:26].

{ **فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } لمَّا ضمن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أنّ الذين يجادلونه فيما جاءهم به يحدوهم إلى الجدال كبرهم المنطوي على كيدهم، وأنّهم لا يبلغون ما أضمروه وما يُضمرونه، فُرّع على ذلك أن أَمَرَه بأن يجعل الله معاذه منهم. وحذف المتعلق لقصد تعميم الاستعاذة من كلّ ما يخاف منه.

{ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } تعليل للأمر بالدوام على الاستعاذة، أي: لأنّه المطّلع على أقوالهم وأعمالهم وأنت لا تحيط علما بتصاريف مكرهم وكيدهم.

والتوكيد بحرف (إن)، والحصر بضمير الفصل (هو) مراعى فيه التعريض بالمتحدّث عنهم، وهم الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان.

{ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [57]

مناسبة اتصال هذا الكلام بما قبله أنّ أهمّ ما جادلوا فيه من آيات الله هي الآيات المثبتة للبعث، وجدالهم في إثبات البعث هو أكبر شبهة لهم ضلَّلت أنفسهم وروّجوها في عامتهم فقالوا { أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} [الرعد:5]. فكانوا يسخرون من النبيّ صلى الله عليه وسلم لأجل ذلك { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ } [سبأ:8/7].

ولمّا كانوا مقرّين بأنّ الله هو خالق السماوات والأرض، أقيمت عليهم الحجّة على إثبات البعث بأنّ بعث الأموات لا يبلغ أمره خلق السماوات والأرض بالنسبة إلى قدرة الله تعالى.

والكلام مؤذن بقسم مقدر لأنّ اللام لام جواب القسم، والمقصود: تأكيد الخبر.

{ **أَكْبَرُ** } أي: أنّه أعظم وأهم وأكثر متعلّقات القدرة، فالقادر عليه لا يعجز عن خلق ناس يبعثهم للحساب.

{ **مِنْ خَلْقِ النَّاسِ** } المراد بالناس هنا الذين يعيد الله خلقتهم كما بدأهم أوّل مرة ويودع فيهم أرواحهم كما أودعها فيهم أوّل مرة.

والخبر مستعمل في غير معناه لأنّ كون خلقها أكبر هو أمر معلوم وإنّما أريد التذكير والتنبيه عليه لعدم جريهم على موجب علمهم به.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** } موقع الاستدراك ما اقتضاه التوكيد بالقسم من اتضاح أنّ خلق السماوات

والأرض أكبر من خلق الناس. والمراد بـ { أَكْثَرَ النَّاسِ } الذين يجادلون في آيات البعث وهم المشركون.
فالمعنى: أنّ حجّة إمكان البعث واضحة ولكن الذين ينكرونها لا يعلمون الدليل لأنّهم متلاهون عن النظر في الأدلة مقتنعون ببادئ الخواطر التي تبدو لهم فيتّخذونها عقيدة دون بحث عن معارضها، فلمّا جروا على حالة انتقاء العلم نزلوا منزلة من لا علم لهم، فلذلك نزل فعل { يَعْلَمُونَ } منزلة اللازم ولم يذكر له مفعول.

{ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ} [58]

لما نزَّلهم منزلة من لا يعلم ضرب مثلًا لهم وللمؤمنين، فمثل الذين يجادلون في أمر البعث مع وضوح إمكانه مثل الأعمى، ومثل المؤمنين الذين آمنوا به حال البصير. والمعنى: لا يستوي الذين اهتدوا والذين هم في ضلال، فإطلاق الأعمى والبصير استعارة للفريقين اللذين تضمّنهما قوله { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } { **وَمَا يَسْتَوِي** } نفيُ الاستواء بينهما يقتضي تفضيل أحدهما على الآخر كما قدّمنا في قوله تعالى { لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [النساء:95]، ونفي الاستواء بدون متعلّق يقتضي العموم في متعلّقاته، لكنّه يخص بالمتعلقات التي يدل عليها سياق الكلام وهي آيات الله ودلائل صفاته، ويُسمَّى مثل هذا العموم العموم العرفي.
وتقدم نظيرها في [فاطر:19].
{ **الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ** } قدّم ذكر الأعمى على ذكر البصير مع أنّ البصر أشرف من العمى، والمشبَّه بالبصير أشرف من المشبَّه بالأعمى، إذ المشبه بالبصير المؤمنون، وذلك مراعاة لكون الأهم في المقام بيان حال الذين يجادلون في الآيات إذ هم المقصود بالموعظة.
{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ** } زيادة بيان لفضيلة أهل الإيمان بذكر فضيلتهم في أعمالهم بعد ذكر فضلهم في إدراك أدلة إمكان البعث ونحوه من أدلة الإيمان.
ورتب هنا ذكر الفريقين على عكس ترتيبه في التشبيه بالأعمى والبصير اهتماما بشرف المؤمنين.
{ **قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ** } حال من { أَكْثَرَ النَّاسِ }، و{ مَا } مصدرية، وهي في محل رفع على الفاعلية.
وهذا مؤكِّد لمعنى قوله تعالى { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } لأنّ قلة التذكّر تؤول إلى عدم العلم، والقلّة هنا كناية عن العدم وهو استعمال كثير، كقوله تعالى { فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ } [البقرة:88]، ويجوز أن تكون على صريح معناها ويكون المراد بالقلة عدم التمام، أي: لا يعلمون فإذا تذكّروا تذكُّرا لا يتمّمونه فينقطعون في أثنائه، فهو كالعدم في عدم ترتُّب أثره عليه.

{ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ } [59]

لمّا أعطي إثبات البعث ما يحق من الحجاج والاستدلال، تهيّأ المقام لاستخلاص تحقيقه كما تُستخلص النتيجة من القياس، فأعلن بتحقيق مجيء { السَّاعَةَ } وهي ساعة البعث، إذ { **السَّاعَةَ** } في اصطلاح الإسلام عَلَم بالغلبة على ساعة البعث، فالساعة والبعث مترادفان في المآل. فكأنّه قيل: إن الذي جادل فيه المجادلون سيقع لا محالة إذ انكشفت عنه شبه الضالين وتمويهاتهم فصار بيّنا لا ريب فيه.

{ **إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ** } تأكيد الخبر بـ (إنّ) و(لام الابتداء) لزيادة التحقيق، وللإشارة إلى أنّ الخبر تحقَّق بالأدلة السابقة. وذلك أنّ الكلام موجه للذين أنكروا البعث، ولهذا لم يؤت بـ (لام الابتداء) في قوله تعالى { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ } [طه:15]، لأنّ الخطاب لموسى عليه السلام.

{ **لَآتِيَةٌ** } جيء باسم الفاعل، الذي هو حقيقة في الحال، للإيماء إلى أنّها لمَّا تحقَّقت فقد صارت كالشيء الحاضر المشاهد. والمراد تحقيق وقوعها لا الإخبار عن وقوعها.

{ **لا رَيْبَ فِيهَا** } مؤكِّدة للجملة السابقة، ونُفي الريب عن نفس الساعة. ومعنى نفي الريب في وقوعها: أنّ دلائلها واضحة بحيث لا يعتدّ بريب المرتابين فيها لأنّهم ارتابوا فيها لعدم الرويَّة والتفكُّر، وهذا قريب من قوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2].

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** } موقع الاستدراك هو ما يثيره نفي الريب عن وقوعها من أن يتساءل متسائل كيف يُنفى الريب عنها والريب حاصل لكثير من الناس، فكان الاستدراك جوابا لذلك السؤال.

<u>والمعنى</u>: ولكن أكثر الناس يمرون بالأدلة والآيات وهم معرضون عن دلالتها فيبقون غير مؤمنين بمدلولاتها ولو تأمَّلوا واستنبطوا بعقولهم لظهر لهم من الأدلة ما يؤمنون بعده، فلذلك نُفي عنهم هنا وصف الإيمان.

{ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [60]

لمّا كانت المجادلة في آيات الله <u>تشمل</u> مجادلتهم في وحدانية الإلهية، <u>وتشمل</u> المجادلة في وقوع البعث، <u>أعقب</u> ذكر المجادلة <u>أوّلا</u> بقوله { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } [57]، وذلك استدلال على إمكان البعث، <u>ثم عطف عليه</u> قوله { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } تحذيرا من الإشراك به.

<u>وأيضا لما ذُكر</u> أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بدعاء الله وحده أمرا مفرَّعا على توبيخ المشركين بقوله { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ } [18]، وتتابعت الأغراض حتى استوفت مقتضاها، <u>عاد الكلام الآن</u> إلى ما يشمل عبادة المؤمنين الخالصة لله تعالى.

فلما تقدم ذكر الدعاء بمعنييه: معنى العبادة، ومعنى سؤال المطلوب، أردف بهذا الأمر الجامع لكلا المعنيين.

الدعاء: يطلق بمعنى النداء المستلزم للاعتراف بالمنادى، ويطلق على الطلب.

وقد جاء من كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم ما فيه صلاحية معنى الدعاء الذي في هذه الآية بما يلائم المعنيين، في حديث النعمان بن بشير قال: " سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: **" الدعاء هو العبادة "**، ثم قرأ: { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [رواه الترمذي وقال: حسن صحيح].

فالدعاء يطلق على سؤال العبد من الله حاجته وهو معناه في اللغة، ويطلق على عبادة الله على طريق الكناية، لأنّ العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتضرع إليه.

الاستجابة: تطلق على إعطاء المسؤول لمن سأله، وهو أشهر إطلاقها. وتطلق على أثر قبول العبادة بمغفرة الشرك السابق وبحصول الثواب على أعمال الإيمان.

فلمّا جمعت الآية بين الفعلين علمنا أنّ في المعنى المراد ما يشبه الاحتباك بأن صرّح بالمعنى المشهور في كلا الفعلين ثمّ أعقب بقوله { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي }، فعلمنا أنّ المراد الدعاء والعبادة، وأنّ الاستجابة أريد بها قبول الدعاء وحصول أثر العبادة، والقرينة ما علمت، وذلك من الإيجاز والكلام الجامع.

{ **رَبُّكُمُ** } تعريف الله بوصف الربّ مضافا إلى ضمير المخاطبين لما في هذا الوصف وإضافته من الإيماء إلى وجوب امتثال أمره، لأنّ من حق الربوبية امتثال ما يأمر به موصوفها، لأنّ المربوب محقوق بالطاعة لربّه، ولهذا لم يعرّج مع هذا الوصف على تذكير بنعمته ولا إشارة إلى كمالات ذاته.

{ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ** } تعليل للأمر بالدعاء تعليلا يفيد التحذير من إباية دعاء الله. ومعنى التعليل للأمر بالدعاء بهذا التحذير: أنّ الله لا يحب لعباده ما يفضي بهم إلى العذاب، قال تعالى {وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } [الزمر:7]، ففي الآية دليل على طلب الله من عباده أن يدعوه في حاجاتهم. ومشروعية الدعاء لا خلاف فيها بين المسلمين.

{ **داخرين** } حال من ضمير { سَيَدْخُلُونَ }، أي: أذلة. **دَخَر**: صغر وذلّ، وتقدّم قوله تعالى { سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ } [النحل:48].

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ } [61]

يجوز أن يكون اسم الجلالة بدلا من { رَبُّكُمُ } [60]، ليقضى بذلك حقّان: حقّ استحقاقه أن يطاع بمقتضى الربوبية والعبودية، وحقّ استحقاقه الطاعة لصفات كماله التي يجمعها اسم الذات. ولذلك لم يؤت مع وصف الربّ المتقدّم بشيء من ذكر نعمه وإفضاله، ثم وُصف الاسم بالموصول وصلته إشارة إلى بعض صفاته، وإيماء إلى وجه الأمر بعبادته، وتكون الجملة استئنافا بيانيا ناشئا عن تقوية الأمر بدعائه.

ويجوز أن يكون اسم الجلالة مبتدأ والموصول صفة له ويكون الخبر قوله { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ } [62]، وتكون جملة { إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ } معترضة. أو أن يكون اسم الجلالة مبتدأ والموصول خبرا.

واعتبار الجملة مستأنفة أحسن من اعتبار اسم الجلالة بدلا لأنّه انسب بالتوقيف على سوء شكرهم.

وعلى هذه الاعتبارات كلّها فقد سجلت هذه الآية على الناس تقسيمهم إلى: شاكر نعمة، وكفورها، كما سجلت عليهم الآية السابقة تقسيمهم إلى: مؤمن بوحدانية الله، وكافر بها.

وهذه الآية للتذكير بنعمة الله تعالى على الخلق كما اقتضاه لام التعليل في قوله { لَكُمُ }، واقتضاه التذييل بقوله { إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ }. وأدمج في التذكير بالنعمة استدلال على انفراده تعالى بالتصرّف بالخلق، والتدبير الذي هو ملازم حقيقة الإلهية.

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً } ابتدئ الاستدلال بدلائل الأكوان العلوية وآثارها الواصلة إلى الأكوان السفلية، وهي مظهر النعمة بالليل والنهار، فهما تكوينان عظيمان دالّان على عظيم قدرة مكوّنهما ومنظّمهما وجاعلهما متعاقبين.

{ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً } للتنويه بشأن إبصار الناس في الضياء وكثرة الفوائد الحاصلة لهم من ذلك أسند الإبصار إلى النهار، على طريقة المجاز العقلي، لقوة الملابسة بين الأفعال وزمانها. وأمّا نعمة السكون في الليل فهي نعمة واحدة هي رجوع النشاط. فهذا من بديع الإيجاز مع ما فيه من تفنن أسلوبي الحقيقة والمجاز العقلي.

وتقدّم الكلام على الليل والنهار عند قوله تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } [البقرة:164]، وفي مواضع أخرى.

{ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ } اعتراض هو كالتذييل لجملة السابقة، لأنّ الفضل يشمل جعل الليل والنهار وغير ذلك من النعم، ولأنّ { النَّاسِ } يعمّ المخاطبين بقوله { جَعَلَ لَكُمُ } وغيرهم من النّاس.

{ فَضْلٍ } التنكير للتعظيم، لأنّ نعم الله تعالى عظيمة جليلة.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** } الاستدراك ناشئ عن لازم { ذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ }، لأنّ الشأن أن يشكر الناس ربّهم على فضله، فكان أكثرهم كافرا بنعمه، وأي كفر للنعمة أعظم من أن يتركوا عبادة خالقهم المتفضِّل عليهم ويعبدوا ما لا يملك لهم نفعا ولا ضرا.

{ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [62]

اتصل الكلام على دلائل التفرّد بالإلهية من قوله { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ - إلى قوله - مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } [62-65]، اتصال الأدلة بالمستدلّ عليه.

{ **ذَلِكُمُ** } الإشارة إلى اسم الجلالة في قوله { اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ } [61]. وعدل عن الضمير إلى اسم الإشارة لإفادة أنّه تعالى معلوم متميّز بأفعاله المنفرد بها، بحيث إذا ذكرت أفعاله تميّز عمّا سواه فصار كالمشاهد المشار إليه، أي: ذلكم ربكم لا غيره. وفي اسم الإشارة تعريض بغباوة المخاطبين الذين التبست عليهم حقيقة إلهيته.

{ **اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } أخبار أربعة عن اسم الإشارة، ابتدئ فيها بالاسم الجامع لصفات الإلهية إجمالا، وأردف بـ { رَبُّكُمْ }، أي: الذي دبر خلق الناس وهيّأ لهم وخلق ما به قوام حياتهم، وأردف بنفي الإلهية عن غيره، فجاءت مضامين هذه الأخبار الأربعة مترتبة بطريقة الترقّي، وكان رابعها نتيجة لها.

{ **فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** } استفهام تعجيبي من انصرافهم عن عبادته إلى جانب عبادة غيره مع وضوح فساد إعراضهم عن عبادته.

{ **أَنَّى** } اسم استفهام عن كيفية، وأصله استفهام عن المكان.

{ **تُؤْفَكُونَ** } تصرفون، وتقدّم في قوله تعالى { قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [التوبة:30]، وبناؤه للمجهول لإجمال سبب إعراضهم، الذي سيبين بحاصل الجملة بعده.

{ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [63]

هذه الجملة معترضة بمنزلة التعليل لمضمون الجملة التي قبلها، وهو التعجيب من انصرافهم عن عبادة ربّهم خالقهم وخالق كل شيء، فإنّ في تعليل ذلك ما يبيّن سبب التعجيب.

{ **كَذَلِكَ يُؤْفَكُ** } الإشارة إلى الإفك المأخوذ من فعل { فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [62]، أي: مثل إفككم ذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون.

{ **الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** } يجوز أن يكون المراد بهم المخاطبين بقوله { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ } [62]، ويكون الموصول وصلته إظهارا في مقام الإضمار، والمعنى: كذلك تؤفكون، أي: مثل أفككم تؤفكون. ويكون التشبيه مبالغة في أنّ إفكهم بلغ في كنه الإفك النهاية، وبذلك تكون صلة الموصول إيماء إلى علة إفكهم تعليلا صريحا.

ويجوز أن يكون المراد بهم كلّ من جحد بآيات الله من مشركي العرب ومن غيرهم من المشركين والمكذّبين فيصير التعليل الموميء إليه بالصلة تعليلا تعريضيا، لأنّه إذا كان الإفك شأن الذين يجحدون بآيات الله كلّهم فقد شمل ذلك هؤلاء بحكم المماثلة.

{ **كَانُوا** } ذكر فعل الكون للدلالة على أنّ الجحد بآيات الله شأنهم وديدنهم.

{ **يَجْحَدُونَ** } صيغة المضارع لاستحضار الحالة.

وهذا أصل عظيم في الأخلاق العلمية، فإنّ العقول التي تتخلّق بالإنكار والمكابرة قبل التأمّل في المعلومات، ولا تميّز بين الصحيح والفاسد تُصرف عن انكشاف الحقائق العلمية، فتختلط عليها المعلومات.

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [64]

الجملة استئناف ثان لم تعطف على التي قبلها لأنّ المقام مقام تعداد دلائل انفراده تعالى بالتصرّف وبالإنعام عليهم حتّى يفتضح خطلهم في الإشراك به وكفران نعمه، فذكّرهم في الآية السابقة بآثار قدرته في إيجاد الأعراض القائمة بجواهر هذا العالم، وهما عرضا الظلمة والنور، وذكّرهم في هذه الآية بآثار خلق الجواهر في هذا العالم على كيفيات هي نعمة لهم، وفي خلق أنفسهم على صور صالحة بهم.

{ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً** } لمّا كان المقصود الأوّل من هذه الآية الامتنان، كما دلّ عليه قوله { لَكُمُ }، قُدّمت الأرض على السماء لأنّ الانتفاع بها محسوس، وذُكرت السماء بعدها كما يستحضر الشيء بضدّه، مع قصد إيداع دلائل علم الهيئة لمن فيهم استعداد للنظر فيها.

القرار: أصله مصدر **قرَّ**: إذا سكن. وهو هنا من صفات الأرض لأنّه في حكم الخبر عن الأرض.

فالمعنى يحتمل: أنه جعلها قارة غير مائدة ولا مضطربة. وهذا في معنى قوله تعالى { وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ } [الأنبياء:31].

ويحتمل أنّ المعنى: جعل الأرض ذات قرار لكم، أي: جعلها مستقرًّا لكم، كقوله تعالى { وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ } [المؤمنون: 50]. أي: خلق الأرض على كيفية تلائم الاستقرار عليها بأن جعلها يابسة.

البناء: ما يُرفع على الأرض للاتقاء من الحر والبرد والمطر والدواب. ووصف السماء بالبناء جار على طريقة التشبيه البليغ، وتقدّم عند قوله تعالى { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً } [البقرة:22].

{ **وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** } أعقب تذكير الإنسان بما مهّد له من خلق الأرض والسماء، بالتذكير بأنّه خلقه مستوفيا مصلحته وراحته.

{ **وَصَوَّرَكُمْ** } عبّر عن هذا الخلق بهذا الفعل لأنّ التصوير خلق على صورة مراده تُشعر بالعناية. فلذلك عدل في جانب خلق الإنسان عن فعل (الجعل) إلى فعل التصوير، فهو كقوله تعالى { الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ } [الانفطار:8/7].

{ **فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** } ثم صرّح بما اقتضاه فعل التصوير من الإتقان والتحسين.

{ **وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** } منّة أخرى فيها عبرة، أي: خلقكم في أحسن صورة ثم أمدّكم بأحسن رزق، فجمع لكم بين الإيجاد والإمداد.

{ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ** } موقعه كموقع نظيره المتقدّم آنفا. وإعادة هذا تكريرٌ للتوقيف على خطل رأيهم في عبادة غيره على طريقة التعريض، بقرينة ما تقدم في نظيره من قوله تعالى { لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [62]، وقرينة قوله هنا { لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } [65].

{ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** } فُرِّع على ما ذكر من بدائع صنعه وجزيل مَنّه، أن أنشئ الثناء عليه بما يفيد اتصافه بعظيم صفات الكمال.

{ **تَبَارَكَ** } صيغة مفاعلة مستعملة مجازا في قوّة ما اشتق منه الفعل. وهو مشتقّ من اسم جامد وهو البركة.

البركة: اسم يدل على تزايد الخير.

{ **اللَّهُ** } إظهار اسم الجلالة دون الإتيان بضمير مع تقدّم اسمه، لتكون الجملة كلمة ثناء مستقلّة.

{ **رَبُّ الْعَالَمِينَ** } خالق أجناس العقلاء من الناس والملائكة والجن. وهذا الوصف من تمام الإنشاء، لأنّ في ذكر ربوبيته للعالمين، وهم أشرف أجناس الموجودات، استحضار لما أفاضه عليهم من خيرات الإيجاد والإمداد.

{ هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [65]

استئناف ثالث للارتقاء في إثبات إلهيته الحقّ بإثبات ما يناسبها، وهو الحياة الكاملة.

{ **هُوَ الْحَيُّ** } هذه الجملة مقدّمة لجملة { لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } فهي إثبات الحياة الواجبة لذاته، فإنّ الذي هو ربّ العالمين وأوجدهم على أكمل الأحوال وأمدّهم بما به قوامهم على ممر الأزمان، لا جرم أنّه موصوف بالحياة الحقّ، لأنّ مدبّر المخلوقات على طول العصور يجب أن يكون موصوفا بالحياة.

إذ الحياة (مع ما عرض من عسر في تعريفها عند الحكماء والمتكلمين) هي صفة وجودية تصحِّح لمن قامت به الإدراك والإرادة والفعل، وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ } [البقرة:28].

فإن كان اتصاف موصوفها بها مسبوقا بعدم فهي **حياة ممكنة عارضة** مثل حياة الملائكة وحياة الأرواح وحياة الإنسان وحياة الحيوان، فتكون متفاوتة في موصوفاتها بتفاوت قوّتها فيها، ومتفاوتة في موصوفها الواحد بتفاوت أزمانها، مثل تفاوت حياة الشخص الواحد في وقت شبابه، وحياته في وقت هرمه، ومثل حياة الشخص وقت نشاطه وحياته وقت نومه، وبذلك التفاوت تصير إلى الخفوت ثم الزوال، ويظهر أثر تفاوتها في تفاوت آثارها من الإدراك والإرادة والفعل.

وإن كان اتصاف موصوفها بها أزليا غير مسبوق بعدم فهي **حياة واجب الوجود سبحانه** وهي حياة واجبة ذاتية. وهي الحياة الحقيقة لأنّها غير معرّضة للنقص ولا للزوال، فلذلك كان الحيّ حقيقة هو الله تعالى كما أنبأت عنه صيغة الحصر في قوله { هُوَ الْحَيُّ }، وهو قصر ادعائي لعدم الاعتداد بحياة ما سواه من الأحياء لأنّها عارضة ومعرضة للفناء والزوال.

{ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } موقع النتيجة من الدليل، لأنّ كل من سواه لا حياة له واجبة، فهو معرّض للزوال، فكيف يكون إلها مدبرا للعالم؟

وجميع ما عُبد من دون الله هو بين ما لم يتصف بالحياة تماما كالأصنام من الحجارة أو الخشب أو المعادن، ومثل الكواكب الشمس والقمر والشجر، وبين ما اتصف بحياة عارضة كالملائكة وبعض البشر والحيوانات.

قال تعالى { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } [النحل:21/20].

{ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } بعد اتضاح الدلالة على انفراده تعالى بالإلهية فُرِّع عليه الأمر بعبادته وحده غير مشركين غيره في العبادة لنهوض انفراده باستحقاق أن يعبد.

الدعاء: العبادة، لأنّها يلازمها السؤال والنداء، ولأنّ الدعاء عنوان انكسار النفس وخضوعها، كما تقدّم آنفا عند قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } [60]، وكما في قوله الآتي { بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً } [74].

الإخلاص: الإفراد وتصفية الشيء ممّا ينافيه أو يفسده.

الدين: المعاملة. وأطلق على الطاعة، وهو المراد هنا، لأنّها أشد أنواع المعاملة بين المطيع والمطاع.

والمعنى: فإذ كان هو الحيّ دون الأصنام، وكان لا إله غيره، فاعبدوه غير مشركين معه غيره.

ويدخل في ماهية الإخلاص دخولا أوّليّا ترك الرياء في العبادة، لأنّ الرياء، وهو أن يقصد المتعبِّد من عبادته أن يراه الناس سواء كان قصدا مجردا أو مخلوطا مع قصد التقرّب إلى الله، كل ذلك لا يخلو من حصول حظ

في تلك العبادة لغير الله، وإن لم يكن ذلك الحظ في جوهرها. روى الطبراني عن شدّاد بن أوس قال: " كنا نعدُّ الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر ".

{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } إنشاء للثناء على الله كما هو شأن أمثالها في غالب مواقع استعمالها.

فيجوز أن تكون متصلة بفعل { فَادْعُوهُ } على تقدير قول محذوف، أي: قائلين: الحمد لله رب العالمين، أو قولوا: الحمد لله رب العالمين، وقرينة المحذوف هو أنّ مثل هذه الجملة ممَّا يجري على ألسنة الناس كثيرا فصارت كالمثل في إنشاء الثناء على الله. والمعنى: فاعبدوه بالعمل وبالثناء عليه وشكره.

ويجوز أن تكون كلاما مستأنفا أريد به إنشاء الثناء على الله من نفسه، تعليما للناس كيف يحمدونه، كما تقدّم في وجوه نظيرها في سورة الفاتحة. أو جاريا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم على نحو قوله تعالى { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام:45].

وعندي: أنّه يجوز أن يكون { الْحَمْدُ } مصدرا جيء به بدلا من فعله على معنى الأمر، أي: أحمدوا الله رب العالمين. وعدل به عن النصب إلى الرفع لقصد الدلالة على الدوام والثبات، كما تقدّم في الفاتحة.

وفصل الجملة عن الكلام الذي قبلها أسعد بالاحتمالين الأول والرابع.

{ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [66]

جملة معترضة بين أدلّة الوحدانية بدلالة الآيات الكونية والنفسية ليجروا على مقتضاها في أنفسهم. حيث انتقل هنا إلى تقرير دليل الوحدانية بخبر الوحي الإلهي بإبطال عبادة غير الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ليعمل بذلك في نفسه ويبلّغ ذلك إليهم فيعلموا أنّه حُكْم الله فيهم، وأنّهم لا عذر لهم في الغفلة عنها، بعد أن جاءهم رسول من الله يُبيّن لهم أنواعا من الأدلة بمختلف البيان، من أدلة برهانية وتقريبية إقناعية.

وأنّ هذا الرسول صلى الله عليه وسلم إنّما يدعوهم إلى ما يريده لنفسه، فهو ممحّض لهم النصيحة، وهاديهم إلى الحجّة، لتتظاهر الأدلة النظرية بأدلة الأمر الإلهي، بحيث يقوى إبطال مذهبهم في الشرك.

فالآية إبطال لعبادة غير الله بالقول الدال على التحذير والتخويف بعد أن أبطل ذلك بدلالة الحجّة على المقصود. وهذه دلالة كنائية، لأنّ النهي يستلزم التحذير.

{ **إِنِّي نُهِيتُ** } تقديم المسند إليه وهو ضمير { إني } على الخبر الفعلي لتقوية الحكم. وتخصيص ذاته بهذا النهي تعريض بنهي المشركين، فإنّ الأمر بأن يقول ذلك لم يقصد منه إلّا التبليغ لهم، وإلّا فلا فائدة لهم في الإخبار بأنّ الرسول عليه الصلاة والسلام منهي عن أن يعبد الذين يدعونه من دون الله.

فالرسول صلى اله عليه وسلم من حين نشأته لم يسجد لصنم قط وكان ذلك مصرفة من الله تعالى إيّاه عن ذلك إلهاما إلهيا إرهاصا لنبوّته.

{ **الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } يجوز أن يكون على ظاهر الدعاء، وهو القول الذي تُسأل به حاجة، ويجوز أن يكون بمعنى تعبدون، كما تقدم في قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم } [60].

فيكون العدول عن أن يقول: أن اعبد الذين تعبدون، تفنّنا.

والمعنى: فإذا كنت أنا منهيًّا عن ذلك فتأمّلوا في شأنكم واستعملوا أنظاركم فيه، ليسوقهم إلى النظر في الأدلة سوقا ليّنا خفيّا لاتّباعه فيما نهى عنه، كما جاء ذلك صريحا لا تعريضا في قول إبراهيم عليه السلام لأبيه { يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً } [مريم:44/43].

{ **لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي** } ذكر مجيء البينات في أثناء هذا الخبر إشارة إلى طرق أخرى من الأدلة على تفرّد الله بالإلهية تكرَّرت قبل نزول هذه الآية.

{ **لمّا** } حرف أو ظرف على خلاف بينهم، توقيت لنهيه عن عبادة غير الله بوقت مجيء البيّنات، أي: بيّنات الوحي، وهو يقتضي أنّ النهي لم يكن قبل وقت مجيء الوحي.

{ **مِنْ رَبِّي** } ابتدائية، وجعل المجرور (ربّ) مضافا إلى ضمير المتكلم دون أن يجعله ضميرا يعود على اسم الجلالة إظهارا في مقام الإضمار لتربية المهابة في نفوس المعرَّض بهم ليعلموا أنّ هذا النهي ومجيء البينات هو من جانب ربّه وربّهم فما يسعهم إلّا أن يطيعوه، ولذلك عزّزه بإضافة الرب إلى الجميع في قوله تعالى { **وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** }.

الإسلام: الانقياد بالقول والعمل، وفعله متعدٍّ، وكثر حذف مفعوله فنزل منزلة اللازم، فأصله: أسلم نفسه أو وجهه، كما صرّح به في نحو قوله تعالى { فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ } [آل عمران:20]، ومن استعماله كاللازم قوله تعالى { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [البقرة:131]، وكذلك هو هنا.

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمّىً وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [67]

استئناف رابع بعد استئناف جملة { هُوَ الْحَيُّ } [65]، وما تفرَّع عليها، وكلّها ناشئ بعضه عن بعض.

وهذا امتنان بنعمة الإيجاد، وهو نعمة لأنّ الموجود شرف والمعدوم لا عناية به. وأدمج فيه الاستدلال على الإبداع. وتقدّم الكلام على أطوار خلق الإنسان في [الحج:5]، وعلى بعضه في [فاطر:11].

الطفل: اسم يصدق على الواحد والاثنين والجمع، للمذكّر والمؤنّث، قال تعالى { أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ } [النور:31]، وقد يطابق فيقال: طفل وطفلان وأطفال.

{ **ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً** } اللّامات وما عطف عليه بـ (ثمّ) متعلّقات بمحذوف تقديره: ثمّ يبقيكم، أو ثمّ ينشئكم لتبلغوا أشدّكم، وهي (لامات التعليل) مستعملة في معنى (إلى)، لأنّ الغاية المقدّرة من الله تشبه العلّة فيما يفضي إليها، وتقدّم نظيره في [الحج:5].

الأَشُد: القوّة في البدن، وهو ما بين ثمان عشرة إلى الثلاثين، وتقدّم في [يوسف:22].

{ **شُيُوخاً** } جمع شيخ، وهو من بلغ سن الخمسين إلى الثمانين، وتقدّم عند قوله تعالى { وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً } [هود:72]. ويجوز في (شُيوخ) ضم الشين، وبه قرأ نافع وأبو عمر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب وخلف، ويجوز كسر الشين، وبه قرأ ابن كثير وحمزة، والكسائي.

{ **وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ** } للذين يهلكون قبل أن يبلغوا تلك الأطوار، أي: يتوفّى قبل أن يخرج طفلا، وهو السقط، أو قبل أن يبلغ الأشد، أو يتوفّى قبل أن يكون شيخا.

ولتعلقه بما يليه خاصة عُطف عليه بالواو ولم يعطف بـ { ثمّ } كما عطفت المجرورات الأخرى.

{ **قَبْلُ** } بُني على الضم على نية معنى المضاف إليه، أي: من قبل ما ذكر.

{ **وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمّى** } عطف على { لِتَكُونُوا شُيُوخاً }، أي: للشيخوخة غاية، وهي الموت، فلا طور بعد الشيخوخة.

{ **وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } أي: أنّ من جملة ما أراده الله من خلق الإنسان على الحالة المبيَّنة، أن تكون في تلك الخلقة دلالة لآحاده على وجود هذا الخالق، وعلى انفراده بالإلهية، وعلى أنّ ما عداه لا يستحق وصف الإلهية، فمن عقل ذلك من الناس فقد اهتدى إلى ما أريد منه، ومن لم يعقل ذلك فهو بمنزلة عديم العقل.

ولأجل هذه النكتة لم يؤت لفعل { تَعْقِلُونَ } بمفعول ولا بمجرور لأنّه نزل منزلة اللازم، أي: رجاء أن يكون لكم عقول.

{ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [68]

استئناف خامس، ومناسبة موقعه من قوله { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ - إلى قوله - وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [67]، أنّ من أوّل ما يُرجى أن يعقلوه هو ذلك التصرّف البديع بخلق الحياة في الإنسان عند تكوينه بعد أن كان جثّة لا حياة فيها، وخلق الموت فيه عند انتهاء أجله بعد أن كان حيًّا متصرّفا بقوته وتدبيره.

{ **يُحْيِي وَيُمِيتُ** } طباق، وهو من المحسّن البديعي. و{ يُحْيِي } يوجد المخلوق حيا، و{ يُمِيتُ } أنّه يعدم الحياة عن الذي كان حيا، وهذا هو محلّ العبرة.

والمقصود: الامتنان بالحياة تبعا لقوله { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ - إلى قوله - ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً } [67].
{ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } تفريع. إخبار بأنّه إذا أراد أمرا من أمور التكوين من إحياء أو إماتة أو غيرهما فإنّه يقدر على فعله دون تردّد ولا معالجة، بل بمجرد تعلّق قدرته بالمقدور، وذلك التعلّق هو توجيه قدرته للإيجاد أو الإعدام.
{ كُنْ } تمثيل لتعلّق القدرة بالمقدور بلا تأخير ولا معاناة وعلاج بحال من يريد إذن غيره بعمل فلا يزيد على أن يوجِّه إليه أمرا، فإنّ صدور القول عن القائل أسرع أعمال الإنسان وأيسر، وقد اختير لتقريب ذلك أخصر فعل وهو { كُنْ } المركَّب من حرفين متحرك وساكن.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ [69] الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [70] إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ [71] فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ [72] }.
بُنيت هذه السورة على إبطال جدل الذين يجادلون في آيات الله جدال التكذيب والتورّك، كما تقدّم في أول السورة، وتكرّر ذلك أربع مرات فيها، فنبّه على إبطال جدالهم في مناسبات الإبطال كلّها، إذ ابتدئ بإبطاله على الإجمال عقب الآيات الثلاث من أولها:
بقوله تعالى { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا } [4].
ثم بقوله تعالى { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ} [35].
ثم بقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ } [56].
ثم بقوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ } [69].
وذلك كلّه إيماء إلى أنّ الباعث لهم على المجادلة في آيات الله هو ما اشتمل عليه القرآن من إبطال الشرك فلذلك أعقب كل طريقة من طرائق إبطال شركهم بالإنحاء على جدالهم في آيات الله.
{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ } مستأنفة للتعجيب من حال انصرافهم عن التصديق بعد تلك الدلائل البيّنة. والاستفهام مستعمل في التقرير وهو منفي لفظا، والمراد به: التقرير على الإثبات، كما تقدم غير مرة، منها عند قوله تعالى { قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ } [البقرة:260].
الرؤية: علمية، وفعلها معلّق عن العمل بالاستفهام بـ { أَنَّى يُصْرَفُونَ }.

{ **أَنَّى** } بمعنى (كيف)، وهي مستعملة في التعجيب مثل قوله تعالى { أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ } [آل عمران:47]. أي: أرأيت عجيب انصرافهم عن التصديق بالقرآن بصارف غير بيّن منشؤه، ولذلك بني فعل { يُصْرَفُونَ } للنائب لأنّ سبب صرفهم عن الآيات ليس غير أنفسهم.

{ **الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ** } بدل من { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ }، لأنّ صلتي الموصولين صادقتان على شيء واحد، فالتكذيب هو ما صدق للجدال. و**الكتاب**: القرآن.

{ **وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا** } يجوز أن يكون العطف مقتضيا المغايرة، فيكون المراد: وبما أرسلنا به رسلنا من الكتب قبل نزول القرآن، فيكون تكذيبهم ما أرسلت به الرسل مرادا به تكذيبهم جميع الأديان. ويحتمل أنّه أريد به التكذيب بالبعث، فلعلّهم لمّا جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بإثبات البعث سألوا عنه أهل الكتاب فأثبتوه فأنكر المشركون جميع الشرائع لذلك.

ويجوز أن يكون عطف مرادف فائدته التوكيد، والمراد بـ { رُسُلَنَا } محمد صلى الله عليه وسلم. على أنّ في العطف فائدة زائدة على ما في المعطوف عليه وهي أنّ ممّا جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مواعظ وإرشاد كثيرا ليس في القرآن.

{ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } تفرّع على تكذيبهم وعيدهم بما سيلقونه يوم القيامة. أي: سوف يجدون العذاب الذي كانوا يجادلون فيه فيعلمونه. وعبر عن وجدانهم العذاب بالعلم به بمناسبة استمرارهم على جهلهم بالبعث وتظاهرهم بعدم فهم ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم، فأنذروا بأنّ ما جهلوه سيتحقّقونه يومئذ.

وحذف مفعول { يَعْلَمُونَ } لدلالة { كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ } عليه، أي: يتحقّقون ما كذّبوا به.

{ **إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ** } الظرف متعلّق بـ { يَعْلَمُونَ }، أي: يعلمون في ذلك الزمن.

وشأن (إذ) أن تكون اسما للزمن الماضي واستعملت هنا للزمن المستقبل بقرينة (سوف)، فهو إمّا استعمال المجاز بعلاقة الإطلاق، وإمّا استعارة تبعية للزمن المستقبل المحقَّق الوقوع تشبيها بالزمن الماضي.

وأوّل ما يعلمونه حين تكون الأغلال في أعناقهم وقوع البعث.

الأغلال: جمع **غُلٌّ** (بضم العين)، وهو حلقة من قِدٍّ أو حديد تحيط بالعنق تناط بها سلسلة من حديد، أو سير من قدّ يمسَك بها المجرم والأسير.

السلاسل: جمع سِلسِلة (بكسر السينين) وهي مجموع حلق غليظة من حديد متصل بعضها ببعض.

سئل الشيخ ابن عرفة: هل يمكن أن تكون هذه الآية سندا لما يفعله أمراء المغرب من وضع الجناة بالأغلال والسلاسل جريا على حكم القياس على فعل الله في العقوبات؟ فأجاب بالمنع لأنّ وضع الغل في العنق ضرب من التمثيل وإنّما يوثق الجاني من يده، قال: " ولا يقاس على تصرّفه في الآخرة لنهي النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الإحراق بالنار، وقوله: " **إنّما يعذِّب بها ربّ العزة** ".

{ **يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ** } حال من ضمير { أعناقهم } أو من ضمير { يَعْلَمُونَ } .

السحب: الجرُّ، وهو يجمع بين الإيلام والإهانة.

الحميم: أشدّ الحر.

{ **ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ** } وشأن (ثمّ) إذا عطفت الجمل أن تكون للتراخي الرتبي وذلك أنّ احتراقهم بالنار أشدّ في تعذيبهم من سحبهم على النار، فهو ارتقاء في وصف التعذيب الذي أجمل بقوله { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }.

السجر: ملء التنور بالوقود لتقوية النار فيه، فإسناد الفعل إلى ضميرهم إسناد مجازي لأنّ الذي يسجر هو مكانهم من جهنم، فأريد بإسناد المسجور إليهم المبالغة في تعلّق السجر بهم، أو هو استعارة تبعية بتشبيههم بالتنور في استقرار النار بباطنهم، كما في قوله تعالى { يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ } [الحج:20].

{ **ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ [73] مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ [74] ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ [75] ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ [76]** }.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، لأنّ هذا القول يقال لهم قبل دخول النار، بدليل أنّ ممّا وقع في آخر القول { ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ }، ودخول أبواب جهنم قبل السحب في حميمها والسجر في نارها.

وهذا القيل ارتقاء في تقريعهم وإعلان خطل آرائهم بين أهل المحشر، وهو أشدّ على النفس من ألم الجسم، ولأنّ هذا القول مقدّمة لتسليط العذاب عليهم لاشتماله على بيان سبب العذاب من عبادة الأصنام وازدهائهم في الأرض بكفرهم ومرحهم، وهو أيضا ارتقاء في وصف أحوالهم الدالة على نكالهم، إذ ارتقى من صفة جزائهم على إشراكهم، وهو شيء غير مستغرب ترتُّبه على الشرك، إلى وصف تحقيرهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها، وذلك غريب من أحوالهم وأشدّ دلالة على بطلان إلهية أصنامهم، وهو المقصد المهمّ من القوارع التي سلطت عليهم في هذه السورة.

{ **قِيلَ لَهُمْ** } صيغة الماضي لأنّه محقّق الوقوع فكأنّه وقع ومضى. والقائل لهم: ناطق بإذن الله.

{ **أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } (أين) للاستفهام عن مكان الشيء مجهول المكان، والاستفهام هنا مستعمل في التنبيه على الغلط والفضيحة في الموقف، فإنّهم كانوا يزعمون أنّهم يعبدون الأصنام ليكونوا شفعاء لهم من غضب الله فلمّا حقّ عليهم العذاب فلم يجدوا شفعاء ذكّروا بما كانوا يزعمونه.

{ **قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا** } ابتدروا بالجواب قبل انتهاء المقالة طمعا في أن ينفعهم الاعتذار. فالجملة معترضة في أثناء القول الذي قيل لهم.

{ **ضَلُّوا** } هنا بمعنى غابوا، كقوله تعالى { أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [السجدة: 10]، أي: غُيِّبنا في التراب.

{ **بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً** } ثمّ علموا أنّ الأصنام لا تفيدهم. فأضربوا عن قولهم { ضَلُّوا عَنَّا }، أي: لم نكن في الدنيا ندعو شيئا يُغني عنا. فنفي دعاء شيء هنا راجع إلى نفي دعاء شيء يُعتدّ به، كما تقول: حسبت أنّ فلانا شيء فإذا هو ليس بشيء، وفي الحديث: " سئل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الكهّان فقال: " **ليسوا بشيء** "، أي ليسوا بشيء مُعتدّ به فيما يقصدهم الناس لأجله.

وذهب كثير من المفسّرين إلى أنّ قولهم إنكار لعبادة الأصنام بعد الاعتراف بها لاضطرابهم من الرعب، فيكون من نحو قوله تعالى { ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } [الأنعام:23].

{ **كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ** } تذييل معترض بين أجزاء القول الذي يقال لهم. ومعنى الإشارة تعجيب من ضلالهم، أي: مثل ضلالهم ذلك يُضلّ الله الكافرين.

{ **الْكَافِرِينَ** } عموم الكافرين، فليس هذا من الإظهار في مقام الإضمار.

{ **ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُون** } تكملة القيل الذي يقال لهم.

{ **ذَلِكُمْ** } الإشارة إلى ما هم فيه من العذاب.

{ **بِمَا - بِمَا** } و(ما) في الموضعين مصدرية، أي: ذلكم مسبب على فرحكم ومرحكم اللذين كانا لكم في الدنيا.

الأرض: مطلقة على الدنيا.

الفرح: المسرّة ورضى الإنسان على أحواله، فهو انفعال نفساني.

المرح: ما يظهر على الفارح من الحركات في مشيه ونظره، فهو هيئة ظاهرية.

{ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** } يتنازعه كل من { تَفْرَحُونَ } و{ تَمْرَحُونَ }، أي: تفرحون بما يسرُّكم من الباطل وتزدهون بالباطل. فمن آثار فرحهم بالباطل تطاولهم على الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن المرح بالباطل استهزاؤهم بالرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، قال تعالى { وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ } [المطففين31/30]. فالفرح كلّما جاء منهيا عنه في القرآن فالمراد به هذا الصنف منه، كقوله تعالى { إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } [القصص:76]. لا كل فرح، فإنّ الله امتنّ على المؤمنين بالفرح في قوله { وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ } [الروم:5/4].

{ **تَفْرَحُونَ - تَمْرَحُونَ** } جناس محرَّف.

{ **ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا** } <u>يجوز أن تكون استئنافا بيانيا</u> لأنّهم لمّا سمعوا التقريع والتوبيخ وأيقنوا بانتفاء الشفيع ترقَّبوا ماذا سيؤمر به في حقهم فقيل لهم ذلك. <u>ويجوز أن تكون بدل اشتمال</u> من قوله { ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ }، فإنّ مدلول اسم الإشارة العذاب المشاهد لهم وهو يشتمل على إدخالهم جهنم والخلود فيها.

دخول الأبواب: كناية عن الكون في جهنّم، لأنّ الأبواب إنّما جُعلت ليُسلك منها إلى البيت ونحوه.

{ **فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** } تفريع، والمخصوص بالذمّ محذوف لأنّه يدل عليه ذكر جهنم، أي: فبئس مثوى المتكبرين جهنم.

المثوى: محل الثواء، والثواء: الإقامة الدائمة، وأوثر هذا اللفظ لأنّه أدلّ على الخلود فهو أولى بمساءتهم.

{ **الْمُتَكَبِّرِينَ** } المخاطبون ابتداء، لأنّهم جادلوا في آيات الله عن كبر في صدورهم كما قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ } [56]. ولأنّ تكبّرهم من فرحهم. وإنّما عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر وهو { الْمُتَكَبِّرِينَ } للإشارة إلى أنّ من أسباب وقوعهم في النار تكبّرهم على الرسل. وليكون لكل موصوف بالكبر حظ من استحقاق العقاب إذا لم يتب ولم تغلب حسناته على سيّئاته إن كان من أهل الإيمان.

{ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [77]

قد كان فيما سبق من السورة ما فيه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم على ما تلقّاه به المشركون من الإساءة والتصميم على الإعراض، ابتداء من قوله { فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ} [4]، ثم قوله { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ } [21]، ثم قوله { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا } [51]، ففُرّع هنا على جميع ما سبق وما تخلّله من تصريح وتعريض أنّ أمر الله النبيّ صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يلاقيه منهم، وهذا كالتكرير لقوله فيما تقدّم { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } [55].

فإن مناسبة الأمر بالصبر عقب ذلك أن يكون تعريضا بالانتصار له، ولذلك فُرّع على الأمر بالصبر الشرط المردَّد بين أن يريه بعض ما توعّدهم الله به وبين أن لا يراه، فإنّ جواب الشرط حاصل على كلتا الحالتين وهو مضمون { فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ }، أي: أنّهم غير مفلَتين من العقاب.

وتقدّم نظير هذين الشرطين في [يونس:46] إلّا أنّ في يونس { فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ } وهنا { فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ }، والمخالفة بين الآيتين تفنّن، ولأنّ ما في يونس اقتضى تهديدهم بأنّ الله شهيد على ما يفعلون.

<u>والمعنى</u>: أنّهم واقعون في قبضة قدرتنا في الدنيا سواء كان ذلك في حياتك مثل عذاب يوم بدر، أو بعد وفاتك مثل قتلهم يوم اليمامة، وأمّا عذاب الآخرة فذلك مقرّر لهم بطريق الأولى، وهذا كقوله تعالى { أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ} [الزخرف:42].

{ **فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ** } تقديم المجرور للرعاية على الفاصلة وللاهتمام.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ } [78]

ذكرنا عند قوله تعالى { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا } [4]، أنّ من صور مجادلتهم في الآيات إظهارهم عدم الاقتناع بمعجزة القرآن، فكانوا يقترحون آيات كما يريدون، لقصدهم إفحام الرسول صلى الله عليه وسلم، فلمّا انقضى تفصيل الإبطال لضلالهم بالأدلة البيّنة والتذكير بالنعمة والإنذار بالترهيب والترغيب وضرب الأمثال بأحوال الأمم الكذبة، ثم بوعد الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالنصر وتحقيق الوعد، أعقب ذلك بتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه ما كان شأنه إلّا شأن الرسل من قبله أن لا يأتوا بالآيات من تلقاء أنفسهم، ولا استجابة لرغائب معانديهم، ولكنّ الآيات عند الله يُظهر ما شاء منها بمقتضى إرادته الجارية على وفق علمه وحكمته، وفي ذلك تعريض بالردّ على المجادلين في آيات الله، وتنبيه لهم على خطأ ظنّهم أنّ الرسل تنتصب لمناقشة المعاندين.

فالمقصود الأهم من هذه الآية هو قوله { وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } وأمّا قوله { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ } فهو كمقدّمة للمقصود. وهو مع ذلك يفيد بتقديمه معنى مستقلا من ردّ مجادلتهم، فإنّهم كانوا يقولون { مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام:91]، ويقولون { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ } [الأنعام:8]، فدمغت مزاعمهم بما هو معلوم بالتواتر من تكرّر بعثة الرسل في العصور والأمم الكثيرة.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ } وقد بعث الله رسلا وأنبياء لا يعلم عددهم إلّا هو سبحانه، لأنّ منهم من أعلم الله بهم نبيَّه صلى الله عليه وسلم ومنهم من لم يعلمه بهم، والذين أعلمه بهم منهم من قصّه في القرآن، ومنهم من أعلمه بهم بوحي غير القرآن، فورد ذكر بعضهم في الآثار الصحيحة بتعيين أو بدون تعيين، من ذلك ذكر حَنظلة بن صفوان نَبيّ أهل الرسّ، وذكر خالد بن سنان نبيّ بني عَبس.

وقد جاء في القرآن تسمية **خمسة عشر رسولا** وهم: (نوح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى، وهارون، وعيسى، ويونس، ومحمد صلى الله عليه وسلم).

واثنا عشر نبيّا وهم: (داود، وسليمان، وأيوب، وزكريا، ويحيى، وإلياس، واليسع، وإدريس، وآدم، وذو الكفل، وذو القرنين، ولقمان، و**نبيّة** هي مريم). وورد بالإجمال دون تسمية صاحب موسى المسمّى في السنة خضر، ونبيّ بني إسرائيل وهو صمويل، وتبّع.

وفي كون يوسف رسولا تردّدا بيّنته عند قوله تعالى { وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ }[34]، وأنّ في نبوّة الخضر ولقمان وذي القرنين ومريم تردّدا. واخترت إثبات نبوّتهم لأن الله ذكر في بعضهم أنّه خاطبهم،

وذكر في بعضهم أنّه أوتى الحكمة، وقد اشتهرت في معنى النبوّة، وفي بعضهم أنّه كلّمته الملائكة.
ولا يجب الإيمان بنبوّة رسالة معيّن إلّا محمد صلى الله عليه وسلم، أو من بلغ العلم بنبوّته بين المسلمين مبلغ اليقين لتواتره مثل موسى وعيسى وإبراهيم ونوح. وما ثبت بأخبار الآحاد غير واجب الإيمان به.
{ **رُسُلاً** } تنكير مفيد للتعظيم والتكثير، أي: أرسلنا رسلا عددهم كثير وشأنهم عظيم.
{ **وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** } العطف بـ (الواو) دون (الفاء) يفيد استقلال هذه الجملة بنفسها لما فيها من معنى عظيم حقيق بأن لا يكون تابعا لغيره.
{ **أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ** } هو تحدّيه قومه بأن الله سيؤيّده بآية يعيّنها، أي: بمعجزة. مثل قول صالح عليه السلام { هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً } [الأعراف:73]، وقول موسى عليه السلام لفرعون { قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ } [الشعراء:30]، وقول عيسى عليه السلام { أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَائِراً بِإِذْنِ اللَّهِ } [آل عمران:49]، وقوله محمد صلى الله عليه وسلم { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ } [البقرة:23].
{ **بِإِذْنِ اللَّهِ** } باء السببية دخلت على مستثنى من أسباب محذوفة في الاستثناء، أي: ما كان له أن يأتي بآية بسبب من الأسباب إلّا بسبب إذن الله تعالى. وهذا إبطال لما يتورّكون به من المقترحات والتعلّات.
وإذن الله هو أمر التكوين الذي يخلق الله به خارق العادة ليجعله علامة على صدق الرسول.
{ **فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ** } تفريع، أي: فإذا جاء أمر الله بإظهار الرسول آية ظهر صدق الرسول، وكان ذلك قضاء من الله تعالى لرسوله بالحق على مكذّبيه.
{ **أَمْرُ اللَّهِ** } القضاء والتقدير، كقوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل:1]، وقوله تعالى { أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ } [المائدة:52]، وهو الحدث القاهر للناس. وفي اختيار هذا المضاف تعريض بأنّ ما سيُظهره الله من الإذن لمحمد صلى الله عليه وسلم هي آيات عقاب لمعانديه.
{ **قُضِيَ بِالْحَقِّ** } وفي إيثاره بالذكر دون غيره من نحو: ظهر الحق، أو تبيّن الصدق، ترشيح لما في قوله تعالى { أَمْرُ اللَّهِ } من التعريض بأنّه أمر انتصاف من المكذّبين. ولذلك عطف عليه:
{ **وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ** } أي: خسر الذين جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق.
الخسران: مستعار لحصول الضرّ لمن أراد النافع، كخسارة التاجر الذي أراد الربح فذهب رأس ماله، وقد تقدّم معناه غير مرة، منها قول تعالى { فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } [البقرة:16].
{ **هُنَالِكَ** } أصله اسم إشارة إلى المكان، واستعير هنا للإشارة إلي الزمان المعبّر عنه بـ (إذا) في قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ }.

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ [79] وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ [80] }.

انتقال من الامتنان على الناس بما سخّر لأجلهم من نظام العوالم العليا والسفلى، وبما منحهم من الإيجاد وتطوّره، وما في ذلك من الألطاف بهم، وما أدمج فيه من الاستدلال على انفراده تعالى بالتصرّف، فكيف ينصرف عن عبادته الذين أشركوا به آلهة أخرى! إلى الامتنان بما سخّر لهم من الإبل لمنافعهم الجمّة.

فالجملة استئناف سادس. والقول في افتتاحها كالقول في افتتاح نظائرها السابقة باسم الجلالة أو بضميره.

الجَعْل: الوضع والتمكين والتهيئة، فيحمل في كلّ مقام على ما يناسبه. وفائدة الامتنان استدلال على دقيق الصنع وبليغ الحكمة، كما دلّ عليه قوله تعالى { وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ } [81]، أي: في ذلك كلّه.

{ **لَكُمُ** } لام التعليل، أي: لأجلكم، وهو امتنان مجمل يشمل بالتأمّل كلّ ما في الإبل لهم من منافع، وهم يعلمونها إذا تذكّروها وعدّوها.

الأنعام: الإبل، والغنم، والمعز، والبقر. والمراد هنا: الإبل خاصة لقوله تعالى { وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً } وقوله { وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ }، وكانت الإبل غالب مكاسبهم.

ثم فصل ذلك الإجمال بعض التفصيل بذكر المهم من النعم التي في الإبل.

{ **لِتَرْكَبُوا مِنْهَا** } لام كي، وهي متعلّقة بـ { جعل }، أي: لركوبكم. وأريد بالركوب هنا الركوب للراحة من تعب الرجلين في الحاجة القريبة بقرينة مقابلته بقوله { وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ }.

{ **وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** } في موضع الحال من { الأنعام }، أو عطف. وعلى الاعتبارين فهي في حيّز ما دخلت عليه (لام كي)، فمعناها: ولتأكلوا منها.

{ **وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ** } عطف على الجمل السابقة، والمعنى أيضا على اعتبار التعليل، كأنّه قيل: ولتجتنوا منافعها المجعولة لكم. وإنّما غيّر أسلوب التعليل تفننا في الكلام وتنشيطا للسامع لئلّا يتكرّر حرف التعليل.

المنافع: جمع منفعة، وهي مَفْعلة من النفع، وهي: الشيء الذي ينتفع به، أي: يُستصلح به.

فالمنافع في هذه الآية أريد بها ما قابل منافع أكل لحومها في قوله { وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ }، مثل الانتفاع بأوبارها وألبانها وأثمانها وأعواضها في الديّات والمهور، والمنافع شاملة للركوب الذي في قوله { لِتَرْكَبُوا مِنْهَا }.

فذكر المنافع بعد { لِتَرْكَبُوا مِنْهَا} تعميم بعد تخصيص، كقوله تعالى { وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى } [طه:18] بعد قوله { هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا }.

{ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ } ثمّ خصّ من المنافع الأسفار، فإنّ اشتداد الحاجة إلى الأنعام فيها تجعل الانتفاع بركوبها للسفر في محل الاهتمام.

{ لِتَبْلُغُوا } أنبأ الفعل أنّ الحاجة التي في الصدور حاجة في مكان بعيد يطلبها صاحبها.

الحاجة: النيّة والعزيمة.

الصدور: أطلق على العقول اتباعا للمتعارف الشائع، كما يطلق القلوب على العقول.

{ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ } انتقال من الامتنان بجعل الأنعام، إلى الامتنان بنعمة الركوب في الفلك في البحار والأنهار، فالمقصود هو قوله تعالى { وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ }، وأمّا قوله { وَعَلَيْهَا } فهو تمهيد له وهو اعتراض تكريرا للمنّة.

ووجه الامتنان بالفلك أنه امتنان بما ركّب الله في الإنسان من التدبير والذكاء الذي توصّل به إلى المخترعات النافعة بحسب مختلف العصور والأجيال، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ } [البقرة:164]، وبيَّنَّا هنالك أنّ العرب كانوا يركبون البحر الأحمر في التجارة ويركبون الأنهار.

والجمع بين السفر بالإبل والسفر بالفلك جمع لطيف، فإنّ الإبل سفائن البر، وقديما سمُّوها بذلك.

وإنّما قال { وَعَلَى الْفُلْكِ } ولم يقل: وفي الفلك، كما في قوله تعالى { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ } [العنكبوت:65] للمزاوجة والمشاكلة مع { وَعَلَيْهَا }.

{ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ } [81]

عطف على جملة { اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ } [79]،أي: الله الذي يريكم آياته. وهذا انتقال من متعدّد الامتنان بما تقدّم من قوله تعالى:

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ } [61].

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً } [64].

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ } [67].

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ } [79].

فإنّ تلك ذكرت في معرض الامتنان، تذكيرا بالشكر، فنبَّه هنا على أنّ في تلك المنن آيات دالة على ما يجب لله من الوحدانية والقدرة والحكمة. ولذلك كان القول مفيدا مفاد التذييل لما في قوله تعالى { آياته} من العموم، لأنّ الجمع المعرّف بالإضافة من صيغ العموم، أي: يريكم آياته في النعم المذكورات وغيرها ما يدلّ على وجوب توحيده وتصديق رسله ونبذ المكابرة.

{ **وَيُرِيكُمْ** } جيء بالفعل المضارع لدلالته على التجدّد، لأنّ الإنسان كلّما انتفع بشيء من النعم علم ما في ذلك من دلالة على وحدانية خالقها وقدرته وحكمته.

الإراءة هنا بصرية، عبّر بها عن العلم بصفات الله إذ كان طريق ذلك العلم هو مشاهدة تلك الأحوال المختلفة، فمن تلك المشاهدة ينتقل العقل إلى الاستدلال، وفيه إشارة إلى أنّ دلالة وجود الخالق ووحدانيته وقدرته برهانية تنتهي إلى اليقين والضرورة.

{ **آيَاتِهِ** } إضافة الآيات إلى ضمير الجلالة لزيادة التنويه بها، والإرشاد إلى إجادة النظر العقلي في دلائلها.

{ **فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ** } فُرّع على إراءة الآيات استفهام إنكاري من أجل إنكارهم ما دلّت عليه تلك الآيات.

{ **فَأَيَّ** } اسم استفهام يطلب به تمييز شيء عن مشاركة فيما يضاف إليه (أي)، وهو هنا مستعمل في إنكار أن يكون شيء من آيات الله يمكن أن ينكر دون غيره من الآيات، فيفيد أنّ جميع الآيات صالح للدالة على وحدانية الله وقدرته، لا مساغ لادعاء خفائه، وأنّهم لا عذر لهم في عدم الاستفادة من إحدى الآيات.

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [82] فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [83] }.

تفريع هذا الاستفهام عقب قوله { وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ } [81]، يقتضي أنّه مساوق للتفريع الذي قبله وهو { فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ } [81]، فيقتضي أنّ السير المستفهم عنه بالإنكار على تركه هو سير تحصل فيه آيات ودلائل على وجود الله ووحدانيته. وكلا التفريعين متصل بقوله { وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ } [80]، فذلك هو مناسبة الانتقال إلى التذكير بعبرة آثار الأمم التي استأصلها الله تعالى لمّا كذبت رسله وجحدت آياته ونعمه.

وحصل بذلك تكرير الإنكار الذي في قوله { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً } [21]، فكان ما تقدّم انتقالا عقب آيات الإنذار والتهديد، وكان هذا انتقالا عقب آيات الامتنان والاستدلال، وفي كلا الانتقالين تذكير وتهديد ووعيد.

وهو يشير إلى أنّهم إن لم يكونوا ممَّن تزعهم النعم عن كفران مسديها كشأن أهل النفوس الكريمة، فليكونوا ممّن يردعهم الخوف من البطش، كشأن أهل النفوس اللئيمة.

{ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ** - إلى قوله - **وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ** } القول فيه مثل القول في نظيره السابق [21]، غير أنّ هذه عُطفت بـ (الفاء) للتفريع، لوقوعها بعدما يصلح لأنّ يفرّع عنه إنكار عدم النظر في عاقبة الذين

من قبلهم، بخلاف نظيرها الذي قبلها فقد وقع بعد إنذارهم بيوم الآزفة.

{ **فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } معترضة و(الفاء) للتفريع على قوله { كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ }، وهو كقوله تعالى { هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ } [ص:57].

وفائدة هذا الاعتراض التعجيل بإفادة أنّ كثرتهم وقوّتهم وحصونهم وجنّاتهم لم تغن عنهم من بأس الله شيئا.

{ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ** } مفرّعة على جملة { كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ }،

أي: كانوا كذلك إلى أن جاءتهم رسل الله إليهم بالبينات فلم يصدّقوهم فرأوا بأسنا.

{ **فَلَمَّا** } لِما في (لمّا) من معنى التوقيت أفادت معنى أنّ الله لم يغيّر ما بهم من النعم العظمى حتّى كذّبوا رسله. وجواب (لمّا) جملة { فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ } وما عطف عليها.

الفرح: هنا مكنًّى به آثاره وهي الازدهاء، كما في قوله تعالى { إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ } [القصص: 76].

فالمعنى: أنّهم جادلوا الرسل وكابروا الأدلة وأعرضوا عن النظر.

{ **بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ** } هو معتقداتهم الموروثة عن أهل الضلالة من أسلافهم. وإطلاق العلم على اعتقادهم تهكّم وجري على حسب معتقدهم، وإلّا فهو جهل.

{ **وَحَاقَ بِهِمْ** } أحاط، يقال: حاق يحيق حيقا، إذا أحاط، وهو هنا مستعار للشدّة التي لا تنفيس بها، لأنّ المحيط بشيء لا يدع له مَفرجا.

{ **مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } هو الاستئصال والعذاب. والمعنى: أن رسلهم أوعدوهم بالعذاب فاستهزؤوا بالعذاب، أي: بوقوعه. وفي الإتيان بالمضارع إفادة لتكرّر استهزائهم.

{ **كَانُوا** } في ذكر فعل الكون تنبيه على أنّ الاستهزاء بوعيد الرسل كان شنشنة لهم.

{ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ [84] فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ [85] }.

{ **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا** } موقعها من قوله { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ } [83]، كموقع تلك من قوله { كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ } [82]، لأنّ إفادة (لمَّا) معنى التوقيت يثير معنى توقيت انتهاء ما قبلها، أي: دام دعاء الرسل إيّاهم ودام تكذيبهم واستهزاؤهم إلى رأوا بأسنا فقالوا حينها { آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ }.

البأس: الشدّة في المكروه، وهو جامع لأصناف العذاب، كقوله تعالى { فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا } [الأنعام:43/42].

{ **فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا** } تفريع، أي: حين شاهدوا العذاب لم ينفعهم الإيمان، لأنّ الله لا يقبل الإيمان عند نزول عذابه.

{ **فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ** } عُدل عن أن يقال: فلم ينفعهم، لدلالة فعل الكون على أنّ خبره مقرّر الثبوت لاسمه، فلما أريد نفي ثبوت النفع إيّاهم بعد فوات وقته اجتلب لذلك نفي فعل الكون. والمعنى: أنّ الإيمان بعد رؤية بوارق العذاب لا يفيد صاحبه، مثل الإيمان عند الغرغرة ومثل الإيمان عند طلوع الشمس من مغربها.

{ **سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ** } انتصب { سُنَّتَ اللَّهِ } على النيابة عن المفعول المطلق لأنّ { سُنَّتَ } اسم مصدر السنّ، وهو آت بدلالة من فعله، والتقدير: سن الله ذلك سنة.

فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا لسؤال من يسأل لماذا لم ينفعهم الإيمان وقد آمنوا؟ فالجواب أنّ ذلك تقدير قدَّره الله للأمم السالفة أعلمهم به وشرطه عليهم، فهي قديمة في عباده، لا ينفع الكافر الإيمان إلّا قبل ظهور البأس. ولم يستثن من ذلك إلّا قوم يونس قال تعالى { فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [يونس:98].

وهذا حكم الله في البأس بمعنى العقاب الخارق للعادة والذي هو آية بيّنة، فأمَّا البأس الذي هو معتاد والذي هو آية خفيّة مثل عذاب بأس السيف الذي نصر الله به رسوله يوم بدر ويوم فتح مكة، فإنّ من يؤمن عند رؤيته مثل أبي سفيان بن حرب حين رأى جيش الفتح، أو بعد أن ينجو منه مثل إيمان قريش يوم الفتح بعد رفع السيف عنهم، فإيمانه كامل.

{ **وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** } كالفذلكة لقوله { فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا }، وبذلك آذنت بانتهاء الغرض من السورة.

{ **هُنَالِكَ** } اسم إشارة إلى مكان، استعير للإشارة إلى الزمان، أي: خسروا وقت رؤيتهم بأسنا، إذ انقضت حياتهم وسلطانهم وصاروا إلى ترقّب عذاب خالد مستقبل.

{ **الْكَافِرُونَ** } العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر إيماء إلى أنّ سبب خسرانهم هو الكفر بالله، وذلك إعذار للمشركين من قريش.

أسلوب سورة غافر

*/ أسلوبها أسلوب المحاجّة والاستدلال على صدق القرآن وأنّه منزّل من عند الله، وإبطال ضلالة المكذِّبين وضرب مثلهم بالأمم المكذبة، وترهيبهم من التمادي في ضلالهم وترغيبهم في التبصر ليهتدوا.

*/ افتتحت بالحرفين المقطعين من حروف الهجاء لأنّ أول أغراضها أنّ القرآن من عند الله، ففي حرفي الهجاء رمز إلى عجزهم عن معارضته. وفي ذلك الافتتاح تشويق إلى تطلع ما يأتي بعده للاهتمام به.

*/ وكان في الصفات التي أجريت على اسم منزِّل القرآن إيماء إلى أنّه لا يشبه كلام البشر، لأنّه كلام العزيز العليم، وإيماء إلى تيسير إقلاعهم عن الكفر، وترهيب من العقاب على الإصرار، وذلك كلّه من براعة الاستهلال.

*/ ثم تخلّص من الإماء والرمز إلى صريح وصف ضلال المعاندين وتنظيرهم بسابقيهم من الأمم التي استأصلها الله.

*/ وخُصَّ بالذكر أعظم الرسل السالفين وهو موسى مع أمّة من أعظم الأمم السالفة وهم أهل مصر، وأطيل ذلك لشدّة مماثلة حالهم لحال المشركين من العرب في الاعتزاز بأنفسهم، وفي قلة المؤمنين منهم.

*/ وتخلّل ذلك ثبات موسى وثبات مؤمن آل فرعون، إيماء إلى التنظير بثبات محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر.

*/ ثم انتقل إلى الاستدلال على الوحدانية وسعة القدرة على إعادة الأموات.

*/ ختمت بذكر أهل الضلال من الأمم السالفة الذين أوبقهم الإعجاب برأيهم وثقتهم بجهلهم فصمَّت آذانهم عن سماع حجج الحق، وأعمالهم عن النظر في دلائل الكون، فحسبوا أنّهم على كمال لا ينقصهم ما به حاجة إلى الكمال، فحاق بهم العذاب، وفي هذا رد العجز على الصدر.

*/ وخوَّف الله المشركين من الانزلاق في مهواة الأوّلين بأنّ سنة الله في عباده الإمهال ثم المؤاخذة.

*/ فكان ذلك كلمة جامعة للغرض أذنت بانتهاء الكلام فكانت محسِّن الختام.

*/ وتخلّل في ذلك كلّه من المستطردات والانتقالات بذكر ثناء الملأ الأعلى عل المؤمنين وردّهم على الكافرين، وذكر ما هم صائرون إليه من العذاب والندامة، وتمثيل الفارق بين المؤمنين والكافرين، وتشويه حال الكافرين في الآخرة، وتثبيت المؤمنين على إيمانهم وأنّ الله ناصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة، وأمرهم بالصبر والتوكّل، وأنّ شأن الرسول صلى الله عليه وسلم كشأن الرسل من قبله في لقيان التكذيب، وفي أنّه يأتي بالآيات التي أجراها الله على يديه دون مقترحات المعاندين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فصّلت

تسمّى (**حم السجدة**)، وبذلك تُرجمت في صحيح البخاري وفي جامع الترمذي، لأنّها تميَّزت عن السور المفتتحة بحروف حم بأنّ فيها سجدة من سجود القرآن.

وسُمِّيت في معظم مصاحف المشرق والتفاسير (**سورة السجدة**)، وهو اختصار قولهم (حم السجدة).

وسُمِّيت في كثير من التفاسير (**سورة فصِّلت**)، وبذلك اشتهرت في تونس والمغرب لوقوع كلمة { فُصِّلَتْ آيَاتُهُ } في أوّلها فعُرِّفت بها.

وهي **مكية بالاتفاق**، نزلت بعد سورة غافر وقبل سورة الزخرف.

و**عُدَّت** الحادية والستين في ترتيب نزول السور.

و**عُدَّت آيها** عند أهل المدينة وأهل مكة ثلاثا وخمسين، وعند أهل الشام والبصرة اثنتين وخمسين، وعند أهل الكوفة أربع وخمسين.

أغراض السورة

*/ التنويه بالقرآن والإشارة إلى عجزهم عن معارضته. وذكر هديه، وأنّه معصوم من أن يتطرقه الباطل.

*/ إبطال مطاعن المشركين فيه وتذكيرهم بأنّ القرآن نزل بلغتهم فلا عذر لهم أصلا في عدم انتفاعهم بهديه.

*/ زجر المشركين وتوبيخهم على كفرهم بخالق السماوات والأرض، مع بيان ما في خلقها من الدلائل على تفرّده بالإلهية.

*/ إنذارهم بما حلّ بالأمم المكذّبة من عذاب الدنيا ووعيدهم بعذاب الآخرة، وشهادة سمعهم وأبصارهم وأجسادهم عليهم، وتحذيرهم من القرناء المزيِّنين لهم الكفر، من الشياطين والناس، وأنّهم سيندمون يوم القيامة على اتباعهم، وقوبل ذلك بما للموحِّدين من الكرامة عند الله.

*/ أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بدفعهم بالتي هي أحسن وبالصبر عليهم، وأن يستعيذ بالله من الشيطان.

*/ ذكرت دلائل تفرّد الله بخلق المخلوقات العظيمة كالشمس والقمر. ودلائل إمكان البعث وأنّه واقع لا محالة ولا يعلم وقته إلّا الله تعالى.

*/ تثبيت النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتأييد الله إيَّاهم بتنزّل الملائكة بالوحي، وبالبشارة للمؤمنين.

*/ تخلل ذلك أمثال مختلفة في ابتداء خلق العوالم وعِبَر في تقلّبات أهل الشرك.

*/ التنويه بإيتاء الزكاة.

{ **حم** } [1].

القول في الحروف الواقعة فاتحة هذه السورة كالقول في مثيلاتها.

{ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [2] كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [3] بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ [4] }.

{ **تَنْزِيلٌ** } مبتدأ سوَّغ الابتداء به ما في التنكير من معنى التعظيم، فكانت بذلك كالموصوفة. و{ **مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** } خبر عنه. وقوله { **كِتَابٌ** } بدل من { تَنْزِيلٌ }، فحصل من المعنى: أنّ التنزيل من الله كتاب، وأنّ صفته فصّلت آياته، موسوما بكونه قرآنا عربيا، فحصل من هذا الأسلوب: أنّ القرآن منزَّل من الرحمان الرحيم مفصَّلا عربيا.

ولك أن تجعل قوله { مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } في موضع الصفة للمبتدأ وتجعل قوله { كِتَابٌ } خبر المبتدأ.

وعلى كلا التقديرين هو أسلوب فخم، وقد مضى مثله في قوله { المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ } [الأعراف:2/1].

الكتاب: اسم لمجموع حروف دالة على ألفاظ مفيدة، وسُمِّي القرآن كتابا لأنّ الله أوحى بألفاظه وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يكتب ما أحي إليه، ولذلك اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم كُتَّابا يكتبون له كلّ ما ينزل عليه من القرآن.

{ **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** } إيثار هذين الصفتين على غيرهما من الصفات العليَّة للإيماء إلى أنّ هذا التنزيل رحمة من الله بعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور، كقوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الانبياء:107]. وقوله تعالى { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [العنكبوت:51].

والجمع بين الصفتين للإيماء إلى أنّ الرحمة صفة ذاتية لله تعالى، وأنّ متعلّقها منتشر في المخلوقات، كما تقدّم في أوّل سورة الفاتحة والبسملة. وفي ذلك إيماء إلى استحماق الذين أعرضوا عن الاهتداء بهذا الكتاب بأنّهم أعرضوا عن رحمة، وأنّ الذين اهتدوا به هم أهل المرحمة لقوله بعد ذلك { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً } [44].

{ **فُصِّلَتْ آيَاتُهُ** } بُيّنت، و**التفصيل**: التبيين والإخلاء من الالتباس. والمراد: أنّ آيات القرآن واضحة الأغراض لا تلتبس إلّا على مكابر في دلالة كلّ آية على المقصود منها، وفي مواقعها، وتمييز بعضها عن بعض في المعنى باختلاف فنون المعاني التي تشتمل عليها، وقد تقدّم شيء من هذا في [هود:1].

{ **قُرْآناً عَرَبِيّاً** } ومن كمال تفصيله أنّه كان بلغة كثيرة المعاني، واسعة الأفنان، فصيحة الألفاظ، فكانت سالمة

من التباس الدلالة، وانغلاق الألفاظ، مع وفرة المعاني غير المتنافية في قلة التراكيب، فكان وصفه بأنّه عربي من مكمّلات الإخبار عنه بالتفصيل.

وقد تكرّر التنويه بالقرآن من هذه الجهة كقوله تعالى { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } [الشعراء:195]، ولهذا فُرّع عليه ذمّ الذين أعرضوا عنه بقوله هنا { فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ } وقوله هنالك { كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ } [الشعراء:201].

القرآن: الكلام المقروء المتلو. وكونه قرآنا من صفات كماله، وهو أنّه سهل الحفظ، سهل التلاوة، كما قال تعالى { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ } [القمر:22]. ولذلك كان شأن الرسول صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن عن ظهر قلب، وكان شأن المسلمين اقتداء به في ذلك على حسب الهمم والمَكْنَات، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يشير إلى تفضيل المؤمنين بما عندهم من القرآن. وكان يوم أُحُد يقدّم في لحد شهدائه من كان أكثرهم أخذا للقرآن، تنبيها على فضل حفظ القرآن زيادة على فضل تلك الشهادة.

{ **قُرْآنًا** } انتصب على النعت المقطوع للاختصاص بالمدح وإلّا لكان مرفوعا على أنّه خبر ثالث أو صفة للخبر الثاني.

{ **لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } صفة لـ { قُرْآنًا } ظرف مستقر، أي: كائنا لقوم يعلمون، باعتبار ما أفاده قوله تعالى { قُرْآناً عَرَبِيّاً } من معنى وضوح الدلالة وسطوع الحجّة. أو يتعلق بقوله { تَنْزِيلٌ } أو بقوله { فُصِّلَتْ آيَاتُهُ } على معنى أنّ فوائد تنزيله وتفصيله لقوم يعلمون دون غيرهم، أي: فلا بدع إذا أعرض عن فهمه المعاندون فإنّهم قوم لا يعلمون، وهذا كقوله تعالى { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } [العنكبوت: 49].

البشير: اسم للمبشِّر، وهو المخبِر بخبر يسر المخبَر. و**النذير**: المخبِر بأمر مَخُوف.

شُبِّه القرآن بالبشير فيما اشتمل عليه من الآيات المبشّرة للمؤمنين الصالحين، وبالنذير فيما فيه من الوعيد للكافرين وأهل المعاصي، فالكلام تشبيه بليغ.

{ **وَنَذِيراً** } جيء به معطوفا بـ (الواو) للتنبيه على اختلاف موقع كل من الحالين، فهو بشير لقوم وهم الذين اتبعوه ونذير لآخرين، وهم المعرضون عنه، وليس هو جامعا بين البشارة والنذارة لطائفة واحدة.

{ **فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ** } تفريع على ما ذُكر من صفات القرآن. وضمير { أَكْثَرُهُمْ } عائد إلى معلوم من المقام وهم المشركون، كما هي عادة القرآن في غير موضع. والمعنى: فأعرض أكثر هؤلاء عمّا في القرآن من الهدى فلم يهتدوا، ومن البشارة فلم يعنوا بها، ومن النذارة فلم يحذروها.

وليس عائدا { لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } لأنّ الذين يعلمون لا يعرض أحد منهم.

{ **فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ** } الفاء للتفريع على الإعراض، أي: فهم لا يلقون أسماعهم للقرآن فضلا عن تدبّره، وهذا إجمال لإعراضهم. وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي، لإفادة تقوّي الحكم وتأكيده.

{ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ } [5].

الآية عطف على { فَأَعْرَضَ } أو حال من { أَكْثَرُهُمْ }، والمعنى: أنّهم أعرضوا مصرّحين بقلة الاكتراث وبالانتصاب للجفاء والعداء. وهذا تفصيل للإعراض عمّا وُصِف به القرآن من الصفات التي شأنها أن تقرّبهم إلى تلقّيه لا أن يعرضوا.

{ **وَقَالُوا** } وهذا القول المحكي عنهم يحتمل أن يكون القرآن حكاه عنهم بالمعنى، فجمع القرآن بإيجازه وبلاغته ما أطالوا به الجدال وأطنبوا في اللجاج، ويحتمل أنّه حكاه بلفظهم فيكون ممّا قاله أحد بلغائهم، ويحتمل أن يكونوا تلقفوه ممّا سمعوه في القرآن من وصف قلوبهم وسمعهم وتباعدهم، كقوله تعالى { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً } [الإسراء:25]، فإنّ سورة الإسراء معدودة في النزول قبل سورة فصّلت، وكذلك قوله تعالى { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً } [الاسراء:45]، فجمعوا ذلك وجادلوا به الرسول. فيكون ما في هذه الآية من البلاغة قد اقتبسوه من آيات أخرى. وقيل: إنّ قائله أبو جهل في مجمع من قريش.

{ **قُلُوبُنَا** } العقول، حكي بمصطلح كلامهم، إذ يطلقون القلب على العقل.

الأكنّة: جمع كنان مثل: غطاء وأغطية وزنًا ومعنًى. شُبّهت القلوب بالأشياء المغطّاة على طريقة الاستعارة المكنية. ووجه الشبه حيلولة وصول الدعوة إلى عقولهم كما يحول الغطاء والغلاف دون تناول ما تحته.

{ **مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ** } يعمّ كلّ ما دعاهم إليه من المدلولات وأدلّتها. و{ من } هنا بمعنى (عن) مثل قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ } [الزمر:22]، وقوله تعالى { قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا } [الانبياء:97].

{ **وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ** } جُعل الوقر في الآذان لإفادة قوّة المعنى. وكذلك جُعلت القلوب في أكنة لإفادة حرف (في) معنى إحاطة الظرف بالمظروف

الوَقر: (بفتح الواو) ثقل السمع وهو الصَّمَمُ، وكأنّ اللغة أخذته من **الوِقر** (بكسر الواو)، وهو الحمل، لأنّه يثقل الدابة عن التحرّك، فأطلقوه على عدم تحرك السمع عند قرع الصوت المسموع، وشاع ذلك حتى ساوى الحقيقة ففتحوا له الواو تفرقة بين الحقيقة والمجاز. وتقدّم ذكر الأكنة والوقر في قوله تعالى { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً } [الأنعام:25] وفي [الإسراء:46].

{ **وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ** } اجتلاب حرف { من } لتقوية معنى الحجب بين الطرفين وتمكّن لازمه الذي هو بعد المسافة التي بين الطرفين.

الحجاب: الساتر للمرئي من حائط أو ثوب. أطلقوا اسم الحجاب على ما يمنع نفوسهم أن يأخذوا بالدين الذي

جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم من كراهية دينه وتجافي تقلده.

{ **أَكِنَّةٍ - وَقْرٌ - حِجَابٌ** } جمعوا بين الحالات الثلاث في التمثيل للمبالغة في أنّهم لا يقبلون ما يدعوهم إليه.

{ **فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ** } تفريع على تأييسهم الرسول من قبولهم دعوته. وحذف مفعولا (اعمل / عاملون) ليعمّ كلّ ما يمكن عمله. والأمر مستعمل في التسوية. كقوله تعالى { اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [40]. والخبر مستعمل في التهديد.

{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ [6] الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ [7] }.

{ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ** } استئناف ابتدائي هو تلقين الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجيب قولهم { فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ } [5] المفرَّع على قولهم { قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ }، جوابَ المتبرئ من أن يكون له حول وقوّة ليعمل في إلجائهم إلى الإيمان لمّا أَبَوْه، إذ ما هو إلّا بشر مثلهم، وما عليه إلّا أن يبلّغهم ما أوحى الله إليه.

{ **إِنَّمَا أَنَا** } صيغة القصر تفيد قصرا إضافيا، أي: أنا مقصور على البشرية دون التصرّف في قلوب الناس.

{ **يُوحَى إِلَيَّ** } بيَّن ما تميّز به عنهم على وجه الاحتراس من أن يتلقّفوا قوله { إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ } تلقف من حصل على اعتراف خصمه بنهوض حجّته. والاحتراس لإبطال زعمهم المشهور المكرّر أنّ كونه بشرا مانع من إرساله عن الله تعالى، كقولهم { مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً } [الفرقان: 7]، ونحوه ممّا تكرّر في القرآن.

ونظير هذا الاحتراس ما حكاه الله عن قول الكفّار لرسلهم { إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } [ابراهيم:11/10].

{ **أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** } وحرصا على إبلاغ الإرشاد إليهم بيَّن لهم ما يوحى إليه، إعادة لما أبلغهم إيّاه غير مرة. إدماج للدعوة إلى الحقّ في خلال الجواب.

{ **فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ** } إتمام لذلك الإدماج بتفريع فائدته عليه، لأنّ إثبات أنّ الله إله واحد إنّما يُقصد منه إفراده بالعبادة ونبذ الشرك.

الاستقامة: كون الشيء قويما، أي: غير ذي عوج. وتطلق مجازا على كون الشيء حقًّا خالصا، ليست فيه شائبة تمويه ولا باطل. وعلى كون الشخص صادقا في معاملته أو عهده غير خالط به شيئا من الحيلة أو

الخيانة، فيقال: فلان رجل مستقيم، أي: صادق الخلق، وإن أريد صدقة مع غيره يقال: استقام له، أي: استقام لأجله، أي: لأجل معاملته منه. ومنه قوله تعالى { فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ } [التوبة:7].

أو ضمِّن { **فَاسْتَقِيمُوا** } معنى: أنيبوا، أي: توبوا من الشرك، كما دلّ عليه عطف { واستغفروه }.

الاستغفار: طلب العفو عمّا فرط من ذنب أو عصيان، وهو مشتق من الغفر وهو الستر.

المعنى: فاخلصوا إلى الله في عبادته ولا تشركوا به غيره واسألوا منه الصفح عمّا فرط منكم من الشرك.

{ **وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** } وعيد للمشركين بسوء الحال والشقاء في الآخرة. يجوز أن يكون من جملة القول الذي أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقوله، فهو معطوف على جملة { إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ }، ويجوز أن يكون كلاما معترضا من جانب الله تعالى، بين جملة { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ } وجملة { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ } [9]، أي: أجبهم بقولك: أنا بشر مثلكم يوحي إلي، ونحن أعتدنا لهم الويل والشقاء إن لم يقبلوا ما تدعوهم إليه، فيكون هذا إخبارا من الله تعالى.

{ **الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** } فأمّا كون الشرك وإنكار البعث موجبين للويل فظاهر، وأمّا كون عدم إيتاء الزكاة موجبا للويل فذلك لأنّه حمَّل عليهم ما قارن الإشراك وإنكار البعث من عدم الانتفاع بالأعمال التي جاء بها الإسلام. وذكر ذلك هنا لتشويه كفرهم وتفظيع شركهم وكفرانهم بالبعث بأنّهما يدعوانهم إلى منع الزكاة، أي: إلى القسوة على الفقراء الضعفاء وإلى الشحّ بالمال، وكفى بذلك تشويها في حكم الأخلاق وحكم العرف فيهم، لأنّهم يتعيَّرون بالبخل.

ويعلم من هذا أنّ مانع الزكاة من المسلمين له حظّ من الويل الذي استحقّه المشركون لمنعهم الزكاة في ضمن شركهم، ولذلك رأي أبو بكر قتال مانعي الزكاة ممّن لم يرتدوا عن الإسلام، ووافقه جميع أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم.

الزَّكَاةَ في الآية هي الصدقة، إذ لم تكن يومئذ زكاة مفروضة في الإسلام غير الصدقة دون تعيين نُصُب ولا أصناف، وكانت الصدقة مفروضة على الجملة، ولبعض الصدقة ميقات، وهي الصدقة قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً } [المجادلة:12].

{ **وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** } إمّا حال من ضمير { يؤتون } وإمّا معطوفة على الصلة.

وضمير الفصل لا يفيد هنا إلّا توكيد الحكم، ويشبه أن يكون هنا توكيدا لفظيا لا ضمير فصل، ومثله قوله تعالى { وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } [يوسف:37]، وقوله تعالى { إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ } [طه:14].

{ **بِالْآخِرَةِ** } تقديمه على متعلقه لإفادة الاهتمام.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } [8].
استئناف بياني نشأ عن الوعيد الذي توعّد به المشركون بعد أن أمروا بالاستقامة إلى الله واستغفاره عمّا فرط منهم، كأنّ سائلا يقول: فإن اتعظوا وارتدعوا فماذا يكون جزاؤهم، فأفيد ذلك وهو أنّهم حينئذ يكونون من زمرة المؤمنين، وفي هذا تنويه بشأن المؤمنين.
الأجر: الجزاء النافع، عن العمل الصالح، أو هو ما يعطونه من نعيم الجنّة. وتقديم **{ لَهُمْ }** للاهتمام بهم.
الممنون: مفعول من المنّ، وهو ذكر النعمة للمنعَم عليه بها. وذلك كناية عن كونهم أعطوه شكرا لهم على ما أسلفوه من عمل صالح، فإنّ الله غفور شكور، يعني: أنّ الإنعام عليهم في الجنة ترافقه الكرامة، والثناء فلا يحسّون بخجل العطاء، فأجرهم بمنزلة الشيء المملوك لهم الذي لم يعطيه إيّاهم أحد، وذلك تفضل من الله.

{ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [9].
استئناف ابتدائي ثان هو جواب ثان عن مضمون قولهم { إِنَّنَا عَامِلُونَ } [5]. فبعد أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب المشركين بأنّه بشر يوحى إليه فما يملك إلجاءهم إلى الإيمان أمره عقب ذلك بمعاودة إرشادهم إلى الحقّ على طريقة الاستفهام عن كفرهم بالله، مدمجا في ذلك تذكيرهم بالأدلة الدالة على أنّ الله واحد، بطريقة التوبيخ على إشراكهم به في حين وضوح الدلائل على انفراده بالخلق واتصافه بتمام القدرة.
{ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ } همزة الاستفهام المفتتح بها الكلام مستعملة في التوبيخ، كقوله تعالى { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ } [البقرة:28]. وفي الافتتاح بالاستفهام وحرفي التوكيد تشويق لتلقّي ما بعد ذلك، لدلالة ذلك على أنّ أمرا مهما سيلقى إليهم، وليكون الإنكار لأمر محقّق، وهو هنا مبني على أنّهم يحسبون أنّهم مهتدون.
وصيغة المضارع لإفادة تجدّد كفرهم وإصرارهم مع سطوع الأدلة التي تقتضي الإقلاع عنه.
{ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } أدمج في هذا الاستدلال بيان خلق هذه العوالم، فمحلّ الاستدلال هو صلة الموصول، وأمّا ما تعلّق بها فهو إدماج.
{ الْأَرْضَ } هي الكرة الأرضية بما فيها من يابس وبحار، أي: خلق جرمها.
{ فِي يَوْمَيْنِ } تثنية يوم، وهو الحصة التي بين طلوع الشمس من المشرق وطلوعها ثانية. والمراد: في مدّة تساوي يومين ممّا عرفه الناس بعد خلق الأرض، لأن النور والظلمة اللذان يقدّر اليوم بظهورهما على الأرض لم يظهرا إلّا بعد خلق الأرض، وتقدّم ذلك في [الأعراف:54].
وابتدئ بذكر خلق الأرض لأن آثاره أظهر للعيان وهي في متناول الإنسان، فلا جرم أن كانت الحجّة عليهم بخلقها أسبق نهوضا. ولأنّ النعمة بما تحتوي عليه الأرض أقوى وأعمّ، فيظهر قبح الكفر أوضح وأشنع.

{ **وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً** } عطف على { **لَتَكْفُرُونَ** } تفسيرٌ لكفرهم بالله.

الأنداد: جمع ندّ (بكسر النون) وهو المثل. والمراد: أنداد في الإلهية.

{ **ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ** } إشارة إلى { بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } وفيه إيماء إلى بلادة رأيهم إذ لم يتفطّنوا إلى أنّ الذي خلق الأرض هو رب العالمين، ولا إلى أنّ ربوبيته تقتضي انتفاء الند والشريك.

والجملة معترضة بين المعطوفات على الصلة.

{ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ } [10].

صلة ثانية في المعنى، ولذلك جيء بفعل آخر غير فعل { خَلَقَ }، لأنّ هذا الجعل تكوين آخر حصل بعد خلق الأرض، وهو خلق أجزاء تتصل بها إمّا من جنسها كالجبال، وإمّا من غير جنسها كالأقوات، ولذلك أعقب بقوله { فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ } بعد قوله { فِي يَوْمَيْنِ }.

الرواسي: الثوابت، وهو صفة للجبال. وحذف الموصوف لدلالة الصفة عليه، كقوله تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ } [الشورى:32] أي: السفن الجواري. وتقدّم عند قوله تعالى { وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ } [الانبياء:31].

{ **مِنْ فَوْقِهَا** } لاستحضار الصورة الرائعة لمناظر الجبال، فمنها المجلّل بالخضرة أو المكسو بالثلوج، ومنها رهيب المرأى، مثل البراكين ، ومنها السود، وهي الغنية بالمعادن.

{ **وَبَارَكَ فِيهَا** } جعل فيها البركة. و**البركة**: الخير النافع، وفي الأرض خيرات كثيرة فيها رزق الإنسان وماشيته، وفيها التراب والحجارة والمعادن، وكلّها بركات.

{ **وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ** } جعل قدرا، أي مقدارا، قال تعالى { قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً } [الطلاق:3]. والمقدار: النصاب المحدود بالنوع أو الكمية. أي: أنّه خلق في الأرض القوى التي تنشأ منها الأقوات وخلق أصول أجناس الأقوات وأنواعها من الحب للحبوب، والكلأ والكمأة، والنوى للثمار، والحرارة التي يتأثّر بها تولّد الحيوان. ومن التقدير: تقدير كل نوع بما يصلح له من الأوقات من حر أو برد أو اعتدال.

{ **أَقْوَاتَهَا** } جمع الأقوات مضافا إلى ضمير الأرض يفيد العموم، أي: جميع أقواتها وعمومه باعتبار تعدد المقتاتين، فللدواب أقوات، وللطير أقوات، وللزواحف أقوات، وللحشرات أقوات، وجعل للإنسان جميع تلك الأقوات ممّا استطاب منها، كما في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً } [البقرة:29].

{ **فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ** } فذلكة لمجموع مدّة خلق الأرض جرمها، وما عليها من رواسي، وما فيها من القوى، فدخل في هذه الأربعة الأيام اليومان اللذان في قوله { فِي يَوْمَيْنِ }، فكأنه قيل: في يومين آخرين فتلك أربعة

أيام. واعتمادا على ما يأتي بعده من قوله { فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} [12]، فلو كان اليومان اللذان قضى فيهما خلق السماوات زائدين على ستة أيام انقضت في خلق الأرض وما عليها لصار مجموع الأيام ثمانية.

{ **سَوَاءً** } قرأه الجمهور بالنصب على الحال من { أيام }، أي: كاملة لا نقص فيها ولا زيادة. وقرأه أبو جعفر مرفوعا على الابتداء بتقدير: هي سواء. وقرأه يعقوب مجرورا على الوصف لـ { أيام }.

{ **لِلسَّائِلِينَ** } يتنازعه كل من أفعال {جَعَلَ - بَارَكَ - قَدَّرَ } فيكون جمع سائل بمعنى الطالب للمعرفة، ويجوز أن يتعلّق بمحذوف، أي: بيَّنَّا ذلك للسائلين، ويجوز أن يكون متعلّقا بفعل { قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا } فيكون المراد بالسائلين الطالبين للقوت.

{ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } [11].

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي، وهي تدلّ على أنّ مضمون الجملة المعطوفة أهم مرتبة من مضمون الجملة المعطوف عليها، فإنّ خلق السماوات أعظم من خلق الأرض، وعوالمها أكثر وأعظم.

وليس هذا بمقتض أنّ الإرادة تعلّقت بخلق السماء بعد تمام خلق الأرض، ولا مقتضيا أنّ خلق السماء وقع بعد خلق الأرض كما سيأتي.

الاستواء: القصد إلى الشيء توًّا لا يعترضه شيء آخر. وهو تمثيل لتعلّق إرادة الله تعالى بإيجاد السماوات. وتقدّم في قوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } [البقرة:29].

الدخان: ما يتصاعد من الوَقود عند التهاب النار فيه.

{ **وَهِيَ دُخَانٌ** } تشبيه بليغ، أي: وهي مثل الدخان، وقد ورد في الحديث: " **أنّها كانت عماء** ". والعماء سحاب رقيق، أي: رطوبة دقيقة، وهو تقريب للعنصر الأصلي الذي خلق الله منه الموجودات.

أي: أن السماء كُوِّنت من ذلك الدخان، فتكون مادة السماء موجودة قبل وجود الأرض.

{ **فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ** } تفريع على فعل { اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ }، فيكون القول موجّها إلى السماء والأرض حينئذ، أي: قبل خلق السماء لا محالة وقبل خلق الأرض، لأنّه جعل القول لها مقارنا القول للسماء، وهو قول تكوين. أي: تعلّق القدرة بمادة تكوينهما.

{ **ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً** } الإتيان أصله المجيء والإقبال، ولمّا كان معناه الحقيقي غير مراد، لأنّ السماء والأرض لا يُتصوّر أن يأتيا، ولا يُتصوّر منهما طواعية أو كراهية، إذ ليستا من أهل العقول والادراكات، ولا يُتصوّر أنّ الله يُكرههما على ذلك، تعيّن الصرف عن المعنى الحقيقي وذلك بأحد وجهين:

الوجه الأول: أن يكون الإتيان مستعارا لقبول التكوين كما استعير للعصيان الإدبار في قوله تعالى { ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى } [النازعات:22]، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لمسيلمة حين امتنع من الإيمان والطاعة في وفد قومه بني حنيفة: **" لئن أدبرت ليعقرنّك الله "**، وكما يستعار النفور والفرار للعصيان.

أي: امتثلا أمر التكوين. وهذا الامتثال مستعار للقبول وهو من بناء المجاز على المجاز.

{ **طَوْعاً أَوْ كَرْهاً** } كناية عن عدم البُدِّ من قبول الأمر، وهو تمثيل لتمكّن القدرة من إيجادهما على وفق إرادة الله تعالى. فالكلمة جارية مجرى الأمثال.

الوجه الثاني: أن تكون الجملة مستعملة تمثيلا لهيئة تعلّق قدرة الله تعالى لتكوين السماء والأرض لعظمة خالقهما بهيئة صدور الأمر من آمر مطاع للعبد المأذون بالحضور لعمل شاق. فلا قول ولا مقول، وإنّما هو تمثيل، ويكون { طَوْعاً أَوْ كَرْهاً } على هذا من تمام الهيئة المشبّهة.

والمقصود على كلا الاعتبارين تصوير عظمة القدرة الإلهية ونفوذها في المقدورات دقَّت أو جلَّت.

{ **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** } يجوز أن يكون القول مستعارا للدلالة على سرعة تكوّنهما. ويجوز أن يكون تمثيلا لهيئة تكوّن السماء والأرض عند تعلّق قدرة الله تعالى بتكوينهما بهيئة المأمور بعمل تقبّله عن طواعية.

{ **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** } [12].

{ **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ** } تفريع على قوله تعالى { فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا }.

القضاء: الإيجاد الإبداعي لأنّ فيه معنى الإتمام والحكم، فهو يقتضي الابتكار والإسراع.

{ **سَبْعَ سَمَاوَاتٍ** } انتصب على أنّه حال من ضمير { فَقَضَاهُنَّ } أو عطف بيان له، ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا لتضمين { فَقَضَاهُنَّ } معنى صيّرهنّ، وهذا كقوله تعالى { فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } [البقرة:29].

وكان خلق السماوات في يومين قبل أربعة الأيام التي خلقت فيها الأرض وما فيها. وقد بيَّنَّا في سورة البقرة أنّ الأظهر أن خلق السماء كان قبل خلق الأرض. وليس في هذه الآية ما يقتضي ذلك.

{ **وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا** } الوحي: الكلام الخفي.

ويطلق على حصول المعرفة في نفس من يراد حصولها عنده دون قول، ومنه قوله تعالى حكاية عن زكريا { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ } [مريم:11]، أي: أومأ إليهم بما دل على معنى: سبحوا بكرة وعشيا.

ويطلق على إلهام الله تعالى المخلوقات لما تتطلّبه ممّا فيه صلاحها، كقوله تعالى { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً } [النحل:68]، أي: جبلها على إدراك ذلك وتطلّبه.

ويطلق على تسخير الله تعالى بعض مخلوقاته لقبول أثر قدرته، كقوله تعالى { إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا - إلى قوله - بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا } [الزلزلة:1-5].

{ **وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ** } يقع على جميع تلك المعاني من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازاته، فهو أوحى في السماوات بتقدير نظم جاذبيتها، وتقادير سير كواكبها، وأوحى فيها بخلق الملائكة فيها، وأوحى إلى الملائكة بما يتلقّونه من الأمر بما يعملون، قال تعالى { وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } [الانبياء:27].

{ **أَمْرَهَا** } بمعنى شأنها، وهو يصدق بكل ما هو من ملابساتها من سكّانها وكواكبها وتماسك جرمها. وذلك مقابل قوله في خلق الأرض { وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا } [10].

{ **وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً** } التفات من طريق الغيبة إلى طريق التكلّم تجديدا لنشاط السامعين لطول استعمال طريق الغيبة ابتداء من قوله تعالى { بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } [9]، مع إظهار العناية بتخصيص هذا الصنع الذي ينفع الناس دينا ودنيا، وهو خلق النجوم الدقيقة والشهب.

المصابيح: جمع مصباح، وهو ما يوقد بالنار في الزيت للإضاءة، وهو مشتق من الصباح لأنّهم يحاولون أن يجعلوه خلفا عن الصباح. والمراد بالمصابيح: النجوم، استعير لها المصابيح لما يبدو من نورها.

{ **وَحِفْظاً** } انتصب على أنّه مفعول لأجله لفعل محذوف دلّ عليه فعل { زيَّنّا }. والتقدير: وجعلناها حفظا. والمراد: حفظا للسماء من الشياطين المسترقة للسمع. وتقدّم الكلام على نظيره في [الصافات:7].

{ **ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** } الإشارة إلى المذكور من قوله { وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا } [10] إلى هنا.

التقدير: وضع الشيء على مقدار معين، وتقدّم نظيره في [يس:38].

{ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ [13] إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [14] }.

{ **فَإِنْ أَعْرَضُوا** } أي: إن استمروا على إعراضهم بعد ما هديتهم بالدلائل البيّنة وكابروا فيها. فالفعل مستعمل في معنى الاستمرار.

الإنذار: التخويف، وهو هنا تخويف بتوقّع عقاب مثل عقاب الذين شابهوهم في الإعراض خشية أن يحلّ بهم ما حل بأولئك، بناء على أن المعروف أن تجري أفعال الله على سَنن واحد.

وليس هو وعيدا، لأنّ قريشا لم تصبهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، وإن كانوا قد ساوَوْهما في التكذيب والإعراض، وفي التعلّلات التي تعلّلوا بها، مثل قولهم { لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً } [المؤمنون:24].

الصاعقة: حقيقتها نار تخرج مع البرق تحرق ما تصيبه، وتقدّم ذكرها في قوله تعالى { يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ } [البقرة:19]. وتطلق على الحادثة الكبيرة سريعة الإهلاك.

{ **مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** } لمّا أضيفت صاعقة هنا إلى عاد وثمود، وعاد لم تهلكهم الصاعقة وإنّما أهلكهم الريح وثمود هم الذين أهلكوا بالصاعقة، فقد استعمل الصاعقة هنا في حقيقته ومجازه، أو هو من عموم المجاور، والمقتضي لذلك، على الاعتبارين، قصد الإيجاز، وليقع الإجمال ثم التفصيل بعد بقوله { فَأَمَّا عَادٌ - إلى قوله - بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [17].

{ **إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ** } و(إِذْ) ظرف للماضي، أي: مثل صاعقتهم حين جاءتهم الرسل. روى ابن إسحاق في سيرته أنّ عتبة بن ربيعة كلّم النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من خلاف قومه فتلا عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم { حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } حتّى بلغ قوله تعالى { فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً } [13]، فأمسك عتبة على فم النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال له: ناشدتك الله والرحم.

{ **جَاءَتْهُمُ** } الضمير عائد إلى عاد وثمود باعتبار عدد كل قبيلة منهما.

{ **الرُّسُلُ** } الجمع هنا من باب إطلاق صيغة الجمع على الاثنين، مثل قوله تعالى { فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا } [التحريم:4]، والقرينة واضحة، وهو استعمال غير عزيز، وإنّما جاءهم رسولان هود وصالح.

{ **مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ** } تمثيل لحرص رسول كلّ منهم على هداهم بحيث لا يترك وسيلة يتوسّل بها إلى إبلاغهم الدين إلّا توسّل بها. فمثّل ذلك بالمجيء إلى كل منهم تارة من أمامه وتارة من خلفه لا يترك له جهة، كما يفعل الحريص. وهذا التمثيل نظير الذي في قوله تعالى حكاية عن الشيطان { ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ } [الأعراف:17].

وإنّما اقتصر في هذه الآية على جهتين ولم تستوعب الجهات الأربع كما مثّل حال الشيطان في وسوسته لأنّ المقصود هنا تمثيل الحرص فقط وقد حصل، والمقصود في الحكاية عن الشيطان تمثيل الحرص مع التلهّف، تحذيرا منه وإثارة لبغضه في نفوس الناس.

{ **أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ** } تفسير لجملة { جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ } لتضمن المجيء معنى الإبلاغ بقرينة كون فاعل المجيء متّصفا بأنّهم رسل.

{ **قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** } حكاية جواب عاد وثمود لرسوليهم فقد كان جوابا متماثلا لأنّه ناشئ عن تفكير متماثل، كما قال تعالى { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [الذريات:53/52].

{ **فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** } أي: جاحدون رسالتكم، وهو أيضا كناية عن التكذيب.

{ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ [15] فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ [16] }.

بعد أن حُكي عن عاد وثمود ما اشترك فيه الأُمَّتان من المكابرة والإصرار على الكفر فصل هنا بعض ما اختصّت به عاد من صورة الكفر، وذكر من ذلك ما له مناسبة لما حلّ بهم من العذاب.

{ **فَأَمَّا** } الفاء تفريع على جملة { قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً } [14] المقتضية أنّهم رفضوا دعوة رسوليهم ولم يقبلوا إرشادهما واستدلالهما. و(أمّا) حرف شرط وتفصيل، وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ } [البقرة:26].

المعنى: فأمّا عاد فمنعهم قبول الهدى استكبارهم.

{ **فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ** } الاستكبار المبالغة في الكبر، أي: التعاظم واحتقار الناس، فالسين والتاء فيه للمبالغة. والتعريف في { الأرض } للعهد، أي: أرضهم المعهودة.

وإنّما ذُكر من مساويهم الاستكبار لأنّ تكبّرهم هو الذي صرفهم عن اتباع رسولهم وعن توقّع عقاب الله.

{ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** } زيادة تشنيع لاستكبارهم، فإنّ الاستكبار لا يكون بحق، إذ لا مبرّر للكبر بوجه من الوجوه.

وهم قد اغترّوا بقوّة أجسامهم وعزّة أمّتهم وادعوا أنّهم لا يغلبهم أحد، وهو معنى:

{ **وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً** } فقولهم ذلك هو سبب استكبارهم لأنّه أورثهم الاستخفاف بمن عداهم، فلمّا جاءهم هود بإنكار ما هم عليه من الشرك والطغيان عظم عليهم ذلك لأنّهم اعتادوا العجب بأنفسهم، فكذّبوه.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً** } جملة معترضة. والرؤية علمية، والاستفهام إنكاري.

المعنى: إنكار عدم علمهم بأنّ الله أشدّ منهم قوّة حيث أعرضوا عن رسول ربّهم وعن إنذاره إيّاهم، إعراض من لا يكترث بعظمة الله تعالى، لأنّهم لو حسبوا لذلك حسابه لتوقّعوا عذابه فلأقبلوا على دلائل صدق رسوله.

{ **الَّذِي خَلَقَهُمْ** } إيماء إلى وجه الإنكار عليهم، لجهلهم بأنّ الله أقوى منهم، فإنّ كونهم مخلوقين معلوم لهم بالضرورة، فكان العلم به كافيا في الدلالة على أنّه أشدّ منهم قوّة.

{ **هُوَ أَشَدُّ** } ضمير الفصل مفيد تقوية الحكم بمعنى وضوحه، وإذا كان ذلك الحكم محقّقا كان عدم علمهم بمقتضاه أشنع وعذرهم في جهله منتفيا.

القوّة: حقيقتها حالة في الجسم يتأتّى بها أن يعمل الأعمال الشاقة، وتطلق على لازم ذلك من القدرة ووسائل الأعمال، وقد تقدّم بيان إطلاقها في قوله تعالى { فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ } [لأعراف:145].

والمراد بها هنا معناها الحقيقي والكنائي والمجازي، فهو مستعمل في حقيقته تصريحا وكناية، ومجازه لما عندهم من وسائل تذليل صعاب الأمور لقوة أجسامهم وقوة عقولهم. والعرب تضرب المثل بعاد في أصالة آرائهم، فيقولون أحلام عاد. ويقولون في وصف الأشياء التي يقل صنع أمثالها عادية يقولون: بناء عادي.

وإطلاق القوة على قدرة الله تعالى بمعنى كمال القدرة، أي: عموم تأثيرها وتعلّقها بالممكنات على وفق الإرادة لا يستعصي على تعلّق قدرته شيء ممكن، وكمال غناه عن التأثير للغير، وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [الأنفال:25].

{ **وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** } يحتمل أنّ المراد معجزات رسولهم هود فلم يؤمنوا بها وأصروا على العناد، ولم يذكر القرآن لهود آيات سوى أنّه أنذرهم عذابا يأتيهم من السماء، قال تعالى { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الاحقاف:24].

ويحتمل أنّ المراد بالآيات دلائل الوحدانية التي في دعوة رسولهم وتذكيرهم بنعم الله عليهم، كقوله { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً } [لأعراف:69]، وقوله تعالى { وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } [الشعراء:132-134].

{ **وَكَانُوا** } دلّ على أنّ التكذيب بالآيات متأصّل فيهم.

{ **يَجْحَدُونَ** } دلّت صيغة المضارع أنّ الجحد متكرّر فيهم متجدّد.

{ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } أشارت الفاء إلى أنّ عقابهم كان مسبَّبا على حالة كفرهم بصفتها، فإنّ باعث كفرهم كان اغترارهم بقوّتهم، فأهلكهم الله بما لا يترقّب الناس الهلاك به، فإنّ الناس يقولون للشيء الذي لا يؤبه به: هو ريح، ليريهم أنّ الله شديد القوة وأنّه يضع القوّة في الشيء الهين مثل الريح ليكون عذابا وخزيا، أي: تحقيرا، كما قال تعالى { لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }، وأي خزي أشدّ من أن تترامهم الريح في الجو كالريش، وأن تلقيهم هلكى على التراب عن بكرة أبيهم فيشاهدهم المارون بديارهم جثثا صرعى كأنّهم أعجاز نخل خاوية.

الريح: تموّج في الهواء يحدث من تعاكس الحرارة والبرودة. والريح الذي أصاب عادا هو الريح الدَّبور، وهو الذي يهبّ من جهة مغرب الشمس، سُمِّيت دَبُورا لأنّها تهبّ من جهة دُبر الكعبة. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **نُصرت بالصبا وأُهلِكت عاد بالدبور** ".

الصرصر: الريح العاصفة التي يكون لها صرصرة، أي: دوي في هبوبها من شدة سرعة تنقّلها.

{ **نَحِسَاتٍ** } جمع نحس بدون تأنيث لأنه مصدر لفعل نحِس كعلم، كقوله تعالى { فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ } [القمر:19]. وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بسكون الحاء. ويجوز كسر الحاء وبه قرأ البقية على أنّه صفة مشبهة من (نحِس) إذا أصابه النحس إصابة سوء أو ضرّ شديد.

فمعنى وصف الأيام بالنحسات: أنّها أيام سوء شديد أصابهم وهو عذاب الريح، وهي ثمانية أيام كما جاء في قوله تعالى { سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً } [الحاقة:7]، فالمراد: أنّ تلك الأيام بخصوصها كانت نحسا وأنّ نحسها عليهم دون غيرهم من أهل الأرض، لأنّ عادا هم المقصودون بالعذاب. وليس المراد أنّ تلك الأيام من كل عام هي أيام نحس على البشر، لأنّ ذلك لا يستقيم لاقتضائه أن تكون جميع الأمم حل بها سوء في تلك الأيام.

وقد اخترع أهل القصص تسمية أيام ثمانية نصفُها آخر شهر شباط ونصفها شهر آذار تكثر فيها الرياح غالبا دعوها أيام الحسوم ثم ركّبوا على ذلك أنّها الموصوفة بحسوم في قوله تعالى { سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً } [الحاقة:7]، فزعموا أنّها الأيام الموافقة لأيام الريح التي أصابت عادا، ثم ركّبوا على ذلك أنّها أيّام نحس من كل عام، وكذبوا على بعض السلف مثل ابن عباس أكاذيب في ذلك.

{ **لِنُذِيقَهُمْ** } اللام للتعليل، وهي متعلّقة بـ { فَأَرْسَلْنَا }. والإذاقة تخييل لمكنية، شُبه العذاب بطعام هُيئ لهم على وجه التهكّم.

{ **عَذَابَ الْخِزْيِ** } أنه سبب خزي، أي: ذلّ. فوصف العذاب بأنه خزي، بمعنى مخز من باب المجاز العقلي، ويقدّر قبل الإضافة: لنذيقهم عذابا مخزيا. فحصلت مبالغتان، مبالغة الوصف بالمصدر، ومبالغة إضافة الموصوف إلى الصفة.

{ **وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى** } احتراس لئلّا يحسب السامعون أنّ حظ أولئك من العقاب هو عذاب الإهلاك بالريح فعُطِف عليه الإخبار بأنّ عذاب الآخرة أخزى.

أخزى: اسم تفضيل جرى على غير قياس، وقياسه أن يقال: أشد إخزاء، لأنّه لا يقال: خزاه، بمعنى أخزاه، أي: أهانه، ومثل هذا في صوغ اسم التفضيل كثير في الاستعمال.

{ **وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ** } تذييل، أي: لا ينصرهم من يدافع العذاب عنهم، ولا من يشفع لهم، ولا من يخرجهم منه بعد مهلة.

{ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [17]

بقية التفصيل الذي في قوله { فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا } [15]. ولمّا كان حال الأمتين واحدا في عدم قبول الإرشاد من جانب الله تعالى كما أشار إليه قوله تعالى { قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً} [14]، كان الإخبار

عن ثمود بأنّ الله هداهم مقتضيا أنّه هدى عادا مثل ما هدى ثمود وأنّ عادا استحبّوا العمى على الهدى مثل ما استحبت ثمود.

المعنى: وأمّا ثمود فهديناهم هداية إرشاد برسولنا إليهم وتأييده بآية الناقة التي أخرجها لهم من الأرض.

{ **فَهَدَيْنَاهُمْ** } الإرشاد التكليفي، وهي غير ما في قوله تعالى { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ } [الزمر:37]، فإنّ تلك الهداية التكوينية لمقابلته بقوله تعالى { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [غافر:33].

{ **فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى** } أحبّوا، فالسين والتاء للمبالغة. والعمى هنا مستعار للضلال في الرأي، أي: اختاروا الضلال بكسبهم. وضُمِّن (استحبّوا) معنى: فضَّلوا، فلذلك عُدّي بحرف (على).

{ **فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ** } تفريع، وكان العقاب مناسبا للجرم، لأنّهم استحبّوا الضلال الذي هو مثل العمى، فكان جزاؤهم بالصاعقة لأنّها تعمي أبصارهم في حين تهلكهم، قال تعالى { يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ } [البقرة:20].

الأخذ: مستعار للإصابة المهلكة لأنّها اتصال بالمهلك.

الصاعقة: الصيحة التي تنشأ في كهربائية السحاب الحامل للماء فتنقدح منها نار تهلك ما تصيبه.

{ **صَاعِقَةُ الْعَذَابِ** } والإضافة للدلالة على أنّها صاعقة تعرّف بطريق الإضافة، أي: صاعقة خارقة لمعتاد الصواعق، فهي صاعقة مسخّرة من الله لعذاب ثمود.

{ **الْعَذَابِ الْهُونِ** } كما وصف العذاب بالخزي في قوله تعالى { لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ } [16].

الهوان: الذلّ، ووجه كونه هونا أنّه إهلاك فيه مذلّة بيّناه في مهلك عاد. أي: العذاب الذي هو سبب الهون.

{ **بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } أي: أخذتهم الصاعقة بسبب كسبهم في اختيارهم البقاء على الضلال بإعراضهم عن دعوة رسولهم وعن دلالة آياته.

ويعلم من قوله في شأن عاد { وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى } [16] أنّ لثمود عذابا في الآخرة، لأنّ الأمّتين تماثلتا في الكفر، فلم يذكر ذلك هنا اكتفاء بذكره فيما تقدم. وهذا محسّن الاكتفاء، وهو محسن يرجع إلى الإيجاز.

{ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } [18]

الأظهر أنّه عطف على التفصيل في قوله { فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا } [15] وما عطف عليه من قوله { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ } [17]، لأنّ موقع هاته الجملة، المتضمِّنة إنجاء المؤمنين من العذاب بعد أن ذُكر عذاب عاد وعذاب ثمود، يشير إلى أنّ المعنى إنجاء الذين آمنوا من قوم عاد وقوم ثمود، فمضمون هذه الجملة فيه معنى الاستثناء. قال تعالى { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا } [هود:58]، وقال { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا } [هود:66].

وقد بيَّنَّا في سورة هود كيف أنجى الله هودا والذين آمنوا معه، وصالحا والذين آمنوا معه.
{ **وَكَانُوا يَتَّقُونَ** } أي: كانت سنتهم اتقاء الله والنظر فيما ينجي من غضبه وعقابه، وهو أبلغ في الوصف من أن يقال: المتقين.

{ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ [19] حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [20] وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [21] }.

لمَّا فُرِغ من موعظة المشركين بحال الأمم المكذبة من قبلهم وإنذارهم بعذاب يحلّ بهم في الدنيا كما حلّ بأولئك ليكون لهم ذلك عبرة، انتقل إلى إنذارهم بما سيحلّ بهم في الآخرة.
{ **وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ** } معطوفة على جملة { فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً } [13]. والتقدير: وأنذرهم يوم نحشر أعداء الله إلى النار. أي: وأنذرهم يوم عقاب الآخرة.
أعداء الله: هم مشركو قريش لأنّهم أعداء رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ } [الممتحنة:1]، يعني المشركين لقوله بعده { يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ } ولأنّها نزلت في قضية كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يعلمهم بتهيّؤ النبيّ صلى الله عليه وسلم لغزو مكة. ولا يجوز أن يكون المراد جميع الكفار من الأمم بحيث يدخل المشركون من قريش دخول البعض في العموم، لأنّ ذلك المحمل لا يكون له موقع رشيق في المقام، لأنّ الغرض من ذكر ما أصاب عادا وثمود هو تهديد مشركي مكة بحلول عذاب مثله في الدنيا لأنهم قد علموه ورأوا آثاره، فللتهديد بمثله موقع لا يسعهم التغافل عنه.
الحشر: جمع الناس في مكان لمقصد.
{ **إِلَى النَّارِ** } يتعلق بـ { يُحْشَرُ } لتضمينه معنى: نرسل، أي: نرسلهم إلى النار.
{ **فَهُمْ يُوزَعُونَ** } الفاء عطف وتفريع على { يُحْشَرُ }، لأنّ الحشر يقتضي الوزع إذ هو من لوازمه عرفا، إذ الحشر يستلزم كثرة عدد المحشورين وكثرة العدد تستلزم الاختلاط وتداخل بعضهم في بعض فلا غنى لهم عن الوزع لتصفيفهم وردّ بعضهم عن بعض.
الوزع: كف بعضهم عن بعض ومنعهم من الفوضى، وتقدّم في [النمل:17]، وهو كناية عن كثرة المحشورين.
{ **حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا** } { حَتَّى } ابتدائيّة تفيد معنى الغاية، فهي حرف انتهاء في المعنى وحرف ابتداء في

اللفظ. و{ إذا } ظرف لمستقبل متضمّن معنى الشرط وهو متعلق بجوابه، و{ مَا } زائدة للتوكيد، وضمير المؤنث الغائب في { جَاءُوهَا } عائد إلى { النَّار }، أي: إذا وصلوا إلى جهنم.

{ **شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } جملة معترضة بين الشرط وجوابه.

وشهادة جوارحهم وجلودهم عليهم شهادة تكذيب وافتضاح، لأنّ كون ذلك شهادة يقتضي أنّهم لمّا رأوا النار اعتذروا بإنكار بعض ذنوبهم طمعا في تخفيف العذاب، وإلّا فقد علم الله ما كانوا يصنعون وشهدت به الحفظة وقرئ عليهم كتابهم، وما أحضروا للنّار إلّا وقد تحقَّقت إدانتهم، فما كانت شهادة جوارحهم إلّا زيادة خزي لهم وتحسيرا وتنديما على سوء اعتقادهم في سعة علم الله.

وتخصيص السمع والأبصار والجلود بالشهادة على هؤلاء دون بقية الجوارح؛

لأن للسمع اختصاصا بتلقي دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم وتلقي آيات القرآن، فسمعهم يشهد عليهم بأنّهم كانوا يصرفونه عن سماع ذلك، كما حكى الله عنهم بقوله { وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ } [5].

ولأنّ للأبصار اختصاصا بمشاهدة دلائل المصنوعات الدالة على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير فذلك دليل وحدانيته في إلهيته.

وشهادة الجلود لأنّ الجلد يحوي جميع الجسد، لتكون شهادة الجلود عليهم شهادة على أنفسها فيظهر استحقاقها للحرق بالنار لبقية الأجساد دون اقتصار على حرق موضع السمع والبصر.

بخلاف آية سورة النور { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النور:24]، لأنّ آية النور تصف الذين يرمون المحصنات، وهم الذين اختلقوا تهمة الإفك ومشوا في المجامع يشيعونها بين الناس ويشيرون بأيديهم إلى من اتهموه إفكا.

{ **وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا** } وإنّما قالوا لجلودهم دون أن يقولوه لسمعهم وأبصارهم لأنّ الجلود مواجهة لهم يتوجَّهون إليها بالملامة. والاستفهام مستعمل في الملامة، وهم يحسبون أنّ جلودهم لكونها جزءا منهم لا يحق لهم شهادتها عليهم لأنّها تجر العذاب إليها.

{ **قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ** } اعتذار بأن الشهادة جرت منها بغير اختيار. وهذا النطق من خوارق العادات كما هو شأن العالم الأخروي.

{ **الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** } تمجيد لله تعالى ولا علاقة له بالاعتذار.

{ **وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } يجوز أن تكون هذه الجملة والتي عطفت عليها من تمام ما أنطق الله به جلودهم، تشهيرا بخطئهم في إنكارهم البعث والمصير إلى الله، لزيادة التنديم والتحسير، فيكون التعبير بالفعل المضارع { تُرْجَعُونَ } لاستحضار حالتهم، فإنّهم ساعتئذ في قبضة تصرف الله مباشرة. وأمّا

رجوعهم بمعنى البعث فإنّه قد مضى بالنسبة لوقت إحضارهم عند جهنم، أو يكون المراد بالرجوع الرجوع إلى ما ينتظرهم من العذاب.

ويجوز أن تكون هذه الجملة وما بعدها اعتراضا بين جملة { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ } وجملة { فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ } [24]، موجَّها من جانب الله تعالى إلى المشركين الأحياء لتذكيرهم بالبعث عقب ذكر حالهم في القيامة انتهازا لفرصة الموعظة السابقة عند تأثرهم بسماعها. ويكون فعل { تُرْجَعُونَ } مستعملا في الاستقبال على أصله، والكلام استدلال على إمكان البعث.

{ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } تقديم المتعلّق للاهتمام ورعاية الفاصلة.

{ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ [22] وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ [23] }.

يجوز أن تكون الجملة بتمامها معطوفة على جملة { وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } [21]، فتكون مشمولة للاعتراض متصلة بالتي قبلها على كلا التأويلين السابقين في التي قبلها. ويجوز أن تكون مستقلة عنها: إمّا معطوفة على جملة { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ }، وإمّا معترضة بين تلك الجملة وجملة { فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ } [24]، ومناسبة الاعتراض ما جرى من ذكر شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم. فيكون الخطاب لجميع المشركين الأحياء في الدنيا، أو للمشركين في يوم القيامة.

وعلى هذه الوجوه فالمعنى: ما كنتم في الدنيا تخفون شرككم وتستترون منه بل كنتم تجهرون به وتفخرون باتباعه فماذا لومكم على جوارحكم وأجسادكم أن شهدت عليكم بذلك، فإنّه كان أمرا مشهورا.

فالاستتار مستعمل في الإخبار مجازا، لأنّ حقيقة الاستتار إخفاء الذوات، والذي شهدت به جوارحهم هو اعتقاد الشرك والأقوال الداعية إليه.

وعلى بعض احتمالات يكون فعل { تَسْتَتِرُونَ } مستعملا في حقيقته أي تستترون بأعمالكم عن سمعكم وأبصاركم وجلودكم، وذلك توبيخ، كناية عن أنّهم ما كانوا يرون ما هم عليه قبيحا حتّى يستتروا منه.

وعلى بعض الاحتمالات يكون فعل { تَسْتَتِرُونَ } مستعملا في حقيقته ومجازه.

وحاصل معنى الآية على جميع الاحتمالات: أنّ الله عليم بأعمالكم ونيَّاتكم لا يخفى عليه شيء منها إن جهرتم أو سترتم وليس الله بحاجة إلى شهادة جوارحكم عليكم، وما أوقعكم في هذا الضرّ إلّا سوء ظنكم بجلال الله.

{ **وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ** } الإشارة إلى الظنّ المأخوذ من فعل { ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ }، يستفاد من الإشارة إليه تمييزه أكمل تمييز وتشهير شناعته للنداء على ضلالهم.

وأتبع اسم الإشارة بالبدل بقوله { ظَنُّكُمُ } لزيادة بيانه ليتمكّن ما يعقبه من الخبر، والخبر هو فعل { أَرْدَاكُمْ } وما تفرع عليه.

{ **بِرَبِّكُمْ** } العدول عن اسم الله العلم للتنبيه على ضلال ظنّهم، إذ ظنّوا خفاء بعض أعمالهم عن علمه مع أنّه ربهم وخلقهم، فكيف يخلقهم وتخفى عنه أعمالهم ! وهو يشير إلى قوله تعالى { أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الملك:14].

الإرادء: الإهلاك، يقال: ردي كرضي، إذا هلك، أي: مات، والإرداء مستعار للإيقاع في سوء الحالة.

وفي الإتيان بالمسند فعلا إفادة قصر، أي: ما أرداكم إلّا ظنّكم ذلك، وهو قصر إضافي، أي: لم تُرْدِكُم شهادة جوارحكم حتّى تلوموها بل أرداكم ظنّكم أنّ الله لا يعلم أعمالكم فلم تحذروا عقابه.

{ **فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } تمثيل لحالهم إذ يحسبون أنّهم وصلوا إلى معرفة ما يحق أن يعرفوه من شؤون الله ووثقوا من تحصيل سعادتهم، وهم ما عرفوا الله حقّ معرفته فعاملوا الله بما لا يرضاه فاستحقوا العذاب من حيث ظنّوا النجاة، فشُبّه حالهم بحال التاجر الذي استعد للربح فوقع في الخسارة.

{ **فَأَصْبَحْتُمْ** } صرتم، لأنّ أصبح يكثر أن تأتي بمعنى: صار.

<u>المعنى</u>: أنّه نُعي عليهم سوء استدلالهم وفساد قياسهم في الأمور الإلهية، وقياسهم الغائب على الشاهد، تلك الأصول التي استدرجتهم في الضلالة فأحالوا رسالة البشر عن الله ونفوا البعث، ثم أثبتوا شركاء لله في الإلهية، وتفرّع لهم من ذلك كلّه قطع نظرهم عمّا وراء الحياة الدنيا وأمنهم من التبعات في الحياة الدنيا، فذلك جماع قوله تعالى { وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ }.

وأعلم أنّ أسباب الضلال في العقائد كلّها إنّما تأتي على الناس من فساد التأمّل وسرعة الإيقان وعدم التمييز بين الدلائل الصائبة والدلائل المشابهة وكلّ ذلك يفضي إلى الوهم المعبّر عنه بالظن السيئ، أو الباطل.

وقد ذكر الله مثله في المنافقين، قال تعالى { يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } [آل عمران:154].

فليحذر المؤمنون من الوقوع في مثل هذه الأوهام فيبوؤوا ببعض ما نعي على عبدة الأصنام.

وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث** "، يريد الظنّ الذي لا دليل عليه.

{ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ } [24]

تفريع على جواب {إذا}، أو تفريع على جملة { وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا } [21]، أو هو جواب {إذا} .

والمعنى على جميع الوجوه: أنّ حاصل أمرهم أنّهم قد زّج بهم في النار فإن صبروا واستسلموا فهم باقون في

النار، وإن اعتذروا لم ينفعهم العذر ولم يُقبل منهم تنصّل.
{ فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ } دليل جواب الشرط لأنّ كون النار مثوى لهم ليس مسبّبا على حصول صبرهم وإنّما هو من باب قولهم: إن قبل ذلك فذاك، أي: فهو على ذلك الحال، فالتقدير: فإن يصبروا فلا يسعهم إلّا الصبر لأنّ النّار مثوى لهم.
{ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا } إن يسألوا العُتبى (بضم العين وفتح الموحدة مقصورا) اسم مصدر **الإعتاب** وهي رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب. وفي المثل: ما مسيء من أعتب، أي: من رجع عما أساء به.
والسين والتاء فيه للطلب، لأنّ المرء لا يسأل أحدا أن يعاتبه وإنّما يسأله ترك المعاتبة، أي يسأله الصفح عنه.
أي: أنّ الله لا يعتبهم، أي: لا يقبل منهم.

{ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ } [25].
عطف على جملة { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ } [19] وذلك أنّه حُكي قولهم المقتضي إعراضهم عن التدبّر في دعوة الإيمان، ثم ذُكر كفرهم بخالق الأكوان بقوله { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } [9]، ثم ذُكر مصيرهم في الآخرة بقوله { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ }، ثم عُقّب ذلك بذكر سبب ضلالهم الذي نشأت عنه أحوالهم بقوله { وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ }، وتخلل بين ما هنالك وما هنا أفانين من المواعظ والدلائل والمنن والتعاليم والقوارع والإيقاظ.
قيّض: أتاح وهيّأ شيئا للعمل في شيء.
القرناء: جمع قرين، وهو الصاحب الملازم، والقرناء هنا: هم الملازمون لهم في الضلالة، إمّا في الظاهر مثل دعاة الكفر وأئمّته، وإمّا في باطن النفوس مثل شياطين الوسواس الذين قال الله فيهم { وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } [الزخرف:36].
فالتقييض بمعنى التقدير، عبارة جامعة لمختلف المؤثرات والتجمّعات التي توجب التآلف والتحاب بين الجماعات، ولمختلف الطبائع المكوّنة في نفوس بعض الناس، فيقتضي بعضها جاذبية الشياطين إليها وحدوث الخواطر السيّئة فيها. وللإحاطة بهذا المقصود أوثر هذا التعبير دون غيره من نحوه: بعثنا، وأرسلنا.
{ فَزَيَّنُوا لَهُمْ } التزيين التحسين، وهو يُشعر بأنّ المزيَّن غير حسن في ذاته.
{ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ } يستعار للأمور المشاهدة، والمراد هنا: أمور الدنيا، أي: زيّنوا لهم ما يعملونه في الدنيا من الفساد مثل عبادة الأصنام، وقتل النفس بلا حق، وأكل الأموال، والعدول على الناس باليد واللسان، والميسر،

وارتكاب الفواحش، والوأد. فعوّدوهم باستحسان ذلك كلّه لما فيه من موافقة الشهوات والرغبات العارضة قصيرة المدى، وصرفوهم عن النظر فيما يحيط بأفعالهم تلك من المفاسد الذاتيّة الدائمة.

{ **وَمَا خَلْفَهُمْ** } يستعار للأمور المغيَّبة. والمراد هنا: الأمور المغيّبة عن الحس من صفات الله، وأمور الآخرة من البعث والجزاء، ومثل الشرك بالله ونسبة الولد إليه، وظنّهم أنّه يخفى عليه مستور أعمالهم، وإحالتهم بعثة الرسل، وإحالتهم البعث والجزاء.

<u>ومعنى تزيينهم هذا لهم</u>: تلقينهم تلك العقائد بالأدلة السفسطائية مثل قياس الغائب على الشاهد، ونفي الحقائق التي لا تدخل تحت المدركات الحسية، كقولهم { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ } [17/16].

{ **وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ** } أي: تحقّق فيهم القول، وهو وعيد الله إيّاهم بالنار على الكفر، فالتعريف للعهد.

{ **فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ** } حال من ضمير { عليهم }، أي: حقّ عليهم حالة كونهم في أمم أمثالهم قد سبقوهم. و{ **فِي** } ظرفية مجازية، بمعنى التبعيض، أي: هم من أمم قد خلت من قبلهم حق عليهم القول.

{ **مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ** } و{ مَنِ } بيانية، <u>فيجوز أن يكون بيانا لـ { أُمَمٍ }</u>، أي: من أمم من البشر ومن الشياطين فيكون مثل قوله تعالى { قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ } [الأعراف:38]، وقوله تعالى { قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } [ص: 85/84].

<u>ويجوز أن يكون بيانا لـ { **قُرَنَاءَ** }</u>، أي: ملازمين لهم ملازمة خفية، وهي ملازمة الشياطين لهم بالوسوسة، وملازمة أئمة الكفر لهم بالتشريع لهم ما لم يأذن به الله.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ** } <u>يجوز</u> أن تكون بيانا للقول مثل نظيرتها { فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ } [الصافات:31]، <u>ويجوز</u> أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن جملة { وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ }.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [26]

عطف على الجملة { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ } [5]، عطف القصة على القصة، ومناسبة التخلّص إليه أنّ هذا القول مما ينشأ عن تزيين قرنائهم من الإنس، أو هو عطف على { فَزَيَّنُوا لَهُمْ } [25].

وهذا حكاية لحال أخرى من أحوال إعراضهم عن الدعوة المحمدية، بعد أن وصف إعراضهم في أنفسهم انتقل إلى وصف تلقينهم الناس أساليب الإعراض، فالذين كفروا هنا هم أئمة الكفر يقولون لعامتهم: لا تسمعوا لهذا القرآن، فإنّهم علموا أنّ القرآن كلام هو أكمل الكلام؛ شريف معان وبلاغة تراكيب وفصاحة ألفاظ، وأيقنوا أنّ كلّ من يسمعه، وتُداخل نفسه جزالةُ ألفاظه وسمو أغراضه قضى له فهمُه أنّه حقّ إتباعه.

وقد أدركوا ذلك بأنفسهم ولكنّهم غالبتهم محبة الدوام على سيادة قومهم فتمالؤوا ودبَّروا لمنع الناس من استماعه، وذلك خشية من أن ترقّ قلوبهم عند سماعه.

وهذا من شأن دعاة الضلال والباطل أن يكمّوا أفواه الناطقين بالحق والحجة، بما يستطيعون من تخويف وتسويل، وترهيب وترغيب، ولا يدعوا الناس يتجادلون بالحجّة ويتراجعون بالأدلة، لأنّهم يوقنون أنّ حجّة خصومهم أنهض، فهم يسترونها ويدافعونها لا بمثلها ولكن بأساليب من البهتان والتضليل، فإذا أعيتهم الحيل ورأوا بوارق الحق تخفق خشوا أن يعمّ نورها الناس الذين فيهم بقية من خير ورشد عدلوا إلى لغو الكلام ونفخوا في أبواق اللغو والجعجعة لعلّهم يغلبون بذلك على حجج الحقّ ويغمرون القول الصالح باللغو.

{ **لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ** } تحذيرا واستهزاء بالقرآن، فاسم الإشارة مستعمل في التحقير. وتسميتهم إيّاه بالقرآن حكاية لما يجري على ألسنة المسلمين من تسمية بذلك. وتعدية فعل { تَسْمَعُوا } باللام لتضمينه معنى: تطمئنّوا أو تركنوا.

اللغو: القول الذي لا فائدة فيه، ويُسمَّى الكلام الذي لا جدوى له لغوا.

أي: قولوا أقوالا لا معنى لها، أو تكلّموا كلاما غير مراد منه إفادة، أو المقصود إحداث أصوات تغمر صوت النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقرآن.

{ **فِيهِ** } ولما كان المقصود بتخلل أصواتهم صوت القارئ حتّى لا يفقهه السامعون عدي اللغو بحرف (في) الظرفية لإفادة إيقاع لغوهم في خلال صوت القارئ وقوع المظروف في الظرف على وجه المجاز.

قال ابن عباس: " كان النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته فكان أبو جهل وغيره يطردون الناس عنه ويقولون لهم: لا تسمعوا له والغوا فيه، فكانوا يأتون بالمكاء والصفير والصياح وإنشاد الشعر والأراجيز وما يحضرهم من الأقوال ". وقد ورد في الصحيح أنّهم قالوا لما استمعوا إلى قراءة أبي بكر، وكان رقيق القراءة: " إنّا نخاف أن يفتن أبناءنا ونساءنا ".

{ **لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** } رجاء أن تغلبوا محمدا بصرف من يتوقّع أن يتبعه إذا سمع قراءته. وهذا مشعر بأنّهم كانوا يجدون القرآن غالبهم، إذ كان الذين يسمعونه يداخل قلوبهم فيؤمنون. أي: فإن لم تفعلوا فهو غالبكم.

{ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ [27] ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ [28] }.

دلّت الفاء على أنّ ما بعدها مفرّع عما قبلها؛ فإمّا أن يكون تفريعا على آخر ما تقدم وهو قوله { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ } [26]، وإمّا على جميع ما تقدّم ابتداء من { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ } [5].

{ **الَّذِينَ كَفَرُوا** } وعلى كلا الوجهين يتعيّن أن يكون المراد بـهم المشركين الذين الكلام عنهم. إظهار في مقام الإضمار لقصد ما في الموصول من الإيماء إلى علّة إذاقة العذاب، أي: لكفرهم المحكي بعضه فيما تقدّم.

إذاقة العذاب: تعذيبهم، استعير له الإذاقة على طريق المكنية والتخيلية.

{ **عَذَاباً شَدِيداً** } عن ابن عباس: أنّه عذاب يوم بدر، فهو عذاب الدنيا.

{ **وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ** } عن ابن عباس: لنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون في الآخرة.

أسوأ: اسم تفضيل مسلوب المفاضلة، وإنّما أريد به السيّئ، فصيغ بصيغة التفضيل للمبالغة في سوءِه.

وإضافته إلى { الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ } من إضافة البعض إلى الكلّ.

{ **ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ** } الإشارة إلى ما تقدّم وهو الجزاء والعذاب الشديد على أسوا أعمالهم.

أعداء الله: هم المشركون الذين تقدّم ذكرهم بقوله تعالى { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ } [19].

{ **النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً** } والنار عطف بيان من { جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ } و { دَارُ الْخُلْدِ } النار. جاء بالظرفية بتنزيل النار منزلة ظرف لدار الخلد وما دار الخلد إلّا عين النار. وهذا من أسلوب التجريد ليفيد مبالغة معنى الخلد في النار. وهو معدود من المحسّنات البديعية، ومنه قوله تعالى { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [الأحزاب:21].

{ **الْخُلْدِ** } : طول البقاء، وأطلق في اصطلاح القرآن على البقاء المؤبد الذي لا نهاية له.

{ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** } انتصب { جَزَاءً } على الحال من { دَارُ الْخُلْدِ } والباء للسببية، و(ما) مصدرية، أي: جزء بسبب كونهم يجحدون بآياتنا. وصيغة المضارع دالة على تجدّد الجحود حينا فحينا وتكرّره، وعدِّي الفعل بالباء لتضمينه معنى: يكذبون. وتقديم { بِآيَاتِنَا } للاهتمام وللرعاية على الفاصلة.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ } [29].

عطف على جملة { لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ } [28]. وصيغة الماضي للدلالة على تحقيق وقوع هذا القول، وهو في معنى قوله تعالى { حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ } [الأعراف:38]. فالقائلون هم عامة المشركين.

{ **أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ** } عيّن لنا، وهو كناية عن إرادة انتقامهم منهم. وإنّما طلبوا أن يروهما لأنّ المضلّين كانوا في دركات من النار أسفل من دركات أتباعهم.

{ **نَجْعَلْهُمَا** } جواب الطلب مجزوم على تقدير: إن تُرِناهما نجعلهما تحت أقدامنا.

الجعل تحت الأقدام: الوطء بالأقدام والرفس. وكان الوطء بالأرجل من كيفيات الانتقام والامتهان.

{ **لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ** } تعليل، توطئة لاستجابة الله تعالى لهم، لأنّهم علموا من غضب الله عليهم أنّه أشد غضبا على المضلِّين فتوسلوا بعزمهم على الانتقام منهم إلى تيسير تمكينهم من ذلك.

{ **الْأَسْفَلِينَ** } أي: ليكونوا أحقر منّا جزاء لهم، فالسفالة مستعارة للإهانة والحقارة.

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [30] نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ [31] نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ [32] }.

بعد استيفاء الكلام على ما أصاب الأمم الماضية المشركين المكذِّبين من عذاب الدنيا وما أُعِد لهم من عذاب الآخرة ممّا فيه عبرة للمشركين الذين كذّبوا محمدا صلى الله عليه وسلم بطريق التعريض، ثم أنذروا بالتصريح بما سيحلّ بهم في الآخرة، ووصف بعض أهواله، تشوَّف السامع إلى معرفة حظ المؤمنين ووصف حالهم فجاء قوله { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ }، بيانا للمترقِّب وبشرى للمتطلِّب. فالجملة استئناف بياني ناشئ عما تقدّم من قوله { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ - إلى قوله - مِنَ الْأَسْفَلِينَ } [19-29].

{ **إِنَّ** } افتتاح الجملة بحرف التوكيد منظور فيه إلى إنكار المشركين ذلك، ففي توكيد الخبر زيادة قمع لهم.

{ **قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ** } أي: أنّهم صدعوا بذلك ولم يخشوا أحدا بإعلانهم التوحيد، فقولهم تصريح بما في اعتقادهم، فإن الأصل في الكلام الصدق، وهو مطابقة الخبر وما في الوجود الخارجي.

{ **رَبُّنَا اللَّهُ** } يفيد الحصر بتعريف المسند إليه والمسند، أي: لا رب لنا إلّا الله، وذلك جامع لأصل الاعتقاد الحق، لأنّ الإقرار بالتوحيد يزيل المانع من تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به.

الاستقامة: حقيقتها عدم الاعوجاج والميل، والسين والتاء فيها للمبالغة في التقويم، فحقيقة استقام: استقل غير مائل ولا مُنْحَنٍ. وتطلق الاستقامة بوجه الاستعارة على ما يجمع معنى حسن العمل والسيرة على الحق والصدق قال تعالى { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ } [هود: 112]. ويقال: استقامت البلاد للملك، أي: أطاعت، ومنه قوله تعالى { فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ } [التوبة:7].

{ **ثُمَّ اسْتَقَامُوا** } يشمل هنا معنى الوفاء بما كلِّفوا به، وأوّل ما يشمل من ذلك أن يثبتوا على أصل التوحيد. ومن معنى هذه الآية ما روي في صحيح مسلم عن سفيان الثقفي قال قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك. قال: " **قل آمنت بالله ثم استقم** ".

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي لأنّ الاستقامة زائدة في المرتبة على الإقرار بالتوحيد لأنّها تشمله وتشمل الثبات عليه والعمل بما يستدعيه، ولأنّ الاستقامة دليل على أنّ قولهم { رَبُّنَا اللَّهُ } منبعث عن اعتقاد ومعرفة.

{ **تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ** } يحتمل أن يكون ذلك في وقت الحشر، كما دلّ عليه قولهم { الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ }، وكما يقتضيه كلامهم لهم، لأنّ ظاهر الخطاب أنّه حقيقة، فذلك مقابل قوله { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ } [19]، فأولئك تلاقيهم الملائكة بالوزع، والمؤمنون تتنزّل عليهم الملائكة بالأمن.

{ **تَتَنَزَّلُ** } للتنويه بشأن المؤمنين أنّ الملائكة ينزلون من علويّاتهم لأجلهم، فأمّا أعداء الله فهم يجدون الملائكة حُضَّرًا في المحشر يَزَعُونهم.

ويجوز أن يكون تنزل الملائكة عليهم في الدنيا، وهو تنزّل خفي يعرف بحصول آثاره في نفوس المؤمنين، ويكون الخطاب بـ { أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا } بمعنى إلقائهم في روعهم عكس وسوسة الشياطين القرناء بالتزيين، أي: يلقون في أنفس المؤمنين ما يصرفهم عن الخوف والحزن ويذكِّرهم بالجنة فتحلّ فيهم السكينة. فذلك مقابل قوله { وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ } [25]، فإنّه تقييض في الدنيا. وعلى هذا المعنى فقوله { الَّتِي كُنْتُمْ } تعتبر (كان) فيه مزيدة للتأكيد، ويكون المضارع في { تُوعَدُونَ }، على أصل استعماله للحال والاستقبال، ويكون قولهم { نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ } تأييدا لهم في الدنيا ووعدا بنفعهم في الآخرة.

{ **أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا** } المقصود من النهي عن الخوف النهي عن سببه، وهو توقّع الضرّ، أي: لا تحسبوا أنّ الله معاقبكم، فالنهي كناية عن التأمين من جانب الله تعالى، لأنّهم إذا تحقَّقوا الأمن زال خوفهم، وهذا تطمين من الملائكة لأنفس المؤمنين.

الخوف: غم في النفس ينشأ عن ظنّ حصول مكروه شديد.

الحزن: غم في النفس ينشأ عن وقوع مكروه بفوات نفع أو حصول ضر.

{ **وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ** } ألحقوا بتأمينهم بشارتهم، لأنّ وقع النعيم في النفس موقع المسرة إذا لم يخالطه توقّع المكروه.

{ **الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ** } وصف الجنّة بذلك تذكير لهم بأعمالهم التي وعِدوا عليها بالجنة، وتعجيل لهم بمسرّة الفوز برضى الله، وتحقيق وعده، أي: التي كنتم توعدونها في الدنيا.

{ **نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** } وقول الملائكة تعريف بأنفسهم للمؤمنين تأنيسا لهم.

فإنّ العلم بأنّ المتلقي صاحب قديم يزيد نفس القادم انشراحا وأنسا ويزيل عنه دهشة القدوم. أي: نحن الذي كنا في صحبتكم في الدنيا، إذ كانوا يكتبون حسناتهم ويشهدون عند الله بصلاتهم، كما في حديث: **" يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فيسألهم ربّهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلّون وتركناه وهم يصلّون "**.

واعلم أنّ قوله { فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } إشارة إلى مقابلة قوله في المشركين { وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ } [25]، فكما قيّض للكفّار قرناء في الدنيا قيّض للمؤمنين ملائكة يكونون قرناءهم في الدنيا، وكما أنطق أتباعهم باللائمة عليهم أنطق الملائكة بالثناء على المؤمنين.

وهذه الآية تقتضي أنّ هذا الصنف من الملائكة خاص برفقة المؤمنين وولائهم ولا حظ للكافرين فيهم، فإنّ كان الحفظة من خصائص المؤمنين فمعنى ولايتهم ظاهر، وإن كان الحفظة موكَّلين على المؤمنين والكافرين كما مشى عليه الجمهور، وهو ظاهر قوله تعالى { كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } [الانفطار: 9-12]، فهذا صنف من الملائكة موكَّل بحفظ المؤمنين في الدنيا، وهم غير الحفظة، وقد يكون هذا الصنف من الملائكة هو المُسمَّى بالمعقِّبات في قوله تعالى { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [الرعد:11].

{ **وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ** } عطف على { الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } وما بينهما جملة معترضة كما بيّنته آنفا.

{ **مَا تَدَّعُونَ** } ما تتمنون. يقال: ادَّعى، أي: تمنّى، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ } [يس:57].

<u>المعنى</u>: لكم فيها ما تشتهونه ممّا يقع تحت الحس وما تتمنونه في نفوسكم من كلّ ما يخطر بالبال مما يجول في الخيال، فما يدعون غير ما تشتهيه أنفسهم. ولهذه المغايرة أعيد { لَكُمْ } ليؤذن باستقلال هذا الوعد عن سابقه، فلا يتوهم أنّ العطف عطف تفسير أو عطف عام على خاص.

النُزُل: (بضم النون وضم الزاي) ما يُهيّأ للضيف من القِرى، وهو مشتق من النزول لأنّه كرامة النزيل، وهو هنا مستعار لما يُعطونَه من الرغائب سواء كانت رزقا أم غيره. ووجه الشبه سرعة إحضاره كأنّه مهيأ من قبل أن يشتهوه أو يتمنّوه.

{ **مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ** } إشارة إلى أنّ الله غفر لهم أو لأكثرهم اللمم وما تابوا منه، وأنّه رحيم بهم لأنّهم كانوا يحبونه ويخافونه ويناصرون دينه.

{ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [33]

ليس هذا من حكاية خطاب الملائكة للمؤمنين في الآخرة وإنّما هو موجَّه من الله، فالأظهر أنّه تكملة للثناء على { الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا } [30]، وتوجيه لاستحقاقهم تلك المعاملة الشريفة، وقمع للمشركين إذ تقرع أسماعهم، أي: كيف لا يكونون بتلك المثابة وقد قالوا أحسن القول وعملوا أحسن العمل. وذكر هذا الثناء عليهم بحسن قولهم عقب ذكر مذمّة المشركين ووعيدهم على سوء قولهم { لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ }

[26]، أي: فلا يستوي الذين قالوا أحسن القول وعملوا أصلح العمل مع الذين قالوا أسوأ القول وعملوا أسوأ العمل، ولهذا عقّب بقوله { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ } [34].

{ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً } استفهام مستعمل في النفي، أي: لا أحد أحسن قولا من هذا الفريق، كقوله تعالى { وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ } [النساء:125].

{ مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ } كلّ أحد ثبت له مضمون هذه الصلة. والدعاء إلى الله: تمثيل لحال الآمر بإفراد الله بالعبادة ونبذ الشرك بحال من يدعو أحدا بالإقبال إلى شخص، وهذا حال المؤمنين حين أعلنوا التوحيد وهو ما وُصفوا به آنفا في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ }، وقد كان المؤمنون يدعون المشركين إلى توحيد الله، وسيد الداعين إلى الله هو محمد صلى الله عليه وسلم.

العمل الصالح: هو العمل الذي يصلُح عاملُه في دينه ودنياه صلاحا لا يشوبه فساد، وذلك العمل الجاري على وفق ما جاء به الدين، فالعمل الصالح هو ما وُصف به المؤمنون آنفا في قوله تعالى { ثُمَّ اسْتَقَامُوا } [30].

{ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } ثناء على المسلمين بأنّهم افتخروا بالإسلام واعتزّوا به بين المشركين ولم يتستّروا بالإسلام. والاعتزاز بالدين عمل صالح ولكنّه خُصَّ بالذكر لأنّه أريد به غيظ الكافرين.

ومثال هذا ما وقع يوم أحد حين صاح أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" قولوا : الله أعلى وأجل "** فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم "**.

وفي هذه الآية منزع عظيم لفضيلة علماء الدين الذين بيّنوا السنن ووضّحوا أحكام الشريعة واجتهدوا في التوصل إلى مراد الله تعالى من دينه ومن خلقه. وفيها أيضا منزع لطيف لتأييد قول الماتريدي وطائفة من علماء القيروان وعلى رأسهم محمد بن سحنون: أنّ المسلم يقول: أنا مؤمن ولا يقول إن شاء الله، خلافا لقول الأشعري وطائفة من علماء القيروان وعلى رأسهم محمد بن عبدوس، فنقل أنّه كان يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. وقد تطاير شرر هذا الخلاف بين علماء القيروان مدّة قرن. والحقّ أنّه خلاف لفظي كما بيّنه الشيخ أبو محمد بن أبي زيد ونقله عياض في المدارك ووافقه.

{ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [34]

يجوز أن يكون عطفا على جملة { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ } [33] تكملة لها، فإنّ المعطوف عليها تضمّنت الثناء على المؤمنين إثر وعيد المشركين وذمّهم، وهذه الجملة فيها بيان التفاوت بين مرتبة المؤمنين

وحال المشركين، فالحسنة حالة المؤمنين والسيّئة حالة المشركين، فيكون المعنى كمعنى آيات كثيرة من هذا القبيل مثل قوله { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ } [غافر:58]. فالعطف على هذا الاعتبار يكون من عطف الجمل التي يجمعها غرض واحد.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [26] الواقعة بعد جملة { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ - إلى قوله - فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ } [5]، فإنّ ذلك مثير في نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم الضجر من إصرار الكافرين على كفرهم وعدم التأثّر بدعوته إلى الحق، فهو بحال من تضيق طاقة صبره على سفاهة أولئك الكافرين، فأردف الله ما تقدّم بما يدفع هذا الضيق عن نفسه بقوله { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ }. وهي تمهيد وتوطئة لقوله عقبها { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }. فالحسنة تعم جميع أفراد جنسها وأولاها تبادرا إلى الأذهان حسنة الدعوة إلى الإسلام لما فيها من جم المنافع في الآخرة والدنيا، وتشمل صفة الصفح عن الجفاء الذي يلقى به المشركون دعوة الإسلام، لأنّ الصفح من الإحسان، وفيه ترك ما يثير حميّتهم لدينهم ويقرّب لين نفوس ذوي النفوس الليّنة.

فالعطف على هذا من عطف غرض على غرض، وهو الذي يعبَّر عنه بعطف القصة على القصة.

{ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ } وقد علمت غير مرة أنّ نفي الاستواء ونحوه بين شيئين يراد به غالبا تفضيل أحدهما على مقابله بحسب دلالة السياق، كقوله تعالى { أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ } [السجدة:18]. فكان مقتضى الظاهر أن يقال: ولا تستوي الحسنة والسيئة، دون إعادة (لا) النافية بعد الواو الثانية، كما قال تعالى { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ } [غافر:58]، فإعادة (لا) النافية تأكيد لأختها السابقة. وأحسن من اعتبار التأكيد أن يكون في الكلام إيجاز حذف مؤذن باحتباك في الكلام، تقديره: وما تستوي الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة.

وفي التعبير بالحسنة والسيئة دون المحسن والمسيء إشارة إلى أنّ كل فريق قد بلغ الغاية في جنس وصفه من إحسان وإساءة على طريقة الوصف بالمصدر، وليتأتى الانتقال إلى الموعظة في قوله :

{ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } يجري موقعها على الوجهين المتقدمين في عطف جملة { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ }.

فعلى الوجه الأوّل من وجهي موقع جملة { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ } [عطف على جملة { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ }]، تخلّص من غرض تفضيل الحسنة على السيئة إلى الأمر بخُلق الدفع بالتي هي أحسن لمناسبة أنّ ذلك الدفع من آثار تفضيل الحسنة على السيّئة إرشادا من الله لرسوله وأمّته بالتخلّق بخلق الدفع بالحسنى.

وعلى الوجه الثاني من وجهي موقع جملة { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ } [عطف على جملة { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ }]، واقعة موقع النتيجة من الدليل والمقصد من المقدّمة، فمضمونها ناشئ عن مضمون التي قبلها.

وإنّما أُمِر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك لأنّ منتهى الكمال البشري خُلُقه، كما قال صلى الله عليه وسلم: " **إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** "، وقالت عائشة لمّا سئلت عن خلقه: " كان خلقه القرآن ".

والإحسان كمال ذاتي ولكن قد يكون تركه محمودا في بعض المواضع

كالحدود ونحوها. والكمال مطلوب لذاته فلا يُعدل عنه ما استطاع ما لم يخش فوات كمال أعظم، ولذلك قالت عائشة ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلّا أن تنتهك حرمات الله فيغضب لله.

وتخلُّق الأمة بهذا الخلق مرغوب فيه قال تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } [الشورى:40].

{ **ادْفَعْ** } المفعول محذوف دلّ عليه انحصار المعنى بين السيّئة والحسنة، فلمّا أمر بأن تكون الحسنة مدفوعا بها تعين أنّ المدفوع هو السيئة، فالتقدير: ادفع السيئة بالتي هي أحسن كقوله { وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ } [الرعد:22]، وقوله تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ } [غافر:96].

{ **بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** } هي الحسنة، وإنّما صيغت بصيغة التفضيل ترغيبا في دفع السيّئة بها لأنّ ذلك يشق على النفس، فإن الغضب من سوء المعاملة من طباع النفس وهو يبعث على حب الانتقام من المسيء، فلمّا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجازي السيئة بالتي هي بالحسنة أشير إلى فضل ذلك.

{ **فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** } تفريع لبيان ما في ذلك الأمر من الصلاح ترويضا على التخلُّق بذلك الخلق الكريم، وهو أن تكون النفس مصدرا للإحسان.

فبعد أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالدفع بالتي هي أحسن أردفه بذكر بعض محاسنه وهو أن يصير العدو كالصديق، وحُسن ذلك ظاهر مقبول فلا جرم أن يدلّ حُسنه على حُسن سببه.

ولذكر المُثُل والنتائج عقب الإرشاد شأن ظاهر في تقرير الحقائق وخاصة التي قد لا تقبلها النفوس لأنّها شاقة عليها، والعداوة مكروهة والصداقة والولاية مرغوبة، فلمَّا كان الإحسان لمن أساء يُدْنيه من الصداقة أو يُكسبه إيَّاها كان ذلك من شواهد مصلحة الأمر بالدفع بالتي هي أحسن.

{ **إذا** } للمفاجأة، وهي كناية عن سرعة ظهور أثر الدفع بالتي هي أحسن في انقلاب العدو صديقا.

{ **الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ** } عدل عن ذكر العدو معرّفا بلام الجنس إلى ذكره باسم الموصول ليتأتّى تنكير عداوة للنوعية، وهو أصل التنكير، فيصدق بالعداوة القويّة ودونها، كما أنّ ظرف { بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ } يصدق بالبَيْن القريب والبَيْن البعيد.

وهذا تركيب من أعلى طرف البلاغة لأنّه يجمع أحوال العداوات فيُعلم أنّ الإحسان ناجح في اقتلاع عداوة المُحْسَن إليه للمُحْسِن على تفاوت مراتب العداوة قوّة وضعفا، وتمكّنا وبعدا، ويُعلم أنّه ينبغي أن يكون الإحسان للعدوّ قويا بقدر تمكّن عداوته ليكون أنجع في اقتلاعها.

ومن الأقوال المشهورة: النفوس مجبولة على حبّ من أحسن إليها.

{ **كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** } التشبيه تشبيه في زوال العداوة ومخالطة شوائب المحبة، فوجه الشبه هو المصافاة والمقاربة وهو معنى متفاوت الأحوال. ولا يبلغ مبلغ المشبّه به إذ من النادر أن يصير العدو وليا حميما، فإن صاره فهو لعوارض غير داخلة تحت معنى الإسراع الذي آذنت به (إذا) الفجائية.

والعداوة التي بين المشركين وبين النبيّ صلى الله عليه وسلم عداوة في الدين.

الوليّ: اسم مشتق من الوَلاية (بفتح الواو)، والولاء، وهو: الحليف والناصر، وهو ضدّ العدو.

الحميم: القريب والصديق.

{ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } [35].

عطف على جملة { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [34]، أو حال من { الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } وضمير { يُلَقَّاهَا } عائد إلى { الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } باعتبار تعلقها بفعل { ادْفَعْ }، أي: بالمعاملة والمدافعة التي هي أحسن، فأمّا مطلق الحسنة فقد يحصل لغير الذين صبروا.

وهذا تحريض على الارتياض بهذه الخصلة بإظهار احتياجها إلى قوّة عزم وشدّة مراس للصبر على ترك هوى النفس في حبّ الانتقام، وفي ذلك تنويه بفضلها بأنّها تلازمها خصلة الصبر، وهي في ذاتها خصلة حميدة وثوابها جزيل، كما عُلم من عدة آيات في القرآن، وحسبك قوله تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [العصر:3/2].

فالصابر مرتاض بتحمُّل المكاره وتجرُّع الشدائد وكظم الغيظ فيهون عليه ترك الانتقام.

{ **وَمَا يُلَقَّاهَا** } يُجعل لاقيا لها، كقوله تعالى { وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً } [الانسان:11]. وهو مستعار للسعي لتحصيلها، لأنّ التحصيل على الشيء بعد المعالجة والتخلُّق يشبه السعي لملاقاة أحد فيلقاه. وجي بالمضارع في الموضعين باعتبار أنّ المأمور بالدفع بالتي هي أحسن مأمور بتحصيل هذا الخُلق في المستقبل.

{ **إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا** } جيء في الصلة بالماضي للدلالة على أنّ الصبر خلق سابق فيهم صار كالسجية، وهو العون على معاملة المسيء بالحسنى، ولهذه النكتة عدل عن أن يقال: إلّا الصابرون.

{ **إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** } زيد في التنويه بها بأنّها ما تحصل إلّا لذي حظ عظيم.

الحظّ: النصيب من الشيء مطلقا، وقيل: خاص بالنصيب من خير.

والمراد هنا: نصيب الخير، بالقرينة أو بدلالة الوضع. أي: ما يحصل دفع السيئة بالحسنة إلّا لصاحب نصيب عظيم من الفضائل، أي: من الخلق الحسن والاهتداء والتقوى.

فتحصل من هذين أن التخلّق بالصبر شرط في الاضطلاع بفضيلة دفع السيئة بالتي هي أحسن، وأنه ليس وحده شرطا فيها بل وراءه شروط أخر يجمعها قوله { حَظٍّ عَظِيمٍ }، أي: من الأخلاق الفاضلة.

والصبر من جملة الحظ العظيم، وإنّما خُصَّ بالذكر لأنّه أصلها ورأس أمرها وعمودها.

{ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [36]

عطف على جملة { وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا } [35]، فبعد أن أرشد إلى ما هو عون على تحصيل هذا الخلق المأمور به، وهو دفع السيّئة بالتي هي أحسن، وبعد أن شُرحت فائدة العمل بها بقوله { فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [34]، صُرِف العنان هنا إلى التحذير من عوائقها التي تجتمع كثرتها في حقيقة نزغ الشيطان، فأُمر بأنّه إن وجد في نفسه خواطر تصرفه عن ذلك وتدعوه إلى دفع السيئة بمثلها فإنّ ذلك نزغ من الشيطان دواؤه أن تستعيذ بالله منه، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

وفائدة هذه الاستعاذة تجديد داعية العصمة المركوزة في نفس النبيّ صلى الله عليه وسلم، وصقل لزكاء النفس ممّا قد يقترب منها من الكدرات. وقد أشار إليه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" إنّه ليُغان على قلبي وإنّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرة "** [مسلم أبو داود والنسائي]، فبذلك تسلم نفسه من أن يغشاها شيء من الكدرات.

ويلحق به في ذلك صالحو المؤمنين. ففي الحديث القدسي عند الترمذي: **" ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبَّه فإذا أحببت كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينَّه ولئن استعاذني لأعيذنَّه "**.

ثم يلتحق بذلك بقية المؤمنين على تفاوتهم كما دلّ عليه حديث ابن مسعود عند الترمذي، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" إنّ للشيطان لمّة بابن آدم وللمَلَك لمة، فأمّا لمّة الشيطان فإيعادٌ بالشرّ وتكذيب بالحقّ، وأمّا لمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحقّ، فمن وجد ذلك فليعلم أنّه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان "**.

النزغ: النخس، وحقيقته مس شديد للجلد بطرف عود أو إصبع، فهو مصدر، وهو هنا مستعار لاتصال القوّة الشيطانية بخواطر الإنسان، تأمره بالشر وتصرفه عن الخير، وتقدّم في قوله تعالى { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأعراف:200]، وإسناد { ينزغنك } إلى { نزع} مجاز عقلي.

ويجوز أن يكون المراد بالنزغ هنا: النازغ، وهو الشيطان، وصف بالمصدر للمبالغة، و{ من } بيانية.

أي: ينزغنّك النازغ الذي هو الشيطان. والمبالغة حاصلة على التقديرين مع اختلاف جهتها.

{ **وَإِمَّا** } مركبة من (إن) حرف شرط و(ما) زائدة بعده لتوكيد الربط بين الشرط وجوابه وليست لتحقيق حصول الشرط فإنّها تزداد كثيرا بعد (إن) دون أن تكون دالة على الجزم بوقوع فعل الشرط.

وجيء في هذا الشرط بـ (إن) التي الأصل فيها عدم الجزم بوقوع الشرط ترفيعا لقدر النبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنّ نزغ الشيطان له إنّما يُفرض كما يفرض المحال، ألا ترى إلى قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } [الأعراف:201] فجاء في ذلك الشرط بحرف (إذا) التي الأصل فيها الجزم بوقوع الشرط أو بغلبة وقوعه.

{ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } ضمير الفصل لتقوية الحكم وهو هنا حكم كنائي لأنّ المقصود لازم وصف السميع العليم وهو مؤاخذة من تصدر منهم أقوال وأعمال في أذى النبيّ صلى الله عليه وسلم والكيد له ممّن أُمر بأن يدفع سيئاتهم بالتي هي أحسن.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } [37]

عطف على جملة { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } [9]، عطف القصة على القصة، فإنّ المقصود من ذكر خلق العوالم أنّها دلائل على انفراد الله بالإلهية، فلذلك أُخبر هنا عن المذكورات في هذه الجملة بأنّها من آيات الله انتقالا في أفانين الاستدلال.

{ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ** } انتقال من الاستدلال بذوات من مخلوقاته إلى الاستدلال بأحوال من أحوال تلك المخلوقات، فابتدئ ببعض الأحوال السماوية وهي حال الليل والنهار، وحال طلوع الشمس وطلوع القمر، ثم ذكر بعده بعض الأحوال الأرضية { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً } [39].

ويدلّ لهذا الانتقال أنّه انتقل من أسلوب الغيبة الذي في قوله { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً - إلى قوله - وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ } إلى أسلوب خطابهم الذي في قوله { أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ } [9]

الآيات: الدلائل، وإضافتها إلى ضمير الله لأنّها دليل على وحدانيته وعلى وجوده. وتقدّم الكلام على الليل والنهار عند قوله تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَيْلِ والنَّهَارِ } [البقرة:164].

{ **وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ** } المراد هنا حركتهما المنتظمة، وأمّا خلقهما فقد عُلم من خلق السماوات والأرض.

{ **لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ** } ولم أقف على أنّ العرب في زمن نزول القرآن كان منهم من يعبد الشمس والقمر. ولكن وجود عبادة الشمس في اليمن أيام سبأ قبل أن يتهوّدوا يقتضي بقاء آثاره في بعض بلاد

العرب. وقد ذُكر من أصنام العرب صنم اسمه (شمس) وبه سمُّوا (عبد شمس)، وكان يعبده بنو تميم وضبة وعُكل وأُد. وكنت وقفت على أنّ بعض كنانة عبدوا القمر.

على أنّ هدي القرآن لا يختصّ بالعرب بل شيوع دين الصابئة في البلاد المجاورة لهم كاف في التحذير من السجود للشمس والقمر. فالنهي نهي تحذير لمن لم يسجد لهما أن لا يتّبعوا من يعبدونهما.

{ **وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** } وقوع هذا القول بعد النهي عن السجود للشمس والقمر يفيد مفاد الحصر، لأنّ النهي بمنزلة النفي، ووقوع الإثبات بعده بمنزلة مقابلة النفي بالإيجاب، فإنّه بمنزلة النفي والاستثناء في إفادة الحصر. فكأنّه قيل: لا تسجدوا إلّا لله، أي: دون الشمس والقمر.

فجملة { لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ - إلى قوله – تعبدون } معترضة بين جملة { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ } وبين جملة { فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا } [38].

وفي هذه الآية موضع سجود من سجود التلاوة، فقال مالك وأصحابه عدا ابن وهب: السجود عند قوله تعالى { إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } وهو قول علي بن أبي طالب وابن مسعود، وروي عن الشافعي. وقال أبو حنيفة والشافعي في المشهور عنه وابن وهب: هي عند قوله تعالى { وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ } [38]، وهو عن ابن عمر وابن عباس وسعيد بن المسيب.

{ **فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ** } [38].

الفاء للتفريع على نهيهم عن السجود للشمس والقمر وأمرهم بالسجود لله وحده، أي: فإن استكبروا أن يتبعوك وصمّموا على السجود للشمس والقمر، أو فإن استكبروا عن الاعتراف بدلالة الليل والنهار والشمس والقمر على تفرّد الله بالإلهية فالله غني عن عبادتهم.

الاستكبار: قوّة التكبّر، فالسين والتاء للمبالغة.

{ **فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ** } دليل جواب الشرط. والتقدير: فإن تكّبروا عن السجود لله فهو غني عن سجودهم، لأنّ له عبيدا أفضل منهم لا يفترون عن التسبيح له بإقبال دون سآمة.

{ **عِنْدَ رَبِّكَ** } عندية تشريف وكرامة كقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } [لأعراف:206] وهؤلاء الملائكة هم العامرون للعوالم العليا التي جعلها الله مشرفة.

{ **يُسَبِّحُونَ لَهُ** } كل ما يدلّ على تنزيه الله تعالى عمّا لا يليق به وإثبات أضدادها، وذلك بالأقوال، قال تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } [الشورى:5]، أو بالأعمال قال تعالى { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [النحل:50/49]

وذلك ما يقتضيه قوله { وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ } من كون ذلك التسبيح قولا وعملا وليس مجرد اعتقاد.

{ **بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** } لقصد استيعاب الزمان، أي: يسبحون له الزمان كلّه.

{ **وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ** } في موضع الحال وهو أوقع من محمل العطف، لأنّ كون الإخبار عنهم مقيدا بهذه الحال أشد في إظهار عجيب حالهم، إذ شأن العمل الدائم أن يسأم منه عامله.

السآمة: الضجر والملل من الإعياء.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [39].

{ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** } عطف على جملة { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ } [37]، وهذا استدلال بهذا الصنع العظيم على أنّه تعالى منفرد بفعله فهو دليل إلهيته دون غيره، لأن من يفعل ما لا يفعله غيره هو الإله الحق، كقوله تعالى { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ } [النحل:17].

{ **أَنَّكَ** } الخطاب لغير معيّن ليصلح لكلّ سامع.

الخشوع: التذلّل، وهو مستعار لحال الأرض إذا كانت مقحطة لا نبات عليها، لأنّ حالها حينها كحال المتذلّل، وهذا من تشبيه المحسوس بالمعقول.

الاهتزاز: حقيقته مطاوعة هزَّه، إذا حركه بعد سكونه فتحرّك. وهو هنا مستعار لرُبوّ وجه الأرض بالنبات، شُبِّه حال إنباتها وارتفاعها بالماء والنبات بعد أن كانت منخفضة خامدة بالاهتزاز.

{ **وَرَبَتْ** } عطف على { اهْتَزَّتْ } لأنّ المقصود من الاهتزاز هو ظهور النبات عليها وتحرّكه.

الربو: انتفاخها بالماء واعتلاؤها.

وقرأ أبو جعفر { وَرَبَأَتْ } بهمزة بعد الموحدة من (ربأ) بالهمز، إذا ارتفع.

{ **إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } إدماج لإثبات البعث في أثناء الاستدلال على تفرّده تعالى بالخلق والتدبير، ووقوعه على عادة القرآن في التفنّن وانتهاز فرص الهدى إلى الحق.

والجملة استئناف ابتدائي والمناسبة مشابهة الإحياءين.

{ **إِنَّ** } التوكيد لمراعاة إنكار المخاطبين إحياء الموتى.

{ **الَّذِي أَحْيَاهَا** } تعريف المسند إليه بالموصولية لمّا في الموصول من تعليل الخبر. شُبِّه إمداد الأرض بماء المطر الذي هو سبب انبثاق البزور التي في باطنها التي تصير نباتا بإحياء الميت، على طريق الاستعارة التبعية.

{ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [40].

{ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا } استئناف ابتدائي قُصد به التهديد.

الإلحاد: حقيقته الميل عن الاستقامة.

{ **فِي** } للظرفية المجازية لإفادة تمكّن إلحادهم حتّى كأنّه مظروف في آيات الله حيثما كانت أو كلّما سمعوها.

{ **آيَاتِنَا** } تشمل الدلائل الكونية المتقدّمة في قوله { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } [9]، وقوله تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ } [37]. وتشمل الآيات القولية المتقدّمة في قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [26].

فالإلحاد في الآيات مستعار للعدول والانصراف عن دلالة الآيات الكونية على ما دلّت عليه. والإلحاد في الآيات القولية مستعار للعدول عن سماعها وللطعن في صحتها وصرف الناس عن سماعها.

{ **لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا** } مراد به الكناية عن الوعيد تذكيرا لهم بإحاطة علم الله بكل كائن، وهو متصل المعنى بقوله آنفا { وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ } [22].

ومعنى نفي خفائهم: نفي خفاء إلحادهم لا خفاء ذواتهم إذ لا غرض في العلم بذواتهم.

{ **أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } تفريع على الوعيد في قوله { لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا } لبيان أنّ الوعيد بنار جهنم، تعريض بالمشركين بأنّهم صائرون إلى النار، وبالمؤمنين بأنّهم آمنون من ذلك.

{ **أَفَمَنْ** } الاستفهام تفريع مستعمل في التنبيه على تفاوت المرتبتين.

{ **يَأْتِي آمِناً** } كناية أنّ ذلك الفريق مصيره الجنّة إذ لا غاية للآمن إلّا أنّه في نعيم.

وفي الآية محسِّن الاحتباك، إذ حذف مقابل (من يلقى في النار)، وهو: من يدخل الجنة، وحذف مقابل { أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً }، وهو: من يأتي خائفا، وهم أهل النار.

{ **اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } تذييل لجملة { إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا }، كما دلّ عليه قوله عقبه { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ } [41]، أي: لا يخفى علينا إلحادهم ولا غيره من سيّئ أعمالهم. وإنّما خُصَّ الإلحاد بالذكر ابتداء لأنّه أشنع أعمالهم ومصدر أسوئها.

{ **اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ** } الأمر مستعمل في التهديد، أو في الإغراء المكنّى به عن التهديد.

{ **إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } وعيد بالعقاب على أعمالهم على وجه الكناية. وتوكيده بـ (إنّ) لتحقيق معنييه الكنائي والصريح، وهو تحقيق إحاطة علم الله بأعمالهم لأنّهم كانوا شاكين.

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ [41] لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [42] }.

أُعقِب تهديدهم على الإلحاد في آيات الله على وجه العموم بالتعرّض إلى إلحادهم في آيات القرآن، وهو من ذكر الخاص بعد العام للتنويه بخصال القرآن وأنّه ليس بعرضة لأن يُكفر به بل هو جدير بأن يُتقبَّل بالاقتداء والاهتداء بهديه. فلهذه الجملة اتصال في المعنى بجملة { إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا } واتصال في الموقع بجملة { اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ }.

{ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ** } الأظهر أن تكون الجملة واقعة موقع التعليل للتهديد بالوعيد في قوله { لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا } [40]. والمعنى: لأنّهم جديرون بالعقوبة إذ كفروا بالآيات.

والكفر بالقرآن يشمل: إنكار كل ما يوصف به القرآن من دلائل كونه من عند الله، وما اشتمل عليه ممّا خالف معتقدهم ودين شركهم، وذلك بالاختلاقات التي يختلقونها كقولهم: سحر، وشعر، وقول كاهن، وقول جنون.

{ **إنّ** } موقعها موقع فاء التعليل، وخبرها محذوف دلّ عليه سياق الكلام، والأحسن أن يكون تقديره بما تدلّ عليه جملة الحال من جلالة الذكر ونفاسته، فيكون التقدير: خسروا الدنيا والآخرة، أو سفَّهوا أنفسهم أو نحو ذلك ممّا تذهب إليه نفس السامع البليغ. ففي هذا الحذف توفير للمعاني وإيجاز في اللفظ يقوم مقام عدّة جمل.

{ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** } في موضع الحال من الذكر، أي: كفروا به في حاله هذا، ويجوز أن تكون عطفا على جملة { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ } على تقدير خبر { إنَّ } المحذوف. وقد أجري على القرآن ستة أوصاف ما منها واحد إلّا وهو كمال عظيم:

الوصف الأول: { **بِالذِّكْرِ** } أي: يُذكِّر الناس كلّهم بما يغفلون عنه ممّا في الغفلة عنه فوات فوزهم.

الوصف الثاني: من معنى الذكر: أنّه ذِكرٌ للعرب وسمعة حسنة لهم بين الأمم يُخلِّد لهم مفخرة عظيمة، وهو كونه بلغتهم ونزل بينهم، كما قال تعالى { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ } [الزخرف: 44]. وفي قوله تعالى { لَمَّا جَاءَهُمْ } إشارة إلى هذا المعنى الثاني.

الوصف الثالث: { **عَزِيزٌ** } والعزيز النفيس، وأصله من العزّة وهي المنعة، لأنّ الشيء النفيس يدافع عنه ويُحمى عن النبذ، فإنّه بيّن الإتقان وعلوّ المعاني ووضوح الحجّة، ومثل ذلك يكون عزيزا.

والعزيز أيضا: الذي يغلب ولا يُغلب، وكذلك حُجج القرآن.

الوصف الرابع: { **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ** } أي: لا يشتمل على الباطل بحال. فمثَّل ذلك بـ { مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ } والمقصود استيعاب الجهات تمثيلا لحال انتفاء الباطل عنه في ظاهره وفي تأويله.

الوصف الخامس: { **تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ** } ولا يصدر عن الحكيم إلا الحكمة. أي: أنّه مشتمل على الحكمة وهي المعرفة الحقيقية.

الوصف السادس: { **تَنْزِيلٌ** مِنْ حَكِيمٍ **حَمِيدٍ** }، والحميد هو المحمود حمدا كثيرا، أي: مستحق الحمد الكثير، فالكلام المنزَّل منه يستحق الحمد، وإنّما يحمد الكلام إذ يكون دليلا للخيرات وسائقا إليها.

وفي إجراء هذه الوصاف إيماء إلى حماقة الذين كفروا بهذا القرآن وسفاهة آرائهم إذ فرَّطوا فيه ففرَّطوا في أسباب فوزهم في الدنيا وفي الآخرة.

{ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ } [43].

{ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ** } استئناف بياني جواب لسؤال يثيره قوله { إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا } [40]، وقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ } [41]، وما تخلّل ذلك من الأوصاف فيقول سائل: فما بال هؤلاء طعنوا فيه؟ فأجيب بأنّ هذه سنة الأنبياء مع أممهم لا يعدمون معاندين جاحدين يكفرون بما جاءوا به.

وهذا تسلية لنبي صلى الله عليه وسلم بطريق الكناية وأمر له بالصبر على ذلك كما صبر مَن قبله من الرسل.

ولهذا الكلام تفسيران:

التفسير الأوّل: أنّ ما يقوله المشركون في القرآن والنبيّ صلى الله عليه وسلم هو دأب أمثالهم المعاندين من قبلهم، فما صدق { مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ } هو مقالات الذين كذَّبوهم، أي: تشابهت قلوب المكذِّبين فكانت مقالاتهم متماثلة، قال تعالى { أَتَوَاصَوْا بِهِ } [الذاريات:53].

التفسير الثاني: ما قلنا لك إلّا ما قلناه للرسل من قبلك، فأنت لم تكن بدعا من الرسل فيكون لقومك بعض العذر في التكذيب ولكنّهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم، فما صدق { مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ} هو الدين والوحي فيكون من طريقة قوله تعالى { إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى } [الأعلى:18].

وكلا المعنيين وارد في القرآن فيُحمل الكلام على كليهما.

{ **مَا يُقَالُ** } اجتلاب المضارع لإفادة تجدّد هذا القول منهم وعدم ارعوائهم عنه مع ظهور ما شأنه أن يصدّهم عن ذلك.

{ **قَدْ قِيلَ** } اقتران الفعل ب (قد) لتحقيق أنّه قد قيل للرسل مثل ما قالت المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم، فهو تأكيد للازم الخبر وهو لزوم الصبر على قولهم. وهذا على حد قوله تعالى { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [الذريات:53/52].

{ **إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ** } تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ووعد بأنّ الله يغفر له.

ووقوع هذا الخبر عقب قوله { مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ } يومئ إلى أنّ هذا الوعد جزاء على ما لقيه من الأذى في ذات الله وأنّ الوعيد للذين آذوه، فالخبر مستعمل في لازمه.

ومعنى المغفرة له: التجاوز عمّا يلحقه من الحزن بما يسمع من المشركين من أذى كثير.

{ **إِنَّ** } لإفادة التعليل والتسبّب لا للتأكد.

{ **لَذُو / وَذُو** } مؤذنة بأنّ المغفرة والعقاب كليهما من شأنه تعالى وهو يضعهما بحكمته في المواضع المستحقة لكلّ منهما.

وفي الجملة محسّن الجمع ثم التقسيم، فقوله { مَا يُقَالُ لَكَ } يجمع قائلا ومقولا له، فكان الإيماء بوصف { لَذُو مَغْفِرَةٍ } إلى المقول له، ووصف { ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ } إلى القائلين، وهو جار على طرقة اللف والنشر المعكوس وقرينة المقام ترد كلًّا إلى مناسبه.

{ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}[44].

اتصال نظم الكلام من أوّل السورة إلى هنا وتناسب تنقّلاته بالتفريع والبيان والاعتراض والاستطراد يقتضي أنّ قوله { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا } إلى آخره تنقل في درج إثبات أنّ قصدهم العناد فيما يتعلّلون به ليوجّهوا إعراضهم عن القرآن والانتفاع بهديه، بما يختلقونه عليه من الطعن فيه والتكذيب به، وتكلّف الأعذار الباطلة، ليتستّروا بذلك من الظهور في مظهر المنهزم المحجوج، فأخذ ينقض دعاويهم عروة عروة.

إذ ابتدئت السورة بتحدّيهم بمعجزة القرآن بقوله تعالى { حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً - إلى قوله - فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ } [1-4]، فهذا تحد لهم ووصف للقرآن بصفة الإعجاز.

ثم أخذ في إبطال معاذيرهم ومطاعنهم بقوله تعالى { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ } [5]، فإنّ قولهم ذلك قصدوا به أنّ حجّة القرآن غير مقنعة لهم، إغاظة منهم للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

ثم تمالئهم على الإعراض بقوله { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [26]، وهو عجز مكشوف بقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا } [40] وبقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ } [41].

فأعقبها بأوصاف كمال القرآن التي لا يجدون مطعنا فيها بقوله تعالى { وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ } [41].

وإذ قد كانت هذه المجادلات من أوّل السورة إلى هنا إبطالا لتعلّلاتهم، وكان عماده على أنّ القرآن عربي

مفصّل الدلالة المعروفة في لغتهم حسبما ابتدئ الكلام بقوله { كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [3]،وانتهي هنا بقوله { وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ } [42/41]، فقد نهضت الحجّة عليهم بدلالته على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الجهة، فانتقل إلى حجّة أخرى عمادها الفرض والتقدير أن يكون قد جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقرآن من غير لغة العرب.

{ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ** } معطوفة على جملة { وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ } [41] على الاعتبارين المتقدّمين آنفا في موقع تلك الجملة.

ومعنى الآية متفرّع على ما يتضمّنه قوله تعالى { كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [3]، وقوله تعالى { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ } [6] من التحدّي بصفة الأمّية كما علمت آنفا. أي: لو جئناهم بلون آخر من معجزة الأمية، فأنزلنا على الرسول قرآنا أعجميا، وليس للرسول صلى الله عليه وسلم علم بتلك اللغة من قبل، لقلبوا معاذيرهم فقالوا: لولا بيّنت آياته بلغة نفهمها، وكيف يخاطبنا بكلام أعجمي.

فالكلام جار على طريقة الفرض كما هو مقتضى حرف { لو } الامتناعية. وهذا إبانة على أنّ هؤلاء القوم لا تجدي معهم الحجّة ولا ينقطعون عن المعاذير لأنّ جدالهم لا يريدون به تطلّب الحق وما هو إلّا تعنّت.

وفي الآية إشارة إلى عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للعرب والعجم، فلم يكن عجبا أن يكون الكتاب المنزّل عليه بلغة غير العرب لولا أنّ في إنزاله بالعربية حكمة علمها الله.

{ **جَعَلْنَاهُ** } الضمير عائد إلى { الذكر } في قوله { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ } [41].

الأعجمي: المنسوب إلى أعجم، والأعجم مشتق من العجمة وهي عدم الإفصاح، فالأعجم: الذي لا يفصح باللغة العربية. فالأعجمي من صفات الكلام.

{ **لَوْلَا** } حرف تحضيض.

{ **فُصِّلَتْ** } بُيّنت ووضِّحت. أي: لولا جُعلت آياته عربية نفهمها.

{ **أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ** } بقية ما يقولونه على فرض أن يُجعل القرآن أعجميا. أي: أنّهم لا يخلون من الطعن في القرآن على كل تقدير. و(الواو) للعطف بمعنى المعية. أي: كيف يكون اللفظ أعجميا والمخاطب به عربيا كأنهم يقولون: أيلقى لفظ أعجمي إلى مخاطب عربي.

وحاصل معنى الآية تؤذن بكلام مقدّر داخل في صفات الذكر، وهو أنّه بلسان عربي بلغتكم إتماما لهديكم فلم تؤمنوا به وكفرتم وتعلّلتم بالتعلّلات الباطلة، فلو جعلناه أعجميا لقلتم: هلا بيِّنت لنا حتّى نفهمه.

{ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ** } هذا جواب تضمّنه قوله { مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ } [43]، أي: ما يقال من الطعن في القرآن، فجوابه: أنّ ذلك الذكر أو الكتاب للذين آمنوا هدى وشفاء، أي: أنّ تلك الخصال العظيمة للقرآن حرمهم كفرهم الانتفاع بها وانتفع بها المؤمنون، فكان لهم هديا وشفاء.

الشفاء: حقيقته زوال المرض وهو مستعار هنا للبصارة بالحقائق وانكشاف الالتباس من النفس، كما يزول المرض عند حصول الشفاء، يقال: شُفيت نفسه، إذا زال حرجه. ونظيره قولهم: شُفي غليله.

{ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً } معطوفة على الجملة السابقة، فهي مستأنفة استئنافا ابتدائيا، أي: وأمّا الذين لا يؤمنون فلا تتخلّل آياته نفوسهم لأنّهم كمن في آذانهم وقر دون سماعه، وهو ما تقدّم في حكاية قولهم { وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ } [5]، ولهذا الاعتبار كان معنى الجملة متعلّقا بأحوال القرآن مع الفريق غير المؤمن.

الوقر: داء فمقابلته بالشفاء من محسّن الطباق.

العمى: عدم البصر، وهو مستعار هنا لضد الاهتداء فمقابلته بالهدى فيها محسّن الطباق.

والإسناد إلى القرآن على هذا الوجه في معاد الضمير بأنّه عليهم عمى من الإسناد المجازي لأنّ عنادهم في قبوله كان سببا لضلالهم، فكان القرآن سَبَبَ سَبَبٍ، كقوله تعالى { وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ } [التوبة: 125].

ويجوز أن يكون ضمير { وَهُوَ } ضمير شأن تنبيها على فظاعة ضلالهم. وجملة { عَلَيْهِمْ عَمىً } خبر ضمير الشأن، أي: وأعظم من الوقر أنّ عليهم عمى، أي: على أبصارهم عمى، كقوله تعالى { وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } [البقرة:7]. وإنّما علق العمى بالكون على ذواتهم لأنّه لمّا كان عمى مجازيا تعيّن أنّ مصيبته عمّة أنفسهم كلّها لا على أبصارهم خاصة، فإنّ عمى البصائر أشدّ ضرًّا من عمى الأبصار كقوله تعالى { فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } [الحج: 46].

{ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ } خبر ثالث عن { الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ } والكلام تمثيل لحال إعراضهم عن الدعوة عند سماعها بحال من يُنادَى من مكان بعيد، على نحو قوله تعالى { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ } [البقرة:171]. وتقول العرب لمن لا يفهم: أنت تنادى من مكان بعيد.

{ **أُولَئِكَ** } الإشارة إلى { الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ } لقصد التنبيه على أنّ المشار إليهم بعد تلك الوصاف أحرياء بما سيذكر بعدها من الحكم من أجلها.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ } [45]

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ** } اعتراض بتسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم على تكذيب المشركين وكفرهم بالقرآن بأنّه ليس بأوحد في ذلك فقد أوتي موسى التوراة فاختلف الذين دعاهم في ذلك.

والاختلاف في التوراة كان على نوعين:

<u>اختلاف فيها بين مؤمن بها وكافر</u>، فقد كفر بدعوة موسى فرعون وقومه، وبعض بني إسرائيل مثل قارون، ومثل الذين عبدوا العجل في مغيب موسى للمناجاة.

<u>واختلاف بين المؤمنين بها</u> اختلافا عطّلوا به بعض أحكامها، كما قال تعالى { وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ } [البقرة:253].

وكلا الاختلافين موضع عبرة وأسوة لاختلاف المشركين في القرآن.

{ **وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** } هذا متعلّق بالذين كذّبوا بالقرآن من العرب، لأنّ قوله { لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } يقتضي أنّ الله أخر القضاء بينهم وبين المؤمنين إلى أجل اقتضته حكمته. أمّا قوم موسى فقد قُضى بينهم باستئصال قوم فرعون، وبتمثيل الآشوريين باليهود بعد موسى، وبخراب بيت المقدس، وزوال ملكهم.

وهذا الكلام داخل في إتمام التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في استبطاء النصر.

{ **كَلِمَةٌ** } هي كلمة الإمهال إلى يوم القيامة بالنسبة لبعض المكذّبين، والإمهال إلى يوم بدر بالنسبة لمن صُرعوا ببدر.

{ **سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ** } أي: تقدّمت في علمه على مقتضى حكمته وإرادته. والتعبير عن الجلالة بلفظ { رَبِّكَ } لما في معنى الربّ من الرأفة به والانتصار له، ولما في الإضافة إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم من التشريف. وكلا الأمرين تعزيز للتسلية.

الأجل المسمّى: جنس يصدق بكل ما أجّل به عقابهم في علم الله.

{ **وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** } الضمير خاص بالمشركين الشاكين في البعث والشاكين في أنّ الله ينصر رسوله والمؤمنين.

الريب: الشك، فوصف { شَكٍّ } بـ { مُرِيبٍ } من قبيل الإسناد المجازي لقصد المبالغة بأن اشتق له من اسمه وصف، كقولهم: ليل أليل، وشعر شاعر.

{ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** } [46].

هذا من مكمِّلات التسلية ومن مناسبات ذكر الأجل المسمّى. وفيه معنى التذييل لأنّ { **مَن** } في الموضعين مفيدة للعموم سواء اعتبرت شرطية أو موصولة. ووجود (الفاء) في الموضعين؛ إمّا لأنّهما جوابان للشرط، وإمّا لمعاملة الموصول معاملة الشرط وهو استعمال كثير. والمعنى: أنّ الإمهال إعذار لهم ليتداركوا أمرهم.

{ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** } تقدم نظيرها في [غافر:31]. والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، وفيه ما تقدّم من تعزيز تسليته.

{ **بِظَلَّامٍ** } الوصف المصوغ بصيغة المبالغة من تمام عدل الله تعالى أن جعل كل درجّات الظلم في رتبة الظلم الشديد.

{ **إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ [47] وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ [48]** }.

كانوا إذا أنذروا بالبعث وساعته استهزأوا فسألوا عن وقتها، وكان ذلك ممَّا يتكرّر منهم، قال تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا } [الأعراف:187]، فلمّا جرى ذكر دليل إحياء الموتى وذكر إلحاد المشركين في دلالته، بسؤالهم عنها استهزاء، انتقل الكلام إلى حكاية سؤالهم تمهيدا للجواب عن ظاهره.

{ **إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ** } تقديم المجرور على متعلقه لإفادة الحصر، أي: إلى الله يفوّض علم الساعة لا إليَّ، فهو قصر قلب. وردّ عليهم بطريق الأسلوب الحكيم، أي: الأجدر أن تعلموا أن لا يعلم أحد متى الساعة، وأن تؤمنوا بها وتستعدّوا لها. ومثله قول النبيّ صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل من المسلمين: متى الساعة؟ فقال له: **"ماذا أعددت لها ؟ "**، أي: استعدادك لها أولى بالاعتناء من أن تسأل عن وقتها.

الردُّ: الإرجاع، وهو مستعمل لتفويض علم ذلك إلى الله والتبرّؤ من أن يكون للمسؤول علم به.

قال تعالى { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ } [النساء:83].

{ **وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ** } توجيه لصرف العلم بوقت الساعة إلى الله بذكر نظائر لا يعلم تفصيل حالها إلّا الله، أي: فليس في عدم العلم بوقت الساعة حجّة على تكذيب من أنذر بها. فهذا وجه ذكر تلك النظائر، وهي ثلاثة أشياء:

أوّلها: علم ما تُخرجه أكمام النخيل من الثمر بقدره، وجودته، وثباته أو سقوطه.

الأكمام: جمع كِمّ (بكسر الكاف وتشديد الميم) وهو وعاء الثمر وهو الجُف الذي يخرج من النخلة محتويا

على طلع الثمر. وضمير { أَكْمَامِهَا } راجع إلى الثمرات.

ثانيها: حمل الأنثى من الناس والحيوان، ولا يعلم التي تلقح من التي لا تلقح إلا الله.

ثالثها: وقت وضع الأجنة، فإن الإناث تكون حوامل مثقلة ولا يعلم وقت وضعها باليوم والساعة إلّا الله.

{ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ }

عطف على التي قبلها، فإنه لمّا تضمّن قوله تعالى { إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ } إبطال شبهتهم بأنّ عدم بيان وقتها يدل على انتفاء حصولها، وأتبع ذلك بنظائر لوقت الساعة ممّا هو جار في الدنيا، عاد الكلام إلى شأن الساعة على وجه الإنذار مقتضيا إثبات وقوع الساعة بذكر بعض ما يلقونه في يومها.

{ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ } متعلّق بمحذوف شائع حذفه في القرآن، تقديره: واذكر يوم يناديهم. والضمير عائد إلى {رَبِّكَ} في قوله { وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ }، والنداء كناية عن الخطاب العلني. وتقدّم عند قوله تعالى { رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ } [آل عمران:193]، وقوله تعالى { وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا } [الأعراف:43].

{ أَيْنَ شُرَكَائِي } يصحّ أن يكون مقول قول محذوف، كما صرّح به في قوله تعالى { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } [القصص:62]، وقوله تعالى { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ } [القصص:65] وحذف القول ليس بعزيز. ويصح أن تكون مبيّنة لما تضمنه { يُنَادِيهِمْ } من معنى الكلام.

{ قَالُوا آذَنَّاكَ } جاءت الجملة غير معطوفة لأنّها جارية على طريقة حكاية المحاورات. و{ آذناك } أخبرناك وأعلمناك. وأصل هذا الفعل مشتق من الاسم الجامد **الأُذْن** (بضم الهمزة وسكون الذال)، قال تعالى { فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ } [الانبياء: 109]. وصيغة الماضي في { آذناك } إنشاء، فهو بمعنى الحال مثل: بعت، أي: نأذنك ونقرّ بأنّه ما منا من شهيد.

الشهيد: يجوز أن يكون هنا بمعنى المشاهد، أي: المبصر، أي: ما أحد منّا يرى الآن الذين كنّا ندعوهم شركاءك، فتكون جملة { وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ } في موضع الحال. ويجوز أن يكون الشهيد بمعنى الشاهد، أي: ما منّا أحد يشهد أنّهم شركاؤك، فيكون ذلك اعترافا بكذبهم فيما مضى، وتكون جملة { وَضَلَّ عَنْهُمْ } معطوفة على جملة { قَالُوا آذَنَّاكَ }، أي: قالوا ذلك ولم يجدوا واحدا من أصنامهم.

{ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ } حقيقته غاب عنهم، أي: لم يجدوا ما كانوا يدعونهم من قبل في الدنيا، قال تعالى { بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ } [الأحقاف:28] فالمراد هنا: غيبة أصنامهم عنهم وعدم وجودها.

{ **وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ** } وإذ لم يجدوا ما كانوا يزعمونه فقد علموا أنّهم لا محيص لهم، أيّ لا ملجأ لهم من العذاب الذي شاهدوا إعداده، فالظنّ هنا بمعنى اليقين.

المحيص: مصدر ميمي أو اسم مكان من: حاص يحيص، إذا هرب، أي: ما لهم مفرّ من النار.

{ **لا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ** [49] **وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ** [50] }.

اعتراض بين أجزاء الوعيد. والمعنى: وعلموا ما لهم من محيص، وقد كانوا إذا أصابتهم نعماء...

{ **لا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ** } أي: أنّه لا يكتفي، فأطلق على الاكتفاء والاقتناع السآمة. وهي الملل على وجه الاستعارة، بتشبيه استرسال الإنسان في طلب الخير بالعمل الدائم الذي شأنه أن يسأم منه عامله فنفي السآمة عنه رمز للاستعارة. قال تعالى { وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ } [العاديات:8].

الدعاء: أصله الطلب بالقول، وهو هنا مجاز في الطلب مطلقا، فتكون إضافته إلى الخير من إضافة المصدر إلى ما في معنى المفعول، أي: الدعاء بالخير أو طلب الخير.

{ **وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ** } من خلق قلّة صبر الإنسان على ما يُتعبه ويشقّ عليه فيضجر إن لحقه شرّ ولا يوازي بين ما كان فيه من خير، فيقول: لئن مسّني الشر زمنا لقد حلّ بي الخير أزمانا، فمن الحقّ أن أتحمّل ما أصابني كما نعمت بما كان لي من خير، ثم لا ينتظر إلى حين انفراج الشر عنه وينسى الإقبال على سؤال الله أن يكشف عنه الضرّ بل ييأس ويقنط، غضبا وكبرا.

اليأس :فعل قلبي هو اعتقاد عدم حصوله المأيوس منه.

القنوط: انفعال بدني من أثر اليأس، وهو انكسار وتضاؤل.

وقد جاءت تربية الشريعة للأمّة على ذمّ القنوط، قال تعالى حكاية عن إبراهيم { قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } [الحجر:56]، وفي الحديث: **" انتظار الفرج بعد الشدّة عبادة "**.

فالآية وصفت خلقين ذميمين: أحدهما خلق البطر بالنعمة والغفلة عن شكر الله عليها. وثانيهما اليأس من رجوع النعمة عند فقدها.

وفي نظم الآية لطائف من البلاغة.

الأولى: التعبير عن دوام طلب النعمة بعدم السآمة كما علمته.

الثانية: التعبير عن محبة الخير بدعاء الخير.

الثالثة: التعبير عن إضافة الضرّ بالمس الذي هو أضعف إحساس الإصابة.
الرابعة: اقتران شرط مس الشر بـ (إن) التي من شأنها أن تدخل على النادر وقوعه، فإنّ إصابة الشر الإنسان نادرة بالنسبة لما هو مغمور به من النعم.
الخامسة: صيغة المبالغة في { يئوس }.
السادسة: إتباع { يئوس } بـ { قنوط } الذي هو تجاوز إحساس اليأس إلى ظاهر البدن بالانكسار، وهو من شدّة يأسه، فحصلت مبالغتان في التعبير عن يأسه بأنّه اعتقاد في ضميره وانفعال في سحناته.
فالمشرك يتأصل فيه هذا الخلق ويتزايد باستمرار الزمان: والمؤمن لا تزال تربية الإيمان تكفه عن هذا الخلق حتى يزول منه أو يكاد.
{ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى }
ثم بينت الآية خلقا آخر في الإنسان وهو أنّه إذا زال عنه كربه وعادت إليه النعمة نسي ما كان فيه من الشدّة ولم يتفكّر في لطف الله به فبطر النعمة، وقال: قد استرجعت خيراتي بحيلتي وتدبيري، وهذا الخير حق لي حصلت عليه، ثم إذا كان من أهل الشرك، وهم المتحدّث عنهم، تراه إذا سمع إنذار النبيّ صلى الله عليه وسلم بقيام الساعة أو هجس في نفسه هاجس عاقبة هذه الحياة قال لمن يدعوه إلى العمل ليوم الحساب، أو قال في نفسه { مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً }، ولئن فرضت قيام الساعة على احتمال ضعيف فإني سأجد عند الله المعاملة بالحسنى لأنّي من أهل الثراء والرفاهية في الدنيا فكذلك سأكون يوم القيامة.
كما حكى الله تعالى عن العاصي بن وائل حين اقتضاه خبَّاب بن الأرت مالا له عنده من أجر صناعة سيف فقال له: حتّى تكفر بمحمد. فقال خباب: لا أكفر بمحمد حتّى يميتك الله ويبعثك، فقال: أو إنّي لميت فمبعوث؟ قال: نعم. فقال: لئن بعثني الله فسيكون لي مالي فأقضيك، فأنزل الله تعالى { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً } [مريم:77].
{ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً } ذكر إنكار البعث هنا إدماج بذكر أحوال الإنسان المشرك في عموم أحوال الإنسان. والإخبار عن الإنسان بأنه يقول: ما أظن الساعة قائمة، صريح أن المخبر عنه من المشركين معيَّنا كان أو عاما عموما عرفيا. فقيل المراد بالإنسان: المشركون كلّهم، وقيل أريد به مشرك معين، قيل هو الوليد بن المغيرة، وقيل عتبة بن ربيعة. وأيا ما كان فالإخبار عن إنسان كافر.
{ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى } لعل قوله إنما هو على سبيل الاستهزاء كما في مقاله العاصي بن وائل. وجيء في حكاية قوله { وَلَئِنْ رُجِعْتُ } بحرف (إن) الشرطية التي يغلب وقوعها في الشرط المشكوك وقوعه لأنّه جعل رجوعه إلى الله أمرا مفروضا ضعيف الاحتمال.

الحسنى: صفة لموصوف محذوف، أي: الحالة الحسنة، أو المعاملة الحسنة.

{ **فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ** } تفريع على { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي }[47] أي: فلنعلمنَّهم بما عملوا عَلَنًا يعلمون به أنّا لا يخفى علينا شيء ممّا عملوه وتقريعا لهم.

الغليظ: حقيقته الصلب، قال تعالى { فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ } [الفتح:29]، وهو هنا للقويّ في نوعه، أي: عذاب شديد الإيلام. كما استعير للقساوة في المعاملة، كما في قوله تعالى { وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } [التوبة:73].

الإذاقة: مجاز في مطلق الإصابة في الحس، لإطماعهم أنّها إصابة خفيفة كإصابة الذوق باللسان.

وهذا تجريد للمجاز كما أنّ وصفه بالغليظ تجريد ثان، فحصل من ذلك ابتداء مُطْمِع وانتهاء مُؤَيِّس.

{ **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ** } [51].

هذا وصف وتذكير بضرب آخر من طغيان النفس الإنسانية غير خاص بأهل الشرك، بل هو منبثّ في جميع الناس على تفاوت، إلّا من عصم الله. وهو توصيف لنزق النفس الإنساني وقلّة ثباته، فإذا أصابته السرّاء طغا وتكبّر ونسي شكر ربه، نسيانا قليلا أو كثيرا، وشُغل بلذاته، وإذا أصابته الضرّاء لم يصبر وجزع ولجأ إلى ربّه يلحّ بسؤال كشف الضرّ عنه سريعا.

فهذا التفنُّن في وصف أحوال الإنسان مع ربّه هو الذي دعا إلى ما اشتمل عليه قوله { وَإِذَا أَنْعَمْنَا } من بعض التكرير لما ذكر في الضرب المتقدّم لزيادة تقريره، وللإشارة إلى اختلاف الحالتين باعتبار الشرك وعدمه مع اتحادهما في مثار الجملة الإنسانية، وباعتبار ما قدّره الله للإنسان.

الإعراض: الانصراف عن شيء، وهو مستعار هنا للغفلة عن شكر المنعم، أو التعمّد لترك الشكر. والمتعلّق محذوف لدلالة السياق عليه، والتقدير: أعرض عن دعائنا.

النأي: البعد، وهو هنا مستعار لعدم التفكّر في المنعم عليه، فشُبِّه عدم اشتغاله بذلك بالبعد.

{ **وَنَأَى بِجَانِبِهِ** } والجانب للإنسان منتهى جسمه من إحدى الجهتين اللتين ليستا قبالة وجهه وظهره، ويسمَّى الشِّقّ والعِطف (بكسر العين)، والباء للتعدية. والمعنى: أبعد جانبه، كناية عن إبعاد نفسه، أي: ولَّى معرضا.

{ **مَسَّهُ الشَّرُّ** } أصابه شر بسبب عادي. وعدل عن إسناد إصابة الشر إلى الله تعليما للأدب مع الله كما قال إبراهيم عليه السلام { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء:80].

{ **فَذُو دُعَاءٍ** } عدل عن أن يقال: فداع، لما تشعر به كلمة (ذو) من ملازمة الدعاء له وتملّكه منه.

الدعاء: الدعاء لله بكشف الشرّ عنه. وتوجه المشركين إلى الله بالدعاء هو أقوال تجري على ألسنتهم توارثوها من عادات سالفة من أزمان تديّنهم بالحنيفيّة قبل أن تدخل عليهم عبادة الأصنام.

{ **عَرِيضٍ** } استعارة، لأن العَرض (بفتح العين) ضد الطول، والشيء العريض هو المتسع مساحة العرض، فشُبِّه الدعاء المتكرّر المُلَّحُ فيه بالثوب أو المكان العريض.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } [52]

استئناف ابتدائي متصل بقوله { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ - إلى قوله - لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ } [45]. انتقال إلى المجادلة في شأن القرآن رجع به إلى الغرض الأصلي من هذه السورة وهو بيان حقِّيَّة القرآن وصدقه وصدق من جاء به. وهذا استدعاء ليُعمِلوا النظر في دلائل صدق القرآن؛ مثل إعجازه واتّساقه وتأييد بعضه بعضا، وكونه مؤيِّدا للكتب قبله، وكون تلك الكتب مؤيّدة له.

<u>والمعنى</u>: ما أنتم عليه من إنكار صدق القرآن ليس صادرا عن نظر وتمحيص يُحصِّل اليقين وإنّما جازفتم به قبل النظر، وهذا من الكلام المنصف، فهم لمّا أنكروا أن يكون من عند الله وصدُّوا أنفسهم وعامتهم عن الاستماع إليه والتدبّر فيه فقد أعملوا شهوات أنفسهم وأهملوا الأخذ بالحيطة لهم بأن يتدبّروه حتّى يكونوا على بيّنة من أمرهم في شأنه، فاستدعاهم الله إلى النظر بطريق تجويز أن يكون من عند الله، فإنّه إذا جاز ذلك وكانوا قد كفروا به دون تأمّل كانوا قد قضوا على أنفسهم بالضلال الشديد.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ** } الفعل معلّق عن العمل لوجود الاستفهام بعده، والرؤية علمية.

{ **ثُمَّ كَفَرْتُمْ** } للتراخي الرتبي لأنّ الكفر بما هو من عند الله أمره أخطر من كون القرآن من عند الله.

{ **مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ** } { مَنْ } الأولى للاستفهام وهو مستعمل في معنى النفي، أي: لا أضلّ ممّن هو في شقاق بعيد إذا تحقق الشرط. و{ مَنْ } الثانية موصولة وما صدقها المخاطبون بقوله { كَفَرْتُمْ بِهِ } فعدل عن الإضمار إلى طريق الموصول لما تأذن به الصلة من تعليل أنّهم أضلّ الضالين بكونهم شديدي الشقاق، وذلك كناية عن كونهم أشدّ الخلق عقوبة، لما هو معلوم من أنّ الضلال سبب للخسران.

الشقاق: العصيان. والمراد: عصيان أمر الله لظهور أنّ القرآن من عنده على هذا الفرض بيننا.

البعيد: واسع المسافة، واستعير هنا للتشديد في جنسه، ومناسبة هذه الاستعارة للضلال لأنّ الضلال أصله عدم الاهتداء إلى الطريق، وتقدّم في قوله { وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } [البقرة:176].

{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [53]

{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } أعقب الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين ما فيه تخويفهم من عواقب الشقاق، على تقدير أن يكون القرآن من عند الله وهم قد كفروا به إلى آخر ما قُرّر آنفا، بأن وعد رسوله صلى الله عليه وسلم، على سبيل التسلية والبشارة، بأنّ الله سيغمر المشركين بطائفة من آياته ما يتبيّنون به أنّ القرآن من عند الله حقا فلا يسعهم إلّا الإيمان به، وستظهر دلائل حقِّيّته في الآفاق البعيدة عنهم وفي قبيلتهم وأنفسهم فتتظاهر الدلائل على أنّه الحق فلا يجدوا إلى إنكارها سبيلا. وفي هذا الوعد للرسول صلى الله عليه وسلم تعريض بهم.

فموقع هذه الجملة، بصريحها وتعريضها، من الجملة التي قبلها موقع التعليل لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما أمر به، والتعليل راجع إلى إحالتهم على تشكيكهم في موقفهم للطعن في القرآن.

وفي هذه الآية طرف من الإعجاز بالإخبار عن الغيب إذ أخبرت بالوعد بحصول النصر له ولدينه وذلك بما يسر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ولخلفائه من بعده في آفاق الدنيا.

الآفاق: جمع أُفُق (بضمتين وتسكن فاؤه) هو الناحية من الأرض المتميزة عن غيرها، والناحية من السماء.

{ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ } يجوز أن يكون من عطف الخاص على العام، أي: وفي أفق أنفسهم، أي: مكّة وما حولها. والأحسن أن يكون { فِي الْآفَاقِ } على عمومه الشامل لأفقهم، ويكون معنى { وَفِي أَنْفُسِهِمْ } أنّهم يرون آيات صدقه في أحوال تصيب أنفسهم، أي: ذواتهم مثل الجوع الذي دعا عليهم به النبي صلى الله عليه وسلم ونزل فيه قوله تعالى { فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ } [الدخان:10]، ومثل ما شاهدوه من مصارع كبرائهم يوم بدر.

{ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } عطف على إعلام الرسول بما سيظهر من دلائل صدق القرآن وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم زيادة لتثبيت الرسول وشرح صدره بأنّ الله تكفّل له بظهور دينه ووضوح صدقه في أرض قومه وفي سائر أقطار الأرض ، على طريقة الاستفهام التقريري تحقيقا لتيقن النبيّ صلى الله عليه وسلم بكفالة ربّه.

المعنى: تكفيك شهادة ربك بصدقك فلا تلتفت لتكذيبهم، وهذا على حد قوله تعالى { لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً } [النساء:166]، وقوله تعالى { وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً } [النساء:79].

وهنالك وجه آخر أن يكون مساقها مساق تلقين النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يستشهد بالله على أنّ القرآن من

عند الله، فيكون موقعها موقع القسم بإشهاد الله، فيكون الاستفهام إنكاريا، إنكارا لعدم الاكتفاء بالقسم بالله، فيكون معنى الآية قريبا من معنى قوله تعالى { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } [الرعد:43]، وقوله { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً } [العنكبوت:52].

{ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ } [54]

تذييلان للسورة وفذلكتان افتُتحا بحرف التنبيه اهتماما بما تضمَّناه.

فأمّا الأول فهو جماع ما تضمّنته السورة من أحوال المشركين المعاندين، إذ كانت أحوالهم المذكورة فيها ناشئة عن إنكارهم البعث، فانحصرت مساعيهم في تدبير الحياة الدنيا وانكبوا على ما يعود عليهم بالنفع فيها.

وأمّا الثاني فهو جامع لكلّ ما تضمَّنته السورة من إبطال لأقوالهم وتقويم لاعوجاجهم، لأنّ ذلك كلّه من آثار علم الله تعالى بالغيب والشهادة.

{ أَلا إِنَّهُمْ / أَلا إِنَّهُ } تأكيد الجملتين بحرف التأكيد مع أنّ المخاطب بهما لا يشك في ذلك لقصد الاهتمام بهما واستدعاء النظر لاستخراج ما تحويانه من المعاني والجزئيات.

المرية: (بكسر الميم وهو الأشهر فيها) وهو لغة مثل: خفية وخفية: الشك.

{ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ } أي: في مرية من وقوع لقاء ربهم وعدم وقوعه، كقوله تعالى { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا } [البقرة: 23] أي: في ريب من كونه منزلا.

وأطلق الشك على جزمهم بعدم وقوع البعث لأنّ جزمهم خلي عن الدليل الذي يقتضيه، فكان إطلاق الشك عليه تعريضا بهم بأنّ الأولى بهم أن يكونوا في شك على الأقل.

{ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ } ووصف الله بالمحيط مجاز عقلي لأنّ المحيط بكل شيء هو علمه.

وبهاتين الفذلكتين آذن بانتهاء الكلام فكان من براعة الختام.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشورى

اشتهرت تسميتها عند السلف (**حم عسق**)، وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير والترمذي في جامعه، وكذلك سُمِّيت في عدّة من كتب التفسير وكثير من المصاحف. وتُسمَّى (**سورة الشورى**)، وبذلك سُمِّيت في كثير من المصاحف والتفاسير. ولم يعدّها في الإتقان في عداد السور ذات الاسمين فأكثر. ولم يثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم شيء في تسميتها.

وهي مكّية كلها عند الجمهور، عن ابن عباس وقتادة استثناء أربع آيات أولاها قوله { قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى } [23]، وعن مقاتل استثناء قوله { ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا - إلى قوله - إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [24]. قيل نزلت في الأنصار وهي داخلة في الآيات التي ذكرها ابن عباس. وفي أحكام القرآن لابن الفرس عن مقاتل: أن قوله تعالى { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ } [27] نزل في أهل الصُفّة فتكون مدنية، وفيه عنه أن قوله تعالى { وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ - إلى قوله - مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ } [39-41] نزل بالمدينة.

نزلت بعد سورة الكهف وقبل سورة إبراهيم، وعُدَّت التاسعة والستين في ترتيب نزول السور عند الجعبري. وإذا صحّ أنّ آية { وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا } [28] نزلت في انحباس المطر عن أهل مكّة، كما قال مقاتل، تكون السورة نزلت في حدود سنة ثمان بعد البعثة، ولعلّ نزولها استمر إلى سنة تسع بعد أن آمن نقباء الأنصار ليلة العقبة، فقد قيل: إنّ قوله تعالى { وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ } [38] أريد به الأنصار قبل الهجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

وعُدَّت آيها عند أهل المدينة ومكة والشام والبصرة خمسين، وعند أهل الكوفة ثلاثا وخمسين.

أغراض السورة

*/ أوّل أغراضها الإشارة إلى تحدِّي الطاعنين في أنّ القرآن وحي من الله بأن يأتوا بكلام مثله، فهذا التحدّي لا تخلو عنه السور المفتتحة بالحروف الهجائية المقطعة، كما تقدّم في سورة البقرة.

*/ استدل الله على المعاندين بأنّ الوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما هو إلّا كالوحي إلى الرسل من قبله لينذر أهل مكة ومن حولها بيوم الحساب.

*/ أنّ الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض لا تُعارض قدرته ولا يُشك في حكمته، وقد خضعت له العوالم العليا ومن فيها، وهو فاطر المخلوقات، فهو يجتبي من يشاء لرسالته فلا بدع أن يشرع للأمّة المحمدية من الدين مثل ما شرع لمن قبله من الرسل.

*/ ما أرسل الله الرسل إلّا من البشر يوحي إليهم فلم يسبق أن أرسل ملائكة لمخاطبة عموم الناس مباشرة.

*/ أنّ المشركين بالله لا حجّة لهم إلّا تقليد أئمة الكفر الذين شرعوا لهم الإشراك وألقوا إليهم الشبهات.

*/ حذّرهم يوم الجزاء واقتراب الساعة وما سيلقى المشركون يوم الحساب من العذاب، مع إدماج التعريض بالترغيب فيما سيلقاه المؤمنون من الكرامة.

*/ أنّهم لو تدبّروا لعلموا أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يأتي عن الله من تلقاء نفسه لأنّ الله لا يقرّه على أن يقول عليه ما لم يقله.

*/ ذكرت دلائل الوحدانية وما هو من تلك الآيات نعمة على الناس، مثل دليل السير في البحر وما أوتيه الناس من نعم الدنيا.

*/ تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّ الله هو متولي جزاء المكذبين وما على الرسول صلى الله عليه وسلم من حسابهم من شيء فما عليه إلّا الاستمرار على دعوتهم إلى الحق القويم.

*/ نبّههم إلى أنّه لا يبتغي منهم جزاء على نصحه لهم وإنّما يبتغي أن يراعوا أواصر القرابة بينه وبينهم.

*/ ذكَّرهم نعم الله عليهم، وحذَّرهم من التسبّب في قطعها بسوء أعمالهم، وحرّضهم على السعي في أسباب الفوز في الآخرة والمبادرة إلى ذلك قبل الفوات، فقد فاز المؤمنون المتوكّلون، ونوّه بجلائل أعمالهم وتجنبهم التعرض لغضب الله عليهم.

*/ تخلل ذلك تنبيه على آيات كثيرة من آيات انفراده تعالى بالخلق والتصرّف المقتضي انفراده بالإلهية.

*/ ختمها بتذكيرهم بمعجزة أمّيّته صلى الله عليه وسلم، وأنّه جاءهم بهدى عظيم من الدين وقد علموا أنّه لم يكن ممّن تصدى لذلك في سابق عمره وذلك أكبر دليل على أنّ ما جاء به أمر قد أوحي إليه به.

*/ ختم بكلمة جامعة تتضمن التفويض إلى الله وانتظار حكمه { أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ } [53].

{ **حم** [1] **عسق** [2] }.
ابتدئت بالحروف المقطّعة على نحو ما ابتدئت به أمثالها، لأنّ ابتداءها مشير إلى التحدّي بعجزهم عن معارضة القرآن، وأنّ عجزهم عن معارضته دليل على أنّه كلام مُنزَّل من الله تعالى.

{ **كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } [3]
موقع الإشارة هنا كموقع قوله تعالى { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً } [البقرة: 143]. والمعنى: مثل هذا الوحي يوحي الله إليك، فالمشار إليه: الإيحاء المأخوذ من فعل { يُوحِي }. وصيغة المضارع لإفادة التجدّد.
{ **وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ** } إدماج. والغرض من التشبيه إثبات التسوية، أي: ليس وحي الله إليك إلّا على سنّة وحيه إلى الرسل من قبلك. وهذا كقوله تعالى { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ } [النساء:163]، أي: ما جاء به من الوحي إن هو إلا مثل ما جاءت به الرسل السابقون، فما إعراض قومه عنه إلا كإعراض الأمم السالفة عما جاءت به رسلهم.
{ **اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } إجراء هذين الوصفين على اسم الجلالة دون غيرهما لأنّ لهاتين الصفتين مزيد من اختصاص بالغرض المقصود من أنّ الله يصطفي من يشاء لرسالته.
{ **الْعَزِيزُ** } المتصرّف بما يريد لا يصدُه أحد. و{ **الْحَكِيمُ** } يُحمِّل كلامه معاني لا يبلغ إلى مثلها غيره.
وهذا من متمِّمات الغرض الذي افتتحت به السورة، وهو الإشارة إلى تحدّي المعاندين بأن يأتوا بمثله.

{ **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** } [4].
الجملة مقرّرة لوصفه { الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }، لأنّ من كان ما في السماوات وما في الأرض ملكا له تتحقّق له العزّة لقوة ملكوته، وتتحقق له الحكمة، لأنّ الحكمة تقتضي خلق ما في السماوات والأرض وإتقان ذلك النظام الذي تسير به المخلوقات. ولكون هذه الجملة مقرِّرة معنى التي قبلها كانت بمنزلة التأكيد فلم تعطف عليها.
{ **وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** } معطوفة مقرّرة لما قرّرته السابقة، فإنّ من اتصف بالعلاء والعظمة لو لم يكن عزيزا لتخلّف علاؤه وعظمته، ولا يكون إلّا حكيما لأنّ علاءه يقتضي سموَّه عن سفاسف الصفات والأفعال.
{ **الْعَلِيُّ** } هنا علو مجازي، وهو السموّ في الكمال بحيث كان أكمل من كلّ موجود كامل.
{ **الْعَظِيمُ** } العظمة مجازية، وهي جلالة الصفات والأفعال.
وأفادت صيغة الجملة معنى القصر، أي: لا عليّ ولا عظيم غيره. وهذا قصر قلب، أي: دون آلهتكم فلا علو لها كما تزعمون. وتقدّم معنى هاتين الجملتين في خلال آية الكرسي [البقرة255].

{ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [5]

{ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ } مستأنفة مقرّرة لمعنى جملة { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ }، ولذلك لم تعطف عليها. أي: يكاد السماوات يتفطرن من كثرة ما فيهن من الملائكة والكواكب وتصاريف الأقدار، فيكون في معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أطَّت السماء وبحقِّها أن تئط. والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلّا فيه جبهة مَلَك ساجد يسبح الله بحمده** " [أخرجه ابن مردويه عن أنس وهو حديث حسن]، ويرجّح هذا المعنى تعقيبه بقوله تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ }.

{ مِنْ فَوْقِهِنَّ } يجوز أن يكون الضمير عائدا على { السَّمَاوَاتُ }، فيكون المجرور متعلّقا بفعل { يَتَفَطَّرْنَ } بمعنى: أنّ انشقاقهن يحصل من أعلاهن.

ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى {الأرض} من قوله تعالى { وَمَا فِي الْأَرْضِ } [53]، وتكون { مِنْ } زائدة زيادتها مع الظروف لتأكيد الفوقية، فيفيد الظرف استحضار حالة التفطّر وحالة موقعه.

أي: يوشك إن هنّ تفطَّرن أن يخررن على الأرض، أي: يكاد يقع ذلك لِما فشا في الأرض من إشراك وفساد على معنى قوله تعالى { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً } [مريم:90]، ويرجّحه قوله الآتي { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ } [6]، وعن ابن عباس: { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ } من قول المشركين {اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً} [البقرة:116].

{ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }

تقرير لمعنى عظمة الله تعالى وجلاله المدلول عليهما بقوله { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } [4]. وأيضا هي كالبيان لما في جملة { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ }، لأن من أسباب مقاربة تفطّرهن كثرة ما فيهن من الملائكة.

ولولا أنّها أريد منها زيادة تقرير معنى جملة { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } [4] لكانت جديرة بأن تفصل ولكن رُجّح العطف لأجل الاهتمام بتقرير العلو والعظمة لله تعالى. وأمّا التبيين فيحصل بمجرد تعقيب جملة { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ} بها كما علمته آنفا.

وقد أشارت الآية إلى مراتب الموجودات، وهي:

مرتبة واجب الوجود سبحانه وهو أهل التنزيه والحمد.

مرتبة الروحانيات وهي الملائكة وهي واسطة المتصرّف القدير ومُفيض الخير في تنفيذ أمره.

{ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } حين تتلقّى من الله أوامره. وتسبيح الملائكة بحمد الله خضوع لعظمته وعلوّه.

التسبيح: التنزيه عن النقائص.

{ **وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ** } حين تُفيض خيرات ربّها على عباده الذين يتقبّلونها تقبل العبيد المؤمنين.
وقد أثبت القرآن أنّ الملائكة يلعنون من تحقّ عليه اللعنة بقوله تعالى { أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ } [البقرة:161].
وهذا تعريض بالمشركين إذ أعرضوا عن تسبيح ربهم وحمده وشغلوا بتحميد الأصنام التي لا نعمة لها عليهم ولا تنفعهم ولا تضرّهم.
{ **أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** } تذييل لجملة { وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } لإبطال وهم المشركين أنّ شركاءهم يشفعون لهم، ولذلك جيء في هذه الجملة بصيغة القصر بضمير الفصل، أي: أنّ غير الله لا يغفر لأحد. وصدرت بأداة التنبيه للاهتمام بمفادها.

{ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ } [6]

معطوفة على جملة { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } [4]. والمعنى: قد نهضت حجّة انفراده تعالى بالعزّة والحكمة والعلو والعظمة وعلمها المؤمنون فاستغفرت لهم الملائكة. وأمّا الذين لم يبصروا تلك الحجّة وعميت عليهم الأدلة فلا تهتم بشأنهم فإنّ الله حسبهم وما أنت عليهم بوكيل.
فهذا تسكين لحزن الرسول صلى الله عليه وسلم من أجل عدم إيمانهم بوحدانية الله تعالى.
وهي كالمقدّمة لما سيؤمر به الرسول صلى الله عليه وسلم من الدعوة:
من قوله تعالى { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى } [7]،
وقوله تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً } [13]،
وقوله تعالى { فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ } [15]،
وقوله تعالى { قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً } [23].
الحفيظ: فعيل بمعنى فاعل، أي: حافظ، وتختلف معانيه ومرجعها إلى رعاية الشيء والعناية به: ويكثر أن يستعمل كناية عن مراقبة أحوال المرقوب وأعماله، وباختلاف معانيه تختلف تعديته بنفسه أو بحرف جر يناسب المعنى، وقد عُدِّي هنا بحرف (على) كما يُعدَّى الوكيل لأنّه بمعناه.
الوكيل: فعيل بمعنى مفعول وهو الموكول إليه عمل في شيء أو اقتضاء حق. يقال: وكَّله على كذا، ومنه الوكالة في التصرفات المالية والمخاصمة، ويكثر أن يستعمل كناية عن مراقبة أحوال الموكل عليه وأعماله.
وقد استعمل {حَفِيظٌ} و{ بِوَكِيلٍ } هنا في استعمالهما الكنائي عن متقارب المعنى فلذلك قد يفسر أهل اللغة أحد هذين اللفظين بما يقرب من تفسير اللفظ الآخر كتفسير المرادف بمرادفه وذلك تسامح.

والمعنى: الله رقيب عليهم لا أنت وما أنت بموكل من الله على جبرهم على الإيمان. وسيجيء هذا المعنى عند قوله تعالى { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ } [48].
والمقصود رفع التبعية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من عدم استجابتهم للتوحيد، أي: لا تخش أن نسألك على عدم اهتدائهم إذ ما عليك إلّا البلاغ، وتقدّم في قوله تعالى { وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ } [الأنعام:107].

{ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ } [7].

عطف على جملة { كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ } [3] باعتبار المغايرة بين المعطوفة والمعطوف عليها بما في المعطوفة من كون الموحى به قرآنا عربيا، وما في المعطوف عليها من كونه من نوع ما أوحي به إلى الذين من قبله.
{ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا** } كالقول في سابقه { كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ } [3]، وإنّما أعيد ليبنى عليه { قُرْآناً عَرَبِيّاً } لما حجز بينهما من الفصل، مع ما حصل بتلك الإعادة من التأكيد لتقرير ذلك المعنى أفضل تقرير.
وفي هذا إشارة إلى أنّه لا فرق بين ما أوحي إليك وما أوحي إلى من قبلك إلّا اختلاف اللغات كما قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } [ابراهيم:4].
{ **أَوْحَيْنَا** } العدول عن ضمير الغائب إلى ضمير العظمة التفات.
القرآن: مصدر قرأ، مثل: غفران، وأطلق هنا على المقروء مبالغة في الاتصاف بالمقروئية لكثرة ما يقرأه القارئون، وذلك لحسنه وفائدته، فقد تضمّن هذا الاسم معنى الكمال بين المقروءات.
{ **عَرَبِيّاً** } نسبة إلى العربية، أي: لغة العرب.
{ **لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا** } تعليل لـ { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا } لأنّ كونه عربيا يليق بحال المنذرين به وهم أهل مكّة ومن حولها، فأولئك هم المخاطبون بالدين ابتداء لما اقتضته الحكمة الإلهية من اختيار الأمّة العربية لتكون أوّل من يتلقّى الإسلام وينشره بين الأمم، ولو روعي فيه جميع الأمم المخاطبين بدعوة الإسلام لاقتضى أن ينزل بلغات لا تحصى.
{ **أُمَّ الْقُرَى** } مكّة، وكُنيت: أم القرى لأنّها أقدم المدن العربية فدعاها العرب: أمّ القرى، لأنّ الأم تطلق على أصل الشيء، مثل: أمّ الطريق، للطريق العظيم الذي حوله طرق صغار. وتقدّم في قوله تعالى { وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى } [الأنعام:92]. والمراد: لتنذر أهل أمّ القرى، فأطلق اسم البلد على سكّانه كقوله { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } [يوسف:82]. وأهل مكة هم قريش.

{ **وَمَنْ حَوْلَهَا** } هم النازلون حولها من القبائل مثل خزاعة وكنانة، ومن الذين حولها قريش الظواهر، وهم الساكنون خارج مكة في جبالها. ثم إنّ إنذار أمّ القرى يقتضي إنذار بقية القرى بالأحرى، قال تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً } [القصص:59].

والاقتصار على إنذار أم القرى ومن حولها لا يقتضي تخصيص إنذار الرسول صلى الله عليه وسلم بأهل مكة ومن حولها، ولا تخصيصه بالإنذار دون التبشير للمؤمنين، لأنّ تعليل الفعل بعلّة باعثة لا يقتضي أن الفعل المعلل مخصص بتلك العلة ولا بمتعلّقاتها، إذ قد يكون للفعل الواحد علل باعثة، فإنّ الرسول صلى الله عليه وسلم بُعث للناس كافة، كما قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً } [سبأ:28].

والاقتصار هنا على إنذار أهل مكّة ومن حولها لأنّهم المقصود بالردّ عليهم لإنكارهم الرسالة.

{ **وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ** } أعيد الفعل لزيادة تهويل أمر يوم الجمع، لأنّ تخصيصه بالذكر بعد عموم الإنذار يقتضي تهويله. أي: وتنذر الناس يوم الجمع.

يوم الجمع: يوم القيامة، سُمّي بذلك لأنّ الخلائق تُجمع فيه للحساب، قال تعالى { يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ } [التغابن:9].

{ **لا رَيْبَ فِيهِ** } معترضة بين البيان والمبين. أي: أنّ دلائله تنفي الشك في أنّه سيقع، فنزل ريب المرتابين فيه منزلة العدم لأنّ موجبات اليقين بوقوعه بيّنة، كقوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2].

{ **فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ** } الجملتان جواب لسؤال مقدّر عن شأن هذا الجمع. فقيل: فريق في الجنة وفريق في السعير، أي: فريق من المجموعين بهذا الجمع في الجنة وفريق في السعير.

{ **السَّعِيرِ** } تقدّم عند قوله تعالى { كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً } [الاسراء:97].

{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ } [8].

عطف على الجملة السابقة، والغرض من هذا العطف إفادة أنّ كونهم فريقين أمر شاء الله تقديره، أي: أوجد أسبابه بحكمته ولو شاء لقدّر أسباب اتحادهم على عقيدة واحدة من الهدى فكانوا سواء في المصير.

وهذا مسوق لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على تمنّيهم أن يكون الناس كلّهم مهتدين.

فتأويل هذه الآية بما جاء في قوله تعالى { وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [السجدة:13]، وقوله تعالى { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [يونس:99].

وقد دلّ على ذلك الاستدراك الذي في قوله تعالى { وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ }، أي: ولكن شاء مشيئة أخرى جرت على وفق حكمته، وهي أنّ خلقهم قابلين للهدى والضلال بتصاريف عقولهم وأميالهم، ومَّكنهم من كسب أفعالهم وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر بالتكليف، فكان منهم المهتدون وهم الذين شاء الله إدخالهم في رحمته، ومنهم الظالمون الذين ما لهم من ولي ولا نصير.

{ **وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ** } أحد دليلين على المعنى المستدرك إذ التقدير: ولكنه جعلهم فريقين فريقا في الجنة وفريقا في السعير ليدخل من يشاء منهم في رحمته وهي الجنّة. وأفْهَم ذلك أنّه يدخل منهم الفريق الآخر في عقابه، فدل عليه أيضا بقوله { **وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** }، لأنّ نفي النصير كناية عن كونهم في بؤس وضرّ ومغلوبية بحيث يحتاجون إلى نصير. فيدخل في الظالمين مشركو أهل مكّة دخولا أوّليا لأنّهم سبب ورود هذا العموم.

{ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [9].

{ **أَمِ** } للإضراب الانتقالي. وتقدّر بعدها همزة استفهام إنكاري. أي: أتوا منكرا لمّا اتخذوا من دونه أولياء.

{ **فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ** } الفاء فاء جواب لشرط مقدّر دلّ عليه مقام إنكار اتخاذهم أولياء من دون الله.

على تقدير: إن أرادوا وليّا بحق فالله هو الوليّ بالحق لا وليّ سواه. وأفاد ضمير الفصل تأكيد القصر وتحقيقه، تذكيرا بأنّ الولاية الحق في هذا الشأن مختصة بالله تعالى. وهذا كلّه مسوق إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين تسلية وتثبيتا وتعريضا بالمشركين فإنّهم لا يخلون من أن يسمعوه.

{ **وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى** } معطوفة على جملة { فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ } إدماج لإعادة إثبات البعث ترسيخا لعلم المسلمين، وإبلاغا لمسامع المنكرين، لأنّهم أنكروا ذلك في ضمن اتخاذهم أولياء من دون الله، فلمّا أبطل معتقدهم إلهية غير الله أردف بإبطال ما هو من علائق شركهم وهو نفي البعث.

{ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } لإثبات هذه الصفة لله تعالى تذكيرا بانفراده بتمام القدرة، ويفيد الاستدلال على إمكان البعث، قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم:27]، ويفيد الاستدلال على نفي الإلهية عن أصنامهم، لأنّ من لا يقدر على كلّ شيء لا يصلح للإلهية، قال تعالى { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ } [النحل:17]. والغرض من هذا تعريض بإبلاغه إلى مسامع المشركين.

ولما كان المقصود إثبات القدرة لله تعالى عطفت الجملة على التي قبلها لأنّها مثلها في إفادة الحكم، وكانت إفادة التعليل بها حاصلة من موقعها عقبها، ولو أريد التعليل ابتداء لفصلت الجملة ولم تعطف.

{ **وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** } [10].

مجموع هذا الكلام لمتكلّم واحد، لأنّ ضمائر { رَبِّي / تَوَكَّلْتُ / أُنِيبُ } ضمائره، وتلك الضمائر لا تصلح أن تعود إلى الله تعالى، ولا حظّ في سياق الوحي إلى أحد سوى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فتعيّن تقدير فعل أمر بقول يقوله النبيّ صلى الله عليه وسلم. وحذف القول شائع في القرآن بدلالة القرائن.

{ **وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ** } الواو عاطفة فعل أمر بالقول، لأنّ مادة الاختلاف مشعرة بأنّه بين فريقين، وحالة الفريقين مشعرة بأنّه اختلاف في أمور الاعتقاد التي أنكرها الكافرون، من التوحيد والبعث والنفع والإضرار.

{ **مِنْ شَيْءٍ** } بيان لإبهام { ما }، أي: أيّ شيء اختلفتم فيه. والمراد: من أشياء الدين وشؤون الله تعالى.

{ **فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ** } الضمير عائد إلى { مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ }. والمعنى: أنّه يتضح لهم يوم القيامة المحقّ من المبطل فيما اختلفوا فيه حين يرون الثواب للمؤمنين والعقاب للمشركين، فيعلم المشركون أنّهم مبطلون فيما كانوا يزعمون. و{ إلى الله } للانتهاء، وهو انتهاء مجازي تمثيلي.

{ **ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** } الراجح كما أسلفنا أن تكون الجملة مقول قول محذوف يدلّ عليه قوله { لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى } [7]، فتكون كلاما مستأنفا لأنّ الإنذار يقتضي كلاما منذرا به.

{ **ذَٰلِكُمُ** } الإشارة لتمييز المشار إليه وهو المفهوم من { فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ }، وهذا التمييز لإبطال التباس ماهية الإلهية والربوبية على المشركين إذ سَمُّوا الأصنام آلهة وأربابا، وأوثر اسم الإشارة الذي يُستعمل للبعيد لقصد التعظيم بالبعد الاعتباري اللازم للسموّ وشرف القدر، أي: ذلكم الله العظيم. ويُتوصل من ذلك إلى تعظيم حكمه، فالمعنى: الله العظيم في حكمه هو ربي الذي توكلت عليه فهو كافيني منكم.

التوكّل: تفعّل من الوَكْل، وهو التفويض في العمل، وتقدّم عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159]. وجيء في فعل { **تَوَكَّلْتُ** } بصيغة الماضي للإشارة إلى أنّ توكّله على الله كان سابقا من قبل أن يظهر له تنكّر قومه له، فقد صادف تنكرهم منه عبدا متوكّلا على ربه، وإذا كان توكّله قد سبق تنكّر قومه فاستمراره بعد أن كشّروا له عن أنياب العدوان محقَّق.

الإنابة: الرجوع، والمراد بها هنا الكناية عن ترك الاعتماد على الغير لأنّ الرجوع إلى الشيء يستلزم عدم وجود المطلوب عند غيره، وتقدّمت الإنابة عند قوله تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود:75].

وجيء في فعل { **أُنِيبُ** } بصيغة المضارع للإشارة إلى تجدّد الإنابة وطلب المغفرة.

وتقديم المتعلقين في { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } لإفادة الاختصاص، أي: لا أتوكل إلّا عليه ولا أنيب إلّا إليه.

{ **فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } [11].

{ **فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } خبر ثان عن الضمير في قوله تعالى { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [9]، وما بينهما اعتراض، أعقب به أنّه على كل شيء قدير، فإنّ خلق السماوات والأرض من أبرز آثار صفة القدرة.

الفاطر: الخالق، وتقدّم في [فاطر:1].

{ **جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ** } في موضع الحال من ضمير { فاطر }، لأنّ مضمونها حال من أحوال فطر السماوات والأرض، فإنّ خلق الإنسان والأنعام من أعجب أحوال خلق الأرض. ويجوز كونها خبرا ثالثا عن ضمير { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [9].

المعنى: قدَّر في تكوين نوع الإنسان أزواجا لأفراده، ولمّا كان ذلك التقدير مقارنا لأصل تكوين النوع جيء فيه بالفعل الماضي.

{ **لَكُمْ** } الخطاب للناس كلّهم. والخطاب التفات من الغيبة. واللام للتعليل. وتقديم {لكم} على غيره من معمولات { جَعَلَ } ليعرف أنّه معمول لذلك الفعل فلا يُتوهم أنّه صفة لـ { أزواجا}، وليكون التعليل به ملاحظا في المعطوف بقوله { وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً }.

{ **مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً** } الأزواج: جمع زوج وهو الذي ينضم إلى فرد فيصير كلاهما زوجا للآخر، والمراد هنا: الذكور والإناث من الناس. و{ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } من نوعكم، ومن بعضكم، كقوله تعالى { فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ } [النور:61]. وكون الأزواج من أنفسهم كمال في النعمة لأنّه لو جعل أحد الزوجين من نوع آخر لفات نعيم الأنس.

وأمّا زعم العرب في الجاهلية أن الرجل قد يتزوّج جنية أو غولا فذلك من التكاذيب وتخيّلات بعضهم، وربما عرض لبعض الناس خبال في العقل خاص بذلك فتخيّل ذلك وتحدث به فراج على كلّ أبله.

{ **وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً** } عطف على { أَزْوَاجاً } الأول، والتقدير: وجعل من الأنعام أزواجا. وفائدة ذكر أزواج الأنعام دون أزواج الوحش: أنّ في أنواع الأنعام فائدة لحياة الإنسان لأنها تعيش معه ولا تنفر منه، وينتفع بها، فبجعلها أزواجا حصل معظم نفعها للإنسان.

{ **يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ** } الذرء: بث الخلق وتكثيره. وضمير الخطاب للمخاطبين بقوله { جَعَلَ لَكُمُ } ومراد شموله لجعل أزواج من الأنعام المتقدّم ذكره، لأنّ ذكر أزواج الأنعام لم يكن هملا بل مرادا منه زيادة المنّة، فإنّ ذرء نسل الإنسان نعمة للنّاس وذرء نسل الأنعام نعمة أخرى للناس.

وجيء بالمضارع لإفادة التجدد والتجدد أنسب بالامتنان.

{ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } خبر ثالث أو رابع عن الضمير في قوله { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [9]. وموقع هذه الجملة كالنتيجة للدليل، فإنّه لما قُدِّم ما هو نِعَمٌ عظيمة تبيَّن أنَّ الله لا يماثله شيء من الأشياء في تدبيره وإنعامه.

وبذلك كانت هذه الآية أصلا في تنزيه الله تعالى عن الجوارح والحواس والأعضاء عند أهل التأويل، والذين أثبتوا لله تعالى ما ورد في القرآن ممّا نسمّيه بالمتشابه فإنّما أثبتوه مع التنزيه عن ظاهره، إذ لا خلاف في إعمال قوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } وأنّه لا شبيه له ولا نظير له.

وإذ قد اتفقنا على هذا الأصل لم يبق خلاف في تأويل النصوص الموهمة التشبيه، إلّا أن تأويل سلفنا كان تأويلا جُمْليا، وتأويل خلفهم كان تأويلا تفصيليا كتأويلهم اليد بالقدرة، والعين بالعلم، وبسط اليدين بالجود، والوجه بالذات. ولهذا قالوا: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم.

{ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } ولمّا أفاد قوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } صفات السلوب أعقب بإثبات صفة العلم لله تعالى وهي من الصفات المعنوية، وذلك بوصفه بـ { السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الدالين على تعلّق علمه بالموجودات من المسموعات والمبصرات، تنبيها على أنّ نفي مماثلة الأشياء لله تعالى لا يُتوهَّم منه أنّ الله منزَّه عن الاتصاف بما اتصفت به المخلوقات من أوصاف الكمال المعنوية كالحياة والعلم، ولكن صفات المخلوقات لا تشبه صفاته تعالى في كمالها لأنّها في المخلوقات عارضة، وهي واجبة لله تعالى في منتهى الكمال. فكونه تعالى سميعا وبصيرا من جملة الصفات الداخلة تحت ظلال التأويل بالحمل على عموم قوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }، فلم يقتضيا جارحتين.

{ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [12]

خبر رابع أو خامس عن الضمير في قوله { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [9]، وموقع هذه الجملة كموقع التي قبلها، تتنزَّل منزلة النتيجة لما تقدّمها، لأنّه إذا ثبت أنّ الله هو الوليّ، وما تضمَّنته الجمل بعدها إلى قوله تعالى { يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ } من انفراده بالخلق، ثبت أنّه المنفرد بالرزق.

المقاليد: جمع إقليد على غير قياس، أو جمع مِقلاد: المفتاح، وتقدّم عند قوله تعالى { لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الزمر:63]. وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص، أي: هي ملكه لا ملك غيره.

والمقاليد هنا استعارة بالكناية لخيرات السماوات والأرض، شُبِّهت الخيرات بالكنوز، وأثبت لها ما هو من مرادفات المُشبَّه به وهو المفاتيح، والمعنى: أنّه وحده المتصرّف على الحقيقة بما ينفع الناس من الخيرات.

{ **يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** } مبيّنة لمضمون الجملة السابقة. وبسط الرزق: توسعته، وقدره كناية عن قلّته، وتقدّم عند قوله تعالى { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } [الرعد:26].

{ **إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } استئناف بياني هو كالعلة لقوله { لِمَنْ يَشَاءُ }، أي: أنّ مشيئته جارية على حسب علمه بما يناسب أحوال المرزوقين من بسط أو قدر. وبيان هذا في قوله الآتي { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ } [27].

{ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } [13].

جملة ابتدائية، انتقال من الامتنان بالنعم الجثمانية إلى الامتنان بالنعمة الروحية بطريق الإقبال على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين للتنويه بدين الإسلام وللتعريض بالكفّار الذين أعرضوا عنه.

{ **شَرَعَ** }. أصلها جعل طريقا واسعة، وكثر إطلاقه على سنّ القوانين والأديان فسُمِّي الدين شريعة. فشرع هنا مستعار للتبيين، أي: أوضح وبيَّن لكم مسالك ما كلَّفكم به، كما في قوله { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ } [21]، وتقدّم في قوله تعالى { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً } [المائدة:48].

{ **مِنَ الدِّينِ** } تعريف الجنس، وهو يعم الأديان الإلهية السابقة. و(من) للتبعيض.

التوصية: الأمر بشيء مع تحريض على إيقاعه والعمل به.

{ **مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى** } المراد: المماثلة في أصول الدين ممَّا يجب لله تعالى من الصفات، وفي أصول الشريعة من كلّيّات التشريع، وأعظمها توحيد الله، ثمّ ما بعده من الكليات الخمس الضروريات، ثم الحاجيات التي لا يستقيم نظام البشر بدونها، فإنّ كلّ ما اشتملت عليه الأديان المذكورة من هذا النوع قد أودِع مثله في دين الإسلام. فالأديان السابقة كانت تأمر بالتوحيد، والإيمان بالبعث والحياة الآخرة، وتقوى الله بامتثال أمره واجتناب منهيه على العموم، وبمكارم الأخلاق بحسب المعروف، قال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } [الأعلى:14-19] وتختلف في تفاصيل ذلك وتفاريعه. ودين الإسلام لم يخل عن تلك الأصول وإن خالفها في التفاريع تضييقا وتوسيعا، وامتازت هذه الشريعة بتعليل الأحكام، وسدّ الذرائع، والأمر بالنظر في الأدلة، وبرفع الحرج، وبالسماحة، وبشدة الاتصال بالفطرة، وقد بيّنتُ ذلك في كتابي (**مقاصد الشريعة الإسلامية**).

فالمقصود أنّ الإسلام لا يخالف هذه الشرائع المسمّاة وأنّ اتّباعه يأتي بما أتت به من خير الدنيا والآخرة. والاقتصار على ذكر دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، لأنّ نوحا أوّل رسول أرسله الله إلى الناس، فدينه

هو أساس الديانات، ولأنّ دين إبراهيم أصل الحنيفية وانتشر بين العرب بدعوة إسماعيل إليه، فهو أشهر الأديان بين العرب، وكانوا على أثارة منه في الحج والختان والقرى والفتوّة. ودين موسى هو أوسع الأديان السابقة في تشريع الأحكام، وأمّا دين عيسى فلأنّه الدين الذي سبق دين الإسلام ولم يكن بينهما دين آخر، وليتضمّن التهيئة إلى دعوة اليهود والنصارى إلى دين الإسلام.

{ **نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** } تعقيب ذكر دين نوح بما أوحي إلى محمد عليهما السلام للإشارة إلى أنّ دين الإسلام هو الخاتم للأديان، فعُطف على أوّل الأديان جمعا بين طرفي الأديان، ثم ذكر بعدهما الأديان الثلاثة الأخر لأنّها متوسطة بين الدينين المذكورين قبلها. وهذا نسج بديع من نظم الكلام، ولولا هذا الاعتبار لكان ذكر الإسلام مبتدأ به كما في قوله { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ } [النساء: 163] وقوله تعالى { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ } [الأحزاب:7].

وفي قوله { مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً } وقوله { وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى } جيء بالموصول {**مَا**}، وفي قوله { وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } جيء بالموصول { **الَّذِي** }، وليس يبعد عندي أن يكون هذا الاختلاف لغرض معنوي، وليس مجرّد تفنّن. وأنّه فرق في استعمال الكلام البليغ وهو أنّ (**الذي**) وأخوته هي الأصل في الموصولات فهي موضوعة من أصل الوضع للدلالة على من يعيّن بحالة معروفة هي مضمون الصلة، فـ (الذي) يدلّ على معروف عند المخاطب بصلته.

وأمّا (**ما**) الموصولة فأصلها اسم عام نكرة مبهمة محتاجة إلى صفة.

فيكون إيثار {**مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً** وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ **وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى**} بحرف { **مَا** }، لمناسبة أنّها شرائع بَعُدَ العهد بها فلم تكن معهودة عند المخاطبين إلّا إجمالا فكانت نكرات لا تتميز إلا بصفاتها، وأمّا إيثار الموحى به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم باسم { **الذي** } فلأنّه شرع متداول فيهم معروف عندهم. فالتقدير: شرع لكم شيئا وصى به نوحا وشيئا وصى به إبراهيم وموسى وعيسى، والشيء الموحى به إليك. ولعل هذا من نكت الإعجاز المغفول عنها.

{ **أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** } الضمير مراد به: أمم أولئك الرسل، ولم يسبق لهم ذكر في اللفظ لكن دلّ على تقديرهم ما في فعل { وَصَّى } من معنى التبليغ. وأعقب الأمر بإقامة الدين بالنهي عن التفرّق فيه.

إقامة الشيء: جعله قائما، استعارة للحرص على العمل به، كقوله تعالى { وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ } [البقرة:3].

التفرّق: ضد التجمّع، وأصله: تباعد الذوات، أي: اتساع المسافة بينها، ويستعار كثيرا لقوّة الاختلاف في الأحوال والآراء كما هنا. أي: لا تختلفوا على أنبيائكم. ويشمل التفرّق بين الذين آمنوا بأن يكونوا نحلا وأحزابا، وذلك اختلاف الأمة في أمور دينها، أي: في أصوله وقواعده ومقاصده. فإنّ الاختلاف في الأصول يفضي إلى تعطيل بعضها فينخرم بعض أساس الدين.

وأمّا الاختلاف في فروعه بحسب استنباط أهل العلم بالدين فذلك من التفقّه الوارد فيه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" من يّرد الله به خيرا يفقهه في الدين ".**

{ **كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ** } اعتراض بين جملة { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ } وجملة { وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ } [14]، ولك أن تجعله استئنافا بيانيا جوابا عن سؤال من يتعجّب من إعراض المشركين عن الإسلام مع أنّه دين مؤيَّد بما سبق من الشرائع الإلهية، فأجيب إجمالا بأنّه كبُر على المشركين { **كَبُرَ** } بمعنى صعب، وقريب منه إطلاق **ثَقُلَ**، أي: عجزوا عن قبول ما تدعوهم إليه، فالكبر مجاز استعير للشيء الذي لا تطمئن النفس لقبوله، والكِبر في الأصل الدال على ضخامة الذات، لأنّ شأن الشيء الضخم أن يعسر حمله. ولما فيه من تضمين معنى ثقل عدّي بـ { عَلَى }.

وقد كبر عليهم ذلك من ثلاث جهات:

جهة الداعي لأنّه بشر مثلهم قالوا { أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً } [الاسراء:94]، ولأنّه لم يكن قبل الدعوة من عظماء القريتين { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31].

جهة ما به الدعوة فإنّهم حسبوا أنّ الله لا يخاطب الرسل إلّا بكتاب ينزّله إليه دفعة من السماء فقد { قالوا لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ } [الإسراء:93]، { وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا] [الفرقان:21]، { وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ } [البقرة:118]، والقائلون هم المشركون.

جهة ما تضمَّنته الدعوة ممَّا لم تساعد أهواءهم عليه، قالوا { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً } [صّ:5]، { هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [سبأ:7].

{ **تَدْعُوهُمْ** } جيء بالفعل المضارع للدلالة على تجدّد الدعوة واستمرارها.

{ **اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ** } استئناف بياني جواب عن سؤال من يسأل: كيف كبرت على المشركين دعوة الإسلام؟ فأجيب بأنّ الله يجتبي من يشاء. فالمشركون الذين لم يقتربوا من هدى الله غير مجتبين إلى الله. ويجوز أن يكون ردًّا على إحدى شبههم الباعثة على إنكارهم رسالته صلى الله عليه وسلّم بأن الله يجتبي من يشاء، ولا يلزمه مراعاة عوائدكم في الزعامة والاصطفاء.

الاجتباء: التقريب والاختيار قال تعالى { قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا } [لأعراف:203].

{ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ } [14].

عطف على جملة { وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } وما بينهما اعتراض كما علمت، وفي الكلام حذف يدلّ عليه قوله { وَمَا تَفَرَّقُوا } تقديره: فتفرّقوا.

{ **وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ** } الضمير عائد إلى ما عاد إليه الضمير في قوله تعالى { أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا } [13]، وهم أمم الرسل المذكورين.

العلم: إدراك العقل جزما أو ظنا. ومجيء العلم إليهم يؤذن بأنّ رسلهم بيَّنوا لهم مضار التفرّق من عهد نوح كما حكى الله عنه في قوله تعالى { ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً - إلى قوله - سُبُلاً فِجَاجاً } [نوح:8-20]. وإنّما تلقى ذلك العلم علماؤهم.

والمعنى: وما تفرقت أممهم في أديانهم إلّا من بعد ما جاءهم العلم على لسان رسلهم من النهي عن التفرّق في الدين مع بيانهم لهم مفاسد التفرّق وأضراره، أي: أنّهم تفرقوا عالمين بمفاسده غير معذورين بالجهل.

{ **بَغْياً بَيْنَهُمْ** } سبب تفرّقهم، أي: تفرقوا لأجل العداوة بينهم أي: لم يحافظوا على وصايا الرسل.

وهذا تعريض بالمشركين في إعراضهم عن دعوة الإسلام لعداوتهم للمؤمنين.

{ **وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** } تحذير للمؤمنين من مثل ذلك الاختلاف.

{ **كَلِمَةٌ** } التنكير للتنويع، لأنّ لكلّ فريق من المتفرّقين في الدين كلمة من الله في تأجيلهم.

{ **أَجَلٍ** } التنكير أيضا للتنويع، لأنّ لكلّ أمّة من المتفرّقين أجلا مسمّى، فهي آجال متفاوتة في الطول والقصر ومختلفة بالأزمنة والأمكنة.

والمراد بالكلمة ما أراده الله من إمهالهم وتأخير مؤاخذتهم إلى أجل لهم اقتضته حكمته في نظام هذا العالم، فربّما أخّرهم ثم عذبهم في الدنيا، وربما أخّرهم إلى عذاب الآخرة، وكل ذلك يدخل في الأجل المسمَّى، ولكلّ ذلك كلمته. فالكلمة هنا مستعارة للإرادة والتقدير. وتقدّم نظير هذه الكلمة في [هود:3]، وفي [طه:129].

{ **وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** } عطف على جملة { وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ - إلى قوله - لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } وهذه الجملة هي المقصود من جملة {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ } [13]، لأنّ المقصود أهل الكتاب الموجودون في زمن نزول الآية.

فالمعنى: أنّه كما تفرّق أسلافهم في الدين قبل بعثة النبيّ الموعود به تفرّق خلفهم مثلهم وزادوا تفرّقا في تطبيق صفات النبيّ الموعود به تفرقا ناشئا عن التردّد والشك.

{ **أُورِثُوا الْكِتَابَ** } صار إليهم علم الكتاب الذي اختلف فيه سلفهم، فاستعير الإرث للخَلَفِيَّة في علم الكتاب.

{ **الكِتَابَ** } التعريف للجنس ليشمل كتاب اليهود وكتاب النصارى.
{ **مِنْ بَعْدِهِمْ** } الضمير عائد إلى الذين خوطبوا بقوله { وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } [13].
{ **لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** } ظرفية مجازية وهي استعارة تبعية، شُبِّه تمكن الشك من نفوسهم بإحاطة الظرف بالمظروف.
المريب: الموجب الريب وهو الاتهام. فالمعنى: لفي شك يفضي إلى الظنَّة والتهمة، أي: شك مشوب بتكذيب.

{ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ } [15].
{ **فَلِذَلِكَ** } الفاء للتفريع على قوله { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين ...} [13].
واللام يجوز أن تكون للتعليل وتكون الإشارة بذلك إلى المذكور، أي: جميع ما تقدّم من الأمر؛ بإقامة الدين والنهي عن التفرّق فيه، وتلقّي المشركين للدعوة بالتجهّم، وتلقّي المؤمنين لها بالقبول والإنابة، وتلقّي أهل الكتاب لها بالشك، أي: فلأجل جميع ما ذكر فادع واستقم. وتقديم (لذلك) على متعلّقه وهو فعل (ادع) للاهتمام بما احتوى عليه اسم الإشارة، إذ هو مجموع أسباب للأمر بالدوام على الدعوة.
ويجوز أن تكون اللام في قوله { فلذلك } لام التقوية وتكون مع مجرورها مفعول (ادع). والإشارة إلى (الدين) من قوله { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ } [13]، أي فادع لذلك الدين. وتقديم المجرور على متعلقه للاهتمام.
{ **فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** } وفعل الأمر في قوله { فَادْعُ } مستعمل في الدوام على الدعوة، بقرينة قوله { كَمَا أُمِرْتَ } وفي هذا إبطال لشبهتهم في الجهة الثالثة المتقدّمة عند قوله تعالى { كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } [13] (جهة ما تضمَّنته الدعوة ممَّا لم تساعد أهواءهم عليه) .
ولم يُذكر مفعول { فَادْعُ } لدلالة ما تقدّم عليه، أي: ادع المشركين والذين أوتوا الكتاب والذين اهتدوا وأنابوا.
{ **فَادْعُ** } فالفاء يجوز أن تكون مؤكدة لفاء التفريع التي قبلها، ويجوز أن تكون مضمَّنة معنى الجزاء لما في تقديم المجرور من مشابهة معنى الشرط، كما في قوله تعالى { فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا } [يونس:58].
الاستقامة: الاعتدال، والسين والتاء فيها للمبالغة. والمراد هنا الاعتدال المجازي وهو اعتدال الأمور النفسانية من التقوى ومكارم الأخلاق. وإنّما أمر بالاستقامة، أي: الدوام عليها، للإشارة إلى أنّ كمال الدعوة إلى الحقّ لا يحصل إلّا إذا كان الداعي مستقيما في نفسه.
{ **كَمَا أُمِرْتَ** } الكاف لتشبيه معنى المماثلة، أي: دعوة واستقامة مثل الذي أمرت به، أي: على وفاقه.

{ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ } يطلق الاتباع مجازا على المجاراة والموافقة، وعلى المحاكاة والمماثلة في العمل، والمراد هنا كلا الإطلاقين ليرجع النهي إلى النهي عن مخالفة الأمرين المأمور بهما في قوله {فَادْعُ وَاسْتَقِمْ}.
{ أَهْوَاءَهُمْ } الضمير للذين ذُكروا من قبل؛ من المشركين والذين أوتوا الكتاب.
الأهواء: جمع هوى وهو المحبة، وغلب على محبة ما لا نفع فيه.
أي: ادعهم إلى الحق وإن كرهوه، واستقم أنت ومن معك وإن عاداكم أهل الكتاب، فهم يحبّون أن تتبعوا ملّتهم، وهذا من معنى قوله تعالى { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} [البقرة:120].
والمقصود: نهي المسلمين عن ذلك من باب { لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ } [الزمر:65]، ألا ترى إلى قوله تعالى { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ } [هود:112].
ويجوز أن يكون المعنى لاتُجارهم في معاملتهم، أي: لا يحملك طعنهم في دعوتك على عدم ذكر فضائل رسلهم وهدي كتبهم عدا ما بدّلوه منها، فأعلن بأنّك مؤمن بكتبهم، ولذلك عطف على قوله تعالى { وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ } قوله { وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ }، فموقع واو العطف فيه بمنزلة موقع فاء التفريع.
ويكون المعنى كقوله تعالى { وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } [المائدة:8].
{ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ } أمر بمخالفة اليهود إذ قالوا { نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ } [النساء:150] يعنون التوراة، { وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ } يعنون الإنجيل والقرآن، فأُمِر الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون بالإيمان بالكتب الثلاثة الموحى بها من الله كما قال تعالى { وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ } [آل عمران: 119].
وإنّما أمر بأن يقول ذلك إعلانا به وإبلاغا لأسماع اليهود، فلا يقابل إنكارهم حقِّية كتابه بإنكاره حقِّية كتابهم، وفي هذا إظهار لما تشتمل عليه دعوته من الإنصاف.
{ مِنْ كِتَابٍ } بيان لما أنزل الله، فالتنكير للنوعية، أي: بأي كتاب أنزله الله، وليس يومئذ كتاب معروف غير التوراة والإنجيل والقرآن.
{ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ } ضمير { بَيْنَكُمُ } خطاب للذين أُمِر بأن يوجّه هذا القول إليهم وهم اليهود، أي: أمرت أن أقيم بينكم العدل بأن أدعوكم إلى الحق ولا أظلمكم لأجل عداواتكم، ولكنِّي أنفذ أمر الله فيكم ولا أنتمي إلى اليهود ولا إلى النصارى.
{ بَيْنَكُمُ } أي: أنَّني أقيم العدل بينكم فلا ترون بينكم جورا مني. وليس المعنى: لأعدل بين فرقكم، إذ لا يقتضيه السياق.
وفي هذه الآية مع كونها نازلة في مكة في زمن ضعف المسلمين إعجاز بالغيب يدلّ على أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون له الحكم على يهود بلاد العرب مثل أهل خيبر وتيماء وقريظة والنضير وبني قينقاع.

{ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ } من المأمور بأن يقوله. فهي كلّها جملة مستأنفة عن جملة { آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ } مقرِّرة لمضمونها لأنّ المقصود من الجملة بحذافرها هو قوله { لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ }.

{ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ } أي: أنّنا متّفقون على توحيد الله تعالى كقوله { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً } [آل عمران: 64]، فالخبر مستعمل في التسجيل والإلزام.

{ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ } دعوة إنصاف، أيّ أنّ الله يجازي كلًّا بعمله. وهذا خبر مستعمل في التهديد والتنبيه على الخطأ.

{ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ } هي الغرض المقصود بعد قوله { وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ } أي: أعدل بينكم ولا أخاصمكم على إنكاركم صدقي.

الحجّة: الدليل على صدق الدعوى، وإنّما تكون الحجّة بين مختلفين في دعوى.

ونفي الحجّة نفي جنس <u>يجوز أن يكون كناية عن نفي المجادلة التي من شأنها وقوع الاحتجاج</u>، كناية عن عدم التصدّي لخصومتهم، فيكون المعنى الإمساك عن مجادلتهم لأنّ الحق ظهر وهم مكابرون فيه، وهذا تعريض بأن الجدال معهم ليس بذي جدوى. <u>ويجوز</u> أن يكون المنفي جنس الحجّة المفيدة. والمعنى: أنّ الاستمرار على الاحتجاج عليهم بعد ما أُظهِر لهم من الأدلة يكون من العبث، وهذا تعريض بأنّهم مكابرون.

وأياما كان فليس هذا النفي مستعملا في النهي عن التصدي للاحتجاج عليهم، فقد حاجّهم القرآن في آيات كثيرة نزلت بعد هذه، وحاجّهم النبيّ صلى الله عليه وسلم في قضية الرجم، وقد قال الله تعالى { وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [العنكبوت:46]، فالاستثناء صريح في مشروعية مجادلتهم.

{ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا } المراد: الحشر لفصل القضاء، فيومئذ يتبيَّن المُحقّ من المُبطل، وهذا كلام منصف.

ولمَّا كان مثل هذا الكلام لا يصدر إلّا من الواثق بحقّه كان خطابهم به مستعملا في المتاركة والمحاجزة، أي: سأترك جدالكم ومحاجّتكم لقلة جدواها فيكم وأفوّض أمري إلى الله يقضي بيننا يوم يجمعنا، فهذا تعريض بأنّ القضاء سيكون له عليهم.

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي للتقوي، أي: تحقيق وقوع هذا الجمع، وإلّا فإن المخاطبين وهم اليهود يثبتون البعث.

{ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ } عطف على جملة { يَجْمَعُ بَيْنَنَا }، والتعريف للاستغراق، أي: مصير الناس كلّهم، فبذلك كانت الجملة تذييلا بما فيها من العموم، أي: مصيرنا ومصيركم ومصير الخلق كلهم.

{ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ } [16]

عطف على جملة { وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ } [15]، وهو يقتضي انتقال الكلام، فلمّا استوفى حظ أهل الكتاب في شأن المحاجّة معهم، رجع إلى المشركين في هذا الشأن، لأنّهم يحاجّون في شأن الله وهو الوحدانية دون اليهود من أهل الكتاب، فإنّهم لا يحاجّون في تفرّد الله بالإلهية.

{ **يُحَاجُّونَ فِي اللهِ** } محاجّتهم في دين الله. ومحاجّتهم هي ما يلبّسوه به على المسلمين لإدخال الشك عليهم في اتباع الإسلام، كقول المشركين { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً } [الفرقان:7]، وقولهم في الأصنام { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [يونس:18]، وقولهم في إنكار البعث { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ } [ق:3]، وقولهم { إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا } [القصص:57].

وإطلاق اسم الحجة على شبهاتهم مجاراة لهم بطريق التهكّم، والقرينة قوله تعالى { دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ } والمفعول محذوف دلّ عليه قوله { مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ } والتقدير: يحاجون المستجيبين لله.

{ **مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ** } حذف فاعل { اسْتُجِيبَ } إيجازا، لأنّ المقصود من بعد حصول الاستجابة.

{ **حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ** } الداحضة: التي دَحَضت (بفتح الحاء)، يقال: دَحَضت رجلُه تدحَض دحوضا، أي: **زلّت**. استعير الدحض للبطلان بجامع عدم الثبوت، كما لا تثبت القدم في المكان الدحض.

ولم يُبيَّن وجه دحضها اكتفاء بما بُيّن في تضاعيف ما نزل من القرآن من الأدلة على فساد تعدّد الآلهة، وعلى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى إمكان البعث، وبما ظهر للعيان من تزايد المسلمين يوما فيوما، وأمنهم من أن يُعتدى عليهم.

الغضب: غضب الله، وإنما نُكّر للدلالة على شدّته. ولم يحتج إلى إضافته إلى اسم الجلالة أو ضميره لظهور المقصود من قوله { حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ }، فالتقدير: وعليهم غضب الله. وإنّما قُدِّم المسند على المسند إليه للاهتمام بوقوع الغضب عليهم كما هو مقتضي حرف الاستعلاء المجازي.

{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ** } نفس الاعتبار في تقديم المسند، ولعلّ المراد به عذاب السيف في الدنيا بالقتل يوم بدر.

{ اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ } [17]

من جملة محاجّة المشركين في الله، ومن أشدّها تشغيبا في زعمهم محاجّتهم بإنكار البعث كما في قولهم { هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ } [سبأ:8/7].

وقد دحض الله حجّتهم في مواضع من كتابه بنفي استحالته، وبدليل إمكانه، وأومأ هنا إلى مقتضى إيجابه، فبيَّن أنّ البعث والجزاء حقّ وعدل فكيف لا يقدِّره مدبِّر الكون ومنزّل الكتاب والميزان. وقد أشارت إلى هذا المعنى آيات كثيرة منها قوله تعالى { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى } [طه:15]، وقوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ } [الدخان:38-40]. وأكثرها جاء نظمها على نحو الترتيب الذي في نظم هذه الآية من الابتداء بما يُذكِّر بحكمة الإيجاد وأنّ تمام الحكمة بالجزاء على الأعمال.

والجملة موقعها موقع الدليل من جملة { وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ } [16]، والدليل من ضروب البيان، ولذلك فصلت عن التي قبلها لشدّة اتصال معناها بمعنى الأخرى.

{ **اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ** } تمهيد للقول اللاحق، لأنّ قوله { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ } يؤذن بمقدّر يقتضيه المعنى، تقديره: فجعل الجزاء للسائرين على الحق والناكبين عنه في يوم الساعة، فلا محيص للعباد عن لقاء الجزاء، وما يدريك لعل ساعة الجزاء تكون قريبة، فهو ناظر إلى قوله تعالى { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى } [طه:15].

{ **اللَّهُ الَّذِي** } الإخبار عن اسم الجلالة باسم الموصول، الذي مضمون صلته إنزاله الكتاب والميزان، لأجل ما في الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر الآتي، وأنّه من جنس الحقّ والعدل.

{ **الْكِتَابَ** } تعريف الجنس، أي: إنزال الكتب، لقوله أنفا { وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ } [15].

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، أي: أنزل الكتب مقترنة بالحق بعيدة عن الباطل.

{ **وَالْمِيزَانَ** } حقيقته آلة الوزن، والوزن: تقدير ثقل جسم. والميزان هنا مستعار للعدل والهدي بقرينة قوله تعالى { أَنْزَلَ }، فإنّ الدين هو المُنزَّل، وهو يدعو إلى العدل والإنصاف وإعطاء الحقوق، فشُبِّه بالميزان في تساوي رجحان كفتية، قال تعالى { وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } [الحديد:25].

{ **وَمَا يُدْرِيكَ** } جارية مجرى المثل، و{ مَا } استفهاميّة والاستفهام مستعمل في التنبيه والتهيئة. و{ يُدْرِيكَ } من الدراية بمعنى العلم وقد عُلِّق الفعل عن العمل بحرف الترجّي. و(الكاف) خطاب لغير معيَّن.

وفي معناه قوله تعالى { وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام:109].

{ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ } [18].

يجوز أن تكون الجملة حالًا من { السَّاعَةَ } [17]، ويجوز أن تكون بيانا لجملة { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ } [17]، لما تضمَّنته من التنبيه والتهيئة بالنسبة إلى فريقي المؤمنين بالساعة والذين لا يؤمنون به.

الاستعجال: طلب التعجيل، وتقدّم في قوله تعالى { اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ } [يونس:11].

{ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا } تهكّما واستهزاء، وكناية عن اتخاذهم تأخّرها دليلا على عدم وقوعها **{ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا }** مشفقون من أهوالها، وتقدّم في قوله تعالى { وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } [الأنبياء:28].

{ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ } معطوفة على { مُشْفِقُونَ مِنْهَا } لإفادة أنّ إشفاقهم منها إشفاق عن يقين وجزم لا إشفاق عن تردّد. وتعريف { الْحَقُّ } تعريف الجنس وهو يفيد قصر المسند على المسند إليه قصر مبالغة لكمال الجنس في المسند إليه، أي: يوقنون بأنّها الحق كلّ الحق.

{ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ } تذييل لما قبلها بصريحها وكنايتها، لأنّ صريحها إثبات الضلال للذين يكذّبون بالساعة، وكنايتها إثبات الهدى للذين يؤمنون بالساعة. وهذا التذييل فذلكة للتي قبلها. وافتتاح الجملة بحرف التنبيه { ألا } لقصد العناية بالكلام.

المماراة: مفاعلة من المِرية (بكسر الميم) وهي الشك. والمماراة الملاحة لإدخال الشك على المجادل، وقد تقدّم في قوله تعالى { فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ } [الكهف:22].

{ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ } وصف الضلال بالبعيد وصف مجازي، شُبِّه الكفر بضلال السائر في طريق وهو يكون أشدّ إذا كان الطريق بعيدا، وذلك كناية عن عسر إرجاعه إلى المقصود. والمعنى: لفي ضلال شديد. وتقدّم في قوله تعالى { فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً } [النساء:116].

{ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ } [19]

مستأنفة استئنافا ابتدائيا توطئة لجملة { مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ } [20]، لأنّ ما سيذكر في الجملة الآتية هو أثر من آثار لطف الله بعباده ورفقه بهم، وما يسَّر من الرزق للمؤمنين منهم والكفار في الدنيا، ثمّ ما خصَّ به المؤمنين من رزق الآخرة.

اللطيف: البَرُّ قوي البِرّ. ويدخل في هذا كثير من النعم. وفعل **لَطَفَ** من باب نصر يتعدّى بالباء كما هنا وباللام كما في قوله { إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ } [يوسف:100].

{ **بِعِبَادِهِ** } عام لجميع العباد، وهم نوع الإنسان لأنّه جمع مضاف.

{ **يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ** } في موضع الحال من اسم الجلالة، أو خبر عنه.

الرزق: إعطاء ما ينفع. وهو عندنا لا يختصّ بالحلال وعند المعتزلة يختص به، والخلاف اصطلاح.
والظاهر أنّ المراد هنا رزق الدنيا لأنّ الكلام توطئة لقوله { مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ } [20].

المشيئة: مشيئة تقدير الرزق لكلّ أحد من العباد ليكون عموم اللطف للعباد باقيا.

والمعنى: أنّه للطفه بجميع عباده لا يترك أحدا منهم بلا رزق، وأنّه فضّل بعضهم على بعض في الرزق جريا على مشيئته، وهذا المعنى يثير مسألة الخلاف بين أئمة أصول الدين في نعمة الكافر:

الشيخ أبي الحسن الأشعري يرى أنّ الكافر غير منعَّم عليه نعمة دنيوية، لأنّ ملاذ الكافر استدراج، فلمّا كانت مفضية إلى العذاب في الآخرة كانت غير نعمة، ومرادهم بالدنيوية مقابل الدينية.

وكأنّ مراد الشيخ بهذا تحقيق معنى غضب الله على الكافرين، كما جاء في آيات كثيرة، فالكافر غير منعَّم عليه نعمة رضى وكرامة ولكنّها نعمة رحمة لما له من انتساب المخلوقية لله تعالى.

أبو بكر الباقلاني قال: الكافر مُنعَّم عليه نعمة دنيوية. وقالت **المعتزلة**: هو منعَّم عليه نعمة دنيوية ودينية؛ فالدنيوية ظاهرة، والدينية كالقدرة على النظر المؤدي إلى معرفة الله.

وهذه مسألة أرجع المحققون الخلاف فيها إلى اللفظ والبناء على المصطلحات والاعتبارات الموافقة لدقائق المذاهب، إذ لا ينازع أحد في نعمة المنعَّمين منهم، قال تعالى {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ} [المزمل:11].

{ **وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ** } تمجيد لله تعالى بهاتين الصفتين. ويفيد الاحتراس من توهّم أنّ لطفه عن عجز أو مصانعة، فإنّه قويّ عزيز لا يعجز ولا يصانع، أو عن توهّم أنّ رزقه لمن يشاء عن شح أو قلّة، فإنّه القويّ، والقويّ تنتفي عنه أسباب الشحّ، والعزيز ينتفي عنه سبب الفقر، فرزقه لمن يشاء بما يشاء منوط لحكمة علمها في أحوال خلقه عامة وخاصة، قال تعالى { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ } [27].

{ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ** } [20].

هذه الآية متّصلة بقوله تعالى { يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا } [18]، لِمَا تضمَّنته من وجود فريقين: فريق المؤمنين أكبر همهم حياة الآخرة، وفريق الذين لا يؤمنون همهم قاصرة على حياة الدنيا، فجاء في هذه الآية تفصيل معاملة الله الفريقين معاملة متفاوتة مع استوائهم في كونهم عبيده

وكونهم بمحل لطف منه، فكانت جملة { اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ } [19] تمهيدا لهذه الجملة.

الحرث: أصله مصدر حَرَث، إذا شق الأرض ليزرع فيها حبا أو ليغرس فيها شجرا، وأطلق على الأرض التي فيها زرع أو شجر وهو إطلاق كثير كما في قوله تعالى { أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ } [القلم:22]، أي: جنّتكم لقوله قبله { كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ } [القلم:17]، وقال تعالى { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ - إلى قوله - وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ } [آل عمران:14].

والحرث في هذه الآية تمثيل للإقبال على كسب ما يعده الكاسب نفعا له يرجو منه فائدة وافرة بإقبال الفلاح على شقّ الأرض.

{ **يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ** } يبتغي عملا لأجل الآخرة. وذلك المريد: هو المؤمن بالآخرة لأن المؤمن بالآخرة لا يخلو عن أن يريد الآخرة ببعض أعماله كثيرا كان أو قليلا.

{ **نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ** } يحتمل معنيين: أن تكون الزيادة في ثواب العمل، كقوله تعالى { وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ } [البقرة:276]، وقوله تعالى { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ } [البقرة: 261] وسيأتي قريبا قوله تعالى { وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً } [23]. وعلى هذا فتعليق الزيادة بالحرث مجاز عقلي علقت الزيادة بالحرث وحقها أن تعلق بسببه وهو الثواب، فالمعنى على حذف مضاف.

أن تكون الزيادة في العمل، أي: نقدّر له العون على الازدياد من الأعمال الصالحة ونيسّر له ذلك فيزداد من الصالحات. وعلى هذا فتعليق الزيادة بالحرث حقيقة.

فيكون من استعمال المركّب في حقيقته ومجازه العقليين.

{ **وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا** } من لا يسعى إلا لعمل الدنيا، بقرينة المقابلة بمن يريد حرث الآخرة، فتعيَّن أنّ مريد حرث الدنيا في هذه الآية هو الذي لا يؤمن بالآخرة.

{ **نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ** } نقدّر له من متاع الدنيا من: مدة حياة، وعافية ورزق، لأنّ الله قدَّر لمخلوقاته أرزاقهم وأمدادهم في الدنيا، وجعل حظ الآخرة خاصا بالمؤمنين.

فلا يتوهَّمنَّ مُتوهِّم أنّ هذه الآية ونحوها تحجِّر تناول المسلم حظوظ الدنيا إذا أدى حق الإيمان والتكليف، ولا أنّها تصد عن خلط الحظوظ الدنيوية مع حظوظ الآخرة إذا وقع الإيفاء بكليهما، ولا أنّ الخلط بين الحظّين ينافي الإخلاص، كطلب التبرّد مع الوضوء وطلب الصحة مع التطوع بالصوم، إذا كان المقصد الأصلي الإيفاء بالحق الديني. وقد تعرض لهذه المسألة أبو إسحاق الشاطبي في (الموافقات).

النصيب: ما يعيَّن لأحد من الشيء المقسوم، وهو فعيل من نصيب، وتقدم عند قوله تعالى { أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا } [البقرة:202].

ونظير هذه الآية قوله تعالى { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [هود:16/15]، وقوله تعالى { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً } [الإسراء:19/18]

{ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [21].

{ **أَمْ** } للإضراب الانتقالي وهو انتقال من الكلام على تفرّق أهل الشرائع السالفة في شرائعهم، من انقرض منهم ومن بقي، كأهل الكتابين، إلى الكلام عن مخالفة المشركين للشرائع كلّها وتلقيهم دين الإشراك من أئمة الكفر وقادة الضلال.

ومعنى الاستفهام الذي تقضيه { أم } هو هنا للتقريع والتهكّم، فالتقريع راجع إلى أنّهم شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، والتهكم راجع إلى من شرعوا لهم الشرك، فسئلوا عمّن شرع لهم دين الشرك.

والمقصود: فضح فظاعة شركهم، أي: إن لم يكن مشروعا من الإله الحق فهو مشروع من الآلهة الباطلة وهي الشركاء. وظاهر أن تلك الآلهة لا تصلح لتشريع دين لأنّها لا تعقل ولا تتكلّم، فتعيّن أنّ دين الشرك دين لا مستند له.

وقيل المراد بالشركاء: أئمة دين الشرك أطلق عليهم اسم الشركاء مجازا بعلاقة السببية.

{ **لَهُمْ** } الضمير في الموضعين عائد إلى { الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا } [18] أو{ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ } [16].

{ **مِنَ الدِّينِ** } التعريف للجنس، أي: شرعوا لهم دينا لم يأذن به الله، أي: لم يرسل به رسولا منه ولا أوحى به بواسطة ملائكته.

{ **وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** } هو كقوله فيما تقدّم { وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ } [14]. وكلمة الفصل هي: ما قدّره الله وأراده من إمهالهم. و**الفصل**: الفاصل، أي: الذي لا تردّد فيه.

{ **وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } عطف على جملة { وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ }. وتوكيد الخبر بحرف التوكيد لأنّه موجَّه إليهم لأنّهم يسمعون هذا الكلام ويعلمون أنّهم المقصودون به.

والمقصود: تحقيق أنّ إمهالهم إلى أجل مسمًّى لا يفلتهم من المؤاخذة بما ظلموا.

{ **الظَّالِمِينَ** } المشركون لقوله تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: 13].

العذاب الأليم: عذاب الآخرة لجميعهم، وعذاب الدنيا بالسيف والذلّ للذين أُخِّروا إلى إبَّان حلوله.

{ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } [22].

بيان لجملة { وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [21]، بيَّن حال هذا العذاب ببيان حال أصحابه، وكفى بذلك منبئا عن هوله.

{ **تَرَى** } الخطاب لغير معيّن، والمقصود استحضار صورة حال الظالمين يوم القيامة في ذهن المخاطب.

الإشفاق: توقّع الشيء المضرّ وهو ضدّ التمنّي.

{ **مِمَّا كَسَبُوا** } أعمالهم السيّئة. والمراد: جزاؤها بقرينة المقام.

{ **وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ** } في موضع الحال، أي: مشفقين إشفاقا يقارب اليأس وهو أشد الإشفاق حين يعلمون أنّ المشفق منه لا ينجي منه حذر. والمعنى: مشفقين من عقاب أعمالهم في حال نزول العقاب بهم. وليس المعنى أنّهم مشفقون في الدنيا من أعمالهم السيئة لأنّهم لا يدينون بذلك.

{ **وَهُوَ** } الضمير عائد على { ما كسبوا } باعتبار تقدير مضاف، أي: جزاء ما كسبوا.

{ **بِهِمْ** } الباء للاستعلاء، وهذا الاستعمال قريب من معنى الإلصاق المجازي.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ** } حال من الظالمين، أي: ترى الظالمين في إشفاق في حال أنّ الذين آمنوا يطمئنون في روضات الجنات، وفي هذه الحال دلالة على أنّ الذين آمنوا قد استقرُّوا في الروضات من قبل عرض الظالمين على الحساب وإشفاقهم من تبعاته.

وهذا من تضاد شأني الفريقين في الآخرة على عكسه بما كانوا عليه في الدنيا المقدّم في قوله { يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا } [18]، أي: فاليوم انقلب إشفاق المؤمنين اطمئنانا، واطمئنان المشركين إشفاقا، وشتان بين الاطمئنانين والإشفاقين.

الروضات: جمع روضة، وهي اسم لمجموع ماء وشجر حاف به وخضرة حوله.

{ **لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ** } خبر ثان عن { الَّذِينَ آمَنُوا }. والعندية تشريف لمعنى الاختصاص الذي أفادته الـ (لام) في قوله { لَهُمْ } وعناية بما يعطونه من رغبة. و<u>المعنى</u>: ما يشاؤونه حق لهم محفوظ عند ربهم.

<u>ولك أن تجعل</u> { عِنْدَ رَبِّهِمْ } خبرا ثالثا عن الذين آمنوا، أي: هم عند ربهم، أي: في ضيافته وقِراه، كما قال تعالى { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ } [القمر:55/54].

ويكون ترتيب الأخبار الثلاثة جاريا على نمط الارتقاء من الحسن إلى الأحسن بأن: أخبر عنهم بأنّهم نزلوا في أحسن منزل، ثم احضر لهم ما يشتهون، ثم ارتقى إلى ما هو أعظم وهو كونهم عند ربهم، على حد قوله تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة: 72].

{ **ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** } تذييل. والإشارة إلى مضمون قوله { فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ }، وجيء باسم إشارة البعيد استعارة لكون المشار إليه بعيد المكانة، بُعد ارتفاع مجازي وهو الشرف.

{ **هُوَ** } ضمير الفصل يفيد قصرا ادعائيا للمبالغة في أعظمية الفضل.

{ **الفَضْلُ** } يجوز أن يكون مصدرا بمعنى الشرف والتفوّق على الغير، فيكون في معنى: فضلهم.

ويجوز أن يكون اسما لما يتفضّل به من عطاء، فيكون في معنى: ذلك فضلنا عليهم.

{ **ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ** } [23].

{ **ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** } اسم الإشارة مؤكد لنظيره الذي قبله، أي: ذلك المذكور الذي هو فضل يحصل لهم في الجنّة، هو أيضا بشرى لهم من الحياة الدنيا.

{ **يُبَشِّرُ** } من بشَّره، إذا أخبره بحادث يسرّه.

{ **عِبَادَهُ** } جمع العباد المضاف إلى اسم الجلالة أو ضميره غلب إطلاقه في القرآن في معرض التقريب وترفيع الشأن، ولذلك يكون موقع { الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } هنا موقع عطف البيان.

{ **قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** } استئناف ابتدائي بمناسبة ذكر ما أُعدَّ للمشركين من عذاب وما أُعدَّ للمؤمنين من خير، وضمير جماعة المخاطبين مراد به المشركون لا محالة.

{ **قُلْ** } ابتدئت بذلك إمّا لأنّها جواب عن كلام صدر منهم، وإمّا لأنّها ممّا يُهتمّ بإبلاغه إليهم، كما أنّ نظائرها افتتحت بمثل ذلك، كقوله تعالى { قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ } [سبأ:47]، وقوله تعالى { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ } [ص:86]، وقوله تعالى { قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً } [الأنعام:90].

{ **عَلَيْهِ** } الضمير عائد إلى القرآن المفهوم من المقام.

الأجر: الجزاء الذي يُعطاه أحد على عمل يعمله.

المودّة: المحبّة والمعاملة الحسنة المشبهة معاملة المتحابين، وتقدّمت عند قوله تعالى { مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [العنكبوت:25]. والكلام على تقدير مضاف، أي: معاملة المودة، أي: المجاملة بقرينة أنّ المحبة لا تسأل لأنّها انبعاث وانفعال نفساني.

{ **الْقُرْبَى** } اسم مصدر كالرُجعى، وهي قرابة النسب، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلِذِي الْقُرْبَى } [الأنفال:41].

ومعنى الآية على ما يقتضيه نظمها: لا أسألكم على القرآن جزاء إلّا أن تودّوني، أي: أن تعاملوني معاملة الودّ، أي: غير معاملة العداوة، لأجل القرابة التي بيننا في النسب القرشي.

وذكر القرطبي عن الشعبي أنّه قال: " أكثرَ الناسُ علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها فكتب أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوسط الناس في قريش فليس بطن من بطونهم إلّا وقد ولَدَه، فقال الله له { قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}، إلّا أن تودّوني في قرابتي منكم، أي: تراعوا ما بيني وبينكم فتصدِّقوني، فالقربى هاهنا قرابة الرحم، كأنّه قال: اتبعوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوّة ".

{ **إِلَّا الْمَوَدَّةَ** } الاستثناء منقطع، لأنّ المودّة لأجل القرابة ليست من الجزاء على تبليغ الدعوة بالقرآن ولكنّها مما تقتضيه المروءة، فليس استثناؤها من عموم الأجر المنفي استثناء حقيقيا. والمعنى: لا أسألكم على التبليغ أجرا وأسألكم المودة لأجل القربى.

وإنّما سألهم المودة لأنّ معاملتهم إيّاه معاملة المودّة معينة على نشر دعوة الاسلام، إذ تلين بتلك المعاملة شكيمتهم فيتركون مقاومته فيتمكّن من تبليغ دعوة الإسلام على وجه أكمل. فصارت هذه المودة غرضا دينيا لا نفع فيه لنفس النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وتضمَّنت الآية أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم منزّه عن أن يتطلّب من الناس جزاء على تبليغ الهدى إليهم فإنّ النبوّة أعظم مرتبة في تعليم الحق. ولذلك أمر الله رسله بالتنزّه عن طلب جزاء على التبليغ، فقال حكاية عن نوح { وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء:109]، وكذلك حكى عن هود وصالح ولوط وشعيب.

{ **وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ** } تذييل لجملة { ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ }، والمعنى: كلّما عمل مؤمن حسنة زدناه حُسنا من ذلك الفضل الكبير. وهذا في معنى قوله تعالى { وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ } [البقرة:261].

الاقتراف: افتعال من القرف، وهو الاكتساب، فالاقتراف مبالغة في الكسب نظير الاكتساب، وليس خاصا باكتساب السوء وان كان قد غلب فيه، وأصله من قرف الشجرة، إذا قشر قِرْفَها، (بكسر القاف) وهو لحاؤها، وتقدّم عند قوله { وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } [الأنعام:113]، وقوله تعالى {وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا} [التوبة:24].

الحسنة: الفعلة ذات الحُسْن، صفة مشبّهة غلبت في استعمال القرآن والسنّة على الطاعة والقربة فصارت بمنزلة الجوامد عَلَما بالغلبة، وهي مشتقّة من الحُسن وهو جمال الصورة.

ولمَّا كانت الحسنة مأخوذة من الحُسن جُعلت الزيادة فيها من الزيادة في الحُسن مراعاة لأصل الاشتقاق فكان ذكر الحسن من الجناس المعبر عنه بجناس الاشتقاق نحو قوله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ } [الروم:43]

وصار المعنى: نزد له فيها مماثلا لها، ويتعيَّن أنَّ الزيادة فيها زيادة من غير عمله، فتعيّن أنّ المراد الزيادة في جزاء أمثالها عند الله. وهذا معنى قوله تعالى { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } [الأنعام:160]، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" من هم بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف "**.

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ** } تذييل وتعليل للزيادة لقصد تحقيقها، بأنّ الله كثيرة مغفرته لمن يستحقّها، كثير شكره للمتقربين إليه.

{ **غَفُورٌ** } إشارة إلى ترغيب المقترفين للسيّئات في الاستغفار والتوبة ليغفر لهم فلا يقنطوا من رحمة الله.

{ **شَكُورٌ** } المقصود بالتعليل.

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [24].

إضراب انتقالي عطفا على قوله { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ } [21]، والمراد الانتقال إلى توبيخ آخر، فالهمزة المقدَّرة بعد { أَمْ } للاستفهام التوبيخي، فإنّهم قالوا ذلك فاستحقّوا التوبيخ عليه.

{ **يَقُولُونَ** } صيغة المضارع ليتوجَّه التوبيخ لاستمرارهم على هذا القول الشنيع مع ظهور دلائل بطلانه. فإذا كان قولهم هذا شنعا من القول فاستمرارهم عليه أشنع.

{ **فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ** } تفريع على توبيخهم على ذلك، وهو تفريع فيه خفاء ودقّة لأنّ المتبادر من التفريع أنّ ما بعد (الفاء) إبطال لما نسبوه إليه من الافتراء على الله وتوكيد للتوبيخ فكيف يُستفاد هذا الإبطال من الشرط وجوابه المفرعين على التوبيخ.

<u>الوجه عندي في بيانه</u>: أنّ هذا الشرط وجوابه المفرّعين في ظاهر اللفظ على التوبيخ والإبطال هما دليل على المقصود بالتفريع المناسب لتوبيخهم وإبطال قولهم، وتقدير المفرّع هكذا: فكيف يكون الافتراء منك على الله والله لا يُقِرُّ أحدا أن يكذب عليه، فلو شاء لختم على قلبك، أي: سلبك العقل الذي يفكّر في الكذب فتُفحم عن الكلام فلا تستطيع أن تتقوّل عليه، فيكون الشرط كناية عن انتفاء الافتراء، فحصل بهذا النظم إيجاز بديع، وتكون الآية قريبا من قوله تعالى { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ } [الحاقة:44-46].

{ **وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ** } معطوفة على التفريع، وهي كلام مستأنف.

<u>جرى جمع من أهل التفسير</u>، مثل الكسائي وابن الأنباري والزجاج والزمخشري، أنَّ المراد أنَّ الله يمحو باطل المشركين وبهتانهم ويحقّق ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم. والمراد بالمحو على هذا: الإزالة. والمراد بالباطل: الباطل المعهود وهو دين الشرك. وبالحقّ: الحقّ المعهود، وهو الإسلام.

<u>أو يكون المعنى</u> أنّ من شأن الله تعالى أن يزيل الباطل ويفضحه بإيجاد أسباب زواله وأن يوضِّح الحق بإيجاد

أسباب ظهوره، حتّى يكون ظهوره فاضحا لبطلان الباطل، فلو كان القرآن مفترى على الله لفضح الله بطلانه وأظهر الحق، فالمراد بالباطل: جنس الباطل، وبالحق: جنس الحق، وتكون الجملة كالتذييل للتفريع.

والمعنى الأوّل أنسب بالاستئناف ولإفادته الوعيد بإزالة ما هم عليه ونصر المسلمين عليهم.

{ **وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ** } إظهار اسم الجلالة دون أن يقول: ويمح الباطل، لتقوية تمكّن المسند إليه من الذهن ولإظهار عناية الله بمحو الباطل. وإنّما عدل على الجملة الاسمية، فلم يقل: والله يمحو الباطل، لأنّه أريد أن ما في إفادة المضارع من التجدّد والتكرير إيماء إلى أنّ هذا شأن الله وعادته لا تتخلّف ولم يقصد تحقيق ذلك وتثبيته لأنّ إفادة التكرير تقتضي ذلك بطريق الكناية فحصل الغرضان.

{ **بِكَلِمَاتِهِ** } الباء للسببية، والكلمات هي: كلمات القرآن والوحي، كقوله تعالى { يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ } [الفتح: 15]، أو المراد: كلمات التكوين المتعلقة بالإيجاد كقوله تعالى { لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ } [الكهف:27].

{ **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } تعليل لمجموع جملتي { فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ - إلى قوله - بِكَلِمَاتِهِ }، أي: لأنّه لا يخفى عليه افتراء مفتر ولا صدق محقّ.

ذات الصدور: النوايا والمقاصد التي يضمرها الناس في عقولهم. والصدور: العقول، أطلق عليها الصدور على الاستعمال العربي، وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } [الأنفال:43].

وإنّما جاء هذا الرد عليهم بأسلوب الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّ ذلك أقوى في الاعتناء بتلقينه جواب تكذيبهم لأنّ المقام مقام تفظيع لبهتانهم، وهذا وجه التخالف بين أسلوب هذه الآية وأسلوب قوله تعالى { قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ } [يونس:16] لأنّ ذلك لم يكن مسوقا لإبطال كلام صدر منهم.

{ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ [25] وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ [26] }.

لمّا جرى وعيد الذين يحاجّون في الله لتأييد باطلهم من قوله تعالى { وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ } [16]، ثمّ اتبع بوصف سوء حالهم يوم الجزاء بقوله تعالى { تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا } [22]، وقوبل بوصف نعيم الذين آمنوا بقوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ } [22]، وكان ذلك مظنّة أن يكسر نفوس أهل العناد والضلالة، أعقب بإعلامهم أنّ الله من شأنه قبول توبة من يتوب من عباده، وعفوه بذلك عن سيّئاتهم.

وهذا الإخبار تعريض بالتحريض على مبادرة التوبة، ولذلك جيء فيه بالفعل المضارع الصالح للاستقبال.

وهو أيضا بشارة للمؤمنين، بأنّه قبل توبتهم ممّا كانوا فيه من الشرك والجاهلية.

وكل ذلك جري على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب وعكسه.

{ **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** } معطوفة على { وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [21] وما اتصل بها ممّا تقدّم ذكره وخاصة جملة { وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ } [24]. والجملة الاسمية لإفادتها ثبات حكمها ودوامه.

{ **الَّذِي يَقْبَلُ** } مجيء المسند اسم موصول لإفادة اتصاف الله تعالى بمضمون صلته، وأنّها شأن من شؤون الله تعالى عُرف به، ثابت له لا يتخلّف، لأنّه المناسب لحكمته وعظمة شأنه وغناه عن خلقه. وإيثار جملة الصلة بصيغة المضارع لإفادة تجدّد مضمونه وتكرّره، ليعلموا أنّ ذلك وعد لا يتخلّف ولا يختلف.

{ **عَنْ عِبَادِهِ** } وفعل (قبل) يتعدّى بـ (من) الابتدائية تارة، كما في قوله تعالى { وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ } [التوبة:54]، فيفيد معنى الأخذ للشيء المقبول صادرا من المأخوذ منه، ويُعدَّى بـ (عن) فيفيد معنى مجاوزة الشيء المقبول أو انفصاله عن معطيه وباذله، وهو أشدّ مبالغة في معنى الفعل، لأنّ فيه كناية عن احتباس الشيء المبذول عند المبذول إليه بحيث لا يردّ على باذله.

فحصلت في جملة { وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ } أربع مبالغات: بناء الجملة على الاسمية، وعلى الموصولية، وعلى المضارعية، وعلى تعدية فعل الصلة بـ (عن).

{ **التَّوْبَةَ** } الإقلاع عن فعل المعصية امتثالا لطاعة الله، وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ } [البقرة:37]، وقبول التوبة منّة من الله تعالى لأنّه لو شاء لما رضي عن الذي اقترف الجريمة ولكنّه جعلها مقبولة لحكمته وفضله.

{ **عِبَادِهِ** } في ذكر اسم العباد دون نحو: الناس أو التائبين أو غير ذلك، إيماء إلى أنّ الله رفيق بعباده لمقام العبودية، فإنّ الخالق يحبّ صلاح مخلوقه.

{ **وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ** } العفو عن السيّئات يكون بسبب التوبة بأن يعفو عن السيّئات التي اقترفها العاصي قبل توبته، ويكون بدون ذلك مثل العفو عن السيّئات عقب الحجّ المبرور، ومثل العفو عن السيّئات لأجل الشهادة في سبيل الله، ومثل العفو عن السيّئات لكثرة الحسنات بأن يُمحى عن العاصي من سيّئاته ما يقابل مقدارا من حسناته على وجه يعلمه الله تعالى، ومثل العفو عن الصغائر باجتناب الكبائر.

العفو: عدم مؤاخذة الجاني بجنايته.

{ **السَّيِّئَاتِ** } الجرائم لأنّها سيّئة عند الشرع. والتعريف للجنس المراد به الاستغراق وهو عام مخصوص بغير الشرك، قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ } [النساء:48]، ولك أن تجعله عوضا عن المضاف إليه، أي: عن سيئات عباده.

{ **وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** } معترضة بين المتعاطفات أو في موضع الحال، والمقصود: أنّه لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده خيرها وشرّها.

{ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ }

الاستجابة: مبالغة في الإجابة، وخُصت الاستجابة في الاستعمال بامتثال الدعوة أو الأمر.

ظاهر النظم أنّ فاعل { وَيَسْتَجِيبُ } ضمير يعود إلى ما عاد إليه ضمير { وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ } وأنّ {الَّذِينَ آمَنُوا} المفعول وأنّ الجملة معطوفة على جملة { يَقْبَلُ التَّوبَةَ }.

والغالب في الاستعمال أن يقال: استجاب له، كقوله { ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } [غافر:60]، وقد يحذفون اللام فيعدُّونه بنفسه. والمعنى: أنّ الله يستجيب لهم ما يرجونه منه من ثواب، وما يدعونه.

ويجوز أن يكون { الَّذِينَ آمَنُوا } فاعل { وَيَسْتَجِيبُ } أي: يستجيبون لله فيطيعونه، وتكون جملة { وَيَسْتَجِيبُ } عطفا على مجموع جملة { وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ }، أي: ذلك شأنه وهذا شأن عباده المؤمنين.

{ **وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ** } على الوجهين أنّه يعطيهم ما أمَّلوا من دعائهم وعملهم، وأعظم ممَّا أمَّلوا حين استجابوا له ولرسوله، وأنّه يعطيهم من الثواب أكثر ممّا عملوا من الصالحات إذ جعل لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، كما في الحديث، وأنّه يعطيهم من خير الدنيا ما لم يسألوه إيّاه كلّ ذلك لأنّه لطيف بهم ومدبّر لمصالحهم.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا** } لمّا كانت الاستجابة والزيادة كرامة للمؤمنين، أظهر اسم { الَّذِينَ آمَنُوا } وجيء به موصولا للدلالة على أنّ الإيمان هو وجه الاستجابة لهم والزيادة لهم.

{ **وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ** } اعتراض عائد إلى ما سبق من قوله تعالى { تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ } [22] توكيدا للوعيد وتحذيرا من الدوام على الكفر بعد فتح باب التوبة لهم.

{ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [27]

عطف على جملة { وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ } [26]، أو على مجموع الآية. وموقع معناها موقع الاستدراك والاحتراس، فإنّها تشير إلى جواب عن سؤال مقدّر في نفس السامع إذا سمع أنّ الله يستجيب للذين أمنوا وأنّه يزيدهم من فضله أن يتساءل عن الحكمة في التوسعة على البعض وفي التضييق على البعض الآخر. فيجاب بأنّ الله لو بسط الرزق للناس كلّهم لكان بسطه مفسدا لهم لأنّ الذي يستغني يتطرّقه نسيان الالتجاء إلى الله، ويحمله على الاعتداء على الناس، وكان ذلك مَنُوطا بحكمة أرادها الله من تدبير هذا العالم تطَّرد في الناس مؤمنهم وكافرهم، لأنّ قوله { لِعِبَادِهِ } يعم جميع العباد.

البغيّ: العدوان والظلم، أي: لبغى بعضهم على بعض، لأنّ الغنى مظنّة البطر والأشر إذا صادف نفسا خبيثة.

فأمّا الفقر فقلّما كان سببا للبغي إلّا بغيا مشوبا بمخافة، كبغي الجائع بالافتكاك بالعنف فذلك لندرته لا يلتفت إليه، على أنّ السياق لبيان حكمة كون الرزق بقدر لا لبيان حكمة في الفقر.

وعن خبّاب بن الأرت: فينا نزلت هذه الآية، وذلك أنّا نظرنا إلى أموال بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع فتمنيناها فنزلت. وهذا ممّا حمل قوما على ظنّ هذه الآية مدنية. وهذا إن صحّ عن خباب فهو تأويل منه لأنّ الآية مكية وخباب أنصاري فلعلّه سمع تمثيل بعضهم لبعض بهذه الآية ولم يكن سمعها من قبل.

{ **وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ** } إطلاق فعل (التنزيل) على إعطاء الرزق استعارة لأنّه عطاء من رفيع الشأن، فشُبِّه بالنازل من علو، وتكرَّر مثل هذا الإطلاق في القرآن.

القَدَر: (بفتحتين) المقدار والتعيين.

{ **مَا يَشَاءُ** } أنّ مشيئته تعالى جارية على وفق علمه وعلى ما ييسِّره من ترتيب الأسباب على حسب مختلف مصالح مخلوقاته وتعارض بعضها ببعض، وكذلك تصرّفات وتقديرات لا يحيط بها إلّا علمه تعالى.

{ **إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ** } تعليل للتي قبلها. و(إن) لمجرّد الاهتمام بالخبر والإيذان بالتعليل، لأنّها في مثل هذا المقام تقوم مقام فاء التفريع وتفيد التعليل والربط، فالجملة في تقدير المعطوفة بـ (الفاء).

{ **خَبِيرٌ** } دال على العلم بمصالح العباد وأحوالهم قبل تقديرها وتقدير أسبابها، أي: العلم بما سيكون.

{ **بَصِيرٌ** } دال على العلم المتعلّق بأحوالهم التي حصلت.

{ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ } [28].

عطف على جملة { وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ } [27]، تذكير بهذه النعمة العظيمة على الناس التي منها معظم رزقهم الحقيقي لهم ولأنعامهم. وخصّها بالذكر دون غيرها من النعم الدنيوية لأنّها نعمة لا يختلف الناس فيها لأنّها أصل دوام الحياة بإيجاد الغذاء الصالح للناس والدواب.

{ **وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ** } قصر القلب لأنّ في السامعين مشركين يظنّون نزول الغيث من تصرّف الكواكب وفيهم المسلمون الغافلون، يظنّون ظنّهم، لأنّهم كانوا حديثي عهد بالجاهلية. وهذا القصر بالنسبة للمشركين قصر قلب أصلي وهو بالنسبة للمسلمين قصر قلب تنزيلي.

وفي حديث زيد بن خالد الجهني قال خطبنا رسول الله على إثر سماء كانت من الليل فقال: " **أتدرون ماذا قال ربكم؟ قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأمّا من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأمّا من قال: مُطرنا بنَوء كذا ونوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب** ".

{ **يُنَزِّلُ** } اختيار المضارع لإفادة تكرّر التنزيل وتجديده.

الغيث: المطر الآتي بعد الجفاف، سُمِّي غيثا بالمصدر لأنّ به غيث الناس المضطرِّين، وتقدّم عند قوله { فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ } [يوسف:49].

القنوط: اليأس، وتقدّم عند قوله تعالى { فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ } [الحجر:55].

والمراد: من بعدما قنطوا من الغيث بانقطاع أمارات الغيث المعتادة وضيق الوقت عن الزرع.

النشر: ضدّ الطي، وتقدّم عند قوله تعالى { يَلْقَاهُ مَنْشُوراً } [الإسراء:13]، واستعير هنا للتوسيع والامتداد.

{ **رَحْمَتَهُ** } هنا رحمته بالماء، وقيل: بالشمس بعد المطر.

{ **وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ** } ذكر هذين الصفتين دون غيرهما لمناسبتهما للإغاثة لأنّ الوليّ يحسن إلى مواليه والحميد يعطي ما يحمد عليه.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} [29]

لمَّا كان إنزال الغيث جامعا بين كونه نعمة وكونه آية دالة على بديع صنع الله تعالى وعظيم قدرته المقتضية انفراده بالإلهية، انتقل من ذكره إلى ذكر آيات دالة على انفراد الله تعالى بالإلهية وهي آية خلق العوالم العظيمة وما فيها ممّا هو مشاهد للناس دون قصد الامتنان. وهذا الانتقال استطراد واعتراض.

الآيات: جمع آية، وهي العلامة والدليل على شيء.

السماوات: العوالم العليا غير المشاهدة لنا والكواكب وما تجاوز الأرض من الجو.

الأرض: الكرة التي عليها الحيوان والنبات.

البثّ: وضع الأشياء في أمكنة كثيرة.

الدابة: ما يدبّ على الأرض، أي: يمشي، فيشمل الطير لأنّ الطير يمشي إذا نزل وهو ممّا أريد في قوله هنا {فيهما}، أي: في الأرض وفي السماء. وأمّا الموجودات التي في السماوات العلى من الملائكة والأرواح فلا يطلق عليها اسم دابة. ويجوز أن تكون في بعض السماوات موجودات تدبّ فيها، فإنّ الكواكب من السماوات

{ **وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ** } معترضة في جملة الاعتراض لإدماج إمكان البعث في عرض الاستدلال على عظيم قدرة الله وعلى تفرده بالإلهية. والمعنى: أنّ القادر على خلق السماوات والأرض وما فيهما عن عدم قادر على إعادة خلق بعض ما فيهما للبعث والجزاء.

{ **جَمْعِهِمْ** } الضمير عائد إلى ما بثّ فيهما من دابة باعتبار أنّ الذي تتعلّق الإرادة بجمعه في الحشر للجزاء هم العقلاء من الدواب. وقد ورد في أحاديث في الصحيح أنّ بعض الدواب تحشر للانتصاف ممّن ظلمها.

{ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [30]

عطف على جملة { وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا } [28]. لمّا تضمَّنت المنّة بإنزال الغيث بعد القنوط أنّ القوم أصابهم جهد من القحط بلغ بهم مبلغ القنوط من الغيث أعقبت ذلك بتنبيههم إلى أنّ ما أصابهم من ذلك البؤس هو جزاء على ما اقترفوه من الشرك تنبيهًا يبعثهم ويبعث الأمّة على أن يلاحظوا أحوالهم نحو امتثال رضى خالقهم ومحاسبة أنفسهم حتّى لا يحسبوا أنّ الجزاء الذي أوعدوا به مقصور على الجزاء في الآخرة، بل يعلموا أنّه قد يصيبهم الله بما هو جزاء لهم في الدنيا.

والخطاب للمشركين ابتداء لأنّهم المقصود من سياق الآيات كلّها وهم أولى بهذه الموعظة لأنّهم كانوا غير مؤمنين بوعيد الآخرة، ويشمل المؤمنين بطريق القياس.

المصيبة: اسم للحادثة التي تصيب بضرّ ومكروه، وقد لزمتها هاء التأنيث للدلالة على الحادثة فلذلك تنوسيت منها الوصفية وصارت اسما للحادثة المكروهة.

{ **كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** } أطلق على الأفعال والأقوال المنكرة على وجه المجاز بعلاقة الإطلاق، أي: بما صدر منكم من أقوال الشرك، والأذى للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وفِعل المنكرات الناشئة عن دين الشرك.

{ **وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** } عطف على جملة { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ }. وهذا يشير إلى ما يتراءى لنا من تخلّف إصابة المصيبة عن بعض الذين كسبت أيديهم جرائم، ومن ضدّ ذلك ممّا تصيب المصائب بعض الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهو إجمال يبيّنه على الجملة أنّ ما يعلمه الله من أحوال عبادة وما تغلب من حسناتهم على سيئاتهم، وما تقتضيه حكمة الله من إمهال بعض عباده أو من ابتلاء بعض المقربين. <u>والمعنى</u>: أنّه تعالى يعفو، أي: يصفح فلا يصيب كثيرا من عباده الذين استحقّوا جزاء السوء بعقوبات دنيوية، لأنّه يعلم أن ذلك أليق بهم. فالمراد هنا: العفو عن المؤاخذة في الدنيا ولا علاقة لها بجزاء الآخرة، فإنّ فيه أدلة أخرى من الكتاب والسنة.

{ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ } [31]

عطف على جملة { وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [30] وهو احتراس، أي: يعفو عن قدرة وتفضّل، فإنّكم لا تعجزونه.

المُعْجِزُ: الغالب غيره بانفلاته من قبضته. والمعنى: ما أنتم بفالتين من قدرة الله. والخطاب للمشركين.

{ **وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** } جيء بالخبر جملة اسمية للدلالة على ثبات الخبر ودوامه، أي: نفي إعجازهم ثابت لا يتخلّف، فهم في مكنة خالقهم.

{ **فِي الْأَرْضِ** } لإرادة التعميم، أي: في أيّ مكان من الأرض، لئلا يحسبوا أنّهم في منعة بحلولهم في مكة

التي أمّنها الله تعالى.

{ **وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** } أي: ليس لكم وليّ يتولاكم فيمنعكم من سلطان الله ولا نصير ينصركم على الله إن أراد إصابتكم، فجمعت الآية نفي ما هو معتاد بينهم من وجوه الوقاية.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ [32] إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [33] أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ [34] }.

لمّا جرى تذكيرهم بأنّ ما أصابهم من مصيبة هو مسبّب عن اقتراف أعمالهم، وتذكيرهم بحلول المصائب تارة وكشفها تارة أخرى بقوله { وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [30]، وأعقب بأنّهم في الحالتين غير خارجين عن قبضة القدرة الإلهية، سيق لهم ذكر هذه الآية جامعة **مثالا** لإصابة المصائب وظهور مخائلها المخيفة المذكّرة بما يغفلون عنه من قدرة الله، والتي قد تأتي بما أُنذِروا به وقد تنكشف عن غير ضر، **ودليلا** على عظيم قدرة الله تعالى، وأنّه لا محيص عن إصابة ما أراده، **وإدماجا** للتذكير بنعمة السير في البحر وتسخير البحر للناس، فإن ذلك نعمة، قال تعالى { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} [البقرة:164].

فكانت هذه الجملة اعتراضا مثل جملة { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [29].

الآيات: الأدلة الدالة على الحق.

الجواري: جمع جارية، صفة لمحذوف دلّ عليه ذكر البحر، أي: السفن الجواري في البحر، كقوله { إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [الحاقة:11] وعدل عن: الفلك إيماء إلى محلّ العبرة، لأنّ العبرة في تسخير البحر لجريها وتفكير الإنسان في صنعها.

{ **كَالْأَعْلامِ** } جمع علم وهو الجبل، والتشبيه للإشارة أنّها السفن العظيمة التي تسع ناسا كثيرين، والعبرة بها أظهر والنعمة بها أكثر.

إسكان الرياح: قطع هبوبها، فإنّ الريح حركة وتموّج في الهواء فإذا سكن ذلك التموج فلا ريح.

الرواكد: جمع راكدة، والركود: الاستقرار والثبوت.

الظهر: الصلب للإنسان والحيوان، ويطلق على أعلى الشيء إطلاقا شائعا. يقال: ظهر البيت، أي: سطحه، وتقدّم في قوله تعالى { وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا } [البقرة: 189]. وأصله: استعارة فشاعت حتّى قاربت الحقيقة. فظهر البحر سطح مائه البادي للناظر، كما أطلق ظهر الأرض على ما يبدو منها، قال تعالى { مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ } [فاطر:45].

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** } جُعل ذلك آية لكلّ صبّار شكور لأنّ في الحالتين خوفا ونجاة،

والخوف يدعو إلى الصبر، والنجاة تدعو إلى الشكر. والمراد: أنّ في ذلك آيات لكلّ مؤمن متخلّق بخلق الصبر على الضراء والشكر للسراء.

{ **أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ** } عطف على جزاء الشرط.

{ **يُوبِقْهُنَّ** } يهلكهن. والإيباق: الإهلاك، وفعله (**وبق**) كوعد. والمراد به هنا الغرق.

فيجوز أن يكون ضمير جماعة الإناث عائدا إلى { الْجَوَارِ } على أن يستعار الإيباق للإغراق.

ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى الراكبين على تأويل معاد الضمير بالجماعات، فهو كقوله { وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ } [الحج:27/28].

{ **بِمَا كَسَبُوا** } الباء للسببية وهو في معنى قوله تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } [30].

{ **وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ** } عطف على { يُوبِقْهُنَّ } فهو في معنى جزاء للشرط المقدّر، أي: وإن يشأ يعف عن كثير فلا يوبقهم مع استحقاقهم ذلك. وهذا العطف اعتراض.

{ **وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ** } [35]

{ **وَيَعْلَمَ** } قرأ نافع وابن عامر ويعقوب برفع { وَيَعْلَمُ } على أنّه كلام مستأنف. وقرأه الباقون بالنصب.

فأمّا الاستئناف، على قراءة نافع وابن عامر ويعقوب، فمعناه أنّه كلام أُنُف لا ارتباط له بما قبله، وذلك تهديد للمشركين بأنّهم لا محيص لهم من عذاب الله، لأنّه لما قال { وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ } [32]، صار المعنى: ومن آيات انفراده بالإلهية الجواري في البحر. والمشركون يجادلون في دلائل الوحدانية بالإعراض والانصراف عن سماعها فهدّدهم الله بأن أعلمهم أنّهم لا محيص لهم، أي: من عذابه، فحُذف متعلّق المحيص تهويلا للتهديد، لتذهب النفس كل مذهب ممكن، فيكون قوله { وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ } خبرا مرادا به الإنشاء والطلب، فهو في قوة: وليعلم الذين يجادلون، أو اعلموا يا من يجادلون. وليس خبرا عنهم لأنّهم لا يؤمنون بذلك حتّى يعلموه.

وأمّا قراءة النصب فهي عند سيبويه وجمهور النحاة على العطف على فعل مدخول لـ (لام التعليل) وتضمّن (أن) بعده. والتقدير: لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون الخ. وسمُّوا هذه الواو (واو الصرف) لأنّها تصرف ما بعدها عن أن يكون معطوفا على ما قبلها إلى أن يكون معطوفا على فعل متصيَّد من الكلام.

وذهب الزجاج إلى أنّ الواو (واو المعية) التي يُنصب الفعل المضارع بعدها بـ (أن) مضمرة.

ويجوز أن يُجعل الخبر مستعملا في مقاربة المخبر به، كقولهم: قد قامت الصلاة، فلمّا كان علمهم بذلك يوشك أن يحصل نزل منزلة الحاصل فأخبر عنهم به، وعلى هذا الوجه يكون إنذارا بعقاب يحصل لهم قريبا وهو عذاب السيف والأسر يوم بدر.

{ **وَيَعْلَمَ** } وذكر فعل (يعلم) للتنويه والاعتناء بالخبر كقوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ } [البقرة:223]، وقوله تعالى { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ } [الأنفال:41]، وقول النبيّ صلى الله عليه وسلم حين رأى أبا مسعود الأنصاري يضرب غلاما له فناداه: " **اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود"** ، قال أبو مسعود: فالتفت فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو يقول: " **اعلم أبا مسعود** " فألقيت السوط من يدي، فقال لي: " **أنّ الله أقدر عليك منك على هذا الغلام** " [رواه مسلم أواخر كتاب الإيمان].

{ **الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا** } تقدّم معناها في هذه السورة [16].

المحيص: مصدر ميمي من حاص، إذا أخذ في الفرار ومال في سيره. وفي حديث أبي سفيان في وصف مجلس هرقل: فحاصوا حيصة حُمُر الوحش وأغلقت الأبواب ".

<u>المعنى</u>: ما لهم من فرار ومهرب من لقاء الله. وتقدّم في قوله { وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً } [النساء:121].

{ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } .[36]

تفريع على جملة { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا } [27] إلى آخرها، فإنّها اقتضت وجود مُنعَم عليه ومحروم، فذُكِّروا بأنّ ما أوتوه من رزق هو عرض زائل، وأنّ الخير في الثواب الذي ادّخره الله للمؤمنين، مع المناسبة لما سبقه من قوله تعالى { وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ } [34]، فإن تلك السلامة نعمة من نعم الدنيا.

فالنعم الدنيوية نعم قصيرة الزمان صائرة إلى الزوال فلا يجعلها الموفَّق غاية سعيه وليسع لعمل الآخرة الذي يأتي بالنعيم العظيم الدائم وهو النعيم الذي ادّخره الله عنده لعباده المؤمنين الصالحين.

والخطاب للمشركين جريا على نسق الخطاب السابق، وينسحب الحكم على المؤمنين بلحن الخطاب، ويجوز أن يكون الخطاب لجميع الأمّة.

{ **وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** } دليل على عملهم بإيمانهم في اعتقادهم، فهم يتوكّلون على ربهم دون غيره. وهذا التوكّل إفراد لله بالتوجُّه إليه في كلّ ما تعجز عنه قدرة العبد، فإن التوجُّه إلى غيره في ذلك ينافي التوحيد، لأنّ المشركين يتوكَّلون على آلهتهم أكثر من توكُّلهم على الله.

{ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ } [37]

أُتبع الموصول السابق بموصولات معطوف بعضُها على بعض كما تُعطف الصفات للموصوف الواحد، فكذلك عطف هذه الصلات وموصولاتها لأنّ أصحابها متّحدون وهم الذين آمنوا بالله وحده، نظير قوله تعالى { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة:3] ثم قوله تعالى { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ } [4].

فالمقصود: ما عند الله خير وأبقى للمؤمنين الذين هذه صفاتهم.

كبائر الإثم: الآثام العظيمة التي نهى الشرع عنها نهيا جازما، وتوعَّد فاعلها بعقاب الآخرة، مثل القذف والاعتداء والبغي. وقرأه حمزة والكسائي وخلف { كبيرة الإثم } بالإفراد، والمعنى واحد، لأنّ المفرد لما أضيف إلى معرف بلام الجنس كان له حكم ما أضيف هو إليه.

{ **وَالْفَوَاحِشَ** } جمع فاحشة، وهي: الفعلة الموصوفة بالشناعة والتي شدَّد الدين في النهي عنها وتوعّد عليها بالعذاب، أو وضع لها عقوبات في الدنيا. وهذه مثل قتل النفس، والزنى، والسرقة، والحرابة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا } [الأعراف:28].

{ **وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ** } ولمّا كان كثير من كبائر الإثم والفواحش متسبّبا على القوة الغضبية، مثل القتل والجراح والشتم والضرب أعقب الثناء على الذين يجتنبونها، فذكر أنّ من شيمتهم المغفرة عند الغضب، أي: إمساك أنفسهم عن الاندفاع مع داعية الغضب.

{ **وَإِذَا مَا غَضِبُوا** } جيء بكلمة (إذا) المضمَّنة معنى الشرط والدالة على تحقق الشرط، لأنّ الغضب طبيعة نفسية لا تكاد تخلو عنه نفس أحد على تفاوت.

{ **هُمْ يَغْفِرُونَ** } قُدِّم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة التقوّي.

والمقصود من هذا معاملة المسلمين بعضهم مع بعض، فلا يعارضه قوله الآتي { وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ } [39]، لأنّ ذلك في معاملتهم مع أعداء دينهم.

{ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } [38].

هذا موصول آخر وصلة أخرى. ومدلولهما من أعمال الذين آمنوا التي يدعوهم إليها إيمانهم، والمقصود منها ابتداء هم الأنصار، كما روي عن عبد الرحمان ابن زيد. ومعنى ذلك أنّهم من المؤمنين الذين تأصّل فيهم خلق الشورى.

{ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ** } هذه ثابتة لجميع من آمن بالله، لأنّ الاستجابة لله هي الاستجابة لدعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم. والسين والتاء للمبالغة، أي: هي إجابة لا يخالطها كراهية ولا تردّد.

{ **لِرَبِّهِمْ** } لام التقوية يقال: استجاب له كما يقال: استجابه، فالظاهر أنّه أريد منه استجابة خاصة، وهي إجابة المبادرة مثل أبي بكر وخديجة وعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص ونقباء الأنصار أصحاب ليلة العقبة.

{ **وَأَقَامُوا الصَّلاةَ** } أثنى الله عليهم بإقامة الصلاة، فيجوز أن يكون ذلك تنويها بمكانة الصلاة بأعمال الإيمان، ويجوز أن يكون المراد إقامة خاصة، فإذا كانت الآية نازلة في الأنصار أو كان الأنصار المقصود الأول منها فلعلّ المراد مبادرة الأنصار بعد إسلامهم بإقامة الجماعة إذ سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يرسل إليهم من يقرأهم القرآن ويؤمُّهم في الصلاة، فأرسل إليهم مصعب بن عمير وذلك قبل الهجرة.

{ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** } عطف على الصلة. وقد عُرف الأنصار بذلك إذ كان التشاور في الأمور عادتهم، فإذا نزل بهم مهمّ اجتمعوا وتشاوروا، وكان من تشاورهم الذي أثنى الله عليهم به هو تشاورهم حين ورد إليهم نقباؤهم وأخبروهم بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن آمنوا هم به ليلة العقبة، فلمّا أبلغوهم ذلك اجتمعوا في دار أبي أيوب الأنصاري فأجمع رأيهم على الإيمان به والنصر له.

وإذ قد كانت الشورى مفضية إلى الرشد والصواب وكان من أفضل آثارها أن اهتدى بسببها الأنصار إلى الإسلام أثنى الله بها على الإطلاق دون تقييد بالشورى الخاصة التي تشاور بها الأنصار في الإيمان.

الأمر: اسم من أسماء الأجناس العامة مثل: شيء وحادث. وإضافة اسم الجنس قد تفيد العموم بمعونة المقام، أي: جميع أمورهم مُتَشاور فيها بينهم.

الشورى: مصدر، وهي أنّ قاصد عمل يطلب ممّن يظن فيه صواب الرأي والتدبير أن يشير عليه بما يراه في حصول الفائدة المرجوة من عمله، وتقدّم عند قوله تعالى { وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ } [آل عمران:159].

{ **بينهم** } ظرف مستقرّ هو صفة لـ { شُورَى }، والتشاور لا يكون إلّا بين المتشاورين، وهذا الظرف إيماء إلى أنّ الشورى لا ينبغي أن تتجاوز من يهمّهم الأمر من أهل الرأي، وإلى أنّها سر بين المتشاورين.

{ **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** } أثنى عليهم بأنّهم ينفقون ممّا رزقهم الله، وللأنصار الحظ الأوفر من هذا الثناء، وهو كقوله فيهم { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } [الحشر:9]. وذلك أنّ الأنصار كانوا أصحاب أموال وعمل فلما آمنوا كانوا أوّل جماعة من المؤمنين لهم أموال يعينون بها ضعفاء المؤمنين منهم ومن المهاجرين الأولين قبل هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم.

والقول إدماج للامتنان في خلال المدح، وإلّا فليس الإنفاق من غير ما يرزَقه المنفق.

{ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ } [39].

هذا موصول رابع وصلته خُلُق أراده الله للمسلمين، والحظّ الأوّل منه للمؤمنين الذين كانوا بمكّة قبل أن يهاجروا فإنّهم أصابهم بغي المشركين بأصناف الأذى من شتم ومصادرة الأموال وتعذيب فصبروا عليه.

{ **الْبَغْيُ** } الاعتداء على الحق، فمعنى أصابته إيَّاهم أنّه سُلط عليهم، أيّ بَغى غيرهم عليهم.

وهذه الآية مقدّمة لقوله في سورة الحج { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ } [40/39]، فإنّ سورة الحج نزلت بالمدينة.

أثنى الله عليهم بأنّهم ينتصرون لأنفسهم تنبيها على أنّ ذلك الانتصار ناشئ على ما أصابهم من البغي، فكان كلّ من السبب والمسبّب موجب الثناء، لأنّ الانتصار محمدة دينية إذ هو لدفع البغي اللاحق بهم لأجل أنّهم مؤمنون، فالانتصار لأنفسهم رادع للباغين عن التوغّل في البغي على أمثالهم، وذلك الردع عون على انتشار الإسلام، إذ يقطع ما شأنه أن يخالج نفوس الراغبين في الإسلام من هواجس خوفهم من أن يُبغى عليهم.

وبهذا تعلم أن ليس بين هذا القول وبين قوله آنفا { وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ } [37] تعارض لاختلاف المقامين كما علمت آنفا.

{ **هُمْ يَنْتَصِرُونَ** } أدخل ضمير الفصل، الذي فصل بين الموصول وبين خبره، لإفادة تقوّي الخبر، أي: لا ينبغي أن يتردّدوا في الانتصار لأنفسهم. وأوثر الخبر الفعلي هنا دون أن يقال: منتصرون، لإفادة معنى تجدّد الانتصار كلما أصابهم البغي.

{ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } [40]

هذه جمل ثلاث معترضة الواحدة تلو الأخرى بين جملة { وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ } [39] وجملة { وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ} [41]. وفائدة هذا الاعتراض تحديد الانتصار والترغيب في العفو ثم ذمّ الظلم والاعتداء، وهذا انتقال من الإذن في الانتصار من أعداء الدين إلى تحديد إجرائه بين الأمّة بقرينة تفريع { فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ } على جملة { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } إذ سُمِّي ترك الانتصار عفوا وإصلاحا ولا عفو ولا إصلاح مع أهل الشرك. وبقرينة الوعد بأجر من الله على ذلك العفو ولا يكون على الإصلاح مع أهل الشرك أجر.

{ **سَيِّئَةٍ** } صفة لمحذوف، أي: فعلة تسوء من عومل بها. ووزنها **فَيْعِلة** مبالغة في الوصف مثل: هيّنة.

<u>المعنى</u>: أن المجازي يجازي من فعل معه فعلة تسوءه بفعلة سيّئة مثل فعلته في السوء، وليس المراد بالسيّئة هنا المعصية التي لا يرضاها الله، فلا إشكال في إطلاق السيّئة على الأذى الذي يلحق بالظالم.

{ **مِثْلُهَا** } أنّها تكون بمقدارها في متعارف الناس، فقد تكون المماثلة في الغرض والصورة وهي المماثلة التامة، وتلك حقيقة المماثلة، مثل القصاص من القاتل ظلما بمثل ما قتل به، ومن المعتدي بجراح عمد، وقد تتعذّر المماثلة التامة فيصار إلى المشابهة في الغرض، أي: مقدار الضرّ، وتلك هي المقاربة، من ذلك إتلاف بعض الحواس بسبب ضرب على الرأس أو على العين فيصار إلى الديّة إذ لا تضبط إصابة حاسة الباغي بمثل ما أصاب به حاسة المعتدَى عليه. وكذلك إعطاء قيم المتلفات من المقوّمات.

{ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** } في موضع العلّة لكلام محذوف دلّ عليه السياق فيقدّر: أنّه يحب العافين، كما قال تعالى { وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران:134].

ويجوز أيضا أن يكون التعليل منصرفا لمفهوم جملة { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}، أي: دون تجاوز المماثلة في الجزاء كقوله تعالى { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } [النحل:126]. فيكون ما صدق { الظَّالِمِينَ } الذين يتجاوزون الحدّ في العقوبة من المؤمنين، على أن يكون تحذيرا من مجاوزة الحدّ، كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ".**

وقد شملت هذه الآية بموقعها الاعتراضي أصول الإرشاد إلى ما في الانتصار من الظالم وما في العفو عنه من صلاح الأمة، ففي تخويل حقّ انتصار المظلوم من ظالمه ردع للظالمين عن الإقدام على الظلم خوفا من أن يأخذ المظلوم بحقه. وفي الترغيب في عفو المظلوم عن ظالمه حفظ آصرة الأخوة الإسلامية بين المظلوم وظالمه كيلا تنثلم في آحاد جزئياتها بل تزداد بالعفو متانة، كما قال تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت:34].

{ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ } [41]

الجملة إمّا مرتبطة بغرض انتصار المسلم على ظالمه من المسلمين تكملة لجملة { فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } [40]، فيكون عذرا للذين لم يعفوا.

وإمّا مرتبطة بغرض انتصار المؤمنين من بغي المشركين عليهم، وهو الانتصار بالدفاع، سواء كان دفاع جماعات، وهو الحرب فيكون هذا تمهيدا للإذن بالقتال الذي شُرع من بعد، أم دفاعَ الآحاد إن تمكّنوا منه، فقد صار المسلمون بمكة يومئذ ذوي قوّة يستطيعون بها الدفاع عن أنفسهم آحادا.

{ **وَلَمَنِ انْتَصَرَ** } اللام موطِّئة للقسم، و(من) شرطية، أو (لام ابتداء) و(من) موصولة. وإضافة { ظُلْمِهِ } من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: بعد كونه مظلوما.

{ **بَعْدَ ظُلْمِهِ** } التنبيه على أنّ هذا الانتصار بعد أن تحقَّق أنّهم ظُلموا، فأمّا في غير الحروب فمن يتوقّع أنّ أحدا سيعتدي عليه ليس له أن يبادره بأذى قبل أن يشرع في الاعتداء عليه.

وأمّا حال المسلمين بعضهم مع بعض فليس من غرض الآية، غير أن في بيانه بعض الفائدة فنقول:

لو أنّ أحدا ساوره أحد ببادئ عمل من البغي فهو مرخَّص له أن يدافعه عن إيصال بغيه إليه قبل أن يتمكّن منه ولا يمهله حتّى يوقع به ما عسى أن لا يتداركه فاعله من بعد، وذلك ممّا يرجع إلى قاعدة أنّ ما قارب الشيء يُعطى حكم حصوله، أي: مع غلبة ظنّه بسبب ظهور بوادره، وهو ما قال فيه الفقهاء: " يجوز دفع صائل بما أمكن "، ومحلّ هذه الرخصة هو الحالات التي يتوقّع فيها حصول الضرّ حصولا يتعذّر أو يعسر

رفعه وتداركه. ومعلوم أنّ محلها هو الحالة التي لم يفت فيها فعل البغي فأما إن فات فإنّ حق الجزاء عليه يكون بالرفع للحاكم ولا يتولّى المظلوم الانتصاف بنفسه.

{ **فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ** } فاء جواب الشرط، فإن جعلت لام { لَمَنِ انْتَصَرَ } (لام الابتداء) فهو ظاهر، وإن جعلت اللام (موطّئة للقسم) كان اقتران ما بعدها بفاء الجواب ترجيحا للشرط على القسم عند اجتماعهما.

{ **فَأُولَئِكَ** } جيء باسم الإشارة في صدر جواب الشرط لتمييز الفريق المذكور أتمّ تمييز، وللتنبيه على أنّ سبب عدم مؤاخذتهم هو أنّهم انتصروا بعد أن ظلموا ولم يبدأوا الناس بالبغي.

{ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [42]

استئناف بياني، فإنّه لمّا جرى الكلام السابق كلّه على الإذن للذين بُغي عليهم أن ينتصروا ممَّن بغوا عليهم، ثمّ عُقّب بأنّ أولئك ما عليهم من سبيل، كان ذلك مثار سؤال سائل عن الجانب الذي يقع عليه السبيل.

{ **إِنَّمَا السَّبِيلُ** } القصر تأكيد لمضمون جملة { فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ } [41]، لأنّ أداة القصر نفت السبيل عن غيرهم مرة أخرى فتأكّد حصوله الأوّل الذي حصل بالنفي، ونظيره قوله تعالى { مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ - إلى قوله - إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ } [التوبة:93].

{ **السَّبِيلُ** } عين المراد به في قوله { فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ } [41] بقرينة أنّه أعيد معرَّفا بـ (اللام) بعد أن ذُكر مَنكَّرا، فإنّ إعادة اللفظ النكرة معرَّفا بـ (لام التعريف) يفيد أنّ المراد به ما ذُكر أوّلا.

وهذا السبيل الجزاء والتبعة في الدنيا والآخرة.

{ **الَّذِينَ يَظْلِمُونَ** } يشمل العموم كلّ ظالم. ويدخل ابتداء فيه الظالمون المتحدَّث عنهم وهم مشركو أهل مكة.

{ **النَّاسَ** } يشمل العموم كلّ مظلوم، . ويدخل ابتداء فيه الناس المتحدّث عنهم وهم المسلمون يومئذ.

البغي في الأرض: الاعتداء على ما وضعه الله في الأرض من الحق الشامل لمنافع الأرض التي خُلقت للناس، والشامل لمخالفة ما سنّه الله في فطرة البشر من الأحوال القويمة مثل العدل وحسن المعاشرة، فالبغي عليها بمثل الكبرياء والصلف وتحقير الناس المؤمنين وطردهم عن مجامع القوم بغي في الأرض بغير الحق.

{ **فِي الْأَرْضِ** } أرض مكة، أو جميع الكرة الأرضية وهو الأليق بعموم الآية، كما قال تعالى { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا } [البقرة:205]، وقال تعالى { وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا } [الأعراف:85]، فكل فساد وظلم يقع في جزء من الأرض هو بغي في الأرض.

{ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** } متعلق بـ { **يَبْغُونَ** } وهو لكشف حالة البغي لإفادة مذمّته، إذ لا يكون البغي إلّا بغير الحق، فإنّ مُسمَّى البغي هو الاعتداء على الحقّ، وأمّا الاعتداء على المبطل لأجل باطله فلا يُسمَّى بغيا ويُسمَّى

اعتداء، قال تعالى { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } [البقرة:194]، ويقال: استعدى فلان الحاكم على خصمه، أي: طلب منه الحكم عليه.

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } بيان لجملة { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ } إن أريد بـ (السبيل) في قوله { مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ } [41] سبيل العقاب في الآخرة، أو بدل اشتمال منها إن أريد بـ (السبيل) هنالك ما يشمل الملام في الدنيا، أي: السبيل الذي عليهم هو أنّ لهم عذابا أليما جزاء ظلمهم وبغيهم.

وحكم هذه الآية يشمل ظلم المشركين للمسلمين ويشمل ظلم المسلمين بعضهم بعضا ليتناسب مضمونها مع جميع ما سبق.

{ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [43]

عطف على جملة { وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ } [41]، وموقع هذه الجملة موقع الاعتراض بين جملة { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ } [42] وجملة { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ } [44].

وهذه الجملة تفيد بيان مزيّة المؤمنين الذين تحمَّلوا الأذى من المشركين وصبروا عليه ولم يؤاخذوا به من آمن ممّن آذوهم، مثل أخت عمر بن الخطاب، وصهره سعيد بن زيد، فكان في صبرهما خيرٌ دخل به عمر في الإسلام، ومزيّة المؤمنين الذين يصبرون على ظلم إخوانهم ويغفرون لهم فلا ينتصفون منهم ولا يستعدون عليهم على نحو ما تقدّم عند قوله تعالى { فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } [40].

{ **إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** } خبر عن (من) الموصولة، والـ (لام) لام الابتداء التي تدخل على خبر (إنّ).

وقد اشتمل هذا الخبر على أربعة مؤكّدات هي: (اللام، وإنّ، ولام الابتداء، والوصف بالمصدر في قوله {عَزْمِ الْأُمُورِ} تنويها بمضمونه) وزيد تنويها باسم الإشارة في قوله { ذَلِكَ } فصار فيه خمسة اهتمامات.

العزم: عقد النيّة على العمل والثبات على ذلك. والوصف بالعزم مُشعر بمدح الموصوف لأنّ شأن الفضائل أن يكون عملها عسيرا على النفوس لأنّها تعاكس الشهوات. ومن ثمّ وصف أفضل الرسل بأولي العزم.

{ **الْأُمُورِ** } جمع أمر. والمراد به هنا: الخِلال والصفات.

والآية ترغيب في العفو والصبر على الأذى، وذلك بين الأمّة الإسلامية ظاهر، وأمّا مع الكافرين فتعتريه أحوال تختلف بها أحكام الغفران، وملاكها أن تترجّح المصلحة في العفو أو في المؤاخذة.

{ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ } [44].

{ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ } بعد أن حكى أصنافا من كفر المشركين وعنادهم وتكذيبهم، ثمّ ذكّرهم بالآيات الدالة على انفراد الله تعالى بالإلهية وما في مطاويها من النعم، وحذّرهم من الغرور بمتاع الدنيا الزائل، أعقبه بهذا القول وهو معطوف على قوله { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ } [42].

المعنى: أنّ فيما سمعتم هداية لمن أراد الله له أن يهتدي، وأمّا من قدّر الله عليه بالضلال فما له من وليّ غير الله يهديه أو ينقذه. فالمراد نفي الوليّ الذي يصلحه ويرشده، كقوله تعالى { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً } [الكهف: 17] فالمراد هنا ابتداء معنى خاص من الولاية.

ونفي الولي كناية، لأنّه يدلّ بالالتزام على احتياج إلى نفعه مولاه، وذلك يستلزم أنّ مولاه في عناء وعذاب كما دلّ عليه قوله عقبه { وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ }. فهذه كناية تلويحية.

{ مِنْ بَعْدِهِ } الضمير راجع إلى اسم الجلالة، أي: من بعد الله، كقوله تعالى { فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [الجاثية:23]. استعير لفظ (بعد) لمعنى (دون)، و(من) زائدة للتوكيد.

{ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ } عطف على الجملة السابقة، وهذا تفصيل وبيان لما أُجمل في الآيتين المعطوف عليهما وهما قوله { وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ } [الشورى:35]، وقوله { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ }. والمعنى: أنّهم لا يجدون محيصا ولا وليًّا، فلا يجدون إلّا الندامة على ما فات فيقولوا { هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ }.

{ وَتَرَى الظَّالِمِينَ } للاعتبار بحالهم. فالمقصود: الإخبار بحالهم أوّلا، والتعجيب منه ثانيا، لذلك لم يقل: والظالمون لما رأوا العذاب يقولون.

والخطاب لغير معيّن، أي تناهت حالهم في الظهور فلا يختصّ به مخاطب، أو الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم تسلية له على ما لاقاه منهم من التكذيب.

{ رَأَوُا الْعَذَابَ } مجيء الفعل بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه، فالماضي مستعار للاستقبال تشبيها للمستقبل بالماضي في التحقّق، والقرينة أنّ الرؤية المذكورة ليست بحاصلة في الحال.

{ يَقُولُونَ } حال من { الظَّالِمِينَ } أي: تراهم قائلين، فالرؤية مقيّدة بكونها في حال قولهم ذلك.

{ هَلْ } الاستفهام إنكاري في معنى النفي، فلذلك أدخلت (من) الزائدة على {سَبِيلٍ} لأنّه نكرة في سياق النفي.

المَرَدّ: مصدر ميمي للردّ: **الرجوع**، يقال: ردّه إذا أرجعه. ويجوز أن يكون بمعنى **الدفع**، أي: هل إلى ردّ العذاب عنّا، فهو في معنى قوله تعالى { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ } [الطور:8].

{ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ } [45].

{ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ } أعيد فعل (ترى) للاهتمام بهذه الرؤية وتهويلها.

العرض: أصله إظهار الشيء وإراءته للغير، ومن إطلاقاته قولهم: عرض الأسرى على الأمير، وهو امرارهم ليرى رأيه في حالهم، وهو إطلاقه هنا على طريق الاستعارة، استعير لفظ { يُعْرَضُونَ } لمعنى: يُمَرُّ بهم مَرًّا عاقبته التمكُّن منهم والحكم فيهم. ويفسّره قوله تعالى { وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا } [الأحقاف:20].

وبني الفعل للمجهول لأنّ المقصود حصول الفعل لا تعيين فاعله. والذين يعرضون الكافرين على النار هم الملائكة كما دلت عليه آيات أخرى.

{ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ } انتصب على الحال من ضمير الغيبة في { تَرَاهُمْ } لأنّها رؤية بصرية.

الخشوع: التطامن وأثر انكسار النفس من استسلام واستكانة فيكون للمخافة، وللمهابة، وللطاعة، وللعجز عن المقاومة. والخشوع مثل الخضوع إلّا أنّ الخضوع لا يسند إلّا إلى البدن فيقال: خضع فلان، ولا يقال: خضع بصره إلّا على وجه الاستعارة، كما في قوله تعالى { فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ } [الأحزاب:32]، وأمّا الخشوع فيسند إلى البدن كقوله تعالى { خَاشِعِينَ لِلَّهِ } [آل عمران:199]. ويسند إلى بعض أعضاء البدن كقوله تعالى { خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ } [القمر:7] وقوله تعالى { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً } [طه:108] <u>والمراد من الخشوع في هذه الآية ما يبدو عليهم من أثر المذلّة والمخافة.</u>

{ مِنَ الذُّلِّ } متعلّق بـ { خَاشِعِينَ }، و{ مِنَ } للتعليل، أي: خاشعين خشوعا ناشئا عن الذلّ، أي: ليس خشوعهم لتعظيم الله والاعتراف له بالعبودية، لأنّ ذلك الاعتقاد لم يكن من شأنهم في الدنيا.

{ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ } في موضع الحال من ضمير { خَاشِعِينَ } لأنّ النظر من طرف خفي حالة للخاشع الذليل، والمقصود من ذكرها تصوير حالتهم الفظيعة.

الطرف: أصله مصدر، وهو تحريك جفن العين، يقال: **طَرَفَ** من باب ضرب، أي: حرّك جفنه. ووصفه في هذه الآية بـ { **خَفِيٍّ** } يقتضي أنّه أريد به حركة العين، أي: ينظرون نظرا خفيّا، فهو كمسارقة النظر، وذلك من هول ما يرونه من العذاب.

{ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } يترجّح أنّ (الواو) للحال لا للعطف، والجملة حال من ضمير الغيبة في { تَرَاهُمْ }. وهذا قول المؤمنين يوم القيامة إذ كانوا يومئذ

مطمئنين من الأهوال شاكرين ما سبق من إيمانهم في الدنيا عارفين بربح تجارتهم، ومقابلين بالضدّ حالة الذين كانوا يسخرون بهم في الدنيا إذ كانوا سببا في خسارتهم يوم القيامة.

والظاهر أنّ المؤمنين يقولون هذا بمسمع من الظالمين فيزيد الظالمين تلهيبا لندامتهم ومهانتهم وخزيهم.

فهذا الخبر مستعمل في إظهار المسرّة والبهجة بالسلامة ممّا لحق الظالمين.

{ **الْخَاسِرِينَ** } تعريف الجنس، أي: لا غيرهم. فالمعنى: لا خسران يشبه خسرانهم، وتقدّم نظيره في قوله تعالى { قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [الزمر:15].

{ **أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ** } تذييل للجمل التي قبلها. لأنّ حالة كونهم في عذاب مقيم أعم من حالة تلهّفهم على أن يُرَدُّوا إلى الدنيا، وذلّهم وسماعهم الذمّ.

{ **الظَّالِمِينَ** } إظهار في مقام الإضمار اقتضاه أنّ شأن التذييل أن يكون مستقلّ الدلالة على معناه لأنّه كالمثل. وليست هذه الجملة من قول المؤمنين إذ لا قبل للمؤمنين بأن يحكموا هذا الحكم، على أنّ أسلوب افتتاحه يقتضي أنّه كلام من بيده الحكم يوم القيامة وهو ملك يوم الدين، فهو كلام من جانب الله.

المقيم: الذي لا يرتحل. ووصف به العذاب على وجه الاستعارة.

{ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ } [46].

{ **وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } عطف على جملة { أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ } [45]، أي: هم في عذاب دائم لا يجدون منه نصيرا. وهو رد لمزاعمهم أنّ آلهتهم تنفعهم عند الله.

{ **يَنْصُرُونَهُمْ** } صفة لـ { أَوْلِيَاءَ } للدلالة على أنّ المراد هنا ولاية خاصة، وهي ولاية النصر، كما كان قوله سابقا { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ } [44] مرادا به ولاية الإرشاد.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } صفة ثانية لـ { أَوْلِيَاءَ } وهي صفة كاشفة. و(من) زائدة لتأكيد تعلق الظرف بالفعل.

{ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ** } تذييل للجملة السابقة، وتقدّم آنفا الكلام على نظيره وهو { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ } [44].

{ **سَبِيلٍ** } نكرة في سياق النفي فيعم كلّ سبيل مُخلِّص من الضلال ومن آثاره، والمقصود هنا ابتداء هو سبيل الفرار من العذاب المقيم كما يقتضيه السياق. وبذلك لم يكن ما هنا تأكيدا لما تقدّم من قوله تعالى { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ }.

{ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ } [47].

بعد أن قطع خطابهم عقب قوله تعالى { فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ } [36] بما تخلّص به إلى الثناء على فرق المؤمنين، وما استتبع ذلك من التسجيل على المشركين بالضلالة والعذاب، ووصف حالهم الفظيع، عاد الكلام إلى خطابهم بالدعوة الجامعة لما تقدّم طلبا لتدارك أمرهم قبل الفوات، فاستؤنف الكلام استئنافا فيه معنى النتيجة للمواعظ المتقدّمة، لأنّ ما تقدّم من الزواجر يهيّئ بعض النفوس لقبول دعوة الإسلام.

الاستجابة: إجابة الداعي، والسين والتاء للتوكيد. وأطلقت الاستجابة على امتثال ما يطالبهم به النبيّ صلى الله عليه وسلم تبليغا عن الله تعالى على طريقة المجاز، لأنّ استجابة النداء تستلزم الامتثال للمنادي.

المعنى: أطيعوا ربّكم وامتثلوا أمره من قبل أن يأتي يوم العذاب، وهو يوم القيامة، لأنّ الحديث جار عليه.

{ **لِرَبِّكُمْ** } اللام لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول، مثل: حمدت له وشكرت له. وتسمَّى لام التبليغ ولام التبيين. وأصله استجابهُ. وتقدّم في قوله تعالى { فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي } [البقرة:186].

المَرَدّ: مصدر بمعنى الردّ، وتقدّم آنفا في قوله { هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ } [44].

{ **لا مَرَدَّ لَهُ** } صفة { **يَوْمٌ** }. والمعنى: لا مرد لإثباته بل هو واقع.

{ **مِنَ اللَّهِ** } ابتدائية، وهو ابتداء مجازي، ومعناه: حكم الله به، فكأنّ اليوم جاء من لدنه.

{ **مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ** } مستأنفة.

الملجأ: مكان الملجأ، واللجأ: المصير والانحياز إلى الشيء، فالملجأ: المكان الذي يصير إليه المرء للتوقِّي فيه، ويطلق مجازا على الناصر، وهو المراد هنا، أي: ما لكم من شيء يقيكم من العذاب.

النكير: اسم مصدر أنكر، أيّ ما لكم إنكار لما جوزيتم به، أي: لا يسعكم إلّا الاعتراف دون تنصّل.

{ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْأِنْسَانَ كَفُورٌ } [48].

{ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ** } الفاء للتفريع على قوله تعالى { اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ } [47]، وهو جامع لما تقدّم كما علمت، وهو إعلام الرسول صلى الله عليه وسلم بمقامه وعمله إن أعرض معرضون من الذين يدعوهم، وبمعذرته فيما قام به وأنّه غير مقصِّر، وهو تعريض بتسليته على ما لاقاه منهم. والمعنى: فإن أعرضوا بعد هذا كلّه فما أرسلناك حفيظا عليهم ومتكفلا بهم إذ ما عليك إلا البلاغ.

الحفيظ: تقدّم في صدر السورة [6].

{ **فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً** } ليس هو جواب الشرط في المعنى ولكنه دليل عليه، وقائم مقامه.

المعنى: فإن أعرضوا فلست مقصِّرا في دعوتهم، ولا عليك تبعة صدّهم إذ ما أرسلناك حفيظا عليهم.

{ **إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ** } بيان للجملة السابقة باعتبار أنّها دالة على جواب الشرط المقدّر.

{ **إِنْ** } الثانية نافية، والجمع بينها وبين (إن) الشرطية في هذه الجملة جناس تام.

{ **الْبَلَاغُ** } التبليغ، وهو اسم مصدر، وقد فُهم من الكلام أنّه قد أدّى ما عليه من البلاغ لأنّ قوله تعالى { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً } دلّ على نفي التبعة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من إعراضهم، فاستفيد أنّه قد بلّغ الدعوة ولولا ذلك ما أثبت لهم الإعراض.

{ **وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ** }

تتصل هذه الجملة بسابقتها لما تضمَّنته هذه من التعريض بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على ما لاقاه من قومه كما علمت، ويؤذن بهذا الاتصال أنّ هاتين الجملتين جعلتا آية واحدة هي ثامنة وأربعون.

فالمعنى: لا يحزنك إعراضهم عن دعوتك فقد أعرضوا عن نعمتي وعن إنذاري بزيادة الكفر.

ولكن نظم هذه الآية جاء صالحا لإفادة هذا المعنى ولإفادة معنى آخر مقارب له وهو أن يكون هذا حكاية خُلق للناس كلّهم مرتكز في الجبلّة لكن مظاهره متفاوتة بتفاوت أفراده في التخلق بالآداب الدينية، ولهذا اختلفت محامل المفسّرين للآية: فمنهم من حملها على خصوص الإنسان الكافر بالله مثل الزمخشري والقرطبي والطيبي، ومنهم من حملها على ما يعمّ أصناف الناس مثل الطبري والبغوي والنسفي وابن كثير.

ومنهم من حملها على إرادة المعنيين.

وعلى الوجهين فالمراد ب {الإنسان} في الموضع الأول والموضع الثاني معنى واحد وهو تعريف الجنس المراد به الاستغراق، أي: إذا أذقنا الناس، وأنّ الناس كفورون، ويكون استغراقا عرفيا أريد به أكثر جنس الإنسان في ذلك الزمان والمكان، لأنّ أكثر نوع الإنسان يومئذ مشركون، وهذ هو المناسب لقوله { فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ } أي: شديد الكفر قويّه.

وإنما عدل عن التعبير بالناس إلى التعبير بالإنسان للإيماء إلى أنّ هذا الخلق المخبَر به عنهم هو من أخلاق النوع لا يزيله إلّا التخلّق بأخلاق الإسلام فالذين لم يسلموا باقون عليه، وذلك أدخل في التسلية.

الإذاقة: مجاز في الإصابة.

{ **مِنَّا رَحْمَةً** } المراد بالرحمة أثرها، وهو النعمة، فالتقدير: وإنّا إذا رحمنا الإنسان فأصبناه بنعمة، بقرينة مقابلة الرحمة بالسيّئة، كما قوبلت بالضرّاء في قوله تعالى { وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ } [فصلت :50].

{ **فَرِحَ بِهَا** } المراد بالفرح ما يشمل الفرح المجاوز حدّ المسرّة إلى حد البطر والتجبّر، على نحو ما استعمل

في آيات كثيرة، مثل قوله تعالى { إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } [القصص:76]، لا الفرح الذي في مثل قوله تعالى { فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } [آل عمران:170].

{ **وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** } تقدّم بسطه آنفا { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } [30].

{ **فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ** } هذا الحكم الذي تضمَّنته الجملة هو المقصود من جملة الشرط كلّها، ولذلك أعيد حرف التأكيد فيها بعد أن صُدِّرت به الجملة المشتملة على الشرط ليحيط التأكيد بكلتا الجملتين.

وقد أفاد ذلك أنّ من عوارض صفة الإنسانية عروض الكفر بالله لها، لأنّ في طبع الإنسان تطلب مسالك النفع وسد منافذ الضرّ مما ينجرّ إليه من أحوال لا تدخل بعض أسبابها في مقدوره، فإذا أملى عليه خياله وجود قوى متصرّفة في النواميس الخارجة عن مقدوره خالها ضالته المنشودة، فركن إليها وآمن بها وغاب عنه دليل الحق، إمّا لقصور تفكيره عن دركه وانعدام المرشد إليه، أو لغلبة هواه الذي يملي عليه عصيان المرشدين من الأنبياء والرسل والحكماء الصالحين إذ لا يتبعهم إلّا القليل من الناس ولا يهتدي بالعقل من تلقاء نفسه إلّا الأقل مثل الحكماء، فغلب على نوع الإنسان الكفر بالله على الإيمان به.

{ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ** [49] **أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** [50] }.

{ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ** } استئناف بياني لأنّ ما سبقه من عجيب خلق الإنسان الذي لم يهذِّبه الهدي الإلهي يثير في نفس السامع سؤالا:

عن فَطْر الإنسان على هاذين الخُلُقين اللذين يتلقى بهما نعمة ربه وبلاءه، وكيف لم يُفطر على الخُلق الأكمل ليتلقّى النعمة بالشكر، والضرّ بالصبر والضراعة، وسؤالا أيضا عن سبب إذاقة الإنسان النعمة مرّة والبؤس مرة فيبطر ويكفر، وكيف لم يُجعل حاله كفافا لا لذّات له ولا بلايَا كحال العجماوات؟

فكان جوابه: أنّ الله المتصرّف في السماوات والأرض يخلق فيهما ما يشاء من الذوات وأحوالها. وهو جواب إجمالي إقناعي يناسب حضرة الترفّع عن الدخول في المجادلة عن الشؤون الإلهية.

{ **يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ** } قول فيه من الإجمال ما يبعث المتأمّل المنصف على تطلّب الحكمة في ذلك، فإن تطلّبها انقادت له كما أومأ إلى ذلك تذييل هذه الجملة بقوله { إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ }، فكأنّه يقول: عليكم بالنظر في الحكمة في مراتب الكائنات وتصرّف مبدعها، فكما خلق الملائكة على أكمل الأخلاق في جميع الأحوال، وفَطَر الدواب على حدٍّ لا يقبل كمال الخلق، كذلك خلق الإنسان على أساس الخير والشر وجعله قابلا للزيادة منهما على اختلاف مراتب عقول أفراده وما يحيط بها من الاقتداء والتقليد، وخَلَقه كاملَ التمييز بين النعمة وضدّها

ليرتفع درجات وينحط دركات ممّا يختاره لنفسه، ولا يلائم فَطْر الإنسان على فطرة الملائكة حالة عالمه المادي إذ لا تأهّل لهذا العالم لأن يكون سكانه كالملائكة لعدم الملاءمة بين عالم المادة وعالم الروح.

ولذلك لمّا تمّ خلق الفرد الأوّل من الإنسان وآن أوان تصرّفه مع قرينته بحسب ما بزغ فيهما من القوى، لم يلبث أن نُقل عالم المادة كما أشار إليه قوله تعالى { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً } [طه:123].

ولكن الله لم يَسُدَّ على النوع منافذ الكمال فخلقه خلقا وسطا بين الملكية والبهيمية إذ ركبه من المادة وأودع فيه الروح ولم يخلِّه عن الإرشاد بواسطة وسطاء وتعاقبهم في العصور وتناقل إرشادهم بين الأجيال، فإن اتبع إرشادهم التحق بأخلاق الملائكة حتى يبلغ المقامات التي أقامته في مقام الموازنة بين بعض أفراده وبين الملائكة في التفاضل.

{ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً }

بدل من جملة { يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ }، بدل اشتمال لأنّ خلقه ما يشاء يشتمل على هبته لمن يشاء ما يشاء.

من دقائق هذه الآية تقديم الإناث على الذكور في ابتداء تعداد النعم الموهوبة على عكس العادة في تقديم الذكور على الإناث حيثما ذكرا في القرآن، كقوله تعالى { إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى } [الحجرات: 13]، وقوله تعالى { فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى } [القيامة:39]، وفي ذلك تعريض بالمشركين في تطيّرهم بولادة البنات لهم.

المراد: يهب لمن يشاء إناثا فقط ويهب لمن يشاء الذكور فقط بقرينة قوله تعالى { أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً }.

{ **إِنَاثاً** } جيء به مُنكَّرا لأنّ التنكير هو الأصل في أسماء الأجناس.

{ **الذُّكُورَ** } التعريف بـ (اللام) لأنّهم الصنف المعهود للمخاطبين، أي: يهب ذلك الصنف الذي تعهدونه وتتحدّثون به وترغبون فيه.

{ **أَوْ** } هنا للتقسيم.

التزويج: قرن الشيء بشيء آخر فيصيران زوجا. ومن مجازه إطلاقه على إنكاح الرجل امرأة لأنّهما يصيران كالزوج. والمراد هنا: جعلهم زوجا في الهبة، أي: يجمع لمن يشاء، فيهب له ذكرانا مشفَّعين بإناث، فالمراد التزويج بصنف آخر لا مقابلة كلّ فرد من الصنف بفرد من الصنف الآخر.

العقيم: الذي لا يولد له من رجل أو امرأة.

{ **إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** } في موضع العلّة للمبدل منه وهو قوله تعالى { يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ }، أي: أن خلقه للأشياء يجري على وفق علمه وحكمته.

{ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ } [51].

عطف على ما سبق، عطف القصّة على القصّة، وهو عودٌ إلى إبطال شُبه المشركين. وهذه الآية تبطل الشبهة الثانية وهي أنّ محمدا لو كان مرسلا من الله لكانت معه ملائكة تصدّق قوله، أو لأنزل عليه كتاب جاهز من السماء يشاهدون نزوله، قال تعالى { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً } [الفرقان:7]، وقال تعالى { وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً - إلى أن قال - وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ } [الإسراء:30-93].

وإذ قد كان أهم غرض هذه السورة إثبات كون القرآن وحيا من الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحي من قبله للرسل كان العود إلى ذلك من قبيل رد العجز على الصدر.

{ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ } جيء بصيغة حصر مفتتحة بصيغة الجحود المفيدة مبالغة النفي.

أي: أنّ سنّة الله في خطاب رسله لا تعدو ثلاثة أنحاء من الخطاب، منها ما جاء به القرآن، وما كان الله ليخاطب رسله على الأنحاء التي اقترحها المشركون على النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ } والمراد بالتكلّم بلوغ مراد الله إلى النبيّ سواء كان ذلك البلوغ بكلام يسمعه ولا يرى مصدره أو بكلام يبلِّغه إليه الملك عن الله تعالى، أو بعلم يُلقى في نفس النبيّ يوقن بأنّه مراد الله، بعلم ضروري يجعله الله في نفسه.

وإطلاق الكلام على هذه الأنواع الثلاثة: بعضه حقيقة مثل ما يسمعه النبيّ كما سمع موسى، وبعضه مجاز قريب من الحقيقة وهو ما يبلّغه إلى النبيّ فإنّه رسالة بكلام، وبعضه مجاز محض وهو ما يلقى في قلب النبيّ مع العلم، فإطلاق فعل { يُكَلِّمَهُ } على جميعها من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه على طريقة استعمال المشترك في معانيه.

{ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ } وإسناد فعل يكلمه إلى الله إسناد مجازي عقلي. وبهذا الاعتبار صار استثناء الكلام الموصوف بأنّه وحي استثناء متصلا.

الوحي: أصله الإشارة الخفية، ومنه { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً } [مريم11]، ويطلق على ما يجده المرء في نفسه دفعة كحصول معنى الكلام في نفس السامع. ومن هنا أطلق الوحي على ما فطر الله عليه الحيوان من الإلهام المتقن الدقيق كقوله تعالى { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ } [النحل:68].

النوع الأول: { إِلَّا وَحْيًا }

الكلام الذي يسمعه النبيّ بكيفية غير معتادة، فالوحي بهذا المعنى نوع من أنواع إلقاء كلام الله إلى الأنبياء، وإطلاق الوحي على هذا النوع من مصطلح القرآن، وهو الغالب في إطلاقات الكتاب والسنّة، ومنه قول زيد بن ثابت: " فعلمت أنّه يوحى إليه ثم سُرّي عنه فقرأ { غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ } [النساء:95] ".

والوحي بهذا المعنى غير الوحي الذي سيجيء في قوله تعالى { أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ }

والمراد بالوحي هنا: إيقاع مراد الله في نفس النبيّ يحصل له به العلم بأنّه من عند الله، فهو حجة للنبيّ لمكان العلم الضروري، وحجّة للأمّة لمكان العصمة من وسوسة الشيطان.

وقد يحصل لغير الأنبياء ولكنّه غير مطّرد ولا منضبط، مع أنّه واقع، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدَّثون فإن يكن في أمّتي منهم أحدٌ فعمر بن الخطاب "**. قال ابن وهب محدَّثون: ملهمون

ومن هذا الوحي مرائي الأنبياء فإنّها وحي، وهي ليست بكلام يُلقى إليهم، ففي الحديث: **" إنّي أريت دار هجرتكم وهي في حرّة ذاتِ نخل فوقع في وَهْلي أنّها اليمامة أو هجر فإذا هي طابة "**.

وقد تشتمل الرؤيا على إلهام وكلام مثل حديث: **" رأيت بقرا تُذبح ورأيت والله خير"**. وقد أوَّل النبيّ صلى الله عليه وسلم رؤياه البقر التي تذبح بما أصاب المسلمين يوم أحد، وأمّا **" والله خير "**، فهو ما أتى الله به بعد ذلك من الخير.

ومن الإلهام مرائي الصالحين فإنّها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة. وليس الإلهام بحجّة في الدين لأنّ غير المعصوم لا يوثق بصحّة خواطره إذ ليس معصوما من وسوسة الشيطان.

النوع الثاني: { أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ }

أن يكون الكلام من وراء حجاب يسمعه سامعه ولا يرى مصدره، بأن يخلق الله كلاما في شيء محجوب عن سامعه وهو ما وصف الله هنا بقوله { أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ }. وهذا مثل تكليم الله تعالى موسى في البقعة المباركة من الشجرة، ويحصل علم المخاطب بأنّ ذلك الكلام من عند الله أوّل مرة بآية يريه الله إيّاها يعلم أنها لا تكون إلّا بتسخير الله، كما عَلِم موسى ذلك بانقلاب عصاه حيّة ثم عودها إلى حالتها الأولى، وبخروج يده من جيبه بيضاء، كما قال تعالى { آيَةً أُخْرَى لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } [طه:24,22]. ثم يصير بعد ذلك عادة يعرف بها كلام الله.

واختص بهذا النوع من الكلام في الرسل السابقين موسى عليه السلام وهو المراد من قوله تعالى { قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي } [الأعراف:144]. وليس الوحي إلى موسى منحصرا في هذا النوع فإنّه كان يوحى إليه الوحي الغالب لجميع الأنبياء والرسل.

النوع الثالث: { **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ** }

أن يرسل الله الملك إلى النبيّ فيبلّغ إليه كلاما يسمعه النبيّ ويعيه، وهذا هو غالب ما يوجَّه إلى الأنبياء من كلام الله، قال تعالى في ذكر زكريا { فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى } [آل عمران:39]، وفي إبراهيم { وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا } [الصافات:105/104].

وهذا الكلام يأتي بكيفية وصفها النبيّ صلى الله عليه وسلم للحارث ابن هشام وقد سأل رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال: **" أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ فيفصِمُ عني وقد وعيت عنه ما قال** [أي: عن جبريل] **وأحيانا يتمثّل لي الملك رجلا فيكلّمني فأعي ما يقول ."**

فالرسول في قوله تعالى { أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً } هو الملك جبريل أو غيره.

{ **فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ** } سُمِّي هذا الكلام وحيا على مراعاة الإطلاق القرآني الغالب كما تقدّم نحو قوله تعالى { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى } [النجم:3-5]. وهو غير المراد من قوله تعالى السابق { إِلَّا وَحْيًا } بقرينة التقسيم والمقابلة.

{ **إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** } القول في موقعها كالقول في جملة { إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } [50].

{ **عَلِيٌّ** } لأنّ العلوّ في صفة العليّ علو عظمة فائقة لا تناسبها النفوس البشرية فما كان لها أن تتلقّى من الله مراده مباشرة فاقتضى علوّه أن يكون توجيه خطابه إلى البشر بوسائط يفضي بعضها إلى بعض.

{ **حَكِيمٌ** } لأنّ معناه المتقِن لصنع العالم بدقائقه، وما خطابه البشر إلّا لحكمة إصلاحهم ونظام عالمهم، وما وقوعه على تلك الكيفيّات الثلاث إلّا من أثر الحكمة لتيسير تلقّي خطابه، ووعيه دون اختلال فيه ولا خروج عن طاقة المتلقين.

{ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [52] صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ [53] }.

{ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا** } عطف على الآية السابقة، وهذا دليل عليهم أنّ القرآن أُنزل من عند الله، أعقب به إبطال شبهتهم. أي: كان وحينا إليك مثل كلامنا الذي كلَّمنا به من قبلك. والمقصود من هذا هو قوله { مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ }.

{ **وَكَذَلِكَ** } إشارة إلى سابق في الكلام وهو المذكور آنفا { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً } [51].

ويجوز أن تكون الإشارة إلى ما يأتي من بعد وهو الإيحاء المأخوذ من { أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ }، والمعنى: إنّ ما أوحينا إليك هو أعز وأشرف وحي بحيث لا يماثله غيره.

وكلا المعنيين صالح هنا فينبغي أن يكون كلاهما محملا للآية، على نحو ما ابتكرناه في المقدّمة التاسعة من هذا التفسير. ويؤخذ من هذه الآية أنّ النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم قد أعطي أنواع الوحي الثلاثة، وهو أيضا مقتضى الغرض من مساق هذه الآيات.

الروح: ما به حياة الإنسان، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ } [الإسراء:85]، وأطلق الروح هنا مجازا على الشريعة التي بها اهتداء النفوس إلى ما يعود عليهم بالخير في حياتهم الأولى وحياتهم الثانية. شُبِّهت هداية عقولهم بعد الضلالة بحلول الروح في الجسد فيصير حيا بعد أن كان جثّة.

{ **مِنْ أَمْرِنَا** } ممّا استأثرنا بخلقه وحجبناه عن الناس، فالأمر المضاف إلى الله بمعنى الشأن العظيم، كقوله تعالى { بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ } [القدر:4].

اختتام هذه السورة بهذه الآية مع افتتاحها بقوله { كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } [7] فيه محسِّن رد العجز على الصدر.

{ **مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ** } في موضع الحال من ضمير { أَوْحَيْنَا }، أي: أوحينا إليك في حال انتفاء علمك بالكتاب والإيمان، أي: أفضنا عليك موهبة الوحي في حال خلوك عن علم الكتاب وعلم الإيمان. وهذا تحدٍّ للمعاندين ليتأمَّلوا في حال الرسول صلى الله عليه وسلم فيعلموا أنّ ما أوتيه من الشريعة والآداب الخُلقية هو من مواهب الله تعالى التي لم تسبق له مزاولتها، ويتضمّن امتنانا عليه وعلى أمّته.

وهذا لا يقتضي أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن مؤمنا بوجود الله ووحدانية إلهيته قبل نزول الوحي عليه، إذ الأنبياء والرسل معصومون من الشرك قبل النبوّة، فهم موحّدون لله ونابذون لعبادة الأصنام، ولكنّهم لا يعلمون تفاصيل الإيمان، وكان نبيّنا صلى الله عليه وسلم في عهد جاهلية قومه يعلم بطلان عبادة الأصنام. وقد أخبر بذلك عن نفسه فيما رواه أبو نعيم في دلائل النبوّة عن شدّاد بن أوس وذكره عياض في الشفاء غير معزو: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " **لمّا نشأت** [أي: عقلت] **بُغِّضت إليَّ الأوثان وبُغِّض إليَّ الشعر، ولم أهمَّ بشيء ممّا كانت الجاهلية تفعله إلّا مرتين فعصمني الله منهما ثم لم أعد** ".

وعلى شدّة منازعة قريش إيّاه في أمر التوحيد فإنّهم لم يحاجّوه بأنّه كان يعبد الأصنام معهم. وفي هذه الآية حجّة للقائلين بأنّ رسول صلى الله عليه وسلم لم يكن متعبّدا قبل نبوّته بشرع.

{ **وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا** } عطف على جملة { مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ }.

{ **جَعَلْنَاهُ** } الضمير عائد إلى الكتاب في قوله { مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ }. والتقدير: وجعلنا الكتاب نورا. والتقدير: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ثم هديناك بالكتاب ابتداء وعرَّفناك به الإيمان وهديت به الناس

ثانيا فاهتدى به من شئنا هدايته، أي: وبقي على الضلال من لم نشأ له الاهتداء، كقوله تعالى { يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً } [البقرة:26].

{ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** } أي: نهدي به من نشاء بدعوتك وواسطتك. فلمّا أثبت الهدي إلى الله وجعل الكتاب سببا لتحصيل الهداية عطف وساطة الرسول في إيصال ذلك الهدي تنويها بشأن الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي** } عطف على جملة { نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا }، وفي الكلام تعريض بالمشركين إذ لم يهتدوا به، وإذ كبر عليهم ما يدعوهم إليه مع أنّه يهديهم إلى صراط مستقيم.

الهداية هنا هداية عامة، وهي: إرشاد الناس إلى طريق الخير فهي تخالف الهداية في قوله { نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ }. وحذف مفعول { لَتَهْدِي } للعموم، أي: لتهدي جميع الناس، أي: ترشدهم إلى صراط مستقيم.

{ **وَإِنَّكَ** } تأكيد الخبر بـ (إن) للاهتمام به لأنّ الخبر مستعمل في تثبيت قلب النبيّ صلى الله عليه وسلم بالشهادة له بهذا المقام العظيم، فالخبر مستعمل في لازم معناه، على أنّه مستعمل أيضا للتعريض بالمنكرين لهديه، فيكون في التأكيد ملاحظة تحقيقه وإبطال إنكارهم.

{ **صِرَاطٍ** } التنكير للتعظيم، لأنّ التنكير أنسب بمقام التعريض بالذين لم يأبهوا بهدايته.

{ **اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** } إجراء وصف اسم الجلالة باسم الموصول وصلته للإيماء إلى أنّ سبب استقامة الصراط الذي يهدي إليه النبيّ بأنّه صراط الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض فلا يعزب عنه شيء ممّا يليق بعباده، فلمّا أرسل إليهم رسولا بكتاب لا يُرتاب في أنّ ما أرسل لهم فيه صلاحهم.

{ **أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ** } تذييل وتنهية للسورة بختام ما احتوت عليه من المجادلة والاحتجاج بكلام قاطع جامع منذر بوعيد للمعرضين فاجع، ومبشّر بالوعد لكل خاشع.

{ **أَلَا** } افتتحت الجملة بحرف التنبيه لاسترعاء أسماع الناس، وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص، أي: إلى الله لا إلى غيره.

المصير: الرجوع والانتهاء، واستعير هنا لظهور الحقائق كما هي يوم القيامة فيذهب تلبيس الملبّسين، ويهن جبروت المتجبرين، ويقرّ بالحق من كان فيه من المعاندين، وهذا كقوله تعالى { وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } [لقمان:22]، وقوله تعالى { وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ } [هود:123].

الأمور: الشؤون والأحوال والحقائق وكلّ موجود من الذوات والمعاني.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزخرف

سُمِّيت في المصاحف العتيقة والحديثة (**سورة الزخرف**)، وكذلك وجدتها في جزء عتيق من مصحف كوفي الخط ممَّا كُتب في أواخر القرن الخامس، وبذلك ترجم لها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه، وسُمِّيت كذلك في كتب التفسير. وسمّاها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه (**سورة حم الزخرف**).

ووجه التسمية أنّ كلمة { وَزُخْرُفاً } [35] وقعت فيها ولم تقع في غيرها من سور القرآن.

وهي مكية، وحكى ابن عطية الاتفاق على ذلك.

وهي معدودة السور الثانية والستين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة فصّلت وقبل سورة الدخان.

وعُدّت آيها عند العادِّين من معظم الأمصار تسعا وثمانين، وعدَّها أهل الشام ثمانيا وثمانين.

أغراض السورة

*/ التحدِّي بإعجاز القرآن لأنّه آية صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به.

*/ التنويه به عدّة مرات وأنّه أوحى الله به لتذكيرهم وتكرير تذكيرهم وإن أعرضوا كما أعرض من قبلهم.

*/ التعجيب من حالهم إذ جمعوا بين الاعتراف بأنّ الله خالقهم والمنعم عليهم وخالق المخلوقات كلّها، وبين اتخاذهم آلهة يعبدونها شركاء لله، وجعلهم بنات لله، مع اعتقادهم أنّ البنات أحط قدرا من الذكور، فجمعوا بذلك بين الإشراك والتنقيص.

*/ إبطال عبادة كل ما دون الله على تفاوت درجات المعبودين في الشرف فإنهم سواء في عدم الإلهية للألوهية ولبنوّة الله تعالى.

*/ عرّج على إبطال حججهم ومعاذيرهم، وسفه تخييلاتهم وتُرَّهاتهم.

*/ ذكَّرهم بأحوال الأمم السابقين مع رسلهم، وأنذرهم بمثل عواقبهم، وحذّرهم من الاغترار بإمهال الله.

*/ خص بالذكر رسالة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام.

*/ توعَّد المشركين وأنذرهم بعذاب الآخرة بعد البعث لاعتقادهم أنّهم في مأمن بعد الموت.

*/ تخلّل في خلال كلّ ذلك من الحجج والأمثال والمُثل والقوارع والترغيب والترهيب شيء عجيب، مع دحض شبه المعاندين بأفانين الإقناع بانحطاط ملّة كفرهم وعسف معوجِّ سلوكهم.

*/ أدمج في خلال ذلك ما في دلائل الوحدانية من النعم على الناس والإنذار والتبشير.

{ **حم** } [1].

تقدّم القول في نظائره ومواقعها قبل ذكر القرآن وتنزيله.

{ **وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ** [2] **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** [3] }.

أقسم بالكتاب المبين، وهو القرآن، على أنّ القرآن جعله الله عربيا واضح الدلالة فهو حقيق بأن يصدِّقوا به لو كانوا غير مكابرين، ولكنَّهم بمكابرتهم كانوا كمن لا يعقلون.

وفي جعل المقسم به (القرآن بوصف كونه مبينا)، وجعل جواب القسم (أنّ الله جعله مبينا)، تنويه خاص بالقرآن إذ جعل المقسم به هو المقسم عليه، وهذا ضرب عزيز بديع لأنّه يومئ إلى أنّ المُقسم على شأنه بلغ غاية الشرف فإذا أراد المُقسِم أن يقسم على ثبوت شرف له لم يجد ما هو أولى بالقسم به للتناسب بين القسم والمقسم عليه.

{ **الْكِتَابِ** } إطلاق اسم الكتاب على القرآن باعتبار أن الله أنزله ليُكتَب، وأنّ الأمّة مأمورون بكتابته، وإن كان نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم لفظا غير مكتوب. وفي هذا إشارة إلى أنّه سيكتب في المصاحف.

والمراد بـ { الْكِتَابِ } على وجه التحديد ما نزل من القرآن قبل هذه السورة، وقد كتبه كتّاب الوحي.

{ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً** } ضمير { جَعَلْنَاهُ } عائد إلى { الْكِتَابِ }، أي: إنّا جعلنا الكتاب المبين قرآنا.

الجعل: الإيجاد والتكوين، وهو يتعدّى إلى مفعول واحد.

المعنى: أنّه مقروء دون حضور كتاب، فيقتضي أنّه محفوظ في الصدور ولولا ذلك لما كانت فائدة للإخبار بأنّه مقروء لأنّ كل كتاب صالح لأن يقرأ. والإخبار عن الكتاب بأنّه قرآن مبالغة في كون هذا الكتاب مقروءا، أي: مُيسَّرا لأن يقرأ لقوله تعالى { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ } [القمر:17]، وقوله تعالى { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } [القيامة:17]، وقوله تعالى { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر:9].

فحصل بهذا الوصف أنّ الكتاب المنزّل على محمد صلى الله عليه وسلم جامع لوصفين: كونه كتابا، وكونه مقروءا على ألْسِنة الأمّة. وهذا ممّا اختص به كتاب الإسلام.

{ **عَرَبِيّاً** } نسبة إلى العرب، أي: هو ممّا ينطق العرب بمثل ألفاظه، وبأنواع تراكيبه.

والمقصود بوصف الكتاب بأنّه عربي غرضان:

أحدهما التنويه بالقرآن، ومدحه بأنّه منسوج على منوال أفصح لغة.

ثانيهما التورّك على المعاندين من العرب حين لم يتأثّروا بمعانيه بأنّهم كمن يسمع كلاما بلغة غير لغته.

وهذا تأكيد لما تضمّنه الحرفان المقطّعان المفتتحة بهما السورة من معنى التحدّي بأن هذا كتاب بلغتكم وقد عجزتم عن الإتيان بمثله.

{ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } حرف (لعلّ) مستعار لمعنى الإرادة، وتقدّم نظيره في قوله تعالى { لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [البقرة:73]. و**العقل**: الفهم. والغرض: التعريض بأنّهم أهملوا التدبّر في هذا الكتاب وأنّ كماله في البيان والإفصاح يستأهل العناية به لا الإعراض عنه. فهذا الخبر مستعمل في التعريض على طريقة الكناية.

{ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ } [4].

عطف على الجملة السابقة، فهو زيادة في الثناء على هذا الكتاب للتنويه بشأنه رفعة وإرشادا.

{ **وَإِنَّهُ** } تأكيد الكلام بـ (إن) لرد إنكار المخاطبين إذ كذّبوا أن يكون القرآن موحى به من الله.

{ **أُمِّ الْكِتَابِ** } أصل الكتاب. والمراد هنا علم الله تعالى، كما في قوله تعالى { وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ } [الرعد:39]، أي: المحقَّق الموثَّق، وهذا كناية عن الحقّ الذي لا يقبل التغيير، لأنّهم كانوا إذا أرادوا أن يحقّقوا عهدا على طول مدّة كتبوه في صحيفة.

{ **لَعَلِيٌّ** } أصله المرتفع، وهو هنا مستعار لشرف الصفة، وهي استعارة شائعة.

{ **حَكِيمٌ** } أصله الذي الحكمة من صفات رأيه، فهو هنا مجاز لما يحوي الحكمة بما فيه من صلاح أحوال النفوس والقوانين المقيمة لنظام الأمة.

ومعنى كون ذلك في علم الله: أنّ الله علمه كذلك وما علمه الله لا يقبل الشك. ومعناه: أن ما اشتمل عليه القرآن من المعاني هو من مراد الله وصدر عن علمه. ويجوز أيضا أن يفيد هذا شهادة بعلو القرآن وحكمته.

{ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ } [5]

الفاء لتفريع الاستفهام الإنكاري على جملة { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [3].

أي: أتحسبون أنّ إعراضكم عمّا نزل من هذا الكتاب يبعثنا على أن نقطع عنكم تجدد التذكير بإنزال شيء آخر من القرآن. أي: لا يجوز أن نضرب عنكم الذكر صفحا من جرّاء إسرافكم.

الضرب: حقيقته قرع جسم بآخر، وله إطلاقات كثيرة، وهو هنا مستعار لمعنى القطع والصرف، أخذا من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض، أي: أطردها وصرفها لأنها ليست لأهل الماء، فاستعاروا الضرب للصرف والطرد.

الذكر: التذكير، والمراد به القرآن.

الصفح: الإعراض بصفح الوجه وهو جانبه، وهو أشدّ الإعراض عن الكلام لأنّه يجمع ترك استماعه وترك النظر إلى المتكلم. وانتصب { صَفْحًا } على النيابة عن الظرف، أي: في مكان صفح، ويجوز أن يكو مصدر صفح عن كذا، إذا أعرض، فينتصب على المفعول المطلق لبيان نوع الضرب بمعنى الصرف والإعراض.
{ **أَنْ كُنْتُمْ** } قرأه ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بفتح الهمزة على جعل { **أَنْ** } مصدرية وتقدير لام التعليل محذوفا، أي: لأجل إسرافكم، أي: لا نترك تذكيركم بسبب كونكم مسرفين بل لا نزال نعيد التذكير رحمة بكم. وقرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بكسر الهمزة فتكون { **أَنْ** } شرطية، لقصد تنزيل المخاطبين المعلوم إسرافهم منزلة من يُشك في إسرافه، لأنّ توفّر الأدلة على صدق القرآن من شأنه أن يزيل إسرافهم، وفي هذا ثقة بحقّية القرآن، وضرب من التوبيخ على إمعانهم في الإعراض عنه.
{ **قَوْماً مُسْرِفِينَ** } إقحام { قَوْمًا } للدلالة على أنّ هذا الإسراف صار طبعا لهم وبه قوام قوميّتهم.
الإسراف: الإفراط والإكثار، وأغلب إطلاقه على الإكثار من الفعل الضائر. ولذلك قيل لا سرف في الخير. والمقام دال على أنّهم أسرفوا في الإعراض عن القرآن.

{ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ [6] وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [7] فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ [8] }.
لمّا ذكر إسرافهم في الإعراض عن الإصغاء لدعوة القرآن، أعقبه بكلام موجّه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تسلية عما يلاقيه منهم بتذكيره بأنّ حاله في ذلك حال الرسل من قبله، ووعد رسوله صلى الله عليه وسلم بالنصر على قومه بتذكيره بسنّة الله في الأمم المكذِّبة رسلهم.
{ **وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ** } معطوفة على جملة { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً } [3] وما بعدها إلى هنا، عطف القصة على القصة.
{ **كَمْ** } اسم دال على عدد كثير مبهم، وهو ملتزم تقديمه لأنّ أصله اسم استفهام فنقل من الاستفهام إلى الإخبار على سبيل الكناية. وشاع استعماله في ذلك حتّى صار الإخبار بالكثرة معنى من معاني (كم).
والداعي إلى اجتلاب اسم العدد الكثير أنّ كثرة وقوع هذا الحكم أدخل في زجرهم عن مثله وأدخل في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتحصيل صبره، لأنّ كثرة وقوعه تؤذن بأنّه سنة لا تتخلّف.
{ **فِي الْأَوَّلِينَ** } جمع الأوّل، وهو هنا مستعمل في معنى الماضين السابقين كقوله تعالى { وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ} [الصافات:71]، فإنّ الذين أُهلكوا قد انقرضوا.

{ **وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } في موضع الحال من { الْأَوَّلِينَ }، وهذا الحال هو المقصود من الإخبار.

{ **فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً** } تفريع وتسبّب عن { وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ } وضمير { أَشَدَّ مِنْهُمْ } عائد إلى قوم مسرفين الذين تقدّم خطابهم، فعدل عن استرسال خطابهم إلى توجيهه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لأنّ الغرض الأهم من هذا الكلام هو تسلية الرسول صلى الله عليه وسلن ووعده بالنصر. ويستتبع ذلك التعريض بالذين كذّبوه، فإنّهم يبلغهم هذا الكلام.

وهذا تركيب بديع في الإيجاز، لأنّ قوله { فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً } يقتضي كلاما مطويا تقديره: فلا نعجز عن إهلاك المسرفين وهم أقلّ بطشا. وهذا في معنى قوله تعالى { وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ } [محمد:13].

البطش: الإضرار القوي. وانتصب { بَطْشًا } على التمييز لنسبة الأشدية.

{ **وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ** } حالهم العجيبة. ومعنى { مَضَى } انقرض، أي: ذهبوا عن بكرة أبيهم، فمُضيُّ المثل كناية عن استئصالهم لأنّ مُضيّ الأحوال يكون بمُضيّ أصحابها، فهو في معنى قوله تعالى { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا } [الأنعام:45].

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } [9].

لمّا كان قوله تعالى { وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ } [6] موجَّها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم للتسلية والوعد بالنصر، عُطف عليه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم صريح في التعجيب من حال الذين كذَّبوه، فإنّهم كذّبوه مع أنّهم يقرُّون لله تعالى بأنَّه خالق العوالم وما فيها. فلو سألهم الرسول صلى الله عليه وسلم في محاجّته إيّاهم عن خالق الخلق لما استطاعوا غير الإقرار بأنّه الله تعالى. وهذا انتقال إلى الاحتجاج على بطلان الإشراك بإقرارهم الضمني أنّ أصنامهم خالية عن صفة استحقاق أن تعبد.

{ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ** } جاء الكشف عن عقيدتهم في صورة سؤالهم عن خالقهم للإشارة إلى أنّهم غافلون عن ذلك في مجرى أحوالهم وأعمالهم ودعائهم حتّى إذا سألهم السائل عن خالقهم لم يتريّثوا أن يجيبوا بأنّه الله، ثمّ يرجعون إلى شركهم.

وتاء الخطاب في { سَأَلْتَهُمْ } للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر سياق التسلية، أو يكون الخطاب لغير معين ليعم كّل مخاطب يُتصور منه أن يسألهم.

{ **لَيَقُولُنَّ** } تأكيد الكلام بـ (اللام الموطئة للقسم ولام الجواب) و(نون التوكيد) لتحقيق أنّهم يجيبون بذلك، تنزيلا لغير المتردّد في الخبر منزلة المتردّد، وهذا التنزيل كناية عن جدارة حالتهم بالتعجيب من اختلال تفكيرهم وتناقض عقائدهم.

{ **الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ** } هو الله تعالى. وليس ذكر الصفتين العليّتين من مقول جوابهم وإنّما حُكي قولهم بالمعنى، وإنّما هم يقولون: خلقهنّ الله، كما حُكي عنهم في قوله تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } [لقمان:25]. وذلك هو المستقرَى من كلامهم نثرا وشعرا في الجاهلية.

وإنّما عدل عن الاسم العليّ إلى الصفتين زيادة في إفحامهم بأنّ الذي انصرفوا عن توحيده بالعبادة عزيز عليم، فهو الذي يجب أن يرجوه الناس للشدائد لعزّته، وأن يُخلصوا له باطنهم لأنّه لا يخفى عليه سرّهم، بخلاف شركائهم فإنّها أذلة لا تعلم.

{ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [10]

استئناف حذف منها المبتدأ، والتقدير: هو الذي جعل لكم الأرض مهادا. اعتراض بين الجملة السابقة وجملة {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً } [15]. والكلام موجّه من الله تعالى، تخلّص من الاستدلال على تفرّده بالإلهية بأنّه المنفرد بخلق السماوات والأرض إلى الاستدلال بأنّه المنفرد بإسداء النعم التي بها قوام أود حياة الناس.

{ **الَّذِي** } خبر لمبتدأ محذوف، واجتلاب الموصول للاشتهار بمضمون الصلة فساوى الاسم العَلَم في الدلالة.

{ **لَكُمُ** } أقحم في الموضعين، ولم يقل: الذي جعل الأرض مهادا وجعل فيها سبلا كما في قوله تعالى { أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً} [النبأ:7/6]، لأن ذلك مقام الاستدلال على منكري البعث، فسيق لهم الاستدلال بإنشاء المخلوقات العظيمة التي لا تعدّ إعادة خلق الإنسان بالنسبة إليها شيئا عجيبا، أمّا هنا فالإعادة للدلالة عل الانفراد بالقدرة العظيمة، وعلى النعمة عليهم.

المهاد: اسم لشيء يُمهَّد، أيّ يوطَّأ ويسهَّل لما يحلّ فيه، وتقدّم في قوله { هُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ } [الأعراف:41] ووجه الامتنان أنّه جعل ظاهر الأرض منبسطا لنفع البشر الساكنين عليها.

{ **سُبُلاً** } جمع سبيل، وهو الطريق، ويطلق السبيل على وسيلة الشيء كقوله تعالى { يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ } [الشورى:44]. وتقدّم نظير هذه الآية في [طه:53].

الاهتداء: مطاوع هداه فاهتدى. والهداية حقيقتها: الدلالة على المكان المقصود، ومنه سُمِّي الدال على الطرائق هاديا، وتطلق على تعريف الحقائق المطلوبة ومنه قوله تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ } [المائدة: 44]. والمقصود هنا المعنى الثاني، أي: رجاء حصول علمكم بوحدانية الله وبما يجب له. وتقدّم المعنى في قوله تعالى { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [الفاتحة:6].

{ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } [11].

انتقل من الاستدلال والامتنان بخلق الأرض إلى الاستدلال والامتنان بخلق وسائل العيش فيها، وهو ماء المطر الذي به تُنبت الأرض ما يصلح لاقتيات الناس.

{ وَالَّذِي } أعيد اسم الموصول للاهتمام بهذه الصلة اهتماما يجعلها مستقلّة.

{ فَأَنْشَرْنَا } هنا مجاز في الإحياء، كما في قوله تعالى { ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ } [عبس:22]. وأصل النشر بسط ما كان مطويّا، وتفرعت من ذلك معاني الإعادة والانتشار. والضمير التفات من الغيبة إلى التكلم.

{ بَلْدَةً مَيْتاً } وصف البلدة به مجاز شائع قال تعالى { وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا } [يس:33].

وإنّما وصفت البلدة وهي مؤنث بالميت وهو مذكر لكونه على زنة الوصف الذي أصله مصدر، فحسُن تجريده من علامة التأنيث على أنّ الموصوف مجازي التأنيث.

{ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } معترضة بين المتعاطفين وهو استطراد بالاستدلال على ما جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم من إثبات البعث، بمناسبة الاستدلال على تفرّد الله بالإلهية.

{ كَذَلِكَ } إشارة إلى الانتشار المأخوذ من { فَأَنْشَرْنَا }، أي: مثل ذلك الانتشار تخرجون من الأرض بعد فنائكم، ووجه الشبه هو إحداث الحي بعد موته.

{ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ [12] لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ [13] وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ [14] }.

هذا انتقال من الاستدلال والامتنان بخلق وسائل الحياة إلى الاستدلال بخلق وسائل الاكتساب لصلاح المعاش، وذكر منها وسائل الإنتاج وأتبعها بوسائل الاكتساب بالأسفار للتجارة.

{ وَالَّذِي } إعادة اسم الموصول لما تقدّم في نظيره آنفا.

الأزواج: جمع زوج، وهو كل ما يصير به الواحد ثانيا، فيطلق على كل منهما زوج. وغلب الزوج على الذكر وأنثاه من الحيوان، ومنه { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ } [الأنعام:143]، وتُوسّع فيه فأطلق الزوج على الصنف كقوله تعالى { وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } [الرعد:3]، وكلا الإطلاقين يصحّ أن يراد هنا.

{ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ } ولمّا كان المتبادر من الأزواج بادئ النظر أزواج الأنعام وكان من أهمها عندهم الرواحل عطف عليها ما هو منها وسائل للتنقل برًّا وأدمج معها وسائل السفر بحرا.

{ **مَا تَرْكَبُونَ** } بالنسبة إلى الأنعام هو الإبل لأنّها وسيلة الأسفار، قال تعالى { وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } [يس:42/41]، وقد قالوا: الإبل سفائن البر.

{ **جَعَلَ** } مراعاة لأنّ الفلك مصنوعة وليست مخلوقة.

والمقصود: أنّه خلق في الإنسان قوّة التفكير التي ينساق بها إلى استعمال الموجودات في نفعه، فاحتال كيف يصنع الفلك ويركب فيها واحتال كيف يروّض الأنعام ويركبها.

وقُدِّم الفلك على الأنعام لأنّها لا يشملها لفظ الأزواج فذِكْرُها ذكرُ نعمة أخرى ولو ذكر الأنعام لكان ذكرها عقب الأزواج بمنزلة الإعادة. فلما ذكر الفلك بعنوان كونها مركوبا عطف عليها الأنعام فصار ذكر الأنعام مترقَّبا للنفس لمناسبة جديدة.

الركوب: حقيقته اعتلاء الدابة للسير، وأطلق على الحصول في الفلك لتشبيههم الفلك بالدابة بجامع السير فركوب الدابة يتعدّى بنفسه وركوب الفلك يتعدَّى بـ (في) للفرق بين الأصيل واللاحق، وتقدّم عند قوله تعالى { وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا } [هود:41]. فاستعمال فعل { تَرْكَبُونَ } هنا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه.

{ **لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ** } توطئة وتمهيدا للإشارة إلى ذكر نعمة الله.

الاستواء: الاعتلاء.

الظهور: جمع ظهر، والظهر من علائق الأنعام لا من علائق الفلك، فهذا أيضا من التغليب.

{ **ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ** } أي: حينئذ، فإنّ ذكر النعمة في حال التلبّس بمنافعها أوقع في النفس وأدعى للشكر عليها. وأجدر بعدم الذهول عنها، أي: جعل لكم ذلك نعمة لتشعروا بها فتشكروه عليها، فالذكر هنا هو التذكّر بالفكر لا الذكر باللسان. وهذا تعريض بالمشركين إذ تقلَّبوا في نعم الله وشكروا غيره.

{ **وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا** } معطوفة على السابقة. أي: لتشكروا الله في نفوسكم وتعلنوا بالشكر بألسنتكم، فلقّنهم صيغة شكر عناية بهم، كما لقَّنهم صيغة الحمد في سورة الفاتحة وصيغة الدعاء في آخر سورة البقرة.

التسخير: التذليل والتطويع. وتسخير الله الدواب هو خلقه إيّاها قابلة للترويض فاهمة لمراد الراكب، وتسخير الفلك حاصل بمجموع خلق البحر صالحا لسبح السفن على مائه، وخلق الرياح تهب فتدفع السفن على الماء، وخلق حيلة الإنسان لصنع الفلك، ورصد مهاب الرياح، ولولا ذلك لكانت قوّة الإنسان دون أن تبلغ استخدام هذه الأشياء القوية.

{ **وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** } تعقيب، أي: ما كنّا مطيقين لذلك، قادرين عليه لولا التسخير المذكور.

المقرن: المطيق، يقال: أقرن، إذا أطاق.

{ **وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ** } خُتم هذا الشكر والثناء بالاعتراف بأنّ المرجع إلى الله بالبعث للحساب والجزاء، وهذا إدماج لتلقينهم الإقرار بالبعث. و**الانقلاب**: الرجوع إلى المكان الذي يفارقه.

وفي هذا تعريض بتوبيخ المشركين على كفران نعمة الله بالإشراك وبنسبة العجز عن الإحياء بعد الموت.

وفيه إشارة إلى أنّ حق المؤمن أن يكون في أحواله كلّها ملاحظا للحقائق العالية ناظرا لتقلّبات الحياة نظر الحكماء الذين يستدلّون ببسائط الأمور على عظيمها.

{ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ } [15]

هذا متصل بقوله تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } [9]، أي: ولئن سألتهم عن خالق الأشياء ليعترفُنّ به وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف جزءا.

{ **وَجَعَلُوا** } فـ (الواو) للعطف على جملة { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ } ويجوز كونها للحال على معنى: وقد جعلوا له من عباده جزءا، ومعنى الحال تفيد تعجيبا منهم في تناقض آرائهم وأقوالهم وقلبهم الحقائق، وهي غباوة في الرأي. فالمشركون مقرُّون بأنّ الله خالق الأشياء كلِّها ومع ذلك جعلوا له شركاء في الإلهية، وكيف يستقيم أن يكون المخلوق إلها، وجعلوا لله بنات، والبنوّة تقتضي المماثلة في الماهية.

{ **مِنْ عِبَادِهِ** } من مخلوقاته.

{ **جُزْءاً** } الجزء في الحقيقة بعض من كلّ، والقطعة منه. والولد جزء من الوالد لأنه منفصل منه، ولذلك يقال للولد: بضعة. ولما كانت عقيدة المشركين معروفة لهم ومعروفة للمسلمين كان المراد من الجزء **البنات**، لقول المشركين: إنّ الملائكة بنات الله من سروات الجن، أي: أمهاتهم سروات الجن، أي: شريفات الجن.

وحكى القرطبي أنّ المبرد قال: الجزء هاهنا البنات، يقال: أجزأت المرأة، إذا ولدت أنثى.

{ **إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ** } تذييل يدلّ على استنكار ما زعموه، بأنّه كفر صريح تفضحه الأقوال والأفعال.

{ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ [16] وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ [17] }.

{ **أَمْ** } للإضراب الانتقالي، لانتقال الكلام من إبطال معتقدهم بنوّة الملائكة لله تعالى بما لزمه من انتقاص حقيقة الإلهية، إلى إبطاله بما يقتضيه من انتقاص ينافي الكمال الذي تقتضيه الإلهية. والكلام بعد { أم } استفهام، وهو استفهام إنكاري كما اقتضاه قوله { وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ }.

ومحل الاستدلال أنّ الإناث مكروهة عندهم فكيف يجعلون لله أبناء إناثا.

{ **مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ** } وتنكير { بَنَاتٍ } لأنّه الأصل في أسماء الأجناس. وأمّا تعريف { البَنِينَ } بـ (اللام) فهو تعريف الجنس. والمقصود منه هنا الإشارة إلى المعروف عندهم المتنافس في وجوده لديهم وتقدّم عند قوله تعالى { يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ } [الشورى:49].

وتقديم ذكر البنات لأنّ ذكرهنّ أهم هنا إذ هو الغرض المسوق له الكلام بخلاف مقام قوله تعالى { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً } [الإسراء:40]، ولما في التقديم من الردّ على المشركين في تحقيرهم البنات وتطيّرهم منهن مثل ما تقدّم في سورة الشورى.

{ **وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ** } في موضع الحال. والخطاب موجَّه إلى الذين جعلوا له من عباده جزءا، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ليكون الإنكار والتوبيخ أوقع عليهم لمواجهتهم به.

الإصفاء: إعطاء الصفوة، وهي الخيار من شيء.

{ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ** } يجوز أن تكون في موضع الحال من ضمير النصب في { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ }.

{ **أَحَدُهُمْ** } عدل عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة على طريق الالتفات ليكونوا محكِيًّا حالهم إلى غيرهم تعجيبا من فساد مقالتهم وتشنيعا بها إذ نسبوا لله بنات، وكانوا ممن يكره البنات ويحقّرهن.

{ **بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً** } موصولة، أي: بُشِّر بالجنس الذي ضربه، أي: جعله مثلا وشبها لله في الإلهية، وإذ جعلوا جنس الأنثى جزءا لله، أي منفصلا منه فالمبشر به جنس الأنثى.

الضرب: الجعل والصنع، ومنه ضرب الدينار.

{ **ظَلَّ** } هنا: صار.

{ **وَجْهُهُ مُسْوَدّاً** } من شدة الغضب والغيظ، إذ يصعد الدم إلى الوجه فتصير حمرته إلى سواد.

الكظيم: الممسك عن الكلام كربا وحزنا.

{ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ } [18]

عطف إنكار على إنكار، و(الواو) عاطفة الجملة على الجملة، وهي مؤخّرة عن همزة الاستفهام، لأنّ للاستفهام الصدر، وأصل الترتيب: وأمن ينشأ. وجملة الاستفهام معطوفة على الإنكار المقدّر بعد { أَمْ } في قوله { أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ } [16]، ولذلك يكون { مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ } في محل نصب بفعل محذوف دلّ عليه فعل { اتَّخَذَ }، والتقدير: أاتخذ من ينشأ في الحلية.

<u>ولك أن تجعل</u> { مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ } **بدلا** من قوله { بَنَاتٍ }، بدلا مطابقا.

{ **الْحِلْيَةِ** } اسم لما يُتَحَلَّى به، أي: يُتزيَّن به، قال تعالى { وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا } [فاطر: 12].

{ **أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ** } من تُجعل له الحلية من أوّل أوقات نشأته ولا تفارقه، فإنّ البنت تُتخذ لها الحلية من أول عمرها وتُستصحب في سائر أطوارها. وهو هنا كناية عن الضعف عن مزاولة الصعاب بحسب الملازمة العرفية فيه.

{ **وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ** } ظاهر الخصام هنا المجادلة والمنازعة بالكلام والمحاجّة، فيكون المعنى: أنّ المرأة لا تبلغ المقدرة على إبانة حجّتها. وتذكير الضمير مراعاة للفظ { مَنْ } الموصولة.

ويجوز عندي: أن يُحمل الخصام على التقاتل والدفاع باليد، فإنّ الخصم يطلق على المحارب، كقوله تعالى {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ } [الحج:19] فُسِّر بأنّهم نفر من المسلمين مع نفر من المشركين تقاتلوا يوم بدر.

{ **غَيْرُ مُبِينٍ** } غير محقّق النصر.

والمقصود من هذا فضح معتقدهم الباطل وأنّهم لا يحسنون إعمال الفكر في معتقداتهم.

{ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ}[19]

عطف على { وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً } [15]، أعيد ذلك مع تقدّم ما يُغني عنه من قوله { أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ } [16] ليُبنى عليه الإنكار عليهم بقوله { أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ } استقراء لإبطال مقالهم، إذ أُبطل ابتداء بمخالفته لدليل العقل وبمخالفته لما يجب لله من الكمال، فَكَمُل هنا إبطاله بأنّه غير مستند لدليل الحس.

{ **الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ** } صفة الملائكة. قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب { **عِنْدَ** } والعندية عندية تشريف، فكأنّهم في حضرة الله، وهذا كقوله تعالى { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ } [الانبياء: 19]، وقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ } [الأعراف:206].

وقرأ الباقون { **عِبَادُ الرَّحْمَنِ** }، على معنى: الذين هم عباد مكرّمون، فالإضافة إلى اسم الرحمان تفيد تشريفهم، قال تعالى { بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ } [الانبياء:26]، والعبودية عبودية خاصة وهي عبودية القرب، كقوله تعالى { فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا } [القمر:9].

{ **أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ** } معترضة بين { وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ } وجملة { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [20]. قرأ نافع وأبو جعفر بهمزتين أولاهما مفتوحة والأخرى مضمومة وسكون شين { أَأُشْهِدُوا } مبنيا للنائب، وعلى هذه القراءة فالهمزة للاستفهام، وهو للإنكار والتوبيخ. وجيء بصيغة النائب عن الفاعل دون صيغة الفاعل لأنّ الفاعل معلوم أنّه الله تعالى. والمعنى: أأشهدهم الله خلق الملائكة، كقوله تعالى { مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الكهف:51].

وقرأه الباقون بهمزة مفتوحة فشين مفتوحة بصيغة الفعل، فالهمزة لاستفهام الإنكار دخلت على فعل شهد، أي: ما حضروا خلق الملائكة، على نحو قوله { أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ } [الصافات:150].

{ **سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ** } بدل اشتمال من جملة { أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ } لأنّ ذلك الإنكار يشتمل على الوعيد. وهذا خبر مستعمل في التوعُّد. وكتابة الشهادة كناية عن تحقّق العذاب على كذبهم كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ } [4]. ومنه قوله تعالى { سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا } [آل عمران:181].

{ **شَهَادَتُهُمْ** } ادعاؤهم أنّ الملائكة إناثا، وأطلق عليها شهادة تهكّما بهم.

{ **وَيُسْأَلُونَ** } سؤال تهديد وإنذار بالعقاب وليس ممّا يُتطلب عنه جواب، كقوله تعالى { ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } [التكاثر:8].

{ **وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** } [20]

عطف على جملة { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } [9]، فإنّها استدلال على وحدانية الله تعالى وعلى أنّ معبوداتهم غير أهل لأن تعبد. فحُكي هنا ما استظهروه من معاذيرهم عند نهوض الحجّة عليهم يرومون بها إفحام النبيّ صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فيقولون: لو شاء الله ما عبدنا الأصنام، أي: لو أنّ الله لا يحبّ أن نعبدها لكان الله صرفنا عن عبادتها، وتوهّموا أنّ هذا قاطع لجدال النبيّ صلى الله عليه وسلم لهم.

{ **مَا عَبَدْنَاهُمْ** } ضمير الغيبة عائد إلى معلوم من المقام ومن ذكر فعل العبادة، لأنّهم كانوا يعبدون الأصنام وهم الغالب، وأقوام منهم يعبدون الجنّ، قال تعالى { بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ } [سبأ:41]، وأقوام يعبدون الملائكة، مثل بني مُلَيح (بضم الميم وفتح اللام وبحاء مهملة) وهم حي من خُزاعة.

فضمير جمع المذكّر تغليب وليس عائدا إلى الملائكة لأنّهم كانوا يزعمون الملائكة إناثا فلو أرادوا الملائكة لقالوا ما عبدناها أو ما عبدناهنّ.

وهذه المقالة مثارها تخليط العامة والدهماء من عهد الجاهلية بين المشيئة والإرادة، وبين الرضى والمحبة. فبنوا على ذلك تخليطا بين مشيئة الله بمعنى تعلّق إرادته بوقوع شيء، وبين مشيئته التي قدّرها في نظام العالم من إناطة المسببات بأسبابها. فمشيئة الله بالمعنى الأوّل يدل عليها ما أقامه من نظام أحوال العالم وأهله، ومشيئته بالمعنى الثاني تدلّ عليها شرائعه المبعوثة بها رسله. وقد بيَّنّا ذلك عند قوله تعالى { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا } [الأنعام:148].

{ **مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ** } جواب عن قولهم. أي: ليس لهم مستند ولا حجّة على قياسهم لأنّ مقدّم القياس الاستثنائي وهو { لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } مبني على التباس المشيئة التكوينية بالمشيئة التكليفية، فكان قياسهم خليًّا عن العلم وهو اليقين، فلذلك قال الله { مَا لَهُمْ بِذَلِكَ }، أي: بقولهم ذلك من علم، بل هو من جهالة السفسطة واللبس. والإشارة { بِذَلِكَ } إلى الكلام المحكي بقوله تعالى { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ } مَا عَبَدْنَاهُمْ.

{ **إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** } بيان لجملة {مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ }.

الخرص: التوهّم والظنّ الذي لا حجّة فيه، قال تعالى { قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ } [الذريات:10].

{ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ } [21]

إضراب انتقالي، عطف على جملة { مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ }، فبعد أن نفى أن يكون قولهم { لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [20] مستندا إلى حجّة العقل، انتقل إلى نفي أن يكون مستندا إلى حجّة النقل.

{ **أَمْ** } اجتُلبت للإضراب دون (بل) لما تؤذن به من استفهام بعدها، وهو إنكاري هنا.

{ **مِنْ قَبْلِهِ** } الضمير عائد إلى القرآن المذكور في أوّل السورة، وفي قوله { وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ } [4].

{ **مُسْتَمْسِكُونَ** } مبالغة في (ممسكون)، يقال: أمسك بالشيء، إذا شدّ عليه يده، وهو مستعمل مجازا في معنى الثبات على الشيء كقوله تعالى { فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ } [43].

وفي الآية ثناء ثالث على القرآن ضمني لاقتضائه أنّ القرآن لا يأتي إلّا بالحق الذي يُستمسك به. وهو تمهيد للتخلّص إلى المعنى الذي تتضمنه الآية اللاحقة.

{ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُهْتَدُونَ } [22]

هذا إضراب إبطال عن الكلام الوارد في الآية السابقة، فهو إبطال للمنفي لا للنفي، أي: ليس لهم علم فيما قالوه ولا نقل. فكان هذا الكلام مسوقا مساق الذمّ لهم إذ لم يقارنوا بين ما جاءهم به الرسول وبين ما تلقّوه من آبائهم، فإنّ شأن العاقل أن يميّز ما يُلقى إليه من الاختلاف ويعرضه على معيار الحق.

{ **أُمَّةٍ** } هنا بمعنى الملّة والدين، كما في قوله تعالى { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } [الأنبياء:92].

{ **عَلَى آثَارِهِم مُهْتَدُونَ** } أي: سائرون، أي: لا حجّة لهم في عبادتهم الأصنام إلّا تقليد آبائهم.

{ **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ** } [23].

معترضة لتسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم على تمسُّك المشركين بدين آبائهم. أي: ومثل قولهم ذلك قال المترفون من أهل القُرى المرسل إليهم الرسل من قبلك. والمقصود أنّ هذه شنشنة أهل الضلال من السابقين واللاحقين.

{ **مُتْرَفُوهَا** } جمع المُترف وهو الذي أُعطي الترف، أي: النَّعمة. وتقدّم في قوله تعالى { وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ } [الأنبياء:13].

المعنى: أنّهم مثل قريش في الازدهاء بالنَّعمة التي هم فيها، أي: في بطر نعمة الله عليهم. فالتشبيه يقتضي أنّهم مثل الأمم السالفة في سبب الازدهاء، قال تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11].

جاء في حكاية قول المشركين الحاضرين وصفهم أنفسهم بأنّهم مهتدون بآثار آبائهم { عَلَى آثَارِهِم مُهْتَدُونَ }، وجاء في حكاية أقوال السابقين وصفهم أنفسهم بأنّهم بآبائهم مقتدون { عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ }، لأنّ أقوال السابقين كثيرة مختلفة يجمع مختلفها أنّها اقتداء بآبائهم، فحكاية أقوالهم من قبيل حكاية القول بالمعنى، وحكاية القول بالمعنى طريقة في حكاية الأقوال كثر ورودها في القرآن وكلام العرب.

{ **قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** } [24].

قرأ الجمهور { **قُلْ** } بصيغة فعل الأمر المفرد فيكون أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله جوابا عن قول المشركين { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } [22].

وقرأ ابن عامر وحفص { **قَالَ** } بصيغة الفعل الماضي المسند إلى المفرد الغائب فيكون الضمير عائدا إلى نذير الذين قالوا { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ } [23].

فحصل من القراءتين أنّ جميع الرسل أجابوا أقوامهم بهذا الجواب، وعلى كلتا القراءتين جاء فعل (قل/ قال) مفصولا غير معطوف لأنّه واقع في مجال المحاورة.

{ **أَوَلَوْ** } الواو عاطفة الكلام المأمور به على كلامهم، وهذا العطف ممّا يُسمَّى عطف التلقين، ومنه قوله تعالى عن إبراهيم { قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } [البقرة:124]. والهمزة للاستفهام التقريري المشوب بالإنكار، وقُدِّمت على الواو لأجل التصدير. و(لو) وصلية تقتضي المبالغة بنهاية مدلول شرطها، كما في قوله تعالى { وَلَوِ افْتَدَى بِهِ } [آل عمران:91]. أي: لو جئتكم بأهدى من دين آبائكم تبقون على دينهم وتتركون ما هو أهدى؟ !

{ **بِأَهْدَى** } صوغ اسم التفضيل من الهدي إرخاء للعنان لهم ليتدبّروا، نُزّل ما كان عليهم آباؤهم منزلة ما فيه شيء من الهدى، استنزالا لطائر المخاطبين ليتصدّوا للنظر، كقوله تعالى { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [سبأ:24].

{ **قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** } بدل من جملة { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ } [23]، لأنّ ذلك يشتمل على معنى: لا نتبعكم ونترك ما وجدنا عليه آباءنا.

{ **قَالُوا** } الضمير راجع إلى { مُتْرَفُوهَا } [23] لأنّ موقع جملة { فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ } [25] يُعيّن أنّ هؤلاء القائلين وقع الانتقام منهم، فلا يكون منهم المشركون الذين وقع تهديدهم بأولئك.

{ **بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ** } يجوز أن يكون حكاية لقولهم، فإطلاقهم اسم الإرسال على دعوة رسلهم تهكّم، مثل قوله تعالى { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ } [الفرقان:7]، ويجوز أن يكون حكاية بالمعنى وإنّما قالوا: إنَّا بما زعمتم أنّكم مرسلون به.

{ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [25]

تفريع على جملة { قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } [24]، أي: انتقمنا منهم عقب تصريحهم بتكذيب الرسل. وهذا تهديد بالانتقام من الذين شابهوهم في مقالهم، وهم كفّار قريش.

الانتقام: افتعال من النقم وهو المكافأة بالسوء، وصيغة الافتعال لمجرّد المبالغة، يقال: نَقَمَ كعلم وضرب، إذا كافأ على السوء بسوء. والمراد بالانتقام استئصالهم وانقراضهم. وتقدّم في قوله تعالى { فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ } [الأعراف:136]

{ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** } النظر هنا نظر التفكّر والتأمّل فيما قصّ الله على رسوله من أخبارهم كقوله تعالى { قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [النمل:27]، وليس نظر البصر إذ لم ير النبيّ صلى الله عليه وسلم حالة الانتقام فيهم. ويجوز أن يكون الخطاب لغير معين، أي: لكل من يتأتّى منه التأمل.

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ [26] إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ[27]}

لمَّا ذكّرهم الله بالأمم الماضية وشبَّه حالهم بحالهم ساق لهم أمثالا في ذلك من مواقف الرسل مع أممهم.

وابتدأ بذكر إبراهيم وقومه إبطالا لقول المشركين { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ} [22] بأنّ أولى آبائهم بأن يقتدوا به هو أبوهم إبراهيم الذي يفتخرون بنسبته.

{ **إِذْ** } ظرف متعلّق بمحذوف، تقديره: واذكر إذ قال إبراهيم، ونظائر هذا كثيرة في القرآن.

{ **لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ** } خُصَّ أبو إبراهيم بالذكر قبل ذكر قومه، وما هو إلّا واحد منهم، اهتماما بذكره، لأنّ براءة إبراهيم ممَّا يعبد أبوه أدلّ على تجنّب عبادة الأصنام بحيث لا يتسامح فيها ولو كان الذي يعبدها أقرب الناس إليه، ولتكون حكاية كلام إبراهيم قدوة لإبطال قول المشركين { وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } [22]. قال تعالى { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [الممتحنة:4]، أي: فما كان لكم أن تقتدوا بآبائكم المشركين وهلّا اقتديتم بأفضل آبائكم وهو إبراهيم.

{ **بَرَاءٌ** } (بفتح الباء) مصدر للوصف والإخبار، بوزن الفَعال مثل: السَّماع. لغة أهل العالية [وهي ما فوق نجد إلى أرض تهامة ممّا وراء مكة] وأمّا أهل نجد فيقولون: **بريء**.

{ **مِمَّا تَعْبُدُونَ** } أي: من الذين تعبدونهم، فإنّ قوم إبراهيم كانوا مشركين مثل مشركي العرب. وقد بسطنا ذلك فيما تقدّم عند قوله تعالى { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً } [الأنعام:74].

{ **إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي** } استثناء من { مِمَّا تَعْبُدُونَ }.

{ **فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ** } تفريع، لأنّ قوله { إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ } يتضمّن معنى: إنّني اهتديت إلى بطلان عبادتكم الأصنام بهدي من الله. وسين الاستقبال مؤذنة بأنّه أخبرهم بأنّ هداية الله إيّاه قد تمكّنت وتستمر في المستقبل.

{ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [28].

عطف على { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ } [27]، أي: أعلن تلك المقالة في قومه معاصريه وجعلها كلمة باقية في عقبه ينقلونها إلى أممهم. إذ أوصى بها بنيه وأوصاهم أن يوصوا بنيهم بها، قال تعالى { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة:132]، فبتلك الوصيّة أبقى إبراهيم توحيد الله بالإلهية والعبادة في عقبه يبثّونه في الناس. ولذلك قال يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ - إلى قوله - وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [يوسف:37-40].

{ **وَجَعَلَهَا** } ضمير الرفع عائد إلى إبراهيم وهو الظاهر من السياق والمناسب لقوله { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ولأنّه لم يتقدّم اسم الجلالة ليعود عليه الضمير. وحكي في الكشّاف أنّه قيل: الضمير عائد إلى الله وجزم به القرطبي وهو ظاهر كلام أبي بكر بن العربي.

{ **وَجَعَلَهَا كَلِمَةً** } الضمير المنصوب عائد إلى الكلام المتقدّم. وأنّث الضمير لتأويل الكلام بالكلمة نظرا لوقوع مفعوله الثاني لفظ { كَلِمَةً }، لأنّ الكلام يطلق عليه كلمة، كقوله تعالى { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } [الكهف:5]، وهي قولهم { اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً }.

واعلم أنّه إنّما يقال للكلام كلمة إذا كان كلاما سائرا على الألسنة متمثّلا به، كما في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " **أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل** "، أو كان الكلام مجعولا شعارا كقولهم: لا إله إلا الله كلمة الإسلام، قال تعالى { وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ } [التوبة:74].

المعنى: جعل إبراهيم قوله { إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي } شعارا لعقبه، أي: جعلها هي وما يرادفها قولا باقيا في عقبه على مر الزمان، فلا يخلو عقب إبراهيم من موحّدين لله نابذين للأصنام.

العقِب: الذرية الذين لا ينفصلون من أصلهم بأنثى.

{ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } أي: جعل إبراهيم كلمة التوحيد باقية في عقبه بالوصاية عليها راجيا أنّهم يرجعون، أي: يتذكرون بها التوحيد إذا ران رين على قلوبهم. وهذا شأن الكلام الذي يُجعل شعارا لشيء فإنّه يكون أصلا موضوعا قد تبيَّن صدقه وإصابته، فاستحضاره يغني عن إعادة بسط الحجّة له.

{ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ } [29].

إضراب عن قوله { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [72]، وهو إضراب إبطال، أي: لم يحصل ما رجاه إبراهيم من رجوع بعض عقبه إلى الكلمة التي أوصاهم برعيها. وفي القول كلام محذوف دلّ عليه الإبطال وما بعد الإبطال، تقديره: بل لم يرجع هؤلاء وآباؤهم الأوّلون إلى التوحيد ولم يتبرَّأوا من عبادة الأصنام ولا أخذوا بوصاية إبراهيم.

{ **مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ** } مستأنفة استئنافا بيانيًّا لسائل يسأل عمّا عاملهم الله به جزاء على تفريطهم في وصاية إبراهيم وهلا استأصلهم؟ فأجيب بأنّ الله متَّعهم بالبقاء إلى أن يجيئهم رسول بالحقّ وذلك لحكمة علمها الله يرتبط بها وجود العرب زمنا طويلا بدون رسول.

{ **هَؤُلَاءِ** } إشارة إلى غير مذكور، وقد استقريت أنّ مصطلح القرآن أن يريد بمثله مشركي العرب.

{ **وَآبَاءَهُمْ** } آباؤهم الذين سنُّوا عبادة الأصنام مثل (عمرو بن لُحَي) والذين عبدوها من بعده. وتمتيع آبائهم تمهيد لتمتيع هؤلاء، ولذلك كانت غاية التمتيع مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ** } ثناء راجع إلى القرآن متصل بالثناء عليه الذي افتتحت به السورة. فإنّه لمّا جاء القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم انتهى التمتيع وأُخِذوا بالعذاب تدريجا إلى أن كان عذاب يوم بدر ويوم حنين، وهدى الله للإسلام من بقي يوم فتح مكة وأيام الوفود.

وهذا في معنى قوله تعالى { وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [هود:48].

{ **الْحَقُّ** } المراد بـه القرآن كما يدلّ عليه قوله تعالى { وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ } [30] وقوله تعالى { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [31].

الرسول المبين: محمد صلى الله عليه وسلم. ووصفه بـ { مُبِينٌ } لأنّه أوضح الهدى ونصب الأدلّة وجاء بأفصح كلام. فالإبانة راجعة إلى معاني دينه وألفاظ كتابه.

والحكمة في ذلك أنّ الله أراد أن يشرّف هذا الفريق من عقب إبراهيم بالانتشال من أوحال الشرك والضلال إلى مناهج الإيمان والإسلام واتباع أفضل الرسل وأفضل الشرائع، فيجبر لأمّة من عقب إبراهيم ما فرَّطوا فيه من الاقتداء بأبيهم حتّى يكمُل لدعوته شرف الاستجابة.

{ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ } [30].

تعجيب من حال تغافلهم، أي: قد كان لهم بعض العذر قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن، لأنّ للغفلات المتقادمة غشاوة تُصيِّر الغفلة جهالة، فكان الشأن أن يستيقظوا لمّا جاءهم الحقُّ ورسول مبين فيتذكَّروا كلمة أبيهم إبراهيم، ولكنّهم لمّا جاءهم الحقّ قالوا: هذا سحر، أي: قالوا للرسول: هذا ساحر.

وفي تعقيب الغاية بهذا الكلام إيذان بأنّ تمتيعهم أصبح على وشك الانتهاء لأنّهم كانوا قبل مجيء الحقّ مشركين عن غفلة وتساهل، فلمّا جاءهم الحقُّ صاروا مشركين عن عناد ومكابرة.

{ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ } مقول ثان، أي: وقالوا إنا به، أي بالقرآن، كافرون، أي، فرضوا أنه سحر ثم ارتقوا فقالوا إنا كافرون بأنّه من عند الله سواء كان سحرا، أم شعرا، أم أساطير الأولين. ولهذا المعنى أكّدوا الخبر بحرف التأكيد ليؤيِّسوا الرسول صلى الله عليه وسلم من إيمانهم به.

{ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [31].

عطف على قولهم السابق، فهو في حيّز جواب { لمَّا } التوقيتية واقع موقع التعجيب أيضا، أي: بعد أن أخذوا يتعلّلون بالعلل لإنكار الحق، إذ قالوا للقرآن: { هَذَا سِحْرٌ }، وإذ كان قولهم ذلك يقتضي أنّ الذي جاء بالقرآن ساحر، انتقل إلى ذكر طعن آخر منهم في الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه لم يكن من عظماء أهل القريتين.

{ الْقَرْيَتَيْنِ } مكة والطائف، لأنّهما أكبر قرى تهامة بلد القائلين، وأمّا يثرب وتيماء ونحوهما فهي من بلد الحجاز. جعلوا عماد التأهّل لسيادة الأقوام أمرين: عظمة المسوَّد، وعظمة قريته، فهم لا يدينون إلّا من هو من أشهر القبائل في أشهر القرى.

{ عَظِيمٍ } مستعار لصاحب السؤود في قومه، فكأنّه عظيم الذات. روي عن ابن عباس أنّهم عنوا بعظيم مكة الوليد بن المغيرة المخزومي، وبعظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفي.

ثم يحتمل أنّهم قالوا هذا اللفظ المحكي عنهم في القرآن ولم يسمُّوا شخصين معينين، ويحتمل أنّهم سمُّوا شخصين ووصفوهما بهذين الوصفين، فاقتصر القرآن على ذكر الوصفين إيجازا مع التنبيه على ما كانوا يؤهّلون به الاختيار للرسالة تحميقا لرأيهم. كما حكي عن بني إسرائيل قولهم { وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ } [البقرة: 247].

{ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } [32].

إنكار عليهم قولهم السابق، وتخطئة لهم في تحكمهم. فإنّهم لمّا نصبوا أنفسهم منصب من يتخيّر أصناف الناس للرسالة عن الله، فقد جعلوا لأنفسهم ذلك لا لله.

{ رَحْمَتَ رَبِّكَ } ولما كان الاصطفاء للرسالة رحمة لمن يُصطفى لها ورحمة للناس المرسل إليهم، سُمِّيت الرسالة رحمة، ووُجِّه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأضيف لفظ (الربّ) إلى ضميره إيماء إلى أنّ الله مؤيّده تأنيسا له، لأنّ قولهم { عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ }، قصدوا منه الاستخفاف به، فرفع الله شأنه بإبلاغ الإنكار عليهم بالإقبال عليه بالخطاب وبإظهار أنّ الله ربّه، أي: متولِّي أمره وتدبيره.

{ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً } تعليل للإنكار والنفي المستفاد منه، واستدلال عليه، أي: لمّا قسمنا بين الناس معيشتهم فكانوا مسيّرين في أمورهم على نحو ما هيَّأنا لهم من نظام الحياة، وكان تدبير ذلك لله تعالى ببالغ حكمته، فجعل منهم أقوياء وضعفاء، وأغنياء ومحاويج، فسخَّر بعضهم لبعض في أشغالهم على حساب دواعي حاجة الحياة، ورفع بذلك بعضهم فوق بعض، وجعل بعضهم محتاجا إلى بعض ومسخّرا له.

السُّخري: (بضم السين وبكسرها) وهما لغتان، اسم للشيء المسخَّر، أي: <u>المجبور على عمل بدون اختياره</u>، واسم لمن يُسْخَر به، أي: <u>يستهزأ به</u>، كما في مفردات الراغب والأساس والقاموس.

قال ابن عطية: هما لغتان في معنى التسخير ولا تدخُّل لمعنى الهزء في هذه الآية. ولم يقل ذلك غيره وكلام الراغب محتمل. واقتصر الطبري على معنى التسخير. والوجه عندي: أنّ المعنيين معتبران في هذه الآية.

{ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } تذييل للرد عليهم، وفي هذا التذييل رد ثان عليهم بأنّ المال الذي جعلوه عماد الاصطفاء للرسالة هو أقل من رحمة الله فهي خير ممّا يجمعون من المال.

{ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ [33] وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ [34] وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ [35] }.

{ وَلَوْلا } حرف امتناع لوجود، أي: حرف شرط دلّ امتناع وقوع جوابها لأجل وقوع شرطها.

لمّا تقرر أنّ من خُلُقهم تعظيم المال وأهل الثراء وحسبانهم ذلك أصل الفضائل ولم يهتموا بزكاء النفوس، وكان الله قد أبطل جعلهم المال سبب الفضل بإبطالين، أعقب ذلك بتعريفهم أنّ المال والغنى لا حظّ لهما عند الله تعالى، فإنّ الله أعطى كلّ شيء خلقه وجعل للأشياء حقائقها ومقاديرها، فكثيرا ما يكون المال للكافرين ومن لا خلاق لهم من الخير، فتعيّن أنّ المال قسمة من الله على الناس جعل له أسبابا نظمها في سلك النظم الاجتماعية وجعل لها آثارا مناسبة لها، وشتّان بينها وبين مواهب النفوس الزكيّة والسرائر الطيبة.

{ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً } يحتمل أن يراد به جميع الناس، فيكون التعريف للاستغراق.

ويحتمل وهو **الأولى عندي**: أن يكون التعريف للعهد مرادا به بعض طوائف البشر وهم أهل مكة وجمهورهم على طريقة الاستغراق العرفي وعلى وِزَان قوله تعالى { إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ } [آل عمران:173]، ويكون المراد بكونهم أمّة واحدة: اتحادهم في الثراء.

فيكون المعنى: لولا أن تصير أمّة من الأمم أهل ثروة كلّهم، وذلك مخالف لما قدّره الله من اشتمال كلّ بلد وكل قبيلة وكلّ أمّة على أغنياء ومحاويج لإقامة نظام العمران واحتياج بعضهم لبعض، لجعلنا من يكفر بالرحمن، وهم أهل مكة، سواء في الثراء والرفاهية. ويرجّح هذا جعل متعلق فعل { يَكْفُرُ } خصوص وصف الرحمان، فإنّ مشركي مكة أنكروا وصف الرحمان { قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60]، وقد تكرّر التورك عليهم بذلك في آي كثيرة.

الأمّة: الجماعة من البشر المتميزة عن غيرها باتحاد في نسب أو دين أو حالة معرف بها.

والمعنى عند ابن عباس والحسن وقتادة والسدي: لولا تجنّب ما يفضي إلى عموم الكفر وانقراض الإيمان، لجعلنا المال لأهل الكفر خاصة، وتركنا المسلمين لما ادّخرنا لهم من خيرات الآخرة.

أي: أنّ الله لطف بالعباد فعطّل ما يفضي بهم إلى اضمحلال الهدى من بينهم.

{ لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ } لقدّرنا في نظام المجتمع البشري أسباب الثراء متصلة بالكفر بالله بحيث يكون الكفر سببا ومجلبة للغنى، ولو أراد الله ذلك لهيّأ له أسبابه في عقول الناس وأساليب معاملاتهم المالية، فدلّ هذا على أنَّ الله منع أسباب تعميم الكفر في الأرض لطفا منه بالإيمان وأهله، وإن كان لم يمنع وقوع كفر جزئي قليل أو كثير حفظا منه تعالى لناموس ترتيب المسبّبات على أسبابها. وهذا من تفاريع التفرقة بين

الرضى والإرادة، فلا يرضى لعباده الكفر ولو شاء ربك ما فعلوه.
{ **لِبُيُوتِهِمْ** } اللام مثل اللام في قوله { لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ } أي: لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن، فيكون قوله { لِبُيُوتِهِمْ } بدل اشتمال ممّن يكفر بالرحمن.
{ **سُقُفًا** } (بضم السين وضم القاف)، جمع سَقْف (بفتح السين وسكون القاف) وهو: البناء الممتد على جدران البيت المغطي فضاء البيت، وتقدّم عند قوله تعالى { فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ } [النحل:26].
{ **مِنْ فِضَّةٍ** } ابتدئ بالفضة لأنّها أكثر في التحليات وأجمل في اللون، وأخر الذهب { زُخْرُفاً }، لأنّه أندر في الحلي، ولأن لفظه أسعد بالوقف لكون آخره تنوينا ينقلب في الوقف ألفا فيناسب امتداد الصوت وهو أفصح في الوقف.
{ **وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ** } والمعارج بالفضّة. اسم جمع مِعراج، وهو الدرج الذي يُعرج به إلى العلالي.
{ **يَظْهَرُونَ** } يعلون كما في قوله تعالى { فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ } [الكهف:97]، أي: أن يتسوَّروه.
سُرُر: (بضمتين) جمع سرير، وتقدّم عند قوله تعالى { عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ } [الصافات:44].
{ **عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ** } إشارة إلى أنّهم يُعطون هذه البهرجة مع استعمالها في دعة العيش والخلو عن التعب.
<u>المراد</u>: أنّ المعارج والأبواب والسرر من فضة، فحذف الوصف من المعطوفات لدلالة ما وصف المعطوف عليه.
الزخرف: الزينة، قال تعالى { زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً } [الأنعام :112]، فيكون هنا عطفا على { سُقُفًا } جمعا لعديد المحاسن، <u>ويطلق على الذهب</u> لأنّ الذهب يُتزين به، كقوله تعالى { أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ } [الاسراء:93]. أي: لجعلنا لهم ذهبا، أي: لكانت سقفهم ومعارجهم وأبوابهم من فضة وذهب منوّعة، لأنّ ذلك أبهج في تلوينها. <u>ويجوز</u> أن يكون اللفظ مستعملا في معنييه استعمال المشترك.
{ **وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** } تذييل، أي: كلّ ما ذُكر من السقف والمعارج والأبواب والسرر من الفضة والذهب متاع الدنيا لا يعود على من أعطيه بالسعادة الأبدية، فهي مدّخرة للمتقين. وهذا كقوله { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ } [آل عمران:14].

{ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } [36].

ابتدئت السورة بالتنويه بالقرآن ووصفه بأنّه ذكر وبيان للناس، <u>وُوصف</u> عناد المشركين في الصدّ عنه والإعراض، <u>وأُعلموا</u> بأنّ الله لا يترك تذكيرهم ومحاجّتهم لأن الله يدعو بالحق ويعد به. <u>وأطنب في وصف تناقض عقائدهم</u> لعلهم يستيقظون من غشاوتهم، <u>وفي تنبيههم</u> إلى دلائل حقّية ما يدعوهم إليه الرسول صلى

الله عليه وسلم بهذا القرآن، وفُضحت شبهاتهم بأنّهم لا تعويل لهم إلّا على ما كان عليه آباؤهم الأوّلون الضالون، وأُنذروا باقتراب انتهاء تمتيعهم وإمهالهم، وتقضَّى ذلك بمزيد البيان، وأفضى الكلام إلى ما قالوه في القرآن ومن جاء به بقوله تعالى { وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ - إلى قوله – عظيم } [31/30].

بعد ذلك كلّه عاد الكلام هنا إلى عواقب صرفهم عقولهم عن التدبّر في الدعوة القرآنية فكان انصرافهم سببا لأن يسخِّر الله شياطين لهم تلازمهم فلا تزال تصرفهم عن النظر في الحقّ وأدلة الرشد. وهو تسخير اقتضاه نظام تولّد الفروع من أصولها، فلا يُتعجّب من عمى بصائرهم عن إدراك الحقّ البيّن، وهذا من سنّة الوجود في تولّد الأشياء من عناصرها، فالضلال يتولّد في النفوس ويتمكّن منها مرة بعد مرة حتّى يصير طبعا على القلب، وأكنّة فيه، وختما عليه، ولا يضعف عمل الشيطان إلّا بتكرّر الدعوة إلى الحق وبالزجر والإنذار. فمن زناد التذكير تنقدح شرارات النور. ولولا ذلك لما ارعوى ضال عن ضلاله ولما نفع إرشاد المرشدين في نفوس المخاطبين.

{ **وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ** } عطف على جملة { وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ } [30].

وهو تمثيل لحالهم في إظهارهم عدم فهم القرآن كقولهم { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ } [فصلت:5]، بحال من يعشو عن الشيء الظاهر للبصر.

{ **يَعْشُ** } مضارع عَشَا عَشْوًا، إذا نظر إلى الشيء نظرا غير ثابت يشبه نظر الأعشى، وأمّا **العَشَا** (بفتح العين والشين) فهو اسم ضعف العين عن رؤية الأشياء.

فالمعنى: من ينظر نظرا غير متمكّن في القرآن، أي: من لا حظ له إلّا سماع كلمات القرآن دون تدبّر وقصد للانتفاع بمعانيه.

{ **وَمَنْ يَعْشُ عَنْ** } وعُدِّي الفعل بـ (عن) المفيدة للمجاوزة لأنّه ضُمِّن معنى الإعراض عن ذكر الرحمان وإلّا فإن حق عشا أن يعدى بـ (إلى).

{ **ذِكْرِ الرَّحْمَنِ** } هو القرآن المعبَّر عنه بالذكر في قوله تعالى { أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً } [5].

وإضافته إلى { الرَّحْمَنِ } إضافة تشريف، وهذا ثناء خامس على القرآن.

التقييض: الإتاحة وتهيئة شيء لملازمة شيء لعمل حتّى يتمّه. وتقدّم في قوله تعالى { وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ } [فصلت:25].

{ **نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً** } أتى الضمير في { لَهُ } مفردا لأنّ لكلّ واحد ممَّن تحقّق فيهم الشرط شيطانا، ولذلك سيجيء في قوله تعالى { قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ } [38] بالإفراد، أي: قال كل من له قرين لقرينه.

ولم يذكر متعلّق فعل { نقيّض } اكتفاء بدلالة مفعوله وهو { شيطانا }، فعلم منه أنّه مقيّض لإضلاله.

أي: هم أعرضوا عن القرآن لوسوسة الشيطان لهم.
{ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } تفريع على { نُقَيِّضْ} لأنّ التقييض كان لأجل مقارنته. وجيء بالجملة المفرّعة جملة اسمية للدلالة على الدوام، أي: فكان قرينا مقارنة ثابتة دائمة.

{ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ } [37]

في موضع الحال من الضمير في قوله { فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } [36] أي: مقارنة صدّ عن السبيل.
وضميرا (إنَّهم - يصدون) عائدان إلى { شَيْطَانًا } [36].
وضمير النصب في (يصدونهم) عائد إلى { وَمَنْ يَعْشُ }، لأنّ (من) الشرطية عامة، فكأنّه قيل: كلّ من يعشو عن ذكر الرحمان نقيض لهم شياطين يصدّونهم عن السبيل، لكل واحد شيطان.
{ السَّبِيلِ } تعريف الجنس. والسبيل: الطريق السابلة الممتدة الموصلة إلى المطلوب.
وقد مُثِّلت حالة الذين يعشون عن ذكر الرحمان وحال مقارنة الشياطين لهم بحال من استهدى قوما ليدلّوه على طريق موصل لبغيته فضلّلوه وصرفوه عن السبيل وأسلكوه في فيافي التيه غشا وخديعة، وهو يحسب أنّه سائر إلى حيث يبلغ طلبته.
{ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ } معطوفة على جملة { وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ } فهي في معنى الحال من الضمير في قوله تعالى { فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ }، والتقدير: ويحسب المصدودون أنّهم مهتدون بهم إلى السبيل.
الاهتداء: العلم بالطريق الموصل إلى المقصود.

{ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ } [38]

{ حَتَّى } ابتدائية، وهي تفيد التسبّب الذي هو غاية مجازية. فاستعمال { حَتَّى } فيه استعارة تبعية.
وليست في الآية دلالة على دوام الصدّ عن السبيل إلى فناء القرينين، إذ قد يؤمن الكافر فينقطع الصدّ والحسبان، فلا تغتر بتوهّم من يزعمون أنّ الغاية الحقيقية لا تفارق (حتّى) في جميع استعمالاتها.
{ يَا لَيْتَ } حرف (يا) أصله للنداء، ويُستعمل للتلهُّف والتندم كثيرا، كما هنا، قول تعالى { يَا حَسْرَةً }.
{ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ } المشرق والمغرب، غلب اسم المشرق لأنّه أكثر خطورا بالأذهان لتشوّف النفوس إلى إشراق الشمس بعد الإظلام. والمراد: إمّا مكان شروق الشمس وغروبها في الأفق، وإمّا الجهة من الأرض التي تبدو الشمس منها عند شروقها وتغيب منها عند غروبها فيما يلوح لطائفة من سكان الأرض. وعلى الاحتمالين فهو مثل لشدّة البعد.

{ **فَبِئْسَ الْقَرِينُ** } بعد أن تمنَّى مفارقته فرَّع عليه ذمًّا، فالكافر يذمّ شيطانه الذي كان قرينا، ويعرّض بذلك للتفصّي من المؤاخذة، وإلقاء التبعة على الشيطان الذي أضلَّه.
والمقصود من الحكاية تفظيع عواقب هذه المقارنة التي كانت شغف المتقارنين، وكذلك شأن كل مقارنة على عمل سيّء العاقبة، وهذا من قبل قوله تعالى { الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } [67].
والمقصود تحذير الناس من قرين السوء وذمّ الشياطين ليعافهم الناس كقوله تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً } [فاطر:6].

{ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ } [39]

الظاهر أنّ هذه الجملة معطوفة على جملة { قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ } [38]، وأنّ قولا محذوفا دلّ عليه فعل { جَاءَنَا } الدال على أنّ الفريقين حضرا للحساب وتلك الحضرة تؤذن بالمقاولة، فإنّ الفريقين لمّا حضرا وتبرَّأ أحدهما من الآخر قصدا للتفصّي من المؤاخذة، فيقول الله: لن ينفعكم اليوم أنّكم في العذاب مشتركون. والخطاب موجه للذين عشوا عن ذكر الرحمان ولشياطينهم. وهذا كقوله تعالى { رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ} [الأعراف:38].

{ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ } [40]

تفريع على جملة { وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً } [36]، لأنّ ذلك أفاد توغلهم في الضلالة وعسر انفكاكهم عنها، لأنّ مقارنة الشياطين لهم تقتضي ذلك، فانتقل منه إلى التهوين على النبيّ صلى الله عليه وسلم ما يلاقيه من الكدّ والتحرّق عليهم في تصميمهم على الكفر والغيّ، وفيه إيماء إلى تأييس من اهتداء أكثرهم.
{ **أَفَأَنْتَ** } الاستفهام لإنكار أن يكون حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على هداهم ناجعا فيهم إذا كان الله قدّر ضلالهم فأوجد أسبابه، قال تعالى { إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ } [النحل:37].
ولمّا كان حال الرسول صلى الله عليه وسلم في معاودة دعوتهم كحال من يظنّ أنّه قادر على إيصال التذكير إلى قلوبهم نزل منزلة من يظن ذلك فخوطب بالاستفهام المساق ضمن تركيب يفيد القصر وهو قصر قلب.
أي: أنّت لا تسمعهم ولا تهديهم بل الله يسمعهم ويهديهم إن شاء، وهو نظير قوله تعالى { أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [يونس:99].
{ **تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ** } ومن بديع معنى الآية أن الله وصف حال إعراضهم عن الذكر بالعَشَا وهو

النظر الذي لا يتبين شبح الشيء المنظور إليه ثم وصفهم هنا بالصُّم العُمي إشارة إلى أنّ التمحّل للضلال ومحاولة تأييده ينقلب بصاحبه إلى أشد الضلال، والأحوال تنقلب ملكات. وهو معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" لا يزال العبد يكذب ويتحرّى الكذب حتّى يُكتب عند الله كذَّابا "**، أي: حتّى يصبح الكذب ملكة له، فظهرت بذلك المناسبة بين وصفهم بالعشا وبين ما في هذا الانتقال لوصفهم بالصُّم العُمي.

{ **وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** } فيه معنى التذييل لأنّه أعم من كل من الصُّم والعُمي، وباعتبار أنّ الصمم والعمى لمّا كانا مجازين قد يكون تعلقهما بالمسموع والمبصر جزئيا في حالة خاصة، فكان الوصف بالكون في الضلال المبين تنبيها على عموم الأحوال، وهو مع ذلك ترشيح للاستعارة.

{ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ [41] أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ [42] }.

تفريع على الآية السابقة المتضمّنة إيماء إلى التأييس من اهتدائهم، والصريحة في تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم من شدّة الحرص في دعوتهم، فجاء هنا تحقيق وعد بالانتقام منهم، ومعناه: <u>الوعد بإظهار الدين</u> إنّ كان في حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته، <u>ووعيدهم بالعقاب في الدنيا</u> قبل عقاب الآخرة.

فلأجل الوفاء بهذين الغرضين ذكر في هذه الجملة أمران: الانتقام منهم لا محالة، وكون ذلك واقعا في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته.

{ **فَإِمَّا** } الفاء للتفريع و(إمَّا) كلمتان متصلتان أصلهما (إن) الشرطية و(ما) زائدة.

{ **نَذْهَبَنَّ بِكَ** } الذهاب به هنا مستعمل للتوفّي بقرينة قوله تعالى { أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ }، لأنّ الموت مفارقة للأحياء، فالإماتة كالانتقال به.

{ **فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ** } جواب الشرط، واقترن بالفاء لأنّه جملة اسمية، وإنّما صيغ كذلك للدلالة على ثبات الانتقام ودوامه. وقد استعمل { مُنْتَقِمُونَ } للزمان المستقبل استعمال اسم الفاعل في الاستقبال، وهو مجاز شائع مساو للحقيقة والقرينة قوله تعالى { فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ }.

{ **الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ** } الوعد هنا بمعنى الوعيد بقرينة قوله قبله { فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ }، فإنّ الوعد إذا ذكر مفعوله صحّ إطلاقه على الخير والشر، وإذا لم يذكر مفعوله انصرف للخير، وأمّا الوعيد فهو للشر دائما.

وقد أراه الله تعالى الانتقام منهم بقتل صناديدهم يوم بدر.

{ **فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ** } دليل جواب جملة { أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ } المعطوفة على جملة الشرط، لأنّ اقتدار الله عليهم لا يناسب أن يكون معلّقا على إراءته الرسول صلى الله عليه وسلم الانتقام منهم، فالجواب محذوف لا محالة لقصد التهويل. وتقديره: أو إمّا نرينك الذي وعدناهم، وهو الانتقام، تر انتقاما لا يفلتون منه فإنَّا عليهم مقتدرون، أي: مقتدرون الآن، فاسم الفاعل مستعمل في زمان الحال وهو حقيقته.

{ **مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ / عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ** } تقديم المجرورين على متعلقيهما للاهتمام بهما في التمكّن بالانتقام والاقتدار عليهم.

الاقتدار: شدّة القدرة، واقتدر أبلغ من قدر.

المعنى: أنَّا منتقمون منهم في الدنيا سواء كنت حيا أو بعد موتك، أي: فالانتقام منهم من شأننا وليس من شأنك لأنه من أجل إعراضهم عن أمرنا وديننا. ولعل القول لدفع استبطاء النبيّ صلى الله عليه وسلم أو المسلمين تأخير الانتقام من المشركين، ولأن المشركين كانوا يتربّصون بالنبي الموت فيستريحوا من دعوته فأعلمه الله أنّه لا يفلتهم من الانتقام على تقدير موته وقد حكى الله عنهم قولهم { نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ } [الطور:30]. ففي هذا الوعيد إلقاء الرعب في قلوبهم لمّا يسمعونه.

{ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } [43].

لمّا هوَّن الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ما يلاقيه من شدّة الحرص على إيمانهم، ووعده النصر عليهم، فرَّع على ذلك أن أمره بالثبات على دينه وكتابه، وأن لا يخور عزمه في الدعوة ضجرا من تصلّبهم في كفرهم ونفورهم من الحقّ.

الاستمساك: شدّة المسك، فالسين والتاء فيه للتأكيد. والأمر به مستعمل في طلب الدوام، لأنّ الأمر بفعل لمن هو متلبّس به لا يكون لطلب الفعل بل لمعنى آخر، وهو هنا طلب الثبات على التمسّك بما أوحي إليه، كما دلّ عليه قوله تعالى { إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }.

{ **بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ** } هو القرآن.

{ **إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } تأييد لطلب الاستمساك بالذي أوحي إليه وتعليل له.

الصراط المستقيم: هو العمل بالذي أوحي إليه، فكأنّه قيل: إنّه صراط مستقيم، ولكن عدل عن ذلك ليفيد أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم راسخ في الاهتداء إلى مراد الله تعالى. ومثله قوله تعالى { إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ } [النمل:79].

وحرف { **عَلَى** } للاستعلاء المجازي المراد به التمكّن. وهذا تثبيت للرسول صلى الله عليه وسلم وثناء عليه بأنّه ما زاغ قيد أنملة عما بعثه الله به، ويتبعه تثبيت المؤمنين على إيمانهم.

وهذا أيضا ثناء سادس على القرآن.

{ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ } [44]

ذُكر حظّ الرسول صلى الله عليه وسلم من الثناء والتأييد في قوله تعالى { عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } المجعول علّة للأمر بالثبات عليه، ثم عُطف عليه تعليل آخر اشتمل على ذكر حظّ القرآن من المدح والنفع بقوله تعالى { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ } وتشريفه صلى الله عليه وسلم به بقوله تعالى { لَكَ }، وأُتبع بحظ التابعين له ولكتابه من الاهتداء والانتفاع، بقوله تعالى { وَلِقَوْمِكَ }. ثمّ عرّض بالمعرضين عنه والمجازفين له بقوله تعالى { وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ }، مع التوجيه في معنى كلمة { لَذِكْرٌ } من إرادة أنّ هذا الدين يُكسبه ويُكسب قومه حسن السمعة في الأمم، فمن اتَّبعه نال حظّه من ذلك ومن أعرض عنه عُدَّ عِداد الحمقى كما سيأتي، مع الإشارة إلى انتفاع المتبعين به في الآخرة، واستضرار المعرضين عنه فيها، وتحقيق ذلك بحرف الاستقبال.

فهذه الآية اشتملت على عشرة معان.

{ لَذِكْرٌ } <u>يحتمل ذكر العقل</u>، أي: اهتداءه لما كان غير عالم به، فشُبِّه بتذكّر الشيء المنسي.

<u>ويحتمل ذكر اللسان</u>، أي: أنّه يكسبك وقومك ذكرا في العالمين. أي: أن يكسب قومه شرفا يُذكرون بسببه.

وقد روي هذا التفسير عن علي وابن عباس في رواية ابن عدي وابن مردويه.

<u>وهذا ثناء سابع على القرآن</u>.

{ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ } سؤال تقرير. فسؤال المؤمنين عن مقدار العمل بما كلّفوا به، وسؤال المشركين سؤال توبيخ وتهديد، قال تعالى { سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ } [19]، وقال تعالى { أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ- إلى قوله - فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ } [الملك:8-11].

{ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } [45]

الأمر بالسؤال هنا تمثيل لشهرة الخبر وتحققه، كما في قوله تعالى { فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ } [يونس:94]، إذ لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم في شك حتّى يسأل.

{ أَجَعَلْنَا } بدل من جملة { واسْأَلْ }، والهمزة للاستفهام الإنكاري وهو المقصود من الخبر، وهو ردّ عليهم في قولهم { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } [22]، أي: ليس آباؤكم بأهدى من الرسل الأوّلين إن كنتم تزعمون تكذيب رسولنا لأنّه أمركم بإفراد الله بالعبادة. <u>ويجوز</u> أن يكون المعنى: وإنَّا ما أمرنا بعبادة آلهة دوننا على لسان أحد من رسلنا. وهذا رد لقول المشركين { لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [20].

{ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } أجري { آلهة } مجرى العقلاء فوصفوا بصيغة جمع العقلاء { يُعْبَدُونَ }، ومثله كثير في القرآن جريا على ما غلب في لسان العرب إذ اعتقدوهم عقلاء عالمين.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ [46] فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ [47] }.

ذكر الله في أوّل السورة قوله { وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ } [6-8]، وساق بعد ذلك تذكرة بإبراهيم عليه السلام مع قومه، وما تفرَّع على ذلك من أحوال أهل الشرك فلما تقضَّى أُتبع بتنظير حال الرسول صلى الله عليه وسلم مع طغاة قومه واستهزائهم بحال موسى مع فرعون وملئه، فإنّ للمُثل والنظائر شأنا في إبراز الحقائق وتصوير الحالين تصويرا يفضي إلى ترقُّب ما كان لإحدى الحالتين من عواقب أن تلحق أهل الحالة الأخرى.

وكانت مناسبة قوله { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا } [45] قد هيَّأت المقام.

والمقصود من هذه القصة هو قوله فيها { فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ } [56/55]، فإن المراد بالآخرين: المكذِّبون صناديد قريش.

<u>وجاءت المقابلة والمشابهة بين الحالتين من خلال:</u>

*/ قوله تعال { وملئه }، أي: عظماء قومه، فإنّ ذلك شبيه بحال أبي جهل وأضرابه.

*/ قوله تعالى { فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ }، لأنّ حالهم في ذلك مشابه لحال قريش الذي أشار إليه قوله تعالى { وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [7/6].

*/ قوله تعالى { أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ } [52]، لأنّهم أشبهوا بذلك حال أبي جهل ونحوه في قولهم { لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [31]، إلا أنّ كلمة سادة قريش كانت أقرب إلى الأدب من كلمة فرعون، لأنّ هؤلاء كان رسولهم من قومهم فلم يتركوا جانب الحياء بالمرة وفرعون كان رسوله غريبا عنهم.

*/ قوله تعالى { فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ } [53]، لأنّه مشابه لما تضمّنه قول صناديد قريش { عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [31]، فإنّ عظمة ذينك الرجلين كانت بوفرة المال، ولذلك لم يذكر مثله في غير هذه القصة من قصص بعثة موسى عليه السلام،

*/ قوله تعالى على لسانهم { يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ } [49]، وهو مضاه لقوله في قريش { هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ } [30].

*/ قوله تعالى { فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ } [55]، الدال على أنّ الله أهلكهم كلّهم، وذلك إنذار بما حصل من استئصال صناديد قريش يوم بدر.

فحصل من العبرة بهذه القصة أمران:

أحدهما: أنّ الكفار والجهلة يتمسَّكون بمثل هذه الشبهة في رد فضل الفضلاء فيتمسّكون بالأمور العرضية التي لا أثر لها في قيمة النفوس الزكية.

ثانيهما: أنّ فرعون صاحب العظمة الدنيوية المحضة صار مقهورا مغلوبا انتصر عليه الذي استضعفه.

{ **إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ** } حرف المفاجأة (إذا)، يدلّ على أنّ ما بعده حصل من غير ترقّب، فتفتتح به الجملة التي يفاد منها حصول حادث على وجه المفاجأة.

الضحك: كناية عن الاستخفاف بالآيات والتكذيب، فلا يتعيَّن أن يكون كلّ الحاضرين صدر منهم ضحك، ولا أنّ ذلك وقع عند رؤية آية، إذ لعلّ بعضها لا يقتضي الضحك.

{ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [48].

الأظهر أنّ الجملة في موضع الحال. والمعنى: أنّهم يستخفّون بالآيات التي جاء بها موسى في حال أنّها آيات كبيرة وعظيمة، فإنّما يستخفّون بها لمكابرتهم وعنادهم.

{ **وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ** } صيغة المضارع لاستحضار الحالة.

{ **إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا** } الراجح أن يراد به أنّ كلّ آية تأتي تكون أعظم من التي قبلها، فيكون هنالك صفة محذوفة لدلالة المقام، أي: من أختها السابقة. وهذا يستلزم أن تكون الآيات مترتّبة في العظم بحسب تأخّر أوقات ظهورها، لأنّ الإتيان بآية بعد أخرى ناشئ عن عدم الارتداع من الآية السابقة.

{ **وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } عطف على جملة { وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ } لأنّ العذاب كان من الآيات.

الأخذ: الإصابة.

العذاب: عذاب الدنيا، وهو ما يؤلم ويشق، وذلك القحط، والقمل، والطوفان، والضفادع، والدم في الماء.

أي: ابتدأناهم بالعذاب قبل الاستئصال لعل ذلك يُفيقهم من غفلتهم، وفي هذا تعريض بأهل مكّة.

الرجوع: مستعار للإذعان والاعتراف.

{ **نُرِيهِمْ / أَخَذْنَاهُمْ / لَعَلَّهُمْ** } ضمائر الغيبة عائدة إلى فرعون وملئه.

{ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ } [49].

عطف على { وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ }، والمعنى: ولمّا أخذناهم بالعذاب سألوه أن يدعو الله بكشف العذاب عنهم.

{ **يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ** } مخاطبة تعظيم تزلّفا إليه، لأنّ الساحر عندهم كان هو العالم، ألا ترى إلى قول ملأ

فرعون له { وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ } [الشعراء:37/36].
وكان السحر بأيدي الكهنة، ومن مظاهره تحنيط الموتى.
وفي [الأعراف:134] { قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ } ولا تنافي ما هنا لأنّ الخطاب خطاب إلحاح فهو يتكرّر ويعاد بطرق مختلفة.
{ **رَبَّكَ** } عنوا به الذي دعاهم موسى إلى عبادته. والقبط كانوا يحسبون أنّ لكلّ أمّة ربًّا، ولا يحيلون تعدّد الآلهة، وكانت لهم أرباب كثيرون مختلفة أعمالهم وقدرهم. ومثل ذلك كانت عقائد اليونان.
{ **بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ** } ما خصّك بعلمه دون غيرك ممّا استطعت به أن تأتي بخوارق العادة. وكانوا يحسبون أنّ تلك الآيات معلولة لعلل خفية قياسا على معارفهم بخصائص بعض الأشياء التي لا تعرفها العامة، وكان الكهنة يعهدون بها إلى تلامذتهم ويوصونهم بالكتمان.
العهد: هو الائتمان على أمر مهم، وليس مرادهم به النبوّة لأنّهم لم يؤمنوا به.
{ **إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ** } جواب لكلام مقدّر دلّ عليه { ادْعُ لَنَا رَبَّكَ }، أي: فإن دعوت لنا وكشفت عنا العذاب لنؤمننّ لك، كما في قوله تعالى { لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ } [الأعراف:134].

{ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ } [50]

أي تفرَّع على تضرّعهم ووعدهم بالاهتداء إذا كُشف عنهم العذاب أنّهم نكثوا الوعد.
النكث: نقض الحبل المبرم، وتقدّم في قوله تعالى { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ} [الأعراف:135]، وهو مجاز في الخيس بالعهد.
والكلام على تركيب هذه الجملة مثل الكلام على قوله آنفا { فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ } [47].

{ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ } [51].

لمّا كُشف عنهم العذاب بدعوة موسى، وأضمر فرعون وملؤه نكث الوعد الذي وعدوه موسى بأنّهم يهتدون، خشي فرعون أن يتبع قومه دعوة موسى ويؤمنوا برسالته فأعلن في قومه تذكيرهم بعظمة نفسه ليثبّتهم على طاعته، ولئلا يُنقل إليهم ما سأله من موسى وما حصل من دعوته بكشف العذاب، وليحسبوا أنّ ارتفاع العذاب أمر اتفاقي، إذ قومه لم يطّلعوا على ما دار بينه وبين موسى من سؤال كشف العذاب.
النداء: رفع الصوت، وإسناده إلى فرعون مجاز عقلي، لأنّه الذي أمر بالنداء في قومه.

{ **فِرْعَوْنُ** } هو منفتاح الثاني.
الأنهار: فروع النيل وتُرعه، لأنّها لعظمها جُعل كلّ واحد منها مثل نهر، وإنّما هي لنهر واحد هو النيل.
{ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِي** } يحتمل أن يكون ادعى أن النيل يجري بأمره، فيكون { مِنْ تَحْتِي } كناية عن التسخير. يقول الناس: دخلت البلدة الفلانية تحت الملك فلان، ويحتمل أنّه أراد أنّ النيل يجري في مملكته.
{ **أَفَلا تُبْصِرُونَ** } استفهام تقريري، جاء التقرير على النفي تحقيقا لإقرارهم.

{ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ } [52]

انتقل من تعظيم شأن نفسه إلى تصغير شأن موسى في نفوسهم. واسم الإشارة لغاية التحقير.
المَهين: (بفتح الميم) الذليل الضعيف، أراد أنّه غريب ليس من أهل بيوت الشرف، وليس له أهل يعتزّ بهم.
{ **وَلا يَكَادُ يُبِينُ** } أشار إلى ما كان في منطق موسى من الحبُسة، كما أشار إليه قوله تعالى { وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي } [طه:28/27]. وقد أزال الله عنه ذلك حين تفرّغ لدعوة بني إسرائيل، كما دلّ عليه قوله تعالى { قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى } [طه:36].
ولعلّ فرعون قال ذلك لِماعلم من حال موسى قبل أن يرسله الله حين كان في بيت فرعون، فذكر ذلك ليذكّر الناس بأمر قديم، فإنّ فرعون الذي بُعث موسى في زمنه هو منفتاح الثاني وهو ابن رمسيس الثاني الذي ولد موسى في أيامه وربِّي عنده، وهذا يقتضي أنّ منفتاح كان يعرف موسى، ولذلك قال له { قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ } [الشعراء:18].

{ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ } [53]

لمّا تضمّن وصفُه موسى بمَهين ولا يكاد يبين أنّه مكذِّب له دعواه الرسالة عن الله فرَّع عليه هذا القول ترقِّيا في إحالة كونه رسولا من الله، وفرعون لجهله أو تجاهله يُخيِّل لقومه أنّ للرسالة شعارا كشعار الملوك.
{ **فَلَوْلا** } الفاء للتفريع و(لولا) حرف تحضيض مستعمل في التعجيز مثل ما في قوله { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [31].
الإلقاء: الرمي، وهو مستعمل هنا في الإنزال، أي: هلا ألقي عليه من السماء أساورة من ذهب.
أي: سوَّره الرب بها ليجعله ملكا على الأمة.
{ **أَسْوِرَةٌ** } جمع أسوار لغة في سوار: حلقة عريضة من ذهب أو فضة تحيط بالرسغ، وهو عند معظم الأمم من حلية النساء. وقرأ الجمهور { أَسَاوِرَةٌ } ، وقرأ حفص عن عاصم ويعقوب { أَسْوِرَةٌ }

وكان السوار من شعار الملوك بفارس ومصر يلبس الملك سوارين. وقد كان من شعار الفراعنة لبس سوارين أو أسورة من ذهب وربما جعلوا سوارين على الرسغين وآخرين على العضدين. فلمّا تخيَّل فرعون أنّ رتبة الرسالة مثل الملك حسب افتقادها أمارة على انتفاء الرسالة.

{ **أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ** } (أو) هنا للترديد، أي: إن لم تلق عليه أساورة من ذهب فلتجئ معه طوائف من الملائكة شاهدين له بالرسالة. ولعلّ فرعون ذكر الملائكة مجاراة لموسى، إذ لعله سمع منه أنّ لله ملائكة أو نحو ذلك، فأراد إفحامه بأن يأتي معه بالملائكة الذين يظهرون له.

{ **مُقْتَرِنِينَ** } حال من { الملائكة } مؤكِّدة لمعنى { مَعَهُ }.

{ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ } [54]

أي: فتفرَّع عن نداء فرعون قومه أن أثَّر بتمويهه في نفوس ملئه فعجَّلوا بطاعته بعد أن كانوا متهيئين لاتباع موسى لمَّا رأوا الآيات. فالخفَّة مستعارة للانتقال من حالة التأمّل في خلع طاعة فرعون والتثاقل في اتباعه إلى التعجيل بالامتثال له. والمعنى يرجع إلى أنَّه استخفّ عقولهم فأسرعوا إلى التصديق بما قاله بعد أن صدَّقوا موسى في نفوسهم لمَّا رأوا آياته نزولا ورفعا.

{ **فَاسْتَخَفَّ** } السين والتاء للمبالغة في أخفّ، مثل قوله تعالى {إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ} [آل عمران:155].

{ **قَوْمَهُ** } هنا بعض القوم، وهم الذين حضروا مجلس دعوة موسى، وهم ملأ فرعون.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ** } في موضع العلّة لجملة { فَأَطَاعُوهُ }، كما هو شأن (إنَّ) إذا جاءت في غير مقام التأكيد، فإنّ كونهم قد كانوا فاسقين أمر بَيّنٌ.

فاسقين: كافرين، كما قال في شأنهم في قوله تعالى { سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } [الأعراف:145].

{ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ [55] فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ [56] }.

عُقِّب ما مضى من القصة بالمقصود منها وهو هذه الأمور الثلاثة المترتِّبة المتفرِّع بعضها على بعض وهي: الانتقام، فالإغراق، فالاعتبار بهم في الأمم بعدهم.

الأسف: الغضب المشوب بحزن وكدر، وأطلق على صنيع فرعون وقومه فعل { آسَفُونَا } لأنّه فعل يترتّب عليه انتقام الله منهم انتقاما كانتقام الآسف، لأنّهم عصوا رسوله وصمّموا على شركهم بعد ظهور الآيات.

والله يستحيل عليه أن يتّصف بالآسف كما يستحيل عليه أن يتصف بالغضب على الحقيقة، فاستعير {آسَفُونَا} لمعنى عصونا للمشابهة.

الانتقام: تقدّم معناه قريبا عند قوله تعالى { فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ } [41].
{ **فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ** } عطف بالفاء على { انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ } مع أنّ إغراقهم هو عين الانتقام منهم؛
إمّا لانّ فعل { انْتَقَمْنَا } مؤوّل بقدّرنا الانتقام منهم، فيكون عطف { فَأَغْرَقْنَاهُمْ } بالفاء كالعطف في قوله تعالى { أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس:82].
وإمّا أن تكون جملة { فَأَغْرَقْنَاهُمْ } مبيّنة لجملة { انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ }، فزيدت الفاء لتأكيد معنى التبيين.
وتقدم نظير هذا عند قوله تعالى { فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ } [الأعراف:136].
{ **فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ** } فُرّع على إغراقهم أنّ الله جعلهم سلفا لقوم آخرين، أي: يأتون بعدهم.
السَلَف: (بفتح السين وفتح اللام) في قراءة الجمهور: جمع سالف مثل: حرس لحارس. والسالف الذي يسبق غيره في الوجود أو في عمل أو مكان.
ولما ذُكر الانتقام كان المراد بالسلف هنا السالف في الانتقام، أي: أنّ من بعدهم سيلقون مثل ما لقوا.
المَثَل: النظير والمشابه، يقال: مَثَل بفتحتين كما يقال شَبَه، أي: مماثل. قال أبو علي الفارسي: المثل واحد يراد به الجمع. وأطلق المثل على لازمه على سبيل الكناية، أي: جعلناهم عبرة للآخرين، يعلمون أنّهم إن عملوا مثل عملهم أصابهم مثل ما أصابهم. ويجوز أن يكون المثل هنا بمعنى الحديث عجيب الشأن الذي يسير بين الناس مسير الأمثال، أي: جعلناهم للآخرين حديثا يتحدَّثون به ويعظهم به محدِّثهم.
{ **لِلْآخِرِينَ** } الناس الذين هم آخر مماثل لهم في حين هذا الكلام، فتعيَّن أنّهم المشركون المكذِّبون للرسول صلى الله عليه وسلم، فإنَّ هؤلاء هم آخر الأمم المشابهة لقوم فرعون في عبادة الأصنام وتكذيب الرسول.
والمقصد: فجعلناهم سلفا لكم ومثلا لكم فاتعظوا بذلك.

{ **وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ [57] وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ [58]** }.
عطف قصة من أقاصيص كفرهم وعنادهم على ما مضى من حكاية أقاويلهم، جرت في مجادلة منهم مع النبيّ صلى الله عليه وسلم. وهذا تصدير وتمهيد بين يدي قوله تعالى { وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ } [63]، الذي هو المقصود من عطف هذا الكلام على ذكر رسالة موسى عليه السلام.
ففي هذه الآية إجمال يُبيّنه ما يعرفه النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنون من جدل جرى مع المشركين، ويزيده بيانا قوله { إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائيلَ } [59].

وهذه الآية من أخفى آي القرآن معنى مرادا.

والذي جرى عليه أكثر المفسّرين أنّ سبب نزولها الإشارة إلى ما تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ } [الأنبياء:98]، إذ قال عبد الله بن الزِبَعْرَى قبل إسلامه للنبيّ صلى الله عليه وسلم: أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم "**، قال: خصمتك وربّ الكعبة، ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبيّ وقد عبدته النصارى فإن كان عيسى في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه، ففرح بكلامه من حضر من المشركين وضجّ أهل مكة بذلك فأنزل الله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ } [الأنبياء:101]، ونزلت هذه الآية تشير إلى لجاجهم.

وهذا يتلاءم مع بناء فعل { ضُرِبَ } للمجهول، لأنّ الذي جعل عيسى مثلا لمجادلته هو عبد الله بن الزبعرى، وليس من عادة القرآن تسمية أمثاله، ولو كان المثل مضروبا في القرآن لقال: ولمّا ضربنا ابن مريم مثلا، ويتلاءم مع تعدية فعل { يَصِدُّونَ } بحرف (من) الابتدائية دون حرف (عن)، ومع قوله { مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ }، لأنّ الظاهر أنّ ضمير النصب في { ضَرَبُوهُ } عائد إلى ابن مريم.

والمراد بـ { مَثَلاً } على هذا المُمَثَّل به والمشبَّه به، لأنّ ابن الزبعري نظَّر آلهتهم بعيسى في أنّها عُبدت من دون الله مِثْله، فإذا كانوا في النار كان عيسى كذلك.

ولا يُناكد هذا الوجهَ إلّا ما جرى عليه عَدُّ السور في ترتيب النزول من عدّ سورة الأنبياء التي كانت آيتها سبب المجادلة متأخرة في النزول عن سورة الزخرف. فيجب أن تكون سابقة حتّى تكون هذه الآية مُذكِّرة بالقصة التي كانت سبب نزول سورة الأنبياء.

وليس ترتيب النزول بمتّفق عليه ولا بمحقّق السند فهو يقبل منه ما لا معارض له. على أنّه قد تنزل الآية ثم تلحق بسورة نزلت قبلها.

فإذا رجح أن تكون سورة الأنبياء نزلت قبل سورة الزخرف كان الجواب القاطع، ويكون الجواب المذكور هنا بقوله تعالى { مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً } جوابا إجماليا، أي: ما أرادوا به إلّا التمويه.

والمقام هنا مقام إجمال لأن هذه الآية إشارة وتذكير إلى ما سبق من الحادثة حين نزول آية سورة الأنبياء.

{ يَصِدُّونَ } قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب { يَصِدُّونَ } (بكسر الصاد) وهو **الصِدُّ** بمعنى الضجيج والصخب. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر وخلف {يَصُدُّونَ } (بضم الصاد) من **الصدود**، إمّا بمعنى الإعراض، والمعرض عنه محذوف لظهوره من المقام، أي: يعرضون عن القرآن لأنّهم أوهموا بجدلهم أنّ في القرآن تناقضا، وإمّا على أنّ الضم لغة في مضارع صَدَّ بمعنى ضجّ.

والمعنى: إذا قريش قومك يصخبون ويضجّون من احتجاج ابن الزبعرى بالمثل بعيسى في قوله، معجَبين بفلجه وظهور حجّته، لضعف إدراكهم لمراتب الاحتجاج.

{ **قَوْمِكَ** } التعبير عن قريش بذلك للتعجيب منهم كيف فرحوا من تغلّب ابن الزبعرى على النبيّ صلى الله عليه وسلم بزعمهم في أمر عيسى عليه السلام، أي: مع أنّهم قومك وليسوا قوم عيسى ولا أتباع دينه فكان فرحهم ظلما من ذوي القربى.

{ **وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ** } تلقّفوها من فم ابن الزبعرى حين قالها للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأعادوها. فهذا حكاية لقول ابن الزبعرى: إنّك تزعم أنّ عيسى نبيّ وقد عبدته النصارى فإن كان عيسى في النار قد رضينا أن نكون وآلهتنا في النار.

والاستفهام تقريري للعلم بأنّ النبيّ يفضل عيسى على آلهتهم.

{ **مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً** } ضمير الرفع في {مَا ضَرَبُوهُ } عائد إلى ابن الزبعرى وقومه الذين أعجبوا بكلامه وقالوا بموجبه. وضمير النصب الغائب يجوز أن يكون عائدا إلى { مَثَلاً }، أي: ما ضربوا لك ذلك المثل إلّا جدلا منهم، أي محاجّة وإفحاما لك، وليسوا بمعتقدين هون أمر آلهتهم عندهم، ولا بطالبين الميز بين الحقّ والباطل، فإنّهم لا يعتقدون أنّ عيسى خير من آلهتهم ولكنّهم أرادوا مجاراة النبيّ في قوله ليفضوا إلى إلزامه بما أرادوه من المناقضة.

{ **إِلَّا جَدَلًا** } الاستثناء مفرَّع للمفعول لأجله أو للحال، فيجوز أن ينصب على المفعول لأجله، أي: ما ضربوه لشيء إلّا للجدل، ويجوز أن ينصب على الحال بتأويله: بمجادلين، أي: ما ضربوه في حال من أحوالهم إلّا في حال أنَّهم مجادلون لا مؤمنون بذلك.

{ **بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** } إضراب انتقالي إلى وصفهم بحب الخصام وإظهارهم من الحجج ما لا يعتقدونه تمويها على عامتهم.

الخَصِم (بكسر الصاد): شديد التمسّك بالخصومة واللجاج مع ظهور الحق عنده.

{ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائيلَ } [59].

لما ذُكر ما يشير إلى قصّة جدال ابن الزِبَعْرَى في قوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ } [الانبياء:98]، وكان سبب جداله هو أنّ عيسى قد عُبد من دون الله، لم يُترك الكلام ينقضي دون أن يُردف بتقرير عبودية عيسى لهذه المناسبة، إظهارا لخطل رأي الذين ادّعوا إلهيته وعبدوه، وهم النصارى، حرصا على الاستدلال للحق.

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ** } قصر القلب للردّ على الذين زعموه إلها، أي: ما هو إلّا عبد، أي: مخلوق خاضع لله.

{ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ } إشارة إلى أنّه قد فُضِّل بنعمة الرسالة، أي: فليست له خصوصية مزيّة على بقية الرسل، وليس تكوينه بدون أب إلّا معجزة كبقية معجزاته وكمعجزات الأنبياء.

{ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائيلَ } إبطال لشبهة الذين ألّهوه بتوهُّمهم أنّ كونه خُلق بكلمة من الله يفيد أنّه جزء من الله، فهو حقيق بالإلهية. أي: كان خلقه في بطن أمّه دون أن يقربها ذكر عبرة عجيبة في بني إسرائيل، لأنّهم كانوا قد ضعف إيمانهم بالغيب وبعد عهدهم بإرسال الرسل فبعث الله عيسى مجدِّدا للإيمان بينهم، ومُبرهنا بمعجزاته على عظم قدرة الله، ومعيدا لتشريف الله بني إسرائيل، إذ جعل فيهم أنبياء ليكون ذلك سببا لقوة الإيمان فيهم، ومُظْهِرًا لفضيلة أهل الفضل الذين آمنوا به، ولعناد الذين منعهم الحرص عن منافعهم من الاعتراف بمعجزاته فناصبوه العداء وسعوا للتنكيل به وقتله فعصمه الله منهم ورفعه من بينهم، فاهتدى به أقوام وافتتن به آخرون.

{ مَثَلاً } هنا بمعنى العبرة، كالذي في قوله آنفا { فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ } [56].

{ لِبَنِي إِسْرائيلَ } إشارة إلى أنّ عيسى لم يُبعث إلّا إلى بني إسرائيل وأنّه لم يدعُ غير بني إسرائيل إلى اتباع دينه، ومن اتبعوه من غير بني إسرائيل في العصور اللاحقة فإنّما تقلّدوا دعوته لأنّها تنقذهم من ظلمات الشرك والوثنيّة.

{ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ } [60]

لمَّا أشارت الآية السابقة إلى إبطال ضلالة الذين زعموا عيسى عليه السلام ابنا لله تعالى، من قصرِه على كونه عبدا لله أنعم الله عليه بالرسالة وأنّه عبرة لبني إسرائيل عُقِّب ذلك بإبطال ما يماثل تلك الضلالة، وهي ضلالة بعض المشركين في ادعاء بنوّة الملائكة لله تعالى المتقدّم حكايتها في قوله تعالى { وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً } [15]، فأشير إلى أنّ الملائكة عباد لله تعالى جُعل مكانهم العوالم العليا، وأنّه لو شاء لجعلهم من سكان الأرض بدلا عن الناس. فليس تشريف الله إيّاهم بسكنى العوالم العليا بموجب بنوّتهم لله ولا بمقتض لهم إلهية، كما لم يكن تشريف عيسى بنعمة الرسالة ولا تمييزه بالتكوّن من دون أب مقتضيا له إلهية، وإنّما هو بجعل الله وخلقه.

{ مِنْكُمْ } أفادت (من) هنا البدلية والعِوَض كالتي في قوله { أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ } [التوبة:38]. والمجرور متعلق بـ { لَجَعَلْنَا }، وقُدِّم على مفعول الفعل للاهتمام بمعنى هذه البدلية.

{ فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ } بيان لمضمون شبه الجملة إلى قوله { منكم }، وحذف مفعول { يَخْلُفُونَ } لدلالة {مِنْكُمْ} عليه، وتقديم هذا المجرور للاهتمام بما هو أدلّ على كون الجملة بيانا لمضمون { مِنْكُمْ } .

وهذا هو الوجه في معنى الآية وعليه درج المحقّقون.

{ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } [61].

الأظهر أنّ هذا عطف على جملة { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ } [44]، ويكون ما بينهما مستطردات واعتراضا اقتضته المناسبة. لمّا أُشبع مقام إبطال إلهية غير الله بدلائل الوحدانية ثُني العِنان إلى إثبات أنّ القرآن حقّ، عودا على بدء. وهذا كلام موجه من جانب الله تعالى إلى المنكرين يوم البعث، ويجوز أن يكون من كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ } ضمير المذكّر الغائب مراد به **القرآن**، وبذلك فسّره الحسن وقتادة وسعيد بن جبير فيكون هذا ثناء ثامنا على القرآن.

فالثناء على القرآن استمر متّصلا من أوّل السورة، آخذا بعضه بحُجز بعض، متخلّلا بالمعترضات والمستطردات، ومتخلّصا إلى هذا الثناء الأخير بأنّ القرآن أعلم الناس بوقوع الساعة.

ويفسّره ما تقدّم من قوله تعالى { بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ } [43]، ويبيّنه قوله تعالى هنا { هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ }.

على أنّ ورود مثل هذا الضمير في القرآن مرادا به القرآن كثير معلوم من غير معاد فضلا على وجود معاد.

والمعنى: أنّ القرآن جاء بالدين الخاتم للشرائع فلم يبق بعد مجيء القرآن إلّا انتظار انتهاء العالم. وهذا معنى ما روي من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " **بُعثت أنا والساعة كهاتين** "، وقرن بين السبابة والوسطى مشيرا إليهما، والمشابهة في عدم الفصل بينهما.

وإسناد { لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ } إلى ضمير القرآن إسناد مجازي لأنّ القرآن سبب العلم بوقوع الساعة إذ فيه الدلائل المتنوّعة على إمكان البعث ووقوعه. ويجوز أن يكون إطلاق { لَعِلْمٌ } بمعنى المُعْلِم للمبالغة في الفعل.

{ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا } تفريع ناسب هذا المجاز أو المبالغة، لأنّ القرآن لم يُبق لأحد مرية في أنّ البعث واقع.

وعدي فعل { فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا } بالباء لتضمينه معنى: لا تُكذّبنّ بها، أو الباء بمعنى (في) الظرفية.

وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنّ الضمير لعيسى، وتأوّلوه بأنّ نزول عيسى علامة الساعة، أي: سبب علم بالساعة، أي: بقربها، وهو تأويل بعيد، فإنّ تقدير مضاف وهو (نزول) لا دليل عليه ويناكده إظهار اسم عيسى في قوله { وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى }.

{ وَاتَّبِعُونِ } يجوز أن يكون ضمير المتكلّم عائدا إلى الله تعالى، أي: اتبعوا ما أرسلت إليكم من كلامي ورسولي، جريا على غالب الضمائر من أوّل السورة كما تقدّم. فالمراد باتباع الله: اتباع أمره ونهيه وإرشاده الوارد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويكون هذا كقوله في سورة الشورى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } [الشورى:52/53].

ويجوز أن يكون عائدا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتقدير: وقل اتبعون، ومثله في القرآن كثير.

{ **هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** } الإشارة للقرآن المتقدّم ذكره في قوله تعالى { وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ }، أو الإشارة إلى ما هو حاضر في الأذهان ممّا نزل من القرآن، أو الإشارة إلى دين الإسلام المعلوم من المقام، كقوله تعالى { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ } [الأنعام: 153].

{ وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } [62].

لمّا أُبلغت أسماعهم أفانين المواعظ والأوامر والنواهي، وجرى في خلال ذلك تحذيرهم من الإصرار على الإعراض عن القرآن، وإعلامهم بأنّ ذلك يُفضي بهم إلى مقارنة الشيطان، وأخذ ذلك حظه من البيان، انتقل الكلام إلى نهيهم عن أن يحصل صدّ الشيطان إيّاهم عن هذا الدين والقرآن الذي دُعوا إلى اتباعه بقوله تعالى { وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } [61] تنبيها على أنّ الصُدود عن هذا الدين من وسوسة الشيطان، وتذكيرا بعداوة الشيطان للإنسان عداوة قوية لا يفارقها الدفع بالناس إلى مساوي الأعمال ليوقعهم في العذاب تشفّيا.
{ **إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** } تعليل للنهي عن أن يصدّهم الشيطان، فإنّ شأن العاقل أن يحذر من مكائد عدوّه وعداوة الشيطان للبشر ناشئة من خبث كينونته مع ما أنضم إلى ذلك الخبث من تنافي العنصرين.
وحرف (إنّ) هنا موقعة موقع فاء التسبب في إفادة التعليل.

{ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [63] إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [64] }.

قد علمت آنفا أنّ هذا هو المقصود من ذكر عيسى عليه السلام فهو عطف على قصة إرسال موسى.
{ **وَلَمَّا** } جوابه محذوف لدلالة بقية الكلام عليه، وموقعه هنا أنّ مجيء عيسى بالبيّنات صار معلوما للسامع ممّا تقدم في قوله تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائيلَ } [59].
أي: لمّا جاءهم عيسى اختلف الأحزاب فيما جاء به. وهذا يفيد أنّ سنن الأمم المبعوث إليهم الرسل لم تختلف فإنّه لم يخل رسول عن قوم آمنوا به وقوم كذّبوه، ثم كانوا سواء في نسبة الشركاء في الإلهية.
فتم التشابه بين الرسل السابقين وبين محمد صلى الله عليهم. فحصل في الكلام إيجاز تدلّ عليه فاء التفريع.
وفي قصة عيسى مع قومه تنبيه على أنّ الإشراك من عوارض أهل الضلالة لا يلبث أن يخامر نفوسهم وإن لم يكن عالقا بها من قبل، فإنّ عيسى بُعث إلى قوم لم يكونوا يدينون بالشرك، إذ هو قد بُعث لبني إسرائيل وكلّهم موحّدون فلمّا اختلف أتباعه بينهم وكذّبت به فرق وصدّقه فريق، ثمّ لم يتّبعوا ما أمرهم به، لم يلبثوا أن حدثت فيهم نحلة الإشراك.

{ **قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ** } مبيّنة لجملة { جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ } وليست جوابا لشرط (لمّا). وفي البيان إيماء إلى أنّه بادأهم بهذا القول، أي: لم يدعُهم عيسى إلى أكثر من اتباع الحكمة وبيان المختلف فيه، ولم يدعُهم إلى ما ينافي أصول شريعة التوراة، ومع ذلك لم يخل حاله من صدود مريع عنه وتكذيب. ولم يُذكر في هذه الآية قوله المحكي في آية [آل عمران:50] { وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ } لأنّ ذلك قد قاله في مقام آخر. وابتداؤه بإعلامهم أنّه جاءهم بالحكمة والبيان، وهو إجمال حال رسالته، ترغيب لهم في تأمّل ما سيلقيه إليهم من تفاصيل الدعوة.

الحكمة: هي معرفة ما يؤدي إلى الحسن ويكف عن القبيح، وهي هنا النبوّة، وتقدم عند قوله تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة: 269]. وقد جاء عيسى بتعليمهم حقائق من الأخلاق الفاضلة والمواعظ.

{ **وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ** } تعليل، عطف على { بِالْحِكْمَةِ } لأنّ كليهما متعلق بـ { جِئْتُكُمْ }.

التبيين: تجلية المعاني الخفيّة لغموض أو سوء تأويل.

{ **بعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ** } إمّا لأنّ الله أعلمه بأنّ المصلحة لم تتعلّق ببيان كلّ ما اختلفوا فيه بل يقتصر على البعض ثم يكمِّل بيان الباقي على لسان رسول يأتي من بعده يُبيِّن جميع ما يحتاج إلى البيان.

وإمّا لأنّ ما أوحي إليه من البيان غير شامل لجميع ما هم مختلفون في حكمه وهو ينتظر بيانه من بعد تدريجا في التشريع، كما وقع في تدريج تحريم الخمر في الإسلام.

وقيل: ما كان الاختلاف فيه راجعا إلى أحكام الدين دون ما كان من الاختلاف في أمور الدنيا.

والمقصود حكاية ما قاله لهم ممّا ليس شأنه أن يثير عليه قومه بالتكذيب، فهم كذّبوه في وقت لم يذكر لهم فيه أنّه جاء بنسخ بعض الأحكام من التوراة، أي: كذّبوه في حال ظهور آيات صدقه بالمعجزات وفي حال انتفاء ما من شأنه أن يثير عليه شكا.

والآية دليل على جواز تأخير البيان فيما له ظاهر وفي ما يرجع إلى البيان بالنسخ، والمسألة من أصول الفقه

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** } تفريع، كلام جامع لتفاصيل الحكمة وبيان ما يختلفون فيه، فإنّ التقوى مخافة الله.

{ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ** } تعليل للجملة السابقة، لأنّه إذا ثبت تفرّده بالربوبية توجّه الأمر بعبادته، إذ لا يخاف الله إلّا من اعترف بربوبيته وانفراده بها.

{ إنّ } حرف التأكيد لمزيد الاهتمام بالخبر، فإنّ المخاطبين غير منكرين ذلك.

{ **هُوَ رَبِّي** } ضمير الفصل أفاد القصر، أي: الله ربي لا غيره. وهذا إعلان بالوحدانية، وإن كان القوم الذين أرسل إليهم عيسى موحّدين، لكن قد ظهرت بدعة في بعض فرقهم الذين قالوا: عزير ابن الله.

{ **رَبِّي وَرَبُّكُمْ** } تقديم نفسه بذلك لقصد سد ذرائع الغلو في تقديسه، وذلك من معجزاته، لأنّ الله علم أنّه ستغلو فيه فرق فيزعمون بنوّته على الحقيقة، ويضِلون بكلمات الإنجيل التي منها قوله: أبي، مريدا به الله تعالى.

{ **فَاعْبُدُوهُ** } فرّع على إثبات التوحيد لله الأمر بعبادته، فإنّ المنفرد بالإلهية حقيق بأن يعبد.
{ **هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** } إشارة إلى مضمون قوله تعالى { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ }، أي: هذا طريق الوصول إلى الفوز عن بصيرة ودون تردّد.

{ **فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ** } [65].

هذا التفريع هو المقصود من سوق القصة مساق التنظير بين أحوال الرسل، أي: عقب دعوته اختلاف الأحزاب من بين الأمّة الذين بُعث إليهم، والذين تقلّدوا ملته طلبا للاهتداء.
وهذا التفريع دليل على جواب { **وَلَمَّا** جَاءَ عِيسَى } [63] المحذوف.
{ **فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ** } الفاء هنا مستعملة في حقيقة التعقيب ومجازه، فالمجاز لتشبيه مفاجأة طرو الاختلاف بين أتباعه مع وجود الشريعة المانعة من مثله كأنّه حدث عقب بعثة عيسى وإن كان بينه وبينها زمان طويل دبت فيه بدعتهم. واستعمال اللفظ في حقيقته ومجازه شائع لأنّ المدار على أن تكون قرينة المجاز مانعة من إرادة المعنى الحقيقي وحده على التحقيق.
{ **مِنْ بَيْنِهِمْ** } الضمير مراد به الذين جاءهم عيسى، لأنّهم معلومون من سياق القصة، وهم اليهود.
أي: فمنهم من صدّق عيسى وهم: يحيى بن زكريا ومريم أم عيسى والحواريون الاثنا عشر وبعض نساء مثل مريم المجدلية ونفر قليل، وكفر به جمهور اليهود وأحبارهم، وكان ما كان من تألّب اليهود عليه حتّى رفعه الله. ثم انتشر الحواريون يدعون إلى شريعة عيسى فاتّبعهم أقوام في بلاد رومية وبلاد اليونان، ولم يلبثوا أن اختلفوا من بينهم في أصول الديانة فتفرّقوا ثلاث فرق: (**نسطورية – يعاقبة - مَلْكانية**).
قالت النسطورية: عيسى ابن الله.
قالت اليعاقبة: عيسى هو الله، أي: بطريق الحلول.
قالت الملكانية (الكاثوليك): عيسى ثالث ثلاثة مجموعها هو الإله، وتلك هي: الأب: الله ، والابن: عيسى، وروح القدس: جبريل، فالإله عندهم أقانيم ثلاثة.
وهذا الاختلاف أجمل هنا ووقع تفصيله في آيات كثيرة تتعلّق بما تلقّى به اليهود دعوة عيسى، وآيات تتعلق بما أحدثه النصارى في دين عيسى من زعم بنوّته من الله وإلهيته.
{ **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ** } فُرّع على ذكر الاختلاف تهديد بوعيد للذين ظلموا بالعذاب يوم القيامة، تفريع التذييل على المذيّل، فالذين ظلموا يشمل جميع الذين أشركوا مع الله غيره في الإلهية.
فيشمل عموم هذا التذييل مشركي العرب المقصودين من هذه الأمثال والعبر.
{ **ظَلَمُوا** } أشركوا، لقوله تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان:13]، وهذا الإطلاق غالب في القرآن.

{ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [66].

استئناف بياني بتنزيل سامع قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [65] منزلة من يطلب البيان فيسأل: متى يحلّ هذا اليوم الأليم؟ وما هو هذا الويل؟ فوردت هذه الجملة جوابا عن الشق الأوّل من السؤال، وسيجيء الجواب عن الشق الثاني في قوله { الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } [67]، وفي قوله تعالى { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ } [74].

وقد جرى الجواب على طريقة الأسلوب الحكيم، والمعنى: أنّ هذا العذاب واقع لا محالة سواء قرب زمان وقوعه أم بعد، فلا يريبكم عدم تعجيله. وقد أشعر بهذا المعنى تقييد إتيان الساعة بقيد { بَغْتَةً } فإنّ الشيء الذي لا تسبقه أمارة لا يُدرى وقت حلوله.

{ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ } بمعنى ينتظرون، والاستفهام إنكاري، أي: لا ينتظرون بعد أن أشركوا لحصول العذاب إلّا حلول الساعة. وعبّر عن اليوم بالساعة تلميحا لسرعة ما يحصل فيه.

البغتة: الفجأة، وهي: حصول الشيء عن غير ترقب.

{ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } في موضع الحال من ضمير النصب في { تَأْتِيَهُمْ } .

الشعور: العلم بحصول الشيء الحاصل.

{ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } [67].

استئناف يفيد أمرين: أحدهما: بيان بعض الأهوال التي أشار إليها إجمال التهديد في قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [65]. وثانيهما: موعظة المشركين بما يحصل يوم القيامة من الأهوال لأمثالهم.

وقد أوثر بالذكر هنا من الأهوال ما له مزيد تناسب لحال المشركين في تألبهم على مناواة الرسول صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام، فإنّهم ما ألّبهم إلّا تناصرهم وتوادهم في الكفر والتباهي بذلك بينهم في نواديهم وأسمارهم، قال تعالى حكاية عن إبراهيم { وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً } [العنكبوت:25]، وتلك شنشنة أهل الشرك من قبل. وفي معنى هذه الآية قوله آنفا { حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ } [38].

الأخلاء: جمع خليل، وهو الصاحب الملازم، قيل: إنّه مشتق من التخلّل لأنّه كالمتخلّل لصاحبه والممتزج به. وتقدم في قوله تعالى { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً } [النساء:125]. والتعريف للجنس وهو مفيد استغراقا عرفيا، أي: الأخلاء من المشركين أو الأخلاء من قريش المتحدّث عنهم، وإلّا فإنّ من الأخلاء غير المؤمنين من لا عداوة بينهم يوم القيامة وهم الذين لم يستخدموا خلّتهم في إغراء بعضهم بعضا على الشرك والكفر.

العدوّ: المبغض، ووزنه فعول بمعنى فاعل، أي: عاد، ولذلك استوى جريانه على الواحد وغيره، والمذكّر وغيره، وتقدّم عند قوله تعالى { فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ } [النساء:92].

{ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ [68] الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ [69] ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ [70] يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [71] وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [72] لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ [73] }.

{ **يَا عِبَادِ** } مقولة لقول محذوف دلّت عليه صيغة الخطاب، أي: نقول لهم، أو يقول الله لهم.

{ **لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ** } مفاتحة خطابهم بنفي الخوف عنهم تأنيس لهم، ومنّة بإنجائهم من مثله، وتذكير لهم بسبب مخالفة حالهم لحال أهل الضلالة، فإنّهم يشاهدون ما يعامل به أهل الضلالة والفساد.

{ **وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ** } جيء بالمسند إليه مخبرا عنه بالمسند الفعلي لإفادة التقوّي في نفي الحزن عنهم، تطمينا لأنفسهم بانتفاء الحزن عنهم في أزمنة المستقبل، إذ قد يهجس بخواطرهم هل يدوم لهم الأمن الذي هم فيه.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا** } نعت للمنادى من قوله { يَا عِبَادِ }، جيء فيها بالموصول لدلالة الصلة على علة انتفاء الخوف والحزن عنهم، وعطف على الصلة قوله { **وَكَانُوا مُسْلِمِينَ** }.

والمخالفة بين الصلتين إذ كانت أولاهما فعلا ماضيا { آمَنُوا }، والثانية فعل كون مخبرا عنه باسم فاعل، لأنّ الإيمان عقد القلب يحصل دفعة واحدة، وأمّا الإسلام فهو الإتيان بقواعد الإسلام الخمس.

{ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ** } من تمام نعمة التمتّع بالخلّة التي كانت بينهم وبين أزواجهم في الدنيا.

{ **تُحْبَرُونَ** } مبني للمجهول مضارع حُبِرَ بالبناء للمجهول، وفعله حَبَره، إذا سَرَّه، ومصدره الحَبْر (بفتح فسكون)، والاسم الحُبور والحَبْرة، وتقدّم في قوله تعالى { فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ } [الروم:15].

{ **يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ** } معترضة بين أجزاء القول، فليس في ضمير { عَلَيْهِمْ } التفات بل المقام لضمير الغيبة.

الصحاف: جمع صفحة: إناء لوضع الطعام أو الفاكهة.

الأكواب: جمع كُوب (بضم الكاف) وهو إناء للشراب. وحُذف وصف الأكواب لدلالة وصف صحاف عليه، أي: وأكواب من ذهب.

{ **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ** } كلّ ما تتعلّق الشهوات النفسية بنواله وتحصيله، والله يخلق في أهل الجنة الشهوات اللائقة بعالم الخلود والسموّ.

لذة الأعين: في رؤية الأشكال الحسنة والألوان التي تنشرح لها النفس.

{ **وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } بشارة لهم بعدم انقطاع ما هم فيه من سعة الرزق ونيل الشهوات، وجيء فيه بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات تأكيدا لحقيقة الخلود لدفع توهّم أن يراد به طول المدّة فحسب.

{ **وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } تذييل للقول، عطف على بعض ما يقال لهم مقول آخر قُصد منه التنويه بالجنّة وبالمؤمنين إذ أعطوها بسبب أعمالهم الصالحة.

أشير إلى الجنّة باسم إشارة البعيد تعظيما لشأنها وإلّا فإنّها حاضرة نصب أعينهم. أي: تلك التي ترونها هي الجنة التي سمعتم بها ووعدتم بها.

{ **أُورِثْتُمُوهَا** } استعارة بمعنى: أعطيتموها دون غيركم.

{ **بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } الباء للسببية، وهي سببية بجعل الله ووعده.

{ **لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ** } صفة ثانية للجنّة.

الفاكهة: الثمار رطبها ويابسها، وهي من أحسن ما يُستلذ من المآكل، وطعومها معروفة لكلّ سامع.

{ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ [74] لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ [75] }.

لهذه الجملة موقعان: <u>الموقع الأوّل</u>: إتمام التفصيل لما أجمله الوعيد الذي في قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [65] عقب تفصيل بعضه بقوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ } [66]، وبقوله تعالى { الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } [67]، حيث قُطع إتمام تفصيله بالاعتناء بذكر وعد المؤمنين المتّقين، فهي في هذا الموقع بيان لجملة الوعيد وتفصيل لإجمالها.

<u>الموقع الثاني</u>: أنّها كالاستئناف البياني يثيره ما يُسمع من وصف أحوال المؤمنين المتّقين من التساؤل: كيف يكون حال أضدادهم المشركين الظالمين؟

{ **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ** } افتتاح الخبر بـ (إنّ) للاهتمام به، **أو** لتنزيل السائل المتلهّف للخبر منزلة المتردّد في مضمونه لشدة شوقه إليه، **أو** نظرا إلى ما في الخبر من التعريض بإسماعه المشركين وهم ينكرون مضمونه فكأنّه قيل: إنّكم أيّها المجرمون في عذاب جهنم خالدون.

المجرمون: الذين يفعلون الإجرام، وهو الذنب العظيم. والمراد بهم هنا: <u>المشركون المكذّبون للنبيّ</u> صلى الله عليه وسلم لأنّ السياق لهم، ولأنّ الجملة بيان لإجمال وعيدهم في قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [65]، فذِكر المجرمين إظهار في مقام الإضمار للتنبيه على أنّ شركهم إجرام.

{ **لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ** } في موضع الحال من { عَذَابِ جَهَنَّم َ}.
{ **يُفَتَّرُ** } مضاعف فَتَرَ، إذا سكن، وهو بالتضعيف يتعدّى إلى مفعول. والمعنى: لا يُفَتِّره أحد.
{ **وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ** } عطف على جملة { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ }.
الإبلاس: اليأس والذلّ، وتقدّم في [الأنعام:44].

{ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ } [76]

جملة معترضة في حكاية أحوال المجرمين قُصد منها نفي استعظام ما جُوزوا به من الخلود في العذاب، ونفي الرقّة لحالهم المحكية بقوله { وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ }.
{ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ** } الظلم هنا الاعتداء، وهو الإصابة بضرّ بغير موجب مشروع أو معقول، فنفيه عن الله في معاملته إيّاهم بتلك المعاملة لأنّها كانت جزاء على ظلمهم، فلذلك عُقّب بقوله { وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ }، أي: المعتدين، إذ اعتدوا على ما أمر الله من الاعتراف له بالإلهية، وعلى رسوا الله صلى الله عليه وسلم إذ كذَّبوه ولمزوه.
{ **هُمُ** } ضمير الفصل مجتلب لإفادة قصر صفة الظلم على اسم (كان)، وإذ قد كان حرف الاستدراك بعد النفي كافيا في إفادة القصر كان اجتلاب ضمير الفصل تأكيدا للقصر بإعادة صيغة أخرى من صيغ القصر.

{ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ [77] لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ [78] }.

{ **وَنَادَوْا** } حكي نداؤهم بصيغة الماضي مع أنّه ممّا سيقع يوم القيامة، إمّا لأنّ إبلاسهم في عذاب جهنم، وهو اليأس، يكون بعد أن نادوا يا مالك وأجابهم بما أجاب به، وذلك إذا جعلت جملة { ونادوا } حالية.
وإمّا لتنزيل الفعل المستقبل منزلة الماضي في تحقيق وقوعه، تخريجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وهذا إن كانت جملة { ونادوا } معطوفة.
{ **مَالِكُ** } اسم الملك الموكّل بجهنم خاطبوه ليرفع دعوتهم إلى الله تعالى شفاعة.
{ **لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ** } لام الأمر بمعنى الدعاء، وتوجيه الأمر إلى الغائب لا يكون إلّا على معنى التبليغ كما هنا، أو تنزيل الحاضر منزلة الغائب لاعتبار ما، مثل التعظيم في نحو قول الوزير للخليفة: لير الخليفة رأيه.
القضاء: هنا الإماتة، كقوله تعالى { فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ } [القصص:15]. سألوا الله أن يزيل عنهم الحياة ليستريحوا من إحساس العذاب.

{ **قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ** } وهم إنّما سألوا الله أن يميتهم فأجيبوا بأنّهم ماكثون، جوابا جامعا لنفي الإماتة ونفي الخروج، فهو جواب قاطع لِما قد يسألونه من بعد.

{ **لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** } في موضع العلّة لجملة { إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ }.

{ **جِئْنَاكُمْ** } الضمير للملائكة، و{ **بِالْحَقِّ** } الوحي الذي نزل به جبريل. فنسب مالك المجيء بالحق إلى جمع الملائكة على طريقة اعتزاز الفريق والقبيلة بمزايا بعضها، وهي طريقة معروفة في كلام العرب.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** } نُسبت كراهة الحق إلى أكثرهم دون جميعهم لأنّ المشركين فريقان:

أحدهما: سادة كبراء لملّة الكفر وهم الذين يصدّون الناس عن الإيمان بالإرهاب والترغيب، مثل أبي جهل حين صدّ أبا طالب عند احتضاره عن قول لا إله إلا الله، وقال: أترغب عن ملة عبد المطلب.

وأولئك إنّما كرهوا الحقّ لأنّه يرمي إلى زوال سلطانهم وتعطيل منافعهم.

ثانيهما: دهماء وعامة وهم تبع لأئمة الكفر.

{ **أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ** } [79]

{ **أَمْ** } منقطعة للإضراب الانتقالي من حديث إلى حديث مع اتحاد الغرض، انتقل من حديث ما أعدّ لهم من العذاب يوم القيامة إلى ما أعدّ لهم من الخزي في الدنيا. والكلام بعد (أم) استفهام حُذفت منه أداة الاستفهام، وهو استفهام تقريري وتهديد، أي: أأبرموا أمرا؟

{ **أَبْرَمُوا** } الضمير مراد به المشركون. وضمير { **فَإِنَّا** } ضمير الجلالة.

{ **فَإِنَّا مُبْرِمُونَ** } الفاء للتفريع على ما اقتضاه الاستفهام من تقدير حصول المستفهم عنه، فيؤول الكلام إلى معنى الشرط، أي: إن أبرموا أمرا من الكيد فإنّ الله مبرم لهم أمرا من نقض الكيد وإلحاق الأذى بهم.

ونظيره وفي معناه قوله تعالى { أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ } [الطور:42].

وعن مقاتل نزلت هذه الآية في تدبير قريش بالمكر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم في دار الندوة حين استقرّ أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتل النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى لا يستطيع بنو هاشم المطالبة بدمه، وقتل الله جميعهم في بدر.

الإبرام: حقيقته القتل المحكم، وهو هنا مستعار لإحكام التدبير والعزم على ما دبَّروه.

الأمر: العمل العظيم الخطير، وحذف مفعول { مُبْرِمُونَ } لدلالة ما قبله عليه.

{ **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** } [80].

{ **أَمْ** } هي واستفهامها المقدّر بعدها مثل ما تقدّم في قوله تعالى { أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً } [79].

{ **سِرَّهُمْ** } ما يُسرُّونه في أنفسهم من وسائل المكر للنبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **نَجْوَاهُمْ** } ما يتناجون به بينهم في ذلك بحديث خفي.

{ **بَلَى** } جواب للنفي من قوله { أَنَّا لا نَسْمَعُ }، أي: بلى نحن نسمع سرّهم ونجواهم.

{ **وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** } ليعلموا أنّ علم الله بما يُسرُّون علم يترتب عليه أثر فيهم وهو مؤاخذتهم، لأنّ كتابة الأعمال تؤذن بأنّها ستحسب لهم يوم الجزاء.

الرسل: هم الحفظة من الملائكة لأنّهم مرسلون لتقصِّي أعمال الناس، كقوله تعالى { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [قّ:18]، أي: رقيب يرقب قوله.

الكتابة: يجوز أن تكون حقيقة، وأن تكون مجازا، أو كناية عن الإحصاء والاحتفاظ.

{ **قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** [81] **سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** [82] }.

لمّا جرى ذكر الذين ظلموا بادّعاء بنوّة الملائكة في قوله { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [65]، عَقِب قوله { وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً } [57]، وعَقِب قوله قبله { وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً } [19]. وأعقب بما ينتظرهم من أهوال القيامة وما أُعدّ للذين انخلعوا عن الإشراك بالإيمان، أمر الله رسوله أن ينتقل من مقام التحذير والتهديد إلى مقام الاحتجاج على انتفاء أن يكون لله ولد، جمعا بين الردّ على بعض المشركين الذين عبدوا الملائكة، والذين زعموا أنّ بعض أصنامهم بنات الله مثل اللات والعزى، فأمره بهذا القول. أي: قل لهم جدلا وإفحاما.

والذين يقول لهم هذا القول هم المشركون الزاعمون ذلك فهذا غرض الآية على الإجمال، مع علم السامعين أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يروج عنده ذلك.

{ **سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** } تذييل، لأنّها نزهت الله عن جميع ما يصفونه به من نسبة الولد وغير ذلك. يجوز أن تكون تكملة لِما أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله.

ويجوز أن تكون كلاما مستأنفا من جانب الله تعالى لإنشاء تنزيهه عمّا يقولون، فتكون معترضة بين جملة {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ } وجملة { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ } [84].

ووصفُه بربوبية أقوى الموجودات وأعمّها وأعظمها، لأنّه يفيد انتفاء أن يكون له ولد لانتفاء فائدة الولادة، فقد تم خلق العوالم ونظام نمائها ودوامها، وعُلم من كونه خالقها أنّه غير مسبوق بعدم وإلّا لاحتاج إلى خالق يخلقه، واقتضى عدم السبق بعدم أنّه لا يلحقه فناء، فوجود الولد له يكون عبثا.

{ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ } [83]

اعتراض بتفريع عن تنزيه الله عما ينسبونه إليه من الولد والشركاء، وهذا تأييس من إجداء الحجّة فيهم وأنّ الأولى به متاركتهم في ضلالهم إلى أن يحين يوم يلقون فيه العذاب الموعود. وهذا متحقّق في أئمة الكفر الذين ماتوا عليه، وهم الذين كانوا متصدّين لمحاجة النبيّ صلى الله عليه وسلم ومجادلته والتشغيب عليه مثل أبي جهل، وأمية بن خلف، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، والوليد بن المغيرة، والنضر بن عبد الدار، ممن قتلوا يوم بدر.

{ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا } الأمر هنا مستعمل في التهديد من قبيل قوله {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } [فصلت:40].

الخوض: حقيقته الدخول في لجة الماء ماشيا، ويطلق مجازا على كثرة الحديث والأخبار والاقتصار على الاشتغال بها، وتقدّم في قوله تعالى { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } [الأنعام:86].

المعنى: فأعرض عنهم في حال خوضهم في الأحاديث ولعبهم في مواقع الجد، حين يهزأون بالإسلام.

{ يَوْمَهُمُ } هنا محتمل ليوم بدر وليوم القيامة وكلاهما قد وُعدوه.

{ يُوعَدُونَ } هنا بمعنى الوعيد كما دل عليه السياق.

{ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } [84].

{ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ } عطف على جملة { إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ } [81]، والجملتان اللتان بينهما اعتراضان، قُصد من العطف إفادة نفي الشريك في الإلهية مطلقا بعد نفي الشريك فيها بالبنوّة، وقُصد بذكر السماء والأرض الإحاطة بعوالم التدبير والخلق لأنّ المشركين جعلوا لله شركاء في الأرض وهم أصنامهم المنصوبة، وجعلوا له شركاء في السماء وهم الملائكة، إذ جعلوهم بنات لله تعالى، فكان هذا القول إبطالا للفريقين ممّا زُعمت إلهيتهم.

وكان مقتضى الظاهر بهذه الجملة أن يكون أوّلها { فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ } على أنّه وصف للرحمن من قوله { إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ}، فعدل عن مقتضى الظاهر بإيراد الجملة معطوفة لتكون مستقلة غير صفة، وبإيراد مبتدأ

فيها لإفادة قصر صفة الإلهية في السماء وفي الأرض على الله تعالى لا يشاركه في ذلك غيره، لأن إيراد المسند إليه معرفة والمسند معرفة طريق من طرق القصر.

فالمعنى: وهو لا غيره الذي في السماء إله وفي الأرض إله.

{ **وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** } بعد أن وُصف الله بالتفرّد بالإلهية أُتبع بوصفه بـ { الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } تدقيقا للدليل الذي في قوله السابق، حيث دلّ على نفي إلهية غيره في السماء والأرض واختصاصه بالإلهية فيهما، لأنّ الموصوف بتمام الحكمة وكمال العلم مستغن عمّا سواه فلا يحتاج إلى ولد ولا إلى بنت ولا إلى شريك.

فكان هذا القول تتميما للدليل واستدلالا عليه، ولذلك سمّيناه تدقيقا، إذ التدقيق في الاصطلاح هو ذكر الشيء بدليل دليله، وأمّا التحقيق فذكر الشيء بدليله.

{ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[85]

عطف على { سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [82]، قُصد منه إتباع إنشاء التنزيه بإنشاء الثناء والتمجيد.

{ **تَبَارَكَ** } خبر مستعمل في إنشاء المدح، لأنّ معناها: كان متّصفا بالبركة اتصافا قويّا لما يدل عليه صيغة تفاعل من قوّة حصول المشتق منه لأنّ أصلها أن تدلّ على صدور فعل من فاعلين مثل: تقاتل وتمارى، فاستعملت في مجرّد تكرّر الفعل، وذلك مثل: تسامى وتعالى.

البركة: الزيادة في الخير.

{ **الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** } ذكر سابقا مع التنزيه أنّه رب السماوات والأرض لاقتضاء الربوبية التنزيه عن الولد المسوق الكلام لنفيه، وعن الشريك المشمول لقوله { عَمَّا يَصِفُونَ }، وذكر هنا مع التبريك والتعظيم أنّ له ملك السماوات والأرض لمناسبة الملك للعظمة وفيض الخير.

فلا يربيك أنّ { رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [82] مغن عن { الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } لأنّ غرض القرآن التذكير وأغراض التذكير تخالف أغراض الاستدلال والجدل، فإنّ التذكير يلائم التنبيه على مختلف الصفات باختلاف الاعتبارات والتعرّض للاستمداد من الفضل.

ثم إن صيغة { تَبَارَكَ } تدّل على أنّ البركة ذاتية لله تعالى فيقتضي استغناءه عن الزيادة باتخاذ الولد واتخاذ الشريك، فبهذا الاعتبار كانت هذه الجملة استدلالا آخر تابعا لدليل قوله تعالى { سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } [82].

{ **وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } لمّا كان قوله السابق مفيدا التصرّف في هذه العوالم مدّة وجودها ووجود ما بينها أردفه بهذا القول للدلالة على أنّ له مع ملك العوالم الفانية ملك العوالم الباقية، وأنّه المتصرّف في تلك العوالم بما فيها بالتنعيم والتعذيب.

{ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } تقديم المجرور لقصد التقوي، إذ ليس المخاطبون بمثبتين رُجعى إلى غيره فإنّهم لا يؤمنون بالبعث أصلا. وأمّا قولهم للأصنام { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18] فمرادهم أنّهم شفعاء لهم في الدنيا، أو هو على سبيل الجدل ولذلك أتبع بقوله تعالى { وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ} [86].

{ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [86].

لمّا أنبأهم أنّ لله ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة أعلمهم أنّ ما يعبدونه من دون الله لا يقدر على أن يشفع لهم في الدنيا إبطالا لزعمهم أنّهم شفعاؤهم عند الله.

{ **إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** } لمّا كان من جملة من عبدوا دون الله الملائكة استثناهم، أي: فهم يشفعون، وهذا في معنى قوله تعالى { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ } [الانبياء:26]، ثمّ قال { وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى } [الأنبياء:28].

{ **وَهُمْ يَعْلَمُونَ** } أي: وهم يعلمون حال من يستحق الشفاعة.

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } [87].

بعد أن أمعن في إبطال أن يكون إله غير الله بما سيق من التفصيلات، جاء هنا بكلمة جامعة لإبطال زعمهم إلهية غير الله. أي: إن سألتهم سؤال تقرير عمّن خلقهم فإنّهم يقرّون بأنّ الله خلقهم، وهذا معلوم من حال المشركين، كقول ضِمام بن ثعلبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم: أسألك بربّك وربّ من قبلك آلله أرسلك؟

والخطاب في قوله { سَأَلْتَهُمْ } للنبيّ صلى الله عليه وسلم. ويجوز أن يكون لغير معيّن.

{ **لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** } تأكيد بأنّهم يقرّون لله بأنّه الخالق، وذلك كاف في سفاهة رأيهم إذ كيف يكون إلها من لم يخلق، قال تعالى { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [النحل:17].

{ **فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** } فُرِّع على التقرير والإقرار الانكارُ والتعجيبُ من انصرافهم من عبادة الله.

أنّى: اسم استفهام عن المكان فمحله نصب على الظرفية، أي: إلى أيّ مكان يصرفون.

{ **يُؤْفَكُونَ** } يصرفون: يقال: أفكه عن كذا، يأفكه من باب ضرب، إذا صرفه عنه. وبني للمجهول، إذ لم يصرفهم صارف ولكن صرفوا أنفسهم عن عبادة خالقهم. فهو كقولهم: أين يُذهب بك، أي أين تذهب بنفسك.

{ **وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ** } [88]

{ **وَقِيلِهِ** } القيل مصدر قال، والأظهر أنّه اسم مراد به المفعول، أي: المقول.

قرأ عاصم وحمزة بجر الـ (لام)، وقرأ الجمهور بنصب الـ (لام) على اعتبار أنّه مصدر نصب على أنّه مفعول مطلق بدل من فعله. ويجوز أن يكون النصب على المفعول به.

والضمير المضاف إليه (قيل) ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم بقرينة سياق الاستدلال والحجاج.

وضمير الغائب التفات عن الخطاب في قوله { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ } [87]، فإنّه بعد ما مضى من المحاجّة ومن حكاية إقرارهم بأن الله الذي خلقهم، ثم إنّهم لم يتزحزحوا عن الكفر قيد أنملة، حصل اليأس للرسول من إيمانهم فقال { يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ } التجاء إلى الله فيهم وتفويضا إليه ليجري حكمه عليهم. فمقتضى الظاهر: وقولك: يا رب. ويحسِّن هذا الالتفات أنّه حكاية لشيء في نفس الرسول فجُعل الرسول بمنزلة الغائب لإظهار أنّ الله لا يهمل نداءه وشكواه.

حذف بعد النداء ما نودي لأجله مما دلّ عليه مقام من أعيته الحيلة فيهم ففوض أمره إلى ربه، فأقسم الله بتلك الكلمة على أنّهم لا يؤمنون.

{ **هَؤُلاءِ** } الإشارة إلى المشركين من أهل مكة كما هي عادة القرآن غالبا.

{ **قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ** } أدلّ على تمكّن عدم الإيمان منهم من أن يقول: هؤلاء لا يؤمنون.

{ **فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } [89].

الفاء فصيحة لأنّها أفصحت عن مقدّر، أي: إذ قلت ذلك القيل، وفوّضت الأمر إلينا فسأتولى الانتصاف منهم فاصفح عنهم، أي: أعرض عنهم ولا تحزن لهم وقل لهم إن جادلوك: { سَلَامٌ } ، أي: تركنا المجادلة.

{ **فَاصْفَحْ** } يقال: صَفَح يَصْفَح من باب منع، بمعنى: أعرض وترك، وتقدّم في قوله تعالى { أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً } [5]، ولكن الصفح المأمور به هنا غير الصفح المنكر وقوعه هناك.

{ **سَلَامٌ** } مصدر جاء بدلا من فعله. فأصله النصب، وعدل إلى رفعه لقصد الدلالة على الثبات، كما تقدّم في قوله تعالى { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الفاتحة].

{ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } تفريع، تهديدا لهم ووعيدا. وحذف المفعول للتهويل لتذهب نفوسهم كلّ مذهب ممكن.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر وروح عن يعقوب { تَعْلَمِونَ } على أنّ { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } ممّا أُمر الرسول بأن يقوله لهم. وقرأه الجمهور بياء تحتية على أنّه وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنّه منتقم منهم.

والأمر بالإعراض والتسليم في الجدال والوعيد يؤذن بانتهاء الكلام في هذه السورة، وهو من براعة المقطع.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الدخان

سُمِّيت هذه السورة (**حم الدخان**). روى الترمذي بسندين ضعيفين يعضد بعضهما بعضا: عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: **" من قرأ حم الدخان في ليلة أو في ليلة الجمعة "**.

وسُمِّيت في المصاحف وفي كتب السنّة (**سورة الدخان**). ووجه تسميتها وقوع لفظ الدخان في قوله تعالى { فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ } [10]، والمراد به آية من آيات الله أيَّد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم. وإن كان لفظ (الدخان) بمعنى آخر قد وقع في [فصلت: 11] عند قوله تعالى { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ }. وهي نزلت قبل هذه السورة على المعروف من ترتيب تنزيل سور.

وهي مكّيّة كلّها في قول الجمهور. قال ابن عطية: هي مكّية، لا أحفظ خلافا في شيء منها.

وهي السورة الثالثة والستون في عَدِّ نزول السور في قول جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الزخرف وقبل سورة الجاثية، في مكانها هذا.

وعُدَّت آيها ستا وخمسين عند أهل المدينة ومكة والشام، وعدّت عند أهل البصرة سبعا وخمسين، وعند أهل الكوفة تسعا وخمسين.

أغراض السورة

*/ أشبه افتتاح هذه السورة فاتحة سورة الزخرف من التنويه بشأن القرآن وشرفه وشرف وقت ابتداء نزوله ليكون ذلك مؤذنا أنّه من عند الله ودالا على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

*/ أنّ المعرضين عن تدبّر القرآن ألهاهم الاستهزاء واللمز عن التدبر فحق عليهم دعاء الرسول بعذاب الجوع، إيقاظا لبصائرهم بالأدلة الحسية حين لم تنجع فيهم الدلائل العقلية، ليعلموا أنّ إجابة الله دعاء رسوله صلى الله عليه وسلم دليل على أنّه أرسله ليبلغ عنه مراده.

*/ أنذرهم بعذاب يحلّ بهم علاوة على ما دعا به الرسول صلى الله عليه وسلم، تأييدا من الله له بما هو زائد على مطلبه.

*/ ضرب لهم مثلا بأمم أمثالهم عصوا رسل الله إليهم فحل بهم من العقاب من شأنه أن يكون عظة لهؤلاء، تفصيلا بقوم فرعون مع موسى ومؤمني قومه، ودون التفصيل بقوم تُبع، وإجمالا وتعميما بالذين من قبل هؤلاء.

*/ وإذ كان إنكار البعث وإحالته من أكبر الأسباب التي أغرتهم على إهمال التدبّر في مراد الله تعالى انتقل الكلام إلى إثباته والتعريف بما يعقبه من عقوبة المعاندين ومثوبة المؤمنين، ترهيبا وترغيبا.

*/ أدمج فيها فضل الليلة التي أنزل فيها القرآن، أي: ابتدئ إنزاله وهي ليلة القدر.

*/ أدمج في خلال ذلك ما جرت إليه المناسبات من دلائل الوحدانية وتأييد الله من آمنوا بالرسل، ومن إثبات البعث.

*/ ختمت بالشد على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بانتظار النصر وانتظار الكافرين القهر.

{ **حم** } [1]
القول في نظائره تقدّم.

{ **وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ [2] إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ [3] فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ [4] أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ [5] رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [6]** }.

القول في نظير هذا القسم وجوابه تقدّم في أوّل سورة الزخرف.

ونُوِّه بشأن القرآن بطريقة الكناية عنه بذكر فضل الوقت الذي ابتدئ إنزاله فيه.

يجوز أن يكون كلاما موجّها إلى المشركين ابتداء لفتح بصائرهم إلى شرف القرآن وما فيه من النفع للناس ليكفّوا عن الصدّ عنه، ولهذا وردت الحروف المقطعة في أوّلها المقصود منها التحدي بالإعجاز، واشتملت تلك الجمل الثلاث على حرف التأكيد، ويكون إعلام الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المزايا حاصلا تبعا إن كان لم يسبق إعلامه بذلك بما سبق من آي القرآن أو بوحي غير القرآن.

ويجوز أن يكون كلاما موجّها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أصالة ويكون علم المشركين بما يحتوي عليه حاصلا تبعا بطريق التعريض، ويكون التوكيد منظورا فيه إلى الغرض التعريضي.

{ **الكِتَابَ** } تعريف العهد، والمراد به: القرآن.

{ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ** } ومعنى الفعل ابتداء إنزاله، فإنّ كلّ آية أو آيات تنزل من القرآن فهي منضمّة إليه انضمام الجزء للكلّ، ومجموع ما يبلغ إليه الإنزال في كلّ ساعة هو مُسمَّى القرآن إلى أن تمّ نزول آخر آية منه.

{ **فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ** } تنكير ليلة للتعظيم، ووصفها بـ { مُبَارَكَةٍ } تنويه بها وتشويق لمعرفتها. فهذه الليلة هي الليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في الغار من جبل حراء في رمضان، قال تعالى { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ } [البقرة:185].

والليلة التي ابتدئ نزول القرآن فيها هي **ليلة القدر** قال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: 1]. والأصحّ أنّها في العشر الأواخر من رمضان وأنّها في ليلة الوتر. وثبت أنّ الله جعل لنظيرتها من كلّ سنة فضلا عظيما لكثرة ثواب العبادة فيها في كل رمضان كرامة لذكرى نزول القرآن وابتداء رسالة أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة. قال تعالى { تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ } [القدر:5/4]، وذلك من معاني بركتها.

فبركة الليلة التي أنزل فيها القرآن بركة قدّرها الله لها قبل نزول القرآن ليكون القرآن بابتداء نزوله فيها ملابسا لوقت مبارك فيزداد بذلك فضلا وشرفا، وهذا من المناسبات الإلهية الدقيقة التي أنبأنا الله ببعضها.

واختُلف في الليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن على النبيّ صلى الله عليه وسلم من ليالي رمضان، والذي يجب الجزم به أنّ ليلة نزول القرآن كانت في شهر رمضان وأنّه كان في ليلة القدر.

ولمّا تضافرت الأخبار أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في ليلة القدر: " **اطلبوها في العشر الأواخر من رمضان في ثالثة تبقى، في خامسة تبقى، في سابعة تبقى، في تاسعة تبقى** "، فالذي نعتمده أنّ القرآن ابتدئ نزوله في العشر الأواخر من رمضان.

وقد اشتهر عند كثير من المسلمين أنّ ليلة القدر ليلة سبع وعشرين باستمرار وهو مناف لحديث اطلبوها في العشر الأواخر.

{ **إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ** } حرف (إن) يجوز أن يكون للتأكيد ردا لإنكارهم أن يكون الله أرسل رسلا للناس، لأنّ المشركين أنكروا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بزعمهم أنّ الله لا يرسل رسولا من البشر، قال تعالى { إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام: 91]، فكان رد إنكارهم ذلك ردا لإنكارهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فتكون الجملة مستأنفة.

ويجوز أن تكون (إن) لمجرد الاهتمام بالخبر فتكون مغنية غناء فاء التسبّب فتفيد تعليلا، فتكون الجملة تعليلا لجملة {أنزلناه}، أي: أنزلناه للإنذار، لأنّ الإنذار شأننا، فمضمون الجملة علّة العلة وهو إيجاز.

{ **مُنْذِرِينَ** } وإنّما اقتصر على هذا الوصف مع أنّ القرآن منذر ومبشّر اهتماما بالإنذار لأنّه مقتضى حال جمهور الناس يومئذ، والإنذار يقتضي التبشير لمن انتذر. وحذف المفعول لدلالة قوله { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ } عليه، أي: منذرين المخاطبين بالقرآن.

{ **فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ** } مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن تنكير { لَيْلَةٍ } . ووصفها بـ { مُبَارَكَةٍ } كما علمت آنفا، فدلّ على عظم شأن هاته الليلة عند الله تعالى فإنّها ظهر فيها إنزال القرآن، وفيها يفرق عند الله كل أمر حكيم.ّ

المنذر: الذي يُنذر، أي: يخبر بأمر فيه ضرّ لقصد أن يتّقيه المخبَر به، وتقدّم في قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً } [البقرة:119].

الفرق: الفصل والقضاء، أي: فيها يُفصل كلّ ما يراد قضاؤه في الناس، ولهذا يُسمَّى القرآن فرقانا، وتقدّم قوله تعالى { فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } [المائدة:25].

أي: جعل الله الليلة التي أنزل فيها القرآن وقتا لإنفاذ وقوع أمور هامة مثل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، تشريفا لتلك المقضيّات، وتشريفا لتلك الليلة.

{ **كُلُّ** } يجوز أن تكون مستعملة في حقيقة معناها من الشمول، وقد علم الله ما هي الأمور الحكيمة فجمعها للقضاء بها في تلك الليلة، وأعظمها ابتداء نزول الكتاب الذي فيه صلاح الناس كافة، **ويجوز** أن تكون

مستعملة في معنى الكثرة، وهو استعمال في كلام الله تعالى وكلام العرب. وتقدّم في قوله تعالى { وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } [النمل:23].

الأمر الحكيم: المشتمل على حكمة من حكمة الله تعالى، **أو** الأمر الذي أحكمه الله تعالى وأتقنه بما ينطوي عليه من النُّظُم المدبّرة الدالة على سعة العلم وعمومه.

وبعض تلك الأمور الحكيمة يُنْفِذ الأمرَ به إلى الملائكة الموكلين بأنواع الشؤون، وبعضها ينفذ الأمر به على لسان الرسول مدة حياته الدنيوية، وبعضا يُلهم إليه من ألهمه الله أفعالا حكيمة، والله هو العالم بتفاصيل ذلك.

{ **أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا** } إعادة كلمة { أَمْرًا } لتفخيم شأنه، وإلّا فإن المقصود الأصلي هو قوله { مِنْ عِنْدِنَا }، فكان مقتضى الظاهر أن يقع { مِنْ عِنْدِنَا } صفة لـ { أَمْرٍ حَكِيمٍ } فخولف ذلك لهذه النكتة.

أي: أمرا عظيما فخما إذا وصف بـ { حَكِيمٍ }، ثم بكونه من عند الله تشريفا له بهذه العندية، وينصرف هذا التشريف والتعظيم ابتداء وبالتعيين إلى القرآن إذ كان بنزوله في تلك الليلة تشريفها وجعلها وقتا لقضاء الأمور الشريفة الحكيمة.

{ **إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ** } معترضة وحرف (إن) فيها مثل ما وقع في قوله تعالى { إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ }. والمفعول محذوف دلّ عليه مادة اسم الفاعل، أي: مرسلين الرسل.

{ **رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** } مفعول لأجله من { إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ }، أي: كنَّا مرسلين لأجل رحمتنا، أي: بالعباد المرسل إليهم، لأنّ الإرسال بالإنذار رحمة بالناس ليتجنّبوا مهاوي العذاب ويكتسبوا مكاسب الثواب، قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء:107].

ويجوز أن يكون { رَحْمَةً } حالا من الضمير المنصوب في { أنزلناه } [3].

{ **مِنْ رَبِّكَ** } إظهار في مقام الإضمار لأنّ مقتضى الظاهر أن يقول: رحمة منا، وفائدته الإشعار بأنّ معنى الربوبية يستدعي الرحمة بالمربوبين.

وإضافة لفظة الرب إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم صرف للكلام عن مواجهة المشركين إلى مواجهة النبيّ صلى الله عليه وسلم بالخطاب لأنّه الذي جرى خطابهم هذا بواسطته فهو كحاضر معهم عند توجيه الخطاب إليهم فيُصرف وجه الكلام تارة إليه، وهذا لقصد التنويه بشأنه بعد التنويه بشأن القرآن.

{ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } تعليلان بطريق الكناية الرمزية لأنّ علّة الأرسال في الحقيقة هي إرادة الصلاح ورحمة الخلق. وأمّا العلم فهو الصفة التي تجري الإرادة على وفقه، فالتعليل بصفة العلم بناء على مقدّمة أخرى وهي أنّ الله تعالى حكيم لا يحب الفساد، فإذا كان لا يحب ذلك وكان عليما بتصرّفات الخلق كان علمه وحكمته مقتضيين أن يرسل للناس رسلا رحمة بهم.

وفي الوصف بـ { السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } تعريض بالتهديد.

{ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ } [7].

هذا عَود إلى مواجهة المشركين بالتذكير على نحو ما ابتدئت به السورة. وهو تخلّص للاستدلال على تفرّد الله بالإلهية إلزاما لهم بما يقرُّون به من أنّه ربّ السماوات والأرض وما بينهما، ويقرّون بأنّ الأصنام لا تخلق شيئا.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ** } إثارة التيقّظ لعقولهم إذ نزّلهم منزلة المشكوك إيقانهم لعدم جريهم على موجب الإيقان لله بالخالقية حين عبدوا غيره. وحذف متعلّق { مُوقِنِينَ } للعلم به من قوله تعالى { رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا }. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه المقام. والتقدير: إن كنتم موقنين فلا تعبدوا غيره، ولذلك أعقبه بجملة { لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } [8].

{ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } [8]

نتيجة للدليل المتقدّم، لأنّ انفراده بربوبية السماوات والأرض وما بينهما دليل على انفراده بالإلهية، أي: على بطلان إلهية أصنامهم، فكانت هذه الجملة نتيجة لذلك، فلذلك فصلت لشدة اقتضاء الجملة التي قبلها إيّاها.

{ **يُحْيِي وَيُمِيتُ** } مستأنفة للاستدلال على أنّه لا إله إلا هو بتفرّده بالإحياء والإماتة. والمشركون لا ينازعون في أنّ الله هو المحيي والمميت. فكما استدل عليهم بتفرّده بإيجاد العوالم وما فيها استدل عليهم هنا بخلق أعظم أحوال الموجودات وهي حالة الحياة التي شرِّف بها الإنسان عن موجودات العالم الأرضي، وكُرِّم أيضا بإعطائها للحيوان لانتفاع الإنسان به بسببها. وبتفرّده بالإماتة وهي سلب الحياة عن الحي للدلالة على أنّ الحياة ليست ذاتية للحي.

{ **وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ** } تعقيب بإثبات ربوبيّته للمخاطبين تسجيلا عليهم بجحد الأدلة وبكفران النعمة بقولهم { وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ } [22].

{ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } [9]

{ **بَلْ** } للإضراب الإبطالي ردَّ به أن يكونوا موقنين ومقرّين بأنَّه ربّ السماوات والأرض وما بينهما فإنّ إقرارهم غير صادر عن علم ويقين ثابت بل هو كالعدم لأنّهم خلطوه بالشك واللعب فارتفعت عنه خاصية اليقين والإقرار التي هي الجري على موجب العلم، فإنّ العلم إذا لم يجر صاحبه على العمل به وتجديد ملاحظته تطرّق إليه الذهول ثم النسيان فضعف حتّى صار شكا لانحجاب الأدلة التي يرسخ بها في النفس. أي: هم شاكون في وحدانية الله تعالى.

{ **فِي شَكٍّ** } حرف الظرفية للدلالة على شدّة تمكّن الشك من نفوسهم حتّى كأنّه ظرف محيط بهم لا يجدون عنه مخرجا، أي: لا يفارقهم الشك.

{ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ [10] يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ [11]** }.

تفريع على الجملة السابقة قُصد منه وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بانتقام الله من مكذِّبيه، ووعيد المشركين على جحودهم بدلائل الوحدانية وصدق الرسول وعكوفهم على اللعب، أي: الاستهزاء بالقرآن والرسول.

{ **فَارْتَقِبْ** } الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والأمر مستعمل في التثبيت.

الارتقاب: افتعال من رقبه، إذا انتظره، وإنّما يكون الانتظار عند قرب حصول الشيء المنتظر.

والفعل يقتضي بصريحه أنّ إتيان السماء بدخان لم يكن حاصلا في نزول هذه الآية، ويقتضي كناية عن اقتراب وقوعه.

{ **يَوْمَ** } اسم زمان منصوب على أنّه مفعول به لـ { فَارْتَقِبْ }، وهو مضاف إلى الجملة بعده لتمييز اليوم المراد عن بقية الأيام بأنّه الذي تأتي فيه السماء بدخان مبين.

وأطلق اليوم على الزمان، فإنّ ظهور الدخان كان في أيام وشهور كثيرة.

{ **تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ** } إسناد الإتيان به إلى السماء مجاز عقلي لأنّ السماء مكانه حين يتصاعد في جو السماء أو حين يلوح للأنظار منها.

الدخان: ما يتصاعد عند إيقاد الحطب، وهو تشبيه بليغ، أي: بمثل دخان.

المبين: البيّن الظاهر، وهو اسم فاعل من أبان الذي هو بمعنى بان. والمعنى: أنّه ظاهر لكل أحد.

قال أبو عبيدة وابن قتيبة: الدخان في الآية هو: الغبار الذي يتصاعد من الأرض من جراء الجفاف، وأنّ الغبار يسميه العرب دخانا.

وعن الأعرج: أنّه الغبار الذي أثارته سنابك الخيل يوم فتح مكّة، فقد حجبت الغبرة السماء.

والأصحّ أنّ هذا الدخان عُني به ما أصاب المشركين من سني القحط بمكة بعد هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، لحديث عبد الله بن مسعود في صحيح البخاري عن مسلم وأبي الضحى عن مسروق قال: دخلت على عبد الله بن مسعود فقال: إنّ قريشا لمّا غلبوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم واستعصوا عليه قال: " **اللّهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف** " ، فأخذتم سنة أكلوا فيها العظام والميتة من الجهد حتّى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له: استسق لمضر أن يكشف عنهم العذاب، فدعا فكشف عنهم.

قال المفسّرون: إنّ أبا سفيان أتاه في ناس من أهل مكة يعني أتوا المدينة لمّا علموا أنّ النبيّ كان دعا عليهم بالقحط، فقالوا: إن قومك قد هلكوا فادع الله أن يسقيهم فدعا.

وعلى هذه الرواية يكون قوله تعالى { يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ } تمثيلا لهيئة ما يراه الجائعون من شبه الغشاوة على أبصارهم حين ينظرون في الجو بهيئة الدخان النازل من الأفق، فالمجاز في التركيب.

{ **يَغْشَى النَّاسَ** } أنّه يحيط بهم ويعمُّهم كما تحيط الغاشية بالجسد، أي: لا ينجو منه أحد من أولئك الناس وهم المشركون. فإن كان المراد من الدخان ما أصاب أبصارهم من رؤية مثل الغبرة من الجوع فالغشيان مجاز، وإن كان المراد منه غبار الحرب يوم الفتح فالغشيان حقيقة أو مجاز مشهور. ويجوز أن يكون غبارا متصاعدا في الجو من شدّة الجفاف.

{ **هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** } قال ابن عطية يجوز أن يكون إخبارا من جانب الله تعالى تعجيبا منه، كما في قوله تعالى في قصة الذبيح { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ } [الصافات:106]، ويحتمل أن يكون ذلك من قول الناس الذين يغشاهم العذاب بتقدير: يقولون: هذا عذاب أليم.

{ **هَذَا** } الإشارة إلى الدخان المذكور آنفا، عدل عن استحضاره بالإضمار وأن يقال: هو عذاب أليم، إلى استحضاره بالإشارة، لتنزيله منزلة الحاضر المشاهد، تهويلا لأمره.

{ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ } [12].

معترضة بين جملة { هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [11] وجملة { أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى } [13]، فهي مقول قول محذوف.

وحملها جميع المفسِّرين على أنّها حكاية قول الذين يغشاهم العذاب بتقدير يقولون: ربنا اكشف عنا العذاب، أي: هو وعد صادر من الناس الذين يغشاهم العذاب بأنّهم يؤمنون إن كُشف عنهم العذاب.

وممّا تسمح به تراكيب الآية وسياقها أن يكون القول المحذوف مقدّرا بفعل أمر (أي: قولوا)، لتلقين المسلمين أن يستعيذوا بالله من أن يصيبهم ذلك العذاب، إذ كانوا والمشركين في بلد واحد، كما استعاذ موسى عليه السلام بقوله { أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا } [الأعراف:155]. فهذا التلقين كالذي في قوله تعالى { رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } [البقرة:286].

وعليه فجملة { **إِنَّا مُؤْمِنُونَ** } تعليل لطلب دفع العذاب عنهم، أي: إنّا متلبّسون بما يدفع عنا عذاب الكافرين. وفي تلقينهم بذلك تنويه بشرف الإيمان. وأسلوب الكلام جار على أنّ جملة { إِنَّا مُؤْمِنُونَ } تعليل لطلب كشف العذاب عنهم لما يقتضيه ظاهر استعمال حرف (إن) من معنى الإخبار دون الوعد، ومن التعليل دون التأكيد، ولما يقتضيه اسم الفاعل من زمن الحال دون الاستقبال، ولأنّ سياقه خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم بترقّب

إعانة الله إيّاه على المشركين، كما كان يدعو (**أعني عليهم بسبع كسني يوسف**)، فمقتضى المقام تأمينه من أن يصيب العذاب المسلمين وفيهم النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وظاهر مادة (**الكشف**) تقتضي إزالة شيء كان حاصلا في شيء إلّا أنّ الكشف هنا لما لم يكن مستعملا في معناه الحقيقي كان مجازه محتملا أن يكون مستعملا في منع حصول شيء يُخشى حصوله.

ولم يذكر أحد من رواة السير والآثار أنّ المشركين وعدوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّهم يسلمون إن أزال الله عنهم القحط.

{ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ [13] ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ [14] }.

هذه الجملة جعلها جميع المفسرين جوابا عن قول القائلين { رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ } [12] تكذيبا لوعدهم، أي: هم لا يتذكَّرون، وكيف يتذكّرون وقد جاءهم ما هو أقوى دلالة من العذاب وهي دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

<u>وأمّا على التأويل الذي انتزعناه</u> من تركيب الآية فهي جملة مستأنفة ناشئة عن قوله تعالى { بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } [9]، وهي كالنتيجة لها، لأنّهم إذا كانوا في شك يلعبون فقد صاروا بعداء عن الذكرى.

{ **أَنَّى** } اسم استفهام أصله استفهام عن أمكنة حصول الشيء، ويتوسّعون فيها فيجعلونها استفهاما عن الأحوال بمعنى (كيف) بتنزيل الأحوال منزلة ظروف في مكان، كما هنا، بقرينة قوله تعالى { وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ }. <u>والمعنى</u>: من أين تحصل لهم الذكرى والمخافة عند ظهور الدخان المبين وقد سُدَّت عليهم طرقها بطعنهم في الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أتاهم بالتذكير.

والاستفهام مستعمل في الإنكار والإحالة، أي: كيف يتذكَّرون وهم في شك يلعبون وقد جاءهم رسول مبين فتولوا عنه وطعنوا فيه. فجملة { **وَقَدْ جَاءَهُمْ** } في موضع الحال.

{ **مُبِينٌ** } اسم فاعل إمّا من أبان المتعدي، وحذف مفعوله لدلالة { الذِّكْرَى } عليه، أي: مُبيِّن لهم ما به يتذكَّرون، <u>ويجوز</u> أن يكون من أبان القاصر الذي هو بمعنى بان، أي: رسول ظاهر، أي: ظاهرة رسالته عن الله بما توفّر معها من دلائل صدقه.

وإيثار { مُبِينٌ } بالتخفيف على (مبيّن) بالتشديد من نكت الإعجاز ليفيد المعنيين.

{ **ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ** } للتراخي الرتبي وهو ترقّ من مفاد قوله { بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } [9] فالمعنى: وقد جاءهم رسول فشكّوا في رسالته ثم تولوا عنه وطعنوا فيه. ومعنى التراخي الرتبي هنا أنّ التولّي والبهتان أفظع من الشك واللعب.

{ **مُعَلَّمٌ** } الذي يُعلِّمه غيره، وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } [النحل:103].
والمعنى: أنّهم وصفوه مرة بأنه يعلّمه غيره، ووصفوه مرّة بالجنون، تنقّلا في البهتان، أو وصفه فريق بهذا وفريق بذلك، فالقول موزّع بين أصحاب ضمير { قَالُوا }، أو بين أوقات القائلين. ولا يصح أن يكون قولا واحدا في وقت واحد لأنّ المجنون لا يكون مُعلَّما.

{ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ } [15]

يجيء على ما فسَّر به جميع المفسرين قوله { رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ } [12]، أنّ هذه الجملة جواب لسؤالهم، ويجيء على ما درجنا عليه أن تكون هذه الجملة إعلاما للنبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يُكشف العذاب المتوعَّد به المشركون مدّة، فيعودون إلى ما كانوا فيه، وعليه فضمير { إِنَّكُمْ عَائِدُونَ } التفات إلى خطاب المشركين.
{ **إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا لأنّهم إذا سمعوا { إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً } تطلعوا إلى ما سيكون بعد كشفه، وتطلع المؤمنون إلى ما تصير إليه حال المشركين بعد كشف العذاب هل يقلعون عن الطعن؟
فكان هذا القول مّبيّنا لما يتساءلون عنه. أي: يمسكون عن ذلك مدّة وهي المدّة التي أرسلوا فيها وفدهم إلى المدينة ليسأل الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله بكشف القحط عنهم فإنّهم أيامئذ يمسكون عن الطعن والذمّ رجاء أن يدعو لهم ثم يعودون لما كانوا فيه.

{ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ } [16]

هذا هو الانتقام الذي وُعد به الرسول صلى الله عليه وسلم، وتُوعِّد به أئمة الكفر. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن قوله { إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ } فإنّ السامع يثار في نفسه سؤال عن جزائهم حيث يعودون إلى التولي والطعن فأجيب بأن الانتقام منهم هو البطشة الكبرى، وهي الانتقام التام. والتأكيد دفعا للتردّد.
{ **الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى** } هي بطشة يوم بدر، فإنّ ما أصاب صناديد المشركين يومئذ كان بطشة بالشرك وأهله لأنّهم فقدوا سادتهم وذوي الرأي منهم الذين كانوا يسّيرون أهل مكة كما يريدون.
البطشة: واحدة البطش: الأخذ الشديد بعنف، وتقدّم في قوله { أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا } [الأعراف:195].

{ **وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ [17] أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [18] وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ [19] وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ [20] وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ [21]** }.

جعل الله قصة قوم فرعون مع موسى عليه السلام وبني إسرائيل مثلا لحال المشركين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به، وجعل ما حلّ بهم إنذارا بما سيحلّ بالمشركين من القحط والبطشة، مع تقريب حصول ذلك وإمكانه ويسره، وإن كانوا في حالة قوة فإنّ الله قادر عليهم. فذكْر القصة هنا تأييد للنبيّ صلى الله عليه وسلم ووعد له بالنصر وحسن العاقبة، وتهديد للمشركين.

{ **وَلَقَدْ فَتَنَّا** } يجوز أن تكون حال من ضمير { إِنَّا مُنْتَقِمُونَ } [16]. ويجوز أن تكون معطوفة عليها، أي: منتقمون منهم في المستقبل كما انتقمنا من قوم فرعون فيما مضى.

{ **قَبْلَهُمْ** } أشعر أنّ أهل مكة سيفتنون كما فتن قوم فرعون.

والمقصود تشبيه الحالة بالحالة ولكن عدل عن صوغ الكلام بصيغة التشبيه والتمثيل إلى صوغه بصيغة الإخبار اهتماما بالقصة وإظهارا بأنّها في ذاتها ممّا يهمّ العلم به، وأنّها تذكير مستقل وأنّها غير تابعة غيرها.

{ **وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ** } عطف على الجملة السابقة، أي: ولقد جاءهم رسول كريم، عطف مفصَّل على مجمل، تفصيل لقصة بعثة موسى عليه السلام.

الفتن: الإيقاع في اختلال الأحوال، وتقدّم في قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191].

الرسول الكريم: موسى، و**الكريم**: النفيس الفائق في صنفه، وتقدّم عند قوله { إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل:29]، أي: رسول من خيرة الرسل، أو من خيرة الناس.

{ **أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ** } تفسير لما تضمّنه وصف { رَسُولٌ } وفعل { جَاءَهُمْ } من معنى الرسالة والتبليغ.

أي: أرجعوا إليّ وأعطوا، قال تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ } [آل عمران:75].

يقال: أدّى الشيء: أوصله وأبلغه. جعل بني إسرائيل كالأمانة عند فرعون على طريقة الاستعارة المكنية.

والمخاطب فرعون ومن حضر من ملئه، ولعلّه إنّما خاطب مجموع الملإ لمّا رأى من فرعون صلفا وتكبّرا من الامتثال لعلّ فيهم من يتبصّر الحق.

{ **عِبَادَ اللَّهِ** } يجوز أن يكون مفعول { أَدُّوا } مرادا به بنو إسرائيل، أجري وصفهم { عِبَادَ اللَّهِ } تذكيرا لفرعون بموجب رفع الاستعباد عنهم، وجاء أيضا { أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ } [الشعراء:17].

ويجوز أن يكون مفعول فعل { أَدُّوا } محذوفا يدل عليه المقام، أي: أدُّوا إليَّ الطاعة، ويكون { عِبَادَ اللَّهِ } منادى بحذف حرف النداء. قال ابن عطية: الظاهر من شرع موسى أنّه بُعث إلى دعاء فرعون للإيمان وأن

يرسل بني إسرائيل، فلمّا أبى فرعون أن يؤمن ثبتت المكافحة في أن يرسل بني إسرائيل، قال: ويدلّ عليه قوله بعد { وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ }.

{ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** } علّة للأمر بتسليم بني إسرائيل إليه، أي: لأنّي مرسل إليكم بهذا، ومؤتمن على ذلك.

{ **وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ** } أي: لا تعلوا على أمره أو على رسوله، فلمّا كان الاعتلاء على أمر الله وأمر رسوله ترفيعا لأنفسهم على واجب امتثال ربهم جُعلوا في ذلك كأنّهم يتعالون على الله.

{ **إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** } علّة جديرة بالعود إلى الجمل الثلاثة المتقدّمة: { أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ } و{ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ } و{ وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ }، لأنّ المعجزة تدلّ على تحقق مضامين تلك الجمل معلولها وعلّتها.

السلطان: من أسماء الحجّة، قال تعالى { إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا } [يونس:68] فالحجّة تلجئ المحجوج على الإقرار لمن يحاجّه، فهي كالمتسلّط على نفسه. وهي هنا: المعجزة لأنّها حجة عظيمة، ولذلك وصف السلطان ب { مُبِينٍ }، أي: واضح الدلالة لا ريب فيه. وهذه المعجزة هي انقلاب عصاه ثعبانا مبينا.

{ **وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ** } عطف على جملة { أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ }، فإنّ مضمون هذه الجملة ممّا شمله كلامه حين تبليغ رسالته. ومعناه: جعلت ربي عوذا، أي: ملجأ. ومثل هذا التركيب ممّا جرى مجرى المثل، ومنه قوله تعالى { قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً } [مريم:18].

{ **رَبِّي وَرَبُّكُمْ** } تعبير أدخل في ارعوائهم من رجمه حين يتذكّرون أنّه استعصم بالله الذي يشتركون في مربوبيّته، وأنّهم لا يخرجون عن قدرته.

الرجم: الرمي بالحجارة تباعا حتّى يموت المرمي أو يثخنه الجراح. والقصد منه تحقير المقتول لأنّهم كانوا يرمون بالحجارة من يطردونه، قال تعالى { قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ } [الحجر:34].

وإنّما استعاذ موسى منه لأنه علم أنّ عادتهم عقاب من يخالف دينهم بالقتل رميا بالحجارة. كما جاء في قوله تعالى { فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ } [القصص:33].

{ **وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ** } التقدير: فاعتزلوني وأعتزلكم لأنّ الاعتزال لا يتحقّق إلّا من جانبين.

وقد جاء ترتيب فواصل هذا الخطاب على مراعاة ما يبدو من فرعون وقومه عند إلقاء موسى دعوته عليهم؛

إذ ابتدأ بإبلاغ ما أرسل به إليهم فآنس منهم التعجّب والتردّد، **فقال:** { إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ }،

فرأى منهم الصلف والأنفة، **فقال:** { وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ }،

فلم يرعوا، **فقال:** { إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ }،

فلاحت عليهم علامات إضمار السوء له، **فقال:** { وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ }.

فكان هذا الترتيب بين الجمل مغنيا عن ذكر ما أجابوا به على أبدع إيجاز.

{ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ } [22]

ليس في المذكور قبل الفاء ما يناسبه التعقيب بهذا الدعاء، إذ المذكور قبله كلام من موسى إليهم، فالتقدير: فأصرّوا على أذاه وعدم متاركته فدعا ربه، وهذا التقدير أليق بقوله { أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ }.

{ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ } التركيب يستوجب تقدير (باء) يتعدّى بها فعل { فَدَعَا }، أي: دعا ربه بأنّهم استوجبوا تسليط العقاب. فالإخبار عن كونهم قوما مجرمين مستعمل في طلب المجازاة على الإجرام، **أو** في الشكاية من اعتدائهم، **أو** في التخوّف من شرّهم إذا استمروا على عدم تسريح بني إسرائيل، وكل ذلك يقتضي الدعاء لكف شرّهم، فلذلك أطلق على هذا الخبر فعل "دعا."

{ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ } [23].

تفريع على الجملة السابقة، والمفرّع قول محذوف دلّت عليه صيغة الكلام، أي: فدعا فقلنا: اسر بعبادي.

يقال: سرى وأسرى. وتقدّم عند قوله تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ } [الاسراء:1]، فتقييده بزمان الليل هنا نظير تقييده هناك، والمقصود تأكيد معنى الإسراء بأنّه حقيقة وليس مستعملا مجازا في التبكير بناء على أنّ المتعارف في الرحيل أن يكون فجرا.

وفائدة التأكيد أن يكون له من سعة الوقت ما يبلغون به إلى شاطئ البحر الأحمر قبل أن يدركهم فرعون.

{ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ } تعليل للأمر بالإسراء ليلا لأنّه ممّا يُستغرب، أي: أنّكم متّبعون فأردنا أن تقطعوا مسافة يتعذّر على فرعون لحاقكم.

{ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ } [24]

عطف على السابقة، فيجوز أن تكون الجملتان صدرتا متّصلتين بأن أعلم الله موسى حين أمره بالإسراء بأنّه يضرب البحر بعصاه فينفلق عن قعره اليابس حتّى يمر منه بنو إسرائيل كما ورد في [الشعراء:63].

ففي الكلام إيجاز تقديره: فإذا سريت بعبادي فسنفتح لكم البحر فتسلكونه فإذا سلكته فلا تخش أن يلحقكم فرعون وجنده واتركه فإنّهم مغرقون فيه.

ويجوز أن تكون الجملة الثانية صدرت وقت دخول موسى ومن معه في طرائق البحر، فيقدّر قول محذوف، أي: وقلنا له: اترك البحر رهوا.

{ وَاتْرُكِ } على الوجهين مجاز في عدم المبالاة بالشيء، كما يقال: دعه يفعل كذا، وذره، كقوله تعالى { ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } [الأنعام:91].

البحر: هو بحر القلزم المسمَّى اليوم البحر الأحمر.
{ **رَهْوًا** } حال من البحر على التشبيه البليغ، أي: مثل رهو. و**الرهو**: الفجوة الواسعة. وأصله مصدر رها، إذا فتح بين رجليه، فسُمِّيت الفجوة رهوا تسمية بالمصدر.
{ **إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ** } استئناف بياني جوابا عن سؤال ناشئ عن الأمر بترك البحر مفتوحا.
الجند: القوم والأمّة وعسكر الملك.

{ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [25] وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ [26] وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ [27] كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ [28] }.

استئناف ابتدائي مسوق للعبرة بعواقب الظالمين المغرورين بما هم فيه من النعمة والقوّة، غرورا أنساهم مراقبة الله فيما يرضيه، فموقع هذا الاستئناف <u>موقع النتيجة من الدليل أو البيان من الإجمال</u> لما في قوله تعالى { وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ } [17] من التنظير الإجمالي.
الترك: حقيقته إبقاء شيء في مكان متنقَّل عنه إبقاء اختياريا، ويطلق مجازا على المفارقة غلبة دون اختيار، وهو مجاز مشهور يقال: ترك الميت مالا، ومنه سُمِّي مُخلَّف الميت تركة، وهو هنا من هذا القبيل.
وفعل { تَرَكُوا } مؤذن بأنّهم أغرقوا، وفي ذلك إشارة إلى أنّ ما أمر الله به موسى ووعده به قد تمّ، ففي الكلام إيجاز حذف جمل كثيرة يدلّ عليها قوله تعالى { كَمْ تَرَكُوا }.
المَقام (بفتح الميم): مكان القيام، والقيام هنا مجاز في معنى التمكّن من المكان.
الكريم: من كل نوع أنفسه وخيره، والمراد به: المساكن والديار والأسواق ونحوها ممّا كان لهم.
النَّعمة (بفتح النون): اسم للتنعّم مصوغ على وزنة المرّة. وليس المراد به المرّة بل مطلق المصدر باعتبار أنّ مجموع أحوال النعيم صار كالشيء الواحد، وهو أبلغ وأجمع في تصوير معنى المصدر.
{ **فَاكِهِينَ** } متصفين بالفُكاهة (بضم الفاء): وهي اللعب والمزح، أي: كانوا مغمورين في النعمة لاعبين فيها.
{ **كذلك** } راجع لفعل { تَرَكُوا }. والتقدير: تركا مثل ذلك الترك. والإشارة إلى مقدّر دلّ عليه الكلام ومعنى الكاف، وهذا التركيب تقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى { كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً } [الكهف:91].
{ **وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ** } عطف على { تَرَكُوا } أي: تركوها وأورثناها غيرهم، أي: لفرعون الذي ولي بعد موت هذا الفرعون، ولكونه من غير نسل فرعون وُصف هو وجنده بقوم آخرين، وليس المراد قوما من بني إسرائيل.

ووقع في آية الشعراء { فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرائيلَ} [الشعراء:59/57]، والمراد هنالك أنّ أنواعا ممّا أخرجنا منه قوم فرعون أورثناها بني إسرائيل، ولم يقصد أرض فرعون. ومناسبة ذلك هنالك أنّ القومين أخرجا ممّا كانا فيه، فسلب أحد الفريقين ما كان له دون إعادة لأنّهم هلكوا، وأعطي الفريق الآخر أمثال ذلك في أرض فلسطين.

{ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ } [29].

تفريع على قوله { كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ - إلى قوله - قَوْماً آخَرِينَ } [28/25]، فإنّ ذلك كلّه يتضمّن أنّهم هلكوا وانقرضوا، أي: فما كان مهلكهم إلّا كمهلك غيرهم ولم يكن حدثا عظيما كما كانوا يحسبون.

وكان من كلام العرب إذا هلك عظيم أن يهوّلوا أمر موته بنحو: بكت عليه السماء، وبكته الريح، وتزلزلت الجبال. والكلام مسوق مساق التحقير لهم.

{ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ [30] مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ } [31].

معطوف على الكلام المحذوف الذي دلذ عليه قوله تعالى { إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ } [24]، والتقدير: فأغرقناهم ونجّينا بني إسرائيل، كما قال في قوله تعالى { وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ } [الشعراء:66/64]. أي: فكانت آية البحر هلاكا لقوم وإنجاء لآخرين.

والمقصود من ذكر هذا الإشارة إلى أنّ الله تعالى ينجي الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم من عذاب أهل الشرك بمكة، كما نجّى الذين اتبعوا موسى من عذاب فرعون.

{ الْعَذَابِ الْمُهِينِ } هو ما كان يعاملهم به فرعون وقومه من الاستعباد والإشقاق عليهم في السُّخرة، فذلك العذاب المهين، لأنّه عذاب فيه إذلال.

{ مِنْ فِرْعَوْنَ } الأظهر أن يكون بدلا مطابقا لـ { **الْعَذَابِ الْمُهِينِ** } فتكون { مِنْ } مؤكدة لـ { مِنَ } الأولى المعدّية لـ { نَجَّيْنَا }، لأنّ الحرف الداخل على المبدل منه يجوز أن يدخل على البدل للتأكيد.

فأظهرت { مِنْ } لخفاء كون اسم فرعون بدلا من العذاب تنبيها على قصد التهويل لأمر فرعون في جعل اسمه نفس العذاب المهين، أي: في حال كونه صادرا من فرعون.

{ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً } مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان التهويل الذي أفاده جعل اسم فرعون بدلا من العذاب المهين.

العالي: المتكبّر العظيم في الناس، قال تعالى { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ } [القصص:4].

{ **مِنَ الْمُسْرِفِينَ** } خبر ثان عن فرعون، و**الإسراف**: الإفراط والإكثار. والمراد هنا: الإكثار في التعالي، يراد الإكثار في أعمال الشر بقرينة مقام الذمّ. والتركيب أشد مبالغة في اتصافه بالإسراف من قول: مسرفا.

{ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } [32].

إشارة إلى أنّ الله تعالى قد اختار الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم على أمم عصرهم كما اختار الذين آمنوا بموسى عليه السلام على أمم عصرهم، وأنه عالم بأنّ أمثالهم أهل لأن يختارهم الله.

والمقصود: التنويه بالمؤمنين بالرسل، وأنّ ذلك يقتضي أن ينصرهم الله على أعدائهم.

{ **وَلَقَدِ** } التأكيد لأجل الإشارة السابقة، كما أكّد في قوله آنفا { وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرائيلَ } [30].

{ **عَلَى عِلْمٍ** } (على) هنا بمعنى (مع)، وموضع المجرور بها موضع الحال.

{ **العَالَمِينَ** } الأمم المعاصرة لهم. ثم بدّلوا بعد ذلك فضُربت عليهم الذلة.

{ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ } [33].

إيتاء الآيات من آثار الاختيار لأنّه من عناية الله بالأمّة لأنّه يزيدهم يقينا بإيمانهم.

{ **الْآيَاتِ** } المعجزات التي ظهرت على يد موسى عليه السلام أيّد الله بها بني إسرائيل في مواقع حروبهم بنصر الفئة القليلة منهم على الجيوش الكثيرة من عدوّهم.

وهذا تعريض بالإنذار للمشركين بأنّ المسلمين سيغلبون جمعهم مع قلّتهم.

البلاء: الاختبار يكون بالخير والشر. فالأوّل اختبار لمقابلة النعمة بالشكر أو غيره، والثاني اختبار لمقدار الصبر، قال تعالى { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } [الانبياء: 35]. أي: ما فيه اختبار لهم في نظر الناس ليعلم بعضهم أنّهم قابلوا نعمة إيتاء الآيات بالشكر، ويحذّروا قومهم من مقابلة النعمة بالكفران.

{ إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ [34] إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ [35] فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [36] }.

اعتراض بين جملة { يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ } [16] وجملة { أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ } [37]، فإنّه لمّا هدّدهم بعذاب الدخان ثم بالبطشة الكبرى وضرب لهم المثل بقوم فرعون، أعقب ذلك بالإشارة إلى أنّ إنكار البعث هو الذي صرفهم عن توقّع جزاء السوء على إعراضهم.

{ **إِنَّ** } ليس هنا للتأكيد لأنّ هذا القول لا تردّد فيه حتى يحتاج إلى التأكيد فتعيّن كونه لمجرّد الاهتمام بالخبر،

وهو إذا وقع مثل هذا الموقع أفاد التسبُّب وأغنى عن الفاء. فالمعنى: إنّا منتقمون منهم بالبطشة الكبرى لأنّهم لا يرتدعون بوعيد الآخرة لإنكارهم الحياة الآخرة.

{ **هَؤُلاءِ** } حيثما ذكر في القرآن غير مسبوق بما يصلح أن يشار إليه مراد به المشركون من أهل مكة.

{ **هِيَ** } ضمير الشأن ويقال له: ضمير القصة، لأنّه يستعمل بصيغة المؤنث بتأويل القصة، أي: لا قصة في هذا الغرض إلّا الموتة المعروفة فهي موتة دائمة لا نشور لنا بعدها.

وهذا كلام من كلماتهم في إنكار البعث فإنّ لهم كلمات في ذلك، فتارة ينفون أن تكون بعد الموت حياة كما حكى عنهم في آيات أخرى مثل قوله تعالى { وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا } [الأنعام:29]، وتارة ينفون أن يطرأ عليهم بعد الموتة المعروفة شيء غيرها، يعنون بذلك شيئا ضدّ الموتة وهو الحياة بعد الموتة.

فلهم في نفي الحياة بعد الموت أفانين من أقوال الجحود.

{ **إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى** } السابقة، ونظيرها قوله تعالى { أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } [الصافات:71].

{ **وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ** } تصريح بمفهوم القصر. وجيء به معطوفا للاهتمام به لأنّه غرض مقصود مع إفادته تأكيد القصر.

{ **فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } حجّة على نفي البعث بأنّ الأموات السابقين لم يرجع أحد منهم إلى الحياة. وضمير جمع المخاطبين أرادوا به النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين الذين كانوا يقولون لهم { إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ } [هود: 7].

{ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ } [37].

استئناف ناشئ عن قوله { وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ} [17]، فضمير (هم) راجع إلى اسم الإشارة في قوله تعالى { إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى } [35]، فبعد أن ضرب لهم المثل بمهلك قوم فرعون زادهم مثلا آخر هو أقرب إلى اعتبارهم به وهو مهلك قوم أقرب إلى بلادهم وهم قوم تُبّع، فإنّ العرب يتسامعون بعظمة ملكه، وقومه أهل اليمن، وكثير من العرب شاهدوا آثار قوّتهم وعظمتهم في مراحل أسفارهم وتحادثوا بما أصابهم من الهلك بسيل العرم.

{ **أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ** } افتتح الكلام بالاستفهام التقريري لاسترعاء الأسماع لمضمونه، لأنّ كلّ أحد يعلم أن تُبّعا ومن قبله من الملوك خير من هؤلاء المشركين. لأنّهم كانوا يضربون بهم الأمثال في القوّة والمنعة.

والمعنى: أنّهم ليسوا خيرا من قوم تبّع ومن قبلهم من الأمم الذين استأصلهم الله لأجل إجرامهم، فلمّا ماثلوهم في الإجرام فلا مزيّة لهم تدفع عنهم الاستئصال.

{ **قَوْمُ تُبَّعٍ** } هم حِمْير وهم سكان اليمن وحضرموت من حِمْير وسبأ وقد ذُكروا في [ق:14].

تُبَّع: (بضم الميم وتشديد الباء) لقب لمن يملك جميع بلاد اليمن (حِمِيرًا وسبأ وحضرموت)، فلا يطلق على الملك لقب (تبّع) إلّا إذا ملك هذه المواطن الثلاثة. قيل سَمَّوْه تُبَّعا باسم الظل لأنه يتبع الشمس كما يتبع الظل الشمس، ومعنى ذلك: أنّه يسير بغزواته إلى كلّ مكان تطلع عليه الشمس، وقيل لأنّه تتبعه ملوك مخاليف اليمن، وتخضع له جميع الأقيال والأذواء من ملوك مخاليف اليمن وأذوائه، فلذلك لُقِّب تبّعا لأنّه تتبعه الملوك وتبّع المراد هنا المسمَّى (أسعد والمُكنّى أبا كَرِب)، كان قد عظم سلطانه وغزا بلاد العرب ودخل مكة ويثرب وبلغ العراق. ويقال: إنّه الذي بنى مدينة الحيرة في العراق، وكانت دولة تبّع في سنة ألف قبل البعثة المحمدية، وقيل كان في حدود السبعمائة قبل بعثة النبيّ صلى الله عليه وسلم.

{ **أَهْلَكْنَاهُمْ** } تعليق الإهلاك بقوم تبع دونه يقتضي أنّ تبّعا نجا من هذا الإهلاك وأنّ الإهلاك سُلّط على قومه. قالت عائشة: ألا ترى أنّ الله ذمّ قومه ولم يذمّه. والمروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في مسند أحمد وغيره أنّه قال: " **لا تسبوا تُبَّعا فإنّه كان قد أسلم** "، وفي رواية " **كان مؤمنا** ". وفسّره بعض العلماء بأنّه كان على دين إبراهيم عليه السلام وأنه اهتدى إلى ذلك بصحبة حبرين من أحبار اليهود لقيهما بيثرب حين غزاها، وذلك يقتضي نجاته من الإهلاك. ولعلّ الله أهلك قومه بعد موته أو في مغيبه.

{ **إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** } تعليل لمضمون جملة { أَهْلَكْنَاهُمْ }، أي: أهلكناهم بسبب إجرامهم، أي: شركهم.

{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ [38] مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ [39] }.

عطف على جملة { إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى } [35/34]، ردًّا عليهم كما علمته آنفا.

المعنى: أنّه لو لم يكن بعث وجزاء لكان خلق السماوات والأرض وما بينهما عبثا، ونحن خلقنا ذلك كله بالحق، أي: بالحكمة، كما دلّ عليه إتقان نظام الموجودات، فلا جرم اقتضى خلق ذلك أن يجازى كلّ فاعل على فعله وأن لا يضاع ذلك، ولمّا كان المشاهد أنّ كثيرا من الناس يقضي حياته ولا يرى لنفسه جزاء على أعماله تعيّن أنّ الله أخَّر جزاءهم إلى حياة أخرى وإلّا لكان خلقهم في بعض أحواله من قبيل اللعب.

{ **لاعِبِينَ** } توبيخ للذين أحالوا البعث والجزاء بأنّهم اعتقدوا ما يفضي بهم إلى جعل أفعال الحكيم لعبا، وقد تقدّم وجه الملازمة عند تفسير قوله { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ } [المؤمنون:115]، وعند قوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا } [ص:27].

{ **مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ** } بدل اشتمال من السابقة. والباء للملابسة، أي: خلقنا ذلك ملابسا ومقارنا للحق،

أو للسببية، أي: بسبب الحق، أي: لإيجاد الحق من خلقهما.

الحقّ: ما يحق وقوعه من عمل أو قول، أي: يجب ويتعيّن لسببيّة أو تفرّع أو مجازاة.

فمن الحق الذي خُلقت السماوات والأرض وما بينهما لأجله مكافأة كلّ عامل بما يناسب عمله ويجازيه، وتقدّم عند قوله تعالى { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [الروم:8].

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } الاستدراك ناشئ عمّا أفاده نفي أن يكون خلق المخلوقات لعبا، وإثبات أنّه للحقّ لا غير، من كون شأن ذلك أن لا يخفى ولكن جهل المشركين هو الذي سوّل لهم أن يقولوا { مَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ } [5]. وجملة الاستدراك تذييل.

وقريب من معنى الآية قوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ } [الحجر:85].

{ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ [40] يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلىً عَنْ مَوْلىً شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ [41] إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [42] }.

هذه الجملة تتنزّل من التي قبلها منزلة النتيجة من الاستدلال ولذلك لم تعطف، والمعنى: فيوم الفصل ميقاتهم، إعلاما لهم بأنّ يوم القضاء هو أجل الجزاء، فهذا وعيد لهم.

{ **إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ** } هو يوم الحكم، لأنّه يُفصل فيه الحق من الباطل، وهو من أسماء يوم القيامة، قال تعالى { لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ } [المرسلات:13/12]. والتأكيد لردّ إنكارهم.

الميقات: اسم زمان التوقيت، قال تعالى { إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً } [النبأ:17]، وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ } [البقرة:189]. وحذف المتعلّق لظهوره من المقام، أي: ميقات جزائهم.

{ **مِيقَاتُهُمْ** } أضيف الميقات إلى ضمير المخبر عنهم لأنّهم المقصود من هذا الوعيد وإلّا فإنّ يوم الفصل ميقات جميع الخلق مؤمنيهم وكفّارهم.

{ **أَجْمَعِينَ** } التأكيد للتنصيص على الإحاطة والشمول، أي: ميقات لجزائهم كلّهم لا يفلت منه أحد منهم، تقوية في الوعيد وتأييسا من الاستثناء.

{ **يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلىً عَنْ مَوْلىً شَيْئاً** } بدل من { يَوْمُ الْفَصْلِ }، أو عطف بيان.

الإغناء: الإفادة والنفع بالكثير أو القليل.

المولى: القريب والحليف، وتقدّم عند قوله تعالى { وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائي } [مريم:5].

وتنكير { مَوْلىً } في سياق النفي لإفادة العموم، أي: لا يغني أحد من الموالي كائنا من كان.

{ **شَيْئاً** } مفعول مطلق. والتنكير للتقليل، وهو الغالب في تنكير لفظ شيء، كما قال تعالى { وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ } [سبأ: 16] ووقوعه في سياق النفي للعموم أيضا، يعني: أيّ إغناء كان.

{ **وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ** } الضميران راجعان إلى ما رجع إليه اسم الإشارة من قوله { إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ } [34].

المعنى: أنّهم لا يغني عنهم أولياؤهم المظنون بهم ذلك ولا ينصرهم آخرون ليسوا من مواليهم.

النصر: الإعانة على العدو وعلى الغالب، وهو أشد الإغناء.

وبُني الفعل إلى المجهول ليعمّ نفي كلّ ناصر مع إيجاز العبارة.

{ **إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ** } استثناء متّصل، أي: إلّا من رحمه الله من الموالي، أي: فإنّه يأذن أن يشفع فيه.

وقيل: هو استثناء منقطع لأنّ من رحمه الله ليس داخلا في شيء قبله ممّا يدل على أهل المحشر،

المعنى: لكن من رحمه الله لا يحتاج إلى من يغني عنه أو ينصره، وهذا قول الكسائي والفراء.

{ **إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** } استئناف بياني هو جواب مجمل عن سؤال سائل عن تعيين من رحمه الله؟

{ **الْعَزِيزُ** } لا يُكرهه أحد على العدول عن مراده، فهو يرحم من يرحمه بمحض مشيئته.

{ **الرَّحِيمُ** } واسع الرحمة لمن يشاء من عباده على وفق ما جرى به علمه وحكمته ووعده.

{ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ [43] طَعَامُ الْأَثِيمِ [44] كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ [45] كَغَلْيِ الْحَمِيمِ [46] خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ [47] ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ [48] ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [49] إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ [50] }.

لمّا ذكر الله فريقًا مرحومين على وجه الأجمال قابله هنا بفريق معذّبون وهم المشركون، ووصف بعض أصناف عذابهم وهو مأكلهم وإهانتهم وتحريقهم، فكان مقتضى الظاهر أن يبتدأ الكلام بالإخبار عنهم بأنّهم يأكلون شجرة الزقوم كما قال في [الواقعة:52/51] { ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ }، فعدل عن ذلك إلى الإخبار عن شجرة الزقوم بأنّها طعام الأثيم اهتماما بالإعلام بحال هذه الشجرة. وقد جُعلت شجرة الزقوم شيئا معلوما للسامعين فأخبر عنها بطريق تعريف الإضافة لأنّها سبق ذكرها في سورة الواقعة التي نزلت قبل سورة الدخان.

{ **شَجَرَتَ** } كتبت في المصاحف بتاء مفتوحة مراعاة لحالة الوصل وكان الشائع في رسم أواخر الكلم أن تراعى فيه حالة الوقف، فهذا ممّا جاء على خلاف الأصل.

{ **طَعَامُ** } معنى كون الشجرة طعاما أنّ ثمرها طعام، كما قال تعالى { طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا } [الصافات66/65].

{ **الْأَثِيمِ** } كثير الآثام، كما دلّت عليه زنة فعيل. والمراد به: المشركون المذكورون في قوله { إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى } [35/34]، فهذا من الإظهار في مقام الإضمار لقصد الإيماء إلى سبب تلك المعاملة.

المُهل: (بضم الميم) دُرْدِيُّ الزيت. والتشبيه به في سواد لونه وقيل في ذوبانه.

{ **الْحَمِيمِ** } الماء شديد الحرارة، وتقدّم عند قوله تعالى { لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ } [الأنعام:70].

{ **خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ** } مقول لقول محذوف دلّ عليه السياق، أي: يقال لملائكة العذاب: خذوه، والضمير المفرد عائد إلى الأثيم باعتبار آحاد جنسه.

العتل: القود بعنف، وهو أن يُؤخذ بتلبيب أحد فيقاد إلى سجن أو عذاب، وماضيه جاء بضم العين وكسرها.

سواء الشيء: وسطه، و{ سَوَاءِ الْجَحِيمِ } أشد المكان حرارة.

{ **ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ** } للتراخي الرتبي لأنّ صب الحميم على رأسه أشدّ عليه من أخذه وعتله.

الصبّ: إفراغ الشيء المظروف من الظرف. هنا مستعار للتقوية والإسراع، لأنّ العذاب أمر معنوي لا يصب. فهو تمثيلية اقتضاها ترويع الأثيم حين سمعها. فلمَّا كان المحكي هنا القول الذي يسمعه الأثيم صيغ بطريقة التمثيلية تهويلا، بخلاف قوله تعالى { يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ } [الحج:19] الذي هو إخبار عنهم في زمن هم غير سامعيه فلم يؤت بمثل هذه الاستعارة إذ لا مقتضى لها.

{ **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** } مقول قول آخر محذوف تقديره: قولوا له أو يقال له.

الذوق: مستعار للإحساس، وصيغة الأمر مستعملة في الإهانة.

{ **إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** } خبر مستعمل في التهكّم بعلاقة الضدية. والمقصود عكس مدلوله، أي: أنت الذليل المهان، والتأكيد للمعنى التهكّمي.

{ **إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ** } بقية القول المحذوف، أي: ويقال للآثمين جميعا: إنّ هذا ما كنتم به تمترون في الدنيا. والخبر مستعمل في التنديم والتوبيخ. واسم الإشارة مشار به إلى الحالة الحاضرة لديهم، أي: هذا العذاب والجزاء هو ما كنتم تكذّبون به في الدنيا.

الامتراء: الشك، لأنّ يقينهم لمّا كان خليا عن دلائل العلم كان بمنزلة الشك.

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ [51] فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [52] يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ [53] }.

استئناف ابتدائي انتقل به الكلام من وصف عذاب الأثيم إلى وصف نعيم المتّقين لمناسبة التضاد على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والعكس.

{ **مَقَامٍ** } (بفتح الميم): مكان القيام ويتناول المسكن وما يتبعه. و(بضم الميم): مكان الإقامة.

والمراد هنا المكان، فهو مجاز بعلاقة الخصوص والعموم.

الأمين: هنا بمعنى الآمن. والمراد: الآمن ساكنه.

{ **فِي مَقَامٍ أَمِينٍ** } مجاز عقلي كما قال تعالى { وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ } [التين:3]. والأمن أكبر شروط حسن المكان، لأنّ الساكن أوّل ما يتطلب الأمن، وهو السلامة من المكاره والمخاوف فإذا كان آمنا في منزلة كان مطمئن البال شاعرا بالنعيم الذي يناله.

{ **فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** } بدل، وذلك من وسائل النزهة والطيب. وأعيد حرف (في) مع البدل للتأكيد.

الجنَّات: جمع جنّة، وتقدّم في [البقرة:25].

العيون: جمع عين، وتقدّم في قوله تعالى { فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً } [البقرة:60]، فهذا نعيم مكانهم.

{ **يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ** } وصف نعيم أجسادهم بذكر لباسهم، وهو لباس الترف والنعيم، وفيه كناية عن توفّر أسباب نعيم الأجساد، لأنّه لا يلبس هذا اللباس إلّا من استكمل ما قبله من ملائمات الجسد.

السندس: الديباج الرقيق النفيس، والأكثر على أنّه معرَّب من الفارسية، وقيل عربي أصله: سِندي، منسوب إلى السند على غير قياس. والسندس يُلبس ممّا يلي الجسد.

الإستبرق: الديباج القوي يُلبس فوق الثياب، وهو معرَّب (استبره) فارسية، وهو الغليظ مطلقا ثم خص بغليظ الديباج.

وتقدما في قوله تعالى { وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ } [الكهف:31].

{ **مُتَقَابِلِينَ** } ثمّ وُصف نعيم نفوسهم بعضهم مع بعض في مجالسهم ومحادثاتهم، لأنّ الحديث مع الأصحاب والأحبة نعيم للنفس فأغنى القول عن ذكر اجتماعهم وتحابهم وحديث بعضهم مع بعض وأنّ ذلك شأنهم أجمعين بأنّ ذكر ما يستلزم ذلك وهو صيغة متقابلين ومادته على وجه الإيجاز البديع.

{ **كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ [54] يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ [55] لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ [56] فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [57]** }.

{ **كَذَلِكَ** } اعتراض وقد تقدّم بيان معناه عند قوله تعالى { كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً } [الكهف:91].

{ **وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ** } جعلناهم أزواجا، جمع زوج ضد الفرد، والزوج هنا كناية عن القرين، أي: قرنا بكل واحد نساء حورا عينا، وليس الفعل هنا مشتقا من الزوج الشائع إطلاقه على امرأة الرجل وعلى رجل المرأة لأن ذلك الفعل يتعدّى بنفسه يقال: زوّجه ابنته وتزوج بنت فلان، قال تعالى { زَوَّجْنَاكَهَا } [الأحزاب: 37] وليس ذلك بمراد هنا إذ لا طائل تحته، إذ ليس في الجنة عقود نكاح، وإنّما المراد أنهم مأنوسون بصحبة حبائب من النساء كما أنسوا بصحبة الأصحاب والأحبة من الرجال، استكمالا لمتعارف الأنس بين الناس.

الحور: جمع الحَوْراء، وهي البيضاء.

العين: جمع العيناء، وهي واسعة العين، وتقدّم في [الصافات:48].

وشمل الحور العين النساء اللائي كنّ أزواجهم في الدنيا، ونساء يخلقهنّ الله لأجل الجنة، قال تعالى { إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً } [الواقعة:35]، وقال تعالى { هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ } [يس:56].

{ **يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ** } أي: يأمرون بأن تُحضر لهم الفاكهة، أي: فيُجابون. والجملة حال من { الْمُتَّقِينَ }.

الفاكهة: ما يُتفكّه به، أي: يُتلذّذ بطعمه من الثمار ونحوها.

{ **آمِنِينَ** } حال من ضمير { يَدْعُونَ }. والمراد هنا أمن خاص غير الذي في قوله { فِي مَقَامٍ أَمِينٍ } [51]. وهو الأمن من الغوائل والآلام من تلك الفواكه، على خلاف حال الإكثار من الطعام في الدنيا، كقوله تعالى في خمر الجنّة { لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ } [الصافات:47]. **أو** آمنين من نفاد ذلك وانقطاعه.

{ **لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى** } حال أخرى. وهذه بشارة بخلود النعمة، لأنّ الموت يقطع ما كان في الحياة من النعيم لأصحاب النعيم. كما كان الإعلام بأنّ أهل الشرك لا يموتون نذارة بدوام العذاب.

{ **إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى** } الاستثناء لتأكيد الشيء بما يشبه ضدّه لزيادة تحقيق انتفاء ذوق الموت عن أهل الجنة، فكأنه قيل: لا يذوقون الموت البتّة، وقرينة ذلك وصفها بـ { الأولى }، أي: السالفة، كما تقدّم آنفا في قوله تعالى { إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى } [35].

{ **وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ** } عطف على { وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ }، تذكير بنعمة السلامة ممّا ارتبك فيه غيرهم. وذلك ممّا يُحمد الله عليه، كما ورد أنّ من آداب من يرى غيره في شدّة أو بأس أن يقول: الحمد لله الذي عافاني ممّا هو فيه.

{ **وَوَقَاهُمْ** } الضمير عائد إلى ضمير المتكلّم في { وَزَوَّجْنَاهُمْ } على طريقة الالتفات.

{ **فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ** } حال من المذكورات. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. وذكر الرب إظهار في مقام الإضمار ومقتضى الظاهر أن يقال: فضلا منه أو منّا. ونكتة هذا الإظهار تشريف مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم، والإيماء إلى أنّ ذلك إكرام له لإيمانهم به.

{ **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } تذييل، والإشارة لتعظيم الفضل ببعد المرتبة.

{ **هُوَ** } ضمير الفصل لتخصيص الفوز بالفضل، وهو قصر لإفادة معنى الكمال كأنّه لا فوز غيره.

{ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [58] فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ [59] }.

الفاء للتفريع، إشارة إلى أنّ ما بعدها متفرّع عمّا قبلها، والمذكور بعدها فذلكة للسورة، أي: إجمال لأغراضها بعد تفصيلها فيما مضى، إحضارا لتلك الأغراض وضبطا لترتّب علّتها.

{ **فَإِنَّمَا** } قصر قلب وهو رد على المشركين إذ قد سهّل لهم طريق فهمه بفصاحته وبلاغته فقابلوه بالشك والهزء، كما قصّه الله في أوّل السورة بقوله تعالى { بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ } [9]، أي: أنَّا جعلنا فهمه يسيرا بسبب اللغة العربية الفصحى وهي لغتهم إلّا ليتذكّروا، فلم يتذكّروا.

{ **يَسَّرْنَاهُ** } الضمير عائد إلى الكتاب المفهوم من المقام والمذكور في قوله تعالى { وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ } [3]، والذي كان جلّ غرض السورة في إثبات إنزاله من الله، كما أشارت إليه الحروف المقطعة، وقوله { وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ }، فهذا التفريع مرتبط بذلك الافتتاح وهو من رد العجز على الصدر.

ويجوز أن يكون المفرع قوله { لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } وقُدِّم عليه ما هو توطئة له اهتماما بالمقدّم، وتقدير النظم: فلعلهم يتذكرون بهذا لما يسّرناه لهم بلسانهم.

ومفعول { يَسَّرْنَاهُ } مضاف مقدّر دل عليه السياق تقديره: فهمه. فالتيسير هنا تسهيل الفهم، وتقدّم عند قوله تعالى { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ } [مريم:97].

{ **بِلِسَانِكَ** } والباء للسببية، أي: بسبب لغتك، أي: العربية. وفي إضافة اللسان إلى ضمير النبيّ صلى الله عليه وسلم عناية بجانبه وتعظيم له. وإطلاق اللسان، وهو اسم الجارحة، على اللغة مجاز شائع، قال تعالى { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } [الشعراء:195].

{ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } أفصح عن الأمر بالتذكير بالقرآن. والتقدير: فذكّرهم به ولا تسأم لعنادهم فيه ودُم على ذلك حتّى يحصل التذكُّر.

{ **لَعَلَّهُمْ** } مستعملة في التعليل، أي: لأجل أن يتذكّروا به، وهذا كقوله تعالى { وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ } [الاحقاف: 12].

وفي هذا الكلام الموجز إخبار بتيسير القرآن للفهم، لأنّ الغرض منه التذكّر، قال تعالى { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر:17]، وبأنّ سبب ذلك التيسير كونه بأفصح اللغات، وكونه على لسان أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم، فلذلك كان تسببه في حصول تذكرهم تسببا قريبا لو لم يكونوا في شك يلعبون.

وباعتبار هذه المعاني المتوافرة حسن أن يفرّع على هذه الجملة بقوله تعالى:

{ **فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ** } تأييد النبي صلى الله عليه وسلم وتهديد معانديه. أي: فارتقب النصر الذي سألته بأن تعان عليهم بسنين كسنين يوسف، فإنّهم مرتقبون ذلك وأشد منه وهو البطشة الكبرى.

{ **إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ** } استعارة تهكّمية، لأنّ المعنى أنّهم لاقون ذلك لا محالة، وقد حسَّنها اعتبار المشاكلة بين { فَارْتَقِبْ } و{ مُرْتَقِبُونَ }

وفي هذه الخاتمة ردّ العجز على الصدر إذ كان صدر السورة فيه ذكر إنزال الكتاب المبين، وأنّه رحمة من الله بواسطة رسالة محمد صلى اله عليه وسلم، وكان في صدرها الإنذار بارتقاب يوم تأتي السماء بدخان مبين وذكر البطشة الكبرى.

فكانت خاتمة هذه السورة خاتمة عزيزة المنال اشتملت على حسن براعة المقطع وبديع الإيجاز.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجاثية

سُمِّيت هذه السورة في كثير من المصاحف العتيقة بتونس وكتب التفسير وفي صحيح البخاري (**سورة الجاثية**) لوقوع لفظ { جَاثِيَةً } [28] فيها ولم يقع في موضع آخر من القرآن.

وتُسمَّى (**حم الجاثية**). وتُسمَّى (**سورة شريعة**) لوقوع لفظ { شريعة } [18] فيها، ولم يقع في موضع آخر من القرآن. وتُسمَّى (**سورة الدهر**) لوقوع { وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } [24] فيها، ولم يقع اللفظ في ذوات { حم } الأُخر.

وهي مكية، قال ابن عطيّة: بلا خلاف.

وهي **الرابعة والستون في ترتيب نزول السور** عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الدخان وقبل الأحقاف.

وعدد آيها، في عدّ المدينة ومكّة والشام والبصرة، ست وثلاثون. وفي عدّ الكوفة سبع وثلاثون.

أغراض السورة

*/ الابتداء بالتحدّي بإعجاز القرآن، وأنّه جاء بالحقّ توطئة لما سيذكر بأنّه حقّ.

*/ إثبات انفراد الله تعالى بالإلهية بدلائل ما في السماوات والأرض من آثار خلقه وقدرته في جواهر الموجودات وأعراضها، وإدماج ما فيها من نعم، يحقّ على الناس شكرها لا كفرها.

*/ وعيد الذين كذبوا على الله والتزموا الآثام بالإصرار على الكفر والإعراض عن النظر في آيات القرآن والاستهزاء بها.

*/ التنديد على المشركين إذ اتخذوا آلهة على حسب أهوائهم، وإذ جحدوا البعث، وتهديدهم بالخسران يوم البعث، ووصف أهوال ذلك، وما أُعد فيه من العذاب للمشركين ومن رحمة للمؤمنين.

*/ دعاء المسلمين للإعراض عن إساءة الكفّار لهم، والوعد بأنّ الله سيُخزي المشركين.

*/ وصف بعض أحوال يوم الجزاء.

*/ نُظِّر الذين أهملوا النظر في آيات الله مع تبيانها بحال بني إسرائيل في اختلافهم في كتابهم بعد أن جاءهم العلم وبعد أن اتّبعوه، فما ظنّك بمن خالف آيات الله من أوّل وهلة، تحذيرا لهم من أن يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل من تسليط الأمم عليهم، وذلك تحذير بليغ.

{ حم } [1]
تقدّم القول في نظائره، وهذه جملة مستقلّة.

{ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } [2].

استئناف ابتدائي وهو جملة مركّبة من مبتدأ وخبر. والمقصود: إثبات أنّ القرآن موحى به من الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فكان مقتضى الظاهر أن يُجعل القرآن مسندا إليه ويُخبر عنه فيقال: القرآن منزل من الله العزيز الحكيم، لأنّ كونه منزّلا من الله هو محل الجدال فيقتضي أن يكون هو الخبر، ولو أذعنوا لكونه تنزيلا لما كان منهم نزاع في أن تنزيله من الله، ولكن خولف مقتضى الظاهر لغرضين:

الغرض الأوّل: التشويق إلى تلقّي الخبر، لأنّهم إذا سمعوا الابتداء بتنزيل الكتاب استشرفوا إلى ما سيخبر عنه؛ فأمّا الكافرون فيترقّبون أنّه سيُلقى إليهم وصف جديد لأحوال تنزيل الكتاب فيتهيّأون لخوض جديد من جدالهم وعنادهم، وأمّا المؤمنون فيترقّبون لِما يزيدهم يقينا بهذا التنزيل.

الغرض الثاني: أنّه فُرض أنّ كون القرآن تنزيلا أمر لا يُختلف فيه، فالذين خالفوا فيه كأنّهم خالفوا في كونه منزلا من عند الله، وهل يكون التنزيل إلّا من عند الله، فيؤول إلى تأكيد الإخبار بأنّه منزل من عند الله.

{ الْكِتَابِ } هو المعهود، وهو ما نزل من القرآن إلى تلك الساعة.

{ الْعَزِيزُ } للإشعار بأنّ ما نزل منه مناسب لعزّته فهو كتاب عزيز كما وصفه تعالى بقوله { وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ } [فصلت:41]، أي: هو غالب لمعانديه، وذلك لأنّه أعجزهم عن معارضته.

{ الْحَكِيمُ } للإشعار بأنّ ما نزل من عنده مناسب لحكمته، فهو مشتمل على دلائل اليقين والحقيقة، ففي ذلك إيماء إلى أنّ إعجازه من جانب بلاغته، إذ غلبت بلاغة بلغائهم، ومن جانب معانيه، إذ أعجزت حكمته حكمة الحكماء. وقد تقدّم مثيل هذا في [الزمر:1]، وقريب منه في [غافر:2].

{ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ [3] وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [4] وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [5] }.

موقع هذا الكلام موقع تفصيل المجمل لما جمعته الآية السابقة، باعتبار أنّ آيات السماوات والأرض وما عطف عليها إنّما كانت آيات للمؤمنين الموقنين، وللذين حصل لهم العلم بسبب ما ذكّرهم به القرآن، وممّا يؤيّد ذلك قوله تعالى { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ } [6].

{ **إنَّ** } تأكيد وإن كان المخاطبون غير منكريه، لتنزيلهم منزلة المنكر لذلك بسبب عدم انتفاعهم بما في هذه الكائنات من دلالة على وحدانية الله تعالى، وإلّا فقد قال الله تعالى { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } [الزخرف:9].

والخطاب موجه إلى المشركين ولذلك قال { لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ / آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } دون أن يقال: لآيات لكم أو آيات لكم، أي: هي آيات لمن يعلمون دلالتها من المؤمنين، ومن الذين يوقنون.

{ **وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** } معطوفة على السابقة، عطف خاص على عام، لما في هذا الخاص من التذكير بنعمة إيجاد النوع استدعاء للشكر عليه.

البثّ: التوزيع والإكثار وهو يقتضي الخلق والإيجاد. كما في قوله { وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ } [البقرة:164].

وعبّر بالمضارع ليفيد تجدّد البث وتكرّره باعتبار اختلاف أجناس الدواب وأنواعها وأصنافها.

الدابة: تطلق على كلّ ما يدبّ على الأرض غير الإنسان، وهذا أصل إطلاقها.

الرزق: القوت. أطلق هنا على المطر على طريقة المجاز المرسل، لأنّ المطر سبب وجود الأقوات. وقد ذكر في قوله تعالى { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ } [البقرة:164].

وتقدّمت نظائر هذه الآية في مواضع عدّة.

فالمعنى: أنّ الذين انتفعوا بالآيات هم المؤمنون العاقلون، فوزّعت هذه الأوصاف على فواصل هذه الآي، لأنّ ذلك أوقع في نفس السامع. وقُدِّم المتّصفون بالإيمان لشرفه، وجُعل خلق الناس والدواب آية للموصوفين بالإيقان لأنّ دلالة الخلق كائنة في نفس الإنسان وما يحيط به من الدواب، وجُعل اختلاف الليل والنهار وحوادث الجو آية للذين اتصفوا بالعقل، لأنّ دلالتها على الوحدانية بواسطة لوازم مترتّبة بإدراك العقل.

{ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ } [6].

{ **تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ** } يجوز أن تكون إشارة إلى الآيات المذكورة في قوله { لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ } [3] وقوله { آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [4] وقوله { آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [5].

{ **نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ** } في موضع الحال من { آيَاتُ اللَّهِ }. وإسناد التلاوة إلى الله مجاز عقلي، لأنّ الله موجِد القرآن المتلو الدال على تلك الآيات.

التلاوة: القراءة. مجاز عقلي، لأنّ المتلو هو ما يدلّ عليها.

ويجوز أن تكون الإشارة إلى آيات الله المنزّلة في القرآن، فيكون استعمال فعل { نَتْلُوهَا } في حقيقته.

{ **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ** } الاستفهام مستعمل في التأييس والتعجيب.

{ **حَدِيثٍ** } المراد: القرآن، كقوله تعالى { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ } [الزمر:23]، وكما وقع إضافة حديث إلى ضمير القرآن في قوله تعالى { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف:185]، وفي قوله تعالى { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } [المرسلات:50].

{ **بَعْدَ** } هنا بمعنى (دون). فالمعنى: فبأي حديث دون الله وآياته. وتقدّم قوله تعالى { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ } [الشورى:44]، وقوله تعالى { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف:185].

{ **وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ** } عطف على { حَدِيثٍ }، لأنّ المراد بها الآيات غير القرآن، من دلائل السماوات والأرض ممّا تقدّم في قوله تعالى { إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ } [3].

{ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ [7] يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [8] وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ [9] مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[10]}

أعقب ذكر المؤمنين الموقنين العاقلين المنتفعين بدلالة آيات الله وما يفيده مفهوم تلك الصفات التي أجريت عليهم من تعريض بالذين لم ينتفعوا بها، بصريح ذكر أولئك الذين لم يؤمنوا بها ولم يعقلوها.

{ **وَيْلٌ** } كلمة دعاء بالشر، وأصل الويل الشرّ وحلوله. والافتتاح بها تعجيل بالإنذار وتهديد.

{ **أَفَّاكٍ** } قوي الكذب.

الأثيم: مبالغة أو صفة مشبهة، وهو يدلّ على المبالغ في اقتراف الآثام، أي: الخطايا.

{ **كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ** } المراد بهم جميع المشركين الذين كذّبوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وعاندوا في معجزة القرآن وقالوا { لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } [سبأ:31]، وبخاصة زعماء أهل الشرك وأيمّة الكفر مثل النضر بن الحارث، وأبي جهل وقرنائهم.

{ **يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً** } حالة تكرّر سماعه آيات الله وتكرّر إصراره مستكبرا عنها تحمله على تكرير تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وتكرير الإثم، فلا جرم أن يكون أفّاكا أثيما.

{ **آيَاتِ اللَّهِ** } القرآن، فإنّها المتلوّة.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، لأنّ ذلك الإصرار عند سماع مثل تلك الآيات أعظم وأعجب.

الإصرار: ملازمة الشيء وعدم الانفكاك عنه، وحُذف المتعلّق لدلالة المقام عليه، أي: يصرُّون على كفرهم، كما دلّ على ذلك قوله تعالى { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ } [6].

{ **كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا** } شُبِّه حالهم في عدم انتفاعهم بالآيات بحالهم في انتفاء سماع الآيات، وهذا التشبيه كناية

عن وضوح دلالة آيات القرآن بحيث أنّ من يسمعها يُصدِّق بما دلّت عليه، فلولا إصرارهم واستكبارهم لانتفعوا بها.

{ **فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** } فُرِّع على حالتهم هذه إنذارهم بالعذاب الأليم، وأطلق على الإنذار اسم البشارة التي هي الإخبار بما يُسر، على طريقة التهكّم.

{ **وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً** } المراد بالعلم السمع، أي: إذا سمع شيئا من القرآن اتخذه هزؤا. أي: أنّهم يلوكونها بأفواههم لوك المستهزئ بالكلام. ومن الاستهزاء تحريفها على مواضعها وتحميلها غير المراد منها عمدا للاستهزاء، كقول أبي جهل لمّا سمع { إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ } [الدخان44/43] تجاهل بإظهار أنّ الزقوم اسم لمجموع الزبد والتمر فقال: زقّمونا ، وقوله: لمّا سمع قوله تعالى { عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ } [المدثر:30]: أنا ألقاهم وحدي.

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** } الإشارة للتنبيه على أنّ المشار إليهم أحرياء بالعذاب المهين لأجل ما قبل اسم الإشارة من الأوصاف، من قوله تعالى { لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ - إلى قوله - هزؤا }.

{ **مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ** } بيان لجملة { لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ } وفيه تحقيق لحصول العذاب. ففي { وَرَائِهِمْ } استعارة تمثيلية للاقتراب والغفلة، كغفلة المرء عن عدو يتبعه من ورائه ليأخذه. ومنه قوله تعالى { وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً } [الكهف: 79].

{ **وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً** } عطف على السابقة، لأنّ ذلك من جملة العذاب المهين فإنّ فقدان الفداء وفقدان الولي ممّا يزيد العذاب شدّة ويُكسب المعاقب إهانة.

الإغناء: هنا الكفاية والنفع، أي: لا ينفعهم. وعُدِّي بحرف (عن) لتضمينه معنى يدفع، فكأنه عُبِّر بفعلين: (لا ينفعهم ولا يدفع عنهم)، وتقدّم في قوله تعالى { لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [آل عمران:10]

{ **مَا كَسَبُوا** } أموالهم.

{ **شَيْئاً** } منصوب على المفعولية، أي: شيئا من الإغناء، لأنّ { شَيْئًا } من أسماء الأجناس العالية فهو مفسَّر بما وقع قبله أو بعده، وتنكيره للتقليل، أي: لا يدفع عنهم ولو قليلا من عذاب جهنم.

{ **وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ** } عطف على { مَا كَسَبُوا } وأعيد حرف النفي للتأكيد.

{ **أَوْلِيَاءَ** } مفعول ثان ل { اتخذوا }. وحذف مفعوله الأول وهو ضميرهم لوقوعه في حيّز الصلة.

{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } عطف على { عَذَابٌ مُهِينٌ } لإفادة أنّ لهم عذابا غير ذلك وهو عذاب الدنيا بالقتل والأسر.

{ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ } [11]

استئناف ابتدائي انتقل به من وصف القرآن في ذاته بأنّه منزل من الله وأنّه من آياته، إلى وصفه بأفضل صفاته بأنّه هدى.

{ **هَذَا** } الإشارة إلى القرآن الذي هو في حال النزول والتلاوة، فهو كالشيء المشاهد، ولأنّه قد سبق من أوصافه من قوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } [2]، وقوله { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ } [6] ما صيَّره متميّزا.

{ **هُدًى** } من الوصف بالمصدر للمبالغة، أي: هادٍ للناس، فمن آمن فقد اهتدى ومن كفر فقد ضلّ.

{ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ** } عطف على جملة { هَذَا هُدىً } والمناسبة أنّ القرآن من جملة آيات الله وأنّه مذكّر بها، فالذين كفروا بآيات الله كفروا بالقرآن في عموم الآيات.

وهذا واقع موقع التذييل لما تقدّمه ابتداء من قوله { وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ } [7]. وجيء بالموصول وصلته لما تشعر به الصلة من أنّهم حقيقون بالعقاب.

واستُحضروا في هذا المقام بعنوان الكفر دون عنواني الإصرار والاستكبار اللذين استُحضروا بهما في قوله تعالى { ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً } [8]، لأنّ الغرض هنا النعي عليهم إهمالهم الانتفاع بالقرآن وهو النعمة العظمى التي جاءتهم من الله فقابلوها بالكفران عوضا عن الشكر.

الرجز: أشد العذاب، قال تعالى { فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [البقرة:59].

{ **مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ** } يجوز أن يكون حرف (من) للبيان، فالعذاب هو الرجز، ويجوز أن يكون للتبعيض، أي: عذاب ممّا يُسمَّى بالرجز وهو أشدّه.

{ **أَلِيمٌ** } قرئ بالرفع وصفا لـ { عَذَابٌ }، وبالجرّ وصفا لـ { رِجْزٍ }.

{ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [12].

استئناف ابتدائي للانتقال من التذكير بما خلق الله من العوالم وتصاريف أحوالها من حيث إنّها دلالات على الوحدانية، إلى التذكير بما سخر الله للناس من المخلوقات وتصاريفها من حيث كانت منافع الناس تقتضي أن يشكروا مُقدِّرها فجحدوا بها إذ توجَّهوا بالعبادة إلى غير المنعم عليهم، ولذلك عُلّق بفعلي { **سَخَّرَ** } في الموضعين (هنا وفي الآية اللاحقة)، مجرور بلام العلّة { لَكُمُ }.

على أنّ هذه التصاريف آيات أيضا مثل اختلاف الليل والنهار، وما انزل الله من السماء من ماء، وتصريف الرياح، ولكن لوحظ هنا ما فيها من النعم كما لوحظ هنالك ما فيها من الدلالة.

والفَطِن يستخلص من المقامين كلا الأمرين على ما يشبه الاحتباك. ومناسبة هذا الانتقال واضحة.

{ **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ** } اسم الجلالة مسند إليه والموصول مسند، وتعريف الجزأين مفيد الحصر، وهو قصر قلب بتنزيل المشركين منزلة من يحسب أنّ تسخير البحر وتسخير ما في السماوات والأرض إنعام من شركائهم، فكان هذا القصر إبطالا لهذا الزعم الذي اقتضاه هذا التنزيل.

{ **لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ** } بدل اشتمال من { لكم } لأنّ فيها إجمالا أريد تفصيله.

{ **وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ** } عطف على { لِتَجْرِيَ } باعتبار ما فيه من عموم الاشتمال، فحصل من مجموع ذلك أنّ تسخير البحر لجري الفلك فيه للسفر لقضاء مختلف الحاجات.

{ **وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } عطف على قوله { لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ } لا باعتبار ما اشتمل عليه إجمالا، بل باعتبار لفظه في التعليق بفعله. أي: لعلّكم تشكرون فكفرتم.

{ **وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } [13]

{ **وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ** } تعميم بعد تخصيص اقتضاه الاهتمام أوّلا ثم التعميم ثانيا. و{ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } عام مخصوص بما تحصل للناس فائدة من وجوده: كالشمس للضياء، والمطر للشراب، أو من بعض أحواله: كالكواكب للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، والشجر للاستظلال، والأنعام للركوب والحرث ونحو ذلك.

{ **جَمِيعًا** } انتصب على الحال من { مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} وتنوينه تنوين عوض عن المضاف إليه، أي: جميع ذلك، مثل تنوين (كلّ) في قوله { كُلًّا هَدَيْنَا } [الأنعام:84].

{ **مِنْهُ** } ابتدائية، أي: جميع ذلك من عند الله ليس لغيره فيه أدنى شركة. وموقعها موقع الحال من المضاف إليه المحذوف المعوَّض عنه التنوين، أو من ضمير { جَمِيعًا } لأنّه في معنى مجموعا.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } أي: في ذلك المذكور من تسخير البحر وتسخير ما في السماوات والأرض دلائل على تفرّد الله بالإلهية، فهي وإن كانت مِنَنًا يحقّ أن يشكرها الناس فإنّها أيضا دلائل إذا تفكّر فيها المُنْعَم عليهم اهتدوا بها، فحصلت لهم منها ملائمات جسمانية ومعارف نفسانية، وبهذا الاعتبار كانت في عداد الآيات المذكورة قبلها من قوله { إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ } [3]، وإنّما أخّرت عنها لأنها ذُكرت في معرض الامتنان بأنّها نعم، ثم عُقّبت بالتنبيه على أنّها أيضا دلائل على تفرّد الله بالخلق.

وأوثر التفكّر بالذكر في آخر صفات المستدلين بالآيات، لأنّ الفكر هو منبع الإيمان والإيقان والعلم المتقدّمة في قوله { لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ } [3]، وقوله { آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [4]، وقوله { آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [5].

{ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [14] مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ [15] }.

إن كانت هذه متصلة بالآي التي قبلها في النزول ولم يصح ما روي عن ابن عباس في سبب نزولها فمناسبة وقعها هنا أنّ قوله تعالى { وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ - إلى قوله - لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ } [7-11] يثير غضب المسلمين على المستهزئين بالقرآن، وقد أخذ المسلمون يعتزّون بكثرتهم فكان ما ذكر من استهزاء المشركين بالقرآن واستكبارهم عن سماعه يُتوقّع منه أن يبطش بعض المسلمين ببعض المشركين، ويُحتمل أن يكون بدر من بعض المسلمين غضب أو توعّد وأنّ الله علم ذلك من بعضهم.

وقد تكرّر في القرآن مثل هذا من الأمر بالصفح عن المشركين والعفو عنهم والإعراض عن أذاهم، ولكن كان أكثر الآيات أمرا للنبيّ صلى الله عليه وسلم في نفسه وكانت هذه أمرا له بأن يُبلّغ للمؤمنين ذلك. فأُمروا بالعفو وأن يكلوا أمر نصرهم إلى الله تعالى.

وإن كانت نزلت على سبب خاص عرض في أثناء نزول السورة فمناسبتها لأغراض السورة واضحة لأنّها تعليم لما يصلح به مقام المسلمين بمكة بين المضادين لهم واحتمال ما يلاقونه من صلفهم وتجبرهم إلى أن يقضي الله بينهم.

{ **يَغْفِرُوا** } جزم على تقدير لام الأمر محذوفا، أي: قل لهم ليغفروا، أو هو مجزوم في جواب { **قُلْ** }.

وهذا ثقة بالمؤمنين أنّهم إذا قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم امتثلوا.

{ **لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ** } يراد بهم المشركون من أهل مكة.

الرجاء: ترقّب وتطلّب الأمر المحبوب، وهذا أشهر اطلاقاته وهو الظاهر في الآية.

الأيام: جمع يوم، وهذا الجمع أو مفرده إذا أضيف إلى اسم أحد أو قوم أو قبيلة كان المراد به اليوم الذي حصل فيه لمن أضيف هو إليه نصر وغلب، ومنه أطلق على أيام القتال المشهورة بين قبائل العرب، كما يقال: أيام عبس، وأيام داحس والغبراء، وأيام البسوس. فإذا قالوا: أيام يني فلان، أرادوا أيام انتصارهم.

{ **أَيَّامَ اللَّهِ** } أيّام نصر الله، أي: نصر الله لهم.

وأوثر تعريفهم بهذه الصلة ليكون في ذلك تعريض بأنّ الله ينصر الذين يرجون أيام نصره، وهم المؤمنون.

والغرض من هذا التعريض الإيماء بالموصول إلى وجه أمر المؤمنين أن يغفروا للمشركين ويصفحوا عن أذاهم ولا يتكلّفوا الانتصار لأنفسهم لأنّ الله ضمن لهم النصر.

وقد يطلق { أَيَّامَ اللَّهِ } في القرآن على الأيام التي حصل فيها فضله ونعمته على قوم، وهو أحد تفسيرين لقوله

تعالى { وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ } [ابراهيم:5]. ومعنى {لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ } على هذا التأويل أنّهم في شغل عن ترقّب نعم الله بما هم فيه من إسناد فعل الخير إلى أصنامهم بانكبابهم على عبادتها دون عبادة الله.

{ **لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } تعليل للأمر المستفاد من قوله { يَغْفِرُوا }، أي: ليغفروا ويصفحوا عن أذى المشركين فلا ينتصروا لأنفسهم ليجزيهم الله على إيمانهم وعلى ما أوذوا في سبيله، فإنّ الانتصار للنفس توفية للحقّ. وهذا من معنى قوله تعالى { وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } [الحجر:85].

{ **قَوْمًا** } الأظهر أنّ المراد الإبهام وتنوينه للتنكير فقط. والمعنى: ليجزي الله كلَّ قوم بما كانوا يكسبون من خير أو شر بما يناسب كسبهم، فيكون وعيدا للمشركين المعتدين على المؤمنين، ووعدا للمؤمنين المأمورين بالصفح والتجاوز عن أذى المشركين.

{ **ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** } أي: بعد الأعمال في الدنيا تصيرون إلى حكم الله تعالى فيجازيكم على أعمالكم الصالحة والسيئة بما يناسب.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرائيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [16] وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [17].

الوجه أن يكون سوق خبر بني إسرائيل هنا توطئة وتمهيدا لقوله بعده { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا } [18]. ومقتضى ظاهر النظم أن يقع هذا القول بعد ذلك، فيكون دليلا وحجّة له، فأُخرج النظم على خلاف مقتضى الظاهر فجُعلت الحجّة تمهيدا قصدا للتشويق لما بعده، وليقع ما بعده معطوفا بـ { ثُمَّ } الدالة على الأهميّة.

{ **الْكِتَابَ** } التوراة.

{ **الْحُكْمَ** } يصح أن يكون بمعنى الحكمة، أي: الفهم في الدين وعلم محاسن الأخلاق، كقوله تعالى { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً } [مريم: 12] يعني يحيى. ويصح أن يكون بمعنى السيادة، أي: أنّهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم ولا تحكمهم أمة أخرى، كقوله تعالى { وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً } [المائدة:20].

{ **وَالنُّبُوَّةَ** } أن يقوم فيهم أنبياء.

ومعنى إيتائهم هذه الأمور الثلاثة: إيجادها في الأمّة وإيجاد القائمين بها، لأنّ نفع ذلك عائد على الأمّة جمعاء فكان كلّ فرد من الأمّة كمن أوتي تلك الأمور.

{ **وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** } بأن يسّر لهم امتلاك بلاد الشام التي تفيض لبنا وعسلا كما في التوراة في وعد إبراهيم، والتي تجبى إليها ثمرات الأرضين المجاورة لها، وذلك بحسن موقعها.

{ **الطَّيِّبَاتِ** } هي التي تطيب عند الناس وتحسن طعما ومنظرا ونفعا وزينة.

{ **وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** } بأن جمع الله لهم بين استقامة الدين والخلق، وبين حكم أنفسهم بأنفسهم، وبثّ أصول العدل فيهم، وبين حسن العيش والأمن والرخاء، فإنّ أُمَمًا أخرى كانوا في بحبوحة من العيش ولكن ينقص بعضها استقامة الدين والخُلق، وبعضها عزّة حكم النفس، وبعضها الأمن بسبب كثرة الفتن.

{ **الْعَالَمِينَ** } أُمَم زمانهم.

وكلّ ذلك إخبار عمّا مضى من شأن بني إسرائيل في عنفوان أمرهم لا عمَّا آل إليه أمرهم بعد أن اختلفوا واضمحلّ ملكهم ونُسخت شريعتهم.

{ **وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ** } علّمناهم حججا وعلوما في أمر دينهم ونظامهم بحيث يكونون على بصيرة في تدبير مجتمعهم، وعلى سلامة من مخاطر الخطأ والخطل.

البيّنة: الحجّة الظاهرة، أي آتيناهم حججا، أي: علّمناهم بواسطة كتبهم وبواسطة علمائهم حجج الحق والهدى التي من شأنها أن لا تترك للشك والخطأ إلى نفوسهم سبلا إلّا سدّتها.

{ **الْأَمْرِ** } الشأن كما في قوله تعالى { وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ } [هود:97] والتعريف للتعظيم.

أي: شأن الأمّة وما به قوام نظامها، إذ لم يترك موسى والأنبياء من بعده شيئا مهمًّا من مصالحهم إلّا وقد وضّحوه وبيّنوه وحذّروا من الالتباس فيه.

{ **فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ** } تفريع إدماج لمناسبته للحالة التي أريد تنظيرها. وتقدير الكلام: فاختلفوا وما اختلفوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم، فحذف المفرّع لدلالة ما بعده عليه على طريقة الإيجاز، إذ المقصود هو التعجيب من حالهم كيف اختلفوا حين لا مظنّة للاختلاف.

وهذا الكلام كناية عن عدم التعجيب من اختلاف المشركين مع المؤمنين حيث أن المشركين ليسوا على علم ولا هدى، ليعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه ملطوف به في رسالته.

البغي: الظلم. والمراد: أن اختلافهم عن عمد ومكابرة بعضهم لبعض وليس عن غفلة أو تأويل، وهذا الظلم هو ظلم الحسد. أي: فكذلك حال نظرائهم من المشركين ما اختلفوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم إلّا بغيا منهم عليه مع علمهم بصدقه بدلالة إعجاز القرآن لفظا ومعاني.

{ **بَغْياً** } انتصب إمّا على المفعول لأجله، وإمّا على الحال بتأويل المصدر باسم الفاعل، وعلى كلا الوجهين فالعامل فيه فعل { اخْتَلَفُوا }.

{ **إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ خبرهم العجيب يثير سؤالا في نفس سامعه عن جزاء الله إيّاهم على فعلهم، وهذا جواب فيه إجمال لتهويل ما سيقضى به بينهم في الخير والشر، لأنّ الخلاف يقتضي محقًّا ومبطلا.

ونظير هذه الآية قوله تعالى { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [يونس:93].

{ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ [18] إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ [19] }.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل، وفيه تنويه بهذا الجعل وإشارة إلى أنّه الأفضل.

{ **عَلَى شَرِيعَةٍ** } للاستعلاء المجازي، أي: التمكن والثبات، كقوله { أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ } [البقرة:5].

وتنوين { شَرِيعَةٍ } للتعظيم بقرينة حرف التراخي الرتبي.

الشريعة: الدين والملّة المتّبعة، مشتقة من الشرع وهو: جعل طريق للسير، وسُمِّي النهج شرعا تسمية بالمصدر. وسُمِّي الماء الذي يرده الناس شريعة لذلك.

{ **الْأَمْرِ** } الشأن، وهو شأن الدين، وهو شأن من شؤون الله تعالى، فتكون { مِنَ } تبعيضية وليست كالتي في قوله آنفا { وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ } [17].

وقد بلغت هذه الجملة من الإيجاز مبلغا عظيما إذ أفادت أنّ شريعة الإسلام شريعة عظيمة، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم متمكّن منها لا يزعزعه شيء عن الدأب في بيانها والدعوة إليها. ولذلك فُرِّع عليه أمره: { **فَاتَّبِعْهَا** } الأمر لطلب الدوام. وبينه وبين قوله { **وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** } محسِّن المطابقة بين الأمر بالاتباع والنهي عن اتباع آخر.

الأهواء: جمع هوى، وهو المحبة والميل. والمعنى: أنّ دينهم أعمال أحبوها لم يأمر الله بها.

{ **الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** } هم المشركون، وأهواؤهم دين الشرك، قال تعالى { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } [23].

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم. والمقصود منه: إسماع المشركين لئلّا يطمعوا بمصانعة الرسول صلى الله عليه وسلم إيّاهم حين يرون منه الإغضاء عن هفواتهم وأذاهم وحين يسمعون في القرآن بالصفح عنهم كما في الآية السالفة { قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ } [14]، وفيه أيضا تعريض للمسلمين بأن يحذروا من أهواء الذين لا يعلمون.

{ **إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً** } تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، ويتضمّن تعليل الأمر باتباع شريعة الله، فإنّ كونهم لا يغنون عنه من الله شيئا يستلزم أنّ في مخالفة ما أمر الله من اتباع شريعته ما يوقع في غضب الله وعقابه.

الإغناء: جعل الغير غنيًّا. وضُمِّن فعل الإغناء معنى (الدفع) فعدّي بـ (عن). وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [آل عمران:10].

{ **وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** } تعليل آخر، أي: إنّهم ظالمون وأنت لست منهم في شيء فلا يجوز أن تتبعهم في شيء، وإنّما يتّبعهم من هم أولياؤهم.

{ **وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ** } تذييل، المقصود النبيّ صلى الله عليه وسلم، لأنّه أوّل المتقين.

{ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [20]

إن كانت الإشارة إلى الكلام المتقدّم وما فيه من ضرب المثل بموسى وقومه ومن تفضيل شريعة محمد على شريعة موسى عليهما الصلاة والسلام والأمر بملازمة اتّباعها والتحذير من اتّباع رغائب الذين لا يعلمون، فهذه الجملة بمنزلة التذييل لما قبلها والتهيئة لأغراضها، تنبيها لما في طيّها من عواصم عن الشك والباطل.

وإن كانت الإشارة إلى القرآن، إذ هو حاضر في الأذهان، كانت الجملة استئنافا أعيد بها التنويه بشأن القرآن ومتّبعيه، والتعريض بتحميق الذين أعرضوا عنه، وتكون مفيدة تأكيد قوله آنفا { هَذَا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ } [11]، وتكون الجملة المتقدّمة صريحة في وعيد الذين كفروا بآياته، وهذه تعريضا بأنّهم لم يحظوا بهذه البصائر.

وكلا الاحتمالين رشيق.

{ **بَصَائِرُ** } جمع بصيرة وهي إدراك العقل الأمور على حقائقها. شُبّهت ببصر العين.

ووصف الآيات السابقة أو القرآن بـ (بَصَائِرُ) مجاز عقلي لأنّ ذلك سبب البصائر، فهو يُبيّن للناس الخير والشر، ويحرّضهم على الخير ويحذّرهم من الشر، ويعدهم على فعل الخير ويوعدهم على فعل الشرور، فعمله عمل البصيرة.

{ **لِلنَّاسِ** } لأنّ القرآن بيان للناس عامة.

{ **وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** } لأنّه لا يهتدي ببيانه إلّا الموقن بحقيقته، ولا يُرحم به إلّا من اتبعه مؤمنا به.

{ **لِقَوْمٍ** } للإيماء إلى أنّ الإيقان متمكّن من نفوسهم كأنّه من مقومات قوميّتهم التي تميزهم عن أقوام آخرين.

الإيقان: العلم الذي لا يتردد فيه صاحبه. وحذف متعلقه لأنّه معلوم: بما جاءت به آيات الله.

{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [21].

انتقال من وصف تكذيبهم بالآيات واستهزائهم بها، ثُمَّ من أمر المؤمنين بالصفح عنهم وإيكال جزاء صنائعهم إلى الله، ثُمَّ من التثبيت على ملازمة الشريعة الإسلامية، إلى وصف صنف آخر من ضلالهم واستهزائهم بالوعد والوعيد وإحالتهم الحياة بعد الموت والجزاء على الأعمال، وتخييلهم للناس أنّهم يصيرون في الآخرة على الحال التي كانوا عليها في الدنيا؛ عظيمهم في الدنيا عظيمهم في الاخرة، وضعيفهم في الدنيا ضعيفهم في الآخرة، وهذا الانتقال رجوع إلى بيان قوله { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } [15].

{ أَمْ } للإضراب الانتقالي، والاستفهام الذي يلزم تقديره بعد { أَمْ } استفهام إنكاري، والتقدير: لا يحسب الذين اجترحوا السيئات أنهم كالذين آمنوا، لا في الحياة ولا في الممات.

{ **الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ** } في نقل عن ابن عباس: أنّهم المشركون، كما يؤذن به الانتقال من الغرض السابق إلى هذا الغرض، وإنّما عُبِّر عنهم بهذا العنوان لما في الصلة من تعليل إنكار المشابهة والمساواة بينهم وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند الله في عالم الخلد، ولأنّ اكتساب السيّئات من شعار أهل الشرك إذ ليس لهم دين وازع يزعهم عن السيئات، فيكون إيمانهم به مُرَغِّبًا في الجزاء، ولذلك كثر في القرآن الكناية عن المشركين بالتلبس بالسيئات:

كقوله تعالى { وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ - إلى قوله - أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ } [المطففين:1-5]، وكقوله تعالى { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ } [المدثر:42-46]،

وقوله { أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } [الماعون:1-3]، ونظيرالآية قوله تعالى { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [العنكبوت:4].

فإنّ ذلك حال الكفّار، وأمّا المؤمن العاصي فلا تبلغ به حاله أن يحسب أنه مفلت من قدرة الله.

قال البغوي: نزلت في نفر من مشركي مكة قالوا للمؤمنين: لئن كان ما تقولون حقا لنفضلنّ عليكم في الآخرة كما فضلنا عليكم في الدنيا.

وعن الكلبي: أن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة قالوا لعلي وحمزة وبعض المسلمين: والله ما أنتم على شيء ولئن كان ما تقولون حقا (أي: إن كان البعث حقا) لحالنا أفضل من حالكم في الآخرة كما أنَّا أفضل حالا منكم في الدنيا.

وتأويل نزول هذه الآية على هذا السبب أنّ حدوث قول هؤلاء النفر صادف وقت نزول هذه الآيات من السورة، أو أن قولهم هذا متكرّر فناسب تعرّض الآية له.

الاجتراح: الاكتساب، وصيغة الافتعال فيه للمبالغة، وهو مشتق من الجرح، فأطلق على اكتساب السباع ونحوها، ولذلك سُمِّيت كلاب الصيد جوارح. وسُمِّي به اكتساب الناس، لأن غالب كسبهم في الجاهلية كان من الإغارة على إبل القوم، وهي بالرماح، ولذلك غلب إطلاق الاجتراح على اكتساب الإثم والخبيث.

{ **سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ** } وظاهر تركيب الآية أنّ هذا القول داخل في الحسبان المنكور، فيكون المعنى: إنكار أن يستوي المشركون مع المؤمنين لا في الحياة ولا بعد الممات؛ فيموت المشركون على اليأس من رحمة الله، إذ لا يوقنون بالبعث ويلاقون بعد الممات هول ما توعّدهم الله به، ويموت المؤمنون رجاء رحمة الله والبشرى بما وُعدوا به، ويلاقون بعد الممات ثواب الله ورضوانه.

{ **سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** } تذييل لما قبلها من إنكار حسبانهم وما اتصل بذلك الإنكار من المعاني.

واعلم أن هذه الآية وإن كان موردها في تخالف حالي المشركين والمؤمنين فإنّ نوط الحكم فيها بصلة {الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ } يجعل منها إيماء إلى تفاوت حالي المسيئين والمحسنين من أهل الإيمان.

وعن تميم الداري أنّه بات ليلة يقرأ هذه الآية ويركع ويسجد ويبكي إلى الصباح. وروي مثل ذلك عن الربيع بن خيثم وعن الفضيل بن عياض: أنّه كان كثيرا ما يردّد من أوّل الليل هذه الآية ثم يقول: ليت شعري من أي الفريقين أنت. يخاطب نفسه، فكانت هذه الآية تسمَّى **مبكاة العابدين**.

المحيا والممات: مصدران ميميان أو اسما زمان، أي: حياتهم وموتهم، وهو على كلا الاعتبارين بتقدير مضاف، أي: حالة محياهم وحالات مماتهم.

{ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } [22]

اعتراض بين الكلام المتقدّم وبين ما فُرِّع عليه من قوله { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } [23]، هو كالدليل على انتفاء أن يكون الذين اجترحوا السيئات، الذين هم في بحبوحة عيش مدّة حياتهم، أن يكونوا في نعيم بعد مماتهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات مدّة حياتهم فكان جزاؤهم النعيم بعد مماتهم.

ووجه الاستدلال أنّ خلق السماوات والأرض تُبيّن كونه في تمام الإتقان والنظام، بحيث إنّ دلائل إرادة العدل في تصاريفها قائمة، وما أودعه الخالق في المخلوقات من القوى مناسب لتحصيل ذلك النظام الذي فيه صلاحهم فإذا استعملوها في الإفساد والإساءة كان من إتمام إقامة النظام أن يُعاقبوا على تلك الإساءة.

والمشاهَد أنّ المسيء كثير ما عكف على إساءته حتّى الممات، فلو لم يكن الجزاء بعد الموت حصل اختلال في نظام خلق المخلوقات وخلق القوى الصادر عنها الإحسان والإساءة.

وهذا المعنى تكرّر في آيات كثيرة، وكلّما ذكر شيء منه أُتبع بذكر الجزاء: مثل قوله تعالى { وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } [آل عمران:191]، وقوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ } [الدخان:38-40]

{ **بِالْحَقِّ** } الباء للسببية أو للملابسة، أي: خلقًا للسبب الحقّ، أو ملابسا للحقّ لا يتخلّف الحق عن حاله.

الحقّ: اسم جامع لما شأنه أن يحقِ ويثبت، ومن شأن الحكمة والحكيم أن يقيمه.

{ **وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** } عطف على { بِالْحَقِّ } لأنّ المعطوف عليه المجرور بالياء فيه معنى التعليل، وهذا تفصيل بعد إجمال، فإنّ الجزاء على الفعل بما يناسبه هو من الحقّ، ولأن تعليل الخلق بعلّة الجزاء من تفصيل معنى الحقّ وآثار كون الحق سببا لخلق السماوات والأرض أو ملابسا لأحوال خلقهما، فظهرت المناسبة بين (الباء) في المعطوف عليه و(اللام) في المعطوف.

{ **بِمَا كَسَبَتْ** } الباء للتعويض. وما كسبته النفس لا تجزى به بل تجازى بمثله وما يناسبه، فالكلام على حذف مضاف، أي: بمثل ما كسبته. وهذه المماثلة مماثلة في النوع، وأمّا تقدير تلك المماثلة فذلك موكول إلى الله تعالى ومراعى فيه عظمة عالم الجزاء في الخير والشر، ومقدار تمرّد المسيء وامتثال المحسن، بخلاف الحدود والزواجر فإنّها مُقدَّرة بما يناسب عالم الدنيا من الضعف.

{ **وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** } تعقيب، فضمير { وَهُمْ } عائد إلى { كُلُّ نَفْسٍ } فإنّ ذلك الجزاء ممّا اقتضاه العدل الذي جُعل سببا أو ملابسا لخلق السماوات والأرض وما فيهما، فهو عدل ليس من الظلم في شيء، فالمُجازَى غير مظلوم. وبالجزاء أيضا ينتفي أثر ظلم الظالم عن المظلوم.

{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [23].

لمّا كان الذين حسبوا أن يكونوا في الآخرة في نعمة وعزّة كما كانوا في الدنيا قالوا ذلك عن غير دليل ولا نظر ولكن عن اتباع ما يشتهون لأنفسهم من دوام الحال الحسن، تفرّع على حسبانهم التعجيب من حالهم، فعُطف بـ (الفاء) الاستفهام المستعمل في التعجيب، وجُعل استفهاما عن رؤية حالهم، للإشارة إلى بلوغ حالهم من الظهور إلى حد أن تكون مرئية. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، والمقصود من معه من المسلمين، أو الخطاب لغير معيّن، أي: تناهت حالهم في الظهور فلا يختصّ بها مخاطب.

المعنى: أنّ حجاجهم المسلمين مرتكز على اتباع الهوى والمغالطة، فلا نهوض لحجّتهم لا في نفس الأمر ولا

فيما أرادوه، على فرض وقوع البعث من أن يكونوا آمنين من أهوال البعث، وأنّهم لا يُرجى لهم اهتداء.
{ **إِلَهَهُ هَوَاهُ** } الراجح أن يكون أُطلق على ما يلازم طاعته، حتّى كأنّه معبود، فيكون هذا الإطلاق بطريقة التشبيه البليغ، أي: اتخذ هواه كإله له لا يخالف له أمرا.
{ **وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ** } أي: أنّهم أحاطت بهم أسباب الضلالة مع أنّهم أهل علم، أي: عقول سليمة، أو مع أنّهم بلغهم العلم بما يهديهم، وذلك بالقرآن ودعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم.
فحرف { عَلَى } هنا معناه المصاحبة بمعنى (مع)، وأصل هذا المعنى استعارة معنى الاستعلاء للاستعلاء المجازي وهو التمكّن بين الوصف والموصوف.
{ **وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً** } تقدم معنى الختم والغشاوة في [البقرة:7].
{ **فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ** } فُرِّع على هذه الصلة استفهام إنكاري أن يكون غير الله يستطيع أن يهديهم، والمراد به تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم لشدّة أسفه لإعراضهم وبقائهم في الضلالة.
{ **مِنْ بَعْدِ اللَّهِ** } من دون الله، وتقدّم عند قوله تعالى { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف:185].
{ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } فُرِّع على ذلك استفهام إنكاري عن عدم تذكّر المخاطبين لهذه الحقيقة، أي: كيف نسوها حتّى ألحوا في الطمع بهداية أولئك الضالين، وأسفوا لعدم جدوى الحجّة لديهم.
<u>وفي هذه الآية</u> قُدِّم السمع على القلب بخلاف آية سورة البقرة { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } [البقرة:7]، لأنّ المخبر عنهم هنا لمّا أخبر عنهم بأنّهم اتخذوا إلههم هواهم، فقد تقرّر أنّهم عقدوا قلوبهم على الهوى فكان ذلك العقد صارفا السمع عن تلقي الآيات، فقُدّم لإفادة أنّهم كالمختوم على سمعهم، ثم عُطف عليه و{ قَلْبِهِ } تكميلا وتذكيرا بذلك العقد الصارف للسمع، ثم ذُكر ما { عَلَى بَصَرِهِ } من شبه الغشاوة لأنّ ما عقد عليه قلبه كان كالمانع لبصره عن النظر في أدلة الكائنات.
<u>وأمّا آية سورة البقرة</u> فإنّ المتحدَّث عنهم هم هؤلاء أنفسهم ولكن الحديث عنهم ابتدئ بتساوي الإنذار وعدمه في جانبهم بقوله { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [البقرة:6] فلمّا أريد تفصيله قُدِّم الختم على قلوبهم لأنّه الأصل كما كان اتخاذ الهوى كالإله أصلا في وصف حالهم في آية سورة الجاثية. فحالة القلوب هي الأصل في الانصراف عن التلقّي.

{ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } [24].

عطف على جملة { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ } [21]، أي: بعد أن جادلوا المسلمين بأنّه إن كان بعث بعد الموت فستكون عُقباهم خيرا من عُقبى المسلمين، يقولون ذلك لقصد التورّك وهم لا يوقنون بالبعث والجزاء بل ضربوه جدلا وإنّما يقينهم قولهم هنا { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا }.

وتقدم المعنى في قوله تعالى { وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } [الأنعام:29].

{ هِيَ } ضمير القصة والشأن، أي: قصّة الخوض في البعث تنحصر في أن لا حياة بعد الممات، أي: القصة هي انتفاء البعث كما أفاده حصر الأمر في الحياة الدنيا. ويجوز أن يكون ضمير الحياة، باعتبار دلالة الاستثناء على تقدير لفظ الحياة، فيكون حصرا لجنس الحياة في الحياة الدنيا.

{ نَمُوتُ وَنَحْيَا } مبيّنة لجملة { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا }، أي: ليس بعد هذا العالم عالم آخر، فالحياة هي حياة هذا العالم لا غير فإذا مات من كان حيا خلفه من يوجد بعده. فالمعنى: يموت بعضنا ويحيا بعض.

وللدلالة على هذا التطور عُبّر بالفعل المضارع.

ولا يخطر بالبال أنّ حكاية قولهم { نَمُوتُ وَنَحْيَا } تقتضي إرادة نحيا بعد أن نموت لأنّ قولهم { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا } يصرف عن خطور هذا بالبال. والعطف بالواو لا يقتضي ترتيبا بين المتعاطفين في الحصول.

قيل: قُدِّم { نَمُوتُ } في الذكر لتتأتّى الفاصلة بلفظ { نحيا } مع لفظ { الدنيا }. **وعندي** أنّ التقديم للاهتمام بالموت في هذا المقام لأنّهم بصدد تقرير أنّ الموت لا حياة بعده، ويتبع ذلك الاهتمام تأتّي طباقين بين حياتنا الدنيا ونموت ثم بين نموت ونحيا. وحصلت الفاصلة تبعا، وذلك أدخل في بلاغة الإعجاز.

{ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } زيادة لقصد تأكيد معنى انحصار الحياة والموت في هذا العالم المعبَّر عنه عندهم بالدهر. فالحياة بتكوين الخلقة والممات بفعل الدهر. فكيف يُرجى لمن أهلكه الدهر أن يعود حيًّا.

{ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ } الإشارة بـ { ذَلِكَ } إلى قولهم { وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ }، أي: لا علم لهم بأنّ الدهر هو المميت، إذ لا دليل على ذلك فإنّ الدليل النظري بيّن أنّ الدهر وهو الزمان ليس بمميت مباشرة وهو ظاهر، ولا بواسطة في الإماتة، إذ الزمان أمر اعتباري لا يفعل ولا يؤثر وإنّما هو مقادير يقدّر بها الناس الأبعاد بين الحوادث، مرجعه إلى تقدير حصة النهار والليل وحصص الفصول الأربعة.

وإنّما توهم عامة الناس أنّ الزمان متصرّف، وهي توهُّمات شاعت حتّى استقرت في الأذهان الساذجة.

{ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } والمراد بالظن هنا ما ليس بعلم فهو هنا التخيّل والتوهّم. والجملة مُبيِّنة بجملة { وَمَا لَهُمْ

بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ }، أو استئناف بياني، كأنّ سائلا حين سمع قوله { وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ } سأل عن مستندهم في قولهم ذلك فأجيب بأنّه الظنّ المبني على التخيل. وجيء بالمضارع لأنّ ظنّهم متجدد متوارث.

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [25].

عطف على { وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } [24]، أي: عقدوا على عقيدة أن لا حياة بعد الممات استنادا للأوهام والأقيسة الخيالية. وإذا تليت عليهم آيات القرآن الواضحة الدلالة على إمكان البعث وعلى لزومه لم يعارضوها بما يبطلها بل يهرعون إلى المباهتة فيقولون: إن كان البعث حقا فأتوا بآبائنا إن صدقتم.

{ **آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ** } آيات القرآن المتعلّقة بالبعث بدليل ما قبل الكلام وما بعده.

{ **مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } تسجيل عليهم بالتلجلج عن الحجّة البيّنة، والمصير إلى سلاح العاجز من المكابرة والخروج عن دائرة البحث.

{ **ائْتُوا** } الخطاب موجّه للمؤمنين بدخول الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ **إِلَّا أَنْ قَالُوا** } استثناء من حجّتهم وهو يقتضي تسمية كلامهم هذا حجّة وهو ليس بحجّة إذ هو بالبهتان أشبه

فإمّا أن يكون إطلاق اسم الحجة عليه على سبيل التهكّم بهم.

وإمّا أن يكون إطلاق اسم الحجّة على كلامهم جرى على اعتقادهم وتقديرهم دون قصد تهكّم بهم.

وإمّا أن يكون الإطلاق استعارة بعلاقة الضدية فيكون مجازا مرسلا بتنزيل التضاد منزلة التناسب، على قصد التهكّم، فيكون المعنى: لا حجة لهم إلّا هذه، وهذه ليست بحجة بل هي عناد، فيحصل أن لا حجة لهم بطريق التمليح والكناية.

{ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [26].

تلقين لإبطال قولهم { وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } يتضمّن إبطال قولهم { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا } والمقصود منه قوله { ثُمَّ يُمِيتُكُمْ } وإنّما قدم عليه { يُحْيِيكُمْ } توطئة له، أي: كما هو أوجدكم هو يميتكم.

{ **قُلِ اللَّهُ** } تقديم اسم الله على المسند الفعلي وهو { يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ } يفيد تخصيص الإحياء والإماتة به لإبطال قولهم، إن الدهر هو الذي يميتهم.

{ **ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } إبطال لقولهم { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا }، وليس هو إبطالا بطريق الاستدلال لأنّ أدلة هذا تكرّرت فيما نزل من القرآن فاستغني عن تفصيلها ولكنه إبطال بطريق الإجمال والمعارضة.

{ **لا رَيْبَ فِيهِ** } حال من { يَوْمِ الْقِيَامَةِ }، أي: لا ريب في وجوده بما يقتضيه من إحياء الأموات.

وتقدّم عند قوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ } [البقرة: 2].

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** } عطف على قوله { لا رَيْبَ فِيهِ } أي: ولكن ارتياب كثير من الناس فيه لأنّهم لا يعلمون دلائل وقوعه.

{ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ [27] وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [28] هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [29] }.

{ **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } اعتراض تذييل لقوله { قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ } [26]، أي: لله لا لغيره ملك السماوات والارض، فهو المتصرّف في أحوال ما حوته السماوات والأرض من إحياء وإماتة، وغير ذلك. وتقديم المجرور على المسند إليه لإفادة التخصيص.

{ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ** } لما جرى ذكر يوم القيامة أعقب بإنذار الذين أنكروه من سوء عاقبتهم فيه.

{ **الْمُبْطِلُونَ** } الآتون بالباطل في معتقداتهم وأقوالهم وأعمالهم إذ الباطل ما ضاد الحقّ. والمقصود منه ابتداء هنا هو الشرك بالله فإنّه أعظم الباطل، ثمّ تجيء درجات الباطل متنازلة وما من درجة منها إلّا وهي خسارة.

{ **وَتَرَى** } الخطاب لكلّ من يصلح له الخطاب بالقرآن فلا يُقصد مخاطب معين، ويجوز أن يكون خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم. والمضارع مراد به الاستقبال، فالمعنى: وترى يومئذ.

الأمّة: الجماعة العظيمة من الناس، وهنا المقصود الذين يجمعهم دين جاء به رسول إليهم.

{ **جَاثِيَةً** } اسم فاعل من مصدر **الجُثُو** (بضمتين) وهو البروك على الركبتين بغير مباشرة المقعدة للأرض، فالجاثي هو البارك في هيئة الخضوع.

{ **كِتَابِهَا** } الظاهر من كونه مفردا غير معرّف باللام أنّه كتاب واحد لكلّ أمّة، فيقتضي أن يراد كتاب الشريعة، مثل القرآن، والتوراة، والإنجيل، وصحف إبراهيم، وغير ذلك، لا صحائف الأعمال. فعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى { **تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا** }، تدعى لتُعرض أعمالها على ما أُمرت به في كتابها.

وقيل: أريد بقوله { كِتَابِهَا } كتاب تسجيل الأعمال لكلّ واحد، أو مراد به الجنس وتكون إضافته إلى ضمير الأمة على إرادة التوزيع على الأفراد لأنّ لكلّ واحد من كلّ أمة صحيفة عمله خاصة به، كما في قوله تعالى { اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً } [الاسراء:14].

{ **كُلُّ أُمَّةٍ** } أعيدت دون اكتفاء بقوله { تُدْعَى } أو يدعون، لإبراز التعاقب في الأحداث، فكلّ أمّة تدعى بالكتاب الذي تنتسب إليه، فتبقى جاثية، ثمّ تدعى كل أمّة إلى كتابها فتذهب إليه للحساب، أي: يذهب أفرادها للحساب. ولو قيل: وترى كل أمّة جاثية تدعى إلى كتابها لأوهم أنّ الجثو والدعاء إلى الكتاب يحصلان معا، وفي التفصيل تهويل.

{ **الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } بدل اشتمال من جملة { تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا } بتقدير قول محذوف، أي: يقال لهم اليوم تجزون على وفق كتاب دينكم. وهذا البدل وقع اعتراضا بين جملة { وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً } وجملة { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [30].

{ **هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ** } من مقول القول المقدّر، وهي مستأنفة استئنافا بيانيا لتوقّع سؤال من يقول منهم: ما هو طريق ثبوت أعمالها؟ والإشارة إمّا إلى كتاب شريعة الأمة المدعوة، وإمّا إلى كتب أفرادها على الوجهين المتقدمين.

{ **كِتَابُنَا** } وإضافة (كتاب) إلى ضمير الله تعالى بعد أن أضيف إلى { كُلَّ أُمَّةٍ } لاختلاف الملابسة، فالكتاب يلابس الأمّة لأنّه جُعل لإحصاء أعمالهم أو لأنّ ما كُلِّفوا به مثبت فيه، وإضافته إلى ضمير الله لأنّه الآمر به.

{ **يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ** } مجاز عقلي، وإنّما تنطق بما في الكتاب ملائكة الحساب، أو استعير النطق للدلالة نحو قولهم: نطقت الحال. والمعنى: أنّ فيه شهادة عليهم بأنّ أعمالهم مخالفة لوصايا الكتاب، أو بأنها مكتوبة في صحائف أعمالهم. ولتضمّن { يَنْطِقُ } معنى (يشهد) عدّي بحرف (على). وفي الكلام تهديد.

{ **إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } استئناف بياني لأنّهم إذا سمعوا { هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ } خطر ببالهم السؤال: كيف شهد عليهم الكتاب اليوم وهم قد عملوا الأعمال في الدنيا؟ فأجيبوا بأنّ الله كان يأمر بنسخ ما يعملونه في الصحف في وقت عمله. وإن حُمل الكتاب على كتب الشريعة كانت الجملة تعليلا للجملة قبلها باعتبار تقييد النطق بأنّه الحقّ، أي: لأنّ أعمالكم كانت محصاة، مُبيَّن ما هو منها مخالف لما أمر به كتابكم.

الاستنساخ: استفعال من النسخ. و**النسخ**: يطلق على كتابة ما يُكتب على مثال مكتوب آخر قبله. ويُسمَّى بالمعارضة أيضا. وظاهر (كتاب الأساس) أنّ هذا حقيقة معنى النسخ وأنّ قولهم: نسخت الشمس الظل مجاز. وكلام جمهور العلماء بخلافه كما يقوله علماء أصول الفقه في باب النسخ.

فإذا درجت على كلام الجمهور فقد جُعلت كتابة مكتوب على مثال مكتوب قبله كإزالة للمكتوب الأول، لأنّ ذلك في الغالب يكون لقصد التعويض عن المكتوب الأول. فيكون النسخ حقيقة في الإزالة.

وهذا اختلاف معضل، والأظهر ما ذهب إليه صاحب اللسان وصاحب القاموس، فيجوز أن يكون السين والتاء في { نستنسخ } للمبالغة في الفعل مثل استجاب. ويجوز أن يكون السين والتاء للطلب والتكليف، أي: نكلف الملائكة نسخ أعمالكم، وعلى هذا المحمل حمل المفسرون السين والتاء هنا، أي: للطلب.

والنسخ هنا: **الكتابة**، وإسناد فعل الاستنساخ إلى ضمير الله على هذا إسناد مجازي لأنّ الله أمر الحفظة بكتابة الأعمال.

{ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ [30] وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ [31] وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ [32] }.

الفاء لعطف المفصّل على المجمل، وهو تفصيل لما أُجمل في قوله تعالى { وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً } وما بينهما اعتراض. وابتدئ في التفصيل بوصف حال المؤمنين مع أنّ المقام للحديث عن المبطلين في قوله { يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ } [27] تنويها بالمؤمنين وتعجيلا لمسرّتهم، وتعجيلا لمساءة المبطلين، لأنّ وصف حال المؤمنين يؤذن بمخالفة حال الآخرين لحالهم.

{ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ } تعبير شامل لما تتصوّره النفس من أنواع الكرامة والنعيم، إذ جُعلت رحمة الله بمنزلة المكان يدخلونه.

{ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا } افتتح بيان حال الذين كفروا بما يقال لهم من التوبيخ والتقرير من قبل الله تعالى.

{ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ } مقول قول محذوف لظهور أنّ ذلك خطاب صادر من متكلّم من جانب الله تعالى، فيقدّر: فيقال لهم. والاستفهام توبيخ وتقرير.

{ آيَاتِي } القرآن.

{ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ } أي: فاستكبرتم على الأخذ بها ولم تقتصروا على الاستكبار بل كنتم قوما مجرمين، أي: لم تفدكم مواعظ القرآن صلاحا لأنفسكم.

{ قَوْماً مُجْرِمِينَ } دون الاقتصار على: وكنتم مجرمين، للدلالة على أنّ الإجرام صار خُلقا لهم وخالط نفوسهم، حتّى صار من مقومات قوميّتهم.

{ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا } عطف على جملة { فَاسْتَكْبَرْتُمْ }. تخصيص لبعض آيات القرآن بالذكر بعد التعميم في قوله تعالى { أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ }.

وهذان القولان ممّا تكرر في القرآن بلفظه وبمعناه.

{ السَّاعَةُ } للعهد وهي ساعة البعث، أي: زمان البعث كما عُبّر عنه باليوم.

{ قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ } ما نعلم حقيقة الساعة. ونفي العلم بحقيقتها كناية عن جحد وقوعها.

{ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّاً } ظاهر في أنّه متّصل بما قبله من قولهم { مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ } ومبيَّن بما بعده من قوله تعالى { وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ }. وموقعه ومعناه مشكل، وفي نظمه إشكال أيضا.

فأمّا الإشكال من جهة موقعه ومعناه؛ فلأن القائلين موقنون بانتفاء وقوع الساعة لما حكي عنهم آنفا من قولهم { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ } [24]، فلا يحق عليهم أنّهم يظنون وقوع الساعة بوجه من الوجوه، ولو احتمالا. ولا يستقيم أن يطلق الظنّ هنا على الإيقان بعدم حصوله، فيعضل معنى قولهم.

والوجه عندي في تأويله: إمّا يكون هذا حكاية لاستهزائهم بخبر البعث، فإذا قيل لهم { السَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا } قالوا استهزاء { إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّاً }، ويدلّ عليه قوله عقبه { وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [33].

وأمّا إشكاله من جهة النظم؛ فمرجع الإشكال إلى استثناء الظنّ من نفسه في قوله { إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّاً } فإن الاستثناء المفرّع لا يصح أن يكون مفرعًا للمفعول المطلق لانتفاء فائدة التفريع.

وللخلاص من هذا نقول، كما قال ابن هشام في مغني اللبيب: إنّ المستثنى هو الظن الموصوف بما دلّ عليه تنكيره من التحقير المشعر به التنوين، أي: إلّا ظنا ضعيفا.

ومفعولا { نَظُنُّ } محذوفان لدليل الكلام عليهما. والتقدير: إن نظن الساعة واقعة.

{ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ } يفيد تأكيد قولهم { مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّاً } وعطفه عطف مرادف، أي: للتشريك في اللفظ. والسين والتاء للمبالغة في حصول الفعل.

{ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [33]

عطف على جملة { أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ } [31]، باعتبار تقدير: فيقال لهم. أي: جمع لهم بين التوبيخ والإزعاج، فوبِّخوا بقوله تعالى { أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ } إلى آخره، وأزعجوا بظهور سيِّئات أعمالهم، أي: ظهور جزاء سيّئاتهم حين رأوا دار العذاب.

{ حَاقَ } أحاط.

{ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } يعمُّ كلّ ما كان طريق استهزاء بالإسلام؛ من أقوال وأفعال. والباء يجوز حملها على السببية وعلى تعدية الفعل إلى ما لا يتعدّى إليه، أي: العذاب.

{ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [34] ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ [35] }.

لمّا أودعوا جهنم وأحاطت بهم نودوا { الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ } إلى آخره، تأييسا لهم من العفو عنهم.

{ وَقِيلَ } بني الفعل للنائب حطًّا لهم عن رتبة أن يُصرّح باسم الله في حكاية الكلام الذي واجههم به، بناء على أن ضمير { نَنْسَاكُمْ } ضمير الجلالة وليس من قول الملائكة.

{ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ } أطلق النسيان هنا على الترك المؤبّد على سبيل المجاز المرسل، لأن النسيان يستلزم ترك الشيء المنسي في محلّه أو تركه على حالته، ويجوز أن يكون النسيان مستعارا للإهمال وعدم المبالاة.

{ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا } الكاف للتعليل، أي: جزاء نسيانكم هذا اليوم، أي إعراضكم عن الإيمان به.

اللقاء: وجدان شيئا في مكان، وهو المصادفة. يقال: لقي زيد عمرا.

{ يَوْمِكُمْ } أطلق اليوم على ما فيه من الأحداث على سبيل المجاز المرسل، لأنّه أوجز من تعداد الأهوال الحاصلة منذ البعث إلى قضاء الجزاء على الأعمال.

{ هَذَا } وصف اليوم باسم الإشارة لتمييزه أكمل تمييز تكميلا لتعريفه بالإضافة لئلا يلتبس عليهم بيوم آخر.

{ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ } عطف على { الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ } ليعلموا أنّ تركهم في النار ترك مؤبّد، فإنّ المأوى هو مسكن الشخص الذي يأوي إليه بعد أعماله، فالمعنى أنّكم قد أويتم إلى النار فأنتم باقون فيها.

{ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } تقدّم نظيره قريبا، والمقصود تخطئة زعمهم السابق أنّ الأصنام تنفعهم في الشدائد.

{ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً }

{ ذَلِكُمْ } إشارة إلى { مَأْوَاكُمْ }، والباء للسببية، أي: ذلكم المأوى بسبب اتخاذكم آيات القرآن هزؤا.

{ وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } وتغرير الحياة الدنيا إيّاهم سبب أيضا لجعل النار مأواهم

التغرير: الإطماع الباطل.

<u>معنى تغرير الحياة الدنيا إيّاهم</u>: أنّهم قاسوا أحوال الآخرة على أحوال الدنيا فظنّوا أنّ الله لا يحيي الموتى وتطرّقوا من ذلك إلى إنكار الجزاء في الآخرة على ما يُعمل في الدنيا، وغرّهم أيضا ما كانوا عليه من العزّة والمنعة فخالوه منتهى الكمال فلم يصيخوا إلى داعي الرشد وعظة النصح وأعرضوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن القرآن المرشد.

{ فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } تفريع بالفاء وهذا من تمام الكلام الذي قيل لهم، لأنّ وقوع كلمة (اليوم) في أثنائه يعين أنّه من القيل الذي يقال لهم يومئذ.

{ **لا يُخْرَجُونَ** } كان مقتضى الظاهر أن يقال: لا تخرجون، بأسلوب الخطاب مثل سابقه ولكن عُدل عنه إلى الغيبة على وجه الالتفات. ويحسّنه هنا أنّه تخييل للإعراض عنهم بعد توبيخهم وتأييسهم، وصرف بقية الإخبار عنهم إلى مخاطب آخر ينبأ ببقية أمرهم تحقيرا لهم.

الاستعتاب: الإعتاب، فالسين والتاء للمبالغة. ومعنى الإعتاب: إعطاء العتبى وهي الرضا. وهو هنا مبني للمجهول. أي: لا يستعتبهم أحد، أي: ولا يُرضون بما يسألون، وتقدّم نظيره في قوله تعالى { فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } [الروم:57].

{ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [36] وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [37] }.

الفاء لتفريع التحميد والثناء على الله، تفريعا على ما احتوت عليه السورة من ألطاف الله فيما خلق وأرشد وسخّر وأقام من نظم العدالة، والإنعام على المسلمين في الدنيا والآخرة، ومن وعيد للمعرضين واحتجاج عليهم، فلمّا كان ذلك كلّه من الله كان دالا على اتصافه بصفات العظمة والجلال وعلى إفضاله على الناس بدين الإسلام، كان حقيقا بإنشاء قصر الحمد عليه.

فيجوز أن يكون هذا الكلام مرادا منه ظاهر **الإخبار**.

ويجوز أن يكون مع ذلك مستعملا في معناه **الكنائي**، وهو أمر الناس بأن يقصروا الحمد عليه.

ويجوز أن يكون **إنشاء** حمد لله تعالى وثناء عليه.

وكل ما سبقه من آيات هذه السورة مقتض للوجوه الثلاثة، ونظيره قوله تعالى { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }[الأنعام:45].

وتقديم { **فَلِلَّهِ** } لإفادة الاختصاص، أي: الحمد مختصّ به الله تعالى، يعني الحمد الحق الكامل.

{ **رَبُّ السَّمَاوَاتِ** } إيماء إلى علة قصر الحمد على الله إخبارا وإنشاءً، تأكيدا لما اقتضته الفاء.

{ **وَرَبِّ الْأَرْضِ** } عُطف بتكرير لفظ { رَبُّ } للتنويه بشأن الربوبية، لأنّ رَبُّ السماوات والأرض يحقّ حمده على أهل السماء والأرض.

{ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** } وهم سكّان السماوات والأرض، تأكيدا لكونهم محقوقين بأن يحمدوه لأنّه خالق العوالم التي هم منتفعون بها وخالق ذواتهم فيها كذلك.

{ **وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } تعقيب للإشارة إلى أنّ استدعاءه خلقه لحمده إنّما هو لنفعهم وتزكية نفوسهم، فإنّه غني عنهم، كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ } .[الذاريات:57/56].

الكبرياء: الكبر الحقّ الذي هو كمال الصفات وكمال الوجود.

{ **الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** } لأنّ **العزّة** تشمل معاني القدرة والاختيار، و**الحكمة** تجمع معاني تمام العلم وعمومه.

وبهذه الخاتمة آذن الكلام بانتهاء السورة فهو من براعة خواتم السور.